

المرفع هم
عفا الله عنه

مقالات

العلامة الدكتور

محمد محمد الطنابجي

صفحات في التراث والتراجم واللغة والأدب

القسم الأول

دار النشر الإسلامية

المسحوق
عفا الله عنه

مقالات
العلامة الدكتور
محمود محمد الطنابجي
صفحات في التراث والتراجم واللغة والأدب
القسم الأول

صورة الغلاف يظهر فيها الجامع الأزهر
وجامعة القاهرة وقد تخرّج منهما الدكتور محمود الطناحي

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م

دار البشائر الإسلامية

للطباعة والنشر والتوزيع هاتف: ٧٠٢٨٥٧ - فاكس: ٧٠٤٩٦٣ / ٠٠٩٦١١
e-mail: bashaer@cyberia.net.lb ص.ب: ٥٩٥٥ / ١٤
بيروت - لبنان



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



شكرو تقدير

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله
وصحبه والتابعين ، وبعد :

فهذا الكتاب الذي بين يديك ، يحوي مقالات عالم أديبٍ أريبٍ
جليلٍ ، هو الدكتور محمود محمد الطناحي ، رحمه الله تعالى ؛ وهو
بريدٌ محبةٍ وتقديرٍ وإجلالٍ وإكبارٍ ، تضافت جهود أحنّةٍ له في إخراجه :

أولهم ولده البارّ ، الأخ محمد ، الذي قام بجمع هذه المقالات ؛
ثم الشيخ الألمعي محمد بن ناصر العجمي ، الذي سعى بجمعها
وطبعها ، وقَدَّم لها ؛ ثم أخوه وصفيّه العالم الأديب عبد الحميد
بسيوني ، الذي تفضّل بقراءتها تحضيراً لطبعها ؛ وأخيراً الأخ الشيخ
أمين شحرور الذي قام على تصحيحها وصنع فهارسها .

فجزى الله هؤلاء الأحنّة عن الدكتور الطناحي خيراً ، حيث أحيّوا
تراثاً كاد أن ينطوي بين صفحات المجلّات .

والله الموفّق ، ومنه العون والسّداد .

النّاشِر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير

الحمد المتفرّد بالغة ولبقاء وصلى الله على نبيه محمد سيّد الأصفياء، وخاتم الأنبياء
أما بعد :

فإنّه لما بلغني وفاة صديقنا العلامة محمود لطناحي ضاق ذريعي وقض مضجعي
وحقيق بأهل العلم أن يرضهم وفاة مثل هذا العالم المتكّن، والنابع الأديب العالم بجواهر
اللغة وآدابها، انجيز بالخطوط وكنوزها، صاحب التحقيق الذي يدرأ بحسن درايته ودبرته
التصنيف والتحريف فيما يحقق ويحرّر، كما أنّه يسطر بأمله الكريمة ويراعته العسالة
الحواشي والمقدمات الرائعة الفاتحة :

إذا نحن أثنينا عليك بصاح فانت كما نشني وفوق الذي نشني

وقد لیسر الله تعالى لي بفضلہ ومنہ هذه الأيام لقاء نخلة الأستاذ محمد محمود
الطناجي فاقترحت عليه أن يقوم بطبع جميع مقالات والده المنشورة في المجلات
والدوريات المختلفة ، وذلك لما اشتملت عليه تلك المقالات من سلاسل ذهبية
وفوائد علمية نادرة في التراث والتراجم واللغة والأدب ، فرحب بهذه الفكرة أجمل
ترحيب ، كما طلبت منه تصديرها بترجمة موجزة للعلامة الطناجي مع تصوير
ما أمكن من الرسائل المتبادلة بينه وبين بعض أعلام العصر فاستجاب لذلك أيضاً
جعله الله خير خلف خير سلف ، وقد قامت دار البشائر الإسلامية ببيروت بطباعة
هذه المقالات وهي المعروفة في الأوساط العلمية بالطباعة الأنيقة وجودة الإخراج .
أغدق الله على قبر العلامة الطناجي شأبيب الرحمة والغفران ، وألهم آله
وأصحابه الصبر والسلوان وبالله المستعان <

الكويت . البحر المحروسة

محمد بن ناصر العجمي

صفر الحثي ١٤٢١ هـ

الطناحي ورحلته مع التراث العربي^(١)

بقلم: أ. د. عبد الله حمد محارب

لم يَدُرْ بخَلْدِي وأنا أستمع إلى حديث الدكتور محمود الطناحي الحلو مع زملاء وأصدقاء اجتمعوا في منزلي أنني سوف أعود من رحلة الحج التي كنت أجهز نفسي لها، فأجد العلم والفضل وكل الصفات النبيلة تتقبَّل العزاء بوفاته.

عرفته في أواخر السبعينات أستاذاً كريماً وحافظاً متقناً ثباتاً، وقبل هذا هو واحد من حوارِي شيخنا محمود محمد شاكر، كان ملازماً له قارئاً عليه كثيراً من كتب التراث، ذكياً سريع اللمحة، مطلعاً على كتب التراث، ومتمكناً من تحقيقها، فقد كان منذ صغره معنياً بها، مشغوفاً بدراستها.

وقد التقى في مسيرة حياته عدداً كبيراً من العلماء والأساتذة المبرزين في هذا الميدان سواء من خلال عمله في دار الكتب ناسخاً للمخطوطات فيها، أو جهوده في معهد المخطوطات العربية، أو أسفاره إلى أقطار الأرض لتصوير تلك المخطوطات وفهرستها (المغرب، اليمن، تركيا، المملكة العربية السعودية)، كما صار حجة أيضاً في البصر بتاريخ الطباعة في مصر، وله فيها كتاب مطبوع، وهو حجة كذلك في فنون العربية وآدابها، حافظاً للقرآن الكريم، عارفاً وجوه قراءاته كلها، ومع كل هذا فقد كان لطيف المعشر، حلو الحديث، راوياً لطرائف عجيبة، صاحب نوادر، لا يمل منه جلسيه، وفوق هذا فقد كانت الكويت من البلاد التي أحبها، وهو لم يتسن له أن

(١) من كتاب: «محمود الطناحي: ذكرى لن تغيب»، إعداد محمد محمود الطناحي (ص ١٢٨ - ١٣٩).

يقضي فيها أكثر من شهور معدودة أستاذاً زائراً في جامعتها، وقد لفت انتباهه النظام الدقيق الذي يضبط الحياة في الكويت، والنظافة في الشوارع والأسواق.

ولقد سطر أجباء الفقيد وأصدقاؤه جملة من المقالات الممتازة حول حياته ومؤلفاته وعلمه الغزير، على أن هناك جوانب أخرى عظيمة يعرفها جميع من التقاه، سواء أكان لقاء مباشراً أم من خلال كتبه وإنتاجه العلمي الرصين.

هذه الصفات وتلك الجوانب تحتاج إلى أن تلتقط من سطور تلك الكتب والمقالات، فهي تتناثر في متون كتبه وتتلأأ في هواشمه، ومن هنا رأيت أن أحاول التقاط بعض تلك الفضائل التي كنا نعرفها في الفقيد، ومن أبرزها:

تواضعه وعلو خلقه ووفائه، وقد صرنا عن الحرص على ذكرها والإشادة بها أنه كان يمتعنا بها في حياته، أما وأنا قد افترقنا إلى حين فإن الحديث عن تلك اللمحات المحببة في شخصيته يخفف شيئاً ما من مرارة الأسى بوفاته.

فضل الرواد:

وفي مقدمة تلك الفضائل ذلك الدعاء الذي يتناثر بين عباراته عندما يذكر أساتذته ومشايخه وجهودهم وخدمتهم للعلم والتراث، كقوله عن شيخنا الأستاذ محمود شاكر: «حرس الله مهجته، أمتع الله المسلمين ببقائه، أحسن الله إليه وجزاه خير الجزاء»، ويدعو لمشايخه الآخرين كلما ذكرهم إذا كانوا من الأحياء «أطال الله في الخير بقاءهم» (مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي ص ٩٧) و«عبد السلام هارون حفظه الله» (المرجع نفسه ص ٩٩)، و«شيخنا الأستاذ أحمد راتب النفاخ أطال الله في النعمة بقاءه» (كتاب الشعر لأبي علي الفارسي ج ١ ص ٩٦).

وعندما يتحدث عن شيخنا الأستاذ محمود شاكر وجهوده في خدمة التراث يقول «وعذراً عن الإطالة فهو كلام نفيس عال لا يحذف منه شيء».

«كيف أكتب عنك أيها الشيخ الجليل؟ ومن أين أبدأ، وكيف أمضي؟ والحديث عنك إنما هو عن تاريخ هذه الأمة العربية الشريفة: عقيدة ولغة وفكر وأرجالاً، وآماداً

رحبة متطاولة، لا يقدرها إلا أنت، ولا يعرف كنهها إلا أنت، وتاريخ أمتنا حاضر بين يديك، ماثل أمام عينيك، لم يغب عنك لحظة، فماذا أنا قائل فيك؟ وماذا أنا بالغ من الكتابة عنك؟ ومعذرة ثم معذرة شيخني أبا فهر إذ أكتب عنك بهذه الوجازة التي تراها — أراك الله الخير كله، ودلّك عليه، ورغبك فيه.

ثم معذرة من بابة أخرى: وهو أن كثيراً مما ستقرأه، إن شاء الله، منتزع من كلامك، مدلول عليه بفكرك، فأنا إنما أكتب عنك بك، وأتقدم إليك بسابق فضلك وموصول علمك، وإن كنت أعتقد أن هذا لا يعتذر منه إليك، وأيضاً فإنك كنت قد شجعتني على الكتابة عنك، حين أنبأتك ما أصابني من دوار أرضاني وأسخطني يوم خرجت إلى الناس بطبعتك الجديدة من كتابك الفذ «المتنبى»، وحدثنا في الجزء الأول منه، حديثاً غريباً عجباً، عن فساد حياتنا الأدبية، وعن تفريغ عقولنا من كل ما يردنا إلى تاريخنا وأيامنا، وقلت لك يومها:

إني أريد أن أدل على ما ذكرت بما شاع في كتاباتك الأخرى، ما دق منها وما جل، وقد أذنت لي في الكتابة عنك، ويومها رأيت نفسي — وأنا من أصغر تلاميذك — قد ظفرت بما فوق المنى»، (مدخل إلى تاريخ نشر التراث ص ١٠٣).

ومن العلماء الذين كان يحرص على الدعاء لهم الأستاذ عبد السلام هارون — وهو أستاذنا أيضاً، تتلمذنا على يديه يرحمه الله في كلية دار العلوم في الفترة من ١٩٦٥م — ١٩٦٩م —، فيتحدث في معرض انتقاده لشيوع ظاهرة المختصرات لأمّهات الكتب في أيامنا هذه والتي قام بها البعض فأساءوا — بسبب ضعفهم العلمي — إلى الأصول.

ويقول عنه وبعد أن قدم بحديث عن جهود الأستاذ عبد السلام هارون في خدمة التراث: «وخلاصة ما يقال في الأستاذ عبد السلام محمد هارون: أنه لم يخط أحد في التراث سطوراً إلا ولهذا الرجل عليه منّة، وذلك أنك لا تكاد تجد قائمة مراجع ثرائية إلا وفيها كتاب من تحقيقات شيخنا، حفظه الله».

خدمة التراث :

وكل حديثه عن شيوخه والعلماء الذين عاصروهم كان يجري على هذا النمط، كالشيخ السيد صقر والشيخ محمد عبد الخالق عزيمة وغيرهما، وهو في معرض حديثه عن أساتذته كان يذكر فضل بعض العلماء الذين اجتمع معهم على مائدة التراث، كالأستاذ محمد رشاد عبد المطلب فيقول عنه (المدخل ص ٥٢ هـ ١): «كان يرحمه الله من العلماء بالمخطوطات وأماكن وجودها، وكان لا يجارى في معرفة المطبوعات وأماكن طبعها شرقاً وغرباً، والفرق بين الطباعات وعدد طباعات الكتاب المختلفة، ومن وراء ذلك كانت له صلات وثيقة بعلماء الدنيا، من عرب وعجم، كنت لصيقاً به ملازماً له عشر سنوات في معهد المخطوطات، وسافرت معه في بعثة المعهد إلى تركيا والمغرب وتعلمت منه الكثير، توفي إلى رحمة الله في غرة المحرم ١٣٩٥ هـ الموافق ١٩٧٥ م، وقد كتبت عنه كلمة غداة وفاته بمجلة الثقافة المصرية».

وهو لا ينسى كل من يسدي خدمة إلى تراث أمته فيقول عن «حسن عباس زكي»: «وقد سقت هذه الحكاية لأدل على فضل هذا الرجل (حسن عباس زكي)، ذلك الوزير الصالح، الذي أحب التراث العربي الإسلامي، حباً ملك عليه نفسه، وكان هو على رأس وزارة خطيرة - وزارة الاقتصاد المصري - معنياً كل العناية بشؤون التراث، والمشتغلين به، من علماء وناشرين، يفسح لهم في مجلسه، ويدلل لهم العقبات، ومن أياديه البيضاء نشر كتاب «الجامع الكبير» للحافظ السيوطي، الذي صدر مصوراً عن مخطوطته، وإعادة نشر كتاب «الأم» للإمام محمد بن إدريس الشافعي، إلى كتب أخرى ساهم في طبعها، أو أغرى الناشرين بطبعها، ومكتبته الخاصة تضم قدراً عظيماً من نواذر المصحف الشريف، والمخطوطات والمصورات والمطبوعات القديمة. تقبّل الله منه صالح عمله، وجعله في موازينه يوم يقوم الناس لرب العالمين» (المدخل ص ١٠٣).

ومن الملتقطات التي تتلأأ في نظرتة إلى الأوائل - رحمه الله تعالى وبرّد

مضجعه — أنه كان يحبهم ويعظمهم ويراهم سبباً في شهرة أبناء عصرنا، يقول في خاتمة مقدمته لكتاب منال الطالب في شرح طوال الغرائب لابن الأثير (ج ١ ص ٤٩):

(وغفر الله لنا، فقد جئنا إلى هذا التراث: لننال به الشهادات ونرتقي عليه إلى المناصب، ونطلب به المثالة عند الناس، ثم لم نعطه حقاً من الدرس والتأمل والاقتداء.

ورحم الله النَّصْر بن سُمَيْل، فكأنه كان يعيننا حين قال قولته العظيمة في الخليل بن أحمد، شيخ العربية، يقول النَّصْر: «لقد عاش الخليل بن أحمد في مربد من مرابد البصرة لا يجد قوت يومه، وأصحابه يأكلون بعلمه الأموال».

ويعيب على محققي التراث المرتزقين هذه الأيام حرصهم على أن يملأوا هوامشهم بما لا يتصل بالنص لتضخيم الكتاب.

وفي خضم الحديث عن العلماء والشيوخ لا ينسى ورّاقِي العصر الذين كنا نختلف إليهم نبحت في مكتباتهم عن نواذر المطبوع كالطيب وخربوش وغيرهما، ولم أكن أظن أنني سوف أجد ذكراً لهم في كتاب أو مقالة كان لهم فضل في إرشاد كاتبها إلى بعض مادتها، يقول — رحمه الله — : «وما أكثر ما وجدنا عندهم مما حفيت أقدامنا في البحث عنه في دور النشر وعند سماسرة الكتب، وفي مقدمة هؤلاء الورّاقين الشيخ علي خربوش، وزكي مجاهد، ومحمد العبادي، ومحمد الطيب، وحجازي صاحب المكتبة الحجازية بالإسكندرية وغيرهم». (المدخل ص ١٤٢).

وفاؤه وتواضعه :

أما وفاؤه فأنت تراه في مواضع كثيرة مما كتب، وهي طبيعة صاحب النفس الصافية التي لا تحمل حقداً ولا تنسى فضلاً، ويذكر من هؤلاء الذين أحسنوا إليه «الشيخ الأصولي الفقيه عبد الغني عبد الخالق الأستاذ في كلية الشريعة، محقق كتاب آداب الشافعي ومناقبه، لابن أبي حاتم الرازي، وكان صاحب غرائب وعجائب...».

وكان كثير البر بتلاميذه وأبنائه، وقد تخرج على يديه عدة من أبناء الجزيرة العربية، وبخاصة طلبة العراق، والمملكة العربية السعودية، وقد أحسن إليّ كثيراً وقرّبني من مجلسه في أول اشتغالي بالعلم، توفي عام ١٤٠٣ هـ رحمه الله رحمة واسعة» (المدخل ص ١٤٢ - ١٤٣).

وقال عن المرحوم محمد رشاد عبد المطلب: إنه «قد تعلم منه كثيراً»، وعند حديثه عن الشاعر المحقق حسن كامل الصيرفي يقول: «ولهذا الرجل فضل عليّ سايبغ» (مستقبل الثقافة العربية كتاب الهلال مايو ٩٩ ص ٥٦).

ويقول عن فترة عمله في جامعة أم القرى: «إنهم أنزلوه آنذاك منزلاً كريماً» (منال الطالب في شرح طوال الغرائب ج ١ المقدمة ص ٧، ٨، ٩)، وشرح هذا في الهامش فقال: «حيث عوملت وظيفياً تحت بند هناك يسمى «كفاءة نادرة» يعامل به الإنسان الذي أكرمه الله بشيء من العلم معاملة «العالم» لا معاملة «حامل الشهادة العليا» - لاحظ تواضعه رحمه الله - وفي ظل هذا البند كان يعامل الأساتذة: محمد متولي الشعراوي ومحمد الغزالي والسيد أحمد صقر والسيد سابق ومحمد قطب». وهذه الأسماء لعلماء عصرنا الكبار تنبئك عن مكانة فقيدنا - يرحمه الله - العلمية الكبيرة.

ثم يفيض وفاء وشهامة فيقول:

«ومن أمانة التاريخ، ومعرفة أقدار الناس أذكر هنا أصحاب الفضل في إرساء المبادئ العلمية الرفيعة: الشريف راشد الراجح، ومحمد بن سعد الرشيد...»، ثم يذكر مجموعة من القياديين الذين أرسوا هذه المبادئ...

وهو لا ينسى أن يذكر مذاكرته العلم مع زملاء له وطلاب كانوا يدرسون على يديه، ويرى في هذه المدارس والمذاكرة فائدة للعالم قبل المتعلم.

يقول: «وكانت أياماً زاكية مباركة، وقرأت فيها مع إخواني الشباب هناك شيئاً من علوم العربية، وقد أعطيتهم وأعطوني، أعطيتهم خبرة الأيام، وثمار مجالسة أهل

العلم ومشافهتهم والرواية عنهم، وأعطوني حماسة الشباب وتوقده، بل إنهم فتحوا لي أبواباً من النظر، ودلونني على فوائد من الكتب لم أكن أفق عليها لولا نظرهم ومناقشتهم، وما زلت أقول: إننا حين نعلم ونخرج أبناءنا الطلبة إنما نقرأ معهم العلم مرة أخرى، بل ربما استفدنا منهم مثل الذي استفادوه منا، ولأمر ما كان التلميذ قديماً يسمى «صاحباً» لشيخه: فأبو يوسف ومحمد صاحباً أبي حنيفة، والربيع بن سليمان المرادي صاحب الشافعي، وابن جني صاحب أبي علي الفارسي... وهلم جرّاً».

ثم لا يترك هذا الموضوع حتى يذكر في هامش الصفحة أسماء هؤلاء الشباب الذين أفادهم واستفاد منهم، ومنهم: عياد بن عيد الثبتي، سليمان بن إبراهيم العايد، عثمان بن حسين الصيني، عبد الرحمن بن سليمان العثيمين وغيرهم.

ولعل هذه الإشارة من عالمنا الجليل إلى توقيير واحتفال الجامعات السعودية بأهل العلم والحفظة والرواد، الذين ضاقت بعلمهم الواسع الشهادات الجامعية، فالتقطتهم درراً واستقطبتهم نجوماً، أثرت بهم هيئاتها التدريسية وانتفع طلابها بعلمهم العظيم، هي التفاتة مهمة وتنبيه واجب للقائمين على إدارة المؤسسات الجامعية في بلادنا العربية، فهذه السُّنة الحميدة، وهي التعيين دون الالتزام بمسميات الشهادات، أسلوب عرفته الجامعات الأجنبية قبل العربية، فاستفادت منه، وبسبب هذا النهج رأينا العقاد وعبد السلام هارون وعمر الدسوقي، وغيرهم كثيرين، رأيناهم في أروقة الجامعات يحاضرون ويناقدون ويفيدون وهم لا يحملون لقب العصر وصرعته «الدكتوراه» ولا يعبأون بها، وكان الأمر كذلك في مؤسساتنا العلمية إلى أن ابتليت بالنظام الأمريكي الفجّ، الذي جعل الطلاب يمتحنون أساتذتهم في بعض المقابلات الخارجية، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

علمه وفضله:

أما علمه وفضله فإن الحديث في هذا الجانب «سوف يغرق في بحور إحسانه»، (وهي كلمة الحسن بن رجاء في مدح أبي تمام)، وما سطره الإخوة الأفاضل

والأساتذة الكبار من محبي الفقيه في مجلات وجرائد مصر والمملكة العربية السعودية والكويت ينبثق عن مكانته العلمية ورسوخ قدمه في علوم العربية، بما لا يتأتى لأحد في هذا العصر إلا القليل، وربما لا تجد عند غيره تلك الثقافة الموسوعية التي حظي بها يرحمه الله، وتلك القراءات الثرية تتلأأ بها مؤلفاته بصورة مدهشة، فأنت عندما تقرأ ما يكتب الدكتور الطناحي تجده تجاهك يحدثك وتحديثه، ويلقي إليك بفوائد جمة تجيبك تترى، والمحب للتراث إزاء تلك الفوائد والغرائب لا يكاد يلتقط أنفاسه من نفاستها وتتابعها، ويكفيك أن الإخوة في المملكة العربية السعودية عرفوا قدره فوضعوه بإزاء الشيخ محمد متولي الشعراوي والشيخ محمد الغزالي والسيد صقر يرحمهم الله وغيرهم. كما أن فكه لطاسم أسلوب أبي علي الفارسي في كتاب «الشعر» دليل على رسوخ قدمه في تحرير النص وتحقيقه (انظر ج ١ ص ٦٣ وما بعدها).

وعالمنا الجليل يحرص على تذكيرنا دائماً بأنه: «لا يغني كتاب عن كتاب» (الموجز في مراجع التراجم ص ٢٤)، و«أن مجاز كتب التراث مجاز الكتاب الواحد»، (المرجع السابق ص ٣٥).

ولقد اخترمته المنية وقرار اختياره عضواً في مجمع اللغة العربية في سبيله للصدر، فخر المجمع بذلك ابناً باراً من أبنائه الأوفياء، رحمه الله رحمة واسعة.

وبقي فقيدنا عمره كله وفيماً لتراث أمته يزود عنه بغني الباغين، وتشكيك المستغربين، ويسوؤه ما انتشر في هذا الزمان من استهانة به وبأصول تحقيقه ودراسته، واندفاع بعضهم في إخراج الطبقات السريعة لبعض كتب التراث: لا يعبأ بصحة القراءة، ولا يضبط النص، ويستجلب التعليقات مغيراً على كتب الأئمة الأعلام، «ولا بأس من التهويل ببعض الشروح اللغوية التي تعب من المعاجم عباً، وكثيراً ما يقع في نقل هذه الشروح أخطاء فادحة، لعدم التنبه للمشارك اللفظي» كما يقول رحمه الله في (كتاب الشعر لأبي علي الفارسي، المقدمة صفحة: ج).

زينة المجالس :

وتبقى بعد كل ذلك روحه المرححة وخفة ظلّه، وتعليقاته الطريفة، فهو زينة المجالس وريحانتها، مع عزة نفس وإباء، وحرص على صيانة كرامته من كل ما يسيء إليها ولهذا فهو يصف هؤلاء الذين يتزلفون لتلاميذهم في أسلوبه الساخر الممتع قائلاً: «وإن منهم لفريقاً يتهافت على ذوي المناصب من تلاميذه، حتى إذا رأى أحدهم في مجلس طمح ببصره إليه، وأخذ يمد عنقاً ويميل رأساً، ويسدد نظراً ليريه مكانه فتلتقي العينان، فيذهب بها غنيمة باردة يحدث بها أهله وولده، فإذا أبصره في طريقه ركض خلفه حتى يكاد يتعثّر في أذياله، وشق الصفوف إليه وقد علاه البهر وغلبه النهيغ حتى يوشك أن يكتم أنفاسه، فإذا انتهى إليه ابتسم في صغار وانكسار وأخذ يذكره بتلمذته له في ثقل وغثاء:

«ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظّموه في النفوس لعظما»
(مقدمة كتاب الشعر ص ٦).

وانظر مقاله في الهلال عدد سبتمبر ٩٥ حول التصحيف والتحريف: «هذه النقطة وقضية التصحيف والتحريف»، وهو يناقش فيها الخطأ الذي جاء في امتحان اللغة العربية للثانوية العامة في بيت أحمد شوقي:

«ولم أخل من وجد عليك ورقّة إذا حل غيد أو ترحل غيد»
إذ ورد مصحفاً في السؤال بالعين المهملة، والصواب «غيد» بالغين المعجمة (الشوقيات ٢، ١١٩).

فيستهل هذه المناقشة بأن يسوق رواية طريفة حول أشهر تصحيف في التراث، وهو التصحيف الذي جعل والي المدينة في زمن سليمان بن عبد الملك يخصي مجموعة من المخنثين، بسبب تصحيف وقع في كلمة «أحص» بالحاء المهملة فصارت «إحص» بالحاء المعجمة، هؤلاء الذين خصوا معرّفون بأسمائهم، ويقال في ترجمة كل منهم: «وهو ممن خُصي بالنقطة».

وهكذا كان رحمه الله في كل ما يكتب أو يقول خفيف الظل والروح، لا يمل مجلسه، وتود لو بقي معك اليوم كله لا يفارقك.

واليوم ونحن نكتب هذه السطور نشعر بالأسى لفقد «جبل من جبال العلم» — كما وصفه أخي العزيز عبد الحميد البسيوني — حفظه الله ومتعه بالعافية.

وإذا كان الفساد قد ألقى بعاعه في هذه الأيام على حياتنا الأدبية، فإن الدهر قد لا يجود بأمثاله، وإن عزاءنا أنه لم يمت بيننا، وستبقى الذاكرة تسترجع صورته وعلمه ومواقفه النبيلة العظيمة، وسوف تخلده مآثره وكتبه وسيرته في خدمة التراث العظيم لهذه الأمة التي كرمها الله عز وجل بلغتها ودينها، ولهذا فإن الباحثين مدعوون إلى العكوف على دراسة منهجه وقراءة كتبه واستخلاص المعلومات والإشارات حول قضايا التراث المختلفة ونسخ المخطوطات الثمينة والنادرة التي نسخها أو رآها، وقبل هذا تمثل مراحل حياته التي أوصلته إلى هذه القمة العليا من العلم والفضل، والتي تصورها سيرة حياته الثرية بالتجارب، ثم الاستفادة من تلك التجارب التي صقلته، والتي سطر كثيراً منها في كتبه وهوامشه، فعليك رحمة الله يا أبا محمد، وجزاك عما قدّمت خير الجزاء الذي يجزى.



من ذكريات الدكتور الطناحي في مكة

لَمَّا عاد الدكتور محمود الطناحي من مكة المكرمة - وقد قضى فيها ما يقارب أحد عشر عاماً - كتب كلمة تفيض وفاءً ومحبة وذكرى للسنين التي قضاها فيها؛ حيث يقول في مقدمة تحقيقه لكتاب «منال الطالب» لابن الأثير (١/٧) الطبعة الثانية: «وتبقى كلمة:

لقد قلت: إِنَّ الطبعة الأولى من ذلك الكتاب قد صدرت عن مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، زادها الله تشريفاً وتكريماً ومهابة، وتلك أيامٌ عزيزة، أذكرها فتفيض النفسُ سعادةً وتحناناً، ففي عام ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م، تلقَّيتُ دعوةً علميَّةً كريمة من كلية الشريعة بمكة المكرمة، للمشاركة في إرساء قواعد مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي الذي قام في تلك الأيام ملحفاً بكلية الشريعة. وقد أنزلني القومُ آنذاك مُنزَلاً كريماً^(١).

(١) حيث عُومِلْتُ وظيفيًّا تحت بندٍ هناك يسمَّى «كفاءة نادرة» يُعامل به الإنسان الذي أكرمه الله بشيء من العلم معاملة «العالم» لا معاملة «حامل الشهادة العليا». وفي ظلِّ هذا البند كان يعامل الأساتذة: محمد متولي الشعراوي، ومحمد الغزالي، والسيد أحمد صقر، والسيد سابق، ومحمد قطب، وطائفة من كبار مشايخ الأزهر، من طبقة الفقهاء الحَفَظَةِ، منهم: محمد الصادق عرجون، ومحمد أبو شهبه، وعثمان مريزق، وسيد العقبي، ومحمد شعبان حسين، وأحمد أبو سنة، وعلي العمَّاري، ثمَّ الشيخ المُعَمَّرُ الفقيه، شيخ الشافعية في وقته، ورئيس لجنة الفتوى بالأزهر، الشيخ محمود عبد الدائم. وفي رحاب هذه الكوكبة النادرة من العلماء الأعلام، التي قلَّ أن تجتمع في مكان، تخرَّجت =

ولم يكن في تقديرى البقاء بتلك الديار المباركة أكثر من عامين أو ثلاثة،
لأعود إلى عملي بمعهد إحياء المخطوطات بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
— ومعهد المخطوطات هو بيتي وشبابي وأحلامي — ولكن شاء ربك أن تمتد الإقامة
أحد عشر عاماً، فكنت كما قال أحمد بن الحسين بن حيدر، الشاعر المعروف بابن
خراسان (٤٩٧هـ):

نزلنا على أن المقام ثلاثة فطابت لنا حتى أقمنا بها عشرة

* * *

وكان ممّا قدّر الله وقضى أن أترك مركز البحث العلمي؛ للتدريس بقسم
الدراسات العليا العربية، والإشراف على بعض الرسائل الجامعية العليا. وكانت أياماً
زاكية مباركة، قرأت فيها مع إخواني الشباب^(١) هناك شيئاً من علوم العربية، وقد
أعطيتهم وأعطوني، أعطيتهم خبرة الأيام، وثمّار مجالسة أهل العلم ومشافهتهم
والرواية عنهم، وأعطوني حماسة الشباب وتوقّده، بل إنهم فتحوا لي أبواباً من

= طائفة من الشباب السعوديين النابهين، مؤسسين تأسيساً علمياً صحيحاً.
ومن أمانة التاريخ، ومعرفة أقدار الناس أذكر هنا أصحاب الفضل في إرساء هذه المبادئ
العلمية الرفيعة: الشريف راشد الراجح، ومحمد بن سعد الرشيد، وناصر بن سعد الرشيد،
وعليّان بن محمد الحازمي، وعبد الله بن سليمان الجربوع، وحسين حامد حسن، وحسن
محمد باجودة. فهؤلاء هم الذين سَعَوْا إلى العلماء في بيوتهم، وأحلّوهم دار الكرامة، ولم
يتغيّروا عليهم بطول المكث والإقامة.

(١) أذكر منهم: عياد بن عيد الثبيتي، وسليمان بن إبراهيم العايد، ومحمد بن حمود الدعجاني،
وعثمان بن حسين الصيني، وحماد بن محمد الشمالي، وصالح الغامدي، إلى شباب آخرين،
لم أشرف عليهم، ولكنني سعدت بمذاكرتهم ومجالستهم، ومناقشة بعضهم في رسائلهم
الجامعية، منهم: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، وسعد بن حمدان الغامدي، وحمد
الزايدي، وعبد الله القرني، ومحمد العمري، ومحسن العميري، والشريف عبد الله الحسيني
البركاتي — شفاه الله — ، ومحمد بن مريسي الحارثي، وعبد الله العبادي، سقى الله أيامهم
جميعاً بالخير.

النظر، ودلّوني على فوائد في الكتب، لم أكن أقف عليها لولا نظرهم ومفاتشتهم، ولا زلت أقول: إننا حين نعلّم ونخرّج أبناءنا الطلبة إنما نقرأ معهم العلم مرّة أخرى، بل ربّما استفدنا منهم مثل الذي استفادوه منّا، ولأمرٍ ما كان التلميذ قديماً يسمّى «صاحباً» لشيخه: فأبو يوسف ومحمد صاحباً أبي حنيفة، والربيع بن سليمان المرادي صاحب الشافعي، وابن جني صاحب أبي عليّ الفارسيّ... وهلمّ جرّاً.

وهكذا مضت أيامي مع هؤلاء الأحباب، فقضيت معهم وبهم أحلى الأوقات، وسعدت بأكرم جوار، ونعمتُ بأرحب دار، ولولا أكبادنا التي تمشي على الأرض، لَمَا كان لي عن هذه الديار مذهبٌ ولا مُحوّل، ولا زلت مع تطاول الأيام وكُرُور الليالي أجْدُ لَدَعِ تلك الدمعة السّخينة التي تحدّرت من عيني ساعة غادرت مكة، وأنا أنشد قولَ الشريف الرضيّ:

وتلفّئت عيني فمُذْ خَفِيَتْ عَنِّي الطُّلُولُ تَلَفَّتِ الْقَلْبُ

وما برح القلبُ يتلفّت، وما زالت العين تشّاق حتى يأذن الله بقاء.

اللَّهُمَّ اجزِ إخواننا هؤلاء خيرَ الجزاء، واربطْ على قلوبهم، واجعلهم موصولين بالعلم، بارّين به، حافظين لأمانته...».



السيرة الذاتية

للأستاذ الدكتور محمود محمد الطناحي

- * وُلد عام ١٩٣٥م بمحافظة المنوفية – جمهورية مصر العربية .
- * انتقل إلى القاهرة في الثامنة من عمره .
- * أتم حفظ القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم في الثالثة عشرة من عمره .
- * التحق بمعهد القاهرة الديني بالأزهر الشريف ، وحصل على الشهادة الابتدائية عام ١٩٥٣م ، والشهادة الثانوية عام ١٩٥٨م .
- * التحق بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة – وحصل على شهادة الليسانس في علوم اللغة العربية والشريعة الإسلامية عام ١٩٦٢م .
- * حصل من الكلية نفسها على شهادة الماجستير (قسم النحو والصرف والعروض) عام ١٩٧٢م بتقدير «ممتاز» ، وكان موضوع أطروحته : (ابن معطي وآراؤه النحوية ، مع تحقيق كتابه : الفصول الخمسون) .
- * ومن كلية دار العلوم أيضاً حصل على شهادة الدكتوراه (قسم النحو والصرف والعروض) عام ١٩٧٨م بمرتبة الشرف الأولى . وكان موضوع أطروحته : (ابن الشجري وآراؤه النحوية ، مع تحقيق الجزء الأول من كتابه : الأمالي النحوية) .
- * عمل عقب تخرجه عام ١٩٦٣م معيداً بمعهد الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة . وفي عام ١٩٦٥م ترك الجامعة الأمريكية ، وعُيِّن خبيراً بمعهد

المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - اليونسكو العربية)، وظل بمعهد المخطوطات إلى أواخر عام ١٩٧٨ م، حيث انتدب أستاذاً مشاركاً بقسم الدراسات العليا العربية بكلية الشريعة - جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة - كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى الآن. ثم استقال منها بنهاية العام الدراسي ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٩ م.

* عين أستاذاً مساعداً بكلية الدراسات العربية والإسلامية بجامعة القاهرة - فرع الفيوم، في ٢٧/٣/١٩٩١ م، ثم رُقّي أستاذاً بتاريخ ٣١/٥/١٩٩٥ م، وعمل أستاذاً بقسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب - جامعة حلوان.

* عمل خبيراً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، وبمركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية، وعضواً بالهيئة المشتركة لخدمة التراث العربي (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - معهد إحياء المخطوطات العربية).

النشاط العلمي :

* اتصل بالمخطوطات العربية، منذ أن كان طالباً بالسنة الأولى بكلية دار العلوم: ناسخاً ومفهرساً ومحققاً، فنسخ كثيراً من المخطوطات المشرقية والمغربية، وأعان بعض المستشرقين الذين نزلوا مصر.

* شارك في نشاط معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، على امتداد ثلاثة عشر عاماً، وخرج عضواً في بعثاته لدراسة وتصوير المخطوطات. ومن البلدان التي زارها وفهرس نوادر مخطوطاتها:

* تركيا عام ١٩٧٠ م.

* المغرب الأقصى، مرتين - عام ١٩٧٢ م، وعام ١٩٧٥ م.

* المملكة العربية السعودية عام ١٩٧٣ م.

* جمهورية اليمن الشمالية عام ١٩٧٤ م.

- * وقد اكتشف في هذه البلدان بعض المخطوطات المجهولة التي لم يكن يعلم الناس عنها شيئاً، والتي لم تدرج في فهارس المكتبات.
- * شارك في ندوة «أبناء الأثير» التي عقدتها جامعة الموصل بالجمهورية العراقية (مارس ١٩٨٢م)، واشترك ببحث عنوانه: «مجد الدين بن الأثير في علم غريب الحديث».
- * شارك وحاضر في الندوات التي عقدتها مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، (أحمد زكي يماني) لدراسة وفهرسة المخطوطات الإسلامية: القاهرة - يناير ١٩٩٤م، إستانبول - سبتمبر ١٩٩٤م، لندن - يونيو ١٩٩٥م.
- * شارك في ندوة «تاريخ الطباعة العربية في القرن التاسع عشر» التي أقامها مركز جمعة الماجد للتراث والثقافة بدبي - أكتوبر ١٩٩٥م.
- * شارك في ندوة «اللغة العربية المعاصرة في مصر»، التي أقامها المجلس الأعلى للثقافة، إبريل ١٩٩٧م.
- * شارك في ندوة «علي الجارم»، التي أقامها المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٨م.
- * شارك في تدقيق وتحرير (مدخل قاموس القرآن الكريم) الذي أصدرته مؤسسة الكويت للتقدم العلمي - ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- * حرر مادة «أحمد محمد شاكر» في دائرة المعارف الإسلامية التي تصدر في إستانبول باللغة التركية.
- * نشر عدة مقالات بمجلات الرسالة والهلal والكتاب العربي والمجلة والثقافة والشعر بالقاهرة. ومجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ودمشق، والعربي بالكويت، ودعوة الحق بالمغرب، وكلية اللغة بمكة المكرمة.
- * شارك في ندوة «المحافظة على كنوز التراث الإسلامي» التي عقدت على هامش الدورة الثالثة للمجلس التنفيذي لمؤتمر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. عمان - الأردن - سبتمبر ١٩٩٦م.

* شارك في تقييم برامج كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي – الإمارات العربية المتحدة – نوفمبر ١٩٩٦ م.

الإنتاج العلمي للأستاذ الدكتور محمود محمد الطناحي (من سنة ١٩٦٣ م إلى سنة ١٩٩٨ م):

التحقيقات:

- ١ – النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين بن الأثير، المتوفى سنة ٦٠٦ هـ (خمسة أجزاء: الثلاثة الأولى بالاشتراك، والرابع والخامس بالانفراد) مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٨٣ هـ = ١٩٦٣ م^(١).
- ٢ – طبقات الشافعية الكبرى، لابن السبكي، المتوفى سنة ٧٧١ هـ. (عشرة أجزاء بالاشتراك) الطبعة الأولى بمطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٨٣ هـ = ١٩٦٤ م، والطبعة الثانية بدار هجر، القاهرة ١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م.
- ٣ – العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (مكة المكرمة)، لتقي الدين الفاسي، المتوفى سنة ٨٣٢ هـ (الجزء الثامن)، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٩ م.
- ٤ – الغريبين – غريبي القرآن والحديث – ، لأبي عبيد الهروي، المتوفى سنة ٤٠١ هـ (الجزء الأول)، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٣٩٠ هـ = ١٩٧٠ م.
- ٥ – الفصول الخمسون – في النحو – ، لابن معطي، المتوفى سنة ٦٢٨ هـ – وهو رسالة الماجستير بكلية دار العلوم – مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٩٦ هـ = ١٩٧٦ م.
- ٦ – تاج العروس، شرح القاموس، للمرئضي الزبيدي، المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ، (الجزء السادس عشر) وزارة الإعلام بالكويت ١٣٩٦ هـ = ١٩٧٦ م.

(١) هذا التاريخ إنما هو للجزء الأول، وكذلك في الذي بعده.

- ٧ - الجزء الثامن والعشرون منه، الكويت ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.
- ٨ - منال الطالب في شرح طوال الغرائب، لمجد الدين بن الأثير، المتوفى سنة ٦٠٦هـ، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي - جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م - وقد حصل هذا الكتاب على الجائزة الأولى في تحقيق التراث بمجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- ٩ - أرجوزة قديمة في النحو، للشكري، المتوفى سنة ٣٧٠هـ (نُشرت ضمن: دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أبي فهر محمود محمد شاكر، بمناسبة بلوغه السبعين) مطبعة المدني، القاهرة ١٤٠٣هـ = ١٩٨٢م.
- ١٠ - كتاب الشعر - أو شرح الأبيات المشككة الإعراب - ، لأبي علي الفارسي، المتوفى سنة ٣٧٧هـ (جزءان) مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.
- ١١ - أمالي ابن الشجري، المتوفى سنة ٥٤٢هـ (ثلاثة أجزاء، اشتملت على (٨٤) مجلساً، منها (٤٩) مجلساً، حصل بها المحقق على شهادة «الدكتوراه» من كلية دار العلوم، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م.
- ١٢ - ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات، لأبي عبد الرحمن السلمي، المتوفى سنة ١٤١٢هـ، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.
- ١٣ - أعمار الأعيان، لابن الجوزي، المتوفى سنة ٥٩٧هـ، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.

المؤلفات:

- ١٤ - مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
- ١٥ - عن التصحيف والتحريف - محاضرة نشرت بآخر الكتاب السابق.
- ١٦ - الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم - مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤٠٦هـ = ١٩٨٥م.

- ١٧- نبذة في تاريخ الطب العربي - مقدمة لكتاب الطب النبوي، لابن قيم الجوزية، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م.
- ١٨- التنبيه على خطأ «الغريبيين» للحافظ أبي الفضل بن ناصر، مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي - مكة المكرمة ١٤٠٠هـ = ١٩٧٩م.
- ١٩- فهارس كتاب «غريب الحديث»، لأبي عبيد القاسم بن سلام، المتوفى سنة ٢٢٤هـ - مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي - مكة المكرمة ١٤٠١هـ = ١٩٨٠م.
- ٢٠- فهارس كتاب «الأصول في النحو»، لابن السراج، المتوفى سنة ٣١٦هـ، مكتبة الخانجي القاهرة ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.
- ٢١- فهرس الأشعار لكتاب «ديوان المعاني» لأبي هلال العسكري، المتوفى نحو سنة ٣٩٥هـ، مجلة معهد المخطوطات بالقاهرة، المجلدان ٣٧، ٣٨، ١٣١٣هـ، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م، ١٩٩٤م.
- ٢٢- ديوان المعاني لأبي هلال العسكري، وشيء من التحليل والدراسة العروضية المجلد ٦٦، ج ١، ٣، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤١٠هـ، ١٤١٢هـ = ١٩٩٠م، ١٩٩١م.
- ٢٣- مجد الدين بن الأثير وجهوده في علم غريب الحديث - بحوث ندوة أبناء الأثير - جامعة الموصل بالعراق - كلية الآداب ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.
- ٢٤- المتنبي، للأستاذ/ محمود محمد شاكر، تقديم - موسوعة عصر التنوير (أهم مائة كتاب في مائة عام) دار الهلال - الجزء الأول، القاهرة ١٩٩٢م.
- ٢٥- الرسالة، للشافعي، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، تقديم، موسوعة عصر التنوير، الجزء الثاني، القاهرة ١٩٩٣م.
- ٢٦- من إعجاز القرآن - العلم الأعجمي في القرآن مفسراً بالقرآن للأستاذ محمود رؤوف أبو سعدة، تقديم، دار الهلال، القاهرة ١٩٩٣م.

٢٧- جموع التفسير والعرف اللغوي، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة
- المجلد ٧١ - ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م.

٢٨- شرح شواهد الإيضاح، لأبي علي الفارسي، تأليف ابن بري المصري،
المتوفى سنة ٥٨٢هـ - عرض ونقد، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة،
المجلد ٧٢ - ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

٢٩- كتاب الفرق - بين صفات الإنسان وصفات الحيوان - ، لثابت بن أبي
ثابت، من علماء القرن الثالث، عرض لنشرته، وتعريف بمخطوطة ثانية له
اكتشفها الدارس بخزانة القرويين بفاس، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق،
المجلد ٥١، ج ٢، ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م.

٣٠- الفهرس الوصفي لبعض نواذر المخطوطات بالمكتبة المركزية بجامعة الإمام
محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

٣١- الكتاب المطبوع بمصر في القرن التاسع عشر، كتاب الهلال - أغسطس ١٩٩٦م
هذا إلى (٤٠) أربعين مقالة بمجلة الهلال المصرية، في قضايا العربية.

٣٢- قضية إنقاذ المخطوطات - ما تحقق وما لم يتحقق، مجلة معهد المخطوطات
بالقاهرة ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م.

٣٣- كتاب صنعة الشعر، لأبي سعيد السيرافي، تحقيق نسبه ونقد نشرته، مجلة
معهد المخطوطات ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.

٣٤- كتاب الردة والفتوح، لسيف بن عمر التميمي، عرض ونقد، الكتاب التذكاري
للأستاذ الدكتور/ ناصر الدين الأسد، الأردن ١٩٩٧م. ونشر باسم: قطوف
أدبية مهداة إلى ناصر الدين الأسد.

٣٥- مراجعة كتاب أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفين، لأبي الخطاب
عمر بن الحسن بن دحية الكلبي، المتوفى سنة ٦٦٣هـ = ١٢٣٥م. دار الغرب
الإسلامي، بيروت، ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م.

الأعمال الوظيفية :

- | الجهة | المدة |
|---|---------------------------|
| ١ — معهد الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة | ستتان |
| ٢ — المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
(معهد المخطوطات) | أربع عشرة سنة . |
| ٣ — كلية اللغة العربية — جامعة أم القرى —
مكة المكرمة | إحدى عشرة سنة . |
| ٤ — أستاذ بقسم اللغة العربية وآدابها —
بكلية الآداب جامعة حلوان | إلى حين وفاته رحمه الله . |
| ٥ — خبير بمجمع اللغة العربية بالقاهرة . | |
| ٦ — عضو بمركز تحقيق التراث بالهيئة العامة لدار الكتب المصرية . | |
| ٧ — عضو بالهيئة المشتركة لخدمة التراث العربي (المنظمة العربية للتربية والثقافة
والعلوم — معهد إحياء المخطوطات العربية) . | |
| انتقل إلى جوار ربه صباح الثلاثاء ٦ من ذي الحجة ١٤١٩هـ، الموافق ٢٣
مارس ١٩٩٩م . | |



نماذج من
رسائل العلماء إليه
ومن خطّه رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

دشقي في ٥ جمادى الآخرة ١٢٩٢

٥ قنوز ١٩٧٣

الأخ المفصل الأستاذ محمود :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وصل إليّ - أهن الله جزيلك - الجزء الأول من كتابه «الغريبين» . ولم أفاجا بما رأيت فيه من
علام الجهد والعناية والبريق ، فمن قبل حارأيت نحو ذلك في «النواية» . وإني لأمن أن نرى نيا يستقبل
الكثير الطيب من أعمالك . إن شاء الله .

كان الأخ الأستاذ علي شاكر أخبرني أنك على نية أن تزور دمشق متقبلك من المدينة ، وقد أسفنت
عندما بلغني أنك أوجأت ذلك إلى حين آخر . أرجو ألا يكون بعيدا .

وقد أغرا في الأخ الأستاذ علي . ما حدثني منك أن ألبأ إليك في حاجة كنت لي . وذلك في أحد مقالة
لمجلة المجمع عن كتابه «إعجاب القرآن المنسوب للزجاج» . وقد صرح عندي بأدلة لا تعلق بها شبهة أن
مؤلف الكتاب أبو الحسن علي بن الحسين الأصغر في الباقوي المعروف بـ «جامع العلوم» . لأن كان المعهد قد
أصاب شيئا من مؤلفات الرجل وصورها - عند كتابه «الكشف في نكت المعاني والمعارف» وعلل القرارات التي
كان المعهد قد صورها قد جأ - ورأيت . أن تكتب إلي بذلك ففعلت مشكورا إن شاء الله .

وسلامي إلى من قبلكم من الصعب : الأستاذ علي ، والأستاذ محمد مكي الخولي ، والأستاذ رشاد .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محمد راتب النفاخ
النفاخ

رسالة من العلامة أحمد راتب النفاخ إليه بخطه

بسم الله الرحمن الرحيم

دمشق في ٤ ربيع الأول ١٣٩٤

٢٧ آذار ١٩٧٤

أخي الأستاذ محمود :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

تعددت بي عن الكتابة إليك قبل اليوم لعدم رضاءك أنال الله تعالى العزم منع . ولكني لا أدع أن
لضعف العزيمة والاستسلام للكل ظاني ذلك . ومثلك من عذر فاعلم . وكنت أنفذت إليك مع بعض
الصحب أرتجى أن تكبر لي صورة عن «الكشف» لجامع العلوم ، فإني في أسن الحاجة إليه ثم ما وجدت
به في مقالتي الأولى في «إعجاب القرآن» من التعريف به بعد أن صرح عندي أن الجامع هذا خصوصاً صلبه .
وقد أدى على صاحبنا الذي كان وإفاني بجهوده كرم عليه . إلا أن يستردنشته عند ما عرفت أنني لا
سقط لي الكتاب . ولا فهم واني أهدت ترتيبها لضرب عند أمانة . وفي الكتاب أشياء كثيرة لم استوف
تفهم ولا بد من التعريف بها صلبه . هذا إلى أنه ظهري وأنا استعرض الكتاب مشا به كثيرة ما بينه وبين
«غريب القرآن» طوبى البركات بن الأندلسي الذي حققه (!) له عبد الحميد ، وأنا استبعد أن يكون
زله أمر عارضاً . ويصلب على ظني أن أبا البركات وقف على كتاب «الجامع» - ومنه فمبينة أشياء قد -
وانتأ عليه . بل إن في كتابه أشياء تفرق تكون مسرفة من كتاب ذاك . إلا في أرجاء لا تتفرع من
إجمال ما طبعته إليك إذا ما كان فيه عسر . فإن فيها كنت تغلته عن «الكشف» ما بين من التورث بالرجل
تعريفاً مقارباً .

هذا . وكنت أنفذت إليك مع بعض مؤيدي جامعة اللاذقية نسخة من مقالتي الأولى لتدفع إلى الأستاذ
لدي بالأمر عارضاً . ومن حق الرجل أن يفت على ما تبنت ، وقد يعين له أن يور ما ذهب إليه . وإذا كان
قد سمي لي رأيي في ذلك أو قد عرفت بعضاً على شيء من أخبارها تدلي أو ترجمه له في خبر ما ذكرته من مصادر
ورأيت أن تلعب إلي بذلك فقلت وشروط إن شاء الله . واني لا أستعملك إلا تدع شيئاً مما تتوقع أخيه
تأخر على تقديمه إليه . إلا كل فتني بعض غير ما صرح .

والله أخيراً . والى من قبله عن الصحب . ولا سيما شيئاً أبو فرح - أطيع التقي . والسلام عليكم ورحمة الله .

أحمد التقي
السناء

رسالة من العلامة النفاخ له أيضاً

الكويت في ١٤/١/٦٧

عزيزي اذني الحبيب الأستاذ محمود الطناحي

تحية وشوقا ، وإننا نلطف الوفاء حفظ الله ، ثم تحية مني للجميع
البدوي في جامعة الدول العربية . وهناك ألقى عليك حمد وتقدير ،
راجيا الاستمرار ، فانت أكلت لحمك وأبنتك أهلا للوضع !
ومنت ، لأنني أحبك في أسبوع الفلك المحبوب وأبنتك أحسن الكاتبة .
إليه بعلم المسائل لتجملها في منظومة ابنه منظومة الساسه ، وهي برقم ٤٦
في الجزء السادس وما بعد ، على أنه تنقل إلى الصورة واضحة من أصلها من حيث
الفنط والإشمال في الحروف والحركات . وقد ذكرت لك المادة ملك الساسه
والصفحة والسطر من طبعة بولارد ، لتيسر لك أنه تقابل على الخطوط .
و شكر مقدما . وتيسرا للرد أرجو إعادة بحث المسائل إلى مكتوب
تحتل مقابلا بالفنط موافقة أو خلافا ، بدليل المصنوعة . وعلى
أن يصل إلى الرد مبكرا لأنك من نشر بحث التحقيقات في مجلة إبيانه
التي تصدرها رابطة الأدباء الكويتية بالكويت . وقد نشرت المجلة في عدد
هذا الشهر (أكتوبر) عدونا لاستئناف نشر بقية التحقيقات التي بدأت
في الأعداد ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٧ من مجلة المجلة مع الإلحاح لفرطني
على حبه أجد الإلحاح لكنا من مجلة إبيانه ، والترحيب بعودته الذي يري أنه
أرسل إليه صورت من مرفقة بهذا .

وإنني إذا كررت شكر أرجو ألا تكون قد أثقلت عليك ، ومن
التيمة والود بعودته ،
في حبك

رسالة من الأستاذ عبد السلام هارون بخطه إلى الطناحي

خاتمة ، أنا أكرر لك بشكر يا محمود على وفائك الذي
 أدخلني في باب التاريخ الذي قد دخله لم يخرج منه ، وعبرًا على
 عادي في التجميع والتحقيق ، أذكر لك سببي في التحقيق لجميع ما
 ذكرت من هؤلاء الأربعة الأقسام حتى شئني لمغفورة الشيخ أحمد شاذلي
 فاني قد عرفت قبله جزئًا من أدب الكاتب لونه قتيبة الذي طبعه
 محب الدين الخطيب وأنا في سنة الأولى من تجميعه دار العلوم سنة ١٩٢٤
 كما عرفت أجزاء الخزانة الأربعة على المخطوط بدوام سنة ١٩٢٨
 التي كتبها محب الدين الخطيب في داخل مقدمته " فمنهم أحسن الخبيبات اللبيب
 على السلام هارون " قبل أنه يظهر أي أثر لهؤلاء الأربعة .

وعلى أنه تذكره أنت والدة كريمة والأخبار على خير ما أتمنى
 حبيتي ورحمة أسرتي إليه وإلى أمته ، وعلى أنه ألقاك كثيرًا في
 جازنتك الحقة لا كما فعلت من قبل ، وحفظك الله وزاد
 توفيقًا ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته
 المحب المخلص
 عبد السلام

١٩٨١ / ٣ / ١٦

الورقة الأخيرة من رسالة أخرى من عبد السلام هارون بخطه

بسم الله الرحمن الرحيم

Organisation Islamique
pour l'Education, les Sciences et la Culture
(ISESCO)

Directeur Général



Islamic Educational Scientific
and Cultural Organization
(ISESCO)

Director General

المدير العام

الرباط في: 13 يوليو 1995

الرقم: مدع/5. 02634

14 صفر 1416

الأستاذ الدكتور محمود الطناحي
القاهرة - جمهورية مصر العربية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد،

قرأت بتركيز شديد واهتمام كبير، مقالكم القيم الذي نشر لكم في عدد شهر يوليو 1995م من مجلة الهلال، تحت عنوان: [الكتاب والتواصل العلمي]، والذي تفضلتم فيه -مشكورين- بالإشادة بجهود المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، وبالثناء على شخصي، في عبارات تفيض صفاء وإخاء، وتعرب عما تنطوي عليه نفوسكم من حب للثقافة العربية الإسلامية وولاء، وتعكس ما عهد في بحوثكم وكتاباتهم من تعلق بالتراث العربي الإسلامي وصدق انتماء.

ولقد تأثرت بالغ التأثر بالحقارة والاهتمام اللذين أبديتموهما في مقالكم الكريم، وبحرصكم على التعريف بالمنظمة الإسلامية وبمطبوعاتها.

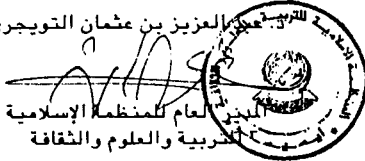
وإن المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ومنذ أن توليت مسؤوليتها في 30 من شهر نوفمبر سنة 1991م، وهي تسير في هذا الاتجاه الصحيح، وتعمل من أجل خدمة تراث الأمة، والنهوض بثقافتها، ونشر لغتها، ومد إشعاع الحضارة الإسلامية إلى مختلف الأفاق.

وإن من شأن مقالكم الممتاز هذا، أن يقوي فينا العزم، ويحفزنا على المزيد من العمل والبذل والعطاء، نهوضاً بمسؤولياتنا، وقياماً بواجبنا تجاه العالم الإسلامي.

وإنني لأمل أن أدعوكم في أقرب فرصة تسنح، للمشاركة بعلمكم وقلمكم، في أحد الأنشطة التي ستقوم بها المنظمة الإسلامية، لاستفيد من سعة خبرتكم وعمق درايتكم في أحد المجالات التي أنتم مبرزون فيها.

وفكم الله، وسدد خطاكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عبد العزيز بن عثمان التويجري



Hay Mesk Al-Iail - Avenue Attine - Hay Ryad - Rabat - Maroc

B.P. : 2275 - 10104 - Tél. : 77.24.33/67.22.94

Tlx : 326 45/318 44 M. - Fax : 77.74.59/77.20.58

حي مسك الليل - شارع قتين - حي الرياض - الرباط - المغرب

ص.ب. : 2275 - 10104 - الهاتف : 77-24-33 - 67-22-94

تلکس : 328 45 - 318 44 M - فاكس : 77-20-58/77-74-59

رسالة من الدكتور عبد العزيز التويجري إليه

الرقم : ٥٢/١١٩٠٧
التاريخ : ١٤/١١/١٤٠٩ هـ
الموافق : ١٧/٦/١٩٨٩ م



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
مكة المكرمة
كلية اللغة العربية

المقرر

سعادة الدكتور محمود محمد الطناحى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . وبعد :-

فبنا على رغبتم في انهاء مقدم مع كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى ، بطيب لى أن أقدم
لشخصكم الكريم خالص الشكر والتقدير لما قمتم به من جهود طيبة لخدمة العلم وطلاب في الفترة
التي قضيتها استاذاً مشاركاً بكلية اللغة العربية في الفترة من ١٣/١٠/١٣٩٨ إلى
٣٠/١٢/١٤٠٩ هـ . لقد كنتم أيها الزميل العزيز مثالا متميزا لتحمل المسئولية ، فقد
أسهمت خلال هذه السنوات التي مرت كالطيف في تطوير المناهج التعليمية بالكلية سواً فيما
يخص برامج الدراسات الجامعية أو فيما يخص برامج الدراسات العليا العربية .
أما جهودكم في الاشراف على طلاب وطالبات الدراسات العليا في مرحلتى الماجستير والدكتوراه
حتى تخرج على يديكم مجموعة ممتازة من زملائنا الفضلاء فهي أكبر من أن يسطرها قلبي في هذا
الخطاب .

أرجو من الله العليّ القدير أن يجعل ذلك كله في موازين أعمالكم وأن يديم عليكم وأسر الصحة
والعافية وأن يمدكم بعونه وتوفيقه وإلى أن نسعد بصحبكم العلمية والعملية بجامعة أم القرى
أستودع الله دينكم وأمانتكم وغوالب أعمالكم .
وتقبلوا خالص التحية وأافر الاثنان . . .

أخوكم
عميد كلية اللغة العربية
د . محمد بن مريسي الحارثي

سنال ٥٥٧٤٦٤٤
ص. ب ٣٧١٥

برقيا جامعة أم القرى مكة
تلكس عربى ٤٤٠٠٤١ م لك جامعة

خطاب من عميد كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم
الشيخ الفاضل الكريم الأستاذ أحمد العلانة
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد :
فقد تلت بكتابنا اليدين كتابك الكريم الذي أسعدني كل العادة ، إذ
ردت إليّ ثقة مفقودة في أبناء هذا الزمان ، فقد كنت على يأس من أن
أرى أحداً يحفل بهذه الطائفة الجليلة من علمائنا الأفاضل ، فيفرد لهم صناعات
تأتي على تراجمهم ، وتبقى لهم ذكراً في العالمين . وقد زاد من سعادتني حرصك
على أنه تمسك بالجليل الذي مدة "علم الأعلام" الأستاذ غير الدين الزركلي ،
بتردد الله مضجعه ، ولقد كتبت عنه هذا الرجل العظيم كلمة يسيرة في رسالة إلى
صغيرة ، سميت "الموجز في مراجع التراجم والبلدان" .
انه تراثنا وما تركه أهل العلم فينا يتعرض الآن لإهمال شديد ، ليس من أعدائه
لفقط ، ولكنه يأتي أيضاً من العالمين على إذاعته ونشره ، أدلكم الذين
يزعمون أنهم محققون ، وإنما هم مفردون ، ينشرون الكتب ناقصة ومحرقة ومزلة
عنه جهلته ، ولذلت أسير إلى هذا العيب في كل ما أكتب - قياماً بحجة العلم والتصح
فيه - ولعل أقرب ما تراه في تقديمي لكتاب الشعر ، في تلك الكلمة التي سميت :
(ما ذا يلقي الأكاير من الأصاغر) . وقد ظن بعض الناس ؛ غفلة أو سوء ظن
أنني أردت بالأكاير نفسي ، وبالأصاغر الدكتور حسنة هنادي ، الذي أساء
إساءة بالغة في نشر الكتاب . ويعلم الله أنني ما قصدت إلى هذا ، فأنا عند
نفسى أهويه من هذا الكثير . وإنما أردت بالأكاير : أهل العلم من الأولين الذين
شقوا في تأليف هذا التراث وجمعه ، وبالأصاغر تلك الطائفة من محققين هذا
الزمان الذين يجترؤون فيفردون . وإلى الله المشتكى .

الورقة الأولى من رسالة بخط الطناحي إلى أحمد العلانة ، صاحب كتاب «ذيل الأعلام»

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي العزيز النبيل الدكتور عبد الله الغنيم حفظه الله وبارك فيه
بحية عاطفة

وبعد
فبعد أنه انتهت المخالجات الرسمية والذسماء الثلاثية (عبد الله يوسف الغنيم)
و (محمد محمد الطنحجي)

إلى الحبيب أقص ما يقدره أخ لأخيه من مشاعر الود والحب
والدعاء . (أما الثناء والرجاء فلو كان لهما إله شاء الله بين الأشقاء)

بعد غياب أحد عشر عاماً عدت إلى القاهرة فوجدت أشياء كثيرة قد تغيرت
لعل من أبرزها غياب الأحياء وبخاصة جيل أساتذتنا الكبار (أبو الفضل إبراهيم
وصه كامل الصيرفي وعبد السلام فاروق) رحمهم الله أجمعين ولأننا واحة خضرة
نستظل بفيئله من هجير الحياة.

أما عالم المخطلات فقد حدثت فيه غرائب وعجائب، نال الله العافية
والسلام، ولعلنا نستطيع أنه نفعل شيئاً.

تحياتي إلى الأسرة الكبيرة والصغيرة، والأصدقاء جميعاً، وإله كماله ليرد
من تخصيص فعليل بمزدونه الغنيم وعبد الحميد البيرني. ثم لانس الزميل القديم
الاستاذ الفاضل عصام الشنطي (أبو حاتم)

واسلم ودم أخاً باراً نبيلاً .

وسلامه لك وسلام عليك

من الداخة لك

محمد الطنحجي

رسالة منه بخطه إلى الدكتور عبد الله يوسف الغنيم

وفاء العرفاء لأئمة الفضلاء

للإمام الحافظ أبي حاتم محمد بن حَبَّان البُسْتِي
المتوفى سنة ٣٤٤ من الهجرة وهو في عشر الثمانين
رحمه الله

صَحَّاحَ اللَّهِ بِهِ عَلَيَّ
فِي الْمَدِينَةِ (الْمُتَوَرِّدَةِ عَلَى
سَائِرِ أَفْضَلِ الصَّلَاةِ
وَأَزَلَى السَّلَامِ

ربيع الأنور ١٢٩٢

أبريل ١٩٧٢

محمود محمد الزحبي

بتحقيق وتصحيح

محمد حامد الفقي

رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية

١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م

دار الحديث

٧٩٠١٧ ت

نموذج من تملكه للكتب

جابر سليمان الشوي

إلى استاذنا الكريم
سعادة الدكتور محمود الطنحني
مع خالص حبي وتقديرى

أخوكم
عابد المشوي
عالم
١٦/١٠/١١١هـ

فهرتة المخطوطات العربية

مكتبة المنار
الأردن - الشارقة

نموذج من أحد الكتب المهداة إليه

أَعْمَالُ الْأَعْيَانِ

لِلْأَبْنِ الْجَوَازِي

إلى أخي الكريم الشيخ
محمد بن ناصر العيسى
زاده الله علماً ورحمة
مطبعة
الكويت في

جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد

١٣٨٤/٤/٩

(٥١٠ هـ - ٥٩٧ هـ)

تحقيق

الدكتور محمود محمد الطناحي

الناشر مكتبة النخاعي بالناصرة

نموذج من خطه في الإهداء

المرفع هم
عفا الله عنه

مقالات

العلامة الدكتور

محمود محمد الطنجاوي

صفحات في التراث والتراجم واللغة والأدب

القسم الأول

ابن السبكي^(١): علم وإصلاح

عرف تاريخ الثقافة العربية كثيراً من البيوتات العلمية التي استفاد العلم فيها، وكان إراثاً طيباً يؤول إلى الأبناء فيما يؤول إليهم من عقار وحطام، فكان علم الأبناء امتداداً ناضجاً لعلم الآباء. وقد صان هؤلاء الأبناء ذلك الموروث العلمي العظيم، وعملوا على إراثه وإخصابه.

وبحسبنا في هذا المقام أن نذكر أبا حاتم الرازي محمد بن إدريس بن المنذر، المتوفى سنة ٢٧٧هـ، وابنه عبد الرحمن بن أبي حاتم، المتوفى سنة ٣٢٧هـ، من أئمة علم الجرح والتعديل. والإمام ضياء الدين خطيب الري عمر بن الحسين بن الحسن، وابنه الفخر الرازي محمد بن عمر، المتوفى سنة ٦٠٦هـ من فرسان علم الكلام.

على أنه لم يستعلن تأثير والد في ولده كما استعلن في تاريخ الإمام العلامة تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي، المولود في سنة ٦٨٣هـ والمتوفى في سنة ٧٥٦هـ، وولده العلامة تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي، المولود في سنة ٧٢٧هـ، والمتوفى في سنة ٧٧١هـ.

وقد أجمع المؤرخون على فضل الوالد وسعة علمه، فيقول عنه الذهبي — فيما ينقل عنه السبكي:

(١) مجلة «الرسالة»، إبريل/ نيسان ١٩٦٥م.

«القاضي الإمام العلامة الفقيه المحدث الحافظ فخر العلماء، كان صادقاً ثبتاً خيراً ديناً، من أوعية العلم، يدري الفقه ويقرره، وعلم الحديث ويحرره، والأصول ويقربها، والعربية ويحققها».

ويكفي دليلاً على علم هذا الرجل أنه كان الوحيد من بين علماء عصره الذي تصدى لابن تيمية - على عنفه وشدة - ورد عليه في مسألتَي الطلاق، وزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام، وهما المسألتان اللتان زعزع بهما ابن تيمية كيان العلماء في عصره. فرد عليه الإمام السبكي في مسألة الطلاق برسالتين: رافع الشقاق في مسألة الطلاق، والتحقيق في مسألة التعليق. ورد عليه في الزيارة برسالة شفاء السقام في زيارة خير الأنام، أو شن الغارة على من أنكر السفر للزيارة.

ويقول فيه ابن تيمية: «لقد برز هذا على أقرانه». وقد نبغ صاحبنا تاج الدين في منتصف القرن الثامن الهجري - عصر الموسوعات العلمية - هذا العصر الذي كان بمثابة الصحوة الفارهة بعد النكسة التي أصابت العالم الإسلامي، والتي كادت تأتي على تراثه الضخم العريض، إبان الغزو التتري الكاسح.

وقد ولد تاج الدين بالقاهرة، ونسب إلى قرية سبك من أعمال المنوفية. ولم ينصرف الفتى في صباه إلى اللهو واللعب، كما يفعل لداته وأترابه، فقد هدهد سمعه في سن تفتحه وفود العلماء، تفد إلى بيت أبيه، تنشد العلم وتطلب الفتيا. فأقبل على ألوان المعرفة يحصلها على مهل واتئاد، حتى اكتملت له أدوات العالم المجتهد. وكان مجلى هذه الثقافة الواسعة العريضة في نهاية الشوط موسوعة علمية ضخمة، لمت أطراف الثقافة العربية، وجلتها على نحو معجب خلاب، على امتداد سبعة قرون في كتابه الخالد: «طبقات الشافعية الكبرى».

لقد انفسح هذا الكتاب العظيم من خلال ترجمته لرجال المذهب الشافعي - لكثير من المباحث الفقهية والفتاوى الشرعية، والمقالات، والمناظرات، والنوادر

والملاح، كما حفل بالضوابط اللغوية ومسائل علم الكلام والأصول. كما كان مصدراً أدبياً لكثير من الكتب التي عالجت شؤون الحب.

وكان أيضاً مرجعاً أصيلاً في جمع أشعار الشعراء. على أن أهميته الكبرى بعد كل ذلك ترجع إلى أنه حفظ لنا كثيراً من النصوص التي ضاعت أصولها. كتاريخ نيسابور، للحاكم النيسابوري محمد بن عبد الله، المعروف بابن البَيْع، المتوفى سنة ٤٠٥هـ، وتاريخ مصر لابن يونس، عبد الرحمن بن أحمد المتوفى سنة ٣٤٧هـ، وغير هذين الكتابين كثير من هذه الأمهات التي عبث بها الزمان.

وقد عالج ابن السبكي في كتابه هذا ذلك المنهج العلمي، الذي عرف فيما بعد، ونسب إلى ابن خلدون، ذلك المنهج القائم على تمحيص الأخبار، والتنبه لما تفعله المعاصرة والعصبية في المذهب.

استمع إليه يقول في ترجمة أحمد بن صالح المصري، في الطبقة الثانية: «ومما ينبغي أن يتفقد عند الجرح حال العقائد، واختلافها بالنسبة إلى الجارح والمجروح، فربما خالف الجارح المجروح في العقيدة، فجرحه لذلك». ولم تقف تلمذته للإمام الذهبي حائلاً دون نقده مُرَّ النقد لمخالفته هذا المنهج القائم على الحيدة والتجرد، فيقول عنه: «وهو شيخنا ومعلمنا، غير أن الحق أحق أن يتبع، وقد وصل من التعصب المفرط إلى حد يسخر منه».

ولكن هذه الحياة العلمية المخلصة لم تشغل صاحبنا عن أن يلمس مظاهر الضعف والعسف التي استعلنت في الحكم المملوكي الجائر، فظهرت دعواته الإصلاحية النقدية في كتابه القيم: «معيد النعم ومبيد النقم».

لقد كان هذا الكتاب ثورة عاتية على نظم الحكم وأخلاق الناس، فقد أتيح لابن السبكي من خلال مشاركته في الحياة العامة — مدرساً وخطيباً وقاضياً — أن يرى ويحس مدى التمزق الذي شمل الأمة نتيجة للحكم المملوكي البغيض، الذي نبثت فيه فكرة «تركي وفلاح». والذي استأثر فيه المماليك بالمناصب الكبرى، وتركوا أصحاب الأرض الحقيقيين يشربون العرق ويقتاتون السهد.

وقد وضع ابن السبكي كتابه هذا رداً على سؤال ورد عليه، أو وضعه هو بين يدي كتابه، موضوعه: «هل من طريق لمن سلب نعمة دينية أو دنيوية إذا سلكها عادت إليه، وردّت عليه؟» وإجابة عن هذا السؤال راح ابن السبكي ينقد بقسوة وصراحة طوائف الأمة، ابتداء من السلطان إلى أرباب الحرف، آخذاً في طريقه نواب السلطان والقضاة والمدرسين، ورجال الدين من العلماء والصوفية.

استمع إليه يلخص رأيه في الأتراك عموماً، فيقول: «وقد اعتبرت كثيراً من الأتراك يميلون إلى أول شاك، وما ذاك إلا للغفلة المستولية على قلوبهم»، ثم يسخر من هؤلاء الأتراك وتعلقهم من الإسلام بالمظاهر الفارغة، فيقول: «وأما أنك ترتكب ما نهى الله عنه وتترك ما أمر به، ثم تريد أن تعمر الجوامع بأموال الرعايا، ليقال: هذا جامع فلان، فلا والله لن يتقبله الله تعالى أبداً».

ثم يتكلم عن السلطان ويحدد اختصاصاته فيقول: «إن الله لم يوله على المسلمين ليكون رئيساً أكلاً شارباً مستريحاً، بل لينصر الدين ويعلي الكلمة». وحين يتحدث عن العلماء والمفتين يأخذ على بعض هؤلاء وأولئك تعصبهم لمذاهبهم، وإضاعتهم الوقت في الخلافات، فيقول مخاطباً العلماء: «لو أن الشافعي وأبا حنيفة ومالكاً وأحمد أحياء يرزقون لشددوا النكير عليكم وتبرأوا منكم فيما تفعلون»، ثم يأتي إلى المفتين فيقول: «ومنهم طائفة تصلبت في أمر دينها، فجزاها الله خيراً، تنكر المنكر وتتشدّد فيه، وتأخذ بالأغلظ، وتتوقى مظان التهم، غير أنها تبالغ فلا تذكر لضعفة الإيمان من الأمراء والعوام إلا أغلظ المذاهب، فيؤدي ذلك إلى عدم انقيادهم وسرعة نفورهم. فمن حق هذه الطائفة الملاحظة وتسهيل ما في تسهيله فائدة لمثل هؤلاء إلى الخير، إذا كان الشرع قد جعل لتسهيله طريقاً، كما أن من حقها التشديد فيما ترى أن في تسهيله ما يؤدي إلى ارتكاب شيء من حرمات الله».

ويرسم ابن السبكي المعلم للمدرس منهجاً تربوياً راشداً حين يقول: «وحق عليه أن يحسن إلقاء الدرس وتفهيمة للحاضرين، ثم إن كانوا مبتدئين فلا يلقي عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات، بل يدرّبهم ويأخذهم بالأهون فالأهون، إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق، وإن كانوا منتهين فلا يلقي عليهم الواضحات، بل يدخل بهم في المشكلات». وتتجلى دعوة صاحبنا الإصلاحية في أبهى صورها حين يأسى للفلاح الذي يستهلك في السخرة والإقطاع. فحين يتكلم عن منصب ناظر الجيش وتحديد اختصاصاته يقول: «ومن قبائح ديوان الجيش إلزامهم الفلاحين في الإقطاعات بالفلاحة، والفلاح حر، لا يد لآدمي عليه، وهو أمير نفسه».

وبعد... ألا تعتقد معي أيها القارئ الكريم أن هذا الرجل إنما يتكلم بلغة عصرنا، كمصلح اجتماعي، وكعالم نفساني، بصير بالنفس الإنسانية، عالم بضعفها.

وكان طبعياً بعد هذا النقد المر الجارح لنظام الحكم وأخلاق الناس أن تتعرض حياة الرجل ومصير أسرته للزوابع والأعاصير، فيعزل عن منصب القضاء، لأسباب واهية ذكرها الحافظ ابن حجر في «الدرر الكامنة» وتُجرى له محاكمة، يحكم عليه فيها بالحبس سنة. ولكن هل ضعف ابن السبكي، أو تخاذل؟ استمع إلى معاصره الحافظ ابن كثير يقول: «جرى عليه من المحن والشدائد ما لم يجر على قاض قبله، وحصل له من المناصب والرياسة ما لم يحصل لأحد قبله، وأبان في أيام محنته عن شجاعة وقوة على المناظرة، حتى أفحم خصومه، ثم لما عاد عفا عنهم، وصفح عمن قام عليه».

وبعد هذه الحياة الخصبة الزاخرة بالعلم والإصلاح انطفأت هذه الشعلة التي توهّجت عبر أربع وأربعين سنة. وحق لابن السبكي أن يقول في زهو ورضا، في ورقة كتبها إلى نائب الشام: «وأنا اليوم مجتهد الدنيا على الإطلاق، لا يقدر أحد يرد علي هذه الكلمة».

توفي تاج الدين شهيداً بالطاعون (بالدهشة) ظاهر دمشق، في ذي الحجة .
خطب يوم الجمعة، وطعن ليلة السبت رابعه، ومات ليلة الثلاثاء سابعه سنة ٧٧١هـ،
ودُفن بتربة السبكية بسفح قاسيون، عن أربع وأربعين سنة، بعد أن جلا صفحة مشرقة
في تاريخ علماء المسلمين .



طبقات الفقهاء الشافعية^(١)

تأليف أبو عاصم محمد بن أحمد العبّادي

لم يحظ رجال مذهب من مذاهب الفقه الإسلامي ما حظي رجال المذهب الشافعي، من التأريخ لحياتهم، والاحتفال بإنتاجهم، وتدوين مسائلهم وفتاواهم. وما ذلك إلا لأن رجال المذهب الشافعي انتشروا في الآفاق وشغلوا الناس حين بسطوا سلطانهم على كل فروع الثقافة العربية، درساً وتمثلاً وتصنيفاً.

فرائنا منهم المحدثين والحفاظ والمفسرين والصوفية والمؤرخين والأدباء واللغويين والمتكلمين والفلاسفة، وأمامنا أبو بكر البيهقي، وابن عساكر، وابن حجر العسقلاني، وابن كثير، وأبو قاسم القشيري، وابن الأثير، مجد الدين صاحب «النهاية»، وعزّ الدين صاحب «الكامل»، والجرجاني صاحب «الوساطة»، وأبو منصور الأزهري، والفخر الرازي ووالده، وإمام الحرمين الجويني ووالده، وأبو حامد الغزالي، إلى آخر هذه السلسلة التي جلت وجه الثقافة الإسلامية، والتي ازدانت بإنتاجها المكتبة العربية.

وانطلاقاً من التأليف في مناقب الإمام محمد بن إدريس الشافعي صاحب المذهب، توالى المصنفات في تاريخ أتباعه وحملة مذهبه (انظر: كشف الظنون، ص ١١٠١).

وعلى وفرة هذه المصنفات لم يظهر منها مطبوعاً سوى «طبقات الفقهاء»

(١) مجلة «الكتاب العربي»، ديسمبر ١٩٦٦م.

لأبي إسحاق الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦هـ، و «طبقات ابن هداية الله» المتوفى سنة ١٠١٤هـ، ثم معلمة ابن السبكي العظيمة «طبقات الشافعية الكبرى». (وقد توفي ابن السبكي سنة ٧٧١هـ).

واليوم يظهر هذا النص المبكر في تراجم الشافعية لأبي عاصم العبادي، محمد بن أحمد بن عبد الله بن عباد الهروي القاضي.

ولد أبو عاصم سنة خمس وسبعين وثلاثمائة. يقول عنه ابن السبكي: «كان إماماً جليلاً حافظاً للمذهب، بحراً يتدفق بالعلم، وكان معروفاً بغموض العبارة، وتعويض الكلام، ضنة منه بالعلم، وحياً لاستعمال الأذهان الثاقبة فيه».

وقد تنقل أبو عاصم في البلاد، ولقي المشايخ، وتلمذ لأفاضل عصره، فأخذ عن القاضي أبي منصور محمد بن محمد الأزدي، بهرة، والقاضي أبي عمر البسطامي، والأستاذ أبي طاهر الزيادي، وأبي إسحاق الإسفرايني، بنيسابور.

وصنف كتباً نافعة، منها: «الزيادات»، و «زيادات الزيادات»، و «المبسوط»، و «الهادي إلى مذهب العلماء»، و «أدب القضاء»، و «الرد على القاضي السمعاني». وبعد حياة زاخرة بالعلم والتصنيف انتقل إلى رحمة ربه، في شوال سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، عن ثلاث وثمانين سنة.

وكتاب أبي عاصم هذا «طبقات الفقهاء» أحد كتب خمسة في تراجم الشافعية ظهرت في القرن الخامس الهجري. فقد ألف أبو حفص عمر بن علي المطوعي المتوفى سنة ٤٤٠هـ كتاباً سماه «المذهب في ذكر شيوخ المذهب». ثم ألف القاضي أبو الطيب الطبري المتوفى سنة ٤٥٠هـ مختصراً ذكر فيه مولد الشافعي رضي الله عنه. وعدّ في آخره جماعة من الأصحاب كما يقول ابن السبكي.

ثم ألف شيخ الإسلام أبو إسحاق الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦هـ كتاب «طبقات الفقهاء»، وفي آخر القرن ألف الحافظ أبو محمد عبد الله بن يوسف الجرجاني المتوفى سنة ٤٨٩هـ كتابه «الطبقات». ويصف ابن السبكي كتاب

أبي عاصم هذا فيقول: «جمع فيه غرائب وفوائد، إلا أنه اختصر في التراجم جداً. وربما ذكر اسم الرجل أو موضع الشهرة منه، ولم يزد».

وقد أسدى الأستاذ المستشرق — نموستا فيتستام، ليدن — إلى التراث العربي يداً جلييلة بإبراز هذا النص وإخراجه إلى النور. لكنه على عادة كثير من المستشرقين المشتغلين بتحقيق النصوص العربية قدم النص مجرداً من أي شرح أو توثيق، إلا ما يكون من ذكر فروق النسخ.

وسواء أكان الباعث على هذه الطريقة: المنهجية أو القصور، فستظل هذه النصوص التي تخرج على هذا النحو في حاجة إلى إخراج جديد، يجلوها ويربطها بما قبلها وبما بعدها في خط التراث العربي المتداخل المتشابك. وستظل هذه النصوص أيضاً في حاجة إلى عين عربية بصيرة بمجرى السياق عليمه بمواقع الكلام.

وإذا كان من المجمع عليه أن أوفى عمل في هذا الفن — فن تراجم الشافعية — هو موسوعة ابن السبكي العظيمة: «طبقات الشافعية الكبرى»، فإن أي عمل في هذا المجال ينبغي أن يراجع على هذه الموسوعة الكبرى، وبخاصة أن ابن السبكي قد أفرغ في كتابه كل الكتب التي صنف قبله في هذا الفن. فهو جهد حقيق بأن يرجع إليه ويستفاد منه.

ويبدو أن الأستاذ المحقق لم يفد من عمل ابن السبكي، ولو فعل لأراح واستراح من هذه المظاهر الصاخبة التي زحم بها حواشي الكتاب، من ذكر فروق النسخ فيما لا طائل تحته ولا غناء فيه. فقد تكثر الأستاذ المحقق من ذكر هذه الفروق، بحيث اشتملت بعض الصفحات على عشرين تعليقا، معظمها يمكن الاستغناء عنه. وليس هناك داعٍ لإثقال النص بالفروق الهينة، أو التي تكون واضحة الخطأ، نتيجة لأوهام النساخ أو جهلهم، ولا يذكر من الفروق إلا ما كان له وجه يخدم النص. والمسألة ليست استعراض عضلات، كما يقال في هذه الأيام. وهذا مثال واحد في صفحة ٦١ هامش ٧: «قال أبو داود السجستاني»، يضع المحقق رقماً فوق «أبو» ليقول في الهامش: في ت: «أتو»!

ولا شك أن هناك جهداً صامتاً للمحقق لا يظهر في التعليقات، فلن يضير المحقق أن تكون تعليقاته قليلة. وهذه حقيقة يعرفها كل من ابتلي بتحقيق النصوص.

وملاحظاتي العامة على عمل هذا المستشرق أنه لم يضبط النصوص القرآنية الكريمة، والأحاديث الشريفة. وفي هذا ما فيه. كما أهمل ضبط النسب: كالبيوطي والدغولي والقرباب، والسجزي، والتبوكي. مع أن الأمر فيها هين. فكان حسبه أن ينظر في «اللباب» لعز الدين ابن الأثير، و«المشتبه» للذهبي، و«معجم البلدان» لياقوت، بل كان يكفيه «القاموس المحيط»، وهو مرجع لا نظن مكتبة تخلو منه. والعجيب حقاً أن المحقق في صفحة ٦٣ سطر ٤ ضبط «المرورودي» فكيف حظي أبو حامد وحده بهذا الاهتمام؟ وهذا من علامات اضطراب المنهج عند المحقق.

ولم يضبط المحقق الألفاظ الغريبة التي امتلأ بها النص، مثل: «النغم والوغم» صفحة ٣٦ سطر ٥، وكذلك كلمة «جداد» في الصفحة نفسها سطر ١٣.

ولم يراع المحقق علامات الترقيم، فاضطرب السياق في كثير من الأحيان.

وقد اقتطفت هذه الملاحظات لتدل على غيرها!

صفحة ٢ سطر ٩: «ومحمد بن صباح» شدد الباء في «صباح»، والصواب تخفيفها.

وقد تكرر هذا الخطأ في صفحة ٢٣ سطر ٥، وفي ص ٧٨ س ٤.

ص ١٠ س ٩: قال العبادي في ترجمة المزني: «صنف المنشور»، وفيه قال في رجل ظاهر الحرية له أولاد أحرار في الظاهر أقر بالرق لآخر فقبله أن أولاده أحرار وتجب نفقتهم على العبد في كسبه لا يأخذ السيد من كسبه إلا ما يفضل من نفقتهم».

جعل المحقق جملة «له أولاد أحرار» مقول القول. ووضع قبلها نقطتين دليلاً على ذلك. وهو خطأ. والصواب أن مقول القول هو قوله: «إن أولاده أحرار...».

ص ١١ س ٦ : لم يضبط المحقق كلمة «السلم»، وهو اصطلاح فقهي، يجب أن يضبط بفتح السين واللام. وهو مثل السلف وزناً ومعنى. قاله في المصباح المنير. والعجيب أن المحقق حين يضبط لا يأتي ضبطه دقيقاً. ففي الصفحة ذاتها س ٧ : «خبز حُوَارَى» ضبطها بضم الحاء وفتح الراء فقط. وحقها أن تكون بضم الحاء وشد الواو وفتح الراء. وهو الدقيق الأبيض.

ص ١٢ هامش أ يقول المحقق: «هذه الكلمتان مكتوبة في هامش أ»، وهو أثر من آثار العجمة. وكان يجب على المحقق أن يستعين بأحد أبناء العربية في تحرير التعليقات وفي قراءة النص، كما يفعل كثير من المستشرقين.

ص ١٣ س ١١ ، ١٢ : «إذا ترك أهل بلد طلب العلم رأيت الحاكم أن يخبرهم عليه».

والصواب: «يجبرهم» بالجيم، وليس بالحاء المعجمة.

ص ١٤ س ١ : «أما الفرض فغسل اليدين وقصعة والسكين والمغرفة»، والصواب: «والقصعة»، كما ورد في طبقات ابن السبكي في ترجمة الربيع المرادي. وللمحقق كلف بحذف «ال» التعريف ستأتي له أمثلة كثيرة.

ص ١٥ س ١٠ : ذكر العبادي في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل أنه روى عن الإمام الشافعي «أن السيد يلاعن أمته»، وقد جاءت هذه العبارة في طبقات ابن السبكي، في ترجمة الإمام أحمد «يلاعن عن أمته»، والذين تمرّسوا بقراءة المخطوطات يعرفون أن تجاور كلمتين كما في هذا المثال قد يكون أصيلاً وقد يكون زيادة جرى بها قلم الناسخ بتأثير الكلمة الأولى. فكان ينبغي على المحقق أن يلتفت إلى هذه الزيادة.

ص ١٧ س ١ : مثال لإهمال الترقيم وعدم فصل النصوص. «سئل النبي ﷺ عن الصلاة في الفراء، فقال: «أنقأها الدباغ وكانت الصحابة رضي الله عنهم... الخ... وواضح أن قول الرسول عليه الصلاة والسلام ينتهي عند كلمة «الدباغ».

وفي الصفحة نفسها س ٢: «وحكى الربيع المرادي عن الشافعي رحمه الله أنه قال: آلات الرئاسة خمسة: صدق اللهجة، وكتمان السر، والوفاء بالعهد، وابتدال النصيحة، وأداء الأمانة».

ذكر العبادي هذه الحكاية أثناء ترجمة الربيع الجيزي، ولا علاقة لها بترجمته، إذ إنها سبقت في ترجمة الربيع المرادي ص ١٤. والربيع المرادي هو الذين يتوقع منه الحكاية عن الشافعي، فهو كما يقول ابن السبكي: «صاحب الشافعي وراوية كتبه، والثقة الثبت فيما يرويه. وقد اتصل بخدمة الشافعي وحمل عنه الكثير وحدث عنه به».

في حين لم يكن للربيع الجيزي من الإمام الشافعي سوى الرواية عنه فقط. ويلاحظ أيضاً أن النص في ترجمة الربيع المرادي بدا مبتوراً هكذا: «الرئاسة خمسة». وهنا يقول: «وابتدال النصيحة»، وهناك: «وبذل النصيحة»، وهو الصواب، فإن الابتدال ضد الصيانة. كما يقول صاحب القاموس.

وكل هذا يدل على أن المحقق بمعزل عن النص. والاشتغال بتحقيق النصوص يقتضي المعاشاة الكاملة للنص المحقق، بحيث يكون المحقق مالكا لتمام عمله، مفتاح العينين لكل خبر وحكاية.

ص ٢٢ س ١٣: «وفيه قول آخر أنه فيها من غير قطع»، والأولى أن توضع كلمة «يدخل» قبل «فيها»، كما في النسخ الثلاث التي أشار إليها المحقق في الهامش. والضمير يرجع إلى الصلاة.

ص ٢٤ س ٥: «هذا لا نعرف»، الأولى قراءة النسخ الثلاث التي بالهامش «لا نعرف هذا»، ويقرأ ما في الصلب «لا يعرف» بالبناء للمجهول. ويجب أن يتخذ المحقق موقفاً تجاه اختلاف النسخ، وألا يكون عبداً للأصل إذا كان واضح الخطأ.

وفي الصفحة نفسها س ١٠: «أبو طيب»، والصواب: «أبو الطيب»، وانظر ما كتبه عن ظاهرة حذف «ال» التي تكررت عند المحقق ص ١٤ س ١.

ص ٢٦ س ١١: «ومن فتاويه أنَّ الصبي إذا أسلم بإسلام أحد أبويه» رفع
«أحد»، والصواب: جرّه بالإضافة.

ص ٢٩ س ؟: «عن النبي ﷺ: اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر»
صوابه: «بالذين»، كما هي قراءة النسخة ت. ولا يضير هذه النسخة أن تنفرد
بالصواب. وكان المحقق خدع بأن سائر النسخ تخالفها.

وفي الصفحة نفسها س ١٤: «عمرو بن سواد المسرحي»، وفي بعض النسخ
«التنوشي»، وإنصافاً للمحقق أقول إن ما أثبتته هو الصواب، كما في الباب
١/٥٣٩، والمشتبه ٣٥٦. ولكن من حق القارئ عليه أن يعرف من أين جاء بهذا
الصواب، حتى رفع عنه الشك، ويرিحه من عناء البحث والتقصي.

ص ٣٣ س ١٤: «فدل أنه يستحق كمال الدرجات بكمال الإيمان ونقصانه
ينقص الدرجات»، يجب أن توضع فاصلة بعد «الإيمان»، وهذا مثال لإهمال المحقق
علامات الترقيم.

ص ٣٥ س ٩ قال العبادي: «ومنهم إبراهيم بن عبد الله المحبر (وشدد الباء)»
من أصحاب مالك رحمه الله. روى الحرث بن سريح عنه. قال للشافعي رحمه الله:
لم أرَ هاشمياً يفضل أبا بكر على علي رضي الله عنهما سواك، فقال: أمير المؤمنين
علي ابن عمي وابن خالتي وأنا من بني عبد مناف وأنا من بني عبد الدار ولو كان فيه
مكرمة لعلي لكنت أولى بها منك»، وفي هذا النص عدة أخطاء.

أولاً: «المحبر» خطأ. صوابه: «الحجبي»، كما جاء في طبقات ابن السبكي
في ترجمة الحارث بن سريح. وساق ابن السبكي هذه الحكاية (انظر: الطبقات
١١٣/٢، ١٧٩، الطبعة الجديدة).

ثانياً: «ابن سريح» بالحاء المهملة خطأ. وصوابه: «سريح» بالجيم المعجمة.
كما في طبقات ابن السبكي، وكما في المشتبه للذهبي ص ٣٩٥. وهو حجة في هذا
الشأن، لأنه يضبط بالعبرة.

ثالثاً: «وأنا من بني عبد الدار» خطأ. صوابه: «وأنت»، كما جاء في طبقات ابن السبكي، وهذا يؤيد كون «المحبر» خطأ، وأن الصواب: «الحجبي»، كما قدمت. فقد جاء في اللباب لابن الأثير، عند الكلام على نسبة «الحجبي» ١/ ٢٨٠: «هذه النسبة إلى حجابة بيت الله المحرم. وهم جماعة من عبد الدار».

ص ٣٩ س ٢: «أبو طاهر أحمد بن عمر ابن سرح» خطأ. والصواب: «أبو الطاهر... ابن السرح»، كما جاء في ترجمته في تذكرة الحفاظ ٢/ ٧٩، تهذيب التهذيب ١/ ٦٤، الجمع بين رجال الصحيحين ١/ ١٤، شذرات الذهب ٢/ ١٢٠، طبقات ابن السبكي ٢/ ٢٦ (الطبعة الجديدة)، العبر ١/ ٤٥٥. وحذف «ال»، وإن كان جائزاً في الأسماء والكنى، إلا أن تكرره وشيوعه في هذا الكتاب (انظر ما كتبه عن ص ١٤ س ١، وص ٢٤ س ١٠) مما يجعلني أكاد أجزم بأنه أثر من آثار العجمة لدى بعض المستشرقين الذين يصعب عليهم نطق ما فيه «ال»، وسيأتي في ص ٩١ س ١: «ابن نحاس القاضي» بدون «ال». وكذلك في ص ٩ من المقدمة الأجنبية ذكر كتاب العبادي المسمّى: «الهادي إلى مذهب العلماء»، ذكره هكذا: «هادي إلى مذهب العلماء»، ولو كان اسم الكتاب في الحقيقة بدون «ال» لكتب: «هاد» بحذف الياء، لأنه حينئذ يعل إعلال «قاض».

ص ٤١ س ١٣: «ابن أبان» شدد الباء. والصواب تخفيفها.

ص ٤٦ س ١٢: «ويحتمل» ضبطها بضم الياء. وهو خطأ يقع فيه كثير من الناس، يضمون الياء ويفتحون التاء والميم، مبنياً للمجهول. والصواب فتح الياء مع كسر الميم، مبنياً للمعلوم. قال الفيومي في المصباح المنير: «والاحتمال في اصطلاح الفقهاء والمتكلمين يجوز استعماله بمعنى الوهم والجواز، فيكون لازماً، ويمعنى الاقتضاء والتضمن، فيكون متعدياً، مثل احتمال أن يكون كذا، واحتمل الحال وجوهاً كثيرة».

ص ٥٠ س ٦: قال العبادي في ترجمة إبراهيم ابن إسحاق الحربي: «وذكر في كتاب «غريب الحديث» الذي صنّفه أبو سليمان الخطابي أن النبي ﷺ

نهى عن قتل الهدهد، كرامة له...»، وقد وضع المحقق بعد كلمة «صنفه» رقماً، وذكر في الحواشي أن في كل النسخ زيادة: «نقل». وهذه الزيادة في نظري مهمة، وحققها أن توضع في الصلب. فهي – فضلاً عن كونها في كل النسخ – لا يستقيم الكلام بدونها. فما دخل أبي سليمان الخطابي هنا؟ إلا أن يكون نقل في كتابه هذه التفسيرات اللغوية من كتاب الحربي، ويكون العبادي لم يقف على كتاب الحربي ووقف على كتاب الخطابي، وفيه آراء الحربي، والمشكل هنا أن لكل من الحربي والخطابي مصنفاً في غريب الحديث (انظر: مقدمة النهاية، لابن الأثير)، وقد توفي الحربي سنة ٢٨٥هـ وتوفي الخطابي سنة ٣٨٨هـ.

ص ٥١ س ٢: «أبو عبد الله الزبيري محمد بن سامري بن عبد الله بن عاصم... صاحب الكافي»، وكل ذلك خطأ. والصواب فيه: أبو عبد الله، الزبير بن أحمد بن سليمان بن عبد الله بن عاصم كما جاء في مراجع ترجمته. انظر: تاريخ بغداد ٤٧١/٨، طبقات ابن السبكي ٢٩٥/٣، طبقات الشيرازي ٨٨، طبقات القراء ٢٩٢/١، مرآة الجنان ٢٧٨/٢، نكت الهميان ١٥٣، وفيات الأعيان ٦٩/٢. وواضح أن «سليمان» هي القراءة الصحيحة لكلمة «سامري» التي علق عليها المحقق بأنها في بعض النسخ «شامري».

ص ٥٣ س ١٣: قال العبادي في ترجمة الإمام البخاري: «ولم يرو عن الشافعي رحمه الله في «الصحيح» لأنه أدرك أقرانه، والشافعي رحمه الله مات مكتهاً، فلا يرويه نازلاً وقد وجده عالياً»، والخطأ في «يرونه» فصوابه: «يرونه»، كما جاء في طبقات ابن السبكي ٢١٥/٢. ولو رجع إليها المحقق لوقف على الصواب، ولما احتاج أن يذكر في الحواشي أن الكلمة كذا في ب، ت، في الأصل وح بغير تنقيط. وقبل كل ذلك فالكلمة من اصطلاحات علم الجرح والتعديل ورواية الحديث. فكان ينبغي على المحقق أن يفرع إلى أهل الذكر.

ص ٦٤ س ١: «إن كان شيء مضى وقع وإن شيء مستقبل لم يقع»، وضع المحقق رقماً فوق «وإن شيء»، وأشار إلى أن في بعض النسخ «وإن كان»، ولست

أدري لم لم يضع «كان» هذه في الصלב ، فيها يستقيم السياق .

ص ٦٧ س ٤ : «محمد بن إبراهيم بن منذر . الصواب : «المنذر» ، كما جاء في بعض النسخ بالهامش . وكما جاء في بعض المراجع التي ترجمت له . وفي السطر نفسه : «صاحب إشراف على مذاهب العلماء» ، والصواب : «الإشراف» ، كما يذكر ابن السبكي دائماً .

وانظر ما كتبه عن ص ٣٩ س ٢ .

ص ٧٨ س ١٣ : قوله تعالى : «اعلموا ما شئتم» بتقديم اللام خطأ ، والصواب : «اعملوا» بتقديم الميم . وهي الآية ٤٠ من سورة «فصلت» .

ص ٧٩ س ١١ : في قوله تعالى : ﴿يَا أَبَتِ إِفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ ، جعل الهمزة همزة قطع . والصواب أنها ألف وصل ﴿أَفْعَلْ﴾ .

ص ٨٨ س ٢ : «سئل عن قوله ﷺ : «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» فقال : فذاكروا فيه» . علق المحقق على كلمة «فذاكروا» بأنها في بعض النسخ «أكثر» ، وأرى أن يكون ما في الصלב : «تذاكروا» .

ص ٩٠ س ١٣ : «إن ماسح الخف لا ينوي رفع الحديث» خطأ . والصواب : «الحدث» .

ص ٩١ س ١ : «وقد عارض بهذا الكتاب ابن نحاس القاضي» رفع «ابن» بالضم . والصواب نصبه على المفعولية . والفاعل ضمير مستتر يعود على أبي بكر أحمد بن عمر الخفاف ، وهو المترجم ، وهنا أيضاً حذف «ال» من النحاس . وقد أشرت إليه قبلاً .

ص ٩٦ س ١ : «ويكره الرفع الشديد الصوت» ضبط المحقق الفعل بضم الياء وكسر الراء ، مبنياً للمعلوم ، ونصب «الرفع» ، و «الشديد» ، والصواب بناء الفعل للمجهول ، ورفع «الرفع» نائباً عن الفاعل ، و «الشديد» على الصفة .

وفي الصفحة نفسها س ٤ : «ويكره الدعاء بالشجع وتكلف الصنعة» ، والصواب : «بالسجع» بالسین المهملة .

ص ٩٨ س ١٠ : «لأنَّ العرب تقول: غسل الشتاء السطح» علق المحقق على «الشتاء» بأنها في ثلاث نسخ «السماء»، وأرى هذا هو الصواب، فإن العرب تسمي المطر سماء.

(انظر: معجم مقاييس اللغة ٣/٩٨).

ص ١٠٢ س ٦ : قال النبي ﷺ : «جعلت لي الأرض مسجداً وإنما يجب أن يقول: جعلت داري مسجداً لله تعالى» قفل المحقق علامة التنصيص بعد «تعالى» على أن الكلام كله من قول النبي ﷺ . وإنما ينتهي كلام الرسول عليه السلام بعد «مسجداً» . وفي الصفحة نفسها س ١١ : «أبو حنيفة أفتى بأن المال بينهما نصفين» . الأولى «نصفان»، وهو ما جاء في ثلاث نسخ، كما أشار المحقق.

ص ١٠٨ س ١٢ : «إذا وجد زان، وإذا فقد شأن»، وضع المحقق همزة على ألف «شأن»، والصواب حذفها لتناسب السجع.

ص ١١٠ س ١٢ : «وحكيم بن محمد الذيموني الفقيه من قراء بخارى»، أشار المحقق إلى أن في نسخة: «من قرى بخارى»، وقد كان ينبغي على المحقق أن يقف عند هذه القراءة. فقد قال ياقوت في معجم البلدان ٧٢٧/٢ : «ذيمون بفتح أوله وآخره نون: قرية على فرسخين ونصف من بخارا»، فلعل الناسخ وجد الكلمة «قرا» فلم يحسن قراءتها، وتطوع بزيادة الهمزة. نعم ترجم ابن الجزري في «طبقات القراء» لشخص اسمه «حكيم بن محمد»، ولم يزد في اسمه على ذلك، ولم يذكر في نسبته «الذيموني»، واختلفت سياقة ترجمته عند ابن الجزري عما في الأنساب لوحة ٢٤١ ب، واللباب ٤٤٩/١، وطبقات ابن السبكي ٣٧٧/٤، وانظر طبقات ابن الجزري ٢٥٧/١.

ص ١١١ س ٦ : «ووجهه أنهما دليلا تعارضا في الحسن»، وجاء في إحدى النسخ: «في الحسن»، وأرى هذا هو الصواب. وهذه اصطلاحات أصولية محددة، تشبه الأمثال. وقد كان يجب على المحقق، كما قلت قبلاً، أن يلجأ إلى أهل هذا الشأن، حتى يحفظ للنص روحه وسلامته.

وفي الصفحة نفسها س ١٢ : «الظهارة والإيلاء والرجعة»، والصواب :
«الظهار»، كما جاء في نسختين بالهامش .

ص ١١٤ س ١٢ : «وإليه يرجع المآب»، الأولى قراءة النسخة ت «وإليه
المرجع والمآب». وقد لاحظت أن هذه النسخة كثيراً ما تنفرد بالصواب ومع ذلك لم
يلتفت لها المحقق. وقد لاحظت أيضاً أن المحقق في صنع فهرس الأعلام قد بذل
جهداً في تحقيق الأسماء، ولو أنه فعل هذا في تحقيق النص لسلم من كثير من
الأخطاء، ولسلم أيضاً من إثقال النص بالحواشي وفروق النسخ.

ومهما يكن من شيء فلن نستطيع أن ننكر للمحقق الفاضل هذه اليد التي
أسداها إلى تراثنا العربي ببعث أصل مبكر من تراثنا الخالد. وتحية لكل الجهود
المخلصة.



أحمد محمد شاكر^(١)

وُلد بالقاهرة، ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب، وأبوه هو الشيخ محمد شاكر، وكيل الأزهر. وقد انتقل مع والده إلى السودان عندما عُيِّن في منصب قاضي قضاة السودان سنة ١٣١٧هـ = ١٩٠٠م فالتحق بكلية غوردون. وذهب إلى الإسكندرية سنة ١٣٢١هـ = ١٩٠٤م، فالتحق بمعهد الإسكندرية، ثم التحق بالأزهر، وحاز شهادة «العالمية» منه سنة ١٣٣٤هـ = ١٩١٧م، وعُيِّن موظفاً قضائياً ثم قاضياً، وذلك بعد تعيينه مدرّساً لمدة وجيزة جداً، وظلَّ في القضاء حتى أُحيل على التقاعد سنة ١٩٥١م عضواً بالمحكمة العليا الشرعية، وتوفي رحمه الله بالقاهرة يوم السبت ٢٦ من ذي القعدة سنة ١٣٧٧/ ١٤ من يونية ١٩٥٨.

كان أوَّل شيوخه في معهد الإسكندرية الشيخ «محمد أبو دقيقة»، وقد ترك هذا الشيخ في حياته أثراً لا يمحي، وهو الذي حبَّب إليه الفقه وأصوله، ودربَه وخرَّجه في الفقه حتى تمكن منه، ثم تلقَّى العلم عن أبيه الشيخ «محمد شاكر» الذي قرأ له ولإخوانه شيئاً من التفسير وكتب السنَّة وأصول الفقه والفقه الحنفي والمنطق، ثم وجَّهه والده إلى دراسة علم الحديث منذ سنة ١٩٠٩، وأول اهتمام له قراءة مسند الإمام أحمد بن حنبل، ثم قرأ صحيح مسلم وسنن الترمذي والشمائل له وشيئاً من صحيح البخاري. وقد اتصل بعلماء الأزهر من أهل القاهرة والوافدين عليها أيام كان طالباً

(١) أبو الأشبال أحمد بن محمد شاكر بن أحمد عبد القادر (١٨٩٢ - ١٩٥٨)، عالم مصري بالحديث والتفسير، اشتهر بنشر نصوص التراث الإسلامي. (الموسوعة الإسلامية التركية - استانبول، وهي مقالة تعريفية بطلب من الموسوعة للدكتور الطناحي رحمه الله تعالى).

بالأزهر، ومن العلماء الذين لقيهم وأخذ عنهم وأجازوه: السيّد عبد الله بن إدريس السنوسي، عالم المغرب ومحدّثه، والشيخ محمد بن الأمين الشنقيطي، والشيخ أحمد بن الشمس الشنقيطي، عالم القبائل الملثمة، والشيخ شاعر العراقي، والشيخ طاهر الجزائري، والسيّد محمد رشيد رضا، صاحب «المنار» وغيرهم من علماء السُنّة. وكان لهؤلاء أثر كبير في نشأته التي أدّته إلى أن يستقل بمذهب في علم الحديث. يقول عنه أخوه الصغير الشيخ محمود محمد شاكر: «إمام من أئمة علم الحديث في هذا القرن، وهو أحد الأفاضل القلائل الذين درسوا الحديث النبوي في زماننا دراسة وافية قائمة على الأصول التي اشتهر بها أئمة هذا العلم في القرون الأولى، وكان له اجتهاد عرف به في جرح الرجال وتعديلهم، أفضى به إلى مخالفة القدماء والمحدّثين، ونصر رأيه بالأدلة البيّنة، فصار له مذهب معروف بين المشتغلين بهذا العلم، على قلّتهم. وقد تولى القضاء في مصر أكثر من ثلاثين سنة، فكانت له أحكام مشهورة في القضاء الشرعي، قضى فيها باجتهاده، غير مقلد ولا متبع، وكان اجتهاده في الأحكام مبنياً على سعة معرفته بالسُنّة التي اشتغل بدراستها منذ نشأته إلى أن لقي ربه».

وكان في دراسته وتعليقاته على النصوص يدافع عن أحكام الإسلام وآدابه دفاعاً تفرّده به، ونطق بالحق الذي يراه غير متعصب ولا متلجلج، بحيث أعلن رجوعه عن بعض آرائه القديمة، وعلى سبيل المثال: أنّ الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر، كان يرى أن يكون الحساب الفلكي بديلاً عن الرؤية الشخصية في إثبات أوائل الشهور العربية، فنهض لمخالفته والد الأستاذ أحمد شاكر، وهو محمد شاكر، من كبار العلماء لعهد، وكان الشيخ أحمد ممن يعتقد بدءاً بصحّة فتوى والده، فكتب مقالات تؤيّد منحاه عن ثقة جازمة، ثم بدا له بعد التحقيق والتريث ما يخالف وجهة نظره ونظر والده، فخرج على الناس برسالة كتبها في حياة أبيه يعلن فيها انتصاره لرأي الإمام المراغي. (انظر: البيومي، ١٢٦/٤ - ١٢٧).

أعماله العلمية:

وقد اشتغل الشيخ أحمد محمد شاكر بنشر نصوص التراث الإسلامي بدراسة

كثيرة وتعليقات قيّمة، وإلى جانب ذلك ألّف بعض الكتب المفيدة، منها:

١ - نظام الطلاق في الإسلام، دلّ فيه على اجتهاده وعدم تعصّبه لمذهب من المذاهب، واستخرج فيه نظام الطلاق من نص القرآن ومن بيان السنّة في الطلاق، وترك هذا الكتاب عاصفة من النقد، فنهضت فئة من المجلات الأسبوعية والشهرية لمعارضته، كما ألّف الأستاذ الإمام محمد زاهد الكوثري رسالته: «الإشفاق في أحكام الطلاق» ردّاً على ما ورد فيه.

٢ - كلمة الحق. (القاهرة ١٤٠٧هـ)، هذا الكتاب عبارة عن جمع بعض مقالاته التي كانت قد نشرها في مجلة «الهدي النبوي» التي كان يرأس تحريرها.

وأما ما نشره من نصوص التراث الإسلامي: ففي الحديث:

١ - مسند الإمام أحمد. (القاهرة ١٣٧٧هـ = ١٩٥٧). وهو يعتبر أهم أعماله العلمية التي عمل عليها إلى أن وافته المنية، ونشر خمسي الكتاب في ١٥ مجلّداً. وقد بلغت الأحاديث التي ضبطها وحققها ٨١٠٠ حديث من المسند الذي يبلغ عدد أحاديثه حوالي ٤٠,٠٠٠ حديثاً. وتوفاه الله بعد أن حقّق جزءاً من ٦٨٠ حديثاً من المجلّد السادس عشر، وأتمّ ما بقي من هذا المجلّد الدكتور الحسني عبد المجيد هاشم. ويحتوي ما كتبه الشيخ في مقدمة الكتاب المعنونة بـ «طلّاع الكتاب» معلومات قيّمة. وقد جعل لأحاديث الكتاب أرقاماً متتابعة، وخرّجها من حيث إسنادها صحّة وحسناً وضعفاً، وحقّق أسماء المحدثين وأعلام الإسناد، وذكر الأحاديث التي تقوي الأحاديث الضعيفة من حيث الإسناد.

٢ - الجامع الصحيح، للترمذي. وهو من أعماله التي لم يتمكّن من إكمالها، ونشر المجلّد الثاني مع مقدمة تبلغ ٩٦ صفحة، ومعلومات هامشية واسعة النطاق. (القاهرة ١٣٥٧ - ١٣٥٩هـ = ١٠٣٨ - ١٩٤٠م).

٣ - معالم السنن، للخطابي. شارك الشيخ محمد حامد الفقي في نشره. (القاهرة ١٩٤٨م).

٤ - اختصار علوم الحديث، لابن كثير. وقد قام بشرح هذا الكتاب القيم في

علم أصول الحديث ونشره باسم: «الباعث الحثيث إلى معرفة علم الحديث». (القاهرة ١٣٥٥هـ).

وفي التفسير:

١ - جامع البيان، للطبري. شارك أخاه الشيخ محمود محمد شاكر في نشره، فتولَّى جزءاً من تخريج أحاديثه إلى الجزء التاسع، وعلّق على بعضها إلى الجزء الثالث عشر. (القاهرة ١٩٥٥ - ١٩٦٠م).

٢ - تفسير القرآن العظيم، لابن كثير. وقد شرع في اختصار هذا التفسير وسمّاه «عمدة التفسير» وأصدر منه خمسة أجزاء بينما كان يفكر أن يتمه في عشرة أجزاء. (القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٥٧م). ولم يذكر أثناء اختصاره أسانيد الأحاديث كما لم يذكر الإسرائيليات، والأحاديث الضعيفة والمكررة، وبعض المباحث الفقهية والكلامية.

وفي الفقه:

١ - الرسالة، للإمام الشافعي. ويعدّ تحقيقه لهذا الكتاب أكبر دليل على إتقانه وبراعته في إخراج النصوص القديمة على أعدل المناهج وأقومها، بل إنّ تحقيق هذا الكتاب يعدّ إيذاناً ببدء مرحلة جديدة تماماً من النشر العلمي العربي المستكمل لكل أسباب التوثيق والتحقيق والموصول بما سنّته الأوائل وأصلّوه. (القاهرة ١٩٣٨م).

٢ - جماع العلم، للشافعي. (القاهرة ١٩٤٠م).

٣ - المحلّى، لابن حزم. شارك في نشره الشيخ محمد حامد الفقي. (القاهرة، بدون تاريخ، دار التراث، بيروت).

٤ - كتاب الخراج، ليحيى بن آدم. (القاهرة، ١٣٤٧هـ).

وفي الأدب:

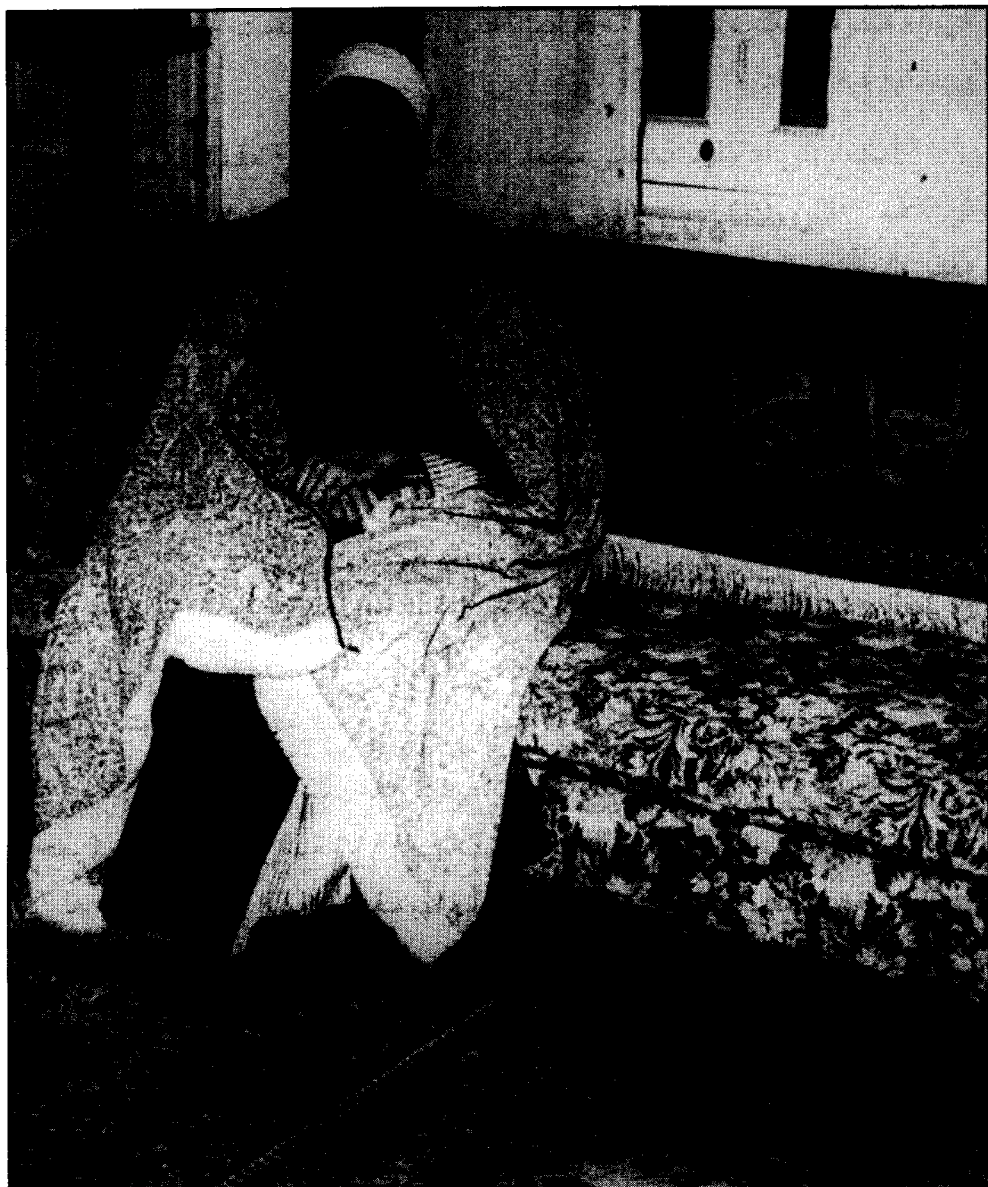
١ - الشعر والشعراء، لابن قتيبة. (القاهرة ١٣٦٤ - ١٣٦٦هـ).

٢ - المغرب، لأبي منصور الجواليقي. (القاهرة ١٩٤٢).

٣ - المفضليات، للمفضل الضبّي. (القاهرة ١٩٥٢م).

٤ - الأصمعيّات، للأصمعي. (القاهرة ١٩٥٥).

وشارك في نشر الكتابين الأخيرين ابن خاله الأستاذ عبد السلام محمد هارون.



سورتي يوم اشهدنا ٢ جاري الآخرة ١٤٧٥
 ١٧ فبراير ١٩٥٤
 أحمد محمد شاكر

صورة الشيخ أحمد محمد شاكر، والتاريخ أسفل الصورة بخطه رحمه الله

فؤاد سيّد.. العالم الذي فقدناه^(١)

في صباح يوم الأحد الثاني من رمضان سنة ١٣٨٧هـ - الثالث من ديسمبر سنة ١٩٦٧م دعي الأستاذ فؤاد سيّد فأجاب وخسرت مصر والعالم العربي بوفاته عالمًا فردًا، ظل يعمل في دنيا المخطوطات العربية قرابة الأربعين عامًا، درسًا وتمثلاً وتصنيفًا؟.

إن حياة هذا الرجل صورة فذة، جمعت أجزاءها كل جلال النبوغ الفطري والتحصيل الذكي الدؤوب والعصامية التي استعلت على قسوة المنشأ وباركتها عناية الله حتى استوت علمًا نافعا فيه خير وبركة ونماء.

ولد الأستاذ فؤاد سيّد عمارة في القاهرة (بدرب الأغوات في حي الدرب الأحمر) يوم ٢٠ أكتوبر سنة ١٩١٦م لأب رقيق الحال، توفي عنه سنة ١٩٣٢م، ولم تكن له عمومة يعتزى إليها ويشرف بها، أو خوولة تصونه وترعاه، فذب على الطريق وحيداً إلا من دعاء أم لا تملك سوى الدعاء وقد أشقاها الترميل وأزّقها الخوف على الصبي اليتيم، ولم يصب الفتى من التعليم غير مرحلة «الكتاب» ثم أربع سنوات قضاها بمدرسة عبد الباقي الشوربجي الأولية بشارع جامع البنات، ويترك الصبي المدرسة ليعمل بمطبعة كانت تسمى المطبعة الملوكية، بجوار دار الكتب المصرية على يمينك وأنت تريد ميدان العتبة.

وفي سنة ١٩٢٩م يلتحق الصبي بدار الكتب المصرية عاملاً بمطبعتها في تصفيف الحروف، ثم يدلف الفتى على استحياء إلى مخازن الدار وفهارسها العربية

(١) مجلة «المجلة»، مارس ١٩٦٨م.

فتبهره صفوف الكتب ويعيش مع تراها أحلى قصة كفاح نسجت خيوطها موهبة فذة
ورفدتها عبقرية نادرة.

استمع إلى الأستاذ المحقق محمد عبد الجواد يصفه في هذه المرحلة من حياته
في كتابه: «تقويم دار العلوم الذي صدر عام ١٩٥٩م» يقول: «من أكثر من ربع قرن
مضى توجهت إلى دار الكتب المصرية، أبحث عن موضوع لغوي، فصادفني بين
ولدانها فتى في منتصف العقد الثاني من عمره، طلب إليه الأمين أن يجيب طلبتي،
فإذا بي أمام مطلع عالم بالموضوع، وأضاف إلى إجابته ذكر جملة من المظان التي
يصح الرجوع إليها فيه. فعجبت لهذا الشاب وتمنيت لو أن «دار الكتب» يكون بين
موظفيها عدد من المرشدين من مثله، والذين أدعواهم «فهارس ناطقة».

وبعد أن يعدد الأستاذ عبد الجواد آثار الفقيه يضيف: «وترى فؤاداً هذا — في
تحقيق المخطوط «ح» (يقصد طبقات الأطباء والحكماء) — عالماً من كبار العلماء
بدقائق الحقائق التاريخية، وكتب السير والطبقات، فضلاً عن سعة الاطلاع والتمكن
من المادة التي يبحث عنها ويفحص عن صحتها. أما المباحث اللغوية وتحقيق
الأسماء والمصطلحات، فتعجب عند اطلاعك على مجهوده، كيف يتكلم عن
اليونانية واللاتينية، إلى الفرنسية والألمانية والتركية وغيرها، واثقاً مما يقول مرجحاً
مضعفاً». انتهى كلام الأستاذ محمد عبد الجواد.

وفي هذه الحقبة من التاريخ كانت دار الكتب المصرية تضم نفراً من العلماء
الأفذاذ الذين نذروا حياتهم لخدمة التراث العربي والفكر الإسلامي في صمت
معجب، حيث قدموا شوامخ النصوص العربية، كتفسير القرطبي والأغاني والنجوم
الزاهرة ونهاية الأرب، على أدق ما يكون الإخراج ضبطاً وتحقيقاً. ومن هؤلاء
العلماء أذكر الأساتذة عبد الرحيم محمود وزكي العدوي وحسن حسين وعبد المجيد
الأفدي ومحمود إمام. وبرز من بين هذا النفر الكريم الشيخ محمد عبد الرسول،
وكان رحمه الله حجة في المخطوطات العربية، وتتوثق صلة الفتى به ويتلمذ له
فيصيب على يديه خيراً كثيراً.

وقد اضطر فقيدنا في هذه المرحلة من حياته إلى أن يأكل من نسخ الكتب، فنسخ كثيراً من المخطوطات. وقد حدثني أن يديه لا تزالان ترتعشان من طول ما نسخ. وحقاً ما قال، فقد كنت إذا حدثت فيه وهو يكتب لا تخطيء رعدة خفيفة في يديه. ومن الذين كان ينسخ لهم — كما حدثني — الدكتور محمود الخضيري أستاذ الفلسفة الإسلامية رحمه الله، والمستشرق الفرنسي شال كونس المشتغل بتحقيق كتاب «الجيم» لأبي عمرو الشيباني.

وكان رحمه الله يفخر بنسخ الكتب ويقول لي: إنه مهنة العلماء كياقوت الحموي صاحب معجم الأدباء. وبفضل هذا النسخ حصّل كثيراً من المعارف، ووعت ذاكرته ما لا يحصى من أسماء الكتب. وحين أصبح قادراً على تمييز الخطوط وردها إلى العصر الذي كتبت فيه، استناداً إلى نوع الحبر وكثافة الورق وطريقة الكتابة، من إهمال للنقط أو إعجام. أضف إلى هذا أن خطوط العلماء كانت متميزة في عينه، فهذا خط الصلاح الصفدي، وذاك قلم ابن حجر العسقلاني. وكان يقول لي: إن خط الصفدي لا تخطئه العين، فهو خط منسق جميل، ومن خصائصه كيت وكيت، وإن قلم ابن حجر لا يتوقف فتكاد كلماته تتشابك. وكذلك كان.

وكان غفر الله له نسيج وحده في قراءة ما يكتب في صدر المخطوط من إجازات أو تملكات أو توثيق، ثم كان حجة في تقويم كل ذلك وبيان زيفه من صحيحه، مع قدرة فائقة على قراءة الكلمات المصحّفة وتقويم العبارات المزالة عن وجهها. ويا لحسرة القلب، لقد مات بموت هذا الرجل علم كثير. وكم كنا نتمنى أن ينسأ الله في أجله حتى نستطيع نحن أبناء هذا الجيل أن نعي شيئاً من هذا العلم الكثير، كما كان هو يتمنى أن يمتد به العمر ويكفي السعي المضني وراء الرزق ليدوّن هذا المحصول فتخرج تلك المعرفة إلى الناس في كتاب مقروء.

أجل، كان الأستاذ فؤاد سيّد وريث تلك المدرسة الجليلة التي أحببت المخطوطات العربية ووقفت عليها مالها ومنحتها كل حياتها، مدرسة محمد محمود الشنقيطي وأحمد تيمور وأحمد زكي.

ونعود إلى الخط الوظيفي للفقيد، فنراه يظل يعمل في قسم الفهارس العربية إلى أن منح في سنة ١٩٥١ لقب أمين المخطوطات بصفة شرفية، وكان حينئذ يقوم بفهرسة المخطوطات وتصنيفها. ولما قامت دار الكتب بفصل المخطوطات عن المطبوعات في جناح خاص بها أصدر مدير الدار (وكان في ذلك الوقت الأستاذ السيد فرج وكيل وزارة الثقافة الآن) قراراً بتسليمه عهدة مكتبة المخطوطات والقيام بشؤونها، وصار أول أمين للمخطوطات بالدار. وقد قام في عمله الجديد بالأعمال الآتية:

- ١ — الخدمة المكتبية وإرشاد الباحثين.
 - ٢ — اختيار جميع المخطوطات والوثائق التي تحتاج للتجليد والترميم ووضع المواصفات الفنية اللازمة لذلك حفاظاً عليها وصوناً لها، لما لهذه المخطوطات من معالم تاريخية وفنية.
 - ٣ — اختيار المخطوطات القيمة والنادرة لتصويرها بالميكرو فيلم أو التكبير.
 - ٤ — تزويد المكتبة بصورة من بطاقات جميع المخطوطات المحفوظة بالدار لتيسير وسائل البحث والمراجعة لجمهورها من المستعيرين.
 - ٥ — إعداد دفتر خاص للكتب المعارة داخل هذه المكتبة أو عند موظفي الدار أو في الخارج، وإصدار إحصائيات شهرية سنوية بحالة الإعارة فيها.
 - ٦ — المشاركة في إعداد سجلات خاصة للمخطوطات تكون صورة مطابقة لما في مخازن المخطوطات من الكتب، لتصير أساساً لجرد هذه المكتبة وحصر محتوياتها.
- وقد كان من أثر هذه التنظيمات التي تمت لأول مرة في تاريخ دار الكتب أن حققت هذه المكتبة رسالتها العلمية على خير ما يجب من النفع للمتريدين عليها من الباحثين والعلماء العرب والمستشرقين.
- ولما كان رحمه الله سكرتيراً للجنة شراء المخطوطات ولجنة حماية

المخطوطات وصيانتها، فقد يسر له إشرافه على هذه المكتبة إنجاز أعمال هاتين اللجنتين بصورة مباشرة كان لها أثر كبير في النتائج الإيجابية التي حققتها هاتان اللجنتان.

ومع ذلك فإن عمله في أمانة المخطوطات وسكرتارية هذه اللجان وإعداد جداول أعمالها وتنفيذ قراراتها لم يحل دون مساهمة فعالة مع قسم حماية التراث في فهرسة المخطوطات وتصنيفها. وقد قام فعلاً في هذا الصدد بالأعمال الآتية:

١ - إخراج فهرست مخطوطات مصطلح الحديث، على منهج علمي مفصل للمرة الأولى في تاريخ دار الكتب. صدر سنة ١٩٥٦ م.

٢ - فهرسة جميع ما يرد للدار تباعاً من المخطوطات والمصوّرات.

٣ - إعداد فهرست لجميع ما أضيف لمخازن الدار من الكتب الخطية من سنة ١٩٣٦ م إلى سنة ١٩٥٥ م ويحوي ما يقرب من ثمانية آلاف كتاب ورسالة. وقد ظهر في ثلاثة أقسام: القسم الأول (أ - س) وصدر سنة ١٩٦١ م. القسم الثاني (ش - ل) وصدر سنة ١٩٦٢ م. القسم الثالث (م - ي) وصدر سنة ١٩٦٣ م.

٤ - نشرة عن مؤلفات ابن سينا وشروحها الموجودة بالدار. صدرت سنة ١٩٥٠ بمناسبة العيد الألفي لابن سينا.

ولم يقف نشاط الفقيد محصوراً داخل دار الكتب المصرية، بل تعداه إلى كل الهيئات المعنية بالتراث العربي، فحين أنشئ معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية ظل رحمه الله على صلة به ومشاركة في أعماله، حتى انتدب ابتداء من سنة ١٩٥٣ م ليكون خبيراً بالمعهد. وقد أنجز لهذا المعهد عدة فهارس، صور أولها عام ١٩٥٤ م وهو فهرس عام لمقتنيات المعهد. والفهرس الثاني خاص بعلم التاريخ، وجاء في مجلدين، ظهر الأول سنة ١٩٥٧ م، والثاني سنة ١٩٥٩ م. ثم عمل فهرساً ثالثاً للمعارف العامة نجز سنة ١٩٦٦ م.

ولم يكن إخراج الفهارس جافاً واقفاً عند حدود المادة المكتبية، بل كنت

تحس فيه بدقة العالم وتصرف المثبت المحقق. استمع إليه في مقدمة الفهرس العام لمعهد المخطوطات: «وقد عنيت عناية شديدة بذكر اسم المؤلف كاملاً مصحوباً بكنيته ولقبه ونسبه، مع التحري الدقيق لتاريخ وفاته، أو تعيين القرن الذي عاش فيه معتمداً في ذلك على كتب التراجم والطبقات. وكنت حريصاً على التعريف بالكتاب ومحتوياته وتبويبه وذكر ما يشمله من موضوعات، ما وافقني بذلك المصادر والأصول. وعنيت أيضاً بعمل إحالات متعددة للكتب التي لها أسماء مختلفة، أو اشتهرت بعناوين معينة، أو كانت اختصاراً أو شرحاً لكتب أخرى، كما أن الكتب التي تبحث في أكثر من موضوع كررت ذكرها في فنونها المتعددة، كل ذلك تيسيراً للباحث وعوناً له على الوصول إلى طلبته من أية مظنة».

وكان رحمه الله على صلة ومشاركة في أعمال معاهد الاستشراق بمصر وعلى وجه الخصوص المعهد الفرنسي. ولما أنشأ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالجمهورية العربية المتحدة فرعاً لنشر التراث الإسلامي عام ١٩٦٠م كان رحمه الله عضواً فيه من أول جلسة.

وفي العام الفائت أنشأت وزارة الثقافة معهداً ملحقاً بدار الكتب المصرية لتحقيق النصوص ونشرها يلتحق به خريجو الجامعات. وقد اختير رحمه الله ليحاضر في هذا المعهد.

رحلاته العلمية :

حجَّ رحمة الله عليه مرتين، زار خلالهما مكتبات مكة والمدينة، واطَّلَعَ على نفائس المخطوطات هناك، وتوثَّقت صلاته بعلمائهما.

وفي سنة ١٩٥٧م، انتدب ضمن بعثة لزيارة مكتبة دير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء، لدراسة ما تحويه من مخطوطات أثرية وتقديم تقرير بما يجب اتباعه لحفظ هذه المخطوطات وحمايتها.

ثم كانت رحلتاه إلى اليمن، الأولى سنة ١٩٥٢م، والثانية ١٩٦٤م، في بعثة برياسة الدكتور خليل نامي أستاذ فقه اللغة بآداب القاهرة. وفي هاتين الرحلتين

اكتُشف لأول مرة تراث طيب لفكر المعتزلة، تناول عليه العمر، مختبئاً في سراديب الظلام. وقد نشر من هذا التراث المكتشف ثلاثة نصوص للقاضي عبد الجبار: المغني، والمجموع المحيط بالتكليف، ثم شرح الأصول الخمسة. ولا يزال هناك الكثير من تراث المعتزلة مما صور من اليمن ينتظر الدراسة والنشر. وكان الموجود من هذا التراث بين يدي الناس لا يزيد على الكتب الثلاثة. وترجع أهمية هذا التراث — كما كان يحدثني الأستاذ رحمه الله — إلى أنه يعرض لفكر المعتزلة بأقلام أئمة الاعتزال أنفسهم، وكان كل ما يكتب قبلاً عنهم إنما يأتي من قبل خصومهم، وفي هذا ما فيه.

وفي شهر مايو من العام الماضي كانت آخر رحلاته رحمه الله، حيث دعاه المعهد الجامعي الشرقي بنابولي للقيام بدراسات علمية في التراث الإسلامي والمخطوطات العربية. وقد لقي هناك ترحيباً كريماً من جمعيات الاستشراق ولبث شهرين يعاون طلبة الدراسات العليا على فهرسة محتويات المعهد من المخطوطات العربية، ويرشد ويوجه أصحاب الدارسات والبحوث إلى المراجع العلمية التي تخدم بحوثهم.

آثاره العلمية:

من الناس من يشغل بغيره عن نفسه، وتستعلن آثاره أو تتوارى في جهود سواه، وهو في كل ذلك سعيد بما يبذل من وقته وفكره، وسواء أذاع الناس فضله أم جحدوا فهو حيث هو، لا يتحول ولا يريم، لأنه يرضي سخاء نفسه الراغبة في البذل والعطاء.

وقد كان الأستاذ — أجره الله — من هذا الصنف من الناس، فقد فرضت عليه ظروفه الوظيفية في الإرشاد والتوجيه، ثم قبل كل ذلك قلبه المحب للناس الراغب فيهم المستزيد من صداقتهم، فرض عليه كل ذلك أن يعيش لغيره وأن يقف وقته لتلبية الرغبات وقضاء الحاجات. وقد كنت أرى الرسائل أكواماً تلاحقه في مكتبته وفي بيته من الدارسين والمحققين، وقد تأخذ الرغبات بتلابيبه فيبدو منه بعض الضجر، ولكنه

سرعان ما يثوب إلى نفسه السخية المعطاء فيلبس ويعجب . وافتح أي كتاب شئت من نصوص التراث المنشور لترى آثار علمه وفضله ، يذكرها الناشرون تكريماً للرجل وتزكية لعملهم .

لكن الله بارك له في وقته وسُنِّي له أن يُخرج بعض النصوص حاملة اسمه ، وقد أبان فيها عن علم كثير . ففضلاً عن الفهارس العلمية التي صنعها لدار الكتب المصرية ومعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، حقق رحمه الله هذه النصوص ، وهي بحسب ترتيبها الزمني :

١ — طبقات الأطباء والحكماء ، لأبي سليمان بن حسان الأندلسي المعروف بابن جُلْجُل (بجيمين مضمومتين) من علماء القرن الرابع الهجري . وقد كان الفقيه رحمه الله يعتز كثيراً بهذا الكتاب ويعمله فيه . وقد قدم له بمقدمة علمية قيمة ، قال فيها : « هذا كتاب يعتبر وثيقة هامة في تاريخ العلوم وتطور حركة التأليف والترجمة في القرن الرابع الهجري الذي يعد بحق العصر الذي ازدهرت فيه الحضارة الإسلامية ونمت وبلغت غايتها من الإنتاج الواسع في شتى ميادين العلوم والآداب .

ولعل ميزة هذا الكتاب الأولى التي جعلت له قيمة علمية خاصة ونصاً قديماً له خطره في تاريخ العلم أن مؤلفه يعتمد فيما رجع إليه من مصادر على تراجم عربية لأصول لاتينية تاريخية . فقد عهدنا دائماً أن أكثر الكتب التي نقلها العرب أو غيرهم من المترجمين كانت عن أصول يونانية ، والقليل منها عن اللغات الفارسية والسريانية والهندية ، وأنهم أكثروا من النقل والترجمة عن هذا الطريق ، ولكننا لم نظفر — إلا قليلاً جداً — بنصوص عربية ترجمت عن اللغات اللاتينية . وربما كان كتابنا هذا أول كتاب استفاد من هذه الترجمات التي نرجح أنها تَمَّت في عصره أو قبله بقليل » .

ثم يمضي الأستاذ في مقدمته متحدثاً عن مصادر الكتاب ، وعن هذا اللون من التصنيف ، متتبِعاً المسار الزمني له . وقد وقف رحمه الله عند بعض النصوص التي أوردها ابن جُلْجُل ، والتي تذكر صراحة قدم حركة النقل والترجمة في صدر الدولة الأموية . وكان الشائع أنها تمت في العصر العباسي وفي عصر المأمون بالذات .

وهذا النص هو ما جاء في صفحة ٦١ من الكتاب أثناء ترجمة ماسرجويه الطبيب البصري الذي عاش في الدولة الأموية، وتولّى أيام حُكم مروان بن الحكم (٦٤ - ٦٥هـ) ترجمة كتاب «أهرن بن أعين القس» إلى العربية. وكان أهرن من الأطباء الذين عاشوا في الإسكندرية في عصر هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) في صدر الإسلام، ووضع «كناشة» باللغة اليونانية ثم نقله إلى السريانية، إلى أن قام بترجمته إلى العربية ماسرجويه المذكور. وقد ذكر ابن جُلجل في هذه الترجمة أن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ) وجده في خزائن الكتب (الأموية) وأنه استخار الله في إخراجه إلى المسلمين.

وكثيراً ما كان الأستاذ رحمه الله يدلني على قيمة هذا النص، ويكثر من الحديث حوله. وقد طبع هذا الكتاب أول مرة بمطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة سنة ١٩٥٥، ثم أعادت مكتبة المثنى ببغداد طبعه بالأوفست منذ ثلاث سنوات، بعد أن عزّت نسخه، فقدمت بذلك خدمة جلييلة للعلم والعلماء.

٢ - طبقات فقهاء اليمن، لابن سمرة الجعدي، عمر بن علي المتوفى بعد سنة ٥٨٦هـ، وهو أول كتاب يظهر خاصاً بعلماء اليمن. وترى في آخره فهرساً لبلاد اليمن، صنعه الفقيه، آية في الثبُت والتحري والاستقصاء. وقد طبع هذا الكتاب بالقاهرة سنة ١٩٥٧م، وجعله الأستاذ الحلقة الأولى في سلسلة «المكتبة اليمنية» التي كان يريد أن يمضي في نشرها.

٣ - شروط المؤرخ في كتابة التاريخ (مجموعة فتاوى لبعض العلماء فيما يشترط في المؤرخ لكتابة التاريخ من الجرح والتعديل)، نشرت بمجلة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية سنة ١٩٥٧.

٤ - إعارة الكتب عند الأقدمين (نصان قديمان لليزيدي والسيوطي)، نشرت بمجلة معهد المخطوطات سنة ١٩٥٨م.

٥ - الوسيط في تراجم أدياء شنقيط (موريتانيا) للشنقيطي أحمد بن الأمين. أشرف الفقيه على طبعه وقدم له. طبع بالقاهرة سنة ١٩٥٩م.

٦ - العبر في خبر من عبر^(١)، للحافظ الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨هـ، وهو مختصر لكتابه الكبير «تاريخ الإسلام»، حقق الأستاذ منه الجزئين الثاني والثالث. وطبع بالكويت سنة ١٩٦١م.

٧ - العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (مكة) لتقي الدين الفاسي المتوفى سنة ٨٣٢هـ وهو أكبر موسوعة في تاريخ مكة ومن عاش فيها أو دخلها أو سكنها من العلماء والفقهاء والشعراء والأدباء وغيرهم. هذا فيه مؤلفه حذو الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، والحاكم النيسابوري في تاريخ نيسابور، وابن عساكر في تاريخ دمشق، والسمعاني في تاريخ مرو. والكتاب في ثمانية أجزاء، حقق الفقيه العزيز منه الأجزاء من الثاني إلى السابع، وأعجلته المنية عن إتمام الثامن. وقد كان في نيته رحمه الله أن ينشر «ذيل العقد» لابن فهد المكي تلميذ الفاسي. وقد رأيت بعيني مدى ما كابده الأستاذ من جهد في تحقيق الكتاب. ومكة البلد الأمين مهوى الأفئدة ومطمح الأنفس، ارتبطت أرضها الحرام بأداء ركن من أركان الإسلام، فلن تجد عالماً من علماء الإسلام إلا وردها حاجاً مجاوراً. ومن هنا كثرت تراجم هذا الكتاب، وانفسح مجال القول أمام الفاسي، فأكثر من النقول والنصوص، ونقل أسماء المترجمين ووفياتهم من أحجار القبور (وتلك منزلة عليا في درجات التأريخ). فكان لزاماً على من يتصدى لتحقيق مثل هذا العمل أن يشارف ذلك المستوى في التحقيق والتوثيق. وقد فعل الرجل، ورجع إلى مصادر الفاسي، مطبوعها ومخطوطها - وما أكثره - وصحح كثيراً من الأسماء والبلدان.

وقد كان رحمه الله حجة في ضبط الأعلام والأنساب. وعلى هذا الذكر أقول إن الأستاذ كان كثير الرجوع في ضبط الأعلام إلى «تاج العروس» للمرئى الزبيدي، وكان دائم الإشادة بالتاج فيما يتصل بذكر الأعلام والأنساب والألقاب والبلدان. وكان يقول لي كثيراً: إن هذه فضيلة للتاج عري عنها «لسان العرب» لابن منظور. وقد ابتدأ طبع العقد الثمين بالقاهرة سنة ١٩٥٩م، وحقّق الفقيه الجزء الثاني عام ١٩٦٢م.

(١) انظر في ضبط اسم الكتاب ص ٢٩٧، في مقالة الطناحي حول الهجرة وكتابة التاريخ الإسلامي.

وحين توفي رحمه الله كان في برنامجه تحقيق جملة صالحة من الكتب أذكر منها :

١ — نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، للإدريسي . وكان يقوم على طبع هذه الموسوعة الجغرافية إحدى جمعيات الاستشراق بإيطاليا، عهدت إلى الفقيه تحقيق القسم الخاص باليمن، ووزعت بقية الأجزاء على خمسة عشر عالماً ومستشرقاً، وكان رحمه الله على نية العمل في هذا الكتاب خلال شهر رمضان الذي لقي ربه فيه .

٢ — طبقات المفسرين ، للداودي تلميذ السيوطي .

٣ — فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة للقاضي عبد الجبار، وهو من التراث الذي اجتلبه من رحلتي اليمن .

٤ — جزء من مختصر تاريخ دمشق لابن منظور، الذي يخرج معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

ثقافته :

لم ينل فقيداً من إجازات التعليم سوى الشهادة الابتدائية، حصل عليها سنة ١٩٤٣م بعد أن سلخ من عمره ٢٧ عاماً، وقد اضطر إلى الحصول على هذه الإجازة الصغيرة لينتقل من طبقة العمال والسعاة إلى طبقة الكتبة والموظفين بدار الكتب المصرية .

ثم التحق بمدرسة «برليتس» ليصيب طرفاً من اللغة الفرنسية . هذا هو كل تعليمه المدرسي، لكنه رحمه الله كان ذا نفس طلعة، حبيت إليه المعرفة في كل فروعها فراح ينشدها من بطون الكتب وأفواه الرجال . وكان حصاد هذا كله سعة أفق ورحابة صدر ومضاء عقل ونفاذ بصيرة .

اتَّصل رحمه الله بالتراث الإسلامي صبيّاً بحكم عمله في دار الكتب المصرية، وتلمذ هناك لمشيخة جليلة — أسلفت الحديث عنها — شدته إلى التحصيل، فحفظ المعلقات السبع وعيون الشعر العربي فاستقام لسانه .

على أن هناك شخصية كريمة بهرت الفقيه العزيز فأقبل عليها وأفاد منها الخلق

الرضي والعلم النافع، وما كان رحمه الله يذكر هذه الشخصية إلا وتطفر من عينيه الدمعة، تلك هي شخصية الشيخ محمد زاهد الكوثري علامة وقته ونادرة زمانه، ولد رحمه الله بشرقي الآستانة ونزل القاهرة فراراً من اضطهاد الكماليين، حيث توفي بها سنة ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م، وقد أجاز الشيخ الكوثري فقيداً في ليلة الجمعة ٢٠ من رمضان سنة ١٣٧١هـ في السنة التي توفي فيها، وكانت آخر إجازة يمنحها الشيخ لتلاميذه. ونص الإجازة: «وممن استجازني الأستاذ الفاضل البحاث الواسع الاطلاع السيد فؤاد السيد عمارة، كان الله له حيثما يكون، ورعاه في كل حركة وسكون. وبعد أن اطلع على كثير من مؤلفاتي وسمع مني حديث الرحمة المسلسل بالأولية، أجزته أن يروي عني جميع ما تصح لي وعني روايته من حديث وتفسير وفقه وأصول وتوحيد ومصطلح وتاريخ وحكمة وعربية».

وفي آخر المطاف تركز علم الفقيه في نقطتين اثنتين لا يشركه فيهما سواه: فكر المعتزلة، والإحاطة بجغرافية اليمن وعلمائها. هاتان النقطتان فرغ لهما نفسه وصرف إليهما جهده، حتى ملك القول فيهما غير مدافع ولا مزاحم. وقد قدر لي — وأنا آخذ عنه وأتلقى منه — أن أشهده وهو يخطط لتحقيق «فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة»، و «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» فرأيت عجباً، يرحمه الله.

أما الحديث عن ظرفه وخفة ظله فيرجع إلى أنه تعرف في شبابه على أعلام الظرف والفكاهة في ذلك العصر، من مدرسة الشاعر الزجال حسين شفيق المصري، وكان رحمه الله أمة في الرواية والحفظ — ومعارضاته للمعلقات السبع معروفة — وكانت لفقيداً خصوصية بهذا الشاعر الكبير، أفاضت عليه الكثير من خفة الروح وعذوبة الحديث. ووعت حافظته كثيراً من شعر حسين شفيق، لم يدون.

وقد حدثني رحمه الله عن جماعة من ظرفاء الأدباء كانت تلتقي بدار الكتب في ذلك الوقت في حلقة يسمونها «البعكوكة» على يسارك وأنت تدخل الدار الآن. وحول هذه الحلقة رويت أشعار ورنث ضحكات. وقد لا يعلم الكثيرون أن للأستاذ فؤاد أزجالاً طيبة. ولولا اشتغاله بالتراث لكان له في عالم الرجل شأن كبير.

من هذه الروافد الخصبة تكونت ثقافته ونمت معارفه، وبارك الله في أيامه فجعل أفئدة من الناس تهوي إليه تفيد وتستفيد، وكانت الرسائل ترد عليه من كل رجا تصل إليه الكلمة العربية، وأصبح مكتبه وبيته مثابة لكل طالب علم. وكنت أرى الناس حوله من مختلف الأسنان وشتى المذاهب وكلهم دان منه، قريب إليه، فأتمثل:

تمل الندامى ما عداني فإنني بكل الذي يهوى نديمي مولع
فقد كانت كلماته حبيبة إلى كل قلب، خفيفة على كل سمع، يمزج الفائدة العلمية بالنكتة العذبة، مع نقاء طبع وصفاء روح، فلم يكن رحمه الله يصبر على خصومة أو يطيل جفاء، فإذا بدرت منه البادرة فهو سريع الأوبة مزيل الجفوة. وظل رحمه الله يعيش أجمل وفاء للناس، حتى مات في لحظة وفاء، حين رأى أم ولده ورفيقة عمره تصاب بشلل مفاجئ، فاجتاحته المصيبة، ولم يعيش بعدها سوى يوم واحد، ليتركنا في يوم حزين، وتطوى صفحة مضيئة من صفحات النبوغ والمعرفة لفتى نحيل دخل دار الكتب عام ١٩٢٩ عاملاً يصفف الحروف في المطبعة، وقبل وفاته بأربعة أشهر ذهب يحاضر في معاهد إيطاليا عن المخطوطات العربية، وبين هذا وذاك جهد دائب وعلم نافع.

اللَّهُمَّ إنا نسألك أن تتغمّد ذنبه، وأن تمهد عذره، وأن تنير قبره، وأن تجعله مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.



رشاد عبد المطلب.. والديار التي خلت^(١)

كان ملء السمع والبصر، وكانت حياته بهجة للقلب والعقل جميعاً، وحين نعه الناعي كادت النفس أن تفيض عليه، وغشي القلب حزن أسود كثيب، من هول الرزء وفداحة المصاب، ولم يجد محبوبه وعارفو فضله إلا قول أبي الطيب المتنبّي: طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فزعت فيه بآمالي إلى الكذب حتى إذا لم يدع لي صدقه أملاً شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي ولد محمد رشاد عبد المطلب في حي الجمالية بالقاهرة يوم الأربعاء ٢٠ من جمادى الأولى سنة ١٣٣٥هـ - ١٤ من مارس سنة ١٩١٧م، وتوفي بالقاهرة يوم الأحد ٢٩ من ذي الحجة سنة ١٣٩٤هـ - ١٢ من يناير سنة ١٩٧٥م.

وبين هذين التاريخين حياة غريبة موهلة في الغرابة، عجيبة مسرفة في العجب، وما ظنك بامرئ لم ينل من الشهادات - فاتحة الأبواب ومانحة المناصب - إلا الشهادة الابتدائية، ثم هو مع ذلك باسط سلطانه على كل من كتب سطرّاً في التراث الإسلامي طيلة ثلاثين عاماً، غيبة أو حضوراً، يفرع إليه الدارسون، وترد عليه الفتاوى من كل مكان، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ولأمر أرواده الله كانت خطوات فقيدنا الأولى في حي الجمالية، حيث الأزهر الشريف مهوى الأفئدة ومطمح الأنفس، وحيث الوراقة والورّاقون، والكتب الصفراء صانعة الرجال، وحيث القاهرة بكل عطائها السخي وعطرها الأخاذ.

(١) مجلة «الثقافة»، يوليو ١٩٧٥م.

ويختلف فقيدنا إلى حلقات الأزهر الشريف، وكانت في ذلك الوقت متاحة لكل راغب علم وطالب معرفة، ثم كانت تضيء بالكوكبة اللامعة من مشايخ هذا العصر، أمثال الشيخ الدلجموني، والشيخ السمالوطي، والشيخ محمد بخيت المطيعي، ومن إليهم.

فإذا ما أصاب من هذه المائدة الحافلة ما شاء الله له، خرج إلى أسواق الكتب المنتشرة في جنبات هذا الرحاب الكريم، يجمع نواذر الكتب، ثم يعرج على مطابع الحي، أمثال مطبعة الحلبي، ومطبعة الخشاب، يتسقط أخبار الجديد من المطبوعات، وقد بلغ حرصه وتتبعه — كما أخبرني — أنه كان يمر على هذه المطابع كل أسبوع، ليأخذ ملزمة ملزمة من كل ما يطبع، وكأنه لا يصبر حتى يتم طبع الكتاب.

فإذا كان الليل هرع إلى حلقات قراء القرآن الكريم، أمثال الشيخين علي محمود وأحمد ندا، وأضرابهما من هذا النفر الكريم، الذين جمعوا إلى حسن الصوت خشوع الأداء. فكان له من كل ذلك هذه الشخصية النادرة التي بهرت الناس وملأت حياتهم خيراً وبركة.

على أن هناك عالمين جليلين، كان لهما أكبر الأثر في حياة رشاد عبد المطلب وتبصيره وتوجيهه إلى هذا الفن الذي أخلص له عمره، ووقف عليه جهده، لا يصرفه عنه صارف، ولا يزهده فيه مزهد:

أولهما: الشيخ محمد زاهد الكوثري، العالم التركي الجليل، الفار بدينه وعلمه إلى القاهرة، والمتوفى بها سنة ١٣٧١هـ — ١٩٥٢م.

وثانيهما: الشيخ أحمد محمد شاكر، محدث العصر، وواضع أصول نشر التراث بتحقيقه لكتاب «الرسالة» للإمام محمد بن إدريس الشافعي. وقد توفي هذا الشيخ العلامة بالقاهرة سنة ١٣٧٧هـ — ١٩٥٨م.

عرف رشاد عبد المطلب هذين العالمين وهو في طراوة الصبا وأوائل الشباب،

وقد رأيا فيه نبوغاً صالحاً، فقرّباه منهما وأحلّاه من نفسيهما محلاً كريماً. وفي مجلسهما عرف أصول الكتب، ووقف على طرائق المصنفين، وألمّ بمصطلحات الفنون، ثم تلقى عنهما علماً كثيراً. والتلقي كان سمة عصور ازدهار العلم، فهو الطريق الصحيح لتحصيل المعرفة، وآفة العلم في زماننا أنك قلّ أن تجد من تستفتيه أو تتلقى عنه، وليس أمامك إلا أن تضرب في بحر لجي غير آمن من زيغ البصر وضلال التأويل.

ولقد أحبّ رشاد عبد المطلب الكتاب العربي حباً ملك عليه نفسه وحسه، ولم يصرف عنه بشيء من مطالب الصبا ونوازع الشباب. أحب الكتاب وحرص عليه كأنه ولده رآه على يأس، وعرفه كما يعرف الناس آباءهم. وقد دفعه هذا الحب وذلك الحرص إلى أن يتلمسه: مطبوعاً في مطبعة درست وذهب رسمها، أو منشوراً في مجلة نسي الناس اسمها، أو مخطوطاً في خزانة عامة أو خاصة خفي على الدارسين مكانها. وقد وهب الله له ذهنًا صافياً، سريع اللحم قوي الإدراك، وذاكرة محيطية جامعة تعرف الشاردة والواردة.

ولقد كان من صنع الله لي وتوفيقه إياي أني عرفته منذ خمسة عشر عاماً، قضيت منها عشرة كوامل، لصيقاً به مجاوراً له، وقد رأيت منه العجب: يأتيه الدارس وي طرح أمامه موضوع دراسته، وما بين يديه من مصادر وموارد، ولم يكذب يفرغ الدارس من كلامه حتى يندفع رحمه الله يهدر كالشلال، ذاكراً ما لا يحصى كثرة من المراجع مما لم يخطر للطالب على بال، فإذا رأى علامات الرضا وأمارات السرور على وجه صاحبه، قنع بذلك سعيداً جذلان، وإذا ما أسرف صاحبه في مديح أو ثناء، قال له بصوت ودود ولهجة حانية: حسبك، فهذا شيء علقناه عن مشايخنا، ثم قال: وما أوتيته على علم عندي. ثم لم يزل بصاحبه يغريه بموضوعه، ويمده بالمراجع من مكتبته، ثم يقدمه إلى أستاذه المشرف عليه، ويعرفه بالصفوة من العلماء. وأشهد — ويعلم الله — أن كثيراً من الرسائل الجامعية صنعت في بيت رشاد عبد المطلب، ووضعت خطوطها الأولى على مكتبته، ولكن الناس يجحدون.

وكان رحمه الله إذا تكلم في فرع من فروع التراث اعتقدت أنه لا يحسن غيره :

وكان من العلوم بحيث يقضى له من كل علم بالجميع
ثم كان آية في إدراك العلائق بين الكتب والمؤلفين : تأثراً أو نقداً أو شرحاً
أو اختصاراً أو تذييلاً ، وأعجوبة في معرفة أسماء المؤلفين بكنائهم وألقابهم ،
والتمييز بين من اشتركوا منهم في شهرة أو كنية ، كالسخاوي القاريء والسخاوي
المؤرخ . وهذا فن غاب رجاله ، فما أكثر ما نرى في هذه الأيام خلطاً بين أبي حيان
التوحيدي الأديب ، وأبي حيان الأندلسي النحوي . والأمثلة في هذا المجال كثيرة
والإمساك بنا أولى .

وقد تعدى تأثير رشاد عبد المطلب توجيه الدارسين وإفادة العلماء — إلى
الطابعين وناشري الكتب ، فكان على صلة دائمة بهم ، يشير عليهم بطبع أصول
الكتب ، ويغريهم بالتأنق في إخراجها .

ولقد كان عمل رشاد عبد المطلب بمعهد المخطوطات علامة بارزة في تاريخ
نشر التراث في عصرنا الحديث .

ومعهد المخطوطات أنشئ بجامعة الدول العربية سنة ١٩٤٦م ، وهذا المعهد
يقوم بعمل جليل ، يستهدف استنقاذ تراثنا الإسلامي من عوادي الزمن وغوائل الناس
والأيام ، وذلك بتصويره من أماكن وجوده في شتى مكتبات العالم ، ثم فهرسته
وتصنيفه وتقديمه للدارسين .

وقد التحق به رحمه الله سنة ١٩٤٧م ، فشارك في إرساء قواعده ، وواكب
نشاطه وتطوره ، وخرج في بعثاته ينتقي ويختار ، وتضم مكتبة المعهد الآن مجموعة
نادرة من نفائس المخطوطات في مختلف العلوم والفنون ، كان لرشاد عبد المطلب
فضل اختيارها والتعريف بها ، مع الرواد الأوائل : يوسف العش ، ومحمد بن تاويت
الطنجي ، وصلاح الدين المنجد . وحين وضعت أصول نشر التراث في العصر
الحديث — وفي مقدمتها جمع نسخ الكتاب — واندفع العلماء ينشرون ما لم ينشر ،

ويعيدون نشر ما طبع غير محقق، كان لهذه المجموعة التي يقتنيها معهد المخطوطات فضل كبير على العلم والعلماء، وأخص بالذكر مخطوطات تركيا والهند.

والمشتغلون بالتراث يعلمون أن المخطوطات تتفاضل فيما بينها قيمة ونفاسة، وكان رحمه الله ذا حس دقيق وبصر نافذ حين يتعامل مع المخطوطات، وقد رافقته في رحلتين من رحلات معهد المخطوطات: الأولى إلى تركيا سنة ١٩٧٠م، والثانية إلى المغرب سنة ١٩٧٢م، ولقد رأيت منه في الرحلتين عجباً، وأفدت منه علماً كثيراً.

كان رحمه الله أعجوبة في معرفة قصة المخطوطات: المفقود منها والناقص والنادر، وذلك أن الكتاب المخطوط إما أن يكون مفقوداً، بمعنى أنه يتردد ذكره في المراجع، لكنه لا تعرف له نسخة في مكتبات العالم، وإما أن يكون ناقصاً، بمعنى أنه يوجد منه قطعة أو جزء لا غير، وثالث أحواله أن يكون نادراً، لا توجد منه إلا نسخة واحدة. عرف ذلك كله وأحصاه عدداً.

ثم كان أثابه الله آية في تحديد الزمن الذي كتب فيه المخطوط، فقد نظر كثيراً في المخطوطات، وألف أقلام القرون المتقدمة والمتأخرة، ثم عرف قواعد المشاركة والمغاربة في الكتابة، وبهذا الإلف وتلك المعرفة كان يستطيع أن يحدد على وجه التقريب تاريخ كتابة هذه المخطوطات الخالية من تاريخ النسخ، ثم كان قادراً على أن يكشف زيف هذه التواريخ المكذوبة التي تكتب في آخر المخطوط لترويجه أو التكسب به.

وفيما عدا هاتين الرحلتين اللتين رافقته فيهما، سافر رحمه الله في بعثات المعهد إلى المملكة العربية السعودية والقدس وسوريا ولبنان والهند وإيران وإسبانيا والبرتغال. وفي داخل جمهورية مصر العربية جمع مخطوطات نادرة من مكتبات الإسكندرية وطنطا ودمياط وسوهاج. وهو في كل هذه الرحلات كان يلبي حاجة العلماء والدارسين لمعرفة بالكتب التي يُعنون بها.

وقد حرصت هيئات الاستشراق على الإفادة من علمه وخبرته، ففي عام ١٩٦٤م دعي لإلقاء محاضرات في عدد من جامعات الولايات المتحدة الأمريكية، حيث قضى هناك ستة أشهر. وفي عام ١٩٧٢م سافر إلى لندن بدعوة من المجلس الثقافي البريطاني للاستعانة بخبرته في شؤون المخطوطات والمكتبات، وقد أمضى هناك ستة أسابيع زار خلالها جامعات لندن وكمبردج وأكسفورد ولانكستر.

وفي كل اللجان التي شُكِّلت في مصر لقضايا التراث كان رحمه الله عضواً فيها، فشارك في لجنة إحياء التراث الإسلامي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، والمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.

إنتاجه العلمي :

حقيق بمن طوَّف كل هذا التطواف بالمكتبة العربية، مخطوطها ومطبوعها، أن يكتب شيئاً يحمل اسمه، وقد عرف تاريخ التأليف العربي كثيراً من الورّاقين الذين وظفوا خبرتهم في الجمع والتأليف، مثل ياقوت الحموي صاحب معجم الأدباء ومعجم البلدان، وابن شاكر الكتبي صاحب فوات الوفيات وعيون التواريخ، ولكن الرجل أعظم الله أجره شغل بالناس، يجمع لهم أصول علمهم، ويهيئ لهم مادة دراستهم، وكم كنت أغريه بأن يعيد نشر فهرست ابن النديم، وفهرست ابن خير الإشبيلي، ومفتاح السعادة، وكشف الظنون، ونحو ذلك من هذه الكتب التي عنيت برصد النتاج العربي في شتى الموضوعات، وهو الميدان الذي لا يزاحمه فيه مزاحم. ومع كل ذلك فقد أصدر عام ١٩٥٣م — بالاشتراك مع المغفور له الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي — فهرساً جامعاً لكتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه. وقد تضمن هذا الفهرس اثني عشر نوعاً من الفهارس الفنية، كشفت عن كنوز هذا السفر العظيم من تراثنا الأدبي، وقد أفرد لهذا الفهرس الجزء السابع من الطبعة التي أخرجتها لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة.

وفي عام ١٩٧٠م حقق كتاب: «ذيول العبر في خبر من عبر» للذهبي

والحسيني، وهو في تراجم رجال القرن الثامن الهجري. وقد نشرته وزارة الإرشاد والأنباء بالكويت.

وفي سنة ١٩٧٣م صنع فهرساً لمؤلفات العرب المخطوطة والمطبوعة، في الطب والصيدلة، وقدمه إلى مؤتمر الطب والصيدلة عند العرب، الذي عقدته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بجامعة الدول العربية. وقد أثنى أعضاء المؤتمر على هذا الفهرس وأوصوا بطبعه.

وفي عام ١٩٧٤م نظمت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ندوة عن «الجبرتي المؤرخ»، وقدم رحمه الله في هذه الندوة بحثاً عن «آثار الجبرتي المخطوطة والمطبوعة».

وحين استوت لرشاد عبد المطلب هذه المعرفة الجامعة المحيطة خلال حياته المصاهرة المثابرة، حسده الحاسدون بغياً وعدواً، وما نعموا منه إلا أنه حصّل ما لم يحصله غيره، وفقه ما لم يفقهه سواه من هؤلاء الذين ينتسبون إلى التراث وجاهة أو منصباً، وحين كلّت خطاهم وقعدت بهم همهم عن اللحاق به سلقوه بالسنة حداد:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالناس أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً وبغياً إنه لديميم
وقد صبر على ما كذب وأوذى حتى أتاه أمر الله.

والآن وقد ذهب الرجل إلى رحاب ربه — تاركاً في القلوب حسرة لا تنقضي، وفي فن معرفة المخطوطات فراغاً يبعد أن يُشغل — نسأل الله العليّ القدير أن يغفر له ويرحمه، وأن يجعل كل ما قدمه لتراث هذه الأمة، في موازينه يوم تجد كل نفس ما عملت من خير مُحضرّاً.



التراث العربي في المغرب..^(١) وقضية التواصل بين المشرق والمغرب^(٢)

— ١ —

من مكرور القول ومُعاد الكلام أن الأمة العربية قد احتشدت لتسجيل تراثها وجمعه في جهاد دائم لم تشهده أمة من الأمم، ولم تعرفه ثقافة من الثقافات، ولم يقف هذا الجهاد عند مصر من الأمصار، أو يكتفِ بقطر من الأقطار، بل امتد إلى كل بلد طالته يد الإسلام.

وقد اقتضت طبائع الزمان والمكان أن تشهد بلاد المشرق الخطوات الأولى لذلك التسجيل والجمع، ابتداء من منتصف القرن الثاني الهجري.

ولم يكد المغاربة والأندلسيون يتسامعون بأنباء هذا النشاط الذي كانت تغلي به حلقات الدرس ومجالس العلماء في البصرة والكوفة، وصرير أقلام النساخ في مكة والمدينة ومصر والشام حتى ولوا وجوههم شطر المشرق العربي بنفس مشوقة وقلب لهيف.

والمتتبع لحركة التأليف العربي في خطواته الأولى يروعه هذا الحشد الهائل

(١) زار كاتب المقال المغرب مرتين عضواً في بعثة معهد المخطوطات العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وقد نشر مقاله هذا في حلقتين بمجلة «الثقافة» القاهرية، العددان ٢٧ و ٢٨، ديسمبر — يناير ١٩٧٥ م.

(٢) مجلة «دعوة الحق»، العدد ٩، السنة ١٧، نوفمبر ١٩٧٦ م، المغرب.

من العلماء وطلاب المعرفة . فأَي بركان هذا الذي فجَّره كتاب الله المنزل علي النبي الأُمي ، ففتح به آذاناً صُمّاً وقلوباً غُلْفاً؟ وأي ضياء وهاج ذلك الذي جاء به الدين الجديد، فأزاح ظلمات القرون والأحقاب؟

انسالت أفواج المغاربة على المشرق، يشافهون العلماء ويروون العلم ويستسخون الكتب، وقد استفاضت كتب التراجم والرجال بأخبار هذه الرحلات، وقد بدأت رحلات المغاربة والأندلسيين إلى المشرق منذ أواخر القرن الثاني الهجري، مواكبة لحركة الجمع والتدوين، مصاحبة لنشأتها.

ذكر أبو بكر الزبيدي الأندلسي، في ترجمة الغازي بن قيس، المتوفى سنة ١٩٩هـ، قال: «كان ملتزماً للتأديب بقرطبة أيام دخول الإمام عبد الرحمن بن معاوية رضي الله عنه الأندلس، ثم رحل إلى المشرق، وشهد تأليف مالك للموطأ، وهو أول من أدخله الأندلس، وأدرك نافع بن أبي نعيم — أحد القراء السبعة — وقرأ عليه، وهو أول من أدخل قراءته»^(١).

وفي ترجمة جودي النحوي المتوفى سنة ١٩٨هـ، قال: «هو جودي بن عثمان، من أهل مورور — قريباً من قرطبة — ورحل إلى المشرق، فلقي الكسائي والفراء وغيرهما، وهو أول من أدخل كتاب الكسائي، وله تأليف في النحو»^(٢).

وهذا قاسم بن أصبغ محدث الأندلس الكبير، يرحل إلى المشرق مع محمد بن عبد الملك بن أيمن، ومحمد بن زكريا بن أبي عبد الأعلى، فيسمع بمكة ومصر من علمائهما، ويدخل العراق فيسمع من المبرد وثعلب، ويروي عن ابن قتيبة كثيراً من كتبه»^(٣).

وقد رأيت بخزانة القرويين بفاس نسخة عتيقة جداً من كتاب ابن قتيبة المسمى :

(١) طبقات النحويين واللغويين، صفحة ٢٥٤، بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٢) المرجع السابق، صفحة ٢٥٦.

(٣) تاريخ علماء الأندلس، لابن الفريسي، صفحة ٣٦٥، طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة.

«تأويل مشكل القرآن» برواية قاسم بن أصبغ هذا، عن ابن قتيبة، بمترله ببغداد، في شهر ربيع الأول سنة ست وسبعين ومائتين.

وتصور لنا كتب التراجم إقبال أهل المغرب على علمائهم العائدين من المشرق، لسماع ما تلقوه عن علماء مكة والعراق ومصر والشام^(١). ولقد بلغ من حرصهم وشدة تتبعهم أنهم كانوا يسألون كل قادم من المشرق، ولو كان من التجار. روى الزبيدي عمن أخبره عن عبد الوهاب بن عباس بن ناصح، قال: «كان أبي لا يقدم من المشرق قادم إلا كشفه عمن نجم في الشعر بعد ابن هرمة، حتى أتاه رجل من التجار، فأعلمه بظهور حسن بن هانيء»^(٢)، يعني أبا نواس.

وقد كان لاستيلاء بني أمية على بلاد المغرب بعد ذهاب دولتهم في المشرق، أثر كبير في إذكاء روح العربية بتلك البلاد، ويؤثر عن عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل أول خلفاء بني أمية بالأندلس، الكثير من البر بالعلماء والإجلال لهم، وكذلك سار بنوه من بعده، دعماً لقواعد الملك، واستكمالاً لمظاهر الخلافة. وقد تناهت أنباء هذا البر وذلك الإجلال إلى المشرق، فسعى أدباؤه إلى هناك، حيث عطايا الخلفاء موصولة بهبات الوزراء. ذكر ياقوت في ترجمة أبي الفرج علي بن الحسين الأصبهاني صاحب كتاب «الأغاني»، قال: «وله بعد تصانيف جياذ فيما بلغني كان يصنفها ويرسلها إلى المستولين على بلاد المغرب من بني أمية، وكانوا يحسنون جائزته، لم يعد منها إلى الشرق إلا القليل. والله أعلم»^(٣). وقد سمي هذه التصانيف الوزير جمال الدين القفطي^(٤).

وهذا أحد أعلام الأدب العربي في المشرق: أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي القالي، صاحب كتاب «الأمال» يفد على القيروان سنة ٣٢٩هـ، وقد جلب في قافلته أحمالاً كثيرة من نفائس المؤلفات المشرقية، ما بين لغوية وأدبية وتاريخية،

(١) طبقات النحويين واللغويين، صفحة ٢٧٥ (ترجمة غدير بن مسعود).

(٢) المرجع السابق، صفحة ٢٦٢، وأيضاً: تاريخ علماء الأندلس، صفحة ٢٩٦.

(٣) معجم الأدباء ١٣٠ / ١٠٠، طبعة دار المأمون.

(٤) إنباه الرواة على أنباء النحاة ٢ / ٢٥٢، بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم.

ودواوين الشعراء الجاهليين والمخضرمين والمولدين، فباع منها في مدة عام كامل ما شاء أن يبيع لأهل إفريقية، ثم تحول بعد ذلك في سنة ٣٣٠هـ إلى الأندلس بما بقي له منها. وقد حفظ لنا أبو بكر بن خير الإشبيلي قائمة بأسماء هذه الدواوين في فهرست ما رواه عن شيوخه^(١).

تواصل أدباء المشرق والمغرب، وإن ظلت رحلات المغاربة إلى المشرق أكثر وأدوم لأسباب كثيرة، من أبرزها أن المشرق كان ولا يزال طريق المغاربة للحج، الركن الخامس من أركان الدين الحنيف.

وحين انتدب المغاربة للتصنيف والكتابة ظهر في إنتاجهم مشابه من مناهج المشاركة وطرائقهم في الكتابة، مما حدا ببعض النقاد والمؤرخين أن يربطوا بين الإنتاج المشرقي والمغربي، على نحو يريد أن يثبت دائماً أن المغاربة قد تأثروا بالمشاركة في كل ما يعالجون، فهم يقولون: إنَّ ابن زيدون بحثري المغرب^(٢)، وإنَّ أبا بكر الزبيدي الإشبيلي، صاحب كتاب «مختصر العين» في المغرب بمنزلة ابن دريد في المشرق^(٣)، وإنَّ أبا الحسن بن بسام الشنتريني صاحب كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» قد تأثر بأبي منصور الثعالبي ونسج على منواله في كتابه: «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر»^(٤). إلى غير ذلك من الأمثلة.

(١) فهرست ما رواه عن شيوخه أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي، صفحة ٣٩٥ - ٣٩٧، نشر المكتب التجاري - بيروت، وانظر ما كتبه العلامة حسن حسني عبد الوهاب، عن العناية بالكتب وجمعها في إفريقيا التونسية، من القرن الثالث إلى الخامس للهجرة - مجلة المخطوطات العربية بمصر، المجلد الأول، صفحة ٧٢.

(٢) ابن زيدون: عصره وحياته وأدبه، للأستاذ علي عبد العظيم، صفحة ٥٠٨، وانظر أيضاً: الذخيرة لابن بسام - الجزء الأول من القسم الأول، صفحة ٣٢٦.

(٣) مقدمة تحقيق كتاب مختصر العين، صفحة (هـ)، للأستاذين علال الفاسي ومحمد بن تاويت الطنجي، طبعة الرباط.

(٤) مقدمة تحقيق اليتيمة، صفحة ١٣، للأستاذ الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، ومقدمة تحقيق الذخيرة، صفحة (أ، ب)، للأستاذ الدكتور طه حسين.

ولئن قبلت هذه المقالة في القرون الأولى للتصنيف، فإنها بحاجة إلى مراجعة فيما تلا ذلك من قرون. ولقد كان ظهور القاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي المولود بمدينة سبتة - رد الله غربتها - سنة ٤٧٦هـ، والمتوفى بمدينة مراكش سنة ٥٤٤هـ، إيداناً باستقلال الشخصية المغربية وامتلاكها لخاصية البيان وإسهامها في جلاء وجه الثقافة الإسلامية، وعياض ركن من العلم باذخ، وله طرائق في العلم مأنوسة، كتب الكثير، وتمثل تأليفه إضافات هامة في تاريخ الفكر الإسلامي، وقد رزقت مصنفاته من الحظوة وحسن القبول والتلقي ما لم يرزقه مؤلف مغربي آخر^(١). ومما يشيع على ألسنة المغاربة قولهم: «لولا عياض لما ذكر المغرب». ويقول شاعرهم:

كلهم حاولوا الدواء ولكن ما أتى بالشفاء إلا عياض
والمعنى الثاني المراد من التورية في قوله: «بالشفاء» هو كتاب عياض الجليل:
«الشفاء في التعريف بحقوق المصطفى»، أشهر وأسير كتب الشمائل النبوية.

تتابعت جهود المغاربة في التصنيف عالية شامخة وبدءاً من القرن السادس لم يعد للمشاركة فضل سبق عليهم، بل نراهم قد زاحموا المشاركة على فنين عظيمين من فنون التراث: علم القراءات، وعلم النحو.

أما علم القراءات فعنايتهم به قديمة، وتصانيفهم فيه مبسوبة، ويرى الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهواني أن: هذا هو الميدان الوحيد الذي سيطر عليه المغاربة سيطرة تامة^(٢).

وبحسبنا أن نذكر من فرسان هذا الميدان: أبا عمرو الداني ومكي بن أبي طالب وأبا العباس المهدوي وإسماعيل بن خلف، وغيرهم كثير تراهم في فن

(١) مقدمة تحقيق كتاب «التعريف بالقاضي عياض» للأستاذ الدكتور محمد بن شريفة، ومقدمة تحقيق كتاب: «ترتيب المدارك» للقاضي عياض، تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي، والكتبان من مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالرباط.

(٢) كتب برامج العلماء في الأندلس، مجلة معهد المخطوطات، المجلد الأول، صفحة ١١٨.

القراءات من فهارس المكتبات . وبحسبنا أيضاً أن نعرف أن أشهر نظم في هذا الفن، وهو المسمّى: حرز الأمانى ووجه التهاني، والمعروف بالشاطبية، صاحبه مغربي أندلسي، وهو: القاسم ابن فيّره بن خلف الرعيني الأندلسي الشاطبي، وقد صار نظمه هذا العمدة في ذلك الفن، وتعاقب عليه الشراح من المشرق والمغرب، ولا يزال يتصدر برامج الدراسة في معهد القراءات بالأزهر الشريف .

ولم تفتّر عناية المغاربة بعلم القراءات على امتداد الأيام وتصرف الأحوال، وقد تعرفت أثناء رحلتي الأولى إلى المغرب، على شاب من ريف المغرب، في منزل الأستاذ العلامة محمد المنوني بمدينة الرباط، وكان هذا الشاب آية في معرفة القراءات العشر بطرقها ورواياتها المختلفة، يحفظها ويستشهد لها من الكتاب العزيز في سهولة ويسر . وقد أخبرني الأستاذ المنوني أن لهذا الشاب نظائر كثيرة في بلاد المغرب، وبخاصة في الريف .

وأما علم النحو فللمغاربة احتفال به زائد، وقد ظهر اهتمامهم له مبكراً . هذا أبو عبد الله حمدون بن إسماعيل، من قدماء المغاربة القرويين، كان يحفظ كتاب سيبويه، وقد توفي حمدون هذا بعد المائتين^(١) . وقد وقف المغاربة على قدم واحدة مع المشاركة في العناية بكتاب سيبويه إمام النحاة: شرحاً أو تعليقاً أو اختصاراً^(٢) .

ذكر جلال الدين السيوطي في آخر كتابه: «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» وهو يسرد موارده في تأليف الكتاب، قال: «وأما المغرب فأهله أصحاب اعتناء شديد بذلك، والنحاة به جم غفير»^(٣) .

ويورد جمال الدين القفطي كلاماً جيداً يشهد لذلك، يقول في ترجمة أبي محمد عبد الله بن علي بن إسحاق الصّيمري النحوي: «قدم مصر، وحفظ عنه شيء

(١) طبقات النحويين واللغويين، صفحة ٢٣٥ .

(٢) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، للحاج خليفة، صفحة ١٤٢٧، طبعة استانبول .

(٣) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، الجزء الثاني، صفحة ٤٢٨، تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم .

من اللغة وغيرها، وصنف كتاباً في النحو سمّاه «التبصرة» وأحسن فيه التعليل على مذهب البصريين، ولأهل المغرب باستعماله عناية تامة، ولا يوجد به نسخة إلا من جهتهم^(١).

ويقوي كلام القفطي هذا أنني عرفت ثلاث نسخ مخطوطة من هذا الكتاب، كلها مكتوبة بخط أندلسي مغربي عتيق: النسخة الأولى محفوظة بمكتبة الإمبروريات بميلانو، كتبت سنة ٥٨٢هـ، والثانية بالخزانة العامة بالرباط، نسخت سنة ٥٩٧هـ، والثالثة بخزانة القرويين بفاس، وهي من خطوط القرن السادس في أكبر الظن. وبقي من هذا الكتاب نسخة رابعة، ذكر المستشرق كارل بروكلمان أنها محفوظة بالمكتبة الأهلية ببائيس، ولا أعلم من حالها شيئاً فأذكره.

وقد ذهبت مؤلفات المغاربة النحوية بالذويوع والشهرة في معاهد الدرس والتعليم مشرقاً ومغرباً، فهذه ألفية ابن مالك الجياني الأندلس تحظى بالشهرة، ويتلقاها الناس بالقبول، ويرجعون إليها في ضبط قواعد النحو والصرف، ويأخذون بها ناشئتهم وصبيانهم^(٢).

وهذا متن الآجرومية، لم يطاوله متن آخر: ضبطاً لقواعد النحو وحصراً لمسائله ويسراً في صياغته، ولا يزال موضع التلقّي والقبول إلى يوم الناس هذا. وصاحب هذا المتن هو: أبو عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي، عرف بابن آجروم، ومعناه بلغة البربر: الفقير الصوفي. وهو من أهل فاس.

وفيما عدا هذين الفنين شارك المغاربة في سائر فنون التراث، درساً وتصنيفاً، ثم كان لهم فضل إظهار آثار المشاركة: شرحاً لها وكشفاً لغوامضها.

-
- (١) إنباه الرواة، الجزء الثاني، صفحة ١٢٣، والصيّمري: بفتح الصاد وسكون الياء وفتح الميم.
- (٢) على الرغم من غلبة ألفية ابن مالك على معاهد الدرس مشرقاً ومغرباً، فقد رأيت الصبيان في مسجد الجامع الكبير بمدينة صنعاء — أثناء رحلتي في العام الماضي إلى اليمن — يتدارسون «ملحة الإعراب» للحريري صاحب المقامات. وهذه «الملحة» أشهر نظم نحوي قبل ألفيتي ابن معطي وابن مالك.

فهذا أبو عبيد البكري الأندلسي يعمد إلى نصين جليلين من تأليف المشاركة، بالشرح والبيان: الأول كتاب «الأمثال»، لأبي عبيد القاسم بن سلام البغدادي ويسمي البكري شرحه لهذا الكتاب: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال. وهذا الشرح قد «احتوى على أكمل تعليقات وتفسيرات قديمة ومهمة على ذلك الكتاب، كما احتوى مادة رائعة لا توجد في غيره من كتب الأمثال الأخرى»^(١).

والثاني: كتاب «الأمالي»، لأبي علي القالي البغدادي. ووسم أبو عبيد شرحه لذلك الكتاب: اللآلي في شرح أمالي القالي. ونشره العلامة عبد العزيز الميمني باسم: سمط اللآلي.

ثم يتصدى ابن السَّيد (بكسر السين) البطليوسي، بالشرح والبيان لأحد أصول الأدب الأربعة، وهو كتاب ابن قتيبة البغدادي المسمَّى: «أدب الكاتب»، أو: «أدب الكتاب». واسم هذا الشرح: الاقتضاب في شرح أدب الكتاب. وهو من أجل شروح الكتاب، كما يقول صاحب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون.

وحين فرغ أبو محمد الحريري البصري من إنشاء «مقاماته» الأدبية المعروفة، تعاقب عليها الشراح بالتفسير والبيان، حتى بلغت شروحها أكثر من خمسة وثلاثين شرحاً، ما بين مشرقي ومغربي. ومن أعظم هذه الشروح وأجمعها للغرائب والفرائد شرح أبي العباس الشَّريشي الأندلسي.

ولم يعرف للسيرة النبوية التي صنفها محمد بن إسحاق شرح أوعب وأكثر جمعاً للفوائد والشوارد، من شرح أبي القاسم السهيلي الأندلسي المسمَّى: الروض الأنف، والمشرع الرّوى في تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة واحتوى.

والمشتغلون بتاريخ المذاهب الفقهية الإسلامية يعرفون أن أهم شروح مذهب مالك بن أنس رضي الله عنه، إنما جاءت من قبل العلماء المغاربة الذين أكثروا

(١) راجع كتاب الأمثال العربية القديمة، تأليف المستشرق الألماني رودلف زلهائم، ترجمة الأستاذ الدكتور رمضان عبد التواب، صفحتي ١٥١، ٢١٩، طبعة بيروت.

التصنيف فيه، ما بين مختصر ومبسوط. وذلك لغلبة مذهب مالك على أهل هذه الديار.

ولن يتسع المقام لأكثر من هذه المثل، وهي كثيرة مفرطة في الكثرة. وحسبنا أن نختم بذكر أثر خطير من آثار الفكر الإسلامي، نشط له المغاربة، وتناولوه بالشرح والتعليق، على حين قصر غيرهم، استعظاماً لشأنه، وتهيباً من مسالكه، ذلك هو كتاب «البرهان» في أصول الفقه، لإمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني (بضم الجيم وفتح الواو: نسبة إلى جوين، بلدة من نواحي نيسابور) من أئمة علماء الشافعية في القرن الخامس.

يقول تاج الدين السبكي عن هذا «البرهان»: «اعلم أن هذا الكتاب وضعه الإمام في أصول الفقه، على أسلوب غريب، لم يقتد فيه بأحد، وأنا أسميه لغز الأمة لما فيه من مصاعب الأمور، وأنه لا يخلي مسألة عن إشكال، ولا يخرج إلا عن اختيار يخترعه لنفسه، وتحقيقات يستبد بها. وهذا الكتاب من مفتخرات الشافعية، وأنا أعجب لهم، فليس منهم من انتدب لشرحه ولا للكلام عليه، إلا مواضع يسيرة تكلم عليها أبو المظفر بن السمعاني في كتاب «القواطع» وردها على الإمام، وإنما انتدب له المالكية، فشرحه الإمام أبو عبد الله المازري شرحاً لم يتمه، وعمل عليه أيضاً مشكلات، ثم شرحه أيضاً أبو الحسن الأنباري من المالكية، ثم جاء شخص مغربي، يقال له: الشريف أبو يحيى، جمع بين الشرحين».

ويقول السبكي في موضع آخر عن المازري: «هذا الرجل كان من أذكى المغاربة قريحة وأحدهم ذهنًا، بحيث اجتراً على شرح «البرهان» لإمام الحرمين، وهو لغز الأمة الذي لا يحوم نحو حماه، ولا يدندن حول مغزاه، إلّا غواص على المعاني، ثاقب الذهن، مبرز في العلم»^(١).

(١) طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق أخي الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، وكاتب هذا المقال، الجزء الخامس، صفحة ١٩٢، والسادس ٢٤٣.

ويداول الله الأيام بين الناس، فتنهاوى عروش، وتسقط دول، وتتطاول أمم تريد أن تنقض كيداً ومكرأً، وتعرض الأمة الإسلامية مشرقاً ومغرباً لخطوب وفتن كقطع الليل المظلم تسعى لتغتالها اغتيالاً.

وفي غمار تلك الأحداث التي صكت المسامع وخلعت القلوب لم تذهل هذه الأمة عن تراثها الذي شرفت به، ولم ترض أن تسلم حتى يسلم معها، كالأم تحضن طفلها وسط الحريق المدمر، لا يهمها أن تنجو حتى تنجو به.

ولقد كان من صنع الله ولطفه أن هذه الغزوة التتريّة الكاسحة على المشرق العربي منتصف القرن السابع، لم تمتد شواظها إلى بلاد المغرب، فظلت خزائنها عامرة بالكتب، ومجالسها مأنوسة بالعلم والعلماء.

وتتمادى الأيام ولا يفتر حماس المغاربة لجمع المخطوطات وتعهدها بالصيانة والرعاية، ثم تتطور وظيفة الزوايا المغربية، من مكان معد للعبادة وإيواء الواردين المحتاجين، إلى دور تجمع العلماء والكتب، وتدعو إلى الجهاد ومقاومة الأجنبي.

وفي القرن الثامن تكاثرت الزوايا وانتشرت فيما بين المغرب ومصر، إيناساً وعوناً لحجاج بيت الله الحرام ليأووا إليها في مراحل سفرهم الطويل، وقد نمت حول هذه الزوايا مدارس استقر فيها طلبة العلم، الأمر الذي حدا بملوك بني مرين أن يشيدوا كذلك مدارس بجانب المراكز التعليمية الكبرى خصوصاً جامع القرويين بفاس^(١).

ومن أشهر الزوايا في المغرب: الزاوية الدلائية والناصرية والحمزاوية، وتضم هذه الزاوية الأخيرة مجموعة من نواذر المخطوطات، كتب عنها وعرف بها الأستاذ العلامة محمد المنوني، في العدد الثامن من مجلة تطوان. ومن أنفس مخطوطات

(١) الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، للأستاذ محمد حجي، صفحة ٢٥، طبعة الرباط.

هذه الخزانة الجزء الرابع من كتاب «غريب الحديث» لابن قتيبة، بخط أندلسي؟ وقع الفراغ من نسخه سنة ٥١٧هـ، وهذا الكتاب نادر جداً في مكتبات العالم. وتنبيهات وتعاليق على كتاب «الكامل» للمبرد، من تأليف أبي عبيد البكري، والوقشي، والبطلوسي، وهذه التنبيهات والتعاليق لا توجد في مكان آخر من مكتبات العالم، فيما انتهى إليه علمي.

وفي العصر الحديث لم يستطع الاحتلال الفرنسي أن يطمس الوجوه العربية في المغرب فيردها على أدبارها بربرية أو أعجمية. فهذا مسجد القرويين يموج بالعلم والمعرفة، وينهض في المغرب بما ينهض به الأزهر في المشرق. وقد أدرك المغاربة المعاصرون جلال هذا الموروث الضخم الذي آل إليهم، فتلقوه بكلتا اليدين، وشدوا يد الضنانة عليه، ولقد بلغ من احتفالهم به وحرصهم عليه أن أقاموا حوله الجدر، وبنوا عليه الحيطان، حذراً عليه في بعض الأماكن التي خيف عليه فيها من بطش الباطشين واعتداء المعتدين.

ويبرز من بين رجالات هذا العصر عالم فحل، قدم للتراث العربي يداً باقية، حين سعى جاهداً وعمل مخلصاً في جمعه وحفظه، ذلك هو محمد عبد الحي ابن عبد الكبير الحسني الإدريسي الكتاني الفاسي، عرف باسم: عبد الحي الكتاني.

كان هذا الرجل شغوفاً بالكتب مولعاً بجمعها، مع علم غزير واطلاع واسع، وقد وقف حياته على الكتب، ونذر نفسه للعلم، فطوف الكثير، ولقي العلماء، وكاتب واستجاز من لم يلقهم.

يقول رحمه الله عن نفسه، في مقدمة كتابه «فهرس الفهارس»: «فرحلت لأقاصي البلدان وشاسع الأطراف والسكان، من حجاز ومصر وشام، وتونس والجزائر وبلاد المغرب الأقصى حواضره وبواديه، وكأنت أهل الجهات البعيدة كالعراق واليمن والهند واسطنبول وصحراء إفريقية شنقيط (موريتانيا الآن) وغيرها، رغبة في الاستكثار، فحصل لي من ذلك ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر

على قلب أحد من أهل جيلنا وأقراننا^(١). ولن تصدق هذا الكلام حتى ترى ذلك القدر الهائل من المخطوطات التي عمرت بها مكتبة الرجل، والتي ضمت إلى الخزانة العامة بالرباط^(٢).

وقد قام هذا الرجل في المغرب بما قام به العلامة أحمد تيمور في مصر، فقد جمع هذا أيضاً غرائب ونوادير من المخطوطات حفلت بها مكتبته العامرة التي ضمت إلى دار الكتب المصرية وعرفت بمكتبة تيمور.

المكتبات العامة والخاصة في المغرب :

زرت المغرب مرتين، عضواً في بعثة معهد المخطوطات التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، من منظمات جامعة الدول العربية، وكانت المرة الأولى في صيف عام ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م، والثانية في صيف هذا العام. وقضيت في الزيارتين ستة أشهر رأيت فيها من عناية المغاربة بالمخطوطات وحرصهم عليها وصيانتهم لها، ما يبهج النفس، ويدل على أن الخير باق، وأن الله جلت قدرته لن يضيع تراث هذه الأمة مهما تناوشها الأعداء وأحاط بها الماكرون.

والمخطوطات في المغرب تحتفظ بها المكتبات العامة التي تشرف عليها الدولة، والخزائن الخاصة لدى العلماء. وتوجد المكتبات العامة في الرباط وفاس ومكناس ومراكش وتطوان. وقد أتيح لي أن أرى مكتبات الرباط وفاس وتطوان.

ففي الرباط مكتبتان عامرتان: الخزانة الملكية الملحقة بالقصر الملكي. والخزانة العامة التابعة لوزارة الثقافة.

(١) فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيكات والمسلسلات، الجزء الأول، صفحة ٣، وهذا الكتاب النفيس جعله مؤلفه قاموساً عاماً لتراجم المؤلفين في السنة النبوية الشريفة من القرن الثامن حتى أواسط القرن الرابع عشر، وقد أراده ذيلًا على طبقات الحفاظ، لابن ناصر والسيوطي.

(٢) ينظر عن نفائس هذه المكتبة: مجلة معهد المخطوطات، المجلد الخامس، صفحة ١٧٤.

وتزخر الخزانة الملكية بنوادير المخطوطات ، ومن أنفس ما تضمه هذه الخزانة نص نادر لأبي العلاء المعري ، لا يعرف في مكتبة أخرى من مكتبات العالم إلى يومنا هذا ، ذلك هو كتاب «الصاهل والشاحج» يتكلم فيه أبو العلاء على لسان فرس وبغل . وقد كان لظهور هذا الكتاب دوي هائل في الأوساط الأدبية ، وقد كتبت عنه الأستاذة الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء) أكثر من مرة بجريدة الأهرام . ونسخة هذا الكتاب مخطوطة سنة ٦٣٨هـ ، بقلم أندلسي ، وفي الخزانة نسخة أخرى من خطوط القرن العاشر تقديراً ، وهي منقولة عن نسخة مكتوبة سنة ٦٩٣هـ . وإلى جانب هذا الكتاب النادر ، توجد مخطوطات أخرى نفيسة في الخزانة الملكية ، منها :

إصلاح المنطق — لابن السكيت ، بقلم أندلسي نفيس سنة ٥٩١هـ .
الأصول في الهندسة — لإقليدس ، بقلم أندلسي نفيس سنة ٦٨٣هـ .
البارع في أحكام النجوم — لابن أبي الرجال ، الجزء الأول بقلم أندلسي نفيس سنة ٧٠٦هـ ، والجزء الثاني من نسخة أخرى بقلم أندلسي نفيس سنة ٣٦١هـ .
بغية الآمل في ترتيب «الكامل» للمبرد ، لمؤلف مجهول . والكتاب مرتب على الفنون ، ومقسم على أربعين باباً . والنسخة بقلم مغربي سنة ١٢٨٣هـ ، منقولة عن نسخة مكتوبة سنة ٦٤٦هـ .

تاريخ علماء الأندلس — للخشني ، بقلم أندلسي عتيق سنة ٤٨٣هـ .
تاريخ مكة — للأزرق ، بقلم نسخي قديم من خطوط القرن السادس تقديراً .
تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ — للخزاعي .
بقلم أندلسي جيد سنة ٨٧٦هـ . وهذا الكتاب هو الأصل الذي بنى عليه العلامة عبد الحي الكتاني السابق ذكره ، كتابه العظيم المسمى : التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة العلية . وهو مطبوع في الرباط سنة ١٣٤٦هـ .

دلائل الإعجاز — لعبد القاهر الجرجاني، نسخة بقلم نسخي نفيس من خطوط القرن السابع تقديراً، وبأولها توقيع لابن هشام النحوي، ولابن الصائغ.

ديوان أبي تمام — برواية الصولي، بقلم نسخي نفيس سنة ٦٦٤هـ، منقولة عن نسخة مكتوبة سنة ٣٨١هـ.

ديوان جرير — برواية السكري. نسخة نفيسة كتبها الخطاط المبدع ياقوت المستعصمي سنة ٦٨٩هـ.

ديوان سبط ابن التعاويذي، بقلم أندلسي نفيس سنة ٧٢٤هـ.

ديوان ابن سهل الإسرائيلي — وهو إبراهيم بن سهل الإشبيلي، كان يهودياً وأسلم — نسخة بقلم أندلسي من خطوط القرن التاسع. والديوان مرتب على حروف الهجاء، وعني بترتيبه وتهذيبه ابن الدهان.

ديوان ابن مكناس — وفيه نثره أيضاً — بقلم نسخي سنة ٩٨٩هـ.

السيرة النبوية — لابن إسحاق. رواية ابن هشام. جزء منها بقلم أندلسي نفيس سنة ٥٣٣هـ.

شرح الجمل في النحو — للزجاجي. تأليف ابن الصائغ الكناني، بقلم مغربي سنة ٨٩١هـ.

شرح دواوين الشعراء الستة الجاهليين — الجزء الأول بقلم أندلسي جميل سنة ٥٩٤هـ، وبهامشه حواش وتعليقات.

طبقات النحويين واللغويين — لأبي بكر الزبيدي الأندلسي. نسخة بقلم أندلسي قديم من خطوط القرن الخامس تقديراً، وهذه هي النسخة الثانية من الكتاب، فلم يكن يعرف منه إلا نسخة وحيدة بمكتبة نور عثمانية بمدينة استانبول بتركيا. وعنها أصدر الأستاذ الجليل محمد أبو الفضل إبراهيم نشرته الأولى للكتاب، ثم أعاد تحقيقه ونشره على هذه النسخة الثانية وصدر عن دار المعارف بمصر منذ سنتين.

العباب في اللغة — للصاغانى. خمسة أجزاء تمثل نحو ثلثي الكتاب، منها

أربعة أجزاء بخط المؤلف نفسه، سنة ٦٥٠، وخطه نسخي جيد. وهذا الكتاب من كتب اللغة المعتمدة، ويعد من المراجع الأساسية للمعجم المعروف «تاج العروس في شرح القاموس».

ووجود هذه الأجزاء الخمسة من «العباب» في الخزانة الملكية بالرباط يعد كسباً كبيراً، فإن هذا الكتاب لا تكاد توجد منه نسخة كاملة في أي من مكتبات العالم إلى الآن.

فضائل الشام — لأبي سعيد السمعاني. نسخة بقلم نسخي نفيس سنة ٦٤٩هـ، وعليها قراءة للإمام الصاغاني المذكور، في سنة كتابة النسخة. وحسب معرفتي لا أعلم لهذا الكتاب إلا نسخة واحدة بدار الكتب المصرية.

كليلة ودمنة — ترجمة ابن المقفع — نسخة بقلم نسخي نفيس من خطوط القرن الثامن، وبها أشكال ملونة تحكي أحداث القصة.

مختصر شرح مسائل حنين بن إسحاق في الطب، لمؤلف مجهول. نسخة بقلم نسخي حسن من خطوط القرن الثامن.

المصباح المنير في غريب الشرح الكبير — للفيومي نسخة بخط المؤلف، كتبها سنة ٧٣٧هـ. والمصباح المنير هو ذلك المعجم اللغوي المحرر الذي كان مقرراً على تلاميذ المدارس الثانوية في مصر إلى عهد ليس ببعيد.

المقتبس في تاريخ علماء الأندلس — لابن حيان. جزء منه بقلم أندلسي جيد من خطوط القرن السادس تقديراً. وهذا «المقتبس» نادر وعزيز جداً في مكتبات العالم، ويشغل به الآن الأستاذ الدكتور محمود علي مكي.

المنتخب من مسند عبد بن حميد الكشي — لمؤلف مجهول. نسخة بقلم مغربي دقيق سنة ٧٢٠هـ، ويوجد المسند نفسه بخزانة القرويين بفاس.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب — للمقري المتوفى سنة ١٠٤١هـ، نسخة بخط المؤلف.

هذه مثل قليلة مما تضمنه الخزانة الملكية من نفائس المخطوطات .

أما الخزانة العامة بالرباط فتمثل المخطوطات المحفوظة بها: الرصد العام للخزانة، ثم مخطوطات الخزائن الخاصة التي ضمت إلى الخزانة العامة، حفظاً لها وحرصاً عليها، ويأتي في مقدمة هذه الخزائن الخاصة: مكتبة عبد الحي الكتاني، وبعدها مجموعة الجلاوي والحجوي، ثم حصيلة الزاوية الحمزاوية والزاوية الناصرية .

وإذا كانت الخزانة الملكية تحتفظ بأثر نادر من آثار المشاركة، وهو كتاب «الصاهل والشاحج» الذي ذكرت لك خبره من قبل، فهذه الخزانة العامة تحتفظ أيضاً بكتاب نادر للجاحظ، ذلك هو كتاب «البرصان والعرجان والعميان والحولان» الذي سجل فيه الجاحظ أدب أصحاب العاهات، مستطرداً على جاري عادته إلى ذكر النوادر والغرائب .

لقد ظل هذا الكتاب المعجب يتردد في بطون الكتب القديمة دون أن تعرف له نسخة في مكتبات العالم، حتى اكتشفه الشيخ البحاث السيد المختار السوسي، صاحب كتاب «المعسول» رحمه الله . وقف المختار السوسي على هذا الكتاب منذ نحو أربعين سنة، قابلاً في الزاوية العياشية ببلدة بزو، بين تادلة والسراغنة جنوب شرقي الدار البيضاء . وتتوالى الأيام ولا يفرط المغاربة في ذلك الأثر النادر، حتى كانت زيارة الدكتور صلاح الدين المنجد إلى بلاد المغرب، منذ نحو عشرين سنة، وهو إذ ذاك مدير معهد المخطوطات، ويصحبه عالم المخطوطات الكبير الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني، إلى بزو، ويقدم له نفائس المخطوطات ومن بينها هذا الكتاب الفريد، الذي يقدم المغاربة صورة منه هدية للمشاركة تحفظ بخزانة معهد المخطوطات بمصر، ثم يقوم الأخ الدكتور محمد مرسى الخولي بتحقيق هذا الكتاب ونشره على تلك النسخة الوحيدة، منذ ثلاثة أعوام بمصر، وكتب عنه نقداً عالم تطوان الكبير الأستاذ محمد بن تاويت في مجلة دعوة الحق المغربية، عدد جمادى الأخيرة من هذا العام .

وليس كتاب الجاحظ هذا هو الأثر الوحيد الذي تنفرد الخزانة العامة بالاحتفاظ به دون مكتبات العالم ، فمن ذلك أيضاً :

تعليق من أمالي ابن دريد ، نسخة بقلم نسخي جيد ، سنة ٦٤١ هـ .

الوسيط في الأمثال — للواحدي المفسر ، نسخة بقلم نسخي نفيس من خطوط القرن السادس تقديراً ، ولا يعيب هذه النسخة الوحيدة إلا أن بها سقطاً في وسطها .

وهذا الكتاب لم يرد له ذكر في فهارس المكتبات ، ولعل ذلك هو الذي دفع المستشرق الألماني رودلف زلهيم إلى أن يقول : « ولا ندري المقصود بما ذكره البغدادى في الخزانة ٤ / ١١٠ ، من قوله : قال الواحدي في أمثاله »^(١) .

منال الطالب في شرح طوال الغرائب (أي الأحاديث الطويلة المأثورة عن رسول الله ﷺ ، والصحابة والتابعين رضوان الله عليهم) — لمجد الدين بن الأثير ، صاحب كتاب «النهاية» . نسخة بقلم نسخي نفيس جداً . وقد اجتمع لهذه النسخة من أسباب التوثيق والقبول ما لا يكاد يجتمع في نسخة أخرى : فناسخها هو محمد بن نصر الله ، وهو ابن أخي المؤلف ، والده ضياء الدين ابن الأثير صاحب كتاب : «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» . وقد فرغ محمد من نسخ الكتاب سنة ٦٠٦ هـ ، ثم قرأه وسمعه وصحّحه على عمه المؤلف ، وكتب صورة القراءة والسماع عمه الثاني عز الدين بن الأثير المؤرخ صاحب كتاب «الكامل» .

ديوان شعر — لعبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي الأندلسي ، كان حياً سنة ٨٣٦ هـ ، وليس لهذا الشاعر ولا لديوانه ذكر في أي مكان ، وتتجلى أهميته البالغة في أنه عاش في الأندلس أواخر أيام دولة الإسلام هناك ، وقضى حقبة من حياته أسيراً عند الإسبان ، وقال في هذه الأثناء كثيراً من شعره ، كما سجل في شعره كثيراً من الأحداث في عصره ، ورثى كثيراً من المراكز الإسلامية التي عاصر سقوطها في يد الإسبان^(٢) .

(١) كتاب الأمثال العربية القديمة المتقدم قريباً ، صفحة ٢١٥ .

(٢) قائمة لنوادير المخطوطات العربية المعروضة في مكتبة جامع القرويين بفاس ، بمناسبة مرور مائة وألف سنة على تأسيس هذه الجامعة ، صفحة ٥٨ ، طبعة الرباط .

وإلى جانب هذه المخطوطات الوحيدة التي تحتفظ بها الخزنة العامة في الرباط: رأيت نفائس أخرى. منها: إعراب القرآن الكريم – لأبي إسحاق الزجاج، نسخة في عشرة أجزاء، بقلم نسخي جيد سنة ٣٨٣هـ.

مجموع بقلم نسخي نفيس جداً، كتب سنة ٣٥١هـ – فيه من الكتب:

الموجز في النحو – لابن السراج.

الموفقي في النحو – لابن كيسان.

كتاب النحو – للغدة الأصبهاني.

شرح ما يكتب بالياء من الأسماء المقصورة والأفعال – لابن درستويه.

المقصود والمدود – لأبي عمر الزاهد.

كتاب الكتاب (أي الكتابة والخط والإملاء، وفيه كلام عن المذكر والمؤنث)

لابن درستويه.

المذكر والمؤنث – للمفضل بن سلمة.

كتاب الخط، وكتاب القلم، وكتاب العروض – الثلاثة لابن السراج.

مختصر في فك دوائر العروض – لبعض العروضيين.

كتاب القوافي – لأبي القاسم الطيب بن علي التميمي.

الاشتقاق – لابن دريد، نسخة بقلم نسخي جيد، كتبها العالم المعروف

أحمد بن عبد القادر بن مكتوم المتوفى سنة ٧٤٩هـ. وهذه النسخة هي الثانية

المعروفة في مكتبات العالم من هذا الكتاب إلى الآن. والنسخة الأولى محفوظة

بمكتبة ليدن بهولندية، وعليها كان اعتماد المستشرق الألماني وستنفلد في نشرته سنة

١٨٥٤م، ثم عول عليها أيضاً أستاذنا الجليل عبد السلام هارون في تحقيقه للكتاب.

التعازي والمراثي – للمبرد، نسخة بقلم نسخي نفيس سنة ٧٥٧هـ، وهذه هي

النسخة الثانية أيضاً من الكتاب. والنسخة الأولى محفوظة بمكتبة الأسكوريال بإسبانيا.

أنساب الأشراف — للبلاذري، نسخة كاملة في مجلد واحد، تم نسخها سنة ٦٦١هـ، وهي أقدم نسخة معروفة من الكتاب.

مقالة في الأدوية المضمونة المجربة — لجالينوس، ترجمة حنين بن إسحاق. نسخة كتبت سنة ٦٨٣هـ.

وتحتفظ الخزانة العامة بعدة مخطوطات بخطوط مؤلفيها، عرفت منها:

غريب الحديث — لابن الجوزي، فرغ من تأليفه سنة ٥٧٦هـ، وخرجه من مبيضته سنة ٥٨١هـ.

ميزان الاعتدال في نقد الرجال — للحافظ الذهبي وفي آخر النسخة سماعات على المؤلف، سنة ٧٤٣، ٧٤٥هـ.

مجموع يحتوي على عدة تأليف — لتقي الدين السبكي المتوفى سنة ٧٥٦هـ، وعلى بعض هوامشه خط صلاح الدين الصفدي.

قطعة من كتاب طبقات الشافعية الكبرى — لتاج الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١هـ، ومن الغرائب أن هذه القطعة من نفس النسخة التي يوجد منها جزء بدار الكتب المصرية، برقم ٦٤م (تاريخ مصطفى فاضل)، فانظر كيف تفرقت أجزاء النسخة الواحدة في مكتبات العالم!

وفي فاس العاصمة القديمة للمغرب توجد خزانة جامع القرويين، مفخرة البلاد المغربية على الإطلاق، في رحابه تكون رجال وازدهرت معارف، وقد وقف كثير من الملوك والأمراء والعلماء، على خزانة هذا الجامع، العدد الوفير من المخطوطات في شتى العلوم والفنون، وتزخر هذه الخزانة بال نوادر والنفائس، ولا سبيل إلى ذكر كل ما رأيته من هذه وتلك، فحسبي أن أجتزئ ببعض المثل، فمن ذلك:

سير الفزاري — ويسمى كتاب السير في الأخبار والأحداث — لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن الحارث الفزاري المتوفى سنة ١٨٨هـ، والموجود من هذا الكتاب الجزء الثاني، في ١٨ ورقة، وهو مكتوب على رق الغزال، وتم نسخه في

شهر ربيع الآخر سنة ٢٧٠هـ (مائتين وسبعين)، وهذا تاريخ له خطره وجلاله عند المشتغلين بتاريخ المخطوطات، وعلى هذا الجزء خط خلف بن عبد الملك بن بشكوال، المؤرخ المشهور، صاحب كتاب «الصلة» في تاريخ علماء الأندلس، ثم توجد عدة أجزاء من نسخة أخرى كتبت سنة ٣٧٩هـ، وتقع في ٥٩ ورقة.

أجزاء من نسخ مختلفة من تفسير الإمام أبي جعفر الطبري، على رق الغزال، وبعض هذه الأجزاء مكتوب سنة ٣٩١هـ.

مختصر أبي مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري — في فقه المالكية — نسخة بخط أندلسي عتيق سنة ٣٥٩هـ.

النوادر والزيادات — لابن أبي زيد القيرواني، في فقه المالكية، جزء منها على رق الغزال، بقلم أندلسي قويل على نسخة المؤلف وهو على قيد الحياة سنة ٣٨٣هـ.

كتاب الزهد والرفائق — لابن المبارك، نسخة بقلم أندلسي سنة ٤٦٥هـ.

السيرة النبوية — لابن إسحاق، برواية يونس بن بكير، وهي رواية عزيزة جداً، فإن المطبوع المتداول من سيرة ابن إسحاق إنما هو من رواية عبد الملك بن هشام، ولم تعرف رواية ابن بكير هذه إلا من خلال النقول عنها، عند ابن سعد وابن الأثير وابن كثير^(١)، والموجود من رواية ابن بكير في الخزانة الأجزاء: الثاني والثالث والرابع والخامس، وأحد هذه الأجزاء مكتوب سنة ٥٠٦هـ.

الألفاظ في اللغة — لابن السكيت، رواية ثعلب، نسخة بقلم أندلسي على رق الغزال، قرئت على العالم اللغوي ابن السيد البطليوسي في منزله بمدينة بلنسية سنة ٥١١هـ.

السماء والعالم — في اللغة — لأبي عبد الله محمد ابن أبان اللخمي القرطبي المتوفى سنة ٣٥٤هـ، الموجود منه الجزء الثالث بخط أندلسي قديم، وبآخره وقفية

(١) راجع مقدمة تحقيق مغازي الواقدي، للمستشرق الإنجليزي الدكتور مارسدن جونز، صفحة ٢٦، طبعة دار المعارف بمصر.

سنة ٨٥٥هـ، ولا تعرف من هذا الكتاب نسخة في أي من مكتبات العالم، وهو من مراجع ابن سيده في كتابه «المخصص».

البيان والتبيين — للجاحظ، الجزء الثالث من نسخة جلييلة، على رق الغزال بقلم أندلسي نفيس جداً ضارب في القدم، والنسخة مقابلة على أصول صحيحة: أصل الوقشي، وابن سراج، وعطاء بن البادش، وبحواشيها تعليقات قيمة من كتاب الموالي، وكتاب الحيوان للجاحظ.

الإبانة في الوقف والابتداء، في القرآن الكريم — لأبي الفضل محمد بن جعفر الخزاعي، نسخة عتيقة بخط ابن البادش النحوي المعروف، فرغ من نسخها سنة ٥٢٠هـ.

كتاب مشتببه النسبة، ومعه المؤلف والمختلف في أسماء وألقاب رواة الحديث — كلاهما للحافظ عبد الغني بن سعيد الأزدي المصري، نسخة بخط نسخي جيد سنة ٥٣٦هـ.

كتاب خلق الإنسان، وكتاب الفرق، في اللغة، كلاهما لثابت بن أبي ثابت، نسخة بخط أندلسي سنة ٦٠٠هـ، وفي الخزانة نسخة أخرى من خلق الإنسان، بها بعض النقص، وهي بخط أندلسي قديم، وهذا «خلق الإنسان» كان قد نشره الأستاذ المحقق عبد الستار أحمد فراج بالكويت منذ عشر سنوات، عن نسخة وحيدة محفوظة بالمكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية.

تاريخ رواة الحديث — لابن أبي خيثمة، الموجود منه الجزء الثالث، بقلم أندلسي سنة ٦١٠هـ، وهذا الكتاب عزيز جداً، وقد عرفت ورأيت منه قطعتين صغيرتين: الأولى بالخزانة العامة بالرباط، والثانية بالمكتبة المحمودية بالمدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام.

مختصر تفسير أبي زكريا يحيى بن سلام التيمي المتوفى سنة ٢٠٠هـ، تأليف أبي عبد الله محمد بن عبد الله ابن أبي زمنين المتوفى سنة ٣٩٩هـ، نسخة بخط أندلسي سنة ٦١١هـ.

كتاب الأخلاق المسمى : نيقوماخيا — لأرسطو، بخط مغربي سنة ٦١٩هـ، وبآخره مقالة في المدخل إلى علم الأخلاق يظن أنها من تأليف نيقولاوش .

مجموع بخط أندلسي سنة ٦٣٦هـ، فيه كتاب الأضداد للتوزي، وكتاب الفرق بين الحروف الخمسة، وكتاب المثلث في اللغة، كلاهما لابن السيد البطليوسي .

البيان والتحصيل — في فقه المالكية — لابن رشد الجد، نسخة مزينة بخط أندلسي دقيق على رق غزال، كتب سنة ٧٢٠هـ، وتفيد هذه النسخة المعنيين بدراسة الخطوط وتطورها، فقد كتبت بقلم أندلسي دقيق ومنسق جداً، وبلغ عدد صفحاتها ٤٦٠ صفحة، في كل صفحة ٧٥ سطراً، وهذا نمط في الكتابة قل أن يوجد في المخطوطات العربية، وأوراق النسخة كلها من بطن الغزال، وهو أرق شيء فيه، ولك أن تقدر كم من الغزلان استخدم في كتابة هذه النسخة .

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون)، الموجود منه الجزآن الثالث والخامس من النسخة ذات الأجزاء السبعة التي وقفها ابن خلدون على خزانة جامعة القرويين، بتاريخ شهر صفر سنة ٧٩٩هـ، وعليها خط يده .

كتاب في السياسة — لأبي بكر محمد بن الحسن المرادي المتوفى سنة ٤٨٩هـ، نسخة مكتوبة سنة ٨٤٣هـ .

منظومة رجزية في علم الطب العام — لابن الطفيل الفيلسوف، الرجز مرتب على سبع مقالات تتجاوز عدد أبياته ٧٧٠٠ بيت، ويقول بعض المغاربة الذين قرأوا هذه الأرجوزة أن ابن الطفيل تكلم فيها على مرض السكر .

شرح أرجوزة ابن سينا في الطب — لابن رشد الحفيد — نسخة بخط أندلسي قديم .

هذه مختارات مما تفيض به هذه الخزانة العريقة من الذخائر والتحف، وقد رأيت بعض النفائس وقد عبثت بها الأرضة والرطوبة عبثاً شديداً، ولولا غيرة القائمين على الخزانة — وعلى رأسهم العلامة محمد العابد الفاسي — لأنت الأرضة والرطوبة

على الكثير من نوادرها، وهذا رجاء أبعث به إلى الحكومة المغربية الرشيدة — وأيادها على التراث المذكورة مشكورة — أن تولي مزيد اهتمام بهذه الخزانة، فتبادر بتصوير كل مقتنياتها تصويراً فنياً بعد أن ترممه وتجلده، ثم رجاء آخر إلى العلامة العابد الفاسي أن يخرج إلى النور هذا الفهرس العلمي القيم الذي صنعه لمحتويات الخزانة، والذي وظف فيه علمه الغزير وخبرته النادرة، فلقد رأيت كثيراً من التعليقات الجيدة على أغلفة المخطوطات بقلمه، آجره الله وجعله في موازينه.

وفي تطوان رأيت مخطوطات المكتبة العامة، وعددها قليل بالقياس إلى مخطوطات الرباط وفاس، ومن أهم ما تضمنه هذه المكتبة ديوان أبي الطيب المتنبي — بقلم مغربي جميل، وتمتاز هذه النسخة بأن بها زيادات من شعر المتنبي ليست توجد في سائر نسخ الديوان المعروفة، فضلاً عما بها من ذكر مناسبات القصائد، وشرح بعض الألفاظ اللغوية، والتنبيه على المعنى المراد، والديوان مرتب على حروف المعجم، وبأوله مقدمة للأديب أبي جمعة المراكشي الماغوسي، في بيان أهمية شعر المتنبي، وما له من الحظوة عند ملوك السعديين.

وقد كتب عن مخطوطات تطوان العلامة عبد الله كنون، مقالة مستفيضة تراها في مجلة معهد المخطوطات — الجزء الثاني من المجلد الأول.

هذا ما كان من أمر المكتبات العامة التي عرفتها في المغرب. أما المكتبات الخاصة فتنتشر في حواضر المغرب وبواديها، وقد أشار إلى بعضها الدكتور صلاح الدين المنجد في الجزء الأول من المجلد الخامس، من مجلة معهد المخطوطات.

وقد عرف المغاربة المعاصرون قيمة ما انتهى إليهم من ذلك الإرث الكريم، فتناولوه بالدرس والبيان، واكتشفوا من خلاله تاريخ الحضارة في بلادهم، ونفر منهم طائفة تفقهوا في فن المخطوطات، فجروا وراءها يجمعونها من الزوايا والصحراء، ويقيمون حولها الدراسات، ثم يقدمونها للناس ميسورة الجنى دانية القطاف.

وقد عرفت ثلاثة رجال من أعلام هذه الطائفة: محمد المنوني ومحمد إبراهيم الكتاني في الرباط، ومحمد العابد الفاسي في فاس، وهذا تقدمت الإشادة بفضلهم عند

الحديث على القرويين . أما المنوني والكتاني فقد قدما للتراث العربي في المغرب يداً باقية وأثراً مذكوراً، فكم اكتشفاً من مخطوطات، وكم صحّحاً من نسبة كتب لغير أصحابها، ولولا خوف الإطالة لذكرت من هذا وذاك الشيء الكثير، ثم كانت مساعدتهما المخلصة وعونهما الكريم لكل من يرد المغرب أو يستفتيهما من خارجه، فلم يحجبا علماً ولم يبخلأ بنصح .

ويمثل هؤلاء الأعلام الثلاثة الطبقة الأولى في الواقع الأدبي المغربي المعاصر، وهي الطبقة التي تخرجت في القرويين، واتصلت بالتراث في أصوله الأولى ومنابعه النقية بعيداً عن عبث المختصرين وضلال المتأولين .

وقد عاشت هذه الطبقة تجربة الحماية الفرنسية بكل مرارتها، فلم تخدع عن لغتها وتراثها، وظلت حفية به حريصة عليه مستزيدة منه .

وبجانب هؤلاء الأعلام الثلاثة عرفت من فحول هذه الطبقة: عبد الله كنون في طنجة، وسعيد أعراب، ومحمد داود، ومحمد بن تاويت – في تطوان، والرحالي الفاروقي في مراكش، وعبد السلام بن سودة في فاس، وفي الرباط: عبد الله الجراري، وعبد العزيز بن عبد الله، ومحمد الفاسي، وعبد الوهاب بن منصور، ومحمد بن العباس القباح، والحاج محمد باحيني وزير الثقافة، وهذا الرجل نمط وحده، فهو أديب مترسل، تستمع إليه فيحملك إلى دنيا حافلة بالنغم الحلو واللفظ المعجب والمعنى الشريف . وقد أتيح لي أن أستمع إليه في أمسية شعرية بالرباط، قدم فيها الشاعر السوري الكبير عمر أبو ريشة، فخلتني مع بيان الجاحظ وترسل ابن العميد، ولا أعتقد أن لهذا الأديب نظائر كثيرة في المشرق والمغرب .

وما زالت هذه الطبقة تواصل عطاءها السخي، وعلى وقع خطواتها سارت الطبقة الثانية من أدباء المغرب، وهي طبقة أصابت من مائدة القرويين العامرة، ثم اتصلت بالمناهج الحديثة وحصلت على أرقى الشهادات الجامعية، واتخذت مكانها في قاعات الدرس بالجامعة والمعاهد العلمية، وهذه الطبقة هي أمل المغرب

المعاصر، لما عرفت من وقوفها على القديم واتصالها بالحديث، وقد أدركت منها :
الأساتذة الدكاترة : محمد بن شريفة، وعباس الجراري، وعبد الهادي
التازي - في الرباط، والأستاذ الدكتور عبد السلام الهراس، وعبد الوهاب
التازي، والشاهد البوشيخي - في فاس، والأستاذين حسن الوراكلي وإسماعيل
الخطيب - في تطوان، وعباس الجراري أكثر هؤلاء اتصالاً بالحديث، مع روافد
تراثية خصبة .

ونأتي إلى الطبقة الثالثة : كتاب الرواية والقصة والمسرحية والشعر والحديث،
وكتّاب هذه الفنون الأدبية في المغرب يعالجونها على النحو الذي تعالج به في مصر
والشام والعراق وسائر بلاد المشرق سواء بسواء، من حيث البناء والمضامين
والانتماءات الفكرية المختلفة .

وتطالعك من كتاب الرواية والقصة أسماء : عبد الكريم غلاب، وإدريس
الخوري، وبوشتي حاضي . ومن كتاب المسرحية : عبد الكريم برشيد، ومصطفى
الزباخ، ومن الشعراء : محمد الصباغ، وحسن الطريقت، وأحمد المجاطي،
وعبد الكريم الطبال، ومحمد السרגيني، ومحمد بن ميمون، ولا شك أن هناك
كثيرين غير ما ذكرت ممن عرفت خلال رحلتي الاثنتين إلى المغرب .

وهذه الطبقات الثلاث من علماء وأدباء المغرب تواصل إنتاجها بثناء وغزارة،
ويجمعها كلها عتاب شديد على أدباء المشرق لإعراضهم وتجافيهم عما تنتجه
القرائح المغربية، وهذا العتاب يأتيك هامساً رقيقاً من طبقة الشيوخ، وتسمعه
صاخباً غاضباً من طبقة الشباب، فعلى حين يرى الشيوخ أن هذا الإعراض والتجافي
إنما جاء نتيجة عوامل اصطنعت في الأمة العربية اصطناعاً لتلفتها عما وجدت عليه
آباءها، وهي إلى زوال وانقضاء، يرى الشباب أنهما - الإعراض والتجافي - نغمة
من مقام التفوق الثقافي الذي يحس به المشاركة نحو المغاربة، وآية ذلك هذا السيل
من الكتب التي تحمل عناوين توحى بالشمولية، مثل «دراسات في الشعر العربي
المعاصر» من مصر، و«الشعر العربي الحديث وروح العصر» من العراق،

و«في الشعر العربي المعاصر» من سوريا، ثم تقرأ هذه الكتب فلا ترى فيها ذكراً
لشاعر من شعراء المغرب.

وقد كتب الأديب عبد الجبار العلمي، يرد على الأديب السوري بندر
عبد الحميد كلمته التي نشرها بجريدة الثورة السورية، عن التجربة الشعرية في
المغرب، واتهامها بالانطواء والعزلة، ومما قاله العلمي: «وأحب أن أقول للسيد
بندر عبد الحميد: إن المثقفين المغاربة من أشد الناس حرصاً على الاطلاع على
النشاط الثقافي في كل الأقطار العربية، وأنهم يلتهمون كل ما يصل إلى المغرب من
كتب ومجلات وصحف عربية، وأنهم يمثلون كثيراً من التيارات الجديدة، سواء في
القصة أو المسرح أو الشعر، وأن التجربة الحديثة لدينا تمتح من جميع الاتجاهات،
سواء منها العربية أو الأجنبية. . . وهناك عديد من الأبحاث في كلية الآداب في السنة
الآخيرة من الليسانس، كلها تتضمن شخصيات أدبية معاصرة، سواء في مصر أو في
سوريا أو في العراق»^(١).

وهذا الذي قاله الأديب عبد الجبار العلمي حق كله، وقد وقفت على أماراته
وشواهد في كل المدن المغربية التي زرتها، فالمكتبات عامرة بآثار المشاركة،
وإحالات الأساتذة الجامعيين وغيرهم من الباحثين على كتابات أدباء المشرق تملأ
حواشي كتبهم، وعلى الجانب الآخر انظر ما يكتبه بعض المشاركة من دراسات أندلسية
أو مغربية، وسترى خلطاً كثيراً واضطراباً بيئياً، أدى إليهما قلة معرفة بالمراجع المغربية
الأصيلة، وعدم متابعة لما يجري على الساحة المغربية من نشاط أدبي وفير.

وليسمح لي الأستاذ العلمي أن أنتقل بالقضية إلى ميدان أخطر وأجل من قضايا
القصة والمسرح والشعر الحديث، إنها قضية الفكر العربي الشثيت، والأمة الغافلة
عن ماضيها، الذاهلة عما يراد بها، ولقد كان هناك تواصل ولقاء بين أبناء هذه الأمة

(١) الملحق الثقافي لجريدة «العلم» المغربية، الجمعة ١٢ رمضان ١٣٩٥هـ - ١٩ سبتمبر

يوم كانت وسيلة الاتصال الناقة والسفينة، وحين تقاربت المسافات وطويت الآماد تقطعت أسباب التواصل وانصرف كل في واد، وقد حدثتكم من قبل عن قاسم بن أصيغ الأندلسي الذي روى عن ابن قتيبة كتبه بمنزله ببغداد، ويا بعد ما بين الأندلس وبغداد.

ولم يعد هناك من صور التواصل إلا ما يكون من تلك المؤتمرات الأدبية التي تعقد في عاصمة من عواصم البلاد العربية كل عام أو عامين، تستغرق من الأيام سبعة أو عشرة، وتنتهي جلساتها ببعض القرارات والتوصيات التي تذروها الرياح، بل قد تكشف هذه المؤتمرات أحياناً عن تنافر موحش بين أعضاء الوفود، نتيجة اختلاف المشارب والأهواء، وإقحام قضايا تجافي روح الأدب والفكر.

وإذا كانت الأمة العربية تشترك كلها مشرقاً ومغرباً في مسؤولية التواصل هذه، فإنني أشهد أن المغاربة لم يقصروا، وما برحوا يمدون أبصارهم إلى المشرق، تكريماً لعلمائه وإفادة منهم، فهذه الدروس الدينية الرمضانية التي تلقى بين يدي جلالة الملك الحسن الثاني ملك المغرب، في قصره بالرباط، والتي تسمى: الدروس الحسنية، يدعى إليها كبار مفكري الإسلام من البلاد العربية، وقد دعي من علماء مصر هذا العام أستاذنا الجليل محمود محمد شاكر — ويسميه بعضهم هناك: شيخ العربية — والباحث الدكتور مصطفى محمود.

وقد حدثني أحد منظمي مهرجان ابن زيدون في الرباط أن وزارة الثقافة المغربية قد دعت إلى هذا المهرجان كل من له أدنى صلة بابن زيدون في مختلف البلاد العربية، وقد دعي من أدباء مصر عدد وفير ليسوا كلهم على صلة بابن زيدون، بل إن بعضهم لا وجود له فيما يكتب من أدب في مصر هذه الأيام، وقد كانت له أيام، ولكنها رغبة المغاربة الدائمة في تكريم الأديب المصري، وإجلالهم لماضيهِ، وحين زالت الحواجز التي كانت تعوق حركة المصريين اندفع المغاربة في دعوة كثير من أساتذة الجامعات المصرية للإفادة من علمهم في قاعات الدرس بالجامعات المغربية.

والحق أن لمصر في الوجدان المغربي رصيذاً ضخماً من الحب والإعزاز،
تراه أئى سرت وحيثما توجّهت، وقد رأيت من تعلق المغاربة بكل ما هو مصري ما لا
يبلغ كنهه وصف واصف، ولا يسوء القوم إلا أننا نجهل عنهم الكثير، ولقد قال لي
عالم مغربي كبير: إننا نعرف عنكم كل شيء وأنتم لا تعرفون عنا أي شيء.

وبعد: فإذا كان المغرب قد حافظ على التراث العربي، مخطوطات نادرة
ونصوصاً قيمة، فإنه قد حافظ عليه أيضاً، سلوكاً وفضلاً ورعاية لواجب الأخوة مهما
تباعدت الديار وتناوت الأمصار.

وهذه دعوة من فوق منبر «الثقافة» إلى أدباء المشرق عامة، وأدباء مصر خاصة
أن يلتفتوا لفتة جادة إلى أدب إخوانهم في المغرب، درساً له وبحثاً عن مواطن
الإجادة فيه، فما ينبغي أن يظل هذا الركن القصي من الوطن العربي غير محسوب في
خريطة الفكر العربي.



عَيْنِيَّة ابن زريق^(١)

ذهب الشعراء المكثرون بالذيق والشهرة في مجال قراءة الشعر ودرسه، وبقي على ساحة القريض طائفة كبيرة من الشعراء الذين عرفوا بالشعراء المقلِّين، وقد قال هؤلاء من الشعر أحلاه، وصاغوا من النغم أعذبه، وتوزعت أغاريدهم وأنغامهم في المجاميع الأدبية والأمالى والمجالس، وكتب التاريخ والتراجم والبلدان، وموسوعات العلوم، كال تفسير والنحو واللغة والبلاغة.

ولن يستقيم درس الشعر العربي وتبرز صورته واضحة الملامح بيَّنة القسّمات إلّا إذا جمع شعر هؤلاء الشعراء المقلِّين، وأوتي حظه من البحث والتأمل.

وقد نشط إخواننا أدباء العراق هذه الأيام لجمع هذا الشعر وإذاعته في دواوين صغيرة، وعلى الرغم مما شاب عملهم من بعض العجلة والقصور في تخريج الشعر وتوثيقه، فإنه جهد طيب خليق بكل الاحتفال والمؤازرة والاقتداء.

وليت أساتذة الجامعات العربية يغفرون تلاميذهم في الدراسات العليا بجمع هذا الشعر ودرسه، وليتجه هذا الجمع إلى البلدان في عصورها المختلفة، فيقال مثلاً: «شعراء مصر في القرن الرابع الهجري»، وهكذا في سائر البلدان العربية على امتداد العصور، ومن أعجب العجب أن ما كتبه أسلافنا لإقامة مثل هذه الدراسات كبير وفير، ولكنه يخفى على كثير ممن يتعاطون الأدب والشعر هذه الأيام، كأنه كتب بلغة غير لغتنا لأمة سوى أمتنا:

فدع عنك نهباً صييح في حَجَراته ولكن حديثاً ما حديث الرواحل
وأقول: إن بعض هؤلاء الشعراء المقلِّين عرف بقصيدة واحدة تناقلها الرواة

(١) مجلة الشعر، العدد الأول، يناير ٧٦، القاهرة.

وأنشدها المنشدون. ومنهم ابن زريق صاحب القصيدة العينية البديعة التي يسمع المحب فيها رجع أناته، ويحس الغريب منها لذع الغربة يكوي فؤاده ويشده إلى مراتع صباه ومراتع لهوه، ويغذي الصوفي بها مواجيده وأشواقه، ثم يجد فيها قارىء الشعر متعته بما يسري فيها من نغم علوي وإيقاع أسر.

وقد شرقت هذه القصيدة وغرّبت، وعُدَّ حفظها من أسباب الظرف. روى أبو عبد الله الحميدي المتوفى سنة ٤٨٨هـ، عن الإمام أبي محمد بن حزم، قال: «يقال: من تختم بالعقيق وقرأ لأبي عمرو وتفق للشافعي وحفظ قصيدة ابن زريق فقد استكمل الظرف»^(١).

وابن زريق صاحب هذه القصيدة هو: أبو الحسن علي بن زريق الكاتب البغدادي، عاش في بغداد ثم رحل إلى الأندلس وبها توفي. ولم أجد له ترجمة تعين تاريخ مولده أو وفاته. ويرى المستشرق الألماني كارل بروكلمان^(٢) أنه توفي نحو سنة ٤٢٠هـ، وقد أورد له صلاح الدين الصفدي^(٣) ترجمة موجزة جداً، ذكر فيها أنه أنشأ هذه القصيدة في مدح العميد أبي نصر وزير طغرل بك. وأبو نصر هذا هو: عميد الملك الوزير محمد بن منصور الكندري المتوفى سنة ٤٥٦هـ^(٤)، لكن أبا حيان التوحيدي أنشد بيتين من قصيدة ابن زريق لم ينسبهما، وهما قوله:

أستودع الله في بغداد لي قمرا بالكرخ من فلك الأزرار مطلعته
ودعته وبودّي لو يودعني صفو الحياة وإنّي لا أودعه^(٥)

(١) الظرف، بفتح الظاء: هو البراعة وذكاء القلب، وقيل: الظرف في اللسان: البلاغة، وفي الوجه: الحسن، وفي القلب: الذكاء.

(٢) تاريخ الأدب العربي، الملحق ١/١٣٣، الطبعة الأوربية، ومعجم المؤلفين، للأستاذ عمر كحالة ٩٥/٧.

(٣) الوافي بالوفيات، مصوّرة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، برقم ٨٦١ تاريخ.

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٢٣/٤، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٢٦/٥.

(٥) الإمتاع والمؤانسة ١٦٦/٢، تحقيق الأستاذين أحمد أمين وأحمد الزين.

وأبو حيان توفي نحو سنة ٤٠٠هـ، فيتطرق الشك إذن إلى أمرين: الأول كون القصيدة قيلت في مدح عميد الملك الذي تأخرت وفاته كثيراً عن وفاة أبي حيان. الثاني: نسبة البيتين لابن زريق. ولما كنا لا نملك ما ندفع به الأمر الأول، برغم أن القصيدة ليس فيها ذكر لعميد الملك، لا من قريب ولا من بعيد، فإن الشك ينحصر في الأمر الثاني، وهو أن البيتين ليسا لابن زريق، ويقوي هذا دليلاً: الأول: أن أبا حيان لم ينسب البيتين لقائل، لا لابن زريق ولا لغيره. الثاني: أن أبا منصور الثعالبي^(١)، نسبهما مع بيتين يأتيان بعدهما في ترتيب القصيدة إلى الواواء الدمشقي المتوفى نحو سنة ٣٨٥هـ، والثعالبي حجة فيما يورده، لأنه يسجل أدب عصره، وقد أورد محقق ديوان الواواء^(٢) هذه الأبيات الأربعة عن الثعالبي، ووضعها في الزيادات التي ليست بأصل الديوان، ثم ذكر أن الأبيات من قصيدة ابن زريق، وأحال على كتاب «الكشكول» للعالملي.

وإذا صح كلام الثعالبي فيكون ابن زريق قد ضمّن هذه الأبيات الأربعة قصيدته التي لا شك في نسبتها إليه، أو أن بعض الرواة أقحم الأبيات على القصيدة، لاتفاق القافية والوزن والنفس الشعري.

ولعل مما يتصل بهذه القضية أنني وجدت أبياتاً للتهامي المتوفى سنة ٤١٦هـ، شديدة الشبه بأبيات ابن زريق، أوردها أسامة بن منقذ^(٣)، أولها:

أستودع الله في أرض الحجاز رشا في روضة القلب مأواه ومرتعه

ونأتي إلى من أثبت قصيدة ابن زريق، فأول من عرف: أبو سعد السمعاني المتوفى سنة ٥٦٣هـ، وذكر أبياتاً من القصيدة غير تامة، وبعده: أسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤هـ، وذكر من القصيدة عشرة أبيات، وصلاح الدين الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤هـ، وتاج الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١هـ، وأبو بكر بن حجة

(١) يتيمة الدهر ١/ ٢٩٣، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية.

(٢) ديوان الواواء الدمشقي، ص ٢٧٣، تحقيق الدكتور سامي الدهان، طبعة دمشق.

(٣) المنازل والديار، ص ٢٢٠، تحقيق أخي الأستاذ مصطفى حجازي، ولم ترد هذه الأبيات في ديوان التهامي المطبوع في دمشق.

الحموي المتوفى سنة ٨٣٧هـ، وبهاء الدين العاملي المتوفى سنة ١٣٠١هـ^(١)، وهؤلاء الأربعة ذكروا القصيدة كاملة، وانفرد السبكي وابن حجة بإيرادها بسندهما المتصل إلى ابن زريق.

ومما ينبغي التنبيه له أن هناك شاعراً آخر في القرن الرابع، عرف أيضاً بابن زريق، وقد ترجم له الثعالبي في اليتيمة، وأورد له شعراً، ولم يذكر له اسماً، إنما ذكره بكنيته، فقال: «أبو محمد بن زريق الكوفي الكاتب»^(٢)، وأنشد له بيتين في مدح بغداد، في كتابه: «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب»^(٣)، وأنشد هذين البيتين أيضاً ياقوت الحموي في «معجم البلدان» عند كلامه على بغداد.

وقد أنشد ابن خلكان البيت: أستودع الله في بغداد... إلخ. ثم قال: وهذا البيت لمحمد بن زريق الكاتب الكوفي، من جملة قصيدة طويلة^(٤). ومهما يكن من أمر فهذه رائعة ابن زريق، وقبل أن أخلي بينك وبينها، أقول: إن هذه القصيدة ليست كل ما تركه ابن زريق من إنتاج شعري، فقد وجدت له قصيدة جيدة في رثاء ديك، أوردها صلاح الدين الصفدي في كتابه «الوافي بالوفيات» ولعلي

(١) السمعاني في كتابه ذيل تاريخ بغداد، كما حكى عنه السبكي في الموضع الآتي من كتابه الطبقات، وأسامة بن منقذ في كتابه المنازل والديار المذكور من قبل، ص ٣٣، ٣٤، والصفدي في كتابه الوافي بالوفيات الذي مر ذكره، والسبكي في كتابه طبقات الشافعية الكبرى ٣٠٨/١ - ٣١١، تحقيق أخي الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، وكاتب هذه المقالة، وابن حجة في كتابه ثمرات الأوراق ص ٤٧٥ - ٤٧٨، تحقيق الأستاذ الكبير محمد أبو الفضل إبراهيم، والعاملي في كتابه الكشكول ١١٨/١ - ١٢٠، تصحيح الشيخ طاهر الزاوي، وقد خمس قصيدة ابن زريق هذه طه أفندي أبو بكر، وسمى تخميسه: بث الشجن على عينية أبي الحسن، وطبع هذا التخميس بمطبعة بولاق سنة ١٣١٢، مع كتاب الدر الذي انسجم على لامية العجم، للشيخ سيد بن علي المرصفي، كما جاء في فهرس الأدب بدار الكتب المصرية.

(٢) يتيمة الدهر ٢/ ٢٧٧.

(٣) ثمار القلوب ص ٥١٢، تحقيق الأستاذ الكبير محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٤) وفيات الأعيان ٤/ ٤٢٠، ترجمة موسى بن عبد الملك الأصبهاني، و«أبو محمد» عند الثعالبي جاءت عند ابن خلكان «محمد» كما ترى.

أوفق في نشرها قريباً، ثم ذكر بروكلمان أن له أرجوزة في الأخلاق، مخطوطة في برلين، ومن يدري لعل له أشياء غير هذه وتلك، فكم في الزوايا من خبايا:

[«عَيْنِيَّة ابن زريق»]

لا تعذِّليه فإنَّ العَذْلَ يُولِّعه
جاوَزَتْ في لومِه حَدًّا أَضَرَّ به
فاستعملي الرِّفْقَ في تأنيبه بَدَلًا
قد كان مضطرباً بالبين يَحْمِلُهُ
يكفيه من لوعةِ التَّفْنيدِ أنَّ لَهُ
ما أب من سَفَرٍ إلا وأزَعَجَهُ
كأنما هو من حَلٍ ومُرتَحِلٍ
إذا الزَّمَاعُ أراه في الرِّحيلِ غِنَى
تأبى المطامعُ إلا أن تُجَشِّمَهُ
وما مُجَاهِدَةُ الإنسانِ واصلَةٌ
واللَّهَ قَسَمَ بينَ الخلقِ رزقُهُم
لكنهم مُلثَوًّا حِرْصاً فليست ترى
والحرصُ في الرِّزْقِ والأرزاقِ قد قُسمت
والدهرُ يُعطي الفتى ما ليس يطلبُهُ
أستودع الله في بَغْدَادَ لي قَمَرًا

قد قلت حقاً ولكن ليس يَسْمَعُهُ^(١)
من حيثُ قَدَّرتُ أن اللومَ يَنفَعُهُ
من عَذْلِهِ فهو مُضْنَى القلبِ مُوجَعُهُ
فَضْلَعْتُ بخطوبِ البينِ أَضْلَعُهُ^(٢)
من النَّوَى كُلَّ يومٍ ما يُروِّعُهُ^(٣)
رأيتُ إلى سَفَرٍ بِالْعِزْمِ يَجْمَعُهُ
مُوكِلٍ بفضاءِ الأرضِ يذرُّعُهُ^(٤)
ولو إلى السُّنْدِ أَضْحَى وهو يَزِمُهُ^(٥)
للرزقِ كَدًا وكمِ مِمَّنْ يُودَّعُهُ
رِزْقاً ولا دَعَا الإنسانِ تَقْطَعُهُ
لم يخلقِ اللَّهُ مَخْلُوقاً يُضِيعُهُ
مُسْتَرِزِقاً وسوى الغاياتِ تُقْنَعُهُ
بَغْيٍ ألا إنَّ بَغْيَ المرءِ يَصْرَعُهُ
يوماً وَيُطْمَعُهُ من حيثُ يَمْنَعُهُ
بالكَرْخِ من فَلكِ الأَزْرارِ مَطْلَعُهُ

(١) أشير هنا إلى أن هناك بعض اختلاف في رواية أبيات القصيدة، فمن أراحه فليطلبه فيما ذكرت من مراجع.

(٢) ضلعت: أي أثقلت وتكسرت، يقال: داهية مضلعة: أي تثقل الأضلاع وتكسرهما.

(٣) التَّفْنيد: اللوم وتضعيف الرأي، وفي التنزيل العزيز، حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾، قال الفراء: يقول: تكذبون وتعجزون وتضعفون. معاني القرآن ٥٥/٢.

(٤) الحل: نقبض الارتحال، وهو بفتح الحاء، وكثير من الناس ينطقه بكسر الحاء، وهو خطأ.

(٥) الزَّمَاع، بفتح الزاي وكسرهما: المضاء في الأمر والعزم عليه.

وَدَعْتَهُ وَبُودِي لَوْ يُوَدُّعَنِي
وَكَمْ تَشْفَعُ بِي أَلَّا أَفَارِقَهُ
وَكَمْ تَشَبَّثَ بِي يَوْمَ الرِّحِيلِ ضَحَى
لَا أَكْذِبُ اللَّهَ: ثَوْبُ الْعَذْرِ مَنْخَزَقُ
إِنِّي أَوْسَعُ عُذْرِي فِي جَنَائِتِهِ
أَعْطَيْتُ مُلْكَاً فَلَمْ أَحْسَنْ سِيَاسَتِهِ
وَمَنْ غَدَا لَابِساً ثَوْبَ النِّعَمِ بِلَا
اعْتِصَتْ مِنْ وَجْهِ خَلِّيٍّ بَعْدَ فُرْقَتِهِ
كَمَا قَائِلٌ لِي دَفَنْتَ الْبَيْنَ قُلْتُ لَهُ
أَلَا أَقَمْتَ فَكَانَ الرِّشْدُ أَجْمَعَهُ
إِنِّي لَأَقْطَعُ أَيَّامِي وَأَنْفِذُهَا
بِمَنْ إِذَا هَجَعَ النَّوَامُ بَتَ لَهُ
لَا يَطْمِئِنُّ بَجَنْبِي مَضْجَعُ وَكَذَا
مَا كُنْتُ أَحْسَبُ رَيْبَ الدَّهْرِ يَفْجَعُنِي
حَتَّى جَرَى الْبَيْنُ فِيمَا بَيْنَنَا يَبِيدُ
وَكُنْتُ مِنْ رَيْبِ دَهْرِي جَازِعاً فَرِيقاً
بِاللَّهِ يَا مَنْزِلَ الْإِنْسِ الَّذِي دَرَسْتُ
هَلِ الزَّمَانُ مَعِيدَ فَيْكَ لَدُنَّا
فِي ذِمَّةِ اللَّهِ مِنْ أَصْبَحَتْ مَنْزِلُهُ
مَنْ عِنْدَهُ لِي عَهْدٌ لَا يُضِيعُهُ
وَمَنْ يُصَدِّعْ قَلْبِي ذَكَرُهُ وَإِذَا
لَأَصْبِرَنَّ لِـدَّهْرِ لَا يُمْتَعُنِي
عِلْماً بِأَنْ أَصْطَبَارِي مُعْقَبَ فَرَجٍ
عَسَى اللَّيَالِي الَّتِي أَضْنَنْتَ بِفُرْقَتِنَا
وَأَنْ تَغْلُ أَحَداً مِنَّا مَنِيَّتُهُ

صَفَوُ الْحَيَاةِ وَأَنْتِي لَا أُوَدُّعُهُ
وَلِلضَّرُورَاتِ حَالٍ لَا تَشْفَعُهُ
وَأُدْمَعِي مُسْتَهْلَاتٍ وَأَذْمَعُهُ
عَنِّي بِفُرْقَتِهِ لَكِنْ أَرْقَعُهُ
بِالْبَيْنِ عَنْهُ وَقَلْبِي لَا يُوسِّعُهُ
وَكُلُّ مَنْ لَا يَسُوسُ الْمُلْكَ يُخْلَعُهُ
شُكْرٍ عَلَيْهِ فَعْنَةُ اللَّهِ يَنْزِعُهُ
كَأْساً تَجْرَعُ مِنْهَا مَا أَجْرَعُهُ
الذَّنْبُ وَاللَّهُ ذَنْبِي لَسْتُ أَدْفَعُهُ
لَوْ أَنَّنِي يَوْمَ بَانَ الرِّشْدُ أَتْبَعُهُ
بِحَسْرَةٍ مِنْهُ فِي قَلْبِي تَقْطَعُهُ
بِلَوْعَةٍ مِنْهُ لَيْلِي لَسْتُ أَهْجَعُهُ
لَا يَطْمِئِنُّ لَهُ مُذْ بَنْتَ مَضْجَعَهُ
بِهِ وَلَا أَنَّ بِي الْأَيَّامَ تَفْجَعُهُ
عَسْرَاءَ تَمْنَعُنِي حَظِي وَتَمْنَعُهُ
فَلَمْ أَوْقُ الَّذِي قَدْ كُنْتُ أَجْزَعُهُ
آثَارُهُ وَعَفْتُ مَذْ بَنْتَ أَرْبَعَهُ
أُمُّ اللَّيَالِي الَّتِي أَمْضَتْهُ تَرْجَعُهُ
وَجَادَ غِيثٌ عَلَى مَغْنَاكَ يُسْرِعُهُ
كَمَا لَهُ عَهْدٌ صِدْقٍ لَا أَضِيعُهُ
جَرَى عَلَى قَلْبِهِ ذِكْرِي يُصَدِّعُهُ
بِهِ وَلَا بِي فِي حَالٍ يُمْتَعُنِي
فَأَضِيقُ الْأَمْرَ إِنْ فَكَّرْتُ أَوْسَعُهُ
جَسْمِي سَتَجْمَعُنِي يَوْماً وَتَجْمَعُهُ
فَمَا الَّذِي بِقَضَاءِ اللَّهِ يَصْنَعُهُ



التحقيق^(١)

تحقيق النصوص علم له قوانينه وأعرافه ومصطلحاته وأدواته، وله جانبان: جانب الصنعة، وجانب العلم.

فأما جانب الصنعة: فهو ما يتصل بجميع النسخ المخطوطة للكتاب المراد تحقيقه، والموازنة بينها واختيار النسخة الأم أو الأصل كما سنعرض له فيما بعد — ثم ما يكون بعد ذلك من توثيق عنوان المخطوط واسم المؤلف، ونسبة المخطوط إليه، ونسخه والتعليق عليه، وتخريج شواهد وتوثيق نقوله وصنع الفهارس الفنية اللازمة، فهذا كله جانب الصنعة الذي يستوي فيه الناس جميعاً، ولا يكاد يفضل أحد أحداً فيه، إلا بما يكون من الوفاء بهذه النقاط أو التقصير فيها.

وأما جانب العلم في تحقيق النصوص: فهو الغاية التي ليس وراءها غاية، وهو المطلب الكبير الذي ينبغي أن تصرف إليه الهمم، وتبذل فيه الجهود، ولواء لهذا التراث العريق، وكشفاً لمسيرتنا الفكرية عبر هذه الأزمان المتطاولة.

وتلخيص هذا الجانب الآن في هذه المحاضرة المحدودة عسر كل العسر، والتدليل عليه لا يكون إلا بالنظر في أعمال المحققين الأثبات، وقراءة حواشيمهم، وسترون أن هؤلاء المحققين العلماء دائرون في قضايا العربية كلها التي يدور حولها النص، أصالة أو استطراداً، ثم تأملوا جريدة مراجعهم وستجدون أنها تكاد تغطي

(١) مجلة فن تحقيق التراث، مركز الدراسات والبحوث الإسلامية، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.

المكتبة العربية كلها، فعدة المحقق هي الكتب في كل فن، لأنه في كل خطوة يخطوها مع النص مطالب بتوثيق كل نقل، وتحرير كل قضية، بل إن المحقق الجاد قد يبذل جهداً مضمناً لا يظهر في حاشية أو تعليق، وذلك حين يريد الاطمئنان إلى سلامة النص واتساقه، ولا يشفع له إذا كبا أو تعثر أنه متخصص في النحو فقط، أو في البلاغة فقط، فلا بد أن يكون على صلة باللغة والنحو والتفسير والحديث — متناً وسنداً — وعلم الكلام، والأصول والفقه، والأدب والبلاغة والعروض والتاريخ والبلدان (الجغرافيا) وسائر فروع العلم، إن لم يكن من طريق الإلمام الكامل — وهذا شاق بلا ريب — فمن طريق الأنس بكتب هذه الفنون، والدربة على التعامل معها والإفادة منها، ومعرفة مظنة العلم نصف العلم.

وعلى ذلك فإن طالب الدراسات العليا حين يحقق نصاً تراثياً على هذا النحو، إنما يقدم مادة علمية محررة، تقوم عليها دراسات الدارسين، فلا دراسة صحيحة مع غياب النص الصحيح المحرّر. وكم رأينا من دراسات انتهت إلى نتائج غير صحيحة، لأنها اتكأت على نصوص محرفة، وأوضح ما نرى هذا في الدراسات الشعرية التي قامت على دواوين شعرية غير محققة.

والتحقيق في اللغة: التصديق أو قول الحق، والإحقاق: الإثبات، يقال: أحققت الأمر إحقاقاً: أي أثبتته وأحكمته وصححته. والجاحظ يسمى العلماء الأثبات: العلماء المحققين. (رسالة فصل العداوة والحسد — رسائل الجاحظ ١/٣٣٩)، والشريف الرضي يسميهم «العلماء المحققين» (حقائق التأويل ص ٢٠).

والتحقيق في اصطلاح نشر التراث: «هو أن يؤدّى الكتاب أداءً صادقاً كما وضعه مؤلفه كما وكيفاً بقدر الإمكان»، والكتاب المحقق: «هو الذي صح عنوانه واسم مؤلفه ونسبة الكتاب إليه، وكان متنه أقرب ما يكون إلى الصورة التي تركها مؤلفه».

ولتحقيق هذه الغاية لا بد من إجراءات علمية تدور على النقاط التالية:

١ — تحقيق عنوان الكتاب.

٢ — تحقيق اسم المؤلف .

٣ — تحقيق نسبة الكتاب إلى مؤلفه .

٤ — تحقيق متن الكتاب حتى يظهر بقدر الإمكان مقارباً لنص مؤلفه .

والخطوة الأولى في تحقيق الكتاب هي : جمع قدر معقول من مخطوطاته ، والموازنة بين نسخ هذه المخطوطات لاختيار النسخة الأصل أو النسخة الأم ، والنسخ المساعدة ، ويتم اختيار هذه النسخة الأصل وفق معايير معينة ، هي على هذا الترتيب :

١ — أن تكون النسخة بخط المؤلف ، أو تكون من إملائه على أحد تلاميذه ، أو تكون قد سمعت عليه ، أو أجاز روايتها عنه ، على أن يثبت في أول النسخة أو آخرها ما يدل على ذلك .

٢ — أن تكون النسخة مأخوذة عن النسخة السابقة التي هي الأصل ، أو تكون فرعاً عنها .

٣ — إذا فقدت نسخة المؤلف أو النسخة المنقولة عنها — وهي فرعها أو فرع فرعها — فيكون المعيار العام في تفضيل نسخة على أخرى هو قدم تاريخ النسخ ، وقربه من عصر المؤلف ، مع سلامة المتن وصحة النسخ .

ويدور عمل المحقق بعد أن ينسخ الكتاب من الأصل المخطوط الذي اختاره وارتضاه ، وبعد المقابلة على النسخ الأخرى ، على جملة من التعليقات ، هي :

١ — ذكر فروق النسخ ، ولا يذكر من هذه الفروق إلا ما له وجه ومعنى .

٢ — تخريج النصوص (قرآن — حديث — شعر — مثل) . وتخريج النصوص هو الدلالة على مواضعها في مصادرها .

٣ — توثيق النقول التي صرح المؤلف بنسبتها إلى أصحابها ، أو التي سكت عنها ، ثم عرف المحقق أصولها وأصحابها .

٤ - التعريف بالأعلام والأماكن، ولا يعرف منهما إلا ما كان مجهولاً أو قليل الشهرة.

٥ - الشروح اللغوية للألفاظ الغريبة، ويتصل بها شرح المصطلحات، والإشارات التاريخية.

وواضح أن تعليقات المحقق التي تقوم على هذه النقاط الخمس، ينبغي أن تكون في دائرة إضاءة النص وتوضيحه فقط، فلا يصح أن يتوسع فيها حتى تخرج إلى التفسير الكامل، فتحقيق النصوص ليس شرحاً لها.

ويسبق هذا العمل عمل ويقفوه عمل، فأما الذي يسبقه فهو ترجمة لمؤلف الكتاب، على المنهج المعروف عند أئمة التحقيق، ثم حديث عن الكتاب المحقق، ومكانه في الفن الذي يدور حوله، تأثيراً وتأثيراً، ثم مكانة الكتاب في المكتبة العربية على وجه العموم.

وأما الذي يقفوه فهو فهرس فنية تكشف عن كنوز الكتاب وفوائده، وتجرى هذه الفهارس على النحو الذي عرف عند شيوخ صناعة التحقيق.

ويستعمل مصطلح التحقيق مرادفاً لمصطلح «التصحيح» أو «النشر»، وفي بداية الطباعة العربية لم يعرف هذا المصطلح «التحقيق»، ولعل أول من استعمله ووضعه على صدر الكتب التي نشرها هو: أحمد زكي باشا، شيخ العروبة، المتوفى سنة ١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م، وذلك فيما نشره من هذه الكتب:

الأصنام، لابن الكلبي ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م، والتاج في أخلاق الملوك، المنسوب للجاحظ، في السنة نفسها، وأنساب الخيل، لابن الكلبي، الذي طبع بعد وفاته سنة ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م.

وقد مرَّ تحقيق التراث أو نشره في الديار المصرية بأربع مراحل:

المرحلة الأولى:

مطبعة بولاق والمطابع الأهلية. وفي هذه المرحلة نشرت النصوص التراثية

فقط خالية من دراسة الكتاب وترجمة مؤلفه وذكر مخطوطاته وفهرسته، لكن النشر في تلك المرحلة اتسم بالدقة المتناهية والتحرير الكامل، وكان يقوم على التصحيح (التحقيق) فئة من أهل العلم، يأتي على رأسهم الشيخ نصر الهوريني، والشيخ محمد بن عبد الرحمن، المعروف بقطة العدوي، كما شمل النشر في تلك المرحلة أصول التراث العربي كله، دون تحيز إلى مذهب أو اتجاه.

المرحلة الثانية :

عنيت هذه المرحلة إلى حد ما بجمع النسخ المخطوطة للكتاب المراد نشره، وذكر ترجمة المؤلف، وبعض الفهارس، وتعرف هذه المرحلة بهذه الأسماء : محمد أمين الخانجي، ومحب الدين الخطيب، ومحمد منير الدمشقي، وحسام الدين القدسي.

المرحلة الثالثة :

مرحلة دار الكتب المصرية. وفي هذه المرحلة أخذ تحقيق الكتب ونشرها يتجه إلى النضج والكمال، من حيث جمع النسخ المخطوطة من مكتبات العالم، وإضاءة النصوص ببعض التعليقات والشروح، وصنع الفهارس التحليلية الكاشفة لكنوز الكتب، وما يسبق ذلك كله من التقديم للكتاب وبيان مكانه في المكتبة العربية.

وقد تأثر هذا المنهج إلى حد ما بمناهج المستشرقين الذين نشطوا إلى نشر تراثنا وإذاعته من القرن الثامن عشر الميلادي. وقد وقف على رأس هذه المرحلة أحمد زكي باشا، شيخ العروبة.

المرحلة الرابعة :

مرحلة الأفذاذ من الرجال، وهي مرحلة الأعلام: أحمد محمد شاكر، ومحمود محمد شاكر، وعبد السلام محمد هارون، والسيد أحمد صقر. وقد دخل هؤلاء الرجال ميدان التحقيق والنشر مزودين بزاد قوي من علم الأوائل وتجاربهم،

ومدفعين بروح عربية إسلامية عارمة، استهدفت إذاعة النصوص الدالة على عظمة التراث، الكاشفة عن نواحي الجلال والكمال فيه. ومن أعظم آثار هذه المرحلة تحقيق هذه الكتب العالية: الرسالة، للشافعي، وطبقات فحول الشعراء، لابن سلام، والبيان والتبيين، والحيوان، للجاحظ، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، وإعجاز القرآن للباقلاني. وقد أثرت هذه المرحلة تأثيراً كبيراً، في كل مكان نشر فيه تراث عربي.

وفي العقود الأربعة الأخيرة أفسحت الجامعات العربية صدرها لتحقيق المخطوطات سبيلاً للحصول على الشهادات الجامعية العليا (ماجستير – دكتوراه)، لكن الجامعات العربية حين فعلت ذلك لم تزود الطالب بما يعينه على تحقيق ذلك النص، من معرفة لمناهج التحقيق، وقراءة المخطوطات المشرقية والمغربية، وتوثيق النقول وتخريج الشواهد، وصنع الفهارس، وحدود التعليق على النص، والتقديم له، ثم الوقوف على أمهات المراجع العربية، في فنون التراث المختلفة، ومعرفة التعامل معها، والإفادة منها.

وكان مأمولاً أن تثمر تلك الجهود التي بدأها شيخنا عبد السلام هارون رحمه الله، في دار العلوم، والأستاذ مصطفى جواد رحمه الله، في كلية الآداب بجامعة بغداد، تلك الجهود التي استهدفت تعريف الطلاب بفن تحقيق النصوص ومناهجه، من واقع تجارب الشيخين، ولكن تلك الجهود، لم تتم ولم يكتب لها الشیوع. ولم تبق إلا تلك الإشارات العاجلة الخاطفة عن تحقيق النصوص، والتي تجيء في ثانيا مادة «مناهج البحث» التي تدرس للطلبة في السنة المنهجية المؤهلة للدراسات العليا، ومعظمهما مما يسقط إلى أساتذة هذه المادة من الترجمات الغربية، ومن منظور استشراقي بحث. فلم يجد الطالب الذي يتصدى لتحقيق نص سبيلاً أمامه إلا أن يركض هنا وهناك، ويتخبط بين منهج ومنهج ولا يخرج بشيء، لأنه دخل بغير شيء.

وقد كان موقف بعض الجامعات العربية من تحقيق النصوص، موقفاً غريباً

متناقضاً، فهي قد قبلته طريقاً للحصول على الماجستير والدكتوراه، ثم رفضته في أعمال الترقّيات العلمية (يحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً) - . وليست الترقية العلمية أشدّ خطراً من إجازة الدكتوراه. وكانت حجة الرافضين أن تحقيق النصوص قد اتخذ مركباً سهلاً. وهذا حق، ولكن ما هكذا تكون الأحكام عامة مطلقة، والأولى أن يقال: إن تحقيق النصوص عمل من الأعمال العلمية، جيّد جيّد، ورديئه رديء.

ومهما يكن من أمر: فقد كانت مشاركة الجامعات العربية في تحقيق النصوص سبيلاً لإظهار بعض النصوص التي لا يقبل عليها الناشرون كثيراً، ولا يهتمون بها، لأنها لا تحقّق ربحاً، لقلّة جمهورها من القراء.

والله أعلم.



محمد مرسي الخولي.. والبنيان الذي تهدم^(١)

جاء نعيه من القاهرة، فلفني حزن أسود كثيب، وغشي نفسي ما غشاها، ثم استرجعت وسألت ربي أن يذهب عني ما أجد، من العجز المردى، والأسى الماحق؛ فإن فقد الأحباب مما يكوي الفؤاد، ويهد النفس هذاً! وسبحان من تفرد بالبقاء.

لقد كان محمد مرسي الخولي آخر حارس من حراس معهد المخطوطات، هذا الصرح الشامخ الباذخ، الذي قدم للتراث الإسلامي والعربي الكثير.

إن من أوجب الواجبات أن يكتب تاريخ هذا المعهد، الذي صان التراث وجمعه وحفظه، وإنه من حق الأجيال أن تعرف تاريخ أبنائها الأبرار، الذين عرفوا لتراثهم حقه من الإجلال والتكرمة.

نعم من حق الأجيال أن تعرف ماذا صنع: أحمد أمين، ويوسف العش، ومحمد بن تاويت الطنجي، وصلاح الدين المنجد، وعبد الحليم النجار، وخليل عساكر، وعبد العزيز الأهواني، وفؤاد سيد، ورشاد عبد المطلب، وحمد الجاسر، وخير الدين الزركلي، ثم عبد الفتاح الحلو، ومحمد مرسي الخولي. رحم الله من مضى، وأطال عمر من بقي، وعسى ألا يكون سقط علي من أسماء هؤلاء الرواد أحد؛ فإني أتكلم عن هؤلاء الذين عملوا في دائرة معهد المخطوطات، ووظيفة فيه، أو قريباً منه، أو دعماً له.

لقد أنشئ معهد المخطوطات، منذ نحو خمسة وثلاثين عاماً، تابعاً للإدارة

(١) صحيفة «المدينة المنورة» بالملكة العربية السعودية، العدد ٥٥٠٥، بتاريخ ٢٠ من جمادى الآخرة ١٤٠٢هـ.

الثقافية بجامعة الدول العربية بالقاهرة، وقد كان يحدو المنشئين له، والقائمين عليه، غرض نبيل: وهو تلمس المخطوطات العربية في مظانها، وتصويرها، ثم فهرستها، ووضعها أمام الدارسين.

وقد رسم معهد المخطوطات لنفسه منهجاً دقيقاً، فأقام لجنة عكفت على موسوعة «بروكلمان» العظيمة «تاريخ الأدب العربي» واستخرجت نفائس المخطوطات، وأسماء المكتبات التي تحتفظ بها، وكان من أعضاء هذه اللجنة أستاذنا الكبير الدكتور خليل عساكر، والمرحوم الدكتور عبد الحليم النجار، وهما من هما في فقه العربية والألمانية، والدكتور عبد الحليم رحمه الله، كان من فضلاء هذا الزمان، وهو مترجم كتاب «العربية» ليوهان فك، وقد ترجم، أيضاً، للإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، الأجزاء الثلاثة الأولى من «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان، ثم أعجلته المنية عن إتمامه، وهو أيضاً شقيق الشيخ محمد علي النجار، الذي كان يقال له: سيبويه العصر، وهو محقق «الخصائص» لابن جني، وقد أخبرني المرحوم فؤاد سيد - وكان مخالطاً للرجلين - أن معرفة الدكتور عبد الحليم بالنحو العربي قد تفوق معرفة أخيه، على جلاله قدره.

تنبيه: «ما أكتبه عن تاريخ معهد المخطوطات إنما أكتبه عن قرب ومعايشة؛ لأنني قد عملت فيه نحو خمس عشرة سنة، لكن أستاذي الكبير الدكتور خليل عساكر أخبرني أن الذي اشترك معه في لجنة «بروكلمان» هو الدكتور عبد العزيز الأهواني، رحمه الله، وكان هذا من رواد الدراسات الأندلسية في العالم العربي».

وأعود إلى ما كنت آخذاً فيه، فأقول:

انصرف رجال معهد المخطوطات إلى عملهم الجاد في صمت وصبر، وكان المقابل المادي زهيداً جداً، وإن تعجب فعجب أن الواحد منا، الآن، يكتب صفحتين اثنتين، أو يذيع حديثاً مدته عشر دقائق عن التراث، ويتقاضى عن هذا وذاك ما كان يتقاضاه هؤلاء الأعلام في شهور! وسبحان من قدر الأرزاق، وقسم الحظوظ:

وليس الغنى والفقر من حيلة الفتى ولكن أحاط قسّمت وجدود

انطلقت بعثات معهد المخطوطات إلى أماكن وجودها، فصورت نفائس مخطوطات الهند، وتركيا، والقدس، والشام، والمغرب، والمملكة العربية السعودية، واليمن، وسائر البلدان العربية، ثم ما أتيج لها من مكتبات أوروبا وأمريكا، وصورت نوادر مكتبات القاهرة: دار الكتب المصرية، والمكتبة الأزهرية، والبلدية بالإسكندرية، وسوهاج، ودמיاط وطنطا.

ثم صبّت كل ذلك في مكتبة المعهد بالقاهرة، وقدمت للدارسين زاداً طيباً، انتفع به المخلصون، وريح منه الرابعون. وحين أفسحت الجامعات العربية صدرها لتحقيق التراث، حصولاً على شهاداتها العليا، كان معهد المخطوطات ملجأً وملاذاً، فزع إليه الدارسون، فأمدهم بالأصول، ودلهم على المراجع، وربط بينهم وبين الهيئات العلمية خارج مصر.

وفي السنوات الأخيرة كاد عمل موظفي معهد المخطوطات يخلص لخدمة طلاب الدراسات العليا، وقد ذكرهم من ذكر، ونسيهم من نسي، وعند الله في ذلك الجزاء.

ولقد كان محمد مرسى الخولي واحداً من هذا النفر الكريم الذين أخلصوا لمعهد المخطوطات، وقدموا للمتردّدين عليه أجل الخدمات.

تخرّج، رحمه الله، في كلية اللغة العربية من كليات الأزهر الشريف، وبعد تخرجه عمل مصححاً بدار المعارف بمصر، وهناك أشرف على كثير من مطبوعات «سلسلة ذخائر العرب».

وتصحيح الكتب كان ولا يزال المدرسة الأصلية لتخريج العلماء، وفي هذه المدرسة تخرج الأخوان الفاضلان الدكتور عبد الفتاح الحلو، والدكتور مصطفى عبد الواحد؛ فقد عملا زماناً بمطبعة عيسى البابي الحلبي، هذه الدار العريقة في نشر الكتب، وقد صحح الأخوان كثيراً من كتب التراث كانت لهما عدة وعتاداً فيما استقبلاه، بعد ذلك، من أعمال.

وفي دار المعارف، حيث عمل الفقيد العزيز، وقعت عليه عين فاحصة، هي عين الدكتور صلاح الدين المنجد، مدير معهد المخطوطات آنذاك — ولهذا الرجل أثر بارز في تاريخ المعهد — وقد التقطه الدكتور المنجد ليكون له عوناً وسنداً، فيما كان يرومه وينشده من أعمال المعهد.

وصار محمد مرسي الخولي عضواً نشطاً في معهد المخطوطات، وشارك في مختلف أعماله: مفهرساً لمصوراته، ودليلاً لزائريه، ومصححاً لمطبوعاته، ومحرراً لمجلته، ومسؤولاً عن نشرته، وموفداً في بعثاته.

وكان، رحمه الله، حلو الشمائل، رقيق الطبع، مرهف الحس، ولم يكن يضيق بالزائرين، على كثرتهم وإزعاج بعضهم، ولقد كان من قضاء الله عليه أن داهمته علتان منهكتان، واستبد به داءان عُضالان: القلب والربو، ولقد قاسى منهما كثيراً، وفي سنواته الأخيرة عرض عليه رؤساؤه أن يخلد إلى الراحة غير مقطوع عنه رزقه، ولا مسلوب منه حقه، ولكنه رفض، وظل متشبهاً بموقعه في معهد المخطوطات يفيد ويدل، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ومن عجيب أمره — رحمه الله — أنه كان مع اشتداد العلة، وتفاقم الداء، متيقظ الحس، مشبوب الذاكرة، لم يسقط عليه شيء من كنوز المعهد، ما فهرس من هذه الكنوز، وما لم يفهرس، ولقد أخبرني من نعاه إلى أنه رآه في المعهد قبل موته بيوم واحد.

وقد حصل الفقيد، رحمه الله، على درجتي «الماجستير» و «الدكتوراه» من كلية اللغة العربية، وكانت أطروحته الأولى: تحقيق ديوان أبي الفتح البستي، وكانت الثانية: تحقيق الجزء الأول من كتاب «الجلس والأنيس» للمعافى بن زكريا الحريري، وقد أشار إليه العلامة الزركلي في الأعلام ٧/ ٢٦٠ «الطبعة الرابعة».

ثم كان له نشاط في تحقيق الكتب ونشرها، فمن ذلك:

١ — بهجة المُجالس وأنس المجالس — للحافظ ابن عبد البر، صاحب الاستيعاب، طبع في جزئين، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢ - أخبار الأذكياء - للحافظ أبي الفرج بن الجوزي، نشر مؤسسة الأهرام بمصر.

٣ - الجزء الأول من محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار - لابن عربي، نشر مؤسسة الأهرام بمصر - أيضاً.

٤ - البرصان والعرجان - للجاحظ، نشر دار الاعتصام بمصر.

٥ - ديوان أبي الفتح البستي - تحقيق؛ وهو أطروحته للماجستير، كما سبق، نشر بيروت.

هذا إلى بعض المقالات والنصوص الصغيرة المحققة التي نشرها بمجلة المعهد.

رحمك الله أيها الأخ الصادق الإخاء، وجزاك خير ما يجزي به عباده المخلصين.

وبعد:

فقد رحل رشاد عبد المطلب، ورحل بعده محمد مرسي الخولي، ثم خرج عبد الفتاح الحلو - أطل الله بقاءه - وخرج معه من خرج، فهل نقول: إن بنيان معهد المخطوطات قد تهدم؟

نسأل الله أن يقلل المعهد عمرته - في أي مكان وجد - وأن يهيئ له من يواصل المسيرة التي تكاد تتعثر، وقيم البنيان الذي يريد أن ينتقض، ورحمة ربنا وسعت كل شيء، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

* * *

صيحة من أجل اللغة العربية^(١) : هل يتحول التراث العربي إلى ألغاز وطلاسم؟!

لم يعد خافياً على أحد ذلك التدني الذي وصل إليه خريجو أقسام اللغة العربية في جامعاتنا خلال العقود الأخيرة، وهؤلاء الخريجون هم الذين يتولون تعليم أولادنا في المدراس، وهم أيضاً الذين يسمعوننا الكلمة العربية من خلال الإذاعة والتلفزيون، ولو ترك الأمر على ما هو عليه الآن فالله وحده هو الذي يعلم أبعاد الكارثة التي ستطبق على هذه الأمة، ونخشى أن تغشانا طوارقها ذات يوم وقد استحال تراثنا الذي ضَيَّ به الأوائل خلال أربعة عشر قرناً من الزمان: ألغازاً وطلّسمات، كالذي تراه على جدران المقابر والمعابد ولفائف البردي، رموزاً قديمة تخفى على جمهرة الناس، ولا يعقلها إلا العالمون، ويومها سنقول:

استعجمت دار مي ما تكلمنا والدار لو كلمتنا ذات أخبار

وها هي نذر الفتنة قد أطلت برأسها، فلن يستطيع أحد مهما غلا في تقدير كليته أو معهده أن يزعم أن طالباً متخرجاً في هذا المعهد أو تلك الكلية يستطيع الآن أن يقرأ سطرأ من كتاب سيبويه، فضلاً عن أن يفهمه أو يحل رموزه، وإذا لم يستطع خريج كلية تعنى باللغة العربية وآدابها أن يقرأ سيبويه، فمن ذا الذي يقرأه؟ وإذا لم يقرأه في سني دراسته فمتى يقرأه؟

إن الأخطاء اللغوية والنحوية صارت تأخذ علينا الطرق وتأتينا من كل مكان؛

(١) مجلة «الهلal»، سبتمبر ١٩٩٠م.

وهي أخطاء بشعة مفزعة تشمل كل شيء : من الأخطاء في أبنية الأسماء وأبنية الأفعال ومخارج الحروف وصفاتها، وأسماء الأعلام والكنى والألقاب والأنساب، ولا تسأل عن غياب العلامة الإعرابية أو التخليط فيها، وقد كنت عنيت يوماً برصد هذه الأخطاء وتحليلها، ولكنني رأيت الأمر قد اتسع اتساعاً عظيماً، وتشعب تشعباً مفزعاً، وأصبحت أنا وهذه الأخطاء كالذي قاله الأول :

تكاثرت الظباء على خراش فما يدري خراش ما يصيد
وإن أبناءنا وبناتنا في معاهد العلم ليأتوننا كل يوم بكل غريبة وعجبية من
معلميهم ومعلماتهم، وكلما رتقت فتقاً تخرق عليك آخر، وكلما سددت ثلمة
انفتحت أمامك أخوات لها أوسع وأبشع .

والسواة السواء في تلاوة القرآن العزيز، فقد استعجم كلام ربنا عز وجل على
السنة معلمي المدارس، وصاروا يتلونونه على تلاميذهم محرفاً ومزلاً عن جهته، ثم
أصبحت تسمعه من بعض المذيعين والمذيعات كذلك مغلوطاً ملحوناً. وهذه هي
المصيبة التي تتضاءل دونها كل مصيبة، وهذا هو الخطر الماحق الذي يجب أن نقف
جميعاً أمامه ندرأه وندفعه، فإن القضية بهذه المثابة قد صارت ديناً يفتال وشرعية
تنتهك، ولا بد أن يقول فيها كل غيور على دين الله كلمته، لا يتتعتع ولا يتلجلج،
لا يفزعه سخط الساخط، ولا يخيفه سلطان هؤلاء الذين يظنون أن بيدهم إغلاق
الأبواب وفتحها، وقد قال سيدنا رسول الله ﷺ : «ألا لا يمنعن رجلاً هيبة الناس أن
يقول بحق إذا علمه» .

عود على بدء :

ولقد تابعت هذه القضية منذ زمان بعيد، ورأيت أهل العلم يردونها إلى أسباب
كثيرة، على أنني لم أرَ من وضع يده على أصل البلاء ومكمن الداء إلا قارئاً كريماً هو
الأستاذ طارق البوهي - بكفر الشيخ - . وقد علمت فيما بعد أنه من رجال التربية،
وقد جاء رأيه هذا في سطر واحد منشور في باب (مجرد رأي) بجريدة الأهرام قال :
«لا يجب أن نقسو كثيراً على الشباب، فهم نتاج البذور التي ألقيت والتعليم الذي

أعطي لهم ومجالات الثقافة التي تلقوها». وهذا رجل صادق، عرف الحق فقاله، ولم يضيع نفسه ويضيعنا في متاهات التفلسف والتنظير واللف والدوران.

ثم إنه أحسن الله إليه قد وضع القضية في حاق موضوعها: ماذا يتلقى طالب العربية الآن في كليات اللغة العربية وأقسامها بالجامعات؟ أمشاج من قواعد النحو والصرف مطروحة في مذكرات يملئها الأساتذة إملاء أو يطبعونها طبعات تزيد عاماً وتنقص عاماً، واختفى الكتاب القديم لتحل محله هذه المذكرات والمختصرات، ودفع الطلاب دفعاً إلى الملل من قراءة الكتب، و«الملل من كواذب الأخلاق» كما قال عمرو بن العاص رضي الله عنه.

إن هجر الكتاب القديم — وهو وعاء العلم ومستودع التراث — والاستعاضة عنه بالمذكرات والمختصرات، قد حجب عن هذا الجيل كوى النور، وحلأهم عن موارد العلم... وكان من أخطر الأمور رد ذلك إلى التيسير والتسهيل والتخفيف على الناشئة، ولقد مضينا في التيسير والتسهيل خطوات وخطوات حتى انتهينا إلى هذا الذي نشكو منه ونضيق به، ونسأل الله السلامة منه.

على أن تيسير النحو قد سلك دروباً مظلمة، فليس من التسهيل والتيسير أن تدع «زيداً وعمراً» في التمثيل لتقول: «سمير وأشرف»، وليس من التسهيل والتيسير أن تترك التمثيل على القاعدة النحوية بالشاهد القرآني والحديثي وأشعار العرب وأمثالها لتكتب قصة متكلفة عن نزهة في القناطر الخيرية، أو زيارة إلى أهرامات الجيزة، أو حكاية عن الفلاح في الحقل، لتستخرج من كل ذلك شواهدك على القاعدة النحوية والصرفية.

وليس يشك عاقل في أن التمثيل لتقدم المفعول على الفاعل بمثل: «قطف الورد طفل» ليس في قوة الاستشهاد بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقوله: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وقوله: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقوله: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ [الحج: ٣٧]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:

[٢٨]، وقوله ﷺ في الحديث السابق: «ألا لا يمنعن رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه»، وقول جرير:

جاء الخلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربّه موسى على قدر
فأنت مع المثل الأول أمام تركيب تمثلت فيه القاعدة النحوية، لكنه كالتمثال الأصم، فاز من الوسامة والقسامة بأوفر الحظ والنصيب، ولكنه تمثال جامد فاقد الحركة والنطق. أما مع الأمثلة القرآنية والحديثية والشعرية فأنت أمام نماذج تتنوّع بالحياة وتمور بالحركة، مع ما تعطيه من أنس وخبرة بالأبنية والتراكيب العربية. ومن هنا احتلت الشواهد التراثية في تفعيد النحو مكانة عالية.

على أنه ينبغي أن يكون واضحاً أن فكرة التيسير على الناشئة كانت ظاهرة بينة في فكر النحاة الأوائل رضوان الله عليهم: فابن السراج المتوفى ٣١٦هـ يؤلف كتاباً كبيراً في النحو هو «الأصول» ثم يضع إلى جانبه مؤلفاً صغيراً جداً هو «الموجز»، وأبو علي الفارسي ٣٧٧هـ يؤلف «الإيضاح» وهو متن صغير سهل العبارة إلى جانب كتبه الكبار: التذكرة والشعر والحجة والشيرازيات... وغلّامه ابن جني العظيم — كما كان يصفه أستاذنا الطيّب الدكتور كمال بشر أطال الله في النعمة بقاءه — يؤلف بجانب الخصائص والمنصف وسر صناعة الإعراب والمحتسب رسائل موجزة في النحو والصرف، مثل اللمع والملوكي في التصريف.

وأبو القاسم الزجاجي ٣٤٠هـ يصنف كتاباً في الفكر النحوي هو «الإيضاح في علل النحو» ثم يؤلف للناشئة كتابه الشهير «الجمل»، وهو كتاب سهل رهو، وقد جاء عنوانه في الأصل المخطوط هكذا: «كتاب الجمل في النحو... اختصار أبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي» رأيت إلى كلمة «اختصار»؟

وقد وقفت عند كتاب غريب أراه صورة واضحة الدلالة على أن علماءنا الأوائل كانوا مشغولين حقاً بتربية الناشئة والتيسير عليهم والتدرج معهم في تعليم النحو. وذلك هو كتاب «إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم» لأبي عبد الله الحسين بن أحمد المعروف بابن خالويه المتوفى سنة ٣٧٠هـ. لقد كان المؤلف في

زمن ابن خالويه والأزمان التي سبقتة والتي جاءت بعده أن يتصدى العلماء لإعراب القرآن الكريم كله، ولكن الذي صنعه ابن خالويه شيء عجب: لقد وضع كتابه لإعراب ثلاثين سورة فقط، مبتدئاً بسورة الطارق، ومنتهاً بسورة الناس، ثم افتتح كتابه هذا بإعراب الاستعاذة والبسملة، وفاتحة الكتاب... ولا تفسير لصنيع ابن خالويه هذا وإيثاره لإعراب قصار السور هذه إلا أنه وضع الناشئة أمامه، لأن هذه السور من أوائل ما يحفظه الصبيان من الكتاب العزيز، وأنها كثيرة الدوران على ألسنتهم، وأن عرض قواعد النحو والصرف من خلال هذه السور القصار مما يشتهي ويمكنها في النفوس.

فتعليم النحو من خلال هذه الكتب القديمة الموجزة فيه تثبيت للعربية وتمكين لها في النفوس، مع التقاط معارف أخرى تأتي من خلال الشواهد والنصوص، وينبغي أن نحسن الظن بناشتنا ولا نخشى عليهم من التعامل مع الكتاب القديم فإن فيهم خيراً كثيراً... ولقد كانت لي تجربة جيدة هذا العام، حين دعيت إلى تدريس النحو لطالبات السنة الأولى بكلية البنات بجامعة عين شمس، وقد قرأت معهن شيئاً من كتاب شذور الذهب على خوف مني ووجل، لكنني صبرت نفسي معهن واحتشدت لهن احتشاداً، وكانت تجربة ناجحة جداً، وتلقت الطالبات كلام ابن هشام بقبول حسن، وقد رأيت من هؤلاء الطالبات نماذج مبشرة بخير كثير.

والغريب حقاً أن زملاءنا الأكرمين بالجامعات المصرية ينفرون من تدريس الكتاب القديم، وحين يخرجون إلى جامعات دول الخليج يحملون حملاً على تدريسه، وهناك يؤدونه بكفاءة عالية جداً، لأنهم بلا ريب أهل فقه وبصيرة، ولأنهم أيضاً ينتمون إلى جيل المتون الذي سأحدثك عنه.

جيل المتون:

على أن أخطر ما في هذه القضية أن يقترن تعليم النحو من خلال المذكرات والمختصرات بالطعن على أئمة النحاة والإزاء بتصانيفهم وغياب المنهجية في تأليفهم ومحاكمتهم إلى مناهج غريبة ظهرت بعدهم بقرون.

ومما لا شك فيه أن أساتذتنا الأفاضل ، وزملاءنا الأكرمين الذين يدورون في هذا الفلك إنما ينتمون جميعاً إلى الجيل العظيم : جيل المتون والحواشي ، نعم كلهم من جيل الحفظة . . . حفظة القرآن الكريم والمتون والمنظومات ، وهذا شيء أعرفه تماماً ، وبخاصة عند أبناء كليتي : دار العلوم ، من الجيل الذي سبقني والذي زاملني والذي جاء بعدي بقليل ، فهؤلاء جميعاً قد تعلموا النحو من خلال الكتاب القديم ، على هذا السياق ، وبذلك الترتيب : التحفة السنية بشرح المقدمة الآجرومية – تنقيح الأزهرية للشيخ خالد الأزهرى – قطر الندى وبلّ الصدى – شذور الذهب في معرفة كلام العرب ، كلاهما لابن هشام – شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك – أوضح المسالك على ألفية ابن مالك لابن هشام – شرح الأشموني على ألفية ابن مالك مع حاشية الصبان عليه .

وبهذه المسيرة الأصلية الضخمة استطاع أساتذتنا وزملاؤنا أن يفقهوا النحو ويرعوا فيه ثم يكتبوا مذكراتهم ومختصراتهم . وأيضاً نقدم للفكر النحوي . ولو أنهم تربوا من أول أمرهم على المذكرات وتعلموا من المختصرات لما فقهوا ولما برعوا ، ولما كتبوا «نحوهم الكافي والشافي والصافي والوافي» .

ثم إن الخطر كل الخطر : أن يصدر التشكيك في النحو ومصطلحاته من أساتذة كبار لهم في النفوس مكان ومكانة ، ولكلامهم في القلوب وقع وتأثير . ومن ذلك ما وقع في يدي ذات يوم ، من كلمة للأستاذ الكبير الدكتور زكي نجيب محمود – متعه الله بالصحة والعافية – بجريدة الأهرام بتاريخ ١٢/١/١٩٨٨ بعنوان : «العربي بين حاضره وماضيه» ، ضمن سلسلة مقالاته التي اختار لها عنوان : «عربي بين ثقافتين» ، وقد أدار كلمته هذه حول تقييم الموروث الذي انتهى إلينا من ماضينا ، وأنه ينبغي علينا أن ننتقي ونختار ، وأن ننظر إلى «نوع الحصيلة التي اخترناها لتكون هي ماضينا المبعوث فينا ، وذلك لأننا قد نسيء الاختيار – وكثيراً جداً ما نفعل – فنبت عوامل الضعف والشلل من حيث أردنا القوة وانطلاقة الحياة» .

ثم دلل على سوء الاختيار هذا بنموذج من تجربته الشخصية مع مدرس اللغة

العربية الذي التقى به في السنة الثالثة الابتدائية، وذلك ما أملاه عليهم عن «إذا» و«أنها ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه». ثم تساءل الدكتور الفاضل عن جدوى تلك العبارة لا سيما والمتلقي طفل في الحادية عشرة من عمره؟ وعقب فقال: «وإني لأدعو القارئ إلى استعادة ما أسلفناه، وهو أن العربي إذ يحيا حياته حاملاً في رأسه هذا الذي قيل له عن كلمة «إذا» وما تؤديه، فإنما هو يحيا حاملاً معه نتفة من الماضي، لكنها نتفة عسيرة الهضم، قد تصيب المعدة بالأذى، وأما اليقين عنها فهو أنها لن تنفع حاملها غذاء يقتات منه ليكون عربياً موصول الهوية بماضيه، فإذا تصورنا أن مئات الألوف ممن يعدون بين حملة العلم في بلادنا يحيون وهم يحملون في رؤوسهم أطناناً من أمثال هذه «المعرفة» التي إن صلحت في الأركان الأكاديمية المعزولة عن الهواء الطلق فهي لا تصلح لحياتنا الناهضة وسيلة حفز ودفع وتحريك».

هذا كلام الدكتور الفاضل، وفيه من سلطان الذكاء وقوة العارضة ومن بريق العذوبة والحلاوة ما ترى! ولكنه عند التحقيق منقوض ومردود عليه. والأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود رمز من رموز فكرنا المعاصر، وهو أيضاً واحد من هذا النفر الكريم الذين أسهموا إسهاماً واضحاً في نشاط «لجنة التأليف والترجمة والنشر»، هذه القلعة الضخمة من قلاع الفكر العربي.

فأقول: إن هذا المثل الذي ذكره الدكتور، ورأى فيه أساس الداء ومدخل البلاء في تعلم العربية: «إذا... ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه»... هذا المثل يستدعي — بلا ريب — عند بعض القراء أمثلة أخرى من بابه، ضاقوا بها أشد الضيق حين تلقوها أول مرة، وخاصة إذا لم يشتغلوا بالعربية وقضاياها فيما استقبلوا من أيام وما صرفوا من اهتمامات، لكنه في الوقت ذاته وبالقدر نفسه عند من اشتغلوا بالعربية، وجعلوها ميداناً لدراساتهم وأبحاثهم فيما بعد: يذكر بأيام زاهية جادة صارمة وضع فيها الأساس متيناً صلباً، فقام البناء عالياً شامخاً، «وإنما يمدح السوق من ربح» كما تقول العرب في أمثالها.

الضوابط الراسخة :

وإني سائل الدكتور الفاضل : أي بأس في ذكر هذا الضابط النحوي؟ وأي ضرر في أن يتلقاه الصغار فيما يتلقون في النشأة الأولى؟ والدكتور يعلم أن طبيعة تعلم العربية تقتضي حفظ كثير من النصوص والضوابط لترسيخ القاعدة، ولذلك لجأ المصنفون قديماً إلى المنظومات العلمية لضبط القواعد وتثبيتها، ثم كان من ذلك أيضاً تلك الضوابط النثرية لبعض القواعد، مثل «سألتمونيها» لحصر حروف الزيادة في الصرف، و«سكت فحثة شخص» لضبط الحروف المهموسة، و«لم أر على ظهر جبل سمكة» لبيان الأسباب والأوتاد والفاصلة في العروض.

ومن أطرف ما حفظناه من مشايخنا في الصغر قولهم «صن شمله» رموزاً لأسماء الأنبياء المصروفة، أي المنونة: فالصاد لصالح، والنون لنوح، والشين لشعيب، والميم لمحمد ﷺ، واللام للوط، والهاء لهود، عليهم السلام أجمعين. فهذه الأسماء الستة تنون وما عداها من أسماء الأنبياء يمنع من التنوين.

وكانوا يقولون لنا أيضاً: «لا تكسر الصحاح ولا تفتح الخزانة»، يريدون «الصحاح» للجوهري وأنه بفتح الصاد، وخزانة الأدب للبغدادى وأنها بكسر الخاء. وقالوا: «من حفظ المتون حاز الفنون»، ولا شك أن الأستاذ الكبير يعرف في جيله هذه المجموعة التي طبعت باسم «مجموع مهمات المتون»، يشتمل على ستة وستين متناً في مختلف العلوم والفنون، وتاريخ الطبعة الرابعة منه ١٣٦٩هـ - ١٩٤٩م.

ولا ينبغي أن يلتفت إلى ما يقال من أن هذا عيب في اللغة العربية أن تعتمد على الحفظ الأصم الأعمى، فهذا أمر معروف في سائر اللغات. يقول العالم الأديب الدكتور عبد الله الطيب، في دفع تلك الفرية: «ومساكين اللغة العربية ينفرون من الحفظ ليكونوا متمدينين». ثم يقول: «وأشهد على نفسي أنني عندما كنت أدرس في الخارج (لندن) كنا ندرس بعض القطع المسرحية لشكسبير، فكان التلاميذ يسمع بعضهم لبعض القطع عن ظهر قلب، حتى أمثال «يدخل يطارده القتلة» أو «يخرج يطارده سبع»، وكانت لهذه المسرحيات القديمة شروح، وقد تكون الأبيات أربعة

أسطر في أعلى الصحيفة، بخط كبير، وسائر الصحيفة بخط دقيق، شرح لما فوق، ويقبل التلاميذ على ذلك ولا ينفرون، فإذا قدم لهم شيء يشبه ذلك بالعربية نفروا منه نفوراً شديداً. ومن عجيب الأمر أن الكتب التي كنا ندرسها بالإنجليزية كان ورقها أصفر، والورق الأصفر لعله ألين على عين القارئ من الورق الناصع الأبيض.

ملحق التراث بجريدة المدينة المنورة بالسعودية - ٢١ من ربيع الأول ١٤٠٨ هـ = ١٢ من نوفمبر ١٩٨٧ م.

فهذا الذي يراه الدكتور زكي نجيب محمود «نتفة من الماضي عسيرة الهضم قد تصيب المعدة بالأذى»، هو عند النظر والتحقيق أساس العلم ومدخله، بل هو الغذاء الذي تصح به المعدة، وتتكون عليه الأنسجة والخلايا، وما دخل علينا البلاء، واستبد بنا الضعف إلا يوم أن هجرنا هذه الضوابط الكلية، ونفرتنا من الحفظ، واجتوينا النصوص، ثم غرقنا في البحث النظري الذي أسلمنا إلى التجريد والمطلق.

أما إشفاق الدكتور الفاضل على الصبي الذي هو في الحادية عشرة، أن يؤخذ إلى هذه التراكيب والمصطلحات المعقدة التي تصيب المعدة بالأذى فإن الدكتور الكريم يعلم علماً ليس بالظن أن من أصحاب هذه السن في جيله من أتم حفظ القرآن الكريم، وحفظ إلى جانبه شيئاً من المتون، مثل (متن نور الإيضاح) في فقه الحنفية، أو (متن العشماوية) في فقه المالكية، أو (متن أبي شجاع) في فقه الشافعية، أو (متن زاد المستقنع) في فقه الحنابلة، إلى جانب (متن الأجرومية) الشهير... . وإنني أعيد هنا ما ذكرته من قبل: أن أساتذتنا الذين كتبوا في الدراسات اللغوية والنحوية الحديثة وشرقت كتبهم وغربت، ينتمون جميعاً إلى جيل الحفظة: حفظة القرآن والمتون والحواشي والمصطلحات، وما كان لهؤلاء الأساتذة أن يكتبوا ما كتبوا لو لم يحفظوا منذ الصغر: «إذا... . ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه»، وأخواتها مثل: «لا يجمع بين العوض والمعوض عنه» و«اجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت في الياء. وذلك في مثل سيّد».

ولا زلنا نحن أبناء الجيل التالي الذي تستطيع أن تشم فيه رائحة العلم، لأننا وردنا الماء صافياً قبل أن تكدره الدلاء، ولأننا أدركنا معاهد العلم قبل أن يدهمها السيل، أقول: لا زلنا نذكر هذه المشاكل النحوية التي التقينا بها في طراءة الصبا وريق الشباب، مثل إعراب قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ وكيف رفع ﴿هَٰذَا﴾ وهو اسم ﴿إِنَّ﴾، وتوجيه الرفع في قوله تعالى ﴿وَالصَّيُّوْنَ﴾ في الآية الكريمة ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّيُّوْنَ...﴾ [المائدة: ٦٩]، واختلاف المعنى باختلاف حركة الإعراب على الراء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦]، وعود الضمير على غير مذكور في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢]، أي الشمس، والمصدر المتصيد في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، أي الشكر، وقوله: ﴿وَمُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا﴾ [الإسراء: ٦٠]، أي التخويف. وقوله: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٠]، أي الإيمان، ثم في مثل قول الشاعر:

إذا نُهي السفيه جَرى إليه وخالف والسفيه إلى خلاف
أي جرى إلى السفه . .

كل هذا كنا نستظهره ونديره على ألسنتنا في سهولة ويسر، كانت أسناننا في تلك الأيام لا تتجاوز الخامسة عشرة . . . نعم كل هذا عرفناه وخبرناه، وجرى منا مجرى المحفوظات والمأثورات، فأورث ملكة في النحو، وأكسب إحساساً بالعربية في أبنيتها وتراكيبها، حتى إذا غَبِيَ علينا شيء من هذه الأبنية والتراكيب فزعنا إلى ذلك المذخور من أيام الصبا، فأسفر وجهه، ودان عصيه . . . فهل عند أبناء اليوم من ذلك شيء؟

ولا يصح أن يقال: إن هذا الذي ذكرته كان سمة التعليم الديني أو التعليم الذي تغلب عليه العربية، كالذي في الأزهر الشريف ودار العلوم، فإن الدكتور الفاضل يعلم علم اليقين مواد العربية التي كانت تقدم لتلاميذ المدارس في التعليم العام، أو الأميري.

وأمامي الآن طبعة ثانية من «معجم المصباح المنير» للفيومي المتوفى سنة

٧٧٠هـ، وتاريخ هذه الطبعة ١٩٠٩م، وكتب على صدرها «قررت نظارة المعارف العمومية طبع هذا الكتاب على نفقتها واستعماله بالمدارس الأميرية»، وكذلك يعلم الدكتور كتب التراث التي كانت مقررّة على طلبة المدارس الثانوية، مثل «البخلاء» للجاحظ، الذي نشره أحمد العوامري بك، وعلي الجارم بك سنة ١٣٥٦هـ = ١٩٣٨م، و«نقد النثر» المنسوب إلى قدامة بن جعفر — وثبت فيما بعد أنه البرهان في وجوه البيان لابن وهب — الذي نشره الدكتور طه حسين، والأستاذ عبد الحميد العبادي سنة ١٣٥٦هـ = ١٩٣٧م، وقد قرّره وزارة المعارف لطلاب السنة الخامسة التوجيهية إلى طائفة أخرى من الكتب المشحونة بالنصوص، مثل «مجموعة النظم والنثر» لعبد الله باشا فكري والمنتخب من أدب العرب.

هذا إلى أن الأزهر الشريف كان موجهاً لتعليم النحو في المدارس ومهيماً عليه، فهذا الكتاب الشهير «الدروس النحوية» الذي ألفه حفني بك ناصف مع محمد أفندي دياب والشيخ مصطفى طموم ومحمد أفندي صالح: قرّرت نظارة المعارف العمومية سنة ١٣٠٤هـ طبعه على نفقتها بعد تصديق شيخ الجامع الأزهر. وهكذا كان تعليم النحو والعربية في مصر أيام عزها ومجدها من خلال الكتاب القديم أو الكتاب الحديث المؤسس على القديم والماضي في طريقه.

فهذه العبارة النحوية التي نقلها الدكتور زكي نجيب محمود عن شيخه ينبغي أن تؤخذ في إطار الجد والصرامة الذي كان يشمل تدريس سائر العلوم في ذلك الزمان. وما أخذت مصر مكانتها التي تزدهو بها في العالمين في مختلف العلوم والفنون إلا بذلك الجيل الذي أخذ بالجد في كل أموره منذ النشأة الأولى والناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم.

ولا سبيل لنا إذا أردنا صلاح الحال وإصلاح الألسنة إلا إحياء جيل المتون والحفظة، وذلك لن يكون إلا بالعودة في تدريس النحو إلى الكتاب القديم والنص التراثي، فإن آخر هذه الأمة لن يصلح إلّا بما صلح به أولها.



الحفظ وأثره في ضبط قوانين العربية^(١)

كتب الأستاذ الدكتور محمود الريبي كلمة في أسبوعيات الأهرام ١٩٩٠/٧/٦ م، بعنوان «ترتيب الأولويات»، قال فيها: «إن تلقين المناهج لطلاب العلم الذين يدرسون في الجامعات لدينا يجعلهم يتحدثون عن «أعوص» المناهج الغربية الأجنبية كأنهم أصحابها، فإذا طلبت إليهم أن يقرأوا (مجرد قراءة) نصاً إبداعياً باللغة التي يُعَدُّون للتخصص فيها (عربية أو أجنبية) لم يقيموا النص قراءة، فضلاً عن التعمق في فهمه بالتحليل والتركيب والتفكيك».

وهذا كلامٌ حكيم (بالتنوين والإضافة)، وهو أيضاً كلام ظاهر الوضاعة والحسن والتيقظ، لأنه يلخص المأساة التي نعيشها منذ نحو ثلاثين عاماً، في هذا المستوى المتدنّي من علوم العربية: قراءة وكتابة، ثم هو كلام يفضي بنا إلى قضية ذات خطر، ليس في الأدب وحده، بل إن هذا الخطر يمتد ليشمل مختلف فروع التراث العربي، وأعني تلك الفجوة الواسعة بين النظرية والتطبيق، أو بين المحفوظ والملفوظ.

فأنت قد تصادف شخصاً دارساً للأدب: تاريخه ومذاهبه ومدارسه، وإذا فاشتته في قضية من قضايا النظرية تلك، صال وجال، ولاك ومضغ، وخلط عربياً بعجمي، وأتاك بكل عجيبة وغريبة، فإذا أخذته إلى نص مما كتبه السابقون الأولون، وأردته على شيء من التفسير أو التحليل والتذوق حارّ وأبلس، «وصار لسانه قطعة

(١) مجلة «الهلal»، فبراير ١٩٩١ م.

لحم خرساء تدور في جوبة الحنك» كما يقول شيخنا محمود محمد شاكر — في سياق آخر.

ومثل ذلك يقال في نحويّ خالطت بشاشة النحو قلبه، وخبر سواده وبياضه (زعم)، أسهر فيه ليله، وأدأب له نهاره، حتى ظن أنه ملك ناصيته: قواعد وخلافات ونقداً، فإذا أخذ في كلام، أو أدار قلمه على بيان خلط واعتسف وأخطأ، وما أتى هذا النحوي وذلك الأديب إلا من قبيل الإغراق في النظريات والمناهج والقواعد، واطراح الحفظ، وهجر النصوص، وإهمال التطبيق.

وقد سرى هذا الداء الخبيث إلى علمين جليلين في تراثنا — وما كان ينبغي أن يسري إليهما، لأنهما ملاك الأمر كله — وهما التفسير والحديث، ففي ميدان التفسير قد تصادف دارساً يحدثك بإفاضة وإحاطة عن مدارس التفسير واتجاهاته، من تفسير بالمأثور إلى تفسير بالرأي، والتفسير الموضوعي للقرآن، والتفسير الفقهي، والتفسير الإشاري الصوفي، إلى آخر هذه القائمة، فإذا طلبت منه تفسير شيء من كتاب الله لم تظفر منه بشيء إلا شيئاً لا يُعبأ به... وقد اختفت تلك الصورة الجليّة النبيلة، حين كنت تستوقف شيخاً فاضلاً عقب صلاة الجمعة، أو في طريق عام، فتسأله عن آية من كتاب الله فإذا أنت أمام علم حاضر وإجابة شافية.

وقل مثل هذا في حديث سيدنا رسول الله ﷺ، فقد اشتغل به كثير من طلبة العلم الآن: دراسة نظرية، تعنى بتدوينه وعلومه وتصانيفه من الصحاح والمسانيد... إلى غير ذلك مما كان يعرف قديماً بعلم «الدراية»، لكنك قل أن تجد منهم من اعتنى بهذا العلم الجليل «رواية» من حيث حفظ المتن وإتقان الغريب.

وقد أدى هذا الأمر إلى مصيبة كبرى اجتاحت بعض الشباب المسلم المحب لحديث المصطفى ﷺ، ومعرفة السنة المطهرة، فقد اتجه كثير منهم في هذه الأيام إلى طلب معرفة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وتجريح الرواة وتعديلهم — وهذا بحر لا ساحل له، ولا يقوى عليه إلا أولو العزم من الرجال — وقد صرفوا في ذلك جهوداً كثيرة كان الأولى أن تصرف إلى قراءة صحيحي الإمامين الجليلين: البخاري

ومسلم، وبقية الكتب الستة التي هي دواوين السنة، ثم بعض المسانيد الأخرى، قراءة فهم وبحث وإمعان، فإذا أتقنوا ذلك كان لهم أن يبحثوا في الضعيف والموضوع، وقد بلغت السفاهة ببعضهم أن يقول عن حديث رواه الإمام الجليل أبو عبد الله البخاري: «صَحَّحه فلان» يشير إلى أحد العلماء المعاصرين. أفبعد إخراج البخاري للحديث، يقال: صَحَّحه فلان؟

إن الإسراف في النظريات والمناهج هو الذي أضعف إحساس أبنائنا بالعربية الأولى، وهو الذي أورثهم العجز الذي يأخذ بألستهم وأقلامهم، فلا يستطيعون قولاً ولا بياناً.

على أن هذا الذي ذكره الدكتور الربيعي، والذي ذكرته أنا، يرجع إلى أننا أهملنا جوانب ضرورية في تعلم العربية. ومن هذه الجوانب التي أهملت جانب النصوص أو الحفظ... فإنه يشيع في أيامنا هذه كلام عجيب، يبغض إلى طالب العربية «الحفظ» ويزهده فيه، بل إن الأمر قد تعدى ذلك إلى تثبيت قاعدة تجعل «الحفظ» مقابل «الفهم» وأن الطالب الذي يحفظ «صمام» وغير قادر على الفهم والاستيعاب، ونقرأ لمسؤول كبير عن التعليم في مصر قوله: «ولا بد أن يدرك الطالب أن زمن الحفظ والصمامين قد انتهى».

تراثنا قائم على الرواية:

وهذا الكلام إن صدق على العلوم المعملية والتطبيقية، لا يصدق على علوم العربية، من أدب وبلاغة ولغة ونحو، وذلك لأن تراثنا كله قائم على الرواية والدراية، والرواية مقدمة، ولذلك قالوا: «الرواية من العشرين والدراية من الأربعين». والجوهري صاحب «الصَّحاح» يقول في مقدمته: «قد أودعت هذا الكتاب ما صح عندي من هذه اللغة... بعد تحصيلها بالعراق رواية وإتقانها دراية».

وقد وصل إلينا تراثنا في أول أمره عن طريق الحفظ والرواية، فقد وعته صدور الرواة والنقلة، وسلَّمته أجيال إلى أجيال، حتى أظل زمان التدوين والكتابة، فالحفظ

هو الأساس ، وقد حثوا عليه ومدحوا أهله ، فروي عن الأصمعي أنه قال : « كل علم لا يدخل معي الحمام فليس بعلم » . ويريد أنه حافظه ومستحضره في كل وقت وعلى كل حال . وقال محمد بن يسير — من شعراء الدولة العباسية الأولى :

أشهد بالجهل في مجلس وعلمي في البيت مستودع
إذا لم تكن حافظاً واعياً فجمعك للكتب لا ينفع

وقال بعض أهل العلم :

حفظ اللغات علينا فرض كفرض الصلاة
فليس يضبط دين إلا بحفظ اللغات

ولولا الحفظ في تاريخنا التراثي لما أمكن لهذه الطائفة من عباقرة العربية العميان أن يسجلوا لنا هذا القدر الضخم من المعارف الإنسانية ، كالذي نقرأه عند أبي العلاء المعري — وأبو العلاء فوق شاعريته صاحب لغة ونحو وصرف وعروض — ، وابن سيده صاحب المحكم والمخصص ، والإمام الترمذي صاحب السنن ، وغيرهم كثير ، مما ذكره صلاح الدين الصفدي في كتابه الطريف « نكت الهميان في نكت العميان » . وحسبك بقاء القرآن وعلماء القراءات ، كالشاطبي صاحب المنظومة الشهيرة في القراءات السبع المسماة : « حرز الأمان » ووجه التهاني . وفي هذا العصر الحديث يأتي الدكتور طه حسين — رحمه الله — على رأس أفذاذ العميان المعاصرين .

إن طبيعة تعلم العربية تقتضي حفظ كثير من النصوص لتثبيت القواعد والتمكين للأبنية والتراكيب في ذهن طالب العلم . وقد قيل — الحفظ الاتقان — وذلك ما رواه أيوب بن المتوكل قال : سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول : كان الرجل من أهل العلم إذا لقي من هو فوقه في العلم فهو يوم غنيمته ، سأله وتعلم منه ، وإذا لقي من هو دونه في العلم علمه وتواضع له ، وإذا لقي من هو مثله في العلم ذاكره ودارسه . وقال : لا يكون إماماً في العلم من أخذ بالشاذ من العلم ، ولا يكون إماماً في العلم

من روى كل ما سمع، ولا يكون إماماً في العلم من روى عن كل أحد، والحفظ
الإتقان».

حفظ كلام العرب :

ويقول ابن خلدون: «وجه التعليم لمن يتبغي هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم، من القرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم، وكلمات المولدين أيضاً في سائر فنونهم، حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم».

ويقول أيضاً: «وتعلم مما قررناه في هذا الباب أن حصول ملكة اللسان العربي إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب، حتى يرسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبيهم فينسج هو عليه، ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم، وخالط عباراتهم في كلامهم حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم».

ويقول أيضاً عن هذه الملكة التي تحصل بالحفظ والدربة: «... فإن الملكات إذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل. ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم إعراباً وبلاغة أمر طبيعي، ويقول: كانت العرب تنطق بالطبع، وليس كذلك، وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادئ الرأي أنها جبلة وطبع. وهذه الملكة كما تقدم إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع، والتفطن لخواص تراكيبه... وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك، التي استنبطها أهل صناعة اللسان، فإن هذه القوانين إنما تفيد علماً بذلك اللسان، ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها».

وهذا الكلام الأخير هو الذي ينتهي إليه كلام الدكتور الربيعي، وهو الذي

أدرت عليه مقالتي هذه. فإن «معرفة القوانين العلمية التي استنبطها أهل صناعة اللسان» هي «النظريات والمناهج» في أيامنا هذه. فكما أن الوقوف عند «معرفة القوانين العلمية» هذه لا يصنع ملكة أدبية لغوية، كذلك الاكتفاء «بالنظريات والمناهج» لا يكسب هذه الملكة.

ويقرر ابن خلدون أيضاً: «أنه لا بد من كثرة الحفظ لمن يروم تعلم اللسان العربي، وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرته من قلته تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ».

ويقول القاضي عبد الرحيم بن علي بن شيث الإسناي القوصي، في سياق حديثه عن أدوات الكاتب وعدته: «والحفظ في ذلك ملاك الأمر، فإنه يؤهل ويدرب، ويسهل المطلوب ويقرب».

هل الحفظ مطلوب؟!!

هذا وقد وقعت على نص خطير جداً، هو خير رد وأوفاه على هؤلاء الذين يشترطون للحفظ: الفهم، ويقولون: لا تطلبوا من الصبي حفظ ما لا يفهم، فإن هذا غير مُجد في العملية التعليمية. يقول أبو الفتح عثمان بن جني: «قال لنا أبو علي - الفارسي - يوماً قال لنا أبو بكر - ابن السراج - : إذا لم تفهموا كلامي فاحفظوه، فإنكم إذا حفظتموه فهمتموه».

وهذا كلام صحيح، يصدقه الواقع وتؤكدته التجربة، فإن الإلحاح بالحفظ الدائم المستمر مما يمهد للفهم لا محالة. وآية ذلك أن صغار التلاميذ في دور الحضانة والروضة يرددون مع إطلالة كل صباح النشيد الوطني لبلادهم، وهم بالقطع لا يعرفون شيئاً عن معاني مفرداته فضلاً عن تراكيبه، ولكنهم بمرور الأيام يدركون ويفهمون. والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى في اكتساب وإدراك المعارف. ونحن الذين حفظنا القرآن صغاراً نعرف هذا من أنفسنا، فما زلنا نذكر ألفاظ القرآن وتراكيبه الغريبة علينا في مطالع أيامنا، ثم إضاءة معانيه في نفوسنا بعد ذلك

بالتدرّيج، وإن كنا لا ندرك بالضبط متى تم هذا، كما لا يدرك الناظر في السماء انسلاخ النهار من الليل إلا حين يغشاه نوره ويغمره سناه.

وليس أدل على أهمية «الحفظ» في العملية التعليمية في تراثنا، من هذا القدر الهائل من المنظومات في اللغة والنحو والفرائض (المواريث)، والقراءات، وعلوم الحديث والأصول والبلاغة والمنطق والعروض والميقات والطب، وكل ذلك لضبط القواعد وتثبيت الأحكام. وما أمر «ألفية ابن مالك» ببعيد!

ومع المنظومات المطولة في النحو والصرف كان هناك البيتان والثلاثة والأربعة لضبط القاعدة وترسيخها. فهذا جمع التفسير ينقسم إلى جموع قلة وإلى جموع كثرة، وللأول أربعة أوزان، وللثاني سبعة عشر وزناً، ولصعوبة حصر هذه الأوزان صاغها بعضهم شعراً ليسهل حفظها، فجموع القلة جمعت في قوله:

بأفْعُلٍ ثم أفعال وأفْعلة	وفِعْلة يُعرف الأدنى من العدد
كأفلس وكأثواب وأرغفة	وَعِلْمة فاحفظنها حفظ مجتهد

وجموع الكثرة جمعت في قوله:

في السفن الشهب البغاة صور	مرضى القلوب والبحار عبر
غلمانهم للأشقياء عمله	قطاع قضبان لأجل الفيلة
والعقلاء شرد ومتتهى	جموعهم في السبع والعشر انتهى

وترتيب الخليل بن أحمد لمواد المعجم نظمها بعضهم في قوله:

عن حزن هجر خريدة غناجة	قلبي كواه جوى شديد ضرار
صحبى سيبتدئون زجري طُلباً	دَهْشي تطلب ظالم ذي ثار
رغماً لذي نصحي فؤادي بالهوى	متلهب وذوي الملام يماري

وواضح أن المراد الحروف الأولى من كلمات هذا النظم هكذا: ع ح هـ خ غ... الخ.

هذا إلى الضوابط الثرية، مثل «سألتمونيها» لضبط حروف الزيادة، و«سكت

فحثه شخص» لضبط الحروف المهموسة. فبهذه الضوابط الشعرية والنثرية تعلمنا الأدب واللغة والنحو، وتعلم من قبلنا، لأننا سلمنا ولأنهم سلموا من زلازل التطوير وأعاصير التيسير. وإنه لواجب علينا إذا أردنا الخير لهذا الجيل أن نحیی فيهم مهارات الحفظ، ونقدم لهم قواعد العربية من خلال النصوص التراثية الموثقة.

ولقد جاءني ابني بكتاب القراءة والنصوص الأدبية للصف الثالث الإعدادي للعام الدراسي ١٩٩٠م - ١٩٩١م، وفي ص ١٣ منه جاء هذا السؤال: (اختر الصواب مما بين كل قوسين: مقابل غضب (رضا - سرور - سكون) وطلب مني ابني الجواب الصحيح، فقلت له (رضا) وقال هو (سرور) وأصر على رأيه، لأنه لم يستسغ أن يكون «الرضا» مقابل الغضب ولأن أستاذه قال ذلك أيضاً والأستاذ لا يخطئ ولم يقتنع حتى ذكرت له حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما الذي أخرجه أبو داود في سننه ٣/٣١٨، والحاكم في مستدرکه ١/١٠٥، أنه قال: «يا رسول الله، أكتب ما أسمع منك؟ قال: «نعم»، قلت: عند الغضب وعند الرضا؟ قال: نعم إنه لا ينبغي لي أن أقول إلا حقاً».

وهنا انفجرت أسارير ابني، ونظر إليّ (نظرة الرضا لا الغضب).

فهذا السؤال الذي جاء في ذلك الكتاب المدرسي سؤال جيد، لأنه يزيد المحصول اللغوي عند التلميذ لا محالة. ولكنه ينبغي أن يكون مؤسساً على نصوص محفوظة للتلميذ بها أنس ومعرفة سابقة. وأنى لتلميذ في هذه السن أن يختار بين هذه الكلمات القريبة المعاني دون نص يشهد وحفظ يؤيد، فالحفظ وسيلة ضبط وإتقان ينبغي أن تراعى من أول درجة من درجات سلم التعليم، ولا تشفقوا على الصغار والناشئة، فإن فيهم خيراً كثيراً، وانظروا إلى هؤلاء الصغار الذين يظهرون على شاشة التلفزيون من أعضاء «المسلم الصغير» وتأملوا حلاوة الأداء وسلامة مخارج الحروف، ثم حفظ نصوص القرآن والحديث عن ظهر قلب. ومن وراء ذلك كله فالحفظ عاصم من التخليط في أبنية الأسماء والأفعال.

وإذا كان القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد، فإنه أيضاً كتاب عربية وبيان،

ويجب أشد الوجوب أن نشد أبناءنا إليه في كل مراحل تعليم العربية . وأن يكون اختيارنا لآياته في مقرر (القراءة والنصوص) قائماً على تلك الآيات التي تنمي الحس اللغوي والنحوي عند التلاميذ ، ولا سيما تلك الآيات التي تأتي فيها الأفعال مضبوطة على وجهها الصحيح ، وقد لاحظت أن كثيراً من أبنية الأفعال التي نخطيء نحن الكبار أيضاً في ضبطها ، أو ننطقها على وجه من الوجوه الضعيفة غير الفصيحة ، جاءت على وجهها الصحيح في الكتاب العزيز ، وأكتفي هنا ببعض الأمثلة :

أمثلة من القرآن :

يقول الناس في كلامهم : «كبر الولد يكبر» فيضمون الباء في الماضي والمستقبل ، والصواب بالكسر في الماضي ، وبالفتح في المستقبل : «كَبِرَ يَكْبُرُ» وهذا يكون في السن والعمر ، يقال : كبر الرجل يكبر كبراً فهو كبير ، أي طعن في السن ، ومنه قوله تعالى عن أموال اليتامى والنهي عن أكلها : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ الَّتِي هِيَ إِسْرَافًا وَيَدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا﴾ [النساء : ٦] ، أما «كبر يكبر» بالضم في الحالتين ، فليس من السن ، وإنما هو بمعنى عظم ، ضد صغر ، وشواهد في الكتاب العزيز كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف : ٣] ، وقوله عز وجل : ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ [الأنعام : ٩٥] ، ﴿أَوْ خُلَافًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ [الإسراء : ٥٠ ، ٥١] .

ويقولون : نَقِمْتُ عليه كذا وكذا — أي عبته وكرهته — فيكسرون القاف في «نقمت» والأفصح الفتح : نقمت ، وهذا الفعل من باب ضرب ، وفي لغة من باب تعب ، والأولى هي الأفصح ، قال ابن السكيت : «وقد نقمت عليه أنقم ، والكسر لغة — أي في الماضي — والفتح الكلام» ، قلت : وبه جاء التنزيل ، قال تعالى : ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة : ٧٤] ، وقال تقدست أسماؤه : ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج : ٨] ، وقال تقدست أسماؤه : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنِّي إِلَّا أَنْ أَتَىٰ أَمَنًا بِاللَّهِ﴾ [المائدة : ٥٩] .

ويقولون : فلان ينقصني حقي ، وينقص في الميزان ، فيضمون ياء المضارعة ، والأفصح والأكثر فتحها ، ينقصني ، وينقص ، وهذا الفعل ثلاثي : يستوي فيه اللزوم

والمتعدي، يقال: نقص الشيء، نقصته أنا، ونقصه هو. وفي لغة: أنقصه ونقصه، معذًى بالهمزة والتضعيف، لكنها لغة ضعيفة، ولم تأت في كلام فصيح، وشواهد ذلك من القرآن المتلو المحفوظ، ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمَكِّيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١]، وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٤]. وقد جاء اسم المفعول من الثلاثي في قوله عز وجل: ﴿وَأَنَا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩].

ويقولون: حرص فلان على كذا، وحرصت على كذا، فيكسرون الراء، والأفصح فتحها، حرص وحرصت، وبالفصح جاء التنزيل، قال سبحانه وبحمده: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال عز وجل: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدُوا بَيْنَ الْإِنْسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩].

ويقولون: صلح حالي، وصلح أمري، فيضمون اللام، والأفصح فتحها: صلح، قال تعالى: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣]، وقال تقدست أسماؤه: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [غافر: ٨]، ومن شواهد ذلك في الحديث الصحيح قوله ﷺ من حديثه الطويل: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله»، قال الحافظ ابن حجر بعد أن ذكر فتح العين في «صلح»: «وحكى الفراء الضم في ماضي صلح». وهذا بالفعل من باب قعد: صلح يصلح، وذكر ابن دريد أن ضم اللام في الماضي ليس ثبت.

وهكذا تكون النصوص التراثية — وأعلاها كلام ربنا عز وجل — وسيلة ضبط وإتقان، إذا اعتنينا بها قراءة وحفظاً.

ويبقى أمر لا بد من إثارته، لأنه يتصل بموضوعنا هذا بنسب وثيق، وإن كان في الظاهر دخيلاً عليه وبعيداً عنه، ولأنه أيضاً يتصل بالثقافة العامة وتنمية وجدان الأمة: وذلك أنك كنت تجد — في الزمان القريب — من أوساط الناس وعوامهم من يأنس للكلام الفصيح ويرتاح له، ويحفظ منه الشيء بعد الشيء، وذلك من خلال ما

يسمعونه من خطيب الجمعة، العالم المتمكن، من نصوص القرآن العزيز والحديث الشريف، والأدعية المأثورة. أما الآن فتكاد خطب الجمعة — ولا سيما على ألسنة الشبان المتحمسين — تتحول إلى ثثرة وكلام عام مبهم عن «مدرسة محمد ﷺ»، و«الإسلام في خطر» و«الإسلام هو الحل» وهذا وهذان مما يصرف عن الاستشهاد بالقرآن والحديث وكلام العرب، وإذا أتاك شيء من ذلك فهو يأتيك في معظمه ملحوناً ومزالاً عن جهته.

وكل هذا إنما جاء من مقولات مضللة، وهي أن «خطب الجمعة لا بد أن تتفاعل مع الأحداث المعاصرة، وأن تشارك في صنع القرار»... إلى آخر ما تعرف. وليتنا نعود إلى خطبة الجمعة المكتوبة على الورق الأصفر، والتي كان الخطيب يدعو في آخرها للسلطان بالنصر — ونستغفر الله مما سخرنا من هذه الخطب — فمن خلال هذه الخطب المكتوبة حفظنا كثيراً من النصوص، وضبطنا كثيراً من أبنية الأسماء والأفعال. وربنا المستعان على ما يصفون.



حلقات مفقودة في تراثنا المطبوع^(١)

كان إنجازاً حضارياً كبيراً ظهور المطبعة في القرن الخامس عشر الميلادي، على يد جوتنبرج الألماني (١٣٩٧م – ١٤٦٨م).

ولئن كانت الغاية من الطباعة هي تكثير عدد نُسخ الكتاب لكي تُتاح قراءته لكثير من الناس، فقد تحققت هذه الغاية بصورة محدودة عند العرب قديماً، بما تمثل في كثرة نسخ الكتاب المخطوطة، ورواج صناعة الوراقة والنساخت. ويذكر الجاحظ أن يحيى بن خالد البرمكي لم يكن في خزانة كتبه كتاب إلا وله ثلاث نسخ، ويذكر المقرئ أنَّهُ كان في خزانة العزيز بالله ثلاثون نسخة من كتاب «العين» للخليل بن أحمد، ومائة نسخة من «الجمهرة» لابن دريد، وأنَّهُ كان في خزانة الفاطميين مائتان وألف نسخة من «تاريخ الطبري». والمشتغلون بعلم المخطوطات يعلمون أن هناك كتباً ذوات عدد، كثرت نسخها كثرة ظاهرة، بحيث لا تكاد تخلو منها مكتبة من مكتبات العالم.

وكأنما كان هذا الاختراع العجيب – اختراع الطباعة – من أجل فكرنا وتراثنا نحن العرب دون غيرنا من الأمم. فقد دارت المطابع شرقاً وغرباً لإخراج علمنا من مخطوطات محدودة إلى أسفار مطبوعة، بدأت بالمئين ثم انتهت إلى ما فوق الآلاف.

ففي الغرب كان مهد الطباعة العربية في إيطاليا – كما هو معروف – ومن أوائل

(١) مجلة «الهلال»، إبريل ١٩٩١م.

ما طبع هناك متن «الكافية» في النحو، لابن الحاجب، سنة ١٥٩٢م. و «القانون» في الطب، لابن سينا، سنة ١٥٩٣م. ثم تعددت المطابع العربية في أوروبا، وطبع فيها مئات الكتب العربية وأكثرها في لندن وباريس وليدن وجوتنجن وروما وفيينا وبرلين وبطرسبورج. ومن أشهر هذه المطابع الأوروبية مطبعة بريل بمدينة ليدن بهولندا. وهذه المطبعة تشبه في شهرتها مطبعة بولاق بمصر، لكن ما يؤخذ على هذه المطابع الأوروبية أنها كانت تطبع نسخاً محدودة من الكتب العربية، وكأنهم كانوا يطبعون لأنفسهم.

أشهر المطابع:

وفي الشرق كانت الآستانة (استانبول) عاصمة الخلافة العثمانية أسبق مدن الشرق إلى الطباعة. وكان من أشهر مطابعها مطبعة الجوائب التي أنشأها أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤م – ١٨٨٧م) ونشر فيها طائفة صالحة من الكتب. ثم المطبعة العامرة التي نشرت كتباً ذوات عدد، منها شرح «كافية ابن الحاجب» للرضي الاستراباذي، سنة ١٢٧٥هـ، و «الكليات» لأبي البقاء الكفوي، سنة ١٢٨٧هـ.

ثم كانت الصيحة المدوية في طبع الكتاب العربي، في مطبعة بولاق بمصر، أو كما تُسمى أحياناً «المطبعة الأميرية»، وهي قلعة ضخمة من قلاع المعرفة. لقد أخرجت هذه المطبعة مئات الكتب في التفسير والحديث، والأصليين: أصول الدين وأصول الفقه، واللغة والنحو والصرف، والبلاغة والأدب، والتاريخ والطب والرياضة والطبيعة والفنون الحربية، وغير ذلك من أصناف العلوم. . . إلى ألف ليلة وليلة، ورجوع الشيخ إلى صباه. . . فأئى علم كان في ذلك الزمان!

وإلى جانب مطبعة بولاق ظهرت المطابع الأهلية، مثل مطبعة جمعية المعارف، والخيرية والعثمانية والأزهرية والشرفية أو الكاستلية والرحمانية والجمالية والمنار والمنيرية وكردستان العلمية وهندية والسعادة والتجارية وصبيح ثم المطبعة الميمنية التي كانت أساساً للحلبي بفرعيه: مصطفى البابي، ومحمد. ومطبعة دار الكتب المصرية، ولجنة التأليف والترجمة والنشر.

وقد خرج من هذه المطابع آلاف الكتب في كل علم وفن، مما لم تعرفه أمة من الأمم، ولم تشهده ثقافة من الثقافات.

خمسـة كتب في كتاب واحد :

وقد شاعت ظاهرة غريبة جداً في طبع الكتب تلك الأيام. فقد جرى كثير من المطابع على طبع كتاب أو أكثر بهامش الكتاب الأصلي، أو بآخـره لصلـة ذلك بالكتاب. وكان القوم كانوا في سباق لنشر الفكر العربي وإذاعته . . . وهذه الظاهرة لم تعرف إلا في مطابع مصر واستنبول. ومن أطرف ما يذكر هنا أن هناك خمسـة كتب مطبوعة في كتاب واحد، وفي صفحة واحدة اجتمعت الكتب الخمسة، في الصلب والهامش، مفصولة بجداول، دون أن يختلط بعضها ببعض، وذلك هو الكتاب المسمى : «شروح التلخيص» في علوم البلاغة، ويشتمل على :

١ - شرح سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح، للخطيب القزويني.

٢ - مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، لابن يعقوب المغربي.

٣ - عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، لبهاء الدين السبكي.

٤ - الإيضاح، للخطيب القزويني.

٥ - حاشية الدسوقي على شرح السعد.

والثلاثة الأولى طبعت في صلب الكتاب، والاثنان الآخران بهامشه، وهذا ما

جعل بعض إخواننا الظرفاء يقول: لا بد من فض الاشتباك بين هذه الكتب.

ثم توالى طبع الكتاب العربي في بلاد أخرى خارج مصر، مثل الهند. ومن أشهر مراكز النشر فيها تلك الدار الكبرى «دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن»، ولهذه الدائرة نشاط ظاهر في نشر علوم الحديث ومتونه وتاريخ رجاله، إلى مجلدات ضخمة في علوم أخرى، مثل كتاب «الحاوي في الطب» لأبي بكر الرازي، في ٢٣ جزءاً، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي في ٢٠ جزءاً، ومن قبل ذلك فللهند تاريخ قديم في نشر الكتاب العربي، فقد طبع بها «كتاب سيبويه»

بمدينة كلكتا سنة ١٨٨٧م، و «مغازي الواقدي» سنة ١٨٥٥م، و «حماسة أبي تمام» سنة ١٨٥٦م، و «تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسّير» لابن الجوزي، بمدينة دلهي سنة ١٢٨٦هـ.

وكذلك تعددت المطابع في المغرب العربي، والعراق وبلاد الشام، وأخرجت قدراً ضخماً من علومنا ومعارفنا، وفي السنوات الأخيرة دخلت الدول العربية الغنية الميدان، فأنشأت المراكز التراثية التي جمعت صور المخطوطات، وأنفقت بسخاء على تحقيق الكتب ونشرها. وتعدت دور النشر الصغيرة والكبيرة في جميع البلدان العربية.

الوفاء لتراثنا :

إذن نحن أمام قدر هائل من المطبوع العربي ملأ السهل والجبل في كل علم وفن، فهل يحق لقائل أن يقول: «امتلاء الحوض وقال قُطَيْبِي»، أي حسبي، ولسنا في حاجة إلى جمع المخطوطات والبحث عنها وتحقيقها ثم نشرها، فإن ما في يدينا من مطبوع التراث فيه مقنع وبلاغ، وبارك الله فيما رزق.

ونعم... كان حسبنا هذا وكافينا لو ظل تعاملنا مع تراثنا كما هو الآن: حَسْوة الطائر وقَبْسة العجلان، تأخذ حاجتك وتمضي لا تلوي على شيء. وليس الطريق هنالك! إن أكبر الآفات عندنا اليوم أننا نتعامل مع كتبنا تعامل المراجع، على قدر الحاجة ليس غير، وكأنها تَحِلَّة القسم أو إبرار اليمين، وقلّ من يقرأ منا كتاباً بأكمله. ومن هنا نقنع باليسير، وتظل الصورة الحقّة لتاريخنا وفكرنا مغيّبة عنا تماماً.

إن الوفاء لتراثنا والكشف عنه ومعرفته يقتضي نفضه كله ومفاتشته كله، وكما يصنع الورثة الذين يبذلون أقصى الوسع والطاقة لمعرفة ما دَقَّ وجلّ من تركة مورّثهم حتى لا تفوتهم منه فائتة، ولا يسقط عليهم منه شيء، كذلك ينبغي أن يكون بحثنا عما استودعه أهل العلم من أمتنا بطون الكتب والدفاتر.

وفي هذا المجال ينبغي أن نستبعد من منهجنا ما يشيع في بعض الدراسات

الحديث من أن كتب التراث ذات الموضوع الواحد تتشابه فيما بينها، وأن غاية اللاحق أن يدخل على ما تركه السابق، يدور حوله ويردد مباحثه وقضاياها، ثم أفضى ذلك الزعم إلى دعوة صاحبة تنادي بغربة التراث وتصفيته، بالإبقاء على النافع المفيد، وترك ما عده قابعاً في المتاحف، كمومياء الفراعنة، يذكر بتطور الخطوط وقواعد الرسم والكتابة وتاريخ صناعة الورق. وسوف نقول وقتها: إننا نحافظ على تراثنا من عوامل البلى والفناء، ونتعهده بالمبيدات والكيماويات الحافظة، فنؤكد بذلك انتماء كاذباً وولاء مدخولاً، ونكون كالذين يحتفظون في بيوتهم بصحيح البخاري التماساً للبركة وطرداً للعفاريت والأرواح الشريرة.

وفي هذا المجال أيضاً ينبغي أن نستبعد من منهجنا نظرية تقسيم عصور الفكر العربي إلى عصور علو وانحطاط، وألا ننظر إلى كتب المتأخرين وأصحاب المختصرات والذيل والحواشي على أنها من الفضول والحشو. فلو لم يكن في تصانيف السيوطي والبغدادى والخفاجي والمحبى والشوكاني إلا أنها حفظت لنا كثيراً من علم الأوائل الذي اغتالته غوائل الناس والأيام، لكان ذلك من أكبر الدواعي إلى حفظها والعناية بها. على أن تراثنا لم يأخذ مكانه — عند التأمل والإنصاف — إلا بما صنفه الأوائل، مضافاً إليه تلك الشروح والمختصرات والذيل والصلوات والحواشي والتقريرات. وهذا حديث طويل.

وليست المختصرات عند علمائنا كما هي في تصورنا هذه الأيام: إيجازاً وضغطاً للكتاب الكبير، بحذف الأسانيد والمكرر... ونعم إنها قد تكون كذلك، لكن مع الرؤية الخاصة للمختصر، بإضافته أو نقده، وإليك مثلاً واحداً على ذلك: كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني، اختصره ابن منظور صاحب «لسان العرب» فيما سمّاه: «مختار الأغاني». وفي الجزء الثالث من هذا «المختار» نجد ترجمة موسعة جداً لأبي نواس، تضمنت أخباراً وأشعاراً لأبي نواس، لا تجدهما في الأصل «الأغاني». وكذلك صنع ابن منظور في ترجمة «جميل بن معمر» حيث أورد له بعض أشعار وأخبار لم ترد في «الأغاني».

أهمية المكتبة العربية :

وفي هذا المجال — ثالثاً — ينبغي أن ننظر إلى المكتبة العربية نظرنا إلى الكتاب الواحد. وذلك لأن كتب أهل العلم عندنا متشابكة الأطراف، متداخلة الأسباب، فمع الإقرار بنظرية التخصص في الإطار العام للتأليف، فإنك قل أن تجد كتاباً من هذه الكتب مقتصراً على الفن الذي يعالجه، دون الولوج إلى بعض الفنون الأخرى لدواعي الاستطراد والمناسبة، وهذا يؤدي لا محالة إلى أن تجد الشيء في غير مكانه. وأمامي الآن أمثلة ذوات عدد على هذا الذي أقوله، لا يتسع المقام لذكرها... وأكتفي هنا بمثالين:

١ — كتاب «دلائل الإعجاز» للشيخ عبد القاهر الجرجاني، يُعدّ أصلاً في علم البلاغة وإعجاز القرآن. وكان مما عالجه في كتابه هذا الرد على من يقولون: «إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات، ولكن تظهر بالضم على طريقة مخصوصة».

وقد عرّض الشيخ عبد القاهر بأصحاب هذه المقالة في مواضع كثيرة من كتابه، كان منها قوله: «واعلم أن القول الفاسد والرأي المدخول إذا كان صدره عن قوم لهم نباهة وصيت وعلو منزلة في نوع من أنواع العلوم غير العلم الذي قالوا ذلك القول فيه، ثم وقع في الألسن فتداولته ونشرته، وفشا وظهر، وكثر الناقلون له والمشيّدون بذكره، صار ترك النظر فيه سُنّة والتقليد ديناً...».

ويسأل شيخنا محمود محمد شاكر — حفظه الله — : من يكون هؤلاء القوم الذي لهم نباهة وصيت...؟ يقول شيخنا أبو فهر: «وفتشت ونقبت، فلم أظفر بجواب أطمئن إليه، وتناسيت الأمر كله إلا قليلاً نحو من ثلاثين سنة، حتى كانت سنة ١٣٨١هـ — ١٩٦١م، وطبع كتاب «المغني» للقاضي عبد الجبار، المتكلم المعتزلي. في تلك السنة صدر الجزء السادس عشر من كتاب «المغني» فإذا هو يتضمن فصولاً طويلة في الكلام على «ثبوت نبوة محمد ﷺ»، وفي إعجاز القرآن وسائر المعجزات الظاهرة عليه ﷺ. فلما قرأته ارتفع كل شك، وسقط النقاب عن كل مستتر، وإذا التعريض الذي ذكره عبد القاهر حين قال: واعلم أن القول الفاسد

والرأي المدخول... لا يعني بهذا التعريض وبهذه الصفة أحداً سوى قاضي القضاة المعتزلي عبد الجبار».

ثم نقل شيخنا عبارة القاضي عبد الجبار من الجزء السادس عشر من «المغني»، وهي: «أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة». وهي التي حكاها الشيخ عبد القاهر، ولم ينسبها لأحد على التعيين.

أرأيت؟ هذا كتاب «المغني في أبواب التوحيد والعدل» كتاب في أصول فكر المعتزلة وهو داخل في علم الكلام، فما أبعد في تقسيم العلوم وفهارس الكتب عن علم البلاغة! ولكن الكتب العربية تتنادى وتتواصل، وهكذا يعلمنا أستاذنا محمود محمد شاكر كيف تلتبس المعرفة من مظانها ومن غير مظانها، ولن يكون ذلك إلا بالذي ذكرته لك من النظر للمكتبة العربية على أنها كتاب واحد، ثم بالصبر على القراءة، والأخذ في الكتاب قراءة ودرساً إلى غايته ومنتهاه.

٢ — والمثال الثاني: عرض لي في بعض تحقيقاتي هذان البيتان الشهيران:

أقبل معاذير من يأتيك معتذرا إن بر عندك فيما قال أو فجرا
فقد أطاعك من يرضيك ظاهره وقد أجلك من يعصيك مستترا

وكانا عندي غير منسويين فأردت نسبتهما. وأول ما يهرع إليه المحقق في ذلك كتب الأدب، لا سيما تلك التي تتحدث عن العفو والاعتذار. وفي مكتبي كتاب بذلك العنوان «العفو والاعتذار» لأبي الحسن العبدى، صاحب ابن دريد اللغوي، فنظرت فيه، فوجدت البيتين، ولكن بغير نسبة أيضاً، فأخذت في البحث حتى انتهيت إلى أنهما لهلال بن العلاء الرقي، وذلك في ترجمته من كتاب «سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي (وينسبان على ضعف للبحثري). وهذا كتاب «سير أعلام النبلاء» معدود في كتب التراجم، فيا بعد ما بينه وبين كتب الأدب في تصنيف العلوم!

وإذ قد انتهيت من تقرير هذه الحقائق، على سبيل الوجازة والاختصار أقول: إن هذا المطبوع من تراثنا — على ضخامته وازدحام المكتبات به — لا يمثل الصورة

الكاملة الحقيقية لتاريخ أمتنا وقضايانا الفكرية . فما زالت الأيام تظهرنا يوماً بعد يوم على نفائس من تراثنا المخطوط كنا نجهلها أو نعدّها من المفقودات . وكم في الزوايا من خبايا .

وهذه المخطوطات التي تجود بها المكتبات الخاصة والعامة حيناً بعد حين ينبغي أن تنتهي بنا إلى الحذر في إصدار الأحكام الحاسمة وقول الكلمة الأخيرة . فإن القول الفصل في قضايا الفكر والأدب لا يصار إليه قبل استيفاء أدوات البحث ، وأهم هذه الأدوات ، بل عدتها الأولى : النصوص في مختلف عصورها .

وقد أتاح لي عملي بمعهد المخطوطات – جمعاً وفهرسة – وجلوسي إلى أشياخ العلم ونشري لبعض الكتب ، ثم إشرافي على عدد من الرسائل الجامعية التي تدور في فلك تحقيق النصوص – أتاح لي ذلك كله أن أقف على غرائب وعجائب في بطون المخطوطات تنقض كثيراً مما استقر عند الباحثين والدارسين في تاريخنا الفكري ، وذلك لاعتمادهم على مصادر محدودة ، وغياب تلك المخطوطات التي لم تنلها أيديهم .

وإن في وجود هذا القدر الضخم من مخطوطاتنا التي تعج بها المكتبات العامة والخاصة شرقاً وغرباً ، والتي تنتظر الهمم لبعثها ونشرها ، ما يدل على أن هناك حلقات مفقودة في تراثنا المطبوع .

وخذ مثلاً «الكتاب» لسيبويه . وهو قرآن النحو ، كما يقولون . مضى على طبعه أول مرة أكثر من مائة عام . وفي «الكتاب» من العسر والغموض على شدة العلم ما هو معروف ومتعالم ، بل إن بعض إشارات سيبويه ومباحثه تدق على الخاصة ، فكان ينبغي أن ينشر كل ما يتصل بهذا الكتاب الإمام ، من شروح وتقييدات ، وقد نشر شيء من ذلك ، ولكن بقي أهم شرح له ، وهو شرح أبي سعيد السيرافي ، أليست الأحكام على سيبويه وعلى «كتابه» ناقصة في غياب هذا الشرح الكبير؟ ثم «ألفية ابن مالك» أشهر نظم نحوي ، نشر كثير من شروحها ، ولكن بقي أهم شرح لها ، وهو شرح الإمام الشاطبي ، صاحب «الموافقات» ، و «الاعتصام» . وكتاب «التسهيل» في النحو ،

لابن مالك أيضاً، نشر شيء من شروحه، وبقي أضخم وأحفل شرح له، وهو شرح أبي حيان المسمّى: «التذيل والتكميل».

وعلى كثرة ما نشر من كتب علم القراءات القرآنية، فلا يزال هناك كتابان على غاية من القيمة والأهمية، أولهما في القرن الرابع، وهو كتاب «الحجة في علل القراءات السبع» لأبي علي الفارسي، والثاني في القرن العاشر، وهو «لطائف الإشارات لفنون القراءات» للقسطلاني شارح البخاري. ويمثل الكتاب الأول قيمة كبرى في ميدان الدراسات اللغوية والنحوية والاشتقاق والأصوات ولهجات القبائل، وإلى الثاني المنتهى فيما يتعلق بالقراءات العشر والأربعة الزائدة عليها، وعلم الوقف والابتداء، ومرسوم الخط العثماني، مع ما عرض له من مباحث أخرى تتعلق بالذكر الحكيم.

حلقات مفقودة:

وفي ميدان تفسير القرآن الكريم ما زالت هناك أسفار ضخمة تمثل خير تمثيل تلك الحلقات المفقودة. ومن تلك الأسفار كتاب «البرهان في علوم القرآن» لأبي الحسن الحوفي المصري المتوفى سنة ٤٣٠هـ. وكتابه هذا أضخم جداً، تقع مخطوطته في نحو ثلاثين مجلداً، ولا تقل إن «البرهان» للزركشي، و«الإتقان» للسيوطي يكتفيان، فهذان بالنسبة إلى كتاب الحوفي قطرة في بحر، مع اختلاف المنهج والمادة العلمية. ومنها «البسيط» في التفسير، لأبي الحسن الواحدي المتوفى سنة ٤٦٨هـ، وكتابه كبير أيضاً (والبسيط هنا بمعنى المبسوط الواسع، فعيل بمعنى مفعول، وليس على ما سيظنه بعض العامة بمعنى الموجز المختصر). ومنها «الكشف والبيان في تفسير القرآن» لأبي إسحاق النيسابوري الثعلبي المتوفى سنة ٤٢٧هـ وهو كتاب كبير أيضاً، وقد رأيت منه نسخة نفيسة مكتوبة في السنوات ٦٢٦هـ - ٦٣٠هـ بمدينة الفيوم، وهذه النسخة المخطوطة محفوظة بالمكتبة المحمودية بالمدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام، وصورتها لمعهد المخطوطات بالقاهرة سنة ١٩٧٣م.

وفي الحديث النبوي وعلومه ما زالت هناك طائفة كبيرة من مخطوطاته تنتظر التحقيق والنشر. أما الفقه وأصوله فلعلهما من أكثر علومنا غبناً في ميدان التحقيق والنشر. والعجيب حقاً أننا ما زلنا نعيش على كتب الفقه التي طبعت بمصر منذ زمن بعيد، مثل الأم للشافعي، والمهذب للشيرازي، والمجموع للنووي، وبدائع الصنائع للكاساني، وشرح فتح القدير لابن الهمام، وحاشية ابن عابدين، وبداية المجتهد لابن رشد «الحفيد»، والفروق للقرافي، والمغني لابن قدامة... ثم ننظر في فهارس المخطوطات فتجد ما لا يحصى كثرة من كتب الفقه وأصوله التي لم تطبع... ولا سبيل هنا إلى ذكر أسماء تلك المخطوطات فهي إلى الكثرة والتنوع ما هي!

وقل مثل هذا في مخطوطات أصول الدين وعلم الكلام والفلسفة. وإليك مثلاً كتاب «أبكار الأفكار» لأبي الحسن الآمدي. لماذا لم يطبع هذا الكتاب إلى الآن؟ وأساتذتنا وزملاؤنا الجامعيون يلجأون إلى مخطوطات هذه العلوم، ويجدون عناء باهظاً في الحصول على هذه المخطوطات، وفي التعامل معها، ويتمنون اليوم الذي يرون فيه هذه الآثار منشورة مطبوعة.

مخطوطات تاريخية كثيرة:

وتحتل كتب التاريخ مكانة عالية في المكتبة العربية. ولعل علم التاريخ أكثر ما صنف فيه من بين علومنا الأخرى، حيث يتنوع التأليف فيه بين التاريخ العام، كتصانيف الطبري وابن الأثير وابن كثير، وبعض تصانيف الذهبي والصفدي والعيني وابن شاكر الکتبي، إلى التاريخ الخاص، وهو ما يعرف بكتب الطبقات والتراجم، ثم التاريخ على البلدان كتواريخ مكة والمدينة والقدس وبغداد ودمشق ومصر. وتتسع بعض كتب الطبقات لمعارف تراثية أخرى غير التاريخ، كالذي نراه عند التاج السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى».

ومع هذا القدر الضخم المطبوع من كتب التاريخ فلا تزال هناك أصول مخطوطة كثيرة من هذا العلم ينبغي أن تنشر وتذيع، منها كتاب «عيون التواريخ» لابن شاكر الکتبي، ثم يأتي على رأس هذه الأصول التاريخية المخطوطة كتاب «تاريخ

الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام» لمؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي . وهذا الكتاب أضخم مؤلفات الذهبي التاريخية، ثم هو أوسع التواريخ العامة حتى عصره، تناول فيه تاريخ الإسلام من بدء الهجرة النبوية حتى سنة ٧٠٠هـ، فحصر مادة ضخمة في نطاقه الزماني الممتد عبر سبعة قرون كاملة، وفي نطاقه المكاني الشامل لجميع الرقعة الإسلامية التي امتد إليها الإسلام من الأندلس غرباً إلى أقصى المشرق، وقد شمل الحوادث الرئيسة التي مرت بها الجماعة الإسلامية منذ هجرة النبي ﷺ وتعاقب الأحداث والدول في شتى أنحاء العالم الإسلامي حتى نهاية القرن السابع الهجري، كما تضمن تراجم المشهورين في كل ناحية من نواحي الحياة، ولم يقتصر على فئة معينة منهم، وتقدر تراجم هذا الكتاب بأربعين ألف ترجمة، كما ذكر الدكتور بشار عواد معروف في دراسته عن «الذهبي»، وقد جمع مخطوطات هذا الكتاب العظيم.

ونأتي إلى كتب الأدب. والمطبوع منها يملأ الأرجاء، بحيث يظن الظان أنه لا زيادة لمستزيد، لكن المعنيين بجمع الكتب والمشتغلين بعلم المخطوطات، والمتابعين لما ينشر من فهرسها يعلمون أن هناك قدراً كبيراً من صغار كتب الأدب وكبارها لم يعرف طريقه للمطبعة. ولندع صغار كتب الأدب إلى كبارها ونذكر ببعض المجاميع الشعرية والنثرية التي ما زالت مخطوطة، فمنها كتاب جليل القدر هو «الجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي» لأبي الفرج المعافى بن زكريا المتوفى سنة ٣٩٠هـ. ومنها كتاب «جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام» للشيزري المتوفى نحو سنة ٦١٧هـ. وهذا الكتاب مرتب على ستة عشر كتاباً في الفنون الأدبية، وفي كل كتاب عشرة أبواب.

أشهر مخطوطة شعرية :

ومن أحفل هذه المجاميع الأدبية كتاب «السفينة» لابن مبارك شاه المصري المتوفى سنة ٨٦٢هـ، وهو كتاب حاشد جمع فيه مؤلفه مختارات من دواوين الشعراء وأخبارهم وتراجمهم، ومن بدائع المشورات والحكايات ومنتخبات من ماث الكتب

الطريقة في شتى الفنون والعلوم. ويقع مخطوط هذا الكتاب في أربعة عشر مجلداً ضخماً.

ونأتي إلى أشهر مجموعة شعرية مخطوطة، وهي كتاب «منتهى الطلب من أشعار العرب» لمحمد بن المبارك بن محمد ميمون، الذي كان حياً سنة ٥٨٩هـ. قال في مقدمته: «هذا كتاب جمعت فيه ألف قصيدة واخترتها من أشعار العرب الذين يستشهد بأشعارهم. وجعلته عشرة أجزاء، وضمنت كل جزء منها مائة قصيدة، وأدخلت فيها قصائد المفضليات وقصائد الأصمعي التي اختارها، ونقائض جرير والفرزدق، والقصائد التي ذكرها ابن دريد في كتابه الشوارد، وخير قصائد هذيل، والذين ذكرهم ابن سلام في الطبقات».

وقد استفاد ناشرو الشعر من هذه المجموعة، ورجعوا إليها في مخطوطاتها عشرات المرات في جمع وتوثيق شعر الشعراء المقلين والمكثرين، ويوجد منها مجلدان مخطوطان.

وهذه المجموعات الأدبية المخطوطة فضلاً عما تحتويه من إضافة عزيزة لموارثنا الأدبية، تكمل نقصاً ظاهراً في بعض ما انتمى إلينا من هذه الموارث، فإننا لا نعدم منها القطعة والبيت والبيتين والثلاثة من شعر الشعراء الذين طبعت دواوينهم المخطوطة، أو جمعت جمعاً.

وبعد... فهذا حديث موجز مقتضب عن تلك الحلقات المفقودة من تراثنا المطبوع. وهي حلقات توجد مخطوطاتها مفرقة في مكتباتنا ومكتبات العالم، تنتظر صلاح الأزمان وهمم الرجال لنشرها وإذاعتها.

* * *

دار الكتب.. ونشر التراث في مصر^(١)

في أوائل الستينات أخذتُ طريقي إلى دار الكتب المصرية، طالب علم يلتمس رزقه في نسخ المخطوطات العربية، وكانت الدار يومئذ تقف في ذلك المكان المعروف بميدان باب الخلق، مهيبة شامخة، فكان الداخل إليها لا يملك إلا أن يُشد قول الشريف الرضي، وقد نظر إلى مدينة الحيرة وآثارها:

شهدت بفضل الرافعين قبابها ويبن بالبنيان فضل الباني
ثم يترحم على رافع الدار وبانيها «علي باشا مبارك».

وكنت بالغدو والآصال أمر على قسم المطبوعات بالدار، فأجد أشتاتاً من نفائس المطبوعات التي أخرجتها الدار وعرضتها بأبخس الأثمان. وكنت أرى الناس أفواجاً ومن كل بقعة يتزاحمون على شراء هذه المطبوعات لنفاستها ورخصها.

وفي تلكم الأيام أيضاً رأيت بقية من هذه الطائفة الجليلة من أشياخ العلم التي كانت تقوم على تصحيح الكتب بالدار، فيما كان يعرف بالقسم الأدبي، وكان هناك رجل من أفاضل الناس، هو الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم، رحمه الله، الذي كان يتعهد هذه الذبالة المرتعشة، ويمدها بالزيت حتى لا تنطفئ.

ثم تمادت بي الأيام، فنسختُ وقرأتُ وأبصرتُ وسمعتُ وسألتُ. وكان مما عنيت به التأريخ لنشر التراث العربي، في ديارنا وغير ديارنا — على ضعفي وقلة حيلتي — وقد رأيت هذا التاريخ يسير في مراحل مختلفة، ورأيت مطبوعات دار

(١) مجلة «الهلال»، فبراير ١٩٩٢م.

الكتب المصرية تمثل من هذه المراحل مرحلة متميزة غاية التميز، هي بالقياس إلى ما سبقها من مراحل تمثل مرحلة النضج والكمال، من حيث استكمال الأسباب العلمية، واصطناع الوسائل الفنية المعينة على إخراج التراث إخراجاً دقيقاً، يقوم على جمع نسخ الكتاب المخطوطة، والمفاضلة بينها، ثم اتخاذ إحدى النسخ أمماً أو أصلاً، وإثبات فروق النسخ الأخرى، وما يتبع ذلك من إضاءة النص ببعض التعليقات والشروح، وصنع الفهارس التحليلية الكاشفة لكنوز الكتاب، وما يسبق ذلك كله من التقديم للكتاب وبيان مكانه في المكتبة العربية، وموضعه من كتب الفن الذي يعالجه، تأثيراً وتأثيراً، ثم الترجمة لمؤلفه.

ولا بد من الاعتراف بأن ذلك المنهج الذي أصّلته مدرسة دار الكتب المصرية للمحققين العرب، قد تأثر إلى حد ما بمنهج المستشرقين الذين شغلوا بترائنا، ونشطوا لإذاعته ونشره، منذ القرن الثامن عشر الميلادي أو قبله بقليل.

المكتبة الزكية :

وكان صاحب الفضل في مد الجسور بين مصر وأوروبا — فيما يتصل بنشر التراث — أحمد زكي باشا، الذي اتصل بعلماء الاستشراق، ومثل مصر في مؤتمراتهم. وهذا أحمد زكي باشا رجل من رجال مصر الأفاضل، كان من كبار الكتاب والخطباء، ولد بالإسكندرية عام ١٨٦٧ م. وتخرج بمدرسة الحقوق بالقاهرة، وأتقن الفرنسية، وكان يفهم الإنجليزية والإيطالية، وقام بفكرة إحياء الكتب العربية، وأحكم صلته برجال العرب في جميع أقطارهم. وكان شديد الحب للعربية، ولقب نفسه بشيخ العروبة، وسمّى داره بيت العروبة، وجمع مكتبة في نحو عشرة آلاف كتاب، ووقفها، فنقلت بعد وفاته إلى دار الكتب وسميت فيها: المكتبة الزكية، توفي سنة ١٩٣٤ م.

يقول عنه شيخ عبد السلام هارون رحمه الله: «ولعل أول نافخ في بوق إحياء التراث العربي، على المنهج الحديث في مصر، هو المغفور له أحمد زكي باشا، الذي قام بتحقيق كتاب «أنساب الخيل» لابن الكلبي، و«الأصنام» له أيضاً، وقد

طبعا في المطبعة الأميرية - مطبعة بولاق - سنة ١٩١٤م باسم لجنة إحياء الآداب العربية التي عُرفت فيما بعد في دار الكتب المصرية باسم القسم الأدبي، ولعل هذين الكتابين مع كتاب «التاج» للجاحظ الذي حققه أيضاً في السنة نفسها، من أوائل الكتب التي كتب في صدورهما كلمة «بتحقيق»، كما أن تلك الكتب قد حظيت بإخراجها على أحدث المناهج العلمية للتحقيق، مع استكمال المكملات الحديثة، من تقديم النص إلى القراء ومن إلحاق الفهارس التحليلية.

ويضاف إلى ذلك أنه أول من أشاع إدخال علامات الترقيم الحديثة في المطبوعات العربية، وألف في ذلك كتاباً، سَمَّاه: «الترقيم في اللغة العربية» طبع في مطبعة بولاق، سنة ١٩١٣م. ومما حققه شيخ العروبة أيضاً كتاب: «نُكْتُ الهِمْيان في نُكْتُ العميان» لصلاح الدين الصفدي. ونشره بمطبعة الجمالية سنة ١٩١١م، ثم قدمه إلى أعضاء المؤتمر الدولي الرابع لتحسين حالة العميان.

وعلى وقع خطوات أحمد زكي باشا، وبهدي من توجيهه وإرشاده، تكوّن القسم الأدبي بدار الكتب المصرية، امتداداً للجنة إحياء الآداب العربية التي أسسها شيخ العروبة، وطبع تحت شعارها «أنساب الخيل» و «الأصنام». وقد قام هذا القسم الأدبي بعبء ضخم حين نشر عيوناً مما تركه أهل العلم من آباءنا الأولين.

ولقد كان هذا القسم مدرسة كبرى في القدوة المثالية للمحققين المعاصرين، وكان يضم مشيخة جليلة من العلماء الكرام البررة، الذين أخلصوا لله فيما أسند إليهم، أذكر منهم: أحمد زكي العدوي، والشاعرين أحمد الزين وأحمد نسيم، وعبد الرحيم محمود، ومحمد عبد الجواد الأصمعي، ومحمد عبد رب الرسول، والعالم الجزائري الشيخ إبراهيم أطفيش. ومما يُستطرف ذكره هنا أن الشيخ محمد الخضر حسين، العالم التونسي الجليل قد عمل زماناً مصححاً بدار الكتب المصرية. وهذا الشيخ الخضر حسين التونسي المولد والنشأة قد تولى مشيخة الأزهر، أول قيام الثورة المصرية. وهذا من أكبر الدلائل على أن مصر لا تعرف التعصب.

عناية بالتراث :

وقد بدأ القسم الأدبي نشاطه في إذاعة التراث ونشره من خلال مطبعة بولاق الكبرى، وكان من ذلك موسوعة «صبح الأعشى» للقلقشندي الذي ظهر في ١٤ مجلداً سنة ١٩٢٠م باسم دار الكتب المصرية، ثم أنشأت الدار مطبعة خاصة بها، جمعت لها كل أسباب الجودة والإتقان، فخرج الكتاب التراثي من هذه المطبعة في أبهى حلة وفي أنقى صورة، وتستطيع أن تقول في اطمئنان أنها أول مرة تحظى كتب التراث بتلك العناية الفائقة، وافتتح جزءاً من كتاب «الأغاني» أو «تفسير القرطبي» وأعجب ما شئت لهذا السخاء في جمال الحرف وتنسيق السطور واتساع حواشي الصفحات، ثم دقة التصحيح والمراجعة، ولا يكاد يشبه مطبوعات الدار هذه إلا مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر، مثل: «سمط اللآلي»، و «إمتاع الأسماع» للمقريزي، و «شرح الحماسة» للمرزوقي، ومطبوعات دار المعارف في أيامها الأولى.

ولعل أول كتاب صدر عن القسم الأدبي عن مطبعة الدار هو «نهاية الأرب» للنويري الذي بدأت طبعه محققاً سنة ١٩٢٣م، وقد كانت الصيحة المدوية لدار الكتب المصرية تبنيها لطبع كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني، بعد طبعات سابقة في مصر وفي أوروبا، وقد تكفل بنفقات طبعه رجل من أعيان مصر هو «السيد علي راتب» المتوفى سنة ١٩٥٥م. وصدر الجزء الأول منه سنة ١٩٢٧م، وحظي بعناية كاملة، في إعداد الأصول، ودقة التصحيح، وصنع الفهارس التحليلية، في نهاية كل جزء من أجزائه.

وفي مطبعة دار الكتب المصرية، وعلى منهجها القويم، خرجت هذه النفائس: تفسير القرطبي (عشرين جزءاً)، والنجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة لابن تغري بردي (١٢ جزءاً)، وكان صاحب الفضل في نشر هذا الكتاب، عبد الخالق ثروت باشا رئيس وزراء مصر، سنة ١٩٢٢م، فهو الذي أشار على الدار بطبع الكتاب، وكان لهذا الوزير عناية بالعلم ونشره، فقد كان عضواً في تلك الجمعية الخيرية التي قامت على نشر كتاب «المخصص» لابن سيده، سنة ١٩٠٢م.

ومن إصدارات دار الكتب في ذلك الزمان: شروح سقط الزند، لأبي العلاء المعري (خمسة أجزاء)، والتعريف بآثار أبي العلاء (مجلد ضخمة)، وعيون الأخبار لابن قتيبة (أربعة أجزاء)، والطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة العلوي (ثلاثة أجزاء)، وأساس البلاغة للزمخشري (جزءان) والفاضل للمبرد، والمعرّب للجواليقي، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، رحمه الله رحمة سابعة.

ومن دواوين الشعر: ديوان الهذليين (ثلاثة أجزاء)، ودواوين: مهيار الديلمي (أربعة أجزاء)، وزهير بن أبي سلمى، وابنه كعب، وحמיד بن ثور، وسحيم عبد بني الحسحاس، وجران العود، ونابعة بني شيبان، وتميم بن المعز لدين الله الفاطمي. ومن الموسوعات التي بدأت الدار طبعها ولم تتمه: مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري، والمنهل الصافي لابن تغري بردي.

وتدور الأيام، وتضعف العزائم بضعف الرجال، ويدعو الداعي إلى شيء نُكر، وهو إلغاء القسم الأدبي، يقول شيخنا عبد السلام هارون، رحمه الله: «ثم ضعفت العناية بهذا القسم، إلى أن تولى الأستاذ أمين مرسي قنديل إدارة دار الكتب، فقام بمجهود ضخم جداً، إذ حاول أن ينقذ هذا القسم من الفناء، فدبّت الحركة فيه، ولكن الظروف لم تسعفه بتنفيذ فكرته النشيطة، وكاد القسم الأدبي في عهده يرتقي القمة في نشر موسوعات التراث، ولكن أطاحت بذلك فكرة خاطئة مغرضة، تزعم أن ليس من وظائف دور الكتب في أوروبا أن تضطلع بنشر التراث، وكأننا في جميع خطواتنا إنما نترسم أوروبا، في حقها وباطلها».

قلت: وحين تولى الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم أشلاء هذا القسم المذبوح، حاول أن ينفخ فيه، فصدر في أيامه: إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي، والخصائص لابن جني، ومعاني القرآن للفراء، والمعارف لابن قتيبة.

وفي منتصف الستينات أراد القائمون على دار الكتب إعادة القسم الأدبي، فيما سمّوه: «مركز تحقيق التراث»، وتكون غايته نشر أعمال تراثية، ثم إعداد جيل

يتلقى فن التحقيق بوجه عملي، على يد بقية شيوخه وأعلامه، في رحاب دار الكتب حيث تتوفر المراجع: مخطوطة ومطبوعة. وقد وفق هذا المركز في نشر بعض الكتب بتحقيق علماء لهم في تحقيق النصوص سابقة، ومعاونة نفر من الشباب أريد تدريبهم على تحقيق النصوص. ومن هذه الكتب: ديوان ابن الرومي (ستة أجزاء)، ومقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث، وكتاب الموسيقى الكبير للفارابي، والمذكر والمؤنث للمبرد، ولأبي البركات الأنباري، وكتاب الجواهر وصفاتها ليحيى بن ماسويه، ولا يزال هذا المركز قائماً، ولكن نشاطه قلَّ بصورة واضحة، ولعل الله يهيئ له من يقلل عثرته.

وقد أفسحت مطبعة دار الكتب المصرية مكاناً للهيئات العلمية من خارج مصر، فطبعت لحساب دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد - الهند، كتابين جليلين، أحدهما: «معرفة علوم الحديث» للحاكم النيسابوري، سنة ١٩٣٧م، وثانيهما كتاب: «إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم» لابن خالويه، سنة ١٩٤١م.

وبعد... إن لدار الكتب المصرية تاريخاً عريقاً في نشر الكتاب العربي، ولكن عوامل كثيرة من الاستلاب والمسخ والتشويه تحجب هذا التاريخ أو تطمسه. لكن القضية أكبر من ذلك: إن تاريخ مصر يُغتال، وإن صفحات رجالها تطوى، وإن أيامها تُغيب. وكل ذلك يتم بأيدينا وأيدي غيرنا، ثم نقول: إن هذا الجيل ضعيف الانتماء لمصر! واللَّهُمَّ لا؛ إن في هذا الجيل خيراً كثيراً، لكن الذين يعرضون عليه أمجاد مصر يقفون به أحياناً عند مظاهر هينة جداً من تاريخ الأيام والرجال، ويذرون وراءهم أياماً عظيمة ورجالاً كباراً. وإن من أوجب الواجبات أن تنشر أمام هذا الجيل صفحاتنا المضيئة، ومن أهمها تاريخنا وجهادنا في طبع الكتاب العربي والإسلامي، فقد غبر زمان وجاء زمان وليس بين أيدي الناس - عرباً وعجماً - من جياذ الكتب إلا ما طبع بمصر.

ثم جاء الزمان النكد، ودارت آلات الطباعة الغاصبة (الأوفست) تأكل تاريخ مصر أكلاً، وتغتال أيام الرجال اغتيالاً، فتتزع من فوق الأغلفة ومن خواتيم الكتب

زمان ومكان الطبع، ثم تمادت فأسقطت أسماء المصححين والمحققين، ليقال بعد ذلك إن الحركة الثقافية قد انتقلت من مصر إلى البلد الفلاني والبلد الفلاني، ثم ليقال أيضاً:

كلا أبويكم كان فرعا دعامة ولكنهم زادوا وأصبحت ناقصا
ويعلم الله . . . إنها ليست عصبية البلد تحملنا على ما نقول، ولكنها العصبية
للحق المهدر، والغضب للتاريخ المهان، وربك يفعل ما يشاء .



لسان العرب لابن منظور^(١)

خرج من مصر — تالياً وطباعة — أضخم معجمين في تاريخ المعاجم العربية : لسان العرب لابن منظور المتوفى ٧١١هـ، وتاج العروس من جواهر القاموس للمرئى الزبيدي المتوفى في سنة ١٢٠٥هـ. ومع أن تاج العروس هو أغزر المعاجم اللغوية مادة وأكثرها شمولاً، فإن لسان العرب قد ذهب بالشهرة كلها : لأسباب ودواع يأتىك حديثها.

وابن منظور : هو أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الإفريقي المصري، ينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل رُوَيْفَع بن ثابت رضي الله عنه، وقد ذكر ابن منظور هذا النسب في مادة (جرب) من اللسان.

ولد ابن منظور يقيناً بالقاهرة سنة ٦٣٠هـ، ونشأ بها وتعلم وصنّف، وتوفي سنة ٧١١هـ ودفن بقرافتها. و «الإفريقي» في نسبه معناها التونسي، فقد كانت إفريقية في ذلك الزمان يراد بها تونس الآن. وقد وُلِدَ جد ابن منظور «علي» في تونس، ثم غادرها إلى القاهرة، وبها ولد ابنه «مكرم» والد ابن منظور، ثم ولد هذا وإخوته بها. وقد ذهب بعضهم إلى أن ابن منظور وُلِدَ بتونس، وذهب آخرون إلى أنه ولد بطرابلس الغرب.

يقول الدكتور إحسان عباس : «وقد ثار في السنوات الأخيرة جدل حول منتمى ابن منظور، أملتته النظرة الإقليمية، أهو إفريقي أم مصري... ولو تأملت هذا الكلام من جميع هؤلاء الدارسين لتملكك العجب، ودهشت لهذا الذي يجري في

(١) مجلة «الهلل»، مارس ١٩٩٢م.

الدراسات والتحقيقات، من استنامة إلى السهول والتساهل، مع أن الأدفوي يقول في البدر السافر: محمد بن مكرم الإفريقي المحتد القاهري المولد. وهذا ابن سعيد يروي نقلاً عن المكرم نفسه والد محمد، أنه أي المكرم — ولد بالقاهرة. فإذا كان الأب نفسه ولد بالقاهرة فبأي حق يفتش الدارسون عن عبقرية إفريقية (تونسية) ولدى ابن منظور؟».

ومهما يكن من أمر فقد عرف ابن منظور بالاشتغال بالأدب، نظماً ونثراً، مع معرفة بالنحو واللغة والتاريخ، وتولى كتابة الإنشاء بالدولة، وكان كثير النسخ، ذا خط حسن. وقد شهر باختصار الكتب.

التصنيف والتدوين:

ومع هذا النشاط الظاهر في الاشتغال بعلوم العربية واختصار مصنفاتها، فما عرف ابن منظور وما شهر إلا بكتابه العظيم: لسان العرب.

وقد جاء ابن منظور بعدما استقر التأليف المعجمي، واتضحت طرائقه ومدارسه. وقد بدأ التصنيف المعجمي — كما هو معروف — موازياً للتدوين في علوم العربية، في النصف الأول من القرن الثاني، وتمثل ذلك في تلکم الرسائل الصغيرة التي تناولت موضوعات بعينها، مثل ما كتب في خلق الإنسان والبهايم والحشرات، والإبل والخيول والنخل والنبات والمطر واللبن، وما كتب في نوادر الأبنية، ثم ما كتب في غريب القرآن والحديث. قام بهذا اللغويون الأوائل، مثل أبي خيرة الأعرابي، وأبي عمرو بن العلاء، وأبي مالك الأعرابي، وأبي زيد، والأصمعي، وأبي عبيدة معمر بن المثنى، وأبي عبيد القاسم بن سلام.

وفي ذلك الزمان أيضاً قام الخليل بن أحمد بتصنيف أول معجم متكامل، وهو المعجم الرائد «العين» الذي رتبّه على مخارج الحروف. وبجانب هذا التأليف المعجمي الخالص الذي بدأه الخليل قام العلماء من النحاة واللغويين بصنع دواوين الشعراء وشرحها، من أمثال الأصمعي وتلميذه أبي نصر الباهلي، وأبي عمرو

الشيواني وابن السكيت وثلعب والسكري . وقد قدم هؤلاء مادة لغوية غزيرة من خلال شرح ما صنعوه وما جمعوه من شعر .

هذا إلى اهتمام علماء كل فن وعلم باللغة ، يقدمونها أمام كل بحث ، ويُعَنَوْنَ بها قبل كل كلام . ولا عجب في هذا ، فاللغة هي المدخل الحقيقي لمعرفة علومنا كلها وتاريخنا كله ، والاستهانة بها والتفريط في قواعدها ورسومها إنما هي استهانة وتفريط بمعارفنا وعلومنا كلها .

وقد انتهى إلى ابن منظور حصاد طيب في التصنيف المعجمي ، نظر فيه واستصفي منه خمسة كتب بنى عليها معجمه ، وهذه الكتب بحسب ذكره لها : تهذيب اللغة للأزهري (٣٧٠هـ) ، المحكم لابن سيده (٤٥٨هـ) ، والصَّحاح للجوهري (حدود ٤٠٠هـ) ، والحواشي عليه لابن برِّي المصري (٥٨٢هـ) وتسمى هذه الحواشي : التنبيه والإيضاح عما وقع في الصَّحاح . النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٦٠٦هـ) .

وتمثل هذه المراجع الخمسة ثلاث مدارس في التأليف المعجمي : المدرسة الأولى ، مدرسة ترتيب المواد اللغوية وفق مخارج الحروف ، وهي مدرسة الخليل بن أحمد ، ويمثلها من هذه الكتب : التهذيب والمحكم . والمدرسة الثانية : التي ترتب المواد على الجذور اللغوية (أصل الاشتقاق) واعتبار الحرف الأخير منها باباً ، والحرف الأول فصلاً ، مع مراعاة الترتيب الألفبائي فيما بين حرفي الباب والفصل . ويمثل هذه المدرسة الصَّحاح وحواشيه . والمدرسة الثالثة : التي ترتب المواد وفق الأول والثاني والثالث . ويمثلها النهاية .

وقد ارتضى ابن منظور من مناهج هذه المدارس منهج المدرسة الثانية ، مدرسة الصَّحاح ، ورتب كتابه على أساسها ، وأخضع المدرستين الأخريين لها . وقد صَدَّرَ ابن منظور معجمه بمقدمة أبان فيها عن منهجه ، وأنبأنا أنه تغياً من تأليفه هذا غايات ثلاثاً :

الغاية الأولى تعليمية ، وتمثلت في نقده لطريقة ترتيب المواد وفق المخارج ، ويصف ذلك بقوله : إنه «مطلب عسر المهلك ، ومنهل وعر المسلك ، وكأن واضعه شرع للناس مورداً عذباً وحلاً لهم عنه» .

غيرته على العربية :

والغاية الثانية غاية دينية، يقول: «إنني لم أقصد سوى حفظ أصول هذه اللغة النبوية وضبط فضلها، إذ عليها مدار أحكام الكتاب العزيز والسنة النبوية».

وتأتي الغاية الثالثة، ويمكن أن نسميها غاية قومية وطنية، باعثها الغيرة على العربية والعصبية لها، بعد أن اطرح الناس الحديث بالعربية، وهجروها إلى اللغة الأعجمية وهي التركية في ذلك الزمان — يقول ابن منظور: «وذلك لما رأيته قد غلب في هذا الأوان من اختلاف الألسنة والألوان، حتى لقد أصبح اللحن في الكلام يعد لحناً مردوداً، وصار النطق بالعربية من المعاييب معدوداً، وتنافس الناس في تصانيف الترجمات في اللغة الأعجمية، وتفاصحوها في غير اللغة العربية، فجمعت هذا الكتاب في زمن أهله بغير لغته يفخرون، وصنعتة كما صنع نوح الفُلك وقومه منه يسخرون».

هذا ما قاله ابن منظور منذ سبعمائة عام عن حال اللغة العربية بإزاء اللغة الأجنبية، فماذا نحن قائلون الآن؟.

ويصرّح ابن منظور في مقدمته بأن عمله في معجمه لم يخرج عن حدود ما في مراجعه الخمسة، فيقول: «وليس لي في هذا الكتاب فضيلة أُمْتُ بها ولا وسيلة أَمْسِك بسببها سوى أنني جمعت فيه ما تفرق في تلك الكتب من العلوم... فمن وقف فيه على صواب أو زلل أو صحة أو خلل فعهدته على المصنف الأول، وحمده وذمه لأصله الذي عليه المعول؛ لأنني نقلت من كل أصل مضمونه، ولم أبدل منه شيئاً فيقال: «فإنما إثمه على الذين يُبَدِّلونه».

وقد أغرى هذا الكلام كثيراً من الباحثين، وثبت لديهم أن ليس لابن منظور في «اللسان» إلا الجمع والترتيب. والحقيقة أن هذا الكلام جرى على لسان ابن منظور على سبيل التواضع وهضم النفس، وهو نمط من الكلام معهود عند كثير من أهل العلم فينا الذين لا يذهبون عن أنفسهم، ولا يتعلقون بالباطل فيضعون أنفسهم فوق هامات السابقين، وإنما يظهر الكِبَر ويفشو العُجْب بالنفس عندما تضعف العزائم وتصغر النفوس.

فابن منظور لم يقف عند هذه الكتب الخمسة وحدها، فقد استطرد إلى ذكر فوائد من قراءاته وسماعاته، وحكى عن معاصريه من العلماء، ونقل نقد العلماء لما بين يديه من مواد.

هذا وقد ضمَّ «اللسان» قدراً هائلاً من المواد اللغوية، ممزوجة بمعارف أخرى استمدّها من مراجعه الخمسة المذكورة بمناهجها واهتماماتها المختلفة: فقد أخذ من تهذيب الأزهري هذا القدر الضخم من الأبنية والمترادفات والمشارك اللفظي، وشواهد القرآن الكريم والحديث الشريف، وأشعار العرب وأقوالها وأمثالها، إلى جانب ذلك الاهتمام المبكّر بالناحية البلدانية الجغرافية التي استوعب بها الأزهري التعريف بكثير من بلدان ومواقع ومياه الجزيرة العربية، مما كان أساساً للجغرافيين العرب من بعد، مثل أبي عبيد البكري في «معجم ما استعجم»، وياقوت في «معجم البلدان»، وللغويين الذين اهتموا بالمواقع والبلدان، من أمثال الفيروزآبادي في «القاموس المحيط»، والزبيدي في «تاج العروس».

ثم أخذ عن الجوهري وابن سيده ما ضمناه معجميهما من التوجيهات النحوية والصرفية وقضايا الاشتقاق.

ومن ابن بري أخذ عنايته الفائقة بتصحيح الشواهد الشعرية وتحريرها ونسبتها. ومن ابن الأثير شرحه لغريب أحاديث رسول الله ﷺ، وكلام الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين.

الأدب سبيل المعرفة:

أخذ ابن منظور هذا كله، وأضاف إليه قراءاته ومسموعاته، وأحسن جمعه وترتيبه، وأجاد عرضه، وأعانه على ذلك اشتغاله بالأدب. وقد كان الأدب ولا يزال خير سبيل لإيصال المعرفة، وسرعة انصبابها إلى السمع، واستيلائها على النفس، والبلغ يضع لسانه حيث أراد، ويمهّد لنفسه طريقاً إلى كل قلب، وإنك لتجد كثيراً من الدراسات قد جمعت فأوعت، لكنها لم تبلغ مبلغها من النفع والفائدة لجفافها وعُسرها وتجايفها عن الأدب.

وبذلك أصبح «لسان العرب» كتاب العربية، يجد فيه طالبه كل ما يريد، وأصبحت قراءته متعة تطلب لذاتها، إذ سلم من جفاف المعاجم التي تقف عند حدود الدلالة وشرح اللفظ المفرد أو التركيب المعزول عن سياقه، وكم عرفنا من أدباء وعلماء يديمون قراءة «اللسان» كما يقرأ أحدهم كتاباً للشافعي أو الجاحظ أو أبي حيان.

وقد أخبرني شيخني محمود محمد شاكر — حفظه الله — أنه قرأ «لسان العرب» كله وهو تلميذ بالثانوي، ثم أخبرني أيضاً أن أمير الشعراء أحمد شوقي قرأ «اللسان» كله. قلت: ولعل هذا يفسر لنا «معجم شوقي الشعري» — والنثري أيضاً في أسواق الذهب — هذا المعجم الذي يدهشنا بهذه الألفاظ والتراكيب الضاربة في الفصاحة بعُرُوقها.

وما أحرانا أن ندفع أبنائنا في كليات الدراسات العربية والإسلامية، إلى قراءة المعاجم، وكثرة التفتيش فيها والصبر عليها، بدلاً من وقوفنا بهم عند حدود تلك الدراسات النظرية التي تتناول نشأة المعجم ومدارسها، ثم تنتقل إلى ذكر عيوب المعجم العربي. ولئن سلّمنا ببعض هذه العيوب فإنها مما لا ينبغي أن تعرض على طالب العلم في مراحله الأولى، بل يؤجل ذلك وأشباهه إلى مراحل الدراسات العليا، لأنه لا يصح بحال أن نكشف لصغار الطلبة — وهم في هذه المرحلة الجامعية الأولى — عن أبواب التقدير هذه، وأن ندلهم عليها، فإن مداركهم تقصر عن إدراك تلك المرامي البعيدة، فضلاً عما يحدثه ذلك في نفوسهم من زلزلة وبلبلة قد تزهدهم في العلم كله.

ومن آدابنا في ذلك ما ذكره أبو داود في رسالته إلى أهل مكة، قال: «إنه ضرر على العامة أن يكشف لهم كل ما كان من هذا الباب فيما مضى من عيوب الحديث: لأن علم العامة يقصر عن مثل هذا»، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: «وهذا كما قال أبو داود، فإن العامة تقصر أفهامهم عن مثل ذلك، وربما ساء ظنهم بالحديث جملة إذا سمعوا ذلك» — شرح علل الترمذي ص ٥٣٤.

طبغات اللسان :

كان من حظ كثير من آثارنا الكبرى أن تطبع في ذلك الزمان الرخي المهنىء، حيث كانت مصر تُشع علماء وحضارة، فعلماءها مستقرون، ومكتباتها زاخرة، ومجالس العلم بها مشهودة، واحترام العربية باسط سلطانه، والحياء عاصم، والنقد بالمرصاد.

وكانت مطبعة بولاق الكبرى في ذلك الزمان منارة علم باذخ، ومركز ضوء باهر، وقد طبعت من أصول العلم وكبار الكتب ما أخرج الناس من الظلمات إلى النور. وكان من أجل مطبوعاتها «لسان العرب» ما بين سنتي ١٣٠٠هـ - ١٣٠٧هـ، وقد اجتمع لهذه الطبعة من آيات الإتقان والكمال ما لم يجتمع في كتاب: فالنسخ المخطوطة جيدة، والضبط كامل تغلب عليه السلامة، والتصحيح دقيق، حيث كان يتولى التصحيح بمطبعة بولاق مشيخة جليلة من علماء الأزهر الشريف. وقد جاءت هذه الطبعة في عشرين مجلداً من القطع الكبير، متوسط كل مجلد ٤٥٠ صفحة.

ثم كانت النشرة الثانية للكتاب بدار صادر ببيروت سنة ١٩٥٥م في ٦٥ جزءاً صغيراً جعلت بعد ذلك في ١٥ مجلداً، ويقول عن هذه النشرة شيخنا عبد السلام هارون رحمه الله: «وكان من المتوقع أن تسلم هذه النشرة من كثير من أخطاء النشرة الأولى، ولكن من المؤسف أن الأخطاء والتحريفات التي وردت في النشرة الأولى، أي طبعة بولاق، قد زيد عليها كثير من أمثالها، وإن كان من الحق أن بعض الأخطاء القديمة قد عولج فيها بنسبة ضئيلة جداً» - تحقيقات وتنبيهات في معجم لسان العرب ص ٤، ٥.

وفي السنوات الأخيرة أصدرت دار المعارف بمصر طبعة ثالثة من اللسان بعد أن غيرت ترتيبه من نظام التقفية (الباب والفصل) إلى الترتيب على الحرف الأول والثاني والثالث، كما رتب الزمخشري معجمه «أساس البلاغة»، والفيومي معجمه «المصباح»، وإن كان هذا الترتيب أقدم من الزمخشري والفيومي، وتفصيل ذلك في غير هذا المكان.

عمل غير صالح!

وهذا الذي أقدمت عليه دار المعارف، في نظري عمل غير صالح؛ لأن فيه جراءة على أعمال السابقين، وقد قال أصحاب دار صادر في نشرتهم للسان: «وأشير علينا أن نغير ترتيب «اللسان»، ولكننا آثرنا أن يبقى على حاله حفظاً للأثر من أن يُغَيَّر» وهذا هو الحق والصواب، فإن ابن منظور — ومن قبله الجوهري — قد رتب معجمه على اعتبار آخر الكلمة وأولها بعد تجريدتها من الزوائد، لأسباب اقتضت ذلك، ومن أهم هذه الأسباب أن آخر الكلمة ثابت تصريفاً واشتقاقاً، وإنما تطرأ الزيادة والتغيير على الأول والحشو (الوسط). وإعادة ترتيب المادة المعجمية على الأول والثاني ينقض ذلك فضلاً عما يحدثه من تعريض منهج المؤلف للاضطراب، من حيث اختلال الإحالات والإرشادات تقديماً وتأخيراً، فالمؤلف يقول وفق منهجه: تقدم ذلك، أو: سيأتي، ولا يستقيم هذا على المنهج المقلوب، فقد يكون المقدم آتياً، والآتي مقدماً.

ويرتبط بتلك الدعوة دعوة أخرى خطيرة، وهي ترتيب المادة اللغوية داخل المعجم على ظاهر اللفظ، دون رعاية للتجريد والزيادة. وفي هذا إضاعة لعلم كبير من علومنا، هو علم الصرف والاشتقاق. ومما ينبغي التنبيه عليه هنا: أن بعض علمائنا الأقدمين قد ذكر في معجمه بعض الألفاظ على ظاهر لفظها لشيوع الكلمة بشكلها هذا، لكنه كان ينبه في كل مرة إلى أن أصل الكلمة هو كذا.

ومن هؤلاء العلماء ابن الأثير المتوفى سنة ٦٠٦ هـ في معجمه: «النهاية في غريب الحديث والأثر»، وهو من المعاجم المتخصصة التي رتب المادة على الأول والثاني والثالث، فقد ذكر في باب الحاء والذال والهاء حديث: «فجعلته في قبر على حدة» ثم قال: «أصلها من الواو، فحذفت من أولها وعوّض منها الهاء في آخرها، كعدة وزنة من الوعد والوزن، وإنما ذكرناها هنا لأجل لفظها».

لكننا إذا رتبنا معاجمنا كلها على هذا المنهج، ونبهنا في كل مرة على الأصل الاشتقاقي تضخمت تلك المعاجم جداً فيما لا غناء فيه ولا طائل تحته.

أما ما يقال عن التيسير والتسهيل فهو كلام من يظن أن أبناء العربية كلهم صاروا تلاميذ في مرحلة التعليم الثانوي أو ما هو دونه، وأنا قد تحولنا جميعاً إلى طبقة من العوام لا تقوى على المناهج الموروثة، ولا تطول يدها الكتب الكبار، واللهم لا! ولا ينبغي أن يكون التيسير والتسهيل سبيلاً إلى طمس المعالم وهدم الحدود.

ومن وراء ذلك كله فإن السالك هذا السبيل لا يأمن العثرة بعد العثرة، والزلة إثر الزلة، وما أريد أن أطيل بذكر الأمثلة والشواهد، لكنني أشير هنا إلى عمليين تراثيين سلكا هذا المسلك، وما كان ينبغي لهما ذلك، أولهما: كتاب «معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع» لأبي عبيد البكري الأندلسي المتوفى ٤٨٧هـ، وقد نشره الأستاذ مصطفى السقا رحمه الله سنة ١٩٤٥م. والكتاب في أصل وضعه مرتب على الأبجدية المغربية التي تخالف الأبجدية المشرقية في ترتيب الحروف، وحين نشره الأستاذ السقا أعاد ترتيبه على أبجديتنا المشرقية المعروفة، وقد أدى هذا إلى اختلال في إحالات المؤلف تقديماً وتأخيراً. قد تترك القارئ الذي لم يقرأ مقدمة الأستاذ المحقق. ثم إنه رحمه الله قد تصرف في الكتاب تصرفاً آخر أشار إليه في مقدمته.

ومن العجيب حقاً أن الناشر الأول للكتاب، هو المستشرق الألماني «وستنفلد» حافظ على ترتيب المؤلف للكتاب، وذلك في نشرته التي صدرت بجوتنجن بألمانيا سنة ١٨٧٦م، ثم أضاف إليه فهرسة على ترتيب أهل المشرق للحروف، فأحسن كل الإحسان.

والمثال الثاني: كتاب «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» — الصحابة رضي الله عنهم — لابن عبد البر القرطبي المتوفى ٤٦٣هـ. وقد رتب كتابه هذا أيضاً على ترتيب الحروف عند المغاربة، فجاء نشره الأستاذ علي محمد البجاوي رحمه الله، وقلب هذا الترتيب ورده إلى الترتيب المشرقي، وقد أدى ذلك إلى سقوط بعض التراجم التي استدرکها الناشر في آخر طبعته.

فالحق والصواب أن تترك الكتب كما وضعها مؤلفوها، ثم يلجأ إلى الفهارس

والكشافات تيسيراً وتسهيلاً، كما فعل «وستنفلد» في نشرته لكتاب البكري، وكما صنع شيخنا عبد السلام هارون رحمه الله في فهارس «تهذيب اللغة» للأزهري، ومن الطريف هنا أن شيخي محمود محمد شاكر حفظه الله لا يزال حريصاً على ترتيب مواد اللغة على طريقة الباب والفصل (أصل الاشتقاق).

إنَّ البرّ بتراث الآباء والأجداد، واحترام التاريخ، يقتضي أن نأخذ بأيدي أبنائنا إلى ذلك الموروث، نخوض بهم لججه، ونسلك معهم دروبه، ونفتح لهم مقفله، وهكذا تتواصل أجيال المعرفة، فيحرص اللاحق على إرث السابق، ويصونه كما يصون كرام الأبناء ودائع الآباء. أما إذا لجأنا إلى إعادة الترتيب والاختصار وما أشبههما فإننا نباعد بينهم وبين تاريخهم، ونتركهم كالذي لا يعرف من النهر الكبير إلا ما يأتيه به الجدول الصغير.



الشيخ مصطفى إسماعيل وقراء مصر^(١)

كانت نفحة عطرة، تلك التي نشرها قلم الشاعر الناقد (السَّمِيع) الأستاذ كمال النجمي - أطال الله في النعمة بقاءه - وذلك في كتابه «الشيخ مصطفى إسماعيل - حياته في ظل القرآن».

والحديث عن الشيخ مصطفى إسماعيل، رحمه الله، يستدعي تاريخاً عريضاً ممتداً عن إقراء القرآن وقراءته بمصر، وهو تاريخ حافل بكل عجيبة وغريبة. ولقد سمعنا من أهل العلم في ديارنا وغير ديارنا هذه الكلمة الماثورة: «القرآن الكريم نزل بمكة وقرئ في مصر وكتب في استانبول»، وهي كلمة حكيمة يصدقها التاريخ ويؤكدها الواقع، ولولا ضيق المقام لكان لي فيها تفسير وبيان.

ولقد أثرت طريقة أداء القراء المصريين في قراء الدنيا شرقاً وغرباً، وخاصة بعد شيوع آلات الإيصال الحديثة من المذياع والأسطوانات والأشرطة، ولقد أذكر أنني دعيت إلى مؤتمر علمي في الموصل بالعراق سنة ١٩٨٢م، وذات يوم كنا نتجول في شوارع الموصل تلك المدينة صاحبة التاريخ، فانتهي إلى سمعي صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد يجلجل من بعض المحلات التجارية، فقلت بصوت مسموع: الشيخ عبد الباسط هنا! فرد علي العالم العراقي الكبير الدكتور حسين علي محفوظ: «يا أخي، نحن العراقيين كانت لنا لحون خاصة وأداء خاص للقرآن الكريم حتى كان عام ١٩٤٨م وتوفيت الملكة «عالية» وجاءنا قارئان من مصر لإحياء ليالي

(١) مجلة «الهلal»، يولييه ١٩٩٢م.

المأتم: الشيخ عبد الفتاح الشعشاعي، والشيخ أبو العينين شعيشع، فأعجب الناس بها إعجاباً شديداً استحال إلى محاكاة وتقليد للأداء المصري وهجر القراء العراقيون طريقتهم «المأثورة».

وفي سنة ١٩٧١م كنت في زيارة لمدينة «أدرنة» بشمال تركيا، وفي مسجد السلطان سليم استقبلنا مقيم الشعائر بالمسجد، وما أن علم أننا مصريون حتى هش وبش وقال بالحرف: ما شاء الله، مصر، أزهر شريف، أنا الشيخ يوسف، سلموا على الشيخ مصطفى إسماعيل، فأنا أحبه كثيراً، لقد جاء إلينا وقرأ في هذا المسجد، ثم انطلق يردد بصوت عال آيات من سورة آل عمران جهد أن يقلد فيها صوت الشيخ مصطفى.

واستمع إلى قراء القرآن الآن في الباكستان والهند والصين، وبلاد جنوب شرقي آسيا، تجد لهذا الذي ذكرته من التأثير المصري أشباهاً ونظائر، بل إن التسجيلات التي ملأت مصر الآن لقراء الحرمين الشريفين، والتي يعجب بها الناس إعجاباً شديداً، للمشايخ: علي الحذيفي، وإبراهيم الأخضر، وعلي باجابر، وعبد الرحمن السديس، إنما يظهر الأثر المصري فيها واضحاً جداً لمن يعرفون الأصوات وتاريخ الشعوب في قراءة القرآن، ﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧].

لكن الأمر كاد يخلص لمصر في القرنين الأخيرين، فتربع قراؤها على عرش الإقراء: رواية ودراية، وصارت الرحلة إليهم من الشرق والغرب، ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة: منها بروز الأزهر الشريف قوة كبرى مؤثرة بعد الحملة الفرنسية، وتأثير رجاله على الحياة العامة: سياسياً واجتماعياً، ومنها استقرار الأوضاع وازدهار الحياة بمصر أيام محمد علي وذريته، ومنها — وهو الأهم — إنشاء مطبعة بولاق والمطابع الأهلية الأخرى، وفي هذه المطابع خرجت منظومات علم القراءات ومتونه: كالشاطبية وشروحها، وطيبة النشر، والمقدمة الجزرية، وغير ذلك مما لا يحصى الآن. ثم كان أبقي أثر وأخلده هو «مصحف الملك فؤاد» الذي طبع بمصر سنة ١٣٣٧هـ وقد قام بتصحيحه ومراجعته على أمهات كتب الرسم والضبط والقراءات:

الشيخ محمد بن علي بن خلف الحسيني، وحفني بك ناصف، والمشايخ مصطفى عناني، وأحمد الإسكندري، ونصر العادلي، وهذه الطبعة هي أصح طبعة للقرآن الكريم بشهادة أهل العلم والخبرة.

ثم كانت الوثبة الكبرى في طريق علم القراءات بمصر هي إنشاء معهد خاص للقراءات تابع لكلية اللغة العربية بالأزهر الشريف عام ١٩٤٣م، وفي هذا المعهد تخرجت أجيال حافظة للقرآن ضابطة لقراءاته وعلومه.

ويذكر التاريخ أسماء عظيمة لمعت في سماء مصر في القرنين الأخيرين، وخدمت كتاب الله إقراء وتأليفاً، ورحل الناس إليهم من كل مكان لمشافهتهم والتلقي عنهم ومنهم.

نعمة من الله :

ثم نأتي إلى قراء مصر بالمعنى الثاني، وهم الذين يقرأون فيسمعهم الناس فيطربون لقراءتهم ويخشعون. وهم طائفة من الناس أنعم الله عليهم بحسن الصوت وجمال الأداء. ويبدو أن لمصر في ذلك تاريخاً قديماً، تأخرنا كثيراً في كتابة تاريخ قراء مصر، ومكتبتنا العربية خالية من هذا اللون من الكتابة إلا شيئاً يسيراً كتبه الأستاذ محمود السعدني (وهو سميع كبير) في أواخر الخمسينات سمّاه: «الحنان من السماء»، ثم ما يكتبه أشتاتاً متفرقات في بعض المجلات.

ثم كنت أقرأ بين الحين والحين كلاماً لأستاذنا كمال النجمي عن الشيخ محمد رفعت والشيخ مصطفى إسماعيل — عرضاً فيما يكتبه عن الغناء والأصوات، ثم كنت أحدث نفسي: لماذا لا يفرد الأستاذ النجمي كتاباً عن الشيخ مصطفى إسماعيل، يقرأه الناس على مكث، يظهر عظمة هذا الرجل ومكانه الضخم في عالم القراءة والنعيم. حتى كان هذا الشهر الكريم وصدق الأستاذ ما أملناه وجاء كتابه هذا مجلى لحياة الشيخ مصطفى وتقلبه في العالمين. وزاد على هذا أن ألبس كتابه زاهية من الورق المصقول والزخارف المعجبة، بما يليق بجلال المقروء وجمال القارئ.

أولى خطوات الشيخ مصطفى :

ولقد ردني هذا الكتاب الممتع إلى أيام غالية عزيزة عشناها في القاهرة قبل أن يدهمها السيل وتغشاها النوائب ، «إذ الناس ناس والزمان زمان» .

ولقد ذكر الأستاذ النجمي أن أولى خطوات الشيخ مصطفى في القاهرة كانت في حي المغربلين . نعم نزل الشيخ هذا الحي العريق وسكن بالمنزل رقم ١٨ بحارة العناني ، بجوار قرية له ، وسكن أخوه الشيخ محمد بحارة قرية تعرف بزقاق المسك ، والمغربلين تتوسط الدرب الأحمر حيث العتاقة والتراث ، والمساجد والمزارات : مسجد المؤيد والصالح طلائع بن رزيك ، والسيدة فاطمة النبوية ، والمارداني ، وإبراهيم باشا آغا ، وأم السلطان شعبان ، وعلى مقربة : الأزهر الشريف والحسين والجمالية وباب النصر وباب الفتوح ، فإذا أنت أيسرت وجدت مساجد السيدة زينب والسيدة سكينة ، والسيدة نفيسة والإمام الشافعي والإمام الليثي ، وكانت هذه المناطق المتجاورة هي قلب القاهرة الذي يموج بالعلم والمعرفة والفن .

نزل الشيخ مصطفى إسماعيل القاهرة في أوائل الأربعينات ، وترك وراءه طائفة من مشاهير القراء : الشيخ محمد السعودي ، والشيخ محمد العقلة (بضم العين وسكون القاف) بطنطا ، والشيخ منصور بدار بالمنوفية ، وفي القاهرة كانت هناك طبقتان من القراء : الطبقة الأولى : محمد رفعت ، وعبد الفتاح الشعشاعي ، ومحمد الصيفي (وهو والد المخرج السينمائي حسن الصيفي) ، ومحمد سلامة ، والطبقة الثانية : علي حزين ومحمد عكاشة وزكي محمد شرف وأحمد سليمان السعدني ومدين منصور وعبد الرحمن الدروي ومحمود عبد الحكم وعبد العظيم زاهر وطه الفشني وأبو العينين شعيشع وعبد السميع بيومي ومحمد فريد السنديوني وكامل يوسف البهيمي ومنصور الشامي الدمنهوري ومحمد قنديل وعبد الرحمن عبده وهاشم هبة .

وكان المشايخ في ذلك الزمان يعرفون للقرآن حرمة وجلاله ، فيقرأون بأدب وخشوع ورعاية لأصول التلاوة ، ثم كانوا يقنعون بالقليل . ولقد حدثني الشيخ

عبد الرحمن الدروي المتوفى العام الماضي (وهو صهر عالم المخطوطات الكبير محمد رشاد عبد المطلب - أبو زوجته رحمه الله) حدثني أنه دعي هو والشيخان عبد العظيم زاهر وطه الفسني لافتتاح إذاعة العربية السعودية بجدة، وكان ذلك في موسم حج كان معهم من المذيعين الأستاذ عبد الحميد يونس، والأستاذ علي الراعي (الدكتور فيما بعد) وافتتح المشايخ الثلاثة الإذاعة السعودية، ثم سجلوا لها بعض التسجيلات لإذاعتها.

فيما بعد قال الشيخ الدروي: ثم جاءنا الأستاذ عبد الحميد يونس أو الأستاذ الراعي وقال لنا إِنَّ الإخوة السعوديين يتركون لكم تحديد الأجر المناسب لما قرأتموه، يقول الشيخ الدروي: فبكيت وقلت: كيف نأخذ أجراً على قرآن قرأناه في البلد الذي نزل فيه القرآن؟ انتهى كلامه. وأقول: أين هذا من بعض قراء هذا الزمان الذين لا يصعدون إلى دكة القراءة حتى يأتيهم إيصال الإيداع على رقم حسابهم بالبنك بالآلاف؟

وفي القاهرة أدرك الشيخ مصطفى إسماعيل طائفة من كبار المنشدين، أصحاب التواشيح الذين خلفوا الشيخين: إبراهيم القرآن وإسماعيل، وعلى رأسهم الشيخ المتفنن علي محمود (صاحب الأذان الشهير) والشيخ درويش الحريري، والشيخ سيّد موسى، ثم الشيخ محمود صُبْح، ذلك الرجل العجيب الذي كان يتحدث في أسطواناته أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب، أن يأتيًا بمثل ما يأتي به من الجواب وجواب الجواب، وكان يقطع إنشاده عقب كل «قفلة» ويتحداهما.

نزل الشيخ مصطفى إسماعيل القاهرة وهي تموج بهذه الأصوات: قراءة وإنشاداً، أصوات عجيبة مبدعة، جعل الله لكل منها شِرعاً ومنهاجاً، حتى جاء الشيخ مصطفى فزلزلهم زلزالاً، فكان مثل المتنبي الذي جاء فملاً الدنيا وشغل الناس، نعم جاء الشيخ بأفانين من النغم، وتصرفات في المقامات لا قبل لهم بها، وهو لم يتلق أصول النغم عن أحد، ولم يحاك أحداً من أصحاب الأصوات، وإنما هي الفطرة والموهبة، وفضل الله الذي يختص به من يشاء من عباده. ولقد قوبل الشيخ مصطفى

بهجوم كاسح من المشايخ القراء وكان أشدهم عليه وأعنفهم به الشيخ محمد سلامة، وقد رفع عليه عصاه ذات ليلة زاعماً أنه يتلاعب بالقرآن.

حسد الحاسدين :

ولقد غَبَرَ القراء في وجه الشيخ مصطفى، ورموه بتهم كثيرة، حسداً من عند أنفسهم، وهم وإن كانوا يتلون كتاب الله فهم بشر من البشر. وقد روي بسند صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «استمعوا علم العلماء ولا تصدقوا بعضهم على بعض، فوالذي نفسي بيده لهم أشدُّ تغايراً من الثيوس في زُرُوبها»، وعن مالك بن دينار قال: «يؤخذ بقول العلماء والقراء في كل شيء إلا قول بعضهم في بعض».

ومن التهم التي وجهت إلى الشيخ مصطفى أنه يترخص ويتساهل في قواعد التلاوة ليستقيم له ما يريد من نغم وتطريب. وهذه فرية كبرى، فالذي يسمع الشيخ بإنصاف يرى أنه ملتزم غاية الالتزام، على ما ذكر أستاذنا النجمي ص ١٥، وأحب أن أضيف إلى ما ذكره أن أكبر علماء القراءات في عصرنا: الشيخ عبد الفتاح القاضي، وسيدي الشيخ عامر عثمان، كانا من أشد الناس إعجاباً بالشيخ مصطفى، وهما مأمونان في أحكامهما، ومن حراس كتاب الله، ولقد سألت مرة سيدي الشيخ عامر عما يقال عن تساهل الشيخ مصطفى، فقال: لا تصدقهم، إنه على الجادة، ثم أضاف: إن خامة صوت الشيخ مصطفى تشبه خامة صوت الشيخ يوسف المنيلاوي.

ومما قالوه عنه: إنه لا يلتزم بالوقوف المنصوص عليها. وهذا غير صحيح، ونعم إنه كان يقف أحياناً على غير وقف لتصوير معنى، كما وقف على قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتَهُ﴾ [يوسف: ٣١]، وليس موضع وقف، ولكنه حين وصل بعد ذلك تلا الجملة السابقة، فيكون وقفه هذا أشبه بالوقف لانقطاع النفس، وهو جائز، وأحب أن أشير هنا إلى أن الشيخ مصطفى كان أكثر تحريماً للوقوف من الشيخ محمد رفعت — وهو من هو — فالشيخ رفعت مثلاً يقف على قوله تعالى من سورة الكهف ﴿فَأَنْطَلَقَا﴾ وليس موضع وقف، ويقف على قوله تعالى في سورة طه: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ﴾، ثم يستأنف ﴿يَمْوِي﴾ وليس موضع وقف.

ومما أخذوه عليه أيضاً أنه يكثر من اختلاف القراءات لإثارة مكان من الطرب، وليس هو وحده الذي كان يفعل هذا، فقد كان يفعله أيضاً الشيخ محمد رفعت، والشيخ محمد الصيفي. والجمع بين الروايات في القراءة الواحدة مكروه عند بعضهم، لكنه جائز عند بعض آخر، وبخاصة في مقام التعليم. على أن الحق يقتضي هنا أن أشير إلى أن الشيخ مصطفى قرأ مرة آية على وجه من القراءات لم أجده في القراءات العشر المجمع على تواترها والقراءة بها، وذلك في قوله تعالى في سورة يوسف - في أحد تسجيلاتها - «وَقَالَ نُوسَ» بضم النون، وهي في القراءة المتواترة بالكسر، ولم يقرأ بالضم إلا المفضل والأعمش والسلمي وهي قراءة شاذة.

تسجيلات نادرة:

ومما اهتموه به أيضاً أنه يقرأ سوراً بعينها. وهذا غير صحيح، بل إن عكسه هو الصحيح فالشيخ يقرأ من سور القرآن كله، وليس كبعضهم الذي يؤثر السور التي تقصر آياتها، وتماثل فواصلها.

من خصائص صوت الشيخ مصطفى إسماعيل:

درج كثير من القراء على أن يخفضوا أصواتهم إلى ما يسمى بطبقة القرار حين يأتون إلى آية من آيات الإنذار أو جهنم أو الموت، فإذا جاءوا إلى آية بشارة ونحوها رفعوا أصواتهم إلى ما يعرف بطبقة الجواب، كما تسمعون في آخر سورة الزمر، حيث يخفضون أصواتهم في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١]، فإذا جاءوا إلى قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣]، رفعوا أصواتهم عالياً.

ولم يؤثر عن الصحابة والتابعين في ذلك شيء إلا ما روي عن التابعي الجليل إبراهيم النخعي أنه قال: «ينبغي للقارئ إذا قرأ نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، ونحو ذلك من الآيات أن يخفض بها صوته»، قال ابن الجزري: «وهذا من أحسن آداب القراءة».

على أن الشيخ مصطفى يخالف قرأاً زمانه في خفض الصوت عند آيات الإنذار وذكر الموت.

واستمع إليه في تسجيل نادر لسورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فهو يرفع صوته عالياً في ﴿ذَائِقَةُ﴾ ثم يقف على ﴿الْمَوْتِ﴾ بنفس الطبقة العالية في صراخ مُرْزَل كأنه صراخ ثكالي فقدن عزيزاً أو تذكرن غائباً وتكاد التاء المهموسة حين يصرخ بها تنقلب إلى حرف مجهور يكاد يخرق صماخ الأذن، ثم تأمل أيضاً وقفه على قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿رَأَيْتُهُ أَكْبَرُتُهُ﴾ [يوسف: ٣١]، كيف وقف على الهاء في ﴿أَكْبَرُتُهُ﴾ وقفاً مضيقاً ساطعاً يجسد لك انبهار النسوة ودهشتهن لجمال يوسف عليه السلام.

ويبقى شيء، أرجو أن يأذن لي أستاذنا النجمي في مناقشته، وذلك ما ذكره في ص ٢٤: «أن المسلمين في العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين كانوا يقرأون القرآن بحسب لغاتهم المتعددة، وأفصحها سبع لغات»، ثم ذكر حديث: «إنَّ هذا القرآن نزل على سبعة أحرف»، ولي على ذلك بعض الملاحظات:

أولاً: إنَّ سياق الكلام على هذا النحو قد يوحي إلى بعض من لا معرفة لهم بعلوم القرآن أن المسلمين كانوا يقرأون بهذه اللغات السبع باختيارهم ومن عند أنفسهم تبعاً لما ألفوه من أعرافهم اللغوية، ومعلوم أن القراءة أثر واتباع، لا رأي واجتهاد، وأن جبريل عليه السلام قد نزل بهذه اللغات كلها فأقرأها الرسول ﷺ أمته.

ثانياً: أنَّ صَحَّة الرواية «أنزل على سبعة أحرف» بالبناء للمجهول، وليست «نزل».

ثالثاً: أنَّ تفسير الأحرف السبعة الواردة في الحديث بأنها سبع لغات من لغات العرب، هو أحد التفسيرات، وهو مردود عليه. ويرى بعض المحققين أن أمثل ما جاء في بيان معنى الأحرف السبعة هو ما ذكره الحافظ ابن حجر العسقلاني، فقد قال في فتح الباري ٢٣/٩ (طبعة السلفية) «باب أنزل القرآن على سبعة أحرف: أي على

سبعة أوجه يجوز أن يقرأ بكل وجه منها، وليس المراد أن كل كلمة ولا جملة منه تقرأ على سبعة أوجه، بل المراد أن غاية ما انتهى إليه عدد القراءات في الكلمة الواحدة إلى سبعة».

رابعاً: إنَّ كتاب أستاذنا هذا يقع في أيدي الخاصة والعامة، فكنت أحب أن يشير هنا إشارة سريعة في الحواشي إلى أن الأحرف السبعة الواردة في الحديث ليست هي القراءات السبعة التي اختارها ابن مجاهد في أوائل القرن الرابع، وهي القراءات المنسوبة إلى: نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي.

وبعد... فأرجو أن يأذن لنا الأستاذ النجمي في القول بأن هذا الكتاب لم يُشبع نهمتنا ولم يرو غُلَّتْنا في الوقوف على عبقرية الشيخ مصطفى إسماعيل، ولهذا فسوف نعتبر هذا الكتاب عن الشيخ مصطفى الجزء الأول، وهو عن حياته كما جاء بحق في عنوانه «حياته في ظل القرآن»، ويأتي الجزء الثاني إن شاء الله تحليلاً ودرساً لصوت هذا القارئ العظيم.



التصحيح اللغوي.. وضرورة التحري^(١)

«من عَرَفَ كلام العرب لم يكِدْ يُلَحِّنْ أحداً»، تذكرت كلمة الأصمعي هذه وأنا أقرأ صفحة «لغويات» في عدد مايو الماضي من الهلال، فقد جاء في هذه الصفحة: «تَوَفَّى فلان إلى رحمة الله فهو «مُتَوَفَّى» بضم الميم وفتح التاء والواو وتشديد الفاء المفتوحة وتنوين الحرف الأخير. وهذا من بديهيات اللغة التي كانت معروفة عند الصحف المصرية والعربية، ولكن إحدى الصحف المصرية الكبرى كتبت في صفحتها الأولى منذ أسابيع كلمة «متوف» بكسر الفاء وتنوينها بدلاً من «متوفى» التي بينها، فكأنما أحدث الرجل الوفاة بنفسه، ولم يتوفه الله تعالى!».

وهذا الكلام صواب، ولكنه ليس الصواب الذي لا صواب غيره، ولأهل العلم في ذلك كلام طريف يصحِّحون فيه الوجه الآخر لذلك الاستعمال الذي يأتي على السنة العامة هذه الأيام، وهو الاستعمال الذي خطأه الكاتب الفاضل، مع أنه ضارب في العربية بعروقه، فإنه يقال: «تَوَفَّى فلان فهو مُتَوَفٌّ» بفتح التاء والواو والفاء في الفعل، وكسر الفاء في اسم الفاعل، ويكون المعنى على هذا الضبط أنه استوفى أجله، واستنفد أيامه في هذه الحياة الدنيا، وعلى ذلك جاءت القراءة المروية عن علي بن أبي طالب، وعن المفضل عن عاصم: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] بفتح الياء في «يَتَوَفَّوْنَ». قال ابن مجاهد: «ولا يُقرأ بها»، وقال ابن جني في المحتسب ١/ ١٢٥: «هذا الذي أنكره ابن مجاهد عندي مستقيم جائز،

(١) مجلة «الهلال»، أغسطس ١٩٩٢م.

وذلك أنه على حذف المفعول، أي: والذين يَتَوَفَّونَ أيامهم أو أعمارهم أو آجالهم، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، و﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ أَمْلَكْنَاهُ﴾ [النحل: ٢٨]، وحذف المفعول كثير في القرآن وفصيح الكلام، وذلك إذا كان هناك دليل عليه، قال الله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] — أي شيئاً — . انتهى كلام ابن جني .

وقد روي أيضاً عن الأعمش أنه قرأ قوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى﴾ [الحج: ٥] بفتح الباء، وحكاه أبو حاتم السجستاني، كما ذكر ابن خالويه في شواذ القراءات ص ٩٤، فهذا الذي يجري على السنة العامة ليس خطأ محضاً، وإن لم يكن هو الأفصح، قال ابن هشام اللخمي: «وإذا كان في الكلمة لغتان وكانت إحداها أفصح من الأخرى فكيف تُلَحَّن بها العامة وقد نطقت بها العرب، وإنما تُلَحَّن العامة بما لم يُتَكَلَّم به» .

على أن هذا التوجيه الذي يُسوغ استعمال «تَوَفَّى» مبنياً للفاعل لا ينبغي أن يُقبل إلا من عارف به مُطِيق لوجه الكناية فيه . قال الإمام السكاكي في مفتاح العلوم ص ٩٨: «فإن جوهر الكلام البليغ مثله مثل الدرة الثمينة، لا ترى درجتها تعلق ولا قيمتها تغلو... ما لم يكن المستخرج لها بصيراً بشأنها، والراغب فيها خبيراً بمكانها، وثن الكلام أن يوفى من أبلغ الإصغاء وأحسن الاستماع حقه، وأن يتلقى من القبول له والاهتزاز بأكمل ما استحقه، ولا يقع ذلك ما لم يكن السامع عالماً بجهات حسن الكلام، معتقداً بأن المتكلم تعمدها في تركيبه للكلام عن علم منه، فإن السامع إذا جهلها لم يُميز بينه وبين ما دونه، وربما أنكره، وكذلك إذا أساء بالمتكلم اعتقاده ربما نسب في تركيبه ذلك إلى الخطأ، وأنزل كلامه منزلة ما يليق به من الدرجة النازلة، ومما يشهد لك بهذا ما يروى عن علي رضي الله عنه أنه كان يشيع جنازة فقال له قائل: من المتوفى؟ بلفظ اسم الفاعل، سائلاً عن المتوفى، فلم يقل: فلان، بل قال: الله، ردّاً لكلامه عليه مخطئاً إياه، منبهاً له بذلك على أنه كان يجب أن يقول: من المتوفى، بلفظ اسم المفعول... وما فعل ذلك كرم الله وجهه إلا لأنه

عرف من السائل أنه ما أورد لفظ «المتوفي» على الوجه الذي يكسوه جزالة في المعنى وفخامة في الإيراد، وهو وجه القراءة المنسوبة إليه ﴿وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾، بلفظ بناء الفعل للفاعل، من إرادته معنى: والذين يستوفون مُدَد أعمارهم».

قضية لغوية :

وهذا الذي رأيته من تسويغ «تَوَفَّى»، وإخراجه من دائرة الخطأ المحض يقودنا إلى قضية لغوية كبيرة شغلت اللغويين قديماً وحديثاً، وهي قضية التصويب اللغوي، وقد بدأ التصنيف فيها مواكباً لجمع اللغة وتدوينها، على نحو ما نرى عند الكسائي (١٨٩ هـ) في الكتاب المنسوب إليه «ما تلحن فيه العامة».

وتحت هذا العنوان كتب كثير من علماء اللغة الأوائل، مثل الفراء (٢٠٧ هـ) وأبي عبيدة (٢١٠ هـ) والأصمعي (٢١٦ هـ) ومن في طبقتهم ومن جاء بعدهم، بل إن حركة التصحيح اللغوي هذه قد شارك فيها بعض علماء الترك في الدولة العثمانية الذين اتخذوا العربية قلماً ولساناً، فرأينا ابن كمال باشا (٩٤٠ هـ) يؤلف كتابه «التنبيه على غلط الجاهل والنبیه»، ثم جاء علي بن بالي القسطنطيني (٩٩٢ هـ) فصنف كتابه «خير الكلام عن أغلاط العوام».

ومعلوم أن حركة التصحيح اللغوي قد تغيت غاية كبيرة، هي المحافظة على سلامة اللغة، في أصواتها ومفرداتها وتراكيبها وإعرابها ودلالة ألفاظها. ومعلوم أيضاً أن التنبيه للخطأ اللغوي قديم، وأن محاصرته والتوقي منه مما جاءت به السنة والأثر، فقد رُوي: أن رجلاً لحن بحضرة رسول الله ﷺ، فقال: «أرشدوا أخاكم»، وروي عنه عليه السلام أنه قال: «أنا من قريش ونشأت في بني سعد، فأنى لي اللحن؟».

وقال أبو بكر رضي الله عنه: «لأن أقرأ فأسقط أحب إليّ من أن أقرأ فألحن». وكتب كاتب لأبي موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: «من أبو موسى» فكتب إليه عمر: «أما بعد فاضرب كاتبك سوطاً واحداً وأخر عطاءه — أي راتبه — سنة».

ومن أصدق وأدق ما قيل في استنكار اللحن واستبشاعه ما رُوي عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «إن الرجل ليُكلمني في الحاجة يستوجبها فيلحن فأرده عنها، وكأني أقضم حب الرمان الحامض، لبغضي استماع اللحن، ويكلمني آخر في الحاجة لا يستوجبها فيُعرب — أي يتكلم كلاماً صحيحاً — فأجيبه إليها، التذاذاً لما أسمع من كلامه». وروي عنه أيضاً أنه قال: «أكاد أضرس إذا سمعت اللحن». وقال عبد الملك بن مروان: «اللحن في الكلام أقبح من الجُدري في الوجه».

وينتهي عصر الراشدين واللسان العربي لا يزال صحيحاً محروساً لم يتدخله الخلل ولم يتطرق إليه الزلل، وتأتي الدولة الأموية، ومن بعدها العباسية، وتكثر الفتوح ويدخل الناس في دين الله أفواجاً، فتختلط الألسنة، وتتداخل الأصوات واللهجات، ويستعمل العربي ما لا بد له منه في الحوار والخطاب اليومي، من أجنبي ودخيل، فيضاف إلى عامل «اللحن» القديم عامل آخر، هو هذا الدخيل، فينهض له علماء اللغة، فتكثر الجهود والتصانيف في حركة التنقية اللغوية.

وفي عصرنا الحديث يطرأ عامل ثالث: هو الاستخفاف باللغة والنحو والصرف، وإشاعة أن الاشتغال بمثل هذه العلوم مضيعة للوقت والجهد الذي ينبغي أن يُصرف إلى الفكر وحده، ثم ظهرت بدعة «التفكير الموضوعي» الذي يرفض الاحتفال بهذه الشكليات من حركات الإعراب وأبنية الأسماء والأفعال، والرسم «الإملاء»، ثم يكون التخليط في هذه القواعد والضوابط سمة من سمات التحرر والانعقاد من ربة التخلف وأكفان الموتى ورمائم القبور!

ويفزع لهذه الغاشية طائفة من علماء اللغة والنحو المحدثين، فيتصدون لهذا الانحراف عن سنن العربية، فيما عُرف بالتأليف في الأخطاء الشائعة. ومن أبرز ما كتب فيها «لغة الجرائد» لإبراهيم اليازجي، التي نشرها مقالات في مجلة الضياء التي أنشأها بمصر سنة ١٨٩٨م، و«حول الغلط والفصيح على ألسنة الكتاب» لأحمد أبي الخضر منسي، و«تذكرة الكاتب» لأسعد خليل داغر، و«أخطاؤنا في الصحف والدواوين» لصلاح الدين سعدي الزعبلوي، و«الكتابة الصحيحة» لزهدي جار الله،

ثم كتب العلامة النحوي الشيخ محمد علي النجار عدة مقالات في مجلة الأزهر، باسم: «لغويات» نشرها بعد ذلك مجموعة بمعهد الدراسات العربية بجامعة الدول العربية. وكتب العالم العراقي الدكتور مصطفى جواد عدة مقالات أيضاً بمجلة عالم الغد البغدادية، بعنوان «قل ولا تقل» نشرها بعد ذلك في كتاب، إضافة إلى ما ذكره في كتابه: «مباحث لغوية في العراق».

على أن هذه الجهود التي بُذلت في التنقية اللغوية وتصحيح اللسان العربي، قد تعرضت في القديم والحديث لحركة نقدية واسعة، تبعاً لمقياس الصواب اللغوي وعلى أي صورة يكون؟ وهل يقتصر القياس على المشهور الشائع دون القليل النادر كما يرى البصريون، أم يقاس على الشاهد الواحد والشاهدين، كما يقول الكوفيون؟ وهل نقف عند أفصح اللغات ونلغي ما سواها، أم نجعل الشاذ والفصيح واحداً؟ وقد كان بعض اللغويين يتشدد ويحكم بالخطأ على ما لم يكن فصيحاً وإن جاءت به لهجة من لهجات العرب ولو كانت ضعيفة، وكذلك يعد صحيحاً كل ما رواه لغوي ولو كان منفرداً بروايته. ولعل أعدل منهج في القبول والرد هو ما أثر عن أبي عمرو بن العلاء، وقال له أحدهم: «أخبرني عما وضعت مما سميتة عربية، أيدخل فيها كلام العرب كله؟ فقال: لا، فقال: كيف تصنع فيما خالفك فيه العرب وهم حجة؟ قال: أعمل على الأكثر، وأسمي ما خالفني لغات». فهذا منهج يقوم على اعتبار الأكثر، وعدم إنكار الأقل، فهو يقبله ولكنه يضعه في دائرة اللغات. واللغات عندهم تعني ما نسميه نحن الآن: لهجات.

ومن أشهر كتب نقد مؤلفات التصحيح اللغوي قديماً: ما صنّفه ابن هشام اللخمي الإشبيلي (٥٧٧هـ) فقد ألف كتابه: «المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان»، وعرض فيه بالنقد لكتابين تقدماه في لحن العامة، هما: «لحن العامة» لأبي بكر الزبيدي الإشبيلي (٣٧٩هـ)، و«تثقيف اللسان وتلقيح الجنان» لابن مكي الصقلي (٥٠١هـ). وقد ذكر ابن هشام أن الزبيدي «تعسف على عامة زمانه في بعض الألفاظ، وأنحى عليهم بالإغلاظ، وخطأهم فيما استعمل فيه وجهان وللعرب فيه

لغتان»، وأنَّ ابن مكي الصقلي أنكر على العامة ما يحتمل التأويل أو يكون عليه من كلام العرب دليل».

لغة الجرائد :

وفي عصرنا الحديث أيضاً تعرض مؤلفو الأخطاء الشائعة إلى كثير من النقد والمراجعة، ومن ذلك ما كُتب من نقد حول «لغة الجرائد» لليازجي، وما أثير حول «قل ولا تقل» لمصطفى جواد. وقد دارت معظم هذه النقود والتعقبات حول معيار الحكم بالخطأ والصواب على هذا الاستعمال أو ذاك. ويكشف عن اختلاف معايير الحكم بالخطأ والصواب هذان المثالان: خطأ أبو بكر الزبيدي العامة في قولهم: امرأة سكرانة، ويبيِّن أن الصواب: سكرى، ثم ذكر أن بني أسد كانوا يقولون: سكرانة. فرد عليه ابن هشام اللخمي: «فإذا قالها قوم من بني أسد فكيف تُلحن بها العامة، وإن كانت لغة ضعيفة، وهم قد نطقوا بها كما نطقت بعض قبائل العرب». ورؤي عن أبي عثمان المازني أنه قال: «دخلت بغداد فألقيت علي مسائل، فكنت أجيب فيها على مذهبي، ويخطئونني على مذهبهم» مغني اللبيب (مبحث إذا).

على أن أعظم ما تعرض له الذين كتبوا في التصحيح اللغوي في القديم والحديث: هو التسرع وعدم الاستقصاء والتحري، والوقوف عند حدود القاعدة اللغوية والنحوية، دون التفات إلى المسموع والمأثور المتناثر في كتب العربية على اختلاف علومها وفنونها، فالمعاجم على تنوعها واتساع بعضها لم تُحص اللغة كلها، وآية ذلك ما تراه في فهارس أئمة تحقيق النصوص، من تلك الألفاظ والتراكيب التي جاءت في أشعار العرب وكلام أهل العلم من السابقين الأولين، مما لم يذكر في المعاجم اللغوية المتداولة، ومن ذلك ما ذكره شيخنا محمود محمد شاكر بآخر طبقات فحول الشعراء باسم «ألفاظ من اللغة أخلَّت بها المعاجم أو قصرت في بيانها».

وما تراه في فهارس أستاذنا عبد السلام هارون رحمه الله، للبيان والتبيين، والأصمعيات والمفضليات ومقاييس اللغة.

وليس غريباً أن تغيب بعض الألفاظ والتراكيب عن معاجمنا اللغوية، فإن لغتنا العربية أوسع من أن تحيط بها المعاجم وحدها.

وقد قال الإمام الشافعي: «لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي».

وعلى هذا فإن اللغة ينبغي أن تُلتَمَس من كتب العربية كلها، لأنك واجد في كتب التفسير والحديث والفقه وأصوله وعلم الكلام والأدب والبلاغة والتاريخ والجغرافية وسائر فنون التراث، من اللغة ما لا تجد بعضه في كتبها المصنفة فيها المقصورة عليها، وذلك لأن العربية كتاب واحد.

وإذ قد ثبت هذا — إن شاء الله — فإنه من الواجب على من يتصدى للتصحيح اللغوي أن يتحلى بالأنانة والتوقف والصبر، وألا يهجم على التخطئة دون سند قوي وحجة غالبة.

نماذج:

وقد كنت عُنت في مطالع الشباب بتلك الكتب المصنفة في اللحن والأخطاء الشائعة، وكنت أحفظ منها مسائل ذوات عدد، أُديرها على لساني في مجالس المذاكرة والمطارحة، مزهواً بما أحفظ، إذ كان عندي هو الصواب الذي لا صواب غيره.

وحين أذن الله — وهو الذي بيده الخير كله — أن أتصل بما كتبه أهل العلم في كتب العربية، وبخاصة شروح الشعر وغريب القرآن والحديث، والأمالي والمجالس، وكتب التراجم والطبقات، ووقفت على تصرف أهل البيان في الأبنية والألفاظ والتراكيب، حين تم لي ذلك — على ضعفي وقلة حيلتي — أيقنت أن ليس الطريق هنالك، وأن التخطئة والتصويب لا يُصار إليهما إلا بعد عناء وجهد، لأن الأفق رحب، والمدى واسع، والشوط بعيد، وبخاصة أننا في زمن انقطعت دونه الرواية، وغاب الأشياخ، فأوَّصد بغيابهم باب ضخم من أبواب العلم، لأننا أبناء أمة

قام تراثها على الرواية والتلقي والمشافهة والتوقيف، والكتب وحدها لا تصنع عالماً.

وقد قال أبو الفتح ابن جني فيما وقع له من كلام شيخه أبي علي الفارسي: «ولمثل هذه المواضع يُحتاج مع الكتب إلى الأستاذين» — شرح تصريف المازني ٢١٠/١ — ، وقال ابن قيم الجوزية: «ولمثل هذه الفوائد التي لا تكاد توجد في الكتب يُحتاج إلى مجالسة الشيوخ والعلماء» بدائع الفوائد ١٠١/١ ، وإذ قد وضح لي بعض الطريق جمعت طائفة من تلك الألفاظ والتراكيب التي خطأها الناس، ورأيت صوابها أو استعمالها عند بعض أهل العلم قديماً، وأكتفي من ذلك هنا ببعض النماذج التي تمهد لما أردته من ضرورة التحري والمراجعة أمام كل تخطئة أو تضعيف:

١ — يُخطئ بعضهم استعمال «النفس» في غير التوكيد، يريدون أنك تقول: «الشيء نفسه، ولا تقول: نفس الشيء». وقد وجدت استعمال هذا الذي يخطئونه في كتاب سيبويه ٢٦٦/١ — وحسبك به — وذلك قوله: «وتجري هذه الأشياء التي هي على ما يستخفون بمنزلة ما يحذفون من نفس الكلام»، وقوله أيضاً في ٣٧٩/٢ وذلك قولك: «نزلت بنفس الجبل، ونفس الجبل مقابلي».

وقال الجاحظ في الحيوان ٧٦/١: «ولا بد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة في وزن علمه في نفس المعرفة». وقال ابن جني في الخصائص ٣٤٨/١: «وإنما جاز ذلك في هذا الموضع لا لشيء رجع إلى نفس «أو» بل لقريئة انضمت من جهة المعنى إلى أو». وقال المرزوقي في شرح الحماسة ص ٨٩٢: «وأشار بقوله الأبد إلى نفس الدهر». بل إن هذا الاستعمال قد ورد عند من هو أقدم من هؤلاء جميعاً، وهو الخليل بن أحمد، شيخ العربية وشيخ سيبويه، وذلك قوله في كتاب العين ١١٧/٨: «والترباء: نفس التراب».

٢ — يُخطئ بعض النحويين استعمال «قد لا يكون» لأن «قد» لا تدخل على النفي، والصواب أن يقال: «ربما لا يكون». وقد وجدته في كلام ابن جني، قال في الخصائص ٢٠/١: «كما أن القول قد لا يتم معناه إلا بغيره»، وفي كلام للمرزوقي،

قال في شرح الحماسة ص ٥٧: «والاكتفاء به قد يقع وقد لا يقع». ثم وجدته كذلك عند المالقي في كتابه: رصف المباني في شرح حروف المعاني ص ٤٥٥، قال في (مبحث قد): «إن نفيت فقلت قد لا يقوم، توقعت العدم».

٣ - يرى بعضهم أن كلمة «مجاناً» مبتذلة وغير فصيحة وتوشك أن تكون عامية، وأن الصواب أن يستعمل مكانها «بدون مقابل» ونحوه. وقد رأيتها عند ابن فارس، في مقاييس اللغة ٢٩٩/٥، قال: «والمجان: هو عطية الرجل شيئاً بلا ثمن». وقد استعملها ابن خلدون في مقدمته ص ٥٥٧، قال: «فليست اللغات وملكانها مجاناً».

٤ - يستسقط بعضهم تركيب «عبارة عن كذا»، وقد رأيت في كلام ابن جني، قال في كتابه الخاطريات ص ٥٨: «ويؤكد ذلك أن لفظ الجبال قد وضع عبارة عما لا تدركه المعاينة». وقد رأيت هذا التركيب كثيراً في كلام الفقهاء، وكُتِب التعريفات.

٥ - منع بعض النحويين دخول «أل» على «بعض» فلا يجوز أن تقول: أحبوا بعضهم البعض، وإنما تقول: أحب بعضهم بعضاً. وقد أدخل سيبويه «أل» على بعض، وذلك قوله في الكتاب ٥١/١: «وربما قالوا في بعض الكلام: ذهبت بعض أصابعه، وإنما أنث البعض لأنه أضافه إلى مؤنث هو منه». وكذلك صنع ابن جني في الخصائص ٦٤/١، قال: «فلما كان الأمر كذلك واقتضت الصورة رفض البعض واستعمال البعض»، وكذلك استعملها ثلاث مرات في الخصائص ٣٣٤/٣. ومن قبل سيبويه وابن جني دخلت «أل» على «بعض» في الشعر الجاهلي، وذلك قول المرقش الأصغر، في إحدى رواياته، يصف فرسه:

شهدتُ به عن غارة مُسبطرة يطاعن بعض القوم والبعض طَوَّحوا

٦ - وكذلك منع بعضهم دخول «أل» على «غير»، لكنني وجدتها في ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ٩٨/٢، وكتاب الهوامل والشوامل، لأبي حيان

التوحيدي، ومسكويه ص ١١٧، ثم رأيتها قديماً في كلام لصاحب القاموس في موضع غاب عني الآن.

٧ - يخطيء بعضهم استعمال الفعل «ساهم» بمعنى «شارك» على أساس أنه لم يأت في المعاجم إلا: ساهم فلان القوم: أي دخل معهم في القرعة فقرعهم وغالبهم. لكنه قد جاء بمعنى «شارك» في شعر ينسب لزهير ولأبي الأسود الدؤلي، وهو قوله:

أبا ثابت ساهمت في الحزم أهله فرأيك محمود وعهدك دائم
وعلى ذلك جاء في المعجم الوسيط، الذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

وهكذا نتبين صدق كلمة الأصمعي السابقة: «من عرف كلام العرب لم يكدر يُلحن أحداً».

لكن هذه الكلمة على صدقها لا ينبغي أن تُتخذ سبيلاً للفوضى اللغوية أو الحرية في استعمال ما نشاء، وارتكاب الضرورات والمحظورات اللغوية، بدعوى أن من الأوائل من ارتكب الضرورة واستعمل الشاذ، ثم بزعم أننا يجب أن نرفع العوائق ونحطم الحواجز أمام الإبداع والمبدعين... ولهذا وأشباهه حديث آخر.



الكتب الصفراء.. والحضارة العربية^(١)

كتب الشاعر الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي، كلمة في جريدة الأهرام بتاريخ ٢٦/٨/١٩٩٢م قدّم فيها كتاب الأستاذ الكبير النبيل الدكتور مصطفى ناصف «صوت الشاعر القديم».

وقد ذكر الأستاذ حجازي في صدر كلمته أنه مدين لثلاثة أساتذة بما يعرفه عن الشعر الجاهلي: أولهم مفتش لغة عربية رآه أيام الدراسة، وقد دخل عليهم الفصل، وكان أستاذ اللغة العربية يشرح شيئاً من شعر الأعشى الكبير ميمون بن قيس، فلم تَرُقْ طريقة المدرس في شرح شعر الأعشى ذلك المفتش، فأخذ الكلام من المدرس، واندفع في شرح بلغ من الأستاذ حجازي مبلغاً كبيراً من الرضى والارتياح، ثم غاب ذلك المفتش، ولم يره الأستاذ حجازي، ولم يسمع به بعد ذلك.

ولا نعتقد أن مثل هذه اللحظة الخاطفة في حصة دراسية محدودة، أخذ فيها ذلك المفتش في شرح بيتين اثنين من شعر الأعشى على نحوٍ مطرب معجب، تضع هذا المفتش — حذو القُذَّة بالقُذَّة — مع عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، والأستاذ الكبير الدكتور مصطفى ناصف، وتجعل الأستاذ حجازي مديناً لهؤلاء الثلاثة بما يعرفه عن الشعر الجاهلي! غاية ما يقال عن ذلك المفتش الحاذق اللبق أنه حُبب إلى ذلك الفتى الصغير الشعر الجاهلي ومهّد لأنغامه الشجية أن تنصب إلى سمعه وتتولّج في قلبه.

(١) مجلة «الهلal»، نوفمبر ١٩٩٢م.

على أنني أظن ظناً أن الأستاذ حجازي قد غَبَنَ نفسه، وحجَّرَ عليها واسعاً حين حصر طريق معرفته بالشعر الجاهلي في هؤلاء الثلاثة؛ فإني ألمح في شعره وفي كتاباته الأخيرة رصيذاً طيباً من القراءة المتعددة المصادر والموارد.

والعميد الدكتور طه حسين — على جلالة قدره ونباوة محله — لم يكن وحده في ساحة الشعر الجاهلي، فقد سبقه سابقون، وعاصره معاصرون، ولحقه لاحقون، بذلوا لذلك الشعر الجاهلي من صفاء نفوسهم ونقاء أذواقهم، وذكاء ألسنتهم، ونصاعة أقلامهم، ما كشف هذا الشعر، ودل على أنه أنبل كلام العرب وأشرفه، وأنه مستودع أسرار العربي ومُستراحه، ومَجْلَى مواجعه وأشواقه.

أما الأستاذ الكبير الدكتور مصطفى ناصف فما فتى يصرِّح بأن الشَّأو بعيد، والمدى أوسع مما يحيط به بَصَر، بل كثيراً ما يحدثني كفاحاً ومشافهة ليس بيني وبينه أحد، عن صعوبة طريق الشعر، ثم يقول لي بلهجته العذبة الودود: «يا مولانا، المسألة ما هش كده، احنا محناش واخدين بالنّا، لازم نقرأ ونقرأ» ثم يثني على فلان، ويحيل على فلان من السابقين الأولين.

ومهما يكن من أمر فإن الذي يعينني من مقالة الأستاذ حجازي هنا قوله عن الدكتور طه حسين: إنه يدين له «بهذا المنهج الذي أخرج به الشعر الجاهلي من سلطان النحاة والشرح وسدنة الكتب الصفراء». وهكذا يرسل الأستاذ حجازي الكلام إرسالاً، وكأن ذلك من الحقائق المؤكدة التي استقرت عند الناس، ولم يبق لأحد فيها مقال.

وسأؤخر الحديث عن سلطان النحاة إلى حين «وأحبب إلينا أن تكون المقدّما». وأخذ في الحديث عن «سدنة الكتب الصفراء»، ولنفرغ أولاً من «سدنة» هذه على طريقة «تحرير المصطلح قبل الأخذ في المناقشة».

و «سدنة» من الكلمات التي يتساهل بعض الكتّاب فيها، فيستعملونها في غير ما وُضعت له، وهي جمع «سادن»، وهو خادم الكعبة خاصة، وخادم الأصنام في

الجاهلية، والفعل منه سَدَن يَسْدُن، من باب قَتَلَ يَقْتُل. قال ابن فارس في مقاييس اللغة: «السين والذال والنون أصلٌ واحد لشيء مخصوص. يقال: إن السدانة: الحِجَابَة، وسَدَنَة البيت: حَجَبَتْهُ» انتهى كلامه. وقوله: «لشيء مخصوص» قَطَعَ به طريق المجاز، وأراد أن العرب لم تستعمله في غير هذا المعنى، وأن مثل ذلك لا يُنْقَل إلى غير معناه الخاص إلا بسماعٍ صحيح ممن يُوثق بعربيته. فبطل إذن — بحمد الله — استعمال «سَدَنَة» هنا.

ولم يبق إلا «الكتب الصفراء»، وهو وصفٌ عجيب، كنا نسمعه قديماً ونحن شبَّيةٌ صغار، فنفتن به افتناناً، كما كنا نفتن بمثل «الشعر المهموس»، و «الدَّفَقَة الشعورية»، و «تراسل الحواس»، و «المنولوج الداخلي» فلما أفقنا من الغَشِيَة، وعرفنا الطريق، أدركنا أن ذلك كله مما لا غناء فيه، ولا طائل تحته، وأنه كما قال ابن قتيبة: «ترجمةٌ تروقُ بلا معنى، واسمٌ يَهُول بلا جِسم»، أو كما قال ابن الشَّجْري: «تهاويلٌ فارغةٌ من الحقيقة».

وقد اختفى هذا الوصف «الكتب الصفراء» زماناً، ثم عاد مرة أخرى، وإذا كنا لا نحفل به إذا جاء في كلام من لا يؤبه له، ولا يُعَاج به من صغار الكتَّاب، فإن الأمر يختلف إذا ورد في كلام شاعر كبير مثل الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي، له قراء ومحبون، وأستاذ جامعي مثل الأستاذ الدكتور عاطف العراقي، له تلاميذ ومريدون، وذلك في كلمة له قريبة في الأهرام أيضاً.

وواضح أن ورود هذا الوصف في كلام الأستاذ حجازي والدكتور العراقي، ومن لَفَّ لَفَّهما، إنما هو في مقام الذم والسخرية، بحيث صار استعمال هذا الوصف مرادفاً للأدب الغث والفكر الهزيل المتخلف.

وإذا كنا لا نرضى لأنفسنا أن نتغلغل إلى المطوي في ضمائر الناس؛ لأن ذلك عند علام الغيوب، وإذا كان الأستاذ حجازي والدكتور العراقي، وكل من استعمل هذا الوصف، لم يقدموا لنا نماذج محددة من أسماء هذه الكتب الصفراء وما تشتمل عليه من ألوان الفكر وضروب الأدب، إذا كان ذلك كذلك، فإن من حقنا أن نقف

عند الدلالة المجردة لهذا الوصف، فنقول ببداهة العقل وبمطلق الدلالة: إن كل فكر جاء في كتب صفراء مرفوض ومطَّرح؛ لأن الوصف إذا جاء بغير قيد أو استثناء دخل تحته كل أفراد جنسه. ومعنى هذا ببداهة العقل أيضاً، وبمطلق الدلالة أن ديوان الأستاذ حجازي «مدينة بلا قلب» إذا جاءنا في ورق أصفر اجتويناه ورفضناه، وبمفهوم المخالفة: إذا جاءنا هذا الديوان على ورق كوشيه فاخر، كان ذلك رافعاً لخِيسِيَّتِهِ — إن كانت فيه خِيسِيَّةٌ — لا قَدَّرَ الله ولا قَضَى.

ونحن نقولها بكل سلامة الصدر، وبكل خلوص النية لكل من عنده خبرٌ عن حقيقة هذا الوصف: نَبِّئْنَا بتأويله.

وبكل سلامة الصدر أيضاً وخلوص النية نسأل الأستاذ حجازي، نعم نسأله تعلُّماً لا تعتُّاً: ما معنى قولك: إن الدكتور طه حسين أخرج الشعر الجاهلي من سدة الكتب الصفراء؟ فمن هم هؤلاء السدنة — إن قبلنا هذا الاستعمال؟ ما هي أسماؤهم، ثم ما هي أزمانهم؟ ثم ما هذه الكتب الصفراء التي جاء فيها شرح الشعر الجاهلي محرِّفاً ومُزَّالاً عن جهته، حتى جاء عميد الأدب العربي فنفخ فيه من روحه حتى نهض قائماً على سُوقه؟

إن الشعر الجاهلي قد جاءنا موثقاً مضبوطاً في دواوين أصحابه التي صنعها علماء الصدر الأول، مثل ابن السكيت وابن حبيب وثعلب والشُّكري، وفي الشروح الكبرى، مثل شرح المفضليات لأبي محمد الأنباري، وشرح القصائد السبع لابنه أبي بكر، وشرح القصائد التسع لأبي جعفر النحاس، وجاءنا أيضاً في المجاميع والمختارات الأدبية التي صنفها فحول العلماء في الصدر الأول أيضاً كالمفضليات والأصمعيات والحماسيات والمختارات، وجاءنا أيضاً منشوراً ومفرِّقاً في كتب الأمالي والمجالس ودواوين الأدب ومعاجم اللغة، بل وفي كتب التاريخ والبلديات (الجغرافيا).

وحين ظهرت المطبعة، وتصدى علماء البعث والإحياء لشرح الشعر الجاهلي قرأناه في مؤلفات جلة العلماء، من أمثال الشيخ حسين بن أحمد المرصفي، والشيخ

سيد بن علي المرصفي، والشيخ حمزة فتح الله، ثم جاءت طبقة تلاميذهم من قراء الشعر الجاهلي وشراحه، مثل الأستاذ محمود محمد شاكر، والدكتور طه حسين، والطبقة التي جاءت بعدهما مثل الدكتور نجيب محمد البهيتي، والدكتور عبد الله الطيب المجذوب... وهلمّ جرّاً إلى أساتذة الأدب ودارسيه بالجامعات وغير الجامعات.

فأنت ترى أن الشعر الجاهلي تنقل في أصلاب كريمة، ووعته صدور حافظة، وحملته أيدٍ بارّة، وأدّته ألسن ذكية. وهؤلاء العلماء المحدثون الذين ذكرتهم إنما قرأوا الشعر الجاهلي وغير الجاهلي في الكتب الصفراء.

فإذا تركنا حديث الشعر الجاهلي ونظرنا في تراثنا كله المطبوع في مطبعة بولاق والمطابع الأهلية الأخرى بمصر وسائر بلاد الدنيا، وجدنا كله — وبخاصة أواخر القرن الماضي والربع الأول من القرن الحالي — قد جاءنا في الورق الأصفر، فقد قرأنا تفاسير القرآن الكريم ودواوين السُّنّة المطهّرة في الورق الأصفر، وكذلك كتاب الأم للشافعي، وكتاب سيويه، والأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، وتاريخ الطبري وابن الأثير، ومقدمة ابن خلدون، والفتوحات المكية لابن عربي، ومنهاج السنة النبوية لابن تيمية، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ونفع الطيب للمقري، وألف ليلة وليلة... وسائر كتب الحضارة العربية والإسلامية. وكذلك الكتب المترجمة يومئذ إلى العربية في أنواع العلوم، كالطب والهندسة والفلك والرياضيات والعلوم الحربية. وكذلك كان الشأن في كثير من مطبوعات أوروبا من الكتاب العربي وغيره.

يقول العلامة الدكتور عبد الله الطيب المجذوب، صاحب الكتاب العظيم «المرشد إلى فهم أشعار العرب» في محاضرة ألقاها بنادي ناصر الثقافي بالخرطوم: «وأشهد على نفسي أنني عندما كنت أدرس في الخارج — يعني لندن — كنا ندرس بعض القطع المسرحية لشكسبير، فكان التلاميذ معنا يُسمّع بعضهم لبعض القطع عن ظهر قلب، حتى أمثال «يدخل يطارده القتلة» أو «يخرج يطارده سبع». وكانت لهذه

المسرحيات القديمة شروح، قد تكون الأبيات أربعة أسطر في أعلى الصحيفة بخط كبير، وسائر الصحيفة بخط دقيق شرح لما فوق، ويقبل التلاميذ على ذلك ولا ينفرون، فإذا قدم لهم شيء يشبه ذلك بالعربية نفروا منه نفوراً شديداً. ومن عجب الأمر أن الكتب التي كنا ندرسها بالإنجليزية كان ورقها أصفر. والورق الأصفر لعله ألين على عين القارئ من الورق الناصع الأبيض» انتهى كلامه، ويؤكد أنه مصابيح الإضاءة في شوارع وميادين المدن الكبرى غلب عليها الآن اللون الأصفر.

وقد شهدنا في الكتب الصفراء ظاهرة طباعية عجيبة، لم نشهدها في الكتب البيضاء، وهي ظاهرة طبع كتاب أو كتابين بهامش الكتاب الأصلي، أو بآخره إذا كان له صلة بالكتاب الأصلي. والأمثلة على ذلك كثيرة جداً، لا داعي للتطويل بذكرها، على أن أعجب ما في هذه الظاهرة أن نرى خمسة كتب مطبوعة في كتاب، وفي صفحة واحدة اجتمعت الكتب الخمسة، في الصلب والهامش، مفصولة بجداول، دون أن يختلط بعضها ببعض، أو يبغي بعضها على بعض. وذلك: كتاب شروح التلخيص في علوم البلاغة، ويشتمل على:

١ — شرح سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني.

٢ — مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي.

٣ — عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، لبهاء الدين السبكي.

٤ — الإيضاح للخطيب القزويني.

٥ — حاشية الدسوقي على شرح السعد.

والثلاثة الأولى طبعت في صلب الكتاب، والاثنان الباقيان بهامشه. وكانت الطبعة الأولى للكتاب بمطبعة بولاق — على الورق الأصفر — سنة ١٣١٧هـ، أي منذ نحو مائة عام، وكانت هذه الطبعة على نفقة مصطفى أفندي المكاوي، المحامي بمدينة الفيوم، والشيخ فرج الله زكي الكردي، وكيل الشركة الخيرية لنشر الكتب العالمية الإسلامية، من طلبة العلم بالأزهر الشريف، وعبد الحميد أفندي الصمداني.

وَقَفَّ أيها القارئ الكريم عند اسم «مصطفى أفندي المكاوي المحامي»، وانظر إلى همم الرجال واهتماماتهم في تلك الأيام! رجل من رجال القانون ينهض للمشاركة في نشر أصول من كتب البلاغة! وأدعُ لك أيها القارئ العزيز التدبر في هذا الذي كان، وما نحن عليه الآن!

وظاهرة طبع الكتب بهامش كتب أخرى، ظاهرة عجيبة فريدة، وهي دالة بوضوح على أن القوم كانوا في سباق لنشر العلم وإذاعته. وما أعلم أن هذه الظاهرة عرفت في غير مطابع مصر وإستانبول، في بداية الطباعة العربية على الأقل.

هذا وقد ارتبط الورق الأصفر عند عارفي الكتب وجامعيها، بجودة التصحيح وكمال الإخراج — وتلك حقبة غالية من تاريخ الطباعة في مصر — فقلَّ أن تجد تصحيحاً أو تحريفاً، وجاءت النصوص كاملة موفورة، لا سقط فيها ولا خلل، وذلك لأن القائمين على تصحيح الكتب الصفراء في ذلك الزمان كانوا طبقة من فضلاء العلماء، وكانوا يقومون بعملهم هذا في أمانة تامة وحرص شديد. ويذكر التاريخ من أسماء هؤلاء المصححين العلماء: نصر الهوريني، ومحمد بن عبد الرحمن، المعروف بقطعة العدوي، ومحمد الحسيني، وطه محمود، ومحمد عبد الرسول، ومحمد قاسم، ومحمد الزهري الغمراوي، وعبد الغني محمود.

وكان كثير من أساتذتنا الذين يجمعون الكتب يركضون خلف الطبعة الصفراء، ويسمحون فيها بأعلى الثمن، فإذا جثت أحدهم بطبعة من الكتاب القديم على ورق أبيض، نفر منها نفوراً شديداً، فإذا زينت لها بأن فيها أوائل فقرات، وعلامات ترقيم، لجَّ في إعراضه، وقال: «بِطِينُهُ وَلَا غَسِيلَ الْبَرْكِ».

وإن تعجب فعجب: أن الورق الأصفر قد عاد إلى الطباعة مرة أخرى، وأمامي الآن طبعة جيدة جداً من «القاموس المحيط» للفيروزآبادي، على ورق أصفر. وتقع هذه الطبعة في (١٧٥٠) صفحة، وقد أصدرتها مؤسسة الرسالة ببيروت — الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م. ثم طبعة محققة من كتاب «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصبهاني على ورق أبيض، ولكنه بياض خفيف يميل كل الميل إلى

الأصفر. وهذه الطبعة من منشورات دار القلم بدمشق، والدار الشامية ببيروت.
الطبعة الأولى ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م.

هذا ولن تزول حيرتي، ولن ينقضي عجبني من حديث «الكتب الصفراء»
والحط^(١) عليها، إلا إذا جاءني كاتب بكلام محدد مبين موثق، بأسماء هذه الكتب
الصفراء، والفنون التي عالجتها، والدلالة على مواضع الذم منها، وليس لي إلا شرط
واحد: أن يرفق بي الكاتب، فلا يهجم بي على دهاليز المنهجية والموضوعية
والإشكالية، وحركة التاريخ، والحتمية الحضارية، وأن يأتيني الكلام واضحاً قاطعاً،
لا ترى فيه عوجاً ولا أمتاً؛ فإن كثيراً مما نقرأه ونسمعه في هذه الأيام مما ينطبق عليه
قول ذلك الأعرابي وقد حضر مجلس الأخفش فسمع كلاماً لم يفهمه، فحار
وعجب، فقال له الأخفش: ما تسمع يا أخا العرب؟ فقال: «أراكم تتكلمون بكلامنا
في كلامنا بما ليس من كلامنا»... نعم إن كثيراً مما نقرأه ونسمعه الآن مما يدير
الرأس ويجعل الأعلى أسفل والأسفل أعلى، وكأنك في مدينة ملاء، أمام تلك
الصناديق التي يجلس فيها الصغار: تعلو بهم ثم تهبط، ثم تعلو ثم تهبط، إلى أن
يدركهم الدُّوار، أو يُنزل الله عليهم النعاس أمانة منه... والملجأ الله.



(١) كذا في الأصل، ولعلها: والحض عليها.

النحو.. والشعراء^(١)

عرضت في عدد الهلال الماضي لكلمة الشاعر الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي المنشورة بجريدة الأهرام ٢٦/٨/١٩٩٢م، والتي قدم فيها كتاب الأستاذ الكبير الدكتور مصطفى ناصف «صوت الشاعر القديم».

وقد وقفت عند قول الأستاذ حجازي إنه مدين لعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين «بهذا المنهج الذي أخرج به الشعر الجاهلي من سلطان النحاة والشرح وسدنة الكتب الصفراء».

ثم ناقشته في «سدنة الكتب الصفراء»، ولم يبق لي من كلامه إلا قوله: إن الدكتور طه حسين «قد أخرج بمنهجه الشعر الجاهلي من سلطان النحاة».

وعوداً على بدء، فهذا أيضاً من الكلام الذي يُرسل إرسالاً، وكأنه من الحقائق المؤكدة التي استقرت عند الناس، ولم يبق لأحد فيها مقال.

فأي «سلطان» يا سيدي الشاعر، وأي «نحاة»؟ لا بد من تحديد هذا السلطان (الحائر) وبيان مداه الذي ينتهي إليه، وغايته التي يقف عندها. ولا بد أيضاً من تعيين هؤلاء «النحاة» بأسمائهم وأزمانهم، فإن هناك كثرة من النحاة الأوائل قد وقفوا مع الإبداع الشعري — كما يقال — ووجهوا تراكيب الشاعر التي خرجت في الظاهر عن سَنَن كلام العرب؛ فالتمسوا لها وجهاً، وطلبوا لها تأويلاً من لغات العرب التي تسمى الآن «لهجات».

(١) مجلة «الهلال»، ديسمبر ١٩٩٢م.

والقضية أقدم من عميد الأدب العربي بأكثر من ألف عام. وإليك يُساق الحديث: قال أبو محمد بن الخشاب المتوفى سنة ٥٦٧هـ: إن أبا حاتم السجستاني قال: ليس الفرزدق أهلاً لأن يستشهد بشعره على كتاب الله، لما فيه من التعجرف. وقال ابن خشاب أيضاً: لم يَجْرَ في سَنَن الفرزدق من تعجرفه في شعره، بالتقديم والتأخير المخل بمعانيه، والتقدير المشكل إلا المتنبّي، ولذلك مال إليه أبو علي وابن جني، لأنه مما يوافق صناعتهما، ولا ينفع المتنبّي شهادة أبي علي له بالشعر، لأن أبا عليٍّ مُعَرَّب لا نَقَّاد، وإنما تنفعه شهادة العسكريين (يعني أبا أحمد صاحب المصون، وأبا هلال صاحب الصناعتين وديوان المعاني)، وأبي القاسم الأمدي، فإنهم أئمة يقتدى بهم في نقد الإعراب».

في قلب الحركة الشعرية:

أرأيت يا سيدي الشاعر! هذا أبو علي الفارسي شيخ النحاة في القرن الرابع وتلميذه العظيم ابن جني، كلاهما مع الإبداع الشعري، ولعلي أذكر شيئاً من تخريج أبي علي لشعر الفرزدق الذي عابه عليه النحاة.

فذكر «النحاة» هكذا بصيغة التعميم غير صحيح. وأيضاً فإن وضع القضية على هذا الشكل يجعل النحاة — وبخاصة عند من لا يعرف تاريخ العلم والعلماء — بمعزل عن الشعر، بل في موقف المتربص به، الكاره له، البعيد عنه. وهذا غير صحيح أيضاً، فإن كثيراً من نحاة الصدر الأول لم يكونوا منظرين من بعد، بل كانوا في قلب الحركة الشعرية، وفي الصميم منها: فهذا أبو عمرو بن العلاء الإمام النحوي اللغوي، وأحد القراء السبعة كان راوية لذي الرمة الذي يقال: إن شعره يمثل ثلث لغة العرب. وعناية أبي عمرو بالشعر الجاهلي معروفة، وقد كان يعول مع السماع والرواية على الكتابة والتقييد. وكان يونس بن حبيب شيخ سيويه شديد الاختصاص برؤية بن العجاج. وكان نَفْطويه يحفظ نقائض جرير والفرزدق وشعر ذي الرمة.

أما أبو العباس ثعلب — وهو مع الكسائي والفراء، زعماء مدرسة الكوفة النحوية — فإن له علاقة شديدة بالشعر والشعراء: فقد صنع دواوين الأعشى وزهير

وابنه كعب وعروة بن حزام والنابعة الذبياني والجعدي والطرماح وطفيل الغنوي،
وشرح لامية الشنفرى:

أقيموا بني أمية صدور مطيكم فإنني إلى قوم سواكم لأميل
كما روى شعر ذي الرمة عن أبي نصر الباهلي صاحب الأصمعي، وعن هذه
الرواية كانت نشرة الدكتور عبد القدوس أبو صالح العظيمة لديوان ذي الرمة بمجمع
اللغة العربية بدمشق، وفضلاً عن ذلك كله فإن لثعلب في علم الشعر كتاباً شهيراً هو
«قواعد الشعر»، وهو على وجازته مفيد في بداية هذا العلم.

أما مسألة «سلطان النحاة على الشعر»، ووقوفهم في وجه الإبداع الشعري فهي
من المسائل التي يتابع الناس بعضهم بعضاً فيها دون أن يعطوها حظها من النظر
والتأمل.

تقعيد القواعد:

إن النحو علم وصناعة، وقد قعد النحاة القواعد بناء على الجمهور الأعظم
الذي انتهى إليهم من كلام العرب شعراً ونثراً، فهو نظام مستتب، مبني على الأكثر
والشائع، ولذلك يقول ابن عصفور «إن أئمة النحويين كانوا يستدلون على ما يجوز
في الكلام بما يوجد في النظام».

والنحوي حريص على هذا النظام، متشبث به، فما خرج عنه رفضه أو ضعفه
أو شذذه، ولا يبالي النحوي أي نص كان هذا الذي خرج عن النظام، ولذلك يضعف
النحوي — بناء على نظامه — بعض القراءات القرآنية الآتية من طريق التواتر. فقد
تكلم النحاة على قراءة نافع وابن عامر وحزمة والكسائي: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مِّنْ﴾
بتشديد نون ﴿إِنْ﴾ مع رفع ﴿هَٰذَا﴾ بعدها، وحقه النصب. وتكلموا على حذف
الفاء في جواب «أما» من قوله ﷺ: «أما بعد، ما بال رجال يشترطون شروطاً ليست
في كتاب الله». وحقه: «فما بال...»، وتكلموا على حديث: «صلى رسول الله ﷺ
قاعداً، وصلى وراءه رجال قياماً» لمجيء «قياماً» حالاً، وقبله نكرة «رجال»، وحق

صاحب الحال في النظام النحوي أن يكون معرفة، وتكلموا أيضاً على قول العرب :
«مكره أخاك لا بطل»، وحقه «أخوك».

فالنحوي يعرض كل ما يرد عليه من كلام ونصوص على نظامه، فما وافقه
قبله، وما خالفه رفضه، فلتن كانت عداوة بين النحاة والشعراء لهذه العلة، وجب أن
تكون هذه العداوة أيضاً بين النحاة وكل من تكلم بكلام خالف فيه النظام واتبع هواه .

علم التوجيه النحوي ودوره :

ومع كل هذه الصرامة النحوية، فقد قام نحاة آخرون بتوجيه هذا الكلام الخارج
عن النظام، ورده إليه من طريق موافقته لبعض لغات العرب — أي لهجاتهم — أو من
طريق الحذف والتقدير، والحذف من خصائص العربية، وهو سمة من سمات
فصاحتها وبلاغتها، ويجعله ابن جني من «باب شجاعة العربية»، وعلم التوجيه
النحوي هذا علم ضخم جداً، وبخاصة توجيه القراءات السبع .

ولما كان الشعر كلاماً من الكلام فقد عرضوه أيضاً على نظامهم، فقبلوا منه
ورفضوا، لكنهم قد وقفوا منه موقفاً آخر غير موقفهم من النصوص النثرية — وهذا
يدل على احتفالهم به، وإجلالهم له — فهم قد نظروا إليه من أول الأمر على أنه كلام
ذو طبيعة خاصة ونسق متميز، وحيث كانت هذه حاله عومل معاملة مباينة لمعاملة
منثور الكلام، فأجازوا فيه ما لا يجوز في النثر . وكان صنيع إمام النحاة سيبويه في
ذلك دليلاً ومرشداً، فقد عقد باباً في أول الكتاب سمّاه : «باب ما يحتمل الشعر» قال
في أوله : «اعلم أنه يجوز في الشعر ما لا يجوز في غيره» .

ويقول ابن عصفور : «اعلم أن الشعر لما كان كلاماً موزوناً يخرج الزيادة فيه
والنقص منه عن صحة الوزن، ويحيله عن طريق الشعر، أجازت العرب فيه ما
لا يجوز في الكلام، اضطروا إلى ذلك أو لم يضطروا إليه، لأنه موضع ألِفَت فيه
الضرائر» .

وتأمل جيداً قوله : «اضطروا إلى ذلك أو لم يضطروا إليه»، فهو كلام صريح

في الاعتراف بأن للشعر لغة خاصة، وأن الضرورة الشعرية ليست كما يفهمها بعض الناس: أنها الذي لا يجد الشاعر عنها محيصاً. وهذا ما عليه المحققون من العلماء، فإن الشاعر الذي قال:

تمرون الديار ولم تعوجوا كلامكم عليّ إذن حرام
كان يستطيع أن يقول:

مررت بالديار ولم تعوجوا

فيسلم له الوزن مع رعاية النظام النحوي في تعدية الفعل «مر» بالباء، ولكنها لغة الشعر، فيا بُعد ما بين «تمرون» و «مررتم» في المذهب الشعري! ومع التسليم بهذه الضرائر الشعرية وتصنيف العلماء فيها: فإنك لو أحصيت ما خرج به الشعراء جميعاً في كل عصور الاستشهاد والاحتجاج، وما بعدها، عن النظام النحوي، لوجدته قطرة في بحر، وأن جمهور شعرهم جار على هذا النظام، وما كان ذلك كذلك إلا لأن ذلك النظام النحوي فطرة وسليقة عند العرب، ألم يقل الشاعر القديم:

ولست بنحوي يلوك لسانه ولكن سليقي أقول فأعرب

الضيق بالنحو:

أما ما تراه في كتب الأدب والتراجم من ضيق بعض الشعراء بالنحو والنحاة، وقولهم في ذلك الشعر الساخر المستهزئ فهو عندي من باب المعابثة والاستطالة بالذكاء، وكأنهم يريدون أن يقولوا: إن نحوكم أيها النحاة صنعة، ونحونا فطرة، وآية ذلك أن شعرهم الذي حمل سخريتهم من النحاة ليس فيه شيء خارج عن النظام، أو خارق لقواعده، وكأنها سخرية بالنحاة لا بالنحو. ولا يتسع المقام لذكر شيء من شعرهم الساخر هذا وتحليله، ولكنني أشير إلى مقطوعة من تسعة أبيات، أوردتها أبو حيان في الإمتاع والمؤانسة ٢/ ١٤٠، يقول الشاعر الساخر في أولها:

ماذا لقيت من المستعربين ومن تأسيس نحوهم هذا الذي ابتدعوا

وفي هذه المقطوعة يقول :

ما كل قولي معروف لكم فخذوا ما تعرفون وما لم تعرفوا فدعوا
كم بين قوم قد احتالوا لمنطقهم وآخرين على إعرابهم طُبِعُوا

فهذان البيتان شاهدان على ما قلته من نحو الصنعة ونحو الفطرة . والشاعر
بطبعه مختال تَيَّاه ، وَحُقْ له !

وما أظن الذين تكلموا عن «سلطان النحاة» على الشعراء قد أخذوا كلامهم إلا
من قصة الفرزدق مع عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي : فقد سمع الفرزدق يقول :
وَعَضُّ زَمَانٍ يَا بَنَ مِرْوَانَ لَمْ يَدَعْ مِنَ الْمَالِ إِلَّا مَسْحَتًا أَوْ مُجَلَّفُ

فقال له : بِمَ رَفَعْتَ «أَوْ مُجَلَّفُ»؟ فقال : «بما يسوءك وينوءك، علينا أن نقول
وعليكم أن تتأولوا». وهذا البيت مما استفاضت به كتب العربية، وأطال النحاة فيه
الكلام . قال البغدادي صاحب الخزانة : «وهذا البيت صعب الإعراب». وقال
الزمخشري : «هذا بيت لا تزال الركب تصطك في تسوية إعرابه»، وقال ابن قتيبة :
«رفع الفرزدق آخر البيت ضرورة، وأتعب أهل الإعراب في طلب الحيلة، فقالوا
وأكثرُوا، ولم يأتوا فيه بشيء يُرْتَضَى، ومن ذا يخفى عليه من أهل النظر أن كل ما أتوا
به احتيال وتمويه» .

وقال أبو فهر محمود محمد شاكر : «وبيت الفرزدق مما اشتجرت عليه ألسنة
النحاة، ولكنه بقي مرفوعاً حيث هو» .

ومن أقرب تخريجات النحاة وأولاهها بالقبول ما ذكره الخليل بن أحمد،
عقبري العربية قال : هو على المعنى، كأنه قال : لم يبق من المال إلا مسحت، لأن
معنى لم يبق ولم يَدَعْ واحد . ومثل ذلك قال أبو علي الفارسي، واستشهد للحمل
على المعنى بشواهد أخرى .

وقد حكوا حكايات أخرى عن مخالفة الفرزدق لبعض قواعد النظام النحوي،

ومع هذا المأثور عن الفرزدق فقد بقي جمهور شعره على الجادة النحوية، وظل مدداً ثرياً للنحاة، ينتزعون منه شواهدهم في الدرس النحوي واللغوي بمستوياته الأربعة: المستوى النحوي (التراكيب)، والمستوى الصرفي (الأبنية)، والمستوى الصوتي، والمستوى الدلالي.

الضرورة الشعرية لا تبرر الخروج عن السنن العربية:

على أنه مما ينبغي التنبيه له والحذر منه أن الضرورة الشعرية — أو إن شئت لغة الشعر — لا تبيح للشاعر أن يخرج عن سنن العربية. قال أبو سعيد السيرافي، وهو يشرح كلام سيويه في الضرورة الشعرية: «وليس في شيء من ذلك رفع منصوب، ولا نصب مخفوض، ولا لفظ يكون المتكلم فيه لاحقاً، ومتى وُجدَ هذا في شعر كان ساقطاً مطرَحاً، ولم يدخل في ضرورة الشعر».

والعميد الدكتور طه حسين، الذي قال عنه الأستاذ حجازي إنه أخرج الشعر الجاهلي من سلطان النحاة، يعيب على بعض الشعراء المحدثين خروجهم على قواعد النحو، فيقول عن الشاعر إيليا أبي ماضي إنه اتخذ ضعفه في النحو مذهباً، وقد ردّد هذا الرأي الناقد اللبناني صلاح لبكي، في كتابه «لبنان الشاعر» فرأى أن شعراء المهجر آتسوا ضعفهم في اللغة، ويأسهم من إصلاحها، فلم يجدوا بداً من أن يتخذوا هذا الضعف مذهباً، وآية ذلك فصل للأستاذ ميخائيل نعيمة في «الغربال» عنوانه صفادع الأدب.

فليست لغة الشعر، أو الإبداع الشعري، مجازاً إلى الفوضى اللغوية، أو رخصة ليقول بعضهم: «قد فوق وقد تحت»، ولعل ذلك يذكرنا بمقالة أخرى للأستاذ حجازي، نشرها بجريدة الأهرام بتاريخ ١٩٩٢/٣/٤ م، بعنوان «حد الصواب وحد الخطأ»، وذكر فيها كلاماً عجيباً حول اللغة الاعباطية، وأن القاعدة اللغوية ليست نموذجاً مثالياً لا يتغير ولا يتبدل، وأن اللغة إذا لم تكن تنزيلاً فكل شيء فيها مباح... إلى كلام آخر كثير مما يقال فيه: «وآخر من شكله أزواج»، وهو

كلام منقوض من جهاته كلها، لكن الذي يعينني منه هنا استشهاده على تجاوز القواعد النحوية بالقراءة المنسوبة للإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، برفع لفظ الجلالة ونصب «الْعُلَمَاءُ»، وعندي في هذه القراءة كلام كثير لا يتسع له هذا الموضوع، لكنني أوجزه فيما يلي:

أولاً: هذه قراءة منكرة، لا شاذة، كما ذكر الأستاذ حجازي، وفرق كبير في علم القراءات بين القراءة المنكرة والقراءة الشاذة، فالقراءة المنكرة مرفوضة، أما القراءة الشاذة فإن لها حدوداً ومعالم، وليس وصف القراءة بالشاذة غضباً منها أو تهمة لها، وإنما وصفت القراءة بالشذوذ لخروجها عن قراءة القراء العشرة المعترين. ولذلك يقول ابن جني في مقدمة كتاب المحتسب، عن هذا الشاذ: «إلا أنه مع خروجه عنها — أي عن القراءات العشر — نازع بالثقة إلى قرائه، محفوف بالرواية من أمامه وورائه، ولعله، أو كثيراً منه، مساو في الفصاحة للمجتمع عليه. ونعم وربما كان فيه ما تلطف صنعته، وتعنّف بغيره فصاحته . . . ».

القراءات الشاذة:

وقراء القراءات الشاذة أربعة من كبار علماء العربية وهم: ابن محيصر، ويحيى اليزيدي، والحسن البصري، وسليمان الأعمش. وقد ألفت كتب في ذكر قراءتهم وتوجيهها، وعندي من كتب توجيه القراءات الشاذة هذه ثلاثة كتب، أولها: المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لابن جني المتوفى سنة ٣٩٢هـ، ومختصر في شواذ القراءات لابن خالويه المتوفى سنة ٣٧٠هـ. والقراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب للشيخ عبد الفتاح القاضي، وهو عالم قراءات مصري كبير، توفي منذ عشر سنوات، سنة ١٤٠٣هـ، ولا ذكر لهذه القراءة المنسوبة لأبي حنيفة وللخليفة عمر بن عبد العزيز في هذه الكتب الثلاثة، وكذلك لم أجد لها ذكراً في كتاب الدمياطي: إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر.

ثانياً: ذكر الآلوسي في كتابه روح المعاني ١٩١/٢٢: أن صاحب النشر — وهو ابن الجزري — طعن في هذه القراءة. وقال أبو حيان في البحر المحيط ٣١٢/٢٧ بعد أن ذكر نسبة هذه القراءة إلى عمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة: «ولعل ذلك لا يصح عنهما، وقد رأينا كتباً في الشواذ ولم يذكروا هذه القراءة، وإنما ذكرها الزمخشري».

قلتُ: نعم ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣٠٨/٣، وعبارته: «فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، وهو عمر بن عبد العزيز ويحكى عن أبي حنيفة؟ قلتُ: الخشية في هذه القراءة استعارة. والمعنى: إنما يُجَلُّهم ويُعظمهم، كما يُجَلُّ المهيب المخشي من الرجال بين الناس من بين جميع عباده». انتهى كلام الزمخشري.

وتأمل قوله: «ويحكى عن أبي حنيفة»، فهو أسلوب غير قاطع بنسبة هذه القراءة إلى الإمام الأعظم. وأيضاً فإنَّ افراد الزمخشري بذكر هذه القراءة وتوجيهه لها على أسلوب الاستعارة يتفق مع منهجه الذي غلب عليه في تفسيره، وهو العناية بالمجاز والاستعارة وتزليل الكلام عليهما، وواضح أن تفسير الآية الكريمة على نصب لفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾ ورفع ﴿الْعُلَمَاءُ﴾ إنما هو على الخشية الحقيقية، وتفسيرها على العكس، بالرفع والنصب إنما هو على المجاز، كما سبق. فليس معنى الآية واحداً في القراءتين، كما فهم الأستاذ حجازي!

ثالثاً: لم يلتفت إلى هذه القراءة المنكرة أئمة المفسرين الثقات: من أمثال أبي جعفر الطبري، وأبي الفرج ابن الجوزي، وأبي الفداء ابن كثير، فلم يأت في تفاسيرهم شيء عنها البتة.

رابعاً: هذه القراءة المنكرة المنسوبة لأبي حنيفة ليست أول حكاية عن مخالفته لقواعد اللغة والنحو، فقد رُوِيَ عنه غيرها، كما تراه في ترجمة الخطيب البغدادي له في تاريخ بغداد ٣٣٢/١٣، ويرى المحققون أن الحامل للخطيب على

ذلك هو عصبية المذهب، وهي آكلة القلب، ومغمضة العين، ومطلقة اللسان، لأن الخطيب كان شافعي المذهب، ولذلك عاب عليه ابن خلكان في وفيات الأعيان ٤١٣/٥ مَسْلَكه هذا في ترجمة أبي حنيفة، وقال إنه كان الأليق به تركه والإضراب عنه.

ومن وراء ذلك كله: فإن الكلام في القراءات القرآنية طريق مخوف العواقب، ليس من باب الديانة فقط — وهي عزيزة علينا — ولكن من باب اللغة أيضاً وضروبها المتشعبة الشائكة. ولعل الشاعر الكبير الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي يريح نفسه من الحديث في قضايا اللغة والنحو، فإنها مجلبة للهم، تكد الذهن وتصدع الرأس، والسالك فيها لا يأمن العثرة بعد العثرة، والزلة إثر الزلة، والسعيد من وفقه الله.

رجاء صادق:

ثم أختتم برجاء صادق إلى الشاعر الأستاذ حجازي — وأنا أخاطبه بالشاعر قبل أي صفة — ألا يحرم قراءه ومحبيه من حديث الشعر والشعراء، وأن يخصص ذلك المكان المتاح له في «الأهرام» للشعر، فيمتعنا بشعره هو، أو يقدم لنا ما يختاره من شعر قديم أو محدث، بالتحليل والدرس والتذوق، فليس أقدر من الشاعر على شرح الشعر. وللشعر بهاء، وللنفس إليه نزوع، وللقلب به عُلقة. وقد قال الأول:

الشعر نار بلا دخان وللقوافي رُقى لطيفه
كم من ثقل المحل سام هَوّت به أحرف خفيفه

وكان أبو علي الفارسي إمام النحاة في القرن الرابع، يقول وقد جرى ذكر الشعر بحضرته: «إني لأغبطكم على قول الشعر! فإن خاطري لا يوافقني على قوله، مع تحقيقي بالعلوم التي هي من مواده».

ولم نر شاعراً اشتغل بقضايا اللغة والنحو والصرف، إلا أن يكون أبا العلاء، ومن مثل أبي العلاء؟ ولقد أسعدني زماني بمعرفة الشاعر العظيم محمود حسن

إسماعيل، وكان يؤثرنى بكلام حلو عال عن الشعر، وكيف يُكتب، وعن إحساسه بالحرف العربي.

وقد أكثر معي من الكلام حول معاني الشعر، وبخاصة عقب إصدار الشاعر العوضي الوكيل الجزء الثالث من «الديوان» — يعني ديوان العقاد والمازني — وعرض فيه تعريضاً شديداً بالشاعر محمود حسن إسماعيل، ويومها قلت له: لماذا لا تكتب يا أستاذ محمود هذا الكلام النفيس عن الشعر وحياتك معه وفهمك له؟ فقال: «إني شاعر» ولم يزد.

رحم الله الشاعر العظيم محمود حسن إسماعيل، وأطال في عمر الشاعر الكبير أحمد عبد المعطي حجازي، وللنحو والنحاة كل الحب والإجلال.



العامّة.. وقراءة التراث^(١)

كتب الأستاذ الدكتور عبد العظيم أنيس، في العدد السابق من الهلال، مقالة عن العالم الرياضي الشاعر عمر بن إبراهيم الخيامي الفارسي النيسابوري، المعروف عند جمهرة الناس باسم: عمر الخيام، المتوفى سنة ٥١٥هـ - ١١٢١م. وكان الخيام عالماً بالرياضيات والفلك واللغة والفقه والتاريخ، وهو صاحب «الرباعيات» التي أذاعت اسمه وأكسبته الشهرة في الشرق والغرب.

وقد افتتح الدكتور أنيس مقالته بكلمات جيد، قال فيها: لا بد أن يكون عمر الخيام هو الرياضي البارز الوحيد الذي اقترن اسمه في هذا العالم بالأندية الليلية والفنادق ومحال بيع الفطائر. ومن الغريب أنه لم ينشأ ناد واحد في العالم العربي لمناقشة إنجازاته الفذة في الرياضيات والفلك، ولا حتى ناد واحد لمناقشة الرباعيات المنسوبة إليه والتي اشتهر بها في الغرب، وإنما ارتبط اسمه للأسف الشديد بأندية اللهو والمجون في الشرق والغرب على السواء.

وقد أثارت هذه الكلمات أشجاناً قديمة حول بعض رموزنا التراثية العظيمة التي ارتبطت عند عامة الناس بمفاهيم خاطئة وتصورات غير صحيحة.

ولا سبيل إلى ذكر كل ما تمتلئ به الجعبة من هذه الرموز التي خلط الناس في أمرها تخليطاً منكراً، فلنكتف بذكر مثالين يشتركان مع عمر الخيام، في هذا الارتباط الخاطئ بين اسميهما وبين اللهو والمجون. وهما: الخليفة العباسي أبو جعفر

(١) مجلة «الهلال»، فبراير ١٩٩٣م.

هارون بن محمد بن المنصور، المعروف بهارون الرشيد، المتوفى سنة ١٩٣هـ،
ومعاصره وجليسه الشاعر أبو نواس، الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح
الحكمي بالولاء، المتوفى سنة ١٩٨هـ.

فأنت قلما تدخل فندقاً إلا وجدت فيه قاعة أفراح باسم هارون الرشيد أو أبي
نواس، إلى ما تراه من أسماء الملاهي الليلية والمطاعم ومحلات الحلوى التي
اختارت هذين الاسمين عنواناً وشعاراً، بحيث صار ذكر اسمهما جالباً للأفراح
والليالي الملاح والمباهج والمسرات.

أما ما وراء ذلك من التاريخ العريض لهذين العلمين، وأثرهما في الحضارة
العربية الإسلامية؛ فهو مما لا معرفة لعامة الناس به، بل إن الأمر قد تعدى العامة إلى
بعض الخاصة، وإن كنا لا نستطيع في هذا الزمان أن نجد فرقاً حاسماً بين العامة
والخاصة، فقد اختلط المرعى بالهمل. وأسأل من شئت من طلبة الجامعة، أو من
المتخرجين فيها، عن هذين العلمين، ولن تخرج إلا بما يدور حول اللهو والمجون،
وما يفضي إليهما وما ينتج عنهما.

على أننا لا نستطيع - حقاً وصدقاً - أن نحمل العامة وحدهم تبعة هذا الفهم
الخاطئ لتاريخ الرجلين، فمن أين جاءهم هذا الفهم، وكيف تتابعوا عليه؟

إن الأمر متصل بقضية كبرى: هي قضية الجرأة على التاريخ، والاستخفاف
بأيام الناس، ثم عدم إعطاء العقل حظه من الأناة والتتبع والتحري والصبر على
تكاليف الحق والإنصاف، وقهر الهوى الجامح.

ولا تقل إن الأمر في هارون الرشيد وأبي نواس متصل بالأدب الشعبي الذي
يستنزله من الشخصيات بعض صفاتها المثيرة فيضخمها ويتخذ منها مادة للتسلية
والترويح، كما نرى في «ألف ليلة وليلة» وما إليها. لا تقل هذا؛ لأن التخليط في أمر
الرجلين قد امتد إلى تلك الدراسات التي يفترض أن تكون قائمة على البحث الجاد،
والنظر الصحيح؛ لأنها تحمل أسماء وعنوانات توحى بالجد والصرامة العلمية.

هارون الرشيد وصور شائهة :

ولن يتسع المقام هنا لذكر ما كان من هذا التخليط في كتابات الدارسين المحدثين، لكنني أكتفي بذكر مثال واحد، من كتاب له عند الناس مكانة كبيرة، ذلكم هو كتاب «قصة الحضارة» لول ديورانت. يقول عن هارون الرشيد: «وتصور لنا القصص — وخاصة قصص ألف ليلة وليلة — هارون الرشيد، في صورة الملك المرح المثقف المستنير، العنيف في بعض الأوقات، الكريم الرحيم في أغلب الأحيان، المولع بالقصص الجميلة ولعاً يحمله على أن يسجلها ويحتفظ بها في ديوان محفوظات الدولة. وتبدو هذه الصفات كلها فيما كتبه عنه المؤرخون، إذا استثنينا منها مرحة، ولعل السبب في ذلك أن هذا المرح قد أغضب المؤرخين، فهم يصورونه أولاً وقبل كل شيء في صورة الرجل الورع المتمسك أشد التمسك بأوامر الدين، ويقولون إنه فرض أشد القيود على حرية غير المسلمين، وإنه كان يحج إلى مكة مرة كل عامين، وإنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة مع الصلوات المفروضة، ويقال: إنه كان يشرب الخمر، ولكن هذا لم يكن إلا سرّاً مع عدد قليل من خاصة أصدقائه. ويقال: إنه تزوج من سبع نساء...»، قصة الحضارة، الجزء الثاني من المجلد الرابع ص ٩٠، ٩١ — ترجمة الأستاذ محمد بدران. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٦٤م.

فهذه صورة شائهة مهزوزة لهارون الرشيد، تتأرجح بين المدح والذم، وقد استخدم فيها المؤلف «منهج العكس» حيث يقدم صورة الرشيد كما جاءت في ألف ليلة وليلة، وهي صورة «الملك المرح»، ولكن هذا المرح أغضب المؤرخين — وهو يقصد المؤرخين العرب المسلمين، بلا شك — فصوروه في صورة الورع المتمسك بالدين. فهؤلاء المؤرخون في نظر «ديورانت» كاذبون مزيفون، ساءهم مرح الرشيد، فاخترعوا له صورة معكوسة، عكس الواقع.

وفضلاً عن ذلك كله ففي كلام «ديورانت» خبط كثير، وجهل بتاريخ الأمة وشرعها. وتأمل قوله: «وتزوج من سبع نساء»، وقد علق على هذه العبارة مترجم

الكتاب رحمه الله، فقال في الحاشية: «لعل المؤلف يضيف الجواري إلى الأزواج؛ لأن الإسلام يحرم الزواج بأكثر من أربع»، وأقول: الصواب حذف «لعل» هذه.

ومن دقيق الفطنة هنا ما لاحظته الدكتور عبد العظيم الديب، قال: «إن ديورانت غير عبارة المؤرخين، فهم يقولون: «كان الرشيد يحج عاماً ويغزو عاماً»، فغيرها إلى «يحج كل عامين» وأسقط الغزو، وفي هذا ما فيه. (المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي للدكتور عبد العظيم الديب ص ١٠٨ — كتاب الأمة — قطر ١٤١هـ — ١٩٩٠م).

ونعم كان الرشيد رجلاً لا ينسى نصيبه من الدنيا، مقبلاً عليها، آخذاً حظّه منها، قال الأصمعي: «كان الرشيد يحب السمر ويشتهي أحاديث الناس». لكن وراء ذلك دنيا حافلة بالغرائب والعجائب. قالوا: لم يكن أحد أحظى بالشعر منه، كما ذكر الجاحظ في الحيوان ٣٨٣/٤ — أي أكثر احتفالاً بالشعر، وقد اجتمع على مدحه من الشعراء ما لم يجتمع على أحد: أبو العتاهية، ومروان بن أبي حفصة، وسلم الخاسر، وابن منذر، وأشجع السلمي، وكلثوم بن عمرو العتاسي، ومنصور النمري، والعماني الراجز. وفوق هؤلاء جميعاً صديقه الأثير أبو نواس.

ومن وراء الشعر والشعراء كانت عناية الرشيد بالفقه والحديث واللغة والأدب، وما ظنك بملك يجتمع عنده الشافعي، وأبو يوسف، ومحمد بن الحسن الشيباني، وسفيان بن عيينة، والفضيل بن عياض؟ وقد ألّف له أبو يوسف «كتاب الخراج»، وقرأ مقدمة هذا الكتاب، وتأمل وصية أبي يوسف للرشيد، ففيها من الإخلاص في النصيح، والصراحة في التوجيه ما لم يقدم عليه أبو يوسف إلا لأنه يعلم أنه سيجد من الرشيد صدراً واسعاً وأذناً واعية.

وما ظنك أيضاً بملك يجتمع عنده سيبويه والكسائي، ويتناظران بحضرته في المسألة النحوية الشهيرة، المعروفة بالمسألة الزنبورية؟ وبحضرته أيضاً تناظر الكسائي مع المفضل الضبي والأصمعي، وأبي محمد اليزيدي، وأبي يوسف (وانظر مجالس العلماء للزجاجي).

وقال الذهبي في وصفه: «وكان شهماً شجاعاً حازماً جواداً ممدحاً، فيه دين وسنة، مع انهماكه على اللذات والقيان، وكان أبيض طويلاً، سميناً مليحاً، وقد وخطه الشيب. وكان يصلي في اليوم مائة ركعة إلى أن مات، ويتصدق كل يوم من صلب ماله بألف درهم، وكان يخضع للكبار ويتأدب معهم». العبر في خبر من عبر ٣١٢/١. وقال في سير أعلام النبلاء ٢٩٠/٩: «ومحاسنه كثيرة، وله أخبار شائعة في اللهو واللذات والغناء، والله يسمح له».

فهذا الذهبي مؤرخ الإسلام يذكر كل جوانب هارون الرشيد، فلا ينشر الحسنات ويطوي السيئات، وهكذا جمهور مؤرخي العرب المسلمين، لا ما يذهب إليه ول ديورانت ومن لفّ لفّه.

ويقول السيوطي عن الرشيد في تاريخ الخلفاء صفحة ٢٨٤: «وكان يحب العلم وأهله، ويعظم حرّمات الإسلام، ويبغض المراء في الدين، والكلام في معارضة النص، وبلغه عن بشر المريسي القول بخلق القرآن، فقال: لئن ظفرت به لأضربن عنقه. وروي أن أبا معاوية الضرير حدثه بحديث: «احتج آدم وموسى» (انظر تمام الحديث في صحيح البخاري، كتاب الأنبياء ١٩٢/٤)، فقال رجل شريف من الحضور: فأين لقيه؟ فغضب الرشيد وقال: النطع والسيف، زنديق يطعن في الحديث! فما زال أبو معاوية يسكنه ويقول بادرة منه يا أمير المؤمنين، حتى سكن.

وقد سبق أنه كان يحج عاماً ويغزو عاماً، وكان يلبس قلنسوة مكتوباً عليها: غاز حاج، قال أبو المعالي الكلابي:

فمن يطلب لقاءك أو يُردّه فبالحرمين أو أقصى الثغور
وقد حكم الرشيد ثلاثاً وعشرين سنة، بلغت فيها الدولة الإسلامية شأواً عظيماً من الرقي والحضارة. يقول ابن دحية: «وفي أيامه كملت الخلافة بكرمه وعدله وتواضعه وزيارته العلماء في ديارهم».

وقد غزا الروم في القسطنطينية فصالحته الملكة إيريني، وافتدت منه مملكتها

بسبعين ألف دينار، تبعت بها إلى خزانة الخليفة في كل عام. ووثق علاقة الدولة ببعض ملوك الفرنجة، فكانت له صلات ومودة مع ملك فرنسا كارلوس الكبير الملقب بشارلمان، وكانا يتهاديان التحف، على ما هو معروف.

وبعد... فهل نطمح أن نرى اسم هارون الرشيد يتلأأ ويتضوأ على صدر جامعة عربية، أو يتزين به مركز بحث علمي، بدلاً من قاعة هارون الرشيد، وحلواني هارون الرشيد؟.

أبو نواس... صفحة مضیئة:

أما رفيقه أبو نواس فهو شاعر العربية في المائة الثانية بعد بشار بن برد، وهو يمثل صفحة مضیئة في كتاب الشعر العربي، جاء فملاً الأسماع وبهر الأنظار، واستوى في الإعجاب بشعره الجادون والهازلون؛ لأنه دار بين الجد والهزل. وقد خلط الناس في أمره قديماً وحديثاً. لكن المحنة في زماننا أن كثيراً من شباب هذه الأيام ممن نلقاهم أو نقعد منهم مقعد الدرس في الجامعة، لا يعرفون عنه إلا هذا الجانب الهازل الماجن، لأن بعض الدارسين يستهويهم هذا الجانب الماجن من حياة أبي نواس، فيطيلون الوقوف عنده، ويغدون ويروحون فرحين بما آتاهم علم التحليل النفسي. والإغراق في معطيات هذا العلم يحجب كثيراً من الحقائق، ويصد عن أبواب كثيرة من العلم، وقد يدخل الدارس في مضايق يعسر عليه التخلص منها إلا بخداع من القول وضروب من الاحتيال.

وشبابنا معذور أيضاً لأن ما يأتيه عن أبي نواس إنما يأتي كثير منه من تصورات العامة حول شخصية أبي نواس، وما تنسجه حوله من أخبار وحكايات يمتزج فيها الحق بالباطل، ويداخل الخير فيها الشر. ولست بحاجة إلى التذكير بما يسمونه «المعالجة الدرامية» في أفلامنا ومسلسلاتنا، وما يحدث في هذه المعالجة من اضطراب وتشويه للأحداث وتاريخ الرجال، ليسلم لهم ما يريدون من الإثارة والإمتاع.

وليس من غايتي هنا الحديث عن شاعرية أبي نواس، فهذا مما يعرفه الناس، ويلتمس من مظانه. لكن الذي يعنيني هنا هو الكشف عن الوجه الآخر لهذا الشاعر العظيم، وأن وراء هذه الشاعرية الجادة أو الماجنة عالماً كبيراً، هو من معالم هذه الأمة ومن رموزها العظيمة. وحسبك بشاعر يقف على بابه، ويخوض لججه، أئمة كبار، كابن السكيت، وابن جني، وأبي بكر الصولي، وحمزة الأصفهاني، ومهلهل بن يموت بن المزرع، وأبي هفان المهزومي!

قرأ أبو نواس القرآن الكريم على يعقوب بن إسحاق الحضرمي، أحد القراء العشرة، ولما حذق القراءة عليه رمى إليه يعقوب بخاتمه، وقال: اذهب فانت أقرأ أهل البصرة. وكتب الحديث عن أئمة: عبد الواحد بن زياد، ويحيى القطان، وأزهر السمان. ثم أخذ اللغة والغريب عن أبي زيد الأنصاري شيخ سيبويه، ونظر في كتاب سيبويه، وأخذ عن خلف الأحمر معاني الشعر، وعن أبي عبيدة معمر بن المثنى أخبار العرب وأيام الناس. وحفظ وحصل كثيراً، حتى روي عنه أنه قال: ما ظنكم برجل لم يقل الشعر حتى روى دواوين ستين امرأة من العرب، فما ظنكم بالرجال؟ وروي عنه أيضاً أنه قال: أحفظ سبعمائة أرجوزة، وهي عزيزة في أيدي الناس، سوى المشهورة عندهم.

والجاحظ يصفه بالعالم الراوية، الحيوان ٢٧/٢. وحكى ابن المعتز في طبقات الشعراء ص ٢٠١، قال: «كان أبو نواس عالماً فقيهاً، عارفاً بالأحكام والفتيا، بصيراً بالاختلاف (أي اختلاف الفقهاء في الأحكام) صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه. وقد تأدب بالبصرة، وهي يومئذ أكثر بلاد الله علماً وفقهاً وأدباً، وكان أحفظ لأشعار القدماء والمخضرمين وأوائل الإسلاميين والمحدثين».

وقال ابن منظور في مختار الأغاني ١٧/٣: «كان أبو نواس متكلماً جدلاً، راوية فحلاً، رقيق الطبع، ثابت الفهم في الكلام اللطيف».

وبعد... فهذه كلمات قلائل عن هارون الرشيد وأبي نواس، سقتها على

سبيل الوجازة والاختصار، وهي كلمات يعرفها أهل العلم من أساتذتنا وزملائنا، ولكنني أردت بها شباب هذا الجيل الذي غُيِّب عن تاريخه وتراثه بأسباب كثيرة من المسخ والتشويه والتضليل، وأردت بها أيضاً التنبيه إلى خطورة إخضاع رموزنا التراثية وقضايانا الفكرية لتوجيه العامة وسلطانها الغالب.

ومما ينبغي التنبه له أيضاً أن هذه العاميات قد مدت سلطانها الآن إلى تفسير القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر وسائر كلام العرب، ولست أعني بالعاميات: الألفاظ والأبنية والتراكيب، ولكنني أعني عاميات الفكر والتصور، وما أريد أن أشق عليك أيها القارئ الكريم بذكر الشواهد والمثل، فهو أمر متعالم مشهور، لكنني أذكر لك ما أراه الآن أمامي كتاب (الأدب العربي) المقرر على تلاميذ الصف الأول الثانوي. طبعة وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٩٢م / ١٩٩٣م، وقد كتب على غلافه: «الكتاب الفائز في مسابقة الوزارة سنة ١٩٩٠م». وفي أول الكتاب قصيدتان لعنترة بن شداد العبسي، صدرتا بهذه العبارة «نماذج من الشعر الجاهلي»، ومطلع القصيدة الأولى:

سكُّ فغر أعدائي السكوتُ وظُّنوني لأهلي قد نسيْتُ
ومطلع الثانية:

يا طائر البان قد هيَّجت أحزاني وزدتنني طرباً يا طائر البان
وهذا شعر بارد خفيف سخي، يبعد أن يكون من نمط الشعر الجاهلي، ويستحيل من كل الوجوه أن يكون من مذهب عترة الشعري. وفي القصيدة الأولى نقرأ هذا البيت:

خلقت من الحديد أشدَّ قلباً وقد بَلَّيَ الحديد وما بليتُ

وعجز البيت من العامية بمكان. وكنت في طفولتي بحي الدرب الأحمر أسمع بعض فتوات المغربلين يقولون: «الحديد بُلِّيَ واحنا لم بلينا» (وهذا من المواضع القليلة التي يستعمل فيها العامة الفعل مبنياً للمجهول) على أن الحديد أكثر ما يوصف بالصدأ، لا بالبلى.

أما التكرير في مطلع القصيدة الثانية فهو إلى التفاهة والسخافة ما هو!

وقد ذكر الأساتذة المؤلفون في حواشي الكتاب أن القصيدتين من ديوان عنتر بن شداد. نعم يا سادة، هما في الديوان، ولكن أي ديوان؟ لقد طبع ديوان عنتر عدة طبعات، أولاها — فيما أعلم — طبعة بيروت سنة ١٨٦٤م، بعنوان «منية النفس في أشعار عنتر عبس»، وقام على هذه الطبعة اسكندر آغا ابكار يوس، ثم تناسلت من هذه الطبعة بعد ذلك طبعات كثيرة، في بيروت ومصر، وكان آخرها بمصر بالمكتبة التجارية، بتحقيق وشرح عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي، وتقديم إبراهيم الإياري، وتشترك هذه الطبعات كلها، في أنها جمعت شعر عنتر كله، سواء ما كان منه صحيح النسبة إليه، أم ما جاء من طريق السيرة الشعبية لعنتر وهي التي يختلط فيها الغث بالسمين، والعالي بالنازل.

ثم يأتينا ديوان عنتر في دراسة علمية محققة على ست نسخ مخطوطة. من عمل الأستاذ محمد سعيد مولوي، وهو طالب علم سوري، حصل بهذا العمل المحقق الجيد على درجة الماجستير من كلية الآداب بجامعة القاهرة، بإشراف الدكتور شوقي ضيف، ومناقشة الدكتور عبد الحميد يونس، والدكتور يوسف خليف. وقد طبع هذا الديوان بالمكتب الإسلامي لصاحبه الأستاذ العلامة زهير الشاويش، دمشق ١٣٩٠هـ — ١٩٧٠م، وقد نشر الأستاذ المحقق ديوان عنتر بشرح أبي الحجاج يوسف بن سليمان المعروف بالأعلم الشنتمري، مع زيادات الوزير أبي بكر عاصم بن أيوب البطليوسي، وغيره من قدامى العلماء، ثم خلصه مما علق به من أخبار ومرويات السيرة الشعبية، فصار بهذا الديوان الذي لا ديوان لعنتر غيره. وتقرأ هذا الديوان الموثق المحقق من أوله إلى آخره، فلا تجد فيه أثراً لهاتين القصيدتين المقررتين على تلاميذ السنة الأولى الثانوية، وقد يكون من هؤلاء شاعر أو أديب...

وهكذا نقدم لأبنائنا في مراحل تعليمهم علماً غير موثق ولا مضبوط، ثم نصفهم بعد ذلك بالجهل والتسرع، وما هم إلا غرس الغارس، وبناء الباني:

ولو أن قومي أنطقتني رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت
(يقال: أجرت الفصيل: إذا شقت لسانه لثلا يرضع).

وروى الجاحظ في الحيوان ١٨٠/٥: «قيل لرجل: أبوك ذاك الذي مات
جوعاً؟ قال: فوجد شيئاً فلم يأكله؟».

والشكر بعد ذلك كل الشكر للأستاذ الدكتور عبد العظيم أنيس، فهو الذي
استخرج هذا الكلام من مجثمه، أحسن الله إليه، وأطال في عمره. لكن لي إليه
رجاء:

أن يعتمد التاريخ الهجري في ذكر الأحداث والأعلام العربية؛ لأن مراجعنا
التاريخية كلها (التاريخ العام والطبقات والحواليات) ثم أصول علمنا كلها منزلة على
ذلك التاريخ الذي لا تاريخ لنا غيره. وكنا إلى عهد قريب نلتزم بذكر التاريخ الهجري
وبعده الميلادي: على سبورة الفصل، وفي رأس الجريدة، وعلى غلاف الكتاب
المطبوع، وفي الشهادات الرسمية، وبراءة الأوسمة. بل إننا كنا نلتزم بذكر التاريخ
الهجري فقط، وإذا دخلت جامعة القاهرة، ووقفت أمام المبنى الرئيسي، قرأت هذه
العبارة:

«وضع الحجر الأساسي للجامعة في حفل من وجوه الدولة وأعلام الأمة في
يوم الثلاثاء لخمس عشرة خلت من شعبان سنة ست وأربعين وثلاثمائة وألف
للهجرة».



إقراء القرآن بمصر^(١)

(وفيه ترجمة الشيخ عامر عثمان)

في عدد يوليو ١٩٩٢ م من «الهلal» كتبت كلمة عن «الشيخ مصطفى إسماعيل وقراء مصر»، جعلتها تحية وصلة لكتاب أستاذنا الكبير الناقد الشاعر كمال النجمي، عن الشيخ مصطفى إسماعيل رحمه الله.

والحديث عن قراءة القرآن وإقراءه بمصر، لا بد فيه من التفرقة بين «القارىء» و «المقرىء»، ومعروف أن لمصر في الفريقين تاريخاً عريضاً وأياماً زاهية.

فالقارىء: هو الذي يقرأ لنفسه وقد يسمعه غيره. والمقرىء: هو الذي يُقرىء غيره، تعليماً وتوجيهاً، وتقول اللغة: «رجل قارىء»، من قوم قراء وقراءة — بوزن فعلة — وقارئ، وأقرأ غيره يُقرئه إقراءً، ومنه قيل: فلان المقرىء». وبهذه التفرقة بين الفعل اللازم والفعل المتعدي يحسن أن نقول عن الذي يقرأ بصوت حسن في المناسبات وفي الإذاعة، كالشيخ مصطفى إسماعيل ومن إليه: قارىء، ونقول عن الذي يحفظ الصغار في الكتاتيب وجماعات تحفيظ القرآن: مقرىء.

على أنه قد يجتمع الفريقان في جمع التكسير، فيقال: «القرءاء» لمن يقرأ ولمن يُقرىء، وعلى هذا سَمَّى الحافظ الذهبي كتابه: «معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار»، وابن الجزري كتابه: «غاية النهاية في اختصار طبقات القراء».

(١) مجلة «الهلal»، مارس ١٩٩٣ م.

على أن «للمقرء» في تاريخنا التراثي معنى أوسع وأشمل من مجرد تحفيظ القرآن للصغار ومن فوقهم. فالمقرء: هو ذلك العالم الذي يعرف القراءات القرآنية: رواية ودراية، بحيث يكون قادراً على جَمْع الطرق والروايات، ومعرفة وجوه الخلاف بين القراء، والاحتجاج للقراءات وتوجيهها من لغة العرب، ويكون أيضاً متقناً لطرق الأداء — وهو ما يُعرف الآن بعلم التجويد — ووقوف القرآن: الكافي منها والتام والحسن، ثم يتلقى الناس عنه ذلك كله مشافهة وسماعاً.

وقد نبغ في كل زمان ومكان من قاموا بهذا الأمر على خير وجه، فضلاً من الله وحياطة لكتابه وحفظاً له، ولم يكن لمصر على سواها من الدول العربية والإسلامية فضل وزيادة، فهو رزق الله المقسم على خلقه شرقاً وغرباً، ليتم وعده ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧]، لكن الأمر كاد يخلص لمصر في القرنين الأخيرين، فتربع قراؤها على عرش الإقراء والقراءة: رواية ودراية وجمال صوت، وصارت الرحلة إليهم من الشرق ومن الغرب، ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة ذكرتها في مقالتي عن «الشيخ مصطفى إسماعيل».

ويذكر التاريخ أسماء عظيمة لمعت في سماء مصر في القرنين الأخيرين، وخدمت كتاب الله إقراءً وتأليفاً. ومنهم الشيخ محمد أحمد المتولي المتوفى سنة ١٣١٣هـ = ١٨٩٥م، والشيخ محمد مكي نصر المتوفى بعد سنة ١٣٠٨هـ، وهو صاحب أعظم كتاب في طرق الأداء وصفات الحروف ومخارجها «نهاية القول المفيد في علم التجويد»، والشيخ علي محمد الضبّاع المتوفى سنة ١٣٨٠هـ = ١٩٦١م.

ومن المعاصرين: الشيخ المقرء العالم عبد الفتاح عبد الغني القاضي المتوفى سنة ١٤٠٣هـ = ١٩٨٢م، والشيخ إبراهيم علي شحاتة المقيم الآن بسمّوود، والشيخ أحمد عبد العزيز أحمد محمد الزيات، الأستاذ بكلية القرآن بالمدينة النبوية الآن، ويقال: إن الشيخ الزيات هو أعلى القراء الآن إسناداً (وعلو الإسناد معناه قلة

الوسائط بين القارئ الآن، وبين القارئ الأول، وهو المصطفى ﷺ بما نزل به جبريل عليه السلام، عن رب العزة والجلال).

الشيخ عامر عثمان:

ويقف سيدي وشيخي الشيخ عامر السيد عثمان بين هؤلاء الكوكبة من القراء المعاصرين في مكان ضخم بارز، فهو أكثرهم إقراء للناس، واتصالاً بهم، وتأثيراً فيهم.

وقد عرفته منذ عشرين عاماً قبل وفاته حين بدأ العمل في تحقيق كتاب «لطائف الإشارات في علم القراءات» لشهاب الدين القسطلاني، شارح البخاري، المتوفى سنة ٩٢٣هـ، بالاشتراك مع الدكتور عبد الصبور شاهين.

وكان الشيخ يتردد على دار الكتب المصرية ومعهد المخطوطات - وكنت يومئذ أعمل به - فشدني إليه، ورغبني فيه، ودعاني إلى حلقة العامة الممتدة على أيام الأسبوع كله، فوقفت منه على علم غزير جم، وتمثلت فيه وبه هذه الأوصاف الإضافية التي تأتي في كتب التراجم والطبقات، ويظنها من لا علم عنده بتاريخ الأمة، وأحوال الرجال، من المبالغات والتهاويل التي يغص بها تاريخنا... زعموا!

نعم رأيت في هذا الشيخ الجليل كثيراً مما كنت أقرأه في طبقات القراء والمحدثين والفقهاء والأدباء: من سعة الرواية، وكثرة الحفظ، وجمع الطرق، ودقة الضبط، وتحريرو الرواية، وحسن الإتيان.

ولد شيخنا الشيخ عامر، رحمه الله، بقرية «ملامس» مركز منيا القمح، محافظة الشرقية، في ١٦ مايو سنة ١٩٠٠م. وحفظ القرآن الكريم بمكتب الشيخ عطية سلامة، وأتمه ولم يتجاوز التاسعة من عمره، ثم أرسله والده إلى المسجد الأحمدى بطنطا، وتلقى القرآن بقراءة الإمام نافع المدني، من فم عالم القراءات الشيخ السعودي. وقد أوتي الشيخ عامر في صباه حظاً من حسن الصوت أهله لأن يكون قارئاً مرموقاً بمحافظة الشرقية، يقرأ في الليالي والمناسبات، وهو طريق جالب

للرزق الواسع والشهرة المستفيضة، ولكنه عزف عن ذلك وولى وجهه شطر القاهرة، حيث الأزهر الشريف، وأئمة القراءة والإقراء.

وفي القاهرة أخذ في القراءة والتلقي والمشافهة والعرض والسماع، فتلقى القراءات العشر الصغرى من طريق الشاطبية والدرة، على الشيخ محمد غنيم، وهو على الشيخ حسن الجريسي الكبير، وهو على العلامة المقرئ أحمد الدري التهامي، وسنده إلى رسول الله ﷺ، معروف.

ثم تلقى القراءات العشر الكبرى على الشيخ علي عبد الرحمن سبيع، من أول القرآن إلى قوله تعالى في سورة هود (وقال اركبوا فيها)، ثم إن الشيخ علياً أرسل خلف الشيخ عامر يقول له: سوف نبدأ بعد ثلاثة أيام، فقال له الشيخ عامر: كيف سنبدأ بعد ثلاثة أيام يا سيدي ونحن قد وصلنا إلى قوله تعالى: (وقال اركبوا فيها)؟ فقال له الشيخ علي: «بعدين ح تعرف»، ثم توفي الشيخ بعد ثلاثة أيام من هذا الكلام. وكان شيخنا الشيخ عامر إذا ذكر هذه القصة اغرورقت عيناه بالدموع، ويقول: «فكان معنى كلام الشيخ علي أن أيام الآخرة بالنسبة له ستبدأ بعد ثلاثة أيام». وتوفي الشيخ علي سبيع هذا سنة ١٩٢٧ م.

ثم إن الشيخ عامر شرع في ختمة جديدة على تلميذ الشيخ علي سبيع، وهو الشيخ همام قطب، فقرأ عليه ختمة كاملة بالقراءات العشر الكبرى، من طريق الطيبة بالتحريز والإتقان، وقرأ الشيخ همام على الشيخ علي سبيع المذكور، وهو على الشيخ حسن الجريسي الكبير، وهو على الشيخ محمد المتولي، وهو على الشيخ أحمد الدري التهامي، وسنده معروف.

حلقة للإقراء بالأزهر:

وهكذا عرف شيخنا الطريق ولزمه. وبعد أن رسخت قدمه في هذا العلم، رواية ودراية، اتخذ لنفسه حلقة بالجامع الأزهر سنة ١٩٣٥ م للإقراء والتدريس، وكان في أثناء ذلك مكباً على مخطوطات القراءات بالمكتبة الأزهرية ودار الكتب

المصرية، يقرأ وينسخ، فظهر نبوغه ولفت إليه الأنظار، فاتصل به الشيخ علي محمد الضبّاع، شيخ المقارئ المصرية يومئذ، واستعان به في تحقيقات القراءات العشر الكبرى.

وكان رحمه الله حجة في رسم المصحف الشريف، وقد شارك في تصحيح ومراجعة كثير من المصاحف التي طبعت بمطابع الحلبي والشمري، والمطبعة الملكية في عهد الملك فؤاد والملك فاروق رحمهما الله.

وحين أنشئ معهد القراءات تابعاً لكلية اللغة العربية بالأزهر الشريف، سنة ١٩٤٣م كان الشيخ على رأس مشايخه وأساتذته، فتخرّجت على يديه هذه الأجيال الكريمة من خدمة كتاب الله والعارفين بعلومه وقراءاته بمصر وخارج مصر.

ولما أنشئت مصر — غير مسبقة — إذاعة القرآن الكريم سنة ١٩٦٣م، وقدمت من خلالها (المصحف المرتل) أشرف الشيخ على التسجيلات الأولى من هذا المشروع العظيم، وكانت بأصوات المشايخ: محمود خليل الحصري، ومصطفى إسماعيل، ومحمد صديق المنشاوي، وعبد الباسط عبد الصمد، ومحمود علي البنا، رحمهم الله أجمعين.

وعلى ذكر الإذاعة فقد كان شيخنا عضواً بارزاً في لجنة اختيار القراء، وكان سيفاً بتاراً، حازماً صارماً في غربلة الأصوات وإجادتها، ولم يكن يقبل الميوعة أو تجاوز الأصول في القراءة والأداء، وطالما اشتكى منه القراء، ورموه بالتعسف والتشدد، وضغطوا عليه بوسائل شتى، ولكنه لم يلبس ولم يضعف، وكذلك كان يفعل في لجنة اختيار القراء الذين ترسلهم وزارة الأوقاف المصرية إلى البلدان العربية والإسلامية في شهر رمضان. وقد حُورب كثيراً في لجنة اختيار القراء بالإذاعة المصرية، وطلب إقصاؤه أكثر من مرة، وكان الذي يقف وراءه مدافعاً ومنافحاً: الشاعر الفحل محمود حسن إسماعيل، إذ كان مستشاراً ثقافياً بالإذاعة المصرية، رحمهما الله تعالى.

مؤلفات الشيخ :

شغل الشيخ رحمه الله بالإقراء أيامه كلها، فلم يجد وقتاً متسعاً للتصنيف، ولكن الله سبحانه يسر له أن يترك بعض الآثار العلمية في فن القراءات، حتى تكون باعثاً لمن يطالعها أن يدعو له بالمغفرة والرضوان. فمما يحضرني الآن هذه التصانيف الآتية، ولست أدعي فيها الحصر:

١ - فتح القدير شرح تنقيح التحرير (في تحرير أوجه القراءات العشر من طريق الطيبة).

٢ - شرح على منظومة العلامة الشيخ إبراهيم علي شحاتة السمثودي، أبقاه الله، في تحرير طرق ابن كثير وشعبة. فرغ منه يوم الجمعة ٢٥ من صفر سنة ١٣٨٢هـ.

٣ - تنقيح فتح الكريم في تحرير أوجه القرآن العظيم، بالاشتراك مع الشيخ إبراهيم علي شحاتة والشيخ أحمد عبد العزيز الزيات. وهو نظم منقح من منظومة فتح الكريم في تحرير أوجه القرآن العظيم، للعلامة شيخ القراء في وقته الشيخ محمد بن أحمد المتولي، المذكور قبل.

٤ - كيف يُتلى القرآن، وهي رسالة موجزة محررة في تجويد القرآن: سمّاها: إملاء ما منَّ به الرحمن على عبده عامر بن السيد عثمان في أحكام تلاوة القرآن. وقد أملاها على أحد تلاميذه الذين يحضرون مقارنه، وهو الطبيب الجراح الدكتور حسني حجازي، رحمه الله. وقد صدرت الطبعة الثانية من هذه الرسالة سنة ١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م.

٥ - تحقيق الجزء الأول من كتاب «لطائف الإشارات» الذي ذكرته من قبل. صدر عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة عام ١٣٩٢، ولعل المجلس ينشط في طبع بقيته.

٦ - أعان الأستاذ الدكتور شوقي ضيف في تحقيق كتاب «السبعة» لابن

مجاهد، الذي نشرته دار المعارف بمصر أول مرة سنة ١٣٩٢هـ = ١٩٧٢م. وذلك بمراجعة كتابة آياته الكريمة على هجاء المصاحف المصرية المضبوطة، على ما يوافق رواية حفص عن عاصم، والمطابقة لما رواه علماء الرسم عن هجاء المصاحف التي بعث بها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار الإسلامية.

٧ — وكانت آخر أعمال الشيخ مشاركته في لجنة طبع مصحف الملك فهد بن عبد العزيز، الذي صدر بالمدينة النبوية عام ١٤٠٥هـ.

فهذا ما يحضرني الآن مما تركه الشيخ من علم مسطور مكتوب. أما أبقى أثر للشيخ وأخلده وأرجحه في موازينه إن شاء الله تعالى، فهو تلك المقارء التي جلس فيها جلوساً عاماً للناس، وقد شغلت هذه المقارء أيامه كلها، وأشهر هذه المقارء مقراً الإمام الشافعي يوم الجمعة، وقد أسندت إليه مشيختها عام ١٩٤٧م وكان عدد الذين يحضرونها من القراء الرسميين أو المعتمدين من وزارة الأوقاف المصرية محدوداً جداً بجانب مختلف طوائف الناس التي كانت تحضر تلك المقراً وغيرها من المقارء، فكانت ترى الطبيب والمهندس والضابط والمحامي والموظف والتاجر والحرفي، والفتى الصغير، والشاب اليافع، والشيخ الفاني، مختلف الأعمار والمهن، يتحلقون حول الشيخ؛ يقرأون ويصحح، عيونهم مشدودة إلى شفتيه، وهو يروّضهم على النطق الصحيح، يصبر على الضعيف حتى يقوى، ويرفّق بالمتعثر حتى يستقيم، لا يسأم ولا يمل، ولا زلت أذكره — رحمه الله — وهو يروّض بعض إخواننا على ترقيق اللام من قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّهِنَّ أَضْلَلْنَ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وكان عسراً على هذا الأخ أن يرقق اللام بعد الضاد، فكان شيخنا يقرأ أمامه (أضللن) على مقطعين هكذا: (أض) (لنن) ويكرر المقطعين منفردين ثم يقرأهما معاً حتى يخلص له الترقيق المراد. وكذلك لا زلت أذكره وهو يروّضنا على الخروج من التفخيم إلى الترقيق وبالعكس، في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فأنت هنا تفخم الراء وإن كان قبلها كسر؛ لأنه كسر عارض للتخلص من التقاء الساكنين، ثم ترقق التاء وتعود إلى تفخيم الضاد، وهكذا كنت تقضي العجب وأنت

تنظر إلى حركة فكيه وشفتيه وجريان لسانه في إعطاء كل حرف حقه ومستحقه: من الهمس والجهر والغنة والإظهار والإخفاء والإقلاب والفك والإدغام، وغير ذلك من دقائق الصوتيات، مما لا تستطيع معامل الأصوات أن تنقله بدقة إلى الطالب لأن هذا العلم — علم الأداء — قائم على التلقي والمشافهة.

ولو كان لي من الأمر شيء لأتيت بشيخ من علماء القراءات في كل قسم من أقسام اللغة العربية بجامعاتنا ليعمل على تدريب الطلبة على الأداء الصحيح والنطق السليم، بجانب معامل الأصوات الحديثة. وهؤلاء المشايخ (الغلاية) لن يأخذوا من الأجر أكثر مما تستهلكه هذه المعامل من طاقة وكهرباء، بل إنني أذهب إلى أبعد من هذا في التمني: وهو أن يعين شيخ من هؤلاء القراء مشرفاً خارجياً مع المشرف الأكاديمي لكل رسالة علمية (ماجستير أو دكتوراه) تتصل بعلم القراءات من قريب أو بعيد.

ومن تفنن شيخنا في مجال الأداء الصوتي: أنه كان يأخذنا إلى تفرقة دقيقة لطيفة، في الوقف على الرء من قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ [القمر: ١٦]، وقوله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣]، فالراء في الآية الأولى يستحسن أن يوقف عليها بترقيق لطيف يشعر بالياء المحذوفة؛ لأن أصلها (ونُذري) بإثبات ياء الإضافة، وقرأ بها ورش بن سعيد المصري، عن نافع المدني. ومن القراء المعاصرين الذين سمعهم يراعون ذلك الترقيق اللطيف المشايخ: محمود خليل الحصري، ومحمود حسين منصور، ومحمد صديق المنشاوي.

أما الرء في الآية الثانية فيوقف عليها بالتفخيم الخالص؛ لأنها جمع نذير.

وأما «النبر» في مصطلح علم اللغة الحديث — وهو النظام المقطعي في قراءة الكلمة، فقد كان الشيخ رحمه الله آية فيه، وقد سأله عنه يوماً، فقال لي: «إن القراء لم يذكروا هذا المصطلح، ولكنه بهذه الصفة يمكن أن يُسمَّى «التخليص»، أي تخليص مقطع من مقطع». وها أنا ذا أضع هذا المصطلح أمام علماء اللغة المحدثين ليروا فيه رأيهم، ولعلمهم يحلونه محل «النبر». وقد سمعت لهذا «التخليص» من

الشيخ أمثلة كثيرة جداً، أذكر منها قوله تعالى: ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ﴾ [القصص: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿ فَكَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحديد: ١٦]، وقوله عز وجل: ﴿ وَسَاءَ لَمُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴾ [طه: ١٠١]، فأنت لو ضغطت على الفاء في الآية الأولى صارت من الفسق لا من السقي، وإن لم تضغط على الفاء في الآية الثانية صارت من الفقس لا من القسوة. أما في الآية الثالثة فلا بد أن تخلص (ساء) من (لهم) حتى يكون من السوء لا من المساءلة، لو خطفتها خطفة واحدة. هكذا كان يعلمنا الشيخ، إلى أمثلة كثيرة لا أحصيتها عدداً. لكنني أذكر أن أحدهم قرأ مرة أمام الشيخ: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين: ٦]، وخطف (فلهم) خطفة واحدة ضاعطاً على الفاء، بحيث صارت الكلمة كأنها فعل ماض مسند إلى ضمير الجماعة، مثل: ضَرَبَهُمْ، فقال له الشيخ: (مَقْلَهُمْش) يريد رحمه الله أن يقول إنه ليس فعلاً واقعاً عليهم، وأن هذه البنية من مقطعين (ف) (لهم).

وكان الشيخ صاحب دعابة، فكان إذا قرأ أحدهم على غير الجادة يقول له مستفهماً مستنكراً: إنت جودت القرآن في ألمانيا؟ وقرأ بعضهم أمامه برواية خلف عن حمزة، ولم يكن متقناً للرواية، فقال له: «قوم يا شيخ، دانا كنت باحسبك خلف الحباب»، وقرأ آخر أمامه وتحنن في صوته تحناً ظاهراً في تكسر، فقال له الشيخ: «مافيش فايده» يريد أنه يقلد صوت «فايدة كامل»، فقد كان في صوته تلك السمات التي عرفت بها هذه المغنية قبل أن تشتغل بالسياسة.

وكان للشيخ حس دقيق جداً في تقييم الأصوات والحكم عليها، وقد لا يعرف كثير من الناس أن الشيخ رحمه الله، درس علم الموسيقى بمعهد فؤاد الأول للموسيقى العربية أول إنشائه.

وكما كانت معرفة الشيخ بمخارج الحروف وصفاتها عظيمة، كانت عنايته بالوقوف: تامها وحسنها وكافيها، عالية جداً، وكان يأخذ على بعض كبار القراء تهاونهم في تعهد الوقوف ومراعاتها، وكان يصارحهم بذلك فيغضبون.

وكان شيخنا رحمه الله يتشدد في الوقوف على رؤوس الآي: لأنها سنة، ولو

تعلقت الآية بما بعدها . فإذا كانت الآية التالية مقول قول في الآية الأولى ، وكان البدء بمقول القول هذا مما يوهم أن يكون إقراراً من القارئ وليس من المحكي عنه ، وقف على رأس الآية الأولى اتِّباعاً للسنَّة ، ثم يستأنف الآية الثانية تالياً الفعل السابق في الآية الأولى . مثال ذلك قوله تعالى في سورة الصافات : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهَمْ يَقُولُونَ ﴾ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ [الصافات : ١٥١ ، ١٥٢] ، يتلوها هكذا : ألا إنهم من إفكهم ليقولون . ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون . وما أكثر ما علّمنا هذا الإمام الكبير !

ومع حرص الشيخ على كمال الأداء وحسن التجويد ، فقد كان يعيب على بعض القراء المبالغة في ذلك ، ويراه لونا من التنطع والشقشقة . وللفادة هنا فإني أذكر بأن مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي المتوفى سنة ٤٧٨ هـ ، قد أخذ على قراء زمانه مبالغتهم في التجويد والتقعر في إخراج الحروف ، وذلك في رسالة له لطيفة مطبوعة ، سمّاها «بيان زغل العلم» ، وهي رسالة نافعة ، عرض فيها الذهبي لأخطاء أهل العلم .

نور القرآن :

وقد أضاء شيخنا القاهرة كلها بنور القرآن ، فلم تكن مقراءة الإمام الشافعي هي المكان الوحيد الذي يجلس فيه للإقراء ، فقد كان يبدأ يومه عقب صلاة الفجر بالإقراء بمسجد السيدة زينب ، حيث يسكن الشيخ قريباً من المسجد الزينبي ، وهناك مقارئ أخرى يحضرها الشيخ منها مقراءة بمسجد النقشبندي بجوار مستشفى أحمد ماهر بالقرب من باب الخلق ، وكان مواعدها يوم السبت ، ومقراءة الجمعية التعاونية للبترول بشارع قصر العيني ، يومي الاثنين والثلاثاء ، ومقراءة يوم الأربعاء بمسجد بمنزل الحناوي بجاردن سيتي .

وقد تفرع من هذه المقارئ مقارئ أخرى ، منها مقراءة الدكتور صادق بمنطقة الحلمية ، بالقرب من القلعة . وهذا الدكتور صادق طبيب أطفال ، وقد تلقى عن الشيخ القراءات السبع . وفي صوت هذا القارئ الطبيب صفاء وخشوع يأخذان بمجامع القلوب .

ومقرأة بمسجد يوسف الصديق بميدان الحجاز بمصر الجديدة، يقوم عليها
القارئ الطبيب الدكتور عوض الأستاذ بكلية طب الأزهر، ومقرأة بمسجد مصطفى
محمود بالمهندسين، يقوم عليها الحاج حسين، وهو صاحب معرض ملابس، وقد
لازم الشيخ كثيراً بزاوية النقشبندية. وتلامذة الشيخ كثيرون، أذكر منهم الأديب
الأستاذ عبد العزيز العناني، وهو مؤرخ للموسيقى العربية، لا تجد له في بابه نظيراً،
ألبسه الله ثوب الصحة والعافية.

ومن الوزراء الذين قرأوا على الشيخ ولازموه ونوّروا به مجالسهم: السادة
عبد المحسن أبو النور، وتوفيق عبد الفتاح، وعبد الرحمن الشاذلي، وإبراهيم
سالم. ويأتي على رأس هؤلاء جميعاً الرجل التقي النقي — ولا نزكي على الله أحداً —
الدكتور إبراهيم بدران. وكان من أبر الناس بشيخنا، وقد حمّله وأعد له مكاناً رحباً
بالمستشفى الذي يملكه بالمهندسين، وأقام عليه من يخدمه ويتولى أمره، وخصص
له سيارة تحمله إلى حيث يشاء، وذلك بعد وفاة زوجته، رحمهما الله جميعاً.

وقد أفاد من علم الشيخ نساء كثيرات، منهن السيدة سميحة أيوب، وإذا تأملت
أدائها في النصوص المسرحية الفصيحة رأيت أمارات ذلك. ومنهن السيدة مفيدة
عبد الرحمن، المحامية الشهيرة. ولهذه السيدة الفاضلة بالقرآن وخدمته نسب وثيق،
فأبوها هو: عبد الرحمن محمد، صاحب المطبعة الكائنة بحي الصنادقية بالأزهر
الشريف. وقد تخصصت هذه المطبعة في طبع المصحف الشريف منذ زمن بعيد.

تلاميذ الشيخ في كل مكان:

على أن لشيخنا الشيخ عامر أثراً آخر مباركاً، غير التصنيف والإقراء: هو هذا
العون الظاهر الذي قدّمه لهذا نفر من الجامعيين الذين اتخذوا من علم القراءات
ميداناً لدراساتهم الصوتية والتاريخية، يحضرني منهم الأساتذة: عبد الفتاح إسماعيل
شلبي، وأحمد علم الدين الجندي، وعبد الصبور شاهين، إلى كثير من المعيدين
والمبتدئين الذين كانوا يختلفون إليه لتجلية غامض، أو كشف مبهم من هذا العلم
الذي هو علم العربية بحق.

وعلى الجملة فتلاميذ الشيخ والمتفعون بعلمه لا يُحصَوْنَ، داخل مصر وخارجها، وكنت أرى كثيراً من أبناء الدول العربية والإسلامية، بل من المستشرقين، يأتون إليه، ويجلسون في حلقاته، ويا ليتني أحصيتهم عدداً، وقيدت أسماءهم وأسماء بلدانهم وأعمارهم، إحياء لسنن قديمة في تراثنا التاريخي، من ذكر الواردين على البلاد، والمرتحلين إلى الشيوخ.

وفي سنواته الأخيرة اختار شيخنا المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام — مستقراً ومقاماً، حيث دعي إلى هناك لمراجعة مصحف الملك فهد، وللتدريس بكلية القرآن بالجامعة الإسلامية.

وفي مساء يوم الخميس، وقبل فجر يوم الجمعة الخامس من شوال سنة ١٤٠٨ هـ الموافق للعشرين من مايو سنة ١٩٨٨ م، اختار الله إلى جواره عبده وخادم كتابه: عامر السيد عثمان، وصُلِّي عليه بالمسجد النبوي الشريف عقب صلاة الجمعة، ودُفن بالبقيع، مرحوماً مرضياً عنه إن شاء الله.

اللهم اغفر له وارحمه، وعافه واعفُ عنه، واجعل كل ما قدّمه من خدمة كتابك في موازينه يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً. وهىء لهذه الأمة من يخلف هؤلاء الرجال العظام، ويقوم مقامهم، حياطة لدينك، وحفظاً لكتابك. إنك على ما تشاء قدير.



قصيدة نادرة في المديح النبوي^(١)

جاء محمد بن عبد الله ﷺ على فترة من الرسل، فانتهت به الرسالات، وخُتمت به النبوات، وقد بعث إلى الناس كافة؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى صراط ربه المستقيم.

وقد قضى ﷺ ثلاثاً وعشرين سنة، بين مبعثه ووفاته يدعو الناس إلى التوحيد، ويبلغهم قرآن ربه الذي يشتمل على صلاح أمورهم في دنياهم وآخرتهم.

وكانت سنته الشريفة، أفعالاً وأقوالاً وتقريراً هي المصدر الثاني للتشريع، وهي الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٥١]، وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهَا﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

ثم كانت سيرته العطرة مجلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. وتصديق قول عائشة رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن»، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فقد اصطفاه من بين خلقه اصطفاه وقرأ بعض القراء: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، بفتح الفاء على معنى: من خياركم، من قولهم: هذا أنفُسُ المتاع، أي أجوده وخياره — ثم هداه إلى الطيب من القول، والمرضي من السلوك، وعصمه من كل شبهة، وارتفع به عن كل نقیصة وبرأه من كل

(١) مجلة «الهلal»، سبتمبر ١٩٩٣ م.

عيب، وحقه بالضياء، وغشاه بالنور، فكان الإعجاب به والثناء عليه مما تقتضيه
الفطر السوية والطباع النقية إذ كان ﷺ صورة للكمال الإنساني.

هذا وقد كان الشعر أسبق من النثر في مديحه ﷺ والثناء عليه، فلئن كان النثر
قد مدَّ أسبابه في الحديث عنه عليه السلام، فيما عُرف بكتب السيرة النبوية والشمال
والخصائص، فإن ذلك لم يكن إلا بعد وفاته عليه السلام، بل وانقضاء عصر
الراشدين، وذلك في نهاية القرن الأول، وأوائل القرن الثاني.

أما الشعر فقد صحبه ﷺ منذ صدَّعَ بأمر ربه، ولقي من إعراض كفار قريش
وأذاهم ما لقي، ولعل عمه أبا طالب هو أول من فتح هذا الباب العظيم: باب المدائح
النبوية، وإن كانوا قد طعنوا في كثير مما قال فإنهم قد سلَّموا له بقصيدته اللامية
الطويلة.

يقول محمد بن سلام الجمحي: «وكان أبو طالب شاعراً جيد الكلام، أبرع ما
قال [قصيدته] التي مدح فيها النبي ﷺ:

وأبيضُ يُسْتَسْقَى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمةً للأراملِ
وقد زيد فيها وطوِّلت، ورأيت في كتاب يوسف بن سعد صاحبنا منذ أكثر من
مائة سنة: وقد علمت أن قد زاد الناس فيها ولا أدري أين منهاها. وسألني الأصمعي
عنها، فقلت: صحيحة جيدة! قال: أتدري أين منهاها؟ قلت: لا». طبقات فحول
الشعراء ص ٢٤٤.

ومن أقدم ما قيل في مديحه عليه السلام أيضاً قصيدة الأعشى الكبير ميمون بن
قيس، التي مطلعها:

ألم تَغْمِضْ عيناك ليلةً أرمداً وعادك ما عاد السليم المسهدا
وفيها يقول:

نبي يرى ما لا ترون وذكره أغار لعمرى في البلاد وأنجدا

له صدقات ما تُغَبّ ونائل وليس عطاء اليوم مانعه غدا
وللنقاد ومؤرّخي الشعر في هذه القصيدة مقال.

ثم كان شعراء الصحابة المشاهير: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك،
وعبد الله بن رواحة، وقد اختلط مديحهم له عليه السلام بالحديث عن الدين الجديد
ومناوأة المشركين، ولم يكن هؤلاء الثلاثة وحدهم على الساحة، فقد ذكر الحافظ
ابن سيد الناس اليعمري المتوفى ٧٣٢هـ نحواً من مائة وتسعين صحابياً وصحابية
عطروا ألسنتهم بمدحه ﷺ، وجمع ذلك في كتابه سَمَاء (مِنَح المدح) وهو مطبوع
متداول.

وينقضي عصر الصحابة، ويداول الله الأيام بين الناس، فتذهب أيام وتأتي
أيام، وتُثَل عروش وتقوم عروش، ويتقلب الناس بين قديم وجديد وطارف وتليد،
ولا زال ذكره الشريف يؤنس الغريب، ويطب الجريح، ويرد الضال ويهدي الحائر،
فلم ينقطع هذا المدد النبوي الكريم على ألسنة الشعراء وقالة القصيد: شعراً منغوماً،
قد تتفاوت قيمه الفنية والتصويرية، لكنه في جميع أشكاله وضروبه يسري فيه هذا
النفس المحمدي العظيم، طب القلوب ودواؤها، وعافية الأبدان وشفائها، ونور
الأبصار وضياؤها.

وقد نهد إلى جمع شعر المدائح النبوية في مختلف العصور: الأديب العالم
الجامع يوسف بن إسماعيل بن يوسف النبهاني الفلسطيني المولد، المتخرج في
الأزهر الشريف، رئيس محكمة الحقوق في بيروت، المتوفى سنة (١٣٥٠هـ =
١٩٣٢م)، وقد سَمَّى عمله هذا (المجموعة النبهانية في المدائح النبوية) وهو عمل
ضخم اشتمل على (٢٥٠٦٦) بيتاً، وطبع في أربعة مجلدات كبار.

ومن أنفس ما قرأت في هذا الفن: ما أخرجه الأستاذ العالم الدكتور محمود
علي مكي، بعنوان (المدائح النبوية) وقد صدر عام ١٩٩١م عن الشركة المصرية
العالمية للنشر - لونجمان. وجهات الحسن في هذا الكتاب كثيرة، فهو على وجازته

قد عرض لتاريخ المدائح النبوية في فصول أربعة: الفصل الأول الرسول في شعر معاصريه، وهو ما يعرف بشعر الصحابة، الذي جمعه من قبل الحافظ ابن سيد الناس، على ما ذكرت. والفصل الثاني: المدائح النبوية في شعر الشيعة. والفصل الثالث: المولد النبوي والمولديات. ثم جاء الفصل الرابع عن المدائح النبوية في العصر الحديث.

قصيدة العباس بن عبد المطلب:

والعباس عم رسول الله ﷺ، وقصيدته هذه خالصة في مديحه عليه السلام، وهي بذلك تباين ما قاله الشعراء الصحابة، إذ كان هؤلاء قد خلطوا مديحهم له عليه السلام بالدعوة إلى الدين الجديد، والرد على المشركين والافتخار عليهم بوقائعهم معهم وانتصاراتهم عليهم، كما ذكرت من قبل.

وقد سكت الدكتور محمود علي مكي عن هذه القصيدة، فلم يوردها مع ما أورد من شعراء الصحابة — مع يقيني بأنه لا يخفى عليه مكانها — وكذلك يغفلها كثير ممن يكتبون عن شعر المدائح النبوية، فلم تحظ بما حظيت به قصائد حسان وكعب وابن رواحة: مع أنها قصيدة مروية مذكورة الإسناد، مع فخامتها الشعرية وشدة شبهها بالشعر الجاهلي، بل قل إنها صورة من الشعر الجاهلي في جلاله وبهائه.

وإليك أيها القارئ الكريم نص القصيدة، متبوعة بتوثيقها وشرحها وتحليلها: حدث أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، عن أبيه، عن يزيد بن عمرو الغنوي، عن زكريا بن يحيى الكوفي، قال: حدثنا عم أبي، زُحْر بن حصن، عن جده حُميد بن مُنْهَب، قال: سمعت جدي حُرَيْم بن أَوْس بن حارثة، يقول: هاجرت إلى رسول الله ﷺ إلى المدينة مُنْصَرَفَهُ من تبوك، فسمعت العباس بن عبد المطلب يقول: يا رسول الله إني أريد أن أمتدحك، فقال: «قل، لا يفضض الله فاك». فقال العباس:

مِنْ قَبْلِهَا طُبْتُ فِي الظَّلَالِ وَفِي مُسْتَوْدَعٍ حَيْثُ يُخَصِّفُ الْوَرَقُ

ثُمَّ هَبَطْتَ الْبِلَادَ لَا بَشَرٌ
 بَلْ نُطْفَةٌ تَرْكَبُ السَّفِينِ وَقَدْ
 تُثْقَلُ مِنْ صَالِبِ إِلَى رَحِمِ
 حَتَّى احْتَوَى بَيْتُكَ الْمُهَيَّمِنُ مِنْ
 وَأَنْتَ لَمَّا وَلِدْتَ أَشْرَقْتَ الـ
 فَنَحْنُ فِي ذَلِكَ الضِّيَاءِ وَفِي النَّـ
 أَنْتَ وَلَا مُضْغَةً وَلَا عَلَقُ
 الْجَمِّ نَسْرًا وَأَهْلَهُ الْغَرَقُ
 إِذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَا طَبَقُ
 خَنِدَفَ عَلِيَاءَ تَحْتَهَا النُّطُقُ
 أَرْضُ وَضَاءَتْ بِنُورِكَ الْأُفُقُ
 نُورٍ وَسُبُلِ الرَّشَادِ نَخَرِقُ

غريب الحديث لابن قتيبة ٣٥٩/١.

فهذه أقدم رواية لقصيدة العباس بن عبد المطلب، إذ كان ابن قتيبة قد توفي سنة (٢٧٦).

وتلي هذه الرواية زمناً رواية أبي القاسم الزجاجي المتوفى (٣٤٠)، قال: حدثنا إبراهيم الصائغ، قال: حدثني عبد الله بن مسلم بن قتيبة... ثم بقية السند السابق. اشتقاق أسماء الله الحسنى للزجاجي ص ٢٣٠.

وثالث الروايات: رواية الحافظ أبي الحسن الدارقطني المتوفى (٣٨٥)، قال: حدثنا عبدان بن أحمد وأحمد بن عمرو البزار، وحدثنا محمد بن موسى بن حماد البربري، قالوا: حدثنا أبو السكين زكريا بن يحيى... ثم بقية سند ابن قتيبة، المعجم الكبير ٢٥٢/٤.

ورابعها: رواية أبي عبد الله الحاكم النيسابوري المتوفى (٤٠٥) قال في كتابه المستدرک علی الصحیحین ٣/٣٢٦، ٣٢٧، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أبو البختري عبد الله بن شاکر، حدثنا زكريا بن يحيى... إلى آخر السند، وقال الحاكم: «هذا حديث تفرد به رواه الأعراب، عن آبائهم، وأمثالهم من الرواة لا يضعون». وجاء في رواية الذهبي عن الحاكم، في سير أعلام النبلاء ١٠٢/٢: «ومثلهم لا يُضَعَّفُونَ»، والتعقيب في كلتا الروایتين ذو دلالة، فهو يريد أن يؤكد الثقة بالحديث، إذ كان رواه من الأعراب، يعني الذين يجرون في أحاديثهم ورواياتهم

على الصدق، فطرة وسليقة، وليسوا من المحدثين أصحاب الصنعة الذين تدور أحوالهم بين الجرح والتعديل.

ونأتي إلى آخر رواية من روايات الحفاظ، وهي رواية الحافظ أبي بكر الخطيب البغدادي المتوفى (٤٦٣) فقد رواه في كتابه الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة ص ٤٤٩ - عن أبي طالب يحيى بن علي بن الطيب العجلي الدسكري، عن أبي أحمد محمد بن أحمد بن الغطريف بن القاسم العبدي، عن يحيى بن محمد بن صاعد، عن زكريا بن يحيى... إلى آخر السند.

ثم تدور القصيدة بعد ذلك غير مسندة في كتب العربية، فتراها في: تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٨٨، والزاهر في معاني كلمات الناس لابن الأنباري ٢٧٥/١، والاستيعاب لابن عبد البر ص ٤٤٧، والفائق في غريب الحديث للزمخشري ١٢٣/٣، وشروح سقط الزند لأبي العلاء ص ٣٥٣، وشرح أدب الكاتب للجواليقي ص ٣٠٨، وأمالى ابن الشجري ١١٤/٣، والشفاء في التعريف بحقوق المصطفى للقاضي عياض ص ٢١٨، والوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي ٣٥/١، وعارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذي لابن العربي ٩٦/١٣، ومنال الطالب في شرح طوال الغرائب لمجد الدين بن الأثير ص ٤٤٠، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير ١٢٩/٢، والجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة للبري ١٢/٢، والحماسة البصرية ٦١٠/١، وتفسير القرطبي ١٤٦/١٣، ومِنَح المِدَح لابن سيد الناس ص ١٩٢، وزاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية ٥٥١/٣، والسيرة النبوية لابن كثير ٥١/٤، ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد لنور الدين الهيثمي ٢١٧/٨، والخصائص الكبرى للسيوطي ٩٧/١، وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للصالحى الشامي ٩٠/١، والمجموعة النبهانية في المدائح النبوية ٥٦/١.

ثم يأتي من هذه القصيدة البيت والبيتان في معاجم اللغة، ودواوين الأدب، شواهد على غريب اللغة ووجوه المعاني، مُنَزَّلًا ذلك على ترتيب المواد والمقاصد.

ويبقى أن أشير إلى أن أبياتاً أربعة من هذه القصيدة نُسبت إلى حسان بن ثابت — انظر ديوانه ص ٤٩٨ — ولا تصح هذه النسبة، وقد ردها الحافظ السيوطي في كتابه اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ١/ ٢٦٤، ٢٦٥.

بحر القصيدة:

جاءت هذه القصيدة على البحر المنسرح، وتفعيلاته:

مستفعلن مفعولاتٌ مستعلن مستفعلن مفعولات مستعلن
مع ما تطيقه هذه التفعيلات من زحافات وعلل.

ويرى بعض الدارسين المحدثين أن النظم على هذا البحر قليل، لأن فيه عتاً ومشقة، وقد قل النظم عليه، وكاد يهجر لاختلاف موسيقاه عن جنس الموسيقى الشائعة الأوزان، ويرى بعضهم أن إيقاع هذا البحر خافت يكاد يكون كلاماً منشوراً، بل إن بعضهم تنبأ بأنه سينقرض من الشعر في مستقبل الأيام!. وهذا كلام من لا يرتاح إلى هذا الوزن، وينفر منه بطبعه، فيجعل من ذوقه الخاص حكماً عاماً، ثم هو كلام يرسل إرسالاً، دون مراجعة أو إحصاء، فإن النظم على هذا البحر شائع في الشعر الجاهلي، وفيما بعده إلى يوم الناس هذا، وإن لصديقنا الشاعر عبد اللطيف عبد الحليم (أبو همام) أنساً بهذا البحر وولعاً، وقد أنشأ ديواناً، أداره كله على هذا البحر، وسمّاه: (من مقام المنسرح)، ثم لا يزال يتعاهده في شعره بين الحين والحين.

ثم ذكر العلامة عبد الله الطيب المجذوب كلاماً عالياً حول هذا البحر المنسرح في كتابه الفذ: المرشد إلى فهم أشعار العرب ١/ ١٧٥ — ١٩١، وذكر أن هذا البحر في الجاهلية قد شاع في فئتي الرثاء المراد به النوح، والنقائض، وأنشد قدراً صالحاً من الشواهد، ثم ذكر أن الخريمي الشاعر أنشأ قصيدة من هذا البحر، من مائة وخمسة وثلاثين بيتاً يصف فيها الفتنة ببغداد أيام الأمين والمأمون. وأنشد في كتابه بين النير والنور ص ١٦٩، هذا البيت:

وَسَرَّتْ النَّفْسُ أَمْسَ ذَاتِ الْفَرَا شَاتِ الَّتِي رِيْمُ جِيْدَهَا صَنَمُ

ثم قال: «هذا بحر المنسرح فاعرفه: بحرٌ طروب إلى جارية وحشية عروب».

وأقول: حسبنا أن نذكر من هذا البحر رائعة المتنبي التي أولها — وهو مما قاله

في صباه:

أَهْلًا بَدَارِ سَبَاكَ أَغْيَدُهَا أَبْعَدُ مَا بَانَ عَنْكَ خُرْدُهَا

شرح القصيدة وتحليلها:

تبدأ القصيدة في روايتها المسندة، وفي سائر الكتب بهذا البيت:

مِنْ قَبْلِهَا طِبْتُ فِي الظَّلَالِ وَفِي مُسْتَوْدِعٍ حَيْثُ يُخْصَفُ الْوَرَقُ

ولا ينبغي أن يظن أن هناك نقصاً؛ فإن الرواية مجمعة على هذا الاستفتاح، وهو استفتاح غريب حقاً، وهو دال على حالة شعورية عجيبة، فكأن الشاعر طوى أشياء كثيرة في صدره، قفز منها إلى مقصوده الأعظم وشاغله الأقوى، أو كأنه لا يحفل بما تعارف عليه الشعراء في عصره من استفتاح القصائد، فكأنه لا يحب أن يرد طريقاً مسلوكاً. ولو وقع مثل هذا البدء في شعر شاعر من القوم في زماننا هذا لكان لنقادهم فيه ضجيج واحتفال . . .

وقوله: «من قبلها» أي من قبل الخليفة، أضمر لغير مذكور، والعرب تفعل ذلك توسعاً واختصاراً وثقة بفهم السامع، وقد جاء منه في القرآن والشعر ما لا يحصى كثرة، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، وقوله: ﴿مَا تَرَكْتُ عَلَى ظَهْرٍهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، أضمر «الأرض» في الآيتين، وقوله: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣]، وقوله: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّفَاثَ﴾ [القيامة: ٢٦]، أضمر «النفس والروح» في الآيتين، ومن ذلك إضمار «الخمر» في قول ابن المعتز:

وَنَدِمَانٌ دَعَوْتُ فَهَبَّ نَحْوِي وَسُلْسُلَاهَا كَمَا انْخَرَطَ الْعَقِيْقُ

وقوله: «طبت في الظلال» أي في ظلال الجنة، حين كان في صلب آدم لما كان في الجنة، وهو قوله: «في مستودع»، أي في صلب آدم قبل أن يهبط إلى الأرض، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَتَرْنَاهُ وَمُتَوَدِّعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨]، أي مستقر في الأرحام، ومستودع في الأصلاب.

وقوله: «حيث يُخصف الورق» يعني حيث خصف آدم وحواء عليهما الورق حين بدت لهما سوءاتهما. والخصف: ضم الشيء إلى الشيء وإلصاقه به، ومنه قولهم: خصفت النعل، أي رقعته.

ثم هبطت البلاد لا بشر أنت ولا مضغة ولا علق يعني هبوطه وهو نطفة في صلب آدم، لم يصير علقة ولا مضغة.

بل نطفة تركب السفين وقد أجم نسرأ وأهله الغرق يعني في صلب نوح، كما جاء في التنزيل: ﴿وَأَيُّهُ لَمَّا أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمُ فِي الْفُلِّ﴾ [يس: ٤١]، والسفين: جمع سفينة، واستعمل الجمع في موضع الواحد، كقوله: شابت مفارقه، وإنما هو مفروق واحد.

وأراد بنسر: الصنم الذي كان قوم نوح يعبدونه. وإلجام الغرق: كناية عن وصول الماء إلى أفواههم التي هي موضع اللجام.

تنقل من صالب إلى رحم إذا مضى عالم بدا طبق الصالب: الصلب، وهو الظهر، قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٧]، والعالم: بفتح اللام: قيل هو كل موجود سوى الله تعالى، وقيل: هم كل ذي روح، وقيل: هم الإنس والجن. والمراد به ها هنا: الإنس خاصة؛ لأن الذكر لهم. والطبق ها هنا: القرن من الناس؛ لأنهم كالطبق للأرض، يطبقون الأرض ثم ينقرضون، ويأتي للأرض طبق آخر. والمراد أنه ﷺ تنقل في أصلاب كريمة، وتناسخته أرحام مطهرة، فأدته زاكي الحسب، نقي الأصول، وعن ابن عباس

في قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْكَ فِي الْمَسْجِدِ﴾ [الشعراء: ٢١٩]، قال: «من نبي إلى نبي حتى أخرجك نبياً».

حتى احتوى بيتك المهيمن من خندف علياء تحتها النطق المراد بالبيت ها هنا: الشرف والنسب. والمهيمن: الشاهد، وهو صفة هذا الشرف: أي حتى احتوى شرفك الشاهد على فضلك أفضل مكان وأعلاه وأرفعه من مجد خندف وسامي شرفها. وخندف: لقب ليلي، وهي امرأة إلياس بن مضر، وهو من أجداد النبي ﷺ. والتُّنُق: جمع نطاق، وهو في الأصل: ما تشدّ به المرأة وسطها فوق الثياب، ومنه أسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر رضي الله عنهما. وضرب هذا مثلاً في ارتفاعه وتوسطه في عشيرته وعزه، فجعله في علياء، وجعلهم تحته نطاقاً له.

وأنت لما ولدت أشرق الـ أرض وضاءت بنورك الأفق
هكذا يبدأ الشاعر بيته بالضمير المنفصل «أنت»، ومجيء مثل هذا الضمير في مثل ذلك الموضع لا يأتي إلا في فحولة شعر وجسارة شاعر، فإذا عدم تلك الفحولة وفقد هذه الجسارة عاد غثاً بارداً، وانظره في قول عدي بن زيد العبادي، في إحدى غرره الأربع، كما يقول ابن سلام:

أرواح مودع أم بكمور أنت فانظر لأي حال تصير
وقد أدار النحويون على «أنت» في بيت عدي كلاماً كثيراً، فابسط لهم العذر، ولا تظن بهم إلا خيراً؛ لأنهم أصحاب صنعة ونظام، وقد أربكهم هذا الشاعر إرباكاً عظيماً، بذلك الضمير في هذا الموضع. والشاعر الفحل مختال تياه، يتلعب بالكلام كما يشاء!

وعلى أن استعمال هذا الضمير «أنت» في الشعر كثيراً ما يدل على التحنن والأنس والود بين المخاطب والمخاطب، وقد استعمله العباس في قصيدته هذه ثلاث مرات.

وأشرفت الأرض : إذا أضاءت وأنارت . ويقال : شَرَقَت الشمس : إذا طلعت ،
وأشرفت : إذا أضاءت . ويقال : ضاء المكان وأضاء ، وضاءت النار وأضاءت ، لغتان
فاشيتان . قال الراجز :

قَرَّبَ قَلُوصَيْكَ فَقَدْ ضَاءَ الْقَمَرُ

والأفق : واحد الآفاق ، وهي أطراف السماء ونواحيها التي مع الأرض . والأفق
مذكر ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأَفْقِ الْأَيْمَنِ ﴾ [التكوير : ٢٣] .

وقال : « ضاءت بنورك الأفق » فأنت فعله حملاً على المعنى ؛ لأنه أراد بالأفق
الناحية ، وقيل : إنه استعمل الواحد في موضع الجمع ، كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ
طِفْلاً ﴾ [غافر : ٦٧] ، أي أطفالاً ، وقوله : ﴿ وَالْمَلَكُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم : ٤] ، أي ظُهِرَاء ، وكقول الشاعر :

كلوا في نصف بطنكم تصحُّوا فإن زمانكم زمن خميص
أي بطونكم .

فنحن في ذلك الضياء وفي النَّـ نُورٍ وَسُبُلِ الرَّشَادِ نَحْتَرِقُ
السُّبُل : الطرق ، جمع سبيل ، واختراقها : السير فيها .

ويبقى بيتٌ من القصيدة جاء من زيادات بعض الكتب ، وقد جاء بعد البيت
الرابع ، وبعضهم يجعله آخر القصيدة . وقد رُوي هذا البيت بروايات ثلاث :

الرواية الأولى :

وردت نار الخليل مُكْتَمَماً تجول فيها وليس تحترق

والرواية الثانية :

وردت نار الخليل مُكْتَمَماً في صُلبه أنت ؛ كيف يحترق

والرواية الثالثة :

يا برد نار الخليل يا سَبَباً لعصمة النار وهي تحترق

وأضعف الروايات الرواية الثالثة، أما الأخريان فهما من أزكى الكلام وأشرفه، وأعلاهما عندي الرواية الثانية؛ لأن فيها صريح الدلالة على أنه ﷺ كان سبباً لنجاة أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام؛ ولأن الشطر الثاني فسر «مكتماً» في الأول، فضلاً عما في البيت من إحكام الصنعة الشعرية وتوهجها، وتأمل مرة أخرى «أنت» كيف جاءت في البيت كالمنارة، مضيئة عالية، ومجيئها بعد الجار والمجرور وقبل الاستفهام يحمل القارئ والسامع على أن يقف عندها هنيهة، يندّي لسانه ويرهف سمعه تشريفاً وإجلالاً للممدوح ﷺ.

وبعد: فهذه قصيدة العباس بن عبد المطلب، عم المصطفى ﷺ، في مديحه وتعظيمه، أرجو أن أكون قد وفقت في تحقيقها وجلائها، ولفت الأنظار إليها. وبأبي أنت وأمي يا رسول الله!.



مع بداية العام الدراسي الجديد: من يقرأ هذه الكتب^(١)؟!

قرأت شيئاً من الجاحظ في صدر الشباب، ثم أخذت أعاوده المرة بعد المرة لتوثيق نقل أو تخريج شاهد، فيما أعالج من تحقيق النصوص ونشرها. وفي السنوات الأخيرة رأيت أن أقرأه على مكث، وأن أعطيه حظه من النظر والتأمل، بل قل: لأعطي نفسي حظهها من الإمتاع والمؤانسة، فخصصت له وقتاً من إجازة الصيف بالإسكندرية، أقرأ وأستخرج وأقيد؛ لنفسي ولطلبتي حين أستقبل معهم العام الدراسي الجديد، فإني وإن كنت أدرس علم النحو، فإني أرى أن الأدب لازم للنحوي إقراء وتدريساً حتى يجد لكلامه سبيلاً ومذهباً، ولتوجيهه مقنعاً وبلاغاً.

وهذا الجاحظ يحكي عن ابن عتاب قوله: «يكون الرجل نحويّاً عروضيّاً، وقساماً فرضيّاً، وحسن الكتاب جيد الحساب، حافظاً للقرآن، راوية للشعر، وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهماً، ولو أن رجلاً كان حسن البيان، حسن التخريج للمعاني ليس عنده غير ذلك، لم يرض بألف درهم؛ لأن النحوي الذي ليس عنده إمتاع، كالنجار الذي يدعى ليعلق باباً وهو أحذق الناس، ثم يفرغ من تعليقه ذلك الباب فيقال له: انصرف، وصاحب الإمتاع يراد في الحالات كلها». البيان والتبيين ٤٠٣/١.

وقيل للشافعي: كيف شهوتك للأدب؟ قال: أسمع بالحرف منه مما لم

(١) مجلة «الهلal»، أكتوبر ١٩٩٣م.

أسمعه، فتوَدُّ أعضائي أن لها أسماعاً تنعم به مثل ما تنعمت الأذنان. مناقب الشافعي للبيهقي ١٤٣/٢.

وكتب الجاحظ — كما يقول المسعودي — «تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان؛ لأنه نظمها أحسن نظم، ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ، وكان إذا تخوف ملل القارئ وسامة السامع خرج من جد إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة». مروج الذهب ١٩٥/٤.

ولا يخدعك هذا الكلام — حسن النظم وحسن الرصف وجزالة اللفظ — فتذهب مع الذاهبين إلى أن كتب الجاحظ على شاكلته إنما هي كتب تسلية وسمر وإزجاء فراغ؛ لأنها تمثل الاهتمام بالجزئي دون الكلي؛ ولأن العقلية العربية غير قادرة على التركيب... وهو كلام ساقط مردول، ورده ودفعه في غير هذا المكان.

لكنني أعجل فأقول: إن زعماء (التنوير) ورموزه الذين يكثر الحديث عنهم هذه الأيام قد تكونوا على هذه الكتب وتغذوا بهذا الزاد، ودع عنك طه حسين والعقاد فإن صلتهما بأصول الكتب العربية معروفة، وتأمل ما ذكره عميد المسرح العربي توفيق الحكيم في كتابه «عصفور من الشرق» من أنه كان يصطحب معه عند زيارته لباريس كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه، رفيق سفر، وزاد مغترب.

وذكر إبراهيم عبد القادر المازني — وكان من أبرع الناس في الترجمة عن الإنجليزية — ذكر لخير الدين الزركلي أنه حفظ في صباه «الكامل» للمبرد غيباً. يقول الزركلي: «وكان ذلك سر الغنى في لغته» الأعلام ٦٨/١، وأبو فهر محمود محمد شاكر قرأ «لسان العرب» كله وهو تلميذ بالثانوي، وكذلك قرأ في الوقت نفسه كتاب «الأغاني» في طبعة الساسي، وهي طبعة غير مشكولة ولا محققة.

وقراءة الجاحظ فوق أنها تمتع الوجدان، تحرك العقل، وتفتح أبواباً من النظر، وتستثير دفائن من الفكر. والكاتب العظيم — فوق إمتاعه — يستخرج من قارئه أشياء حبيسة، هي من صميم الموضوع الذي يعالجه الكاتب، وهي أشياء تظل كامنة مطوية، وكأن صاحبها مع إحساسه الضخم بها لا يستطيع كشفها والإبانة عنها، حتى

يجيء الكاتب القادر المبين، فإذا بهذه الأشياء الحبيسة تنطلق من عقالها، وإذا بالأفكار والخواطر تأتيه من كل مكان، وتثال عليه انثيالاً، وتزدحم أمامه ازدحاماً، وكأنها قوافي سويد بن كراع التي وصفها:

أبيت بأبواب القوافي كأنما أصادي بها سرباً من الوحش نزعاً
فيقيد منها الشارد، ويستدني منها البعيد، فيكون فرح القارئ بما قرأ معادلاً
لسروره بما استخرج.

الجاحظ والعربية :

وقراءة الجاحظ إذا أخذت بحقها قادت إلى المكتبة العربية كلها، بفنونها وعلومها المختلفة، إذ كان الجاحظ كثير الإلمام بالعلوم العربية، لا يكاد يشذ عنه منها شيء وبخاصة في «رسائله» التي لم تؤت ما تستحقه من الدرس؛ لأن الناس شغلوا عنها بكتبه الأخرى: البيان والحيوان والبخلاء والعثمانية. على أن أهم ما تستثيره عندي قراءة الجاحظ الآن هو: ما حظ شباب هذا الجيل من كتب الجاحظ ومن إليه؟

لقد قال ابن خلدون قولته الشهيرة: «وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن — علم الأدب — وأركانه أربعة دواوين: وهي أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها».

ونعم، لقد أحسن كل الإحسان من عد هذه الكتب الأربعة أصول علم الأدب، فإن كتاب ابن قتيبة يدور حول اللغة، في تسمية الأشياء وخلق الإنسان والحيوان، وأصول الهجاء، وضوابط الأبنية، وتقويم اللسان ولحن العامة. وكتاب المبرد كتاب لغة ونحو وأخبار — وبخاصة أخبار الخوارج — وكتاب الجاحظ دائر حول البيان والبلاغة والخطابة، مع الاسترسال إلى المعارف الأخرى، وكتاب القالي المعروف بالأمالي والنوادر، كتاب لغة وغريب وشعر، فمن حصل هذه الكتب، ثم أطال الوقوف عندها والنظر فيها فاز بأوفر الحظ والنصيب.

وهذه الكتب كانت متاحة لنا في صدر شبابنا: في دار الكتب المصرية باب الخلق، وفي مكتباتها الفرعية داخل القاهرة، وفي عواصم الأقاليم، ثم كانت تغص بها مكتبات الكليات الجامعية، بل في كثير من مكتبات المدارس الثانوية، ثم كانت تلك الكتب قريبة إلى عقولنا وقلوبنا بذكر أساتذتنا لها، ونقلهم عنها، وحثهم لنا عليها وإغرائهم بها، ومطالبتهم إيانا باستظهارها، إذ كانوا يرون أنها أوعية العلم ولا أوعية غيرها، وكذلك كانت مألوفة لنا بإحالة الأدباء والكتاب عليها في المجالات والدوريات الثقافية.

والآن: جفت الينابيع، وصوّح النبت، فدار الكتب أصبحت كبئر معطلة ومكتبات الكليات الجامعية تطايرت محتوياتها إلى بيوت بعض الأساتذة: غنيمة باردة، وعارية غير مستردة، أما تعامل الأساتذة والكتاب مع هذه الكتب فأنت تعرفه! وأسأل طلبتي في السنة النهائية (الليسانس) عن هذه الكتب فلا أظفر إلا بصباغة قول، لا تكاد تتجاوز اسم الكتاب، مع تخطيط كثير في بعض أسماء الكتب وأسماء أصحابها... ولا تلوموهم ولوموا أنفسكم.

ثم أعود إلى مكتبي وأطيل النظر إلى قسم الأدب منها، وأكرر سؤالاً أعرف ألا جواب له: من يقرأ هذه الكتب، كبارها وأوساطها وصغارها؟ بدءاً بالمفضليات والأصمعيات، وانتهاء بالكشكول والمخلاة للعالمي، وقروناً بين ذلك كثيراً: دواوين الشعر ومختارات الأدب والحماسات والأمالى والمجالس، وكتب المعاني وكتب الأمثال: تجارب أمم، وعقول أقوام استودعوها بطون الكتب، وأدتها إلينا أجيال وفية من الرواة والحفظة والنساخ والمحققين، حفظوها وصانوها كما يصون كرام الأبناء ودائع الآباء.

وقل مثل هذا في سائر علومنا: تفسير القرآن وعلومه، ودواوين السُّنة، وكتب الفقه وأصوله، وعلم الكلام والتصوف والتاريخ والأنساب والبلدانيات (الجغرافيا) والمعارف العامة، واللغة والنحو والبلاغة. فمن يقرأ هذه الكتب الآن فضلاً عن اقتنائها؟

ولا تقل طلبة الدراسات العليا؛ لأن باب الدراسات العليا باب ضيق جداً؛
ولأن الأصل أن تعرض هذه الكتب - الشيء منها بعد الشيء - على طلبة الجامعة،
على امتداد السنوات الأربع، بل في المراحل التعليمية السابقة على الجامعة، ليأنسوا
إليها ويألفوها ويعايشوها، فإذا قدر لأحدهم أن يمضي في دراسة عليا كان مستصحباً
لأصول العلم وأساسه، وإذا انقطع بأحدهم الطريق كانت هذه المعرفة عوناً له وسنداً
فيما يعالج من أمور التعليم والثقافة، وأعرف نقرأ من زملائنا المعلمين الذين لم
يستكملوا دراساتهم العليا يفوقون كثيراً من حملة الدكتوراه الآن، ولكنها حظوظ
الناس:

متى ما ير الناس الغنى وجاره فقير يقولوا عاجز وجليد
وليس الغنى والفقر من حيلة الفتى ولكن أحاط قسمت وجدود

رموز التنوير:

وإنما كان زملاؤنا المعلمون على هذه الصفة لأنهم يأوون إلى ركن شديد من
المعرفة التي أتاحتها لهم دراستهم الجامعية الجادة الصارمة في ذلك الزمان الرخي
قبل أن يدهمنا السيل وتغشانا النوائب بذلك التنقص والاحتقار الدائم لتاريخنا
وعلمونا، وإنك لا تجد أمة تستهين بتاريخها وعلموها ومعارفها كالذي تجده من
بعض أفراد أمتنا الآن، وقد كان الهجوم على علمونا ومعارفنا يسمع من بعض من
ينتسبون إلى الأدب، من أحلاس المقاهي وسَمَّار الليالي، ثم صار الآن يسمع
مجلجلاً في قاعات الدرس الجامعي: هجوماً كاسحاً أكولاً على الشعر العربي
والنحو العربي والبلاغة العربية - «بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه» - ويقول هؤلاء
لتلاميذهم: إن الكتب القديمة حقائق وأكفان موتى، وقد غاب عن هؤلاء أمران:

أولهما: أن رموز (التنوير) وأعلامهم الذين يتحدثون عنهم الآن قد خرجوا من
عباءة هذا القديم، كما ذكرت من قبل.

وثانيهما: أن هذه الكتب لو لم يكن فيها إلا أنها تعلم الجد وتقود إلى الصرامة
لكان في ذلك ما يغري باقتنائها وطلب العلم منها.

يقول مصطفى صادق الرافعي: «ومما ترده على قارئها تلك الكتب في تربيته العربية أنها تمكن فيه للصبر والمعاناة والتحقيق والتوكل في البحث والتدقيق في التصفح، وهي الصفات التي فقدتها أدباء هذا الزمن فأصبحوا لا يتثبتون ولا يحققون، وطال عليهم أن ينظروا في العربية، وثقل عليهم أن يستبطنوا كتبها، ولو قد تربوا في تلك الأسفار وبذلك الأسلوب العربي لتَمَّت الملاءمة بين اللغة في قوتها وجزالتها، وبين ما عسى أن ينكره منها ذوقهم في ضعفه وعاميته، وكانوا أحق بها وأهلها.

وذاك بعينه هو السر في أن من لا يقرأون تلك الكتب أول نشأتهم لا تراهم يكتبون إلا بأسلوب منقطع، ولا يجيئون إلا بكلام سقيم غث، ولا يرون في الأدب العربي إلا آراء ملتوية، ثم هم لا يستطيعون أن يقيموا على درس كتاب عربي فيساهلون أنفسهم، ويحكمون على اللغة والأدب بما يشعرون به في حالتهم تلك، ويتورطون في أقوال مضحكة، وينسون أنه لا يجوز القطع على الشيء من ناحية الشعور، ما دام الشعور يختلف في الناس باختلاف أسبابه وعوارضه، ولا من ناحية يجوز أن يكون الخطأ فيها، وهم أبدأ في إحدى الناحيتين أو في كليهما». مقدمة شرح أدب الكاتب للجواليقي ص ٣.

فهذه إحدى الطوام: الطعن في كتبنا واجتواؤها والإضرار بها. وثانية أشد وأعجب — وكل الأمور عجب —: يأتيني أحد طلبتي فيعرض علي شيئاً من شعره فأقول له: يا بني، ليس هذا شعراً، هذا عجن وتخليط، فيحاجني بنماذج كثيرة تعج بها جرائدنا ومجلاتنا، مصحوبة هذه النماذج أحياناً بتحليل وثناء لبعض كبار أدبائنا وأساتذتنا وزملائنا الجامعيين، يرفعون بكلام حلو خسيصة كلام هزيل:

في زخرف القول تزيينٌ لباطله	والحق قد يعتريه سوء تعبير
تقول: هذا مجاج النحل تمدحه	وإن تعب قلت: ذَا قَيْءُ الزنابير
مدحاً وذمّاً وما جاوزت وصفهما	حُسْنُ البيان يُري الظلماء كالنور

ونعم... لقد جاوز الأمر حده، وأصبح واجباً على كل ذي عقل أن يقف أمام هذا السخف، إن هذا الذي ينشر على أنه شعر إنما هو امتهان للعقل؛ من حيث كان

استخفافاً باللغة وهزأً بنظامها وأعرافها . لقد قرأت ذات يوم في جريدة كبرى كلاماً لشاعر يقول فيه : «نرفو أعراف الديكة فوق شرائح السمك البلطي» هكذا قال ، وأنا أقول : لماذا سمك البلطي بالذات ؟ لأنه عريض ؟ إن «سمك موسى» أعرض منه !

كلام ليس من كلامنا :

وفي العدد السادس من «أخبار الأدب» الجديدة، وفي الصفحة الثامنة والعشرين ترى هذا العنوان : الفتوحات : شعر . . . وفي أحد مقاطعه يقول تحت عنوان : الخليل بن أحمد : «حملت الدلاء على كتفي، وكنت أبص على جسد كالنديف، ولكنها كانت الأرض باردة، تتخللنا وتحيط أصابعنا باليقين، وتتركنا، قلت : أمشي وراء المظنات، أطرح ما حسبت أنه رعوي، ومنسدل، مثل مهر جميل على جسد الصحراء، وأدعك أطراف جسمي ببعض الغيوم، وأنفضها، فاكشفت بأن الدم العبّ يحتجب الروح في جسد من رقائق طينية . . أن جسراً من الريح، يعلو على الأرض كي تغطي به كالمرايا، وحين نفر إلى الله، نشهد أنفسنا، رائعين، ومجتلبين إلى الكون نحصر فيه الفساد، نبويه في سجلات أعراضنا، ثم نردمه خلف بحر قديم تداركنا، فاعلن فاعلن» .

ما هذا يا قوم ؟ إني والله أسأل تعلماً لا تعنتاً عن معنى هذا الكلام ! إن هذا الكلام وأمثاله مما يطلق عليه شعر، إنما هو كما قال ذلك الأعرابي وقد حضر مجلس الأخفش فسمع كلاماً لم يفهمه، فحار وعجب، فقال له الأخفش : ما تسمع يا أخا العرب ؟ فقال : «أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا»، أو كما قال القاضي الفقيه ابن دقيق العيد، عن الصوفي الشهير ابن سبعين : «جلست معه من ضحوة إلى قريب الظهر وهو يسرد كلاماً تعقل مفرداته ولا تفهم مركباته» .

ثم إن السلامة اللغوية المطلوبة في كل عمل أدبي، بل هي مطلوبة بداهة في كل كلام يجري بين العقلاء، فما معنى «أبصّ» في هذا الكلام ؟ لم يرد هذا الفعل في كلام العرب بمعنى النظر، وإنما يقال : بص الجرو — وهو ولد الكلب — أي فتح عينيه، وفتح العينين غير النظر . فهي إذن عامية مُغرقة . قال المرتضى الزبيدي في تاج

العروس: «والبصاصة: العين في بعض اللغات، صفة غالبية، قيل: لأنها تبص، أي تبرق، ومنه قول العامة: هو يبص لي».

وما موضع هذه الهاء في قوله: «ولكنها كانت الأرض باردة»؟ فهل هي ضمير الشأن والقصة؟ إن كان يريدنا كذلك فما أبردها في هذا المكان!

ثم ما قيمة «فاعلن فاعلن» ها هنا؟ لأنه قد ذكر قبلها كلمة «بحر» وكلمة «تداركنا» فيريد أن يعلمنا أن تفعيلات بحر المتدارك؟ فاعلن فاعلن؟ فهذا نحن قد علمنا وانبسطنا: مستفعلن فاعلن، ولا داعي لكل هذا الكلام الطويل: فعولن مفاعيلن!

ويعلم الله، أننا لا نصدر عن عصبية للقديم، فالشعر هو الشعر، ليس فيه قديم ولا جديد، وإنما مداره على الإمتاع واللذة، وما أصدق قول أحمد شوقي من قصيدته في أمين الريحاني:

والشعر في حيث النفوس تلذه لا في الجديد ولا القديم العادي
وإننا نظرب لمحمود حسن إسماعيل طربنا لامرء القيس وذي الرمة، بل إننا نظرب لشعر فؤاد حداد طرباً لا مزيد عليه، وتأخذ النشوة منا مأخذها حين نسمع أشعار صلاح جاهين في «الليلة الكبيرة».

فكيف يسكت أساتذتنا الكبار وزملاؤنا الجامعيون على هذا العبث المسمى شعراً؟ بل كيف يزينونه؟ ويحسنونه، ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها تعليق للأستاذ الشاعر الناقد كمال النجمي (الهلال - سبتمبر ١٩٩٠م) على ما كتبه الدكتور شكري عياد حول كتاب «المستحيل والقيمة» للأستاذ بدر الديب، يقول الأستاذ النجمي: «والعجب الأكبر من أديب ناقد ثاقب البصيرة نافذ الفهم - الدكتور شكري عياد - يشغل وقته بالكتابة المطولة عن شعر وهمي يزعمه لأنفسهم ناثرون أمثال الأستاذ الديب، وهو كاتب فاضل كنا نرجو له الستر، أعترف أنني لم أفهم لا كلام بدر الديب ولا كلام شكري عياد، فقيم يتحدث هذان الفاضلان؟ وهلاً نزلاً إلينا لنفهم عنهما أو نحاول أن نفهم؟».

لقد كتبت وكتب غيري عن المستوى المتدني للغة العربية على ألسنة المتكلمين وأقلام الكاتبين: من شباب هذا الجيل، لكننا نعالج هذه القضية بكثير من التخوف والتردد والمصانعة والحذر من إغضاب الناس، والتحسب لردود الفعل التي قد تعطل مصالح العباد، وتقضي القريب وتقرّب البعيد:

وفي النفس أشياء وفيك فطانة سكوتي بيان عندها وخطاب
والقضية لا بد أن توضع في حاق موضعها إن كنا صادقين:

أولاً: إعادة النظر في مناهج تدريس العربية بدءاً من الابتدائي وانتهاء بالجامعة، بحيث تكون مناهج (ترد) التلاميذ إلى تاريخهم، وربطهم بعلم الآباء والأجداد — ولا أقول تراثهم؛ فإن هذه الكلمة قد أصبحت بغیضة عندي جداً، لما توحى به هذه الأيام عند بعض الناس من الماضي السحيق والفولكلور والمتحفيات — ولعلي أفرد لذلك مقالة، إن شاء الله.

لقد كنا في طفولتنا وصدر شبابنا نحفظ الشعر الجاهلي ومتون العلوم في الصباح، ونلعب الكرة الشراب عند العصر، فجرت اللغة في عروقنا واختلطت بلحمنا وعظمنا، وما أمر «مجموعة النظم والنثر» لعبد الله باشا فكري، و «المنتخب من أدب العرب» للسكندري وأصحابه، ببيعيد، وهكذا الشأن عند سائر الأمم، فتلاميذ المدارس الإنجليزية يقرأون «شكسبير» ويعرفونه جيداً، وتلاميذ المدارس الألمانية يقرأون «جوته» ويعرفونه جيداً، مع الاحترام الزائد والتوقير الشديد.

ثانياً: تنقية الجو الأدبي خارج المدرسة والجامعة من الأوشاب والأخلاق. فالمدرسة والجامعة لا يعملان بمعزل عن الحياة العامة، لقد كان طلاب ذلك الزمان السعيد يقرأون أصول العلم في معاهدهم، ثم يقرأون مرة أخرى على صفحات الرسالة والثقافة والمقتطف والهلal. ألم ينشر طه حسين «حديث الأربعاء» منجماً في «البلاغ»؟ ألم ينشر أبو فهر محمود محمد شاكر كتابه العظيم عن المتنبي عدداً خاصاً من «المقتطف»؟

وما يستقيم أن تبني المدرسة والجامعة، وتهدم المقاهي والأتيليات
والمجلات، على ما قال الأول:

فكيف بناء خلفه ألف هادم وألف وألف ثم ألف وأعظم

وأنتم يا أساتذنا الفضلاء — وأنتم من بقية حملة الحجّة — ويا زملاءنا من
أساتذة الجامعة الأعزاء — وأنتم من بقية جيل الحفظة — لا تتعاملوا مع هذا الذي
ينشر ويذاع باسم الشعر، فإنه غريب المنبت مُر المذاق، وليس بأرض قومكم فالفظوه
وعافوه، ثم قفوا للأدعياء وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد، حفاظاً على
تاريخكم واحتراماً للغتكم، وقياماً بحق هذه الأجيال عليكم، أن يردوا الماء الذي
وردتم، ويطعموا الطعام الذي طعمتم.

ثالثاً: إن هذه الأمة العربية محفوظة، ولن تخلو الأرض من قائم لله بحجة،
ولا زال فينا أهل علم وأهل صدق، ولكنهم قلوا عدداً فأفسحوا لهم الطريق، ولا
يصدنكم عنهم جهالة أمرهم، فإن النفيس غريب حيثما كان، كما قال أبو الطيب،
ومكنوا لهم أن يظهروا بعلمهم، ولا تضيقوا عليهم فتصيبوهم بالإحباط، والإحباط
قديم، قال أبو بكر ابن العربي المتوفى سنة (٥٤٣هـ): «ارتباط أي القرآن بعضها
ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني، علم عظيم،
لم يتعرض له إلا عالم واحد، عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله عزّ وجلّ لنا فيه،
فلما لم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين
الله، ورددناه إليه». البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/٣٦.

ووقع مثل هذا لجلال الدين السيوطي (٩١١هـ) قال: «ولما شرعت في إملاء
الحديث سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة، وجدته بعد انقطاعه عشرين سنة، من سنة
مات الحافظ أبو الفضل ابن حجر، أردت أن أجدد إملاء اللغة وأحييه بعد دثوره،
فأملت مجلساً واحداً، فلم أجد له حملة ولا من يرغب فيه فتركته». المزهري في علوم
اللغة ٢/٣١٤.

وتبقى كلمة: لقد قلت إن هذه الأمة العربية محفوظة. واللهم نعم، فإن من آيات ذلك أنني أصادف من طلبتي بين الحين والحين نماذج جيدة، تحب العربية وتحرص عليها وتزود منها، بل إن منهم من يفتح علي أبواباً من الفهم حين يجاذبني الكلام، وأنا أقول لطلبتي دائماً: إنني جئت أتعلم العلم معكم مرة أخرى، فالعلم رحم بين أهله، والشيخ يستفيد من تلميذه، كما يستفيد التلميذ من شيخه، وكذلك أجد من زملائي المعيدين والمدرسين المساعدين مصابيح علم تتلأأ وتتوهج وسط هذا الظلام الموحش، لكن هؤلاء وهؤلاء في حاجة إلى معلم وموقّف، لأن الأصل في علومنا الرواية والمشافهة والتوقيف، ونحن في زمن انقطعت دونه الرواية، وانصرف فيه الأشياء، وترك طالب العلم وحده يضرب في أرض يهماء، لا ماء فيها، ولا علّم بها.

وأنا أقول لهؤلاء المعيدين دائماً: إنكم في جيلكم أحسن منا في جيلنا؛ لأننا أدركنا الزمن الرخي، وأنتم جئتم في الزمان النكد، فنحن وأنتم كما قال أبو الطيب: أتى الزمان بنوه في شببته فسرّهم وأتيناه على الهرم وربك يفعل ما يشاء.



من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن^(١)

من علوم القرآن التي اعتنى بها الأئمة، وأفردوها بالتصنيف علم «إعجاز القرآن»، وقد بدأ الكلام في هذا العلم: شذرات ونتاجاً في كتب التفسير، كشفاً لمواطن الكمال والجلال في كلام ربنا عز وجل.

وقد دخل المفسرون إلى الإعجاز من طريق تلك الآيات التي أمر بها المولى تباركت أسماؤه رسوله الأمين ﷺ أن يطلب من مشركي قريش الإتيان بمثل ما أنزل عليه، تدرجاً وتنزلاً، وذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، ثم قضى عليهم بالعجز وأياسهم أن يأتوا بشيء من ذلك، فقال عز من قائل: ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الاسراء: ٨٨].

ومعلوم أن مشركي قريش الذين سمعوا كلام الله يُتلى على لسان رسوله الأمين كانوا أرباب فصاحة وبيان، وكانوا يعرفون مواقع الكلام وحلاوة البيان، ولذلك أدهشهم القرآن حين سمعوه، ودلَّ عقولهم بعظمة بيانه وروعة معانيه، ودقة نظمه واتساقه، وحين لم يجدوا في الطعن إليه سبيلاً لم يسعهم إلا أن يقولوا: إنه شعر، وإنه سحر، وإنه أساطير الأولين اكتتبها محمد ﷺ فهي تُملَى عليه بكرة وأصيلًا. وهذا كله إقرار بعظمة ما سمعوا، وإذعان لأنه كلام مبين لكلام البشر، لكن ما انغمسوا فيه من العناد والمكابرة صدهم عن الاعتراف بأنه وحي يوحى، نزل به الروح

(١) مجلة «الهلal»، يناير ١٩٩٤م.

الأمين على قلب المصطفى المختار ليخرج الناس به من ظلمات الوثنية والشرك إلى نور الإيمان وصفاء التوحيد.

ثم كان أن هدى الله بهذا القرآن العظيم أقواماً، فأقبلوا على تلاوته، وتدبر أغراضه ومراميها، وتمثلوا بأوامره، وانتهوا عن نواهيه. وكان هو كتابهم الذي يعتصمون به ويلجأون إليه فيما دق وجل من أمورهم.

وبقيت طائفة — ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة — لم تهتد ولم تذعن، وظل عداؤها للقرآن قائماً، فأخذت تنقر وتنقب، التماساً للمعابة في هذا الكتاب المحكم، باتباع متشابه، وتحريف كلم عن مواضعه، وتخيل فساد نظم، أو لحن أسلوب، أو تناقض معنى، وقد أخذت هذه الطائفة تدب ديباً في القرنين الأولين، تستخفي بآرائها مرة، وتُصحر بها أخرى. لكنها في كلتا حالتها لم تترك أثراً يذكر، إذ لم تكن لها شوكة، وكانت العقيدة على صفائها، لم تكدرها مقولات المتكلمين، ولا خلافات المتأولين، ثم كان اللسان العربي لا يزال صحيحاً محروساً لم يتدخله الخلل، ولم يتطرق إليه الزلل.

لكن الصغير يكبر ويشب، والزرع الضعيف يستحصد ويقوى، وتأتي أيام كالحات، تنجم فيها الفتن بدواعٍ كثيرة: منها اختلاط اللسان العربي بغيره من الألسنة، وانتشار الكتب المترجمة بغثها وسمينها، وتغلغل أهل المذاهب والنحل الأخرى في صلب العقيدة الإسلامية، وإغرائها بالجدل وعلم الكلام، وأضحَر أهل العدا القديمة بآرائهم، وإذا الذي كان بالأمس هَمْساً ونجوى يصبح اليوم وله دويّ وصليل، فأخذت المجالس وحلقات الدرس تموج بتلك الآراء وتضطرب، وإذا بالذي كان مشافهة ومسامرة يسطر ويكتب وتتعاوره الأيدي.

ولم يكد المسلمون يدخلون في النصف الثاني من القرن الثالث حتى انكشف كل خبيء وظهر كل مكنون، واستعلن العدا للقرآن وللعربية ملفقاً في ثياب الخلاف الفلسفي والكلامي، ثم ما جر إليه كل ذلك من القول بفتنة خلق القرآن وأشباه لها من الكوائن والطامات.

لكن الله الذي تكفل بحفظ كتابه وفق طائفة من عباده ذادةً منافحين، قاموا لهذه المطاعن والشبهات، وألقوا بحججهم وبراهينهم فإذا هي تلقف ما يأفكون. ولعل أول حامل لهذا اللواء هو الإمام الجليل أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، خطيب أهل السنة، المولود سنة ٢١٣، والمتوفى سنة ٢٧٦، فقد انتدب لهذه الشكوك والمطاعن التي تثار حول القرآن، فجمعها ثم سدد إليها سهامه وأعمل فيها معاوله، فاقتلعها من جذورها، وكان مجلى ذلك كتابه العظيم «تأويل مشكل القرآن» إلى ما نشره في كتبه الأخرى، مثل «تأويل مختلف الحديث».

ثم ظهرت مسألة «إعجاز القرآن» مبحثاً قائماً بذاته، يقصد إليه قصداً. وكانت تلك المسألة «من أبرز المسائل التي تعاورها العلماء بالبحث أثناء تفسيرهم للقرآن، وردهم على منكري النبوة، وخوضهم في علم الكلام، كعلي بن ربن كاتب المتوكل في كتاب «الدين والدولة»، وكأبي جعفر الطبري في تفسيره «جامع البيان عن وجوه تأويل آي القرآن»، وكأبي الحسن الأشعري في «مقالات الإسلاميين»، وأبي عثمان الجاحظ في كتابه: «الحجة في تثبيت النبوة».

وكان علماء الاعتزال أكثر المثيرين للكلام في إعجاز القرآن، فقد ذهب النظم — من بينهم — إلى أن القرآن نفسه غير معجز، وإنما كان إعجازه بالصرفة، وقال: «إن الله ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة، بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام، والعرب إنما لم يعارضوه، لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك، وسلب علومهم به».

وذهب هشام الفوطي، وعباد بن سليمان إلى أن القرآن لم يُجعل علماً للنبي، وهو عرض من الأعراض، والأعراض لا يدل شيء منها على الله ولا على نبوة النبي. وكان ذلك وغيره من أقوال أئمتهم منبهاً غزيراً للقول في إعجاز القرآن. وقد انبرى كثير منهم للرد على من أنكر إعجازه جملة، كأبي الحسين الخياط وأبي علي الجبائي، اللذين نقضا على «ابن الراوندي» كتابه: «الدامغ» الذي طعن فيه على نظم القرآن وما يحتويه من المعاني، وقال: إن فيه سفهاً وكذباً. وكذلك رد كثير منهم

على من خالف عن قول جماعتهم، بأن تأليف القرآن ونظمه معجز، وأنه علم لرسول الله ﷺ، كالجاحظ الذي رد على النظم رأيه في الصرفة في كتاب: «نظم القرآن».

ثم أفرد علم «إعجاز القرآن» بالتصنيف، ومن أشهر ما صنف فيه مما هو مطبوع ومتداول:

١ — النكت في إعجاز القرآن، لأبي الحسن علي بن عيسى الرّماني المتوفى سنة ٣٨٦.

٢ — بيان إعجاز القرآن، لأبي سليمان حمّد بن محمد الخطابي البُستي المتوفى سنة ٣٨٨.

٣ — إعجاز القرآن، لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣.

٤ — الرسالة الشافية، للشيخ أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١، وهو صاحب «دلائل الإعجاز» و «أسرار البلاغة». ويعد كتاب أبي بكر الباقلاني من أوعب ما ألف في هذا العلم. قال ابن العربي: «ولم يصنّف مثله».

«هذا الكتاب»:

ويأتي كتابنا هذا في «علم إعجاز القرآن» نمطاً وحده، فقد أداره مؤلفه — محمود رؤوف أبو سعدة — على وجه من إعجاز القرآن جديد، لم يسبقه إليه سابق، ولم يفتن إليه باحث، وكان كعب بن زهير، رضي الله عنه، لم يكن مصيباً حين قال:

ما أُرانا نقول إلا مُعاراً أو مُعاداً من قولنا مكروراً
إلا أن يكون أراد الشعر وحده!

فقد يفتح الله على الأواخر بما لم يفتح به على الأوائل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وهذا أيضاً وجه من وجوه إعجاز القرآن، وأنت ترى هذا من نفسك، فقد

تتلو الآية أو السورة في صلاتك، أو في مَعْدَاك ومراحك، وعند أخذ مضجعتك، وتمر عليها مرأً، ثم تتلوها نفسها في ساعة أخرى من ساعاتك، وفي حالة مباينة من حالاتك، أو تسمعها من قارئ غيرك، فإذا هي تهزك هزاً، وإذا هي تملأ كل ما حولك بهجة وضياء، ثم تفجر أمامك ينباع من الحكمة والهدى لم يكن لك بهما عهد، وتعجب، كيف غُيِبَ عنك كل هذا الخير فيما سلف لك من أيام!

وكل الكلام يُملَأُ إلا كلام ربنا عزَّ وجلَّ، وصدق رسول الله ﷺ في وصفه — وهو المنزل عليه: «ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخْلُقُ على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه».

وهذا الوجه من الإعجاز القرآني الذي قام له المؤلف ونهض به، وجه قاطع بات، لا تصح فيه لجاجة، ولا تسوغ معه مخالفة، لأنه قائم على قواعد اللغة، ومستند إلى أحكام التاريخ، وليس للهوى فيه حظ أو نصيب.

وعنوان الكتاب كما ترى (من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن) — العَلَمُ الأعجمي في القرآن مفسراً بالقرآن — وهو عنوان دال على موضوعه صراحة، متجه إليه مباشرة، ومنهج الوضوح دائر في هذا الكتاب كله، فالمؤلف يمضي إلى قضاياها ويعالجها دون ثرثرة أو تلكؤ أو فضول.

يقرر المؤلف أن القرآن يفسر في ثنايا الآيات المعنى الدقيق لكل اسم أعجمي عَلم ورد في القرآن، أيّاً كانت اللغة المشتق منها هذا الاسم الأعجمي العلم، وإن كانت لغة منقرضة يجهلها الخلق أجمعون عصر نزوله.

وأسلوب القرآن في ذلك — كما يقول المؤلف — «المجانسة على الاسم العلم بما يفسر معناه أبين تفسير»، ومثال ذلك ما ذكره في تفسير اسم «زكريا» عليه السلام: يقول ربنا عزَّ وجلَّ: ﴿ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا﴾ ﴿١﴾ [مريم: ٢]، وقول المؤلف: زكريا في اللسان العبراني معناه حرفياً «ذاكر الله»، ثم يدعوك المؤلف إلى أن تتأمل المجانسة بين قوله تعالى: ﴿ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا﴾ ﴿٢﴾ وبين «ذاكر الله»، وكأنه عزَّ وجلَّ يقول — وهو أعلم بما يريد — ذكر الله ذاكر الله، أو: ذكر الله فذكره الله، أو: ذكر الله فذكرته رحمة الله.

وقد يأتي تفسير العلم العجمي في القرآن بذكر المرادف العربي لمعناه بغير العربي: ومن ذلك أن معنى «جبريل» في العبرية: الشديد القوي، وجاء التعبير عنه في القرآن بذلك، قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۖ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۖ﴾ [النجم: ٦، ٥]. والمِرَّة بكسر الميم وتشديد الراء: بمعنى القوة أيضاً. وكذلك قوله تعالى عن جبريل عليه السلام: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۖ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۖ﴾ [التكوير: ٢٠، ١٩].

ومثل ذلك ما انتهى إليه المؤلف في أمر «نوح» عليه السلام، فقد رده بعض مفسري القرآن إلى «النوح» فقالوا: هو من ناح ينوح، وجاء المؤلف فطبق عليه منهجه فرده — اعتماداً على قواعد اللغة العبرية — إلى معنى التلبث والإقامة، ثم فسره بالسياق القرآني الكاشف، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]، وقوله عز وجل: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتُومِرُونَ إِنَّ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِمَا كُنْتُ أَعْلَىٰ اللَّهُ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: ٧١]، وقوله تباركت أسماؤه: ﴿وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ هُورًا بَاقِينَ ۖ﴾ [الصافات: ٧٧].

وثالثة: يذكر المؤلف أن «إسماعيل» يُنطق في العبرية «يشماعيل» ومعناه: سَمِعَ الله، أو سميع الله، ثم التمس هذا المعنى في سياق القرآن الكريم، فوجده في قوله عز وجل على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ۖ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، وفي قوله عز وجل على لسان الخليل أيضاً وابنه إسماعيل عليهما السلام: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۖ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وهكذا يمضي المؤلف بهذا المنهج في تفسير أسماء الأعلام الأعجمية وما يشبهها من أسماء الأجناس والمواضع، وقد أحصى في ذلك واحداً وستين علماً أعجمياً أو مختلفاً في عجمته في القرآن، فسرهما من القرآن نفسه، تعالى مُنزله. ثم ذكر أن القرآن لا يفعل هذا فقط، ولكنه يصحح أيضاً لعلماء العبرية وعلماء التوراة، وقت نزوله وإلى يوم الناس هذا، تفسيراتهم اللغوية لمعنى هذا العلم العبراني

أو ذاك، من مثل أسماء بني إسرائيل الواردة في القرآن وغيرها من أسماء المواقع، مثل «مدين» فيخطئ أصحاب اللغة ويصيب القرآن.

فهذا هو عمود صورة الكتاب، كما أقامه مؤلفه، وكما أراد له أن يكون، ولكنه من وراء ذلك ومن قدامه قد استطرد إلى قضايا كثيرة، عقيدية ولغوية وتاريخية.

ومن أنفس ما في هذا الكتاب — وكله نفيس إن شاء الله — ما ذكره المؤلف حول تاريخ كتابة التوراة والإنجيل، وأن نص التوراة مستنسخ من الذاكرة بعد نحو ثمانية قرون من وفاة موسى عليه السلام، وكذلك الأناجيل الأربعة المتداولة لم يخطها عيسى عليه السلام بيده، ولم يملها على حواريه، وبهذا تكون سلسلة السند في التوراة والإنجيل منقطعة، وليس كذلك القرآن.

ومما يتصل بالتوراة: ما سجله المؤلف من قصورها وتقصيرها في ذكر الأنبياء الذين هم من قبل إبراهيم عليه السلام، فتكون بذلك «توراة بني إسرائيل» ليس غير.

وقد أفضى ذلك بالمؤلف إلى أن طعن كثيراً في «سفر التكوين» الذي بين أيدينا الآن، وكذلك شنع على كاتب التوراة وكشف تدليسه وكذبه في أكثر من موضع، بل إنه نبه على تناقضه مع نحو اللغة العبرية ومعجمها.

أما بنو عيسى لآدم عليهما السلام، وعبوديته لله عزَّ وجلَّ فقد عالجهما المؤلف في غير مكان من الكتاب.

والكتاب في تسعة فصول، خصص المؤلف الفصول الثلاثة الأولى منها لما يمكن أن نسميه تسمية علماء القراءات: الأصول، والفصول الستة الباقية جعلها لما يسمى عندهم القَرَش، وهو تنزيل الكلام على أسماء الأعلام: عَلَماً عَلَماً، كما ينزل الكلام في اختلاف القراء على سور القرآن: سورة سورة.

أما الأصول، فقد أدار المؤلف عليها كلاماً عالياً شريفاً، حول أصناف الملاحظة ومناقشتهم، ثم تكلم عن خصائص اللسان العربي وعبقرية العربية وقدمها، وأوجه التقابل والتغاير بينها وبين العبرية، ليجيب بعد ذلك: لماذا كانت العربية هي أم الساميات جميعاً؟

وأشار إلى لغات العالم المعروفة وقت نزول القرآن، ثم أورد كلاماً عزيزاً عن القرآن، وأورد اجتهادات في لغة آدم عليه السلام، التي تكلم بها على الأرض مهبطه من الجنة .

وتحدث عن استعارة معاني الأفعال، وحدود الأخذ والاستعارة من اللغات الأخرى .

ولهذا المؤلف اجتهادات جيدة في الاشتقاق، وتأصيل عربية بعض ما يظنه الناس أعجمياً، مثل «جهنم» وتخطئة بعض اللغويين العرب في أصل «إبليس» واشتقاقه .

وهناك أمر لا يزال المؤلف يعتاده ويُلَمُّ به كثيراً، وهو الرد على المستشرقين ومن إليهم من متحذلقة الأساتيد في هذا القرن، الذين أدركتهم عجمة العلم واللسان . . . أو كما قال . وقد ردّ على المستشرقين في طعنهم على القرآن، وأنه وحي من الله يوحى على خاتم الأنبياء ﷺ .

ولعل أغنى بحث فيما وقع لي من أصول هذا الكتاب : هو الكلام على اسم أبي إبراهيم عليه السلام، وهو «آزر» في القرآن، و «تارح» في التوراة، وقد تختلف مع المؤلف في بعض ما انتهى إليه من الربط بين «آزر» و «تارح» ولكنك تكبر فيه صدق الجهد وقوة الحجة .

وهكذا تتوالى القضايا في هذا الكتاب النفيس . على أنني أحب أن أسجل ها هنا أن كلام هذا الكاتب — وأنا لا أعرفه — لا تستطيع أن تفرق فيه بين أصل وحاشية، بل إن كثيراً من حواشيه ينبغي أن تنقل إلى صلب الكتاب أو متنه، وتأمل مثلاً حاشيته في الفصل الأول عند حديثه عن صور المغايرة بين العربية والعبرية، في توجيهه لتسميته ﷺ «محمداً» ومظهر الحمد فيه، وما تلا ذلك من حديثه عن «الموابية» والمقارنة أو الموازنة بين «ساذج» و «سادة»، و «كيسر» المعرب إلى «قيصر»، والاسم الإسباني «رذريجو» المعرب إلى «لذريق» . . . وغير ذلك من العلم المنشور في حواشي الكتاب .

ومع غزارة هذه المعارف التي يقدمها لنا الكاتب، ونفاستها، فهو لا يدل بها على قارئه، ولا يسوقها في موكب تتقدمه الخيالة، ويحف به راكبو الدراجات، وتكتنفه دقات الطبول، كما يفعل كثير من الكتاب الآن، وإنما يأتيك كلامه سهلاً رهواً، يتهدى في إهاب الكرامة والتواضع والإسماع، وعليه من العلم بهاؤه، ومن الجد أماراته، بأسلوب عذب مصفى، أسلوب كاتب يحترم عقل قارئه، ويريد إمتاعه لا التعالي عليه.

يقول في الفصل الثاني — الأعجمي المعنوي والأعجمي العلم — في مناقشة المفسرين الذين اعتمدوا في تفسير أسماء أنبياء بني إسرائيل على المعجم العربي وحده، يقول: «وأنا أيها القارئ العزيز — إن كنت لا تعرف عبرية التوراة أو يونانية الأناجيل —، بما في هذه وتلك من أعلام آرامية بل ومصرية أحياناً — لا أريد أن يفوتك شيء من حلاوة بحث أريد أن أحبره لك تحبيراً: أريد منك أن تشترط علي توثيق ما أحدثك به، فلا أكيل لك القول جزافاً آمناً ألا تكشف زيفي، لأنك لا تعلم شيئاً من أمر تلك اللغات التي ذكرت لك، ليس هذا من العلم في شيء، وإنما هو من التدليس».

إن في هذا الكتاب علماً كثيراً، وإن فيه خيراً كثيراً، وإن عليه نوراً كثيراً، وما أظن ذلك كله قد كان إلا لأن مؤلفه قد تغيا به غايات نبيلة: هي خدمة كتاب الله، بالكشف عن نواحي إعجاز جديدة فيه، والأمور بمقاصدها، يقول تاج الدين السبكي: «ولقد حصل أبو زُرعة على أمر عظيم ببركة حفظه للحديث، وهكذا رأينا من لزم باباً من الخير فُتح عليه غالباً منه».

ويقول عبد اللطيف البغدادي: «اعلم أن للدين عَبة وعَرفاً ينادي على صاحبه، ونوراً وضيئاً يشرف عليه ويدل عليه».

ويقول أبو الحسن العامري: «إن الدين كريم الصحبة، يعز من لجأ إليه، ويستر عيوب من اتصل به، مع ما يُذخر له في عاقبته من الغبطة الأبدية».

قلت: وقد رأينا كثيراً ممن تناولوا على الدين وهزأوا به وسخروا منه في مجالسهم، أو في أعمالهم الأدبية — شعراً أو نثراً — قد انتهى أمرهم إلى خسار وبوار، بل إن منهم من رأى فقره بين عينيه، ورأى عافيته تتفلت من بين يديه، مع ما تراه من ظلام في وجوههم... ﴿وَمَنْ يُؤِنَّ اللَّهَ فَمَا لَكُمْ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

وتبقى بعد ذلك كلمة:

— لقد قلت من قبل إن أسلوب هذا الكاتب عذب مصفى، واللَّهُمَّ نعم! لكن شاب هذا الصفاء، وعكر هذه العذوبة بعض أوشاب مما يخالط الأساليب الشريفة، تتسلل إليها لواذاً، وكأنها العدو المهلكة، تتخلل ذرات الهواء، لا تحس بها إلا وقد داهمتك في خلايا بدنك — عافاك الله — فلا تستطيع لها دفعاً ولا مرداً.

ومن ذلك ما جاء في كلام المؤلف الفاضل من هذا التركيب «موسيقى القرآن» وهو تركيب رخو لين، لا يليق بجلال القرآن وبهائه، ولا ثقل: لا بأس علينا من تقارض مصطلحات العلوم، لأن فيه إثراء للغة، لا ثقل هذا ولا تغتر به، لأنه مدخل لبلاء عظيم، ولو فتحنا هذا الباب لفسد علينا كل شيء، فإن للكلام حدوداً ومعالم ينتهي إليها، أنسيت أن منا من قال: إن القرآن رسم لوحة صفتها كيت وكيت؟ فجعل المولى عز وجل فنناً تشكلياً يحمل فرشاة يغمسها في ألوان، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

لقد غيروا «النظم القرآني واتساقه» فجعلوه «موسيقى القرآن»، ثم غيروا «العروض» فجعلوه «موسيقى الشعر»، ثم غيروا «علم الصرف» فسموه «علم الصوتيات»، ثم وثم وثم، وبالله نستدفع البلاء!.



الشيخ الشعراوي.. واللغة^(١)

الشيخ محمد متولي الشعراوي ظاهرة غريبة عجيبة في زماننا، وإن كان له أشباه ونظائر فيما سلف لنا من أيام، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وقد عرف جمهور الناس هذا الشيخ الجليل في أوائل السبعينات الميلادية، وكان صاحب الفضل في التعريف به وتقديره للناس الأستاذ الفاضل النابه: أحمد فرّاج، وذلك من خلال برنامجه التلفزيوني المعروف يومئذ: «نور على نور»، وللتاريخ نقول: إن الذي قدم الشيخ الشعراوي للأستاذ أحمد فرّاج هم طائفة من أدباء السعودية ووجهائها، عرفوا للشيخ قدره وأنزلوه منزلاً كريماً أيام تدريسه بكلية الشريعة بمكة المكرمة، وللشيخ هناك أصداء عالية الرنين.

وقد بهر الشيخ الشعراوي آنذاك أسماع الناس وأبصارهم بثلاث حلقات تلفزيونية حول: الإسراء والمعراج، والقضاء والقدر، وحديث هند بن أبي هالة في صفة خلق رسول الله ﷺ.

ويومها أدرك الناس — كل الناس — أنهم أمام صوت جديد يدعو إلى الله على بصيرة، بأسلوب مبين لكل ما ألفه الناس من أساليب الدعوة والتوجيه، وأنماط الوعظ والإرشاد، وإنما كان ذلك لأن الشيخ سلك في وعظه درباً غير مطروق، وورد ماء مهجوراً، وانتجع كلاً غير مرعي.

تكررت لقاءات الشيخ بالناس في البرنامج التلفزيوني المذكور، على فترات

(١) مجلة «الهلal»، فبراير ١٩٩٤م.

متباعدة حول بعض القضايا التي يسأل عنها الشيخ فيجيب، إلى أن استقر أمره على هذا اللقاء الأسبوعي: تفسير القرآن العظيم.

وفي هذا اللقاء، ويوماً إثر يوم اتضح منهج الشيخ، وتحدّدت ملامحه. ويهمني في هذا المقام الكشف عن هذا المنهج، وإقامة حدوده ومعالمه، وتلمس أسبابه وبواعثه؛ فإن الشيخ يمثل عندي أنموذجاً ينبغي أن نجلوه للناس، بعد أن ندل على جذوره وأصوله، وإن في ذلك كله بعثاً لتاريخ عزيز غاب عنا، أو أريد له أن يغيب.

وإذا كان لكل عالم أو مفكر مفتاح، فإن مفتاح شخصية هذا الشيخ هو «اللغة»، واللغة هي الباب الأول في ثقافات الأمم، وإهمالها أو التفريط فيها، أو السخرية منها هدم لتاريخ الأمم، ومحو لها من الوجود.

العناية باللغة :

وعناية الشيخ باللغة تتجلى في مستوياتها الأربعة: أصواتاً وصرفاً ونحواً ودلالة. وفي طريق هذه المستويات الأربعة صال الشيخ وجال، ومما يُحسب في موازينه، ويسجل له: هذه الجسارة والجرأة في معالجة تلك القضايا وجمهوره الأعظم من عامة الناس، ولكن الشيخ يرى أن هذا ضروري لتفسير كلام الله والكشف عن مراده.

وقد استطاع الشيخ على هذا المدى الطويل أن يأخذ العامة وأوساط الناس إلى قضايا التذوق والبلاغة واللغة والأدب، وخاض بهم لجج هذه العلوم، واستكثر من شواهد الشعر والأمثال وكلام الفصحاء، وأحب أن أسجل ها هنا أن عوام الناس يستجيبون لذلك ويستمتعون به، وإن كانوا لا يستطيعون التعبير عنه، فيجب أن نحسن الظن بهم، فإن لبعضهم ذوقاً قد يجفو عنه بعض الخاصة، ومن غريب ما كنت ألاحظ في أحيائنا الشعبية أن خطيب الجمعة كان إذا اندفع في الكلام الخفيف العامي على المنبر ضاق به الناس وخرجوا ساخطين يقولون: «إيه الهيافه دي؟ يا عم سبيك منه دا بيتكلم زئناً!»

إن الشيخ الشعراوي قد نجح فيما عجز عنه غيره، فإننا على كثرة ما كتبنا عن الإعجاز القرآني وعبقورية اللغة العربية لم نستطع أن ننزل بهذه القضايا إلى عامة الناس، وظلت هذه القضايا دائرة بيننا، يدخل اللاحق على السابق، وكأننا نحدث بعضنا بعضاً.

وبدء ذي بدء، فإن الشيخ يصرح بضرورة استقبال القرآن بملكة اللغة، ليخرج المستشرقين وأمثالهم من أعاجم العرب الذين كتبوا في الدراسات القرآنية وهم بمعزل عن فقه اللغة، ثم يقول: إن هؤلاء أخذوا اللغة صناعة، ولم يأخذوها ملكة.

وما من آية من كلام ربنا عز وجلّ يعرض لها الشيخ بتفسير وبيان إلا وأفاض في قضايا اللغة، بادئاً بتأصيل الكلمة صرفاً واشتقاقاً، على المنهج الذي أصله ابن فارس في «مقاييس اللغة»، وابن جني في «الخصائص» بالقدر الذي تطيقه العامة وتدركه الخاصة، وقد نجح في ذلك نجاحاً ظاهراً. وعلى سبيل المثال فحين عرض لتفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٦٣]، ذكر أن القفو اتباع شيء لشيء، وقال: إن من ذلك «القفا» هذا المعروف، لأنه يقفو الوجه، أي يتبعه، وقافية البيت في الشعر؛ لأنها تقفو سائر الكلام أي تتبعه.

ويقف الشيخ كثيراً عند معاني الحروف وأثرها في الدلالة، ووضع بعضها مكان بعض، كقوله تعالى: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨]، فإن معنى «من» هنا معنى «بدل»، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥]، فتعدى الفعل هنا باللام، مع أنه جاء معدى بإلى في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِي﴾ [القصص: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُهُمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦]، ولم يقل «مع ظلمهم». و «علم معاني الحروف» علم ضخمة من علوم اللغة، والمؤلفات فيه كثيرة، والعناية به واجبة، والشيخ دائم الحديث فيه.

وللشيخ احتفال زائد بالفروق اللغوية، في الأبنية: كعالم وعليم، وشاكر وشكور، وهو الفرق بين اسم الفاعل، وأمثلة المبالغة المأخوذة منه، وكعذل وعادل

وهَذي وهادٍ، وهو الفرق بين الوصف بالمصدر والوصف باسم الفاعل. ثم الفروق فيما يبدو مترادفاً من اللغة، كالفرق بين الشك والريب، والحزن والبث، والرجاء والتمني، والحسد والغبطة، وهو باب معروف من أبواب اللغة، وممن ألف فيه أبو هلال العسكري. ويفرق الشيخ كذلك في جموع التفسير بين العباد والعبيد.

وإذا كنت لا أستطيع أن أُلِمَها هنا بكل ما قيدته من قضايا اللغة التي يُعنى بها الشيخ ويدير الكلام حولها، فإني لا أستطيع أن أغفل جانباً مهماً جداً من جوانب اللغة، يتعهده الشيخ دائماً ويحرص عليه، وهو «غريب اللغة»، وهو مصطلح يراد به الكلمات الغامضة القليلة الاستهلاك في كلام الناس، وتأتي غالباً في الكلام العالي الفصيح. وليست الغرابة في اللغة كالغرابة في البلاغة، لأن هذه يراد بها الكلام الحوشي المُستكره، أصواتاً ودلالة. أما الغرابة في اللغة فتقال في مقابل الوضوح، وشاهد هذا ما ذكره الخليل بن أحمد في مقدمة كتابه العين، قال: «بدأنا في مؤلفنا هذا بالعين، وهو أقصى الحروف، ونضم إليه ما بعده حتى نستوعب كلام العرب الواضح والغريب» كتاب العين ١/ ٦٠ (طبعة العراق).

وقد دارت على هذا العلم مؤلفات كثيرة، وبخاصة: ما يُسمى غريب القرآن وغريب الحديث. وهذا العلم — علم الغريب — مما أهمله الناس في زماننا هذا إهمالاً يوشك أن يكون تاماً، فقد هجره الناس هجراً طويلاً، بل إن بعضهم إذا صادف شيئاً منه في نص قديم، غيَّره إلى مرادف له مما يسهل على الناس، كالذي رأيته يوماً عند أحدهم من تغيير «وكان عمر بن الخطاب رجلاً طوالاً» بضم الطاء، أي بالغ الطول، غيره إلى: «رجلاً طويلاً جداً». وأشد من هذا أن بعضهم أنكر استعمال كلمة «لُغوب» لعدم جريانها على ألسنة الناس هذه الأيام، مع مجيئها في القرآن العزيز!

قال تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

وهكذا ينكر كثير من الكتاب الآن ألفاظاً وتراكيب كثيرة ضاربة في الفصاحة

بعروقتها. ولست تجد هذه الألفاظ والتراكيب في النصوص الأدبية فقط، من شعر ونثر، بل إنك واجدها في علم الأنساب والتاريخ والجغرافيا، وكتب الفلك والطب والفلاحة والزراعة، وسائر ما كتب الأوائل.

وينادي بعضهم الآن بهجر هذه اللغة القديمة وتبني لغة واقعية كالتي تقرأ في الصحافة ووسائل الإعلام، حتى لا يشعر التلميذ بفجوة بين الذي يقرأه في النصوص القديمة، وبين ما يسمعه في واقع الحياة من تلك اللغة التي تلبي احتياجاته.

وحجة هؤلاء أن لكل عصر لغته وأعرافه، وهي حجة داحضة [تنبيه: حجة داحضة هذه من التعبيرات القرآنية، فلا بأس علي في استعمالها إن شاء الله]، ومردود عليها من أكثر من وجه. لكنني أسأل: إذا نحن ربينا أبناءنا على هذا المنهج المقترح، وسلخ التلميذ من عمره ما سلخ في المراحل: الابتدائية والإعدادية والثانوية، ثم دخل كلية جامعية تعنى باللغة والأدب، مثل دار العلوم أو الآداب، فماذا هو صانع مع مناهج هذه الكليات، التي تدور حول قضايا اللغة قديماً وحديثاً؟ نعم ماذا يصنع ذلك التلميذ مع مناهج هذه الكليات، وقد دخلها مُفَرَّغاً خالي الوفاض؟ إلا إذا غيرنا مناهج اللغة أيضاً في هذه الكليات حتى نُضَيِّق الثغرة بين اللغة العربية كما تقدمها النصوص وبين اللغة العربية في واقع الحياة — كما جاء في أخبار الأدب — العدد التاسع ١٢ سبتمبر ١٩٩٣ ص ٢٦.

إن للغة جانباً تاريخياً يجب الحرص عليه ومعرفته، ثم إن اللغة ممتدة مع أصحابها لا تموت ولا تفنى، وليست اللغة للتفاهم وقضاء المصالح فقط، وإلا لكان القَدْر اللازم لنا منها محدوداً جداً، وكان الذي يعرف خمسمائة كلمة إنجليزية تلبي احتياجاته في متاجر لندن وشوارعها عالماً باللغة الإنجليزية.

ولقد كان غريب اللغة الذي هو الفصيح الرفيع مألوفاً للناس إلى عهد قريب، في خطبة الجمعة، وفي الكتاب المدرسي والكتاب الجامعي، ثم على ألسنة المحاضرين وأقلام الكاتبين، ثم هجره الناس هجراً غير جميل، ثم جاء الشيخ

الشعراوي فردنا إليه رداً جميلاً، وكان أول عهد الناس معه حين عرض لحديث هند بن أبي هالة في وصف خلق رسول الله ﷺ.

وفي هذا الحديث غريب كثير كشفه الشيخ غاية الكشف، وأبان عنه غاية الإبانة. وبعض ما يعرفه الشيخ من غريب الكلام مما يدق ويغمض على كثير من الناس، بل إن بعض المثقفين يُصَحِّفُه لخفاء معناه عنده: سمعت الشيخ ذات يوم في حلقة من حلقات يوم الجمعة يُنشد قول الشاعر الأموي عروة بن أذينة:

لقد علمت وما الإشراف من خلقي أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى له فيعنيني تطلبه ولو قعدت أتاني لا يعنيني

هكذا أنشد الشيخ «وما الإشراف» بالشين المعجمة، وهو صواب إنشاده، ومعناه: إني لا أستشرف ولا أطلع إلى ما فاتني من أمور الدنيا ومكاسبها ولا تتبعها نفسي. وبعضهم لا يعرف هذا المعنى الغريب فينشد: «وما الإسراف» بالسين المهملة مُصَحِّفاً ومُزَالاً عن جهته، وكأن الذي زين له ذلك وجود الكلمة في سياق الرزق.

وقد امتدت عناية الشيخ أيضاً إلى النحو، وهو علم التراكيب، وشأنه خطير، يقول أبو العباس ثعلب: «لا يصح الشعر ولا الغريب إلا بالنحو، النحو ميزان هذا كله»، والشيخ لا يكاد يخلي حلقة من حلقاته من شيء من دقائق هذا العلم الجليل.

ففي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْأَعْلَىٰ﴾ [التوبة: ٤٠]، حيث جاءت «كلمة» الأولى بالنصب، و«كلمة» الثانية بالرفع، يقول: لماذا لم تُعطف الثانية على الأولى فتكون منصوبة مثلها؟ ثم يجيب: لأن كلمة الله أصلاً عالية ثبوتاً ولزوماً، فهي لا تُجعل. وهكذا يربط الشيخ بين الإعراب والمعنى في هذه الآية الكريمة، وفي غيرها من الآيات.

ومن وراء اللغة وقضاياها يتقدم الشيخ إلى الناس بثقافة العالم الأزهري المتمكن من علوم العربية كلها، لأن العربية عند أهل العلم كتاب واحد، فيُلم الشيخ

كثيراً بقضايا البلاغة من معان وبيان وبديع، فحين فسّر قوله تعالى: ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]، ذكر أن هذا من باب المشاكلة. واستشهد بقوله عز وجل: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئًا تَمَثَّلَهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، ويقول أبي الرقعمق:

قالوا اقترح شيئاً نُجِدُ لك طبخه قلت اطبخوا لي جُبّة وقميصاً

ومن جرأة الشيخ، بل قل: إنه من وفائه لعلومنا وتاريخنا، وأيضاً من بره بالعامّة والارتقاء بأذواقهم وتوسيع مداركهم: ذكره لبعض مصطلحات العلوم الدقيقة، كأصول الدين أو علم الكلام، كالفرق بين صفات الذات وصفات الأفعال، وصفات الربوبية وصفات الألوهية، وكأصول الفقه، من مثل قولهم: لَمَحَ الأصل — لا يُعتد بالعارض — دلالة الاقتضاء واللزوم... وهكذا كان حال علمائنا وواعظينا في كل الأزمان، كانوا يرون أن للعامّة حقاً ونصيباً مفروضاً في هذه المعارف، إن لم يكن من طريق العلم والإحاطة، فمن باب الأنس بها والارتياح إليها.

وتذكر كتب التراجم والرجال أن حلقات الدرس والإملاء كانت تجمع أشتاتاً من الناس، من العلماء وممن دونهم، بل إن الآباء كانوا يُحضرون أطفالهم مجالس الإملاء ويثبتون أسماءهم في طبقات السماع، بل كانت حلقات الدرس بالجامع الأزهر إلى عهد ليس ببعيد تجمع عوام الناس يجلسون إلى كبار العلماء، كتفاً إلى كتف مع طلبة العلم من أهل الاختصاص.

الشيخ وعلوم القرآن:

علوم القرآن: مصطلح يراد به الأبحاث المتعلقة بالكتاب العزيز، من حيث معرفة أسباب النزول، وعلم القراءات والرسم، والمكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، والغريب والإعراب إلى غير ذلك. وهذه القضايا مبثوثة في كتب التفسير، على منازلها ومناسبتها في سور القرآن الكريم، لكن العلماء أفردوها بتأليف خاصة، من أشهرها البرهان في علوم القرآن للزركشي، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي. ويطوف الشيخ كثيراً بهذه العلوم.

أما أبرز علم من علوم القرآن يقف عنده الشيخ ويطيل الوقوف، ولا يزال يعتاده يوماً بعد يوم فهو «علم الأشباه والنظائر» أو «علم الوجوه والنظائر»، وهو علم يتناول دوران الكلمة أو التركيب في القرآن على أوجه مختلفة، من حيث اختلاف المعنى الدلالي للكلمة، أو اختلاف التركيب بالتقديم والتأخير. وقد أفرد هذا العلم بالتأليف كثير من العلماء، منهم مقاتل بن سليمان، والدامغاني، وابن الجوزي، ومن أمثلته ما يذكره الشيخ حول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وقوله: ﴿وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣].

ومن القضايا القرآنية التي يحتشد لها الشيخ احتشاداً: قضية دفع التعارض والتناقض بين آي الذكر الحكيم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]، مع قوله: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]، وكقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، بإزاء قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

أما أسرار النظم القرآني، وإيثار أسلوب على أسلوب، فهو مما يفيض فيه الشيخ كثيراً، وهو يرجع فيه إلى محصول وافر ومحفوظ واسع من ثقافته الأزهرية الغنية، لا إلى ما يقوله بعض مستمعي الشيخ ومريديه من أنه يُلهم به إلهاماً، ويحدث به تحديثاً، وكأنه غير مسبوق أو مشارك، ونحن لا ننكر أن الله يفتح على بعض عباده فتحاً، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، لكننا نقرر أن كثيراً مما يذكره الشيخ معروف ومذكور ومسطور في الكتب، وفضل الشيخ أنه يذكره إذ نسيه الناس، ويرعاه إذ أهمله الناس، فهو يحيي ما درس، وينفخ فيما خمد.

ولعل القارئ الكريم يسمح لي بالتذكير بصورة مما سبق به علماؤنا مما يذكره الشيخ، وذلك ما ذكره الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي

المتوفى سنة ٦٦٠هـ - وهو صاحب مختار الصّحاح - قال في كتابه أنموذج جليل في بيان أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل، في توجيه الآية ٣٢ من سورة الإسراء: «فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ [الإسراء: ٣٢]، ولم يقل: ولا تزنوا؟ قلنا: لو قال: ولا تزنوا، كان نهياً عن الزنا لا عن مقدماته، كاللمس والمعانقة والقبلة ونحو ذلك، ولما قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾ كان نهياً عنه وعن مقدماته؛ لأن فعل المقدمات قربان للزنا».

الشيخ وإنشاد الشعر:

الشيخ الشعراوي شاعر طويل النفس، شجي النغم، وإن كان هو لا يذكر هذا، لكن زملاءه وعارفيه يذكرونه، ويروون أنه أنشد قصيدة طويلة أمام الدكتور طه حسين رحمه الله يوم أن قدم إلى جدة في الخمسينات الميلادية في اجتماع الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، ويذكرون أن الدكتور طه حسين طرب كثيراً لهذه القصيدة.

والشيخ - كما هو معروف - متخرج في كلية اللغة العربية من كليات الأزهر الشريف، وكانت مناهج الدراسة فيها في ذلك الزمان مما يُغذي الملكات ويُثمي المواهب، مع تلك الصفوة من العلماء المدرسين المشايخ إبراهيم حمروش ومحمد علي النجار ومحمد الطنطاوي ومن إليهم.

والشعر يخفّ على لسان الشاعر اللغوي فيحفظه ويرويه. ومحفوظ الشيخ من الشعر عال وغزير جداً، ويأتي في مقدمة محفظه: ذلك الشعر المعروف بشعر الشواهد، كشواهد اللغة والنحو والبلاغة والعروض، وشعر الشواهد هذا يتثال على لسان الشيخ انشياً، فما ذكر معنى لغوياً، أو توجيهاً نحوياً، أو تفسيراً بلاغياً إلا واستشهد له بالبيت والبيتين.

وإلى جانب شعر الشواهد هذا يتدفق الشيخ بعيون الشعر العربي من كل العصور، من الجاهلي إلى أحمد شوقي ومحمد إقبال، وله شعر شوقي عناية خاصة، وكأنه يستظهره استظهاراً، ولا يقف إنشاد الشيخ عند الشعراء المكثرين

المشاهير فقط، بل يشمل أيضاً الشعراء المقلين المغمورين، وقد سبق استشهاده بشعر عروة بن أذينة، أما ذلك الشعر الذي يُعرف بشعر المذاكرة والمجالسة، وهو ما يُتمثل به في المواقف وأحوال الناس وتقلبات الزمان، فعند الشيخ منه الكثير من مختلف العصور، وأذكر أن الشيخ في بعض دروسه ولقاءاته وقف عند ما يلقيه الناس من العداوات وبغْي بعضهم على بعض، وعلى عادة الشيخ في استخراج الحسن من السيئ، واستنباط الخير من الشر، قال: إن عداوة الناس قد تأتي بالخير... واندفع في كلام طويل، وهنا قفز إلى ذهني بيتان في صميم ذلك الكلام لأبي حيان النحوي، وإذا بالشيخ يُنشدهما، وذلك قول أبي حيان:

عِدَاتِي لَهُمْ فَضَّلَ عَلَيَّ وَمَنَةً فَلَا أَذْهَبُ الرَّحْمَنُ عَنِّي الْأَعَادِيَا
هُمْ بَحْثُوا عَن زَلَّتِي فَاجْتَنَبْتُهَا وَهُمْ نَافَسُونِي فَاکْتَسَبْتُ الْمَعَالِيَا

فقلت: سبحان الله! أي قراءة قرأ هذا الشيخ؟

وحفظ الشعر واستدعاؤه ضروري في تفسير كلام الله عزَّ وجلَّ. يقول الإمام مجد الدين ابن أبي الفرج الرُّوذراوري المتوفى سنة ٦٦٧هـ: «ومن ظن أن القرآن يُفهم كما ينبغي من غير تحقيق كلام العرب وتتبع أشعارهم وتدبرها كما يجب فهو مخطيء». كان ابن عباس - رضي الله عنه - حبر هذه الأمة ومفتيها ومفسر القرآن، وقد قال تلميذه عكرمة: إنه كان إذا سئل عن مشكل في القرآن يفسره ويستدل عليه ببيت من شعر العرب، ثم يقول: «الشعر ديوان العرب». وانظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق ٣٠/١.

وبعد: فهذا شيخ جليل جاء على حين فترة من العلماء الحفاظ الضابطين، وهو يمثل صورة زاهية للعالم الأزهري المؤسس على علوم العربية وقوانينها، من حفظ المتون، وإتقان التعريفات، والصبر على المطولات، والنظر في الحواشي والتعليقات والتقاريرات، فإذا ثبت هذا - وهو ثابت إن شاء الله - فلم ينصف الشيخ من يقول عنه: إنه ملهم لا غير، وإن ما يقوله إنما هو من باب العلم اللدني، فهذه

(دَرْوَشَة) في تقييم الرجال والحكم عليهم، وإنما الصواب أن يقال: إنه رجل مثقف مؤسس، واسع الاطلاع، غزير الرواية، سريع اللمح، ذكي اللسان.

وكذلك لم يُنصف الشيخ من يقول عنه: إنه وُهب حسن العرض، والقدرة على توصيل المعلومات، مع خفة ظل واضحة. فهذا من الدس الخفي، فإذا كانت البضاعة مزجاة فماذا يجدي حسن عرضها؟ كما قيل في أمثالنا العامية: «إيش تعمل الماشطة في الوش العكر؟»، وللناس في اصطناع وسائل الذم والتقص ديب وخداع، وهو ما قاله سادتنا البلاغيون: تأكيد الذم بما يشبه المدح.

وإن تعجب فعجب أن بعض مثقفينا وأدبائنا يُعرض عن الاستماع إلى الشيخ، لاجتماع العامة عليه، وانبهارهم به، وهذا خُلف من الرأي وفساد في الحكم، فما ينبغي أن يكون إقبال العامة على الشيخ وإعجابهم به صارفاً للخاصة عن الأخذ عنه والإفادة منه، والحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها، وقد كانت العامة تصرخ ويغشى عليها في مجلس وعظ الإمام أبي الفرج ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ ولم يصرف هذا الخاصة عن الإفادة منه والأخذ عنه، بل إن كتبه وتصانيفه تعد من الأصول في الفكر العربي الإسلامي، مثل زاد المسير، وتلقيح فهوم أهل الأثر، وتلبس إبليس، والمتنظم وغيرها.

يقول الرحالة ابن جبير، واصفاً مجلساً من مجالس ابن الجوزي، وقد حضره: «ثم إنه بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ، وآيات بينات من الذكر، طارت لها القلوب اشتياقاً، وذابت بها الأنفس احتراقاً، إلى أن علا الضجيج، وتردد بشهقاته النشيج، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، كل يلقي ناصيته بيده فيجزها، ويمسح على رأسه داعياً له، ومنهم من يُغشى عليه فيُرفع في الأذرع إليه، فشاهدنا هولاً يملأ النفوس إنابة وندامة، ويذكرها هول يوم القيامة...» رحلة ابن جبير ص ١٩٧، ١٩٨.

أرأيت أيها القارئ الكريم؟ هذا شبيه ونظير للشيخ الشعراوي منذ ما يزيد على ثمانمائة عام، فلا تعجب إذا رأيت مستمعي الشيخ على شاشة التلفزيون، وهم بين

فاغر فمه دهشة، وبين ما ذُ بصره عجباً، مخلوطاً ذلك كله بصيحات التكبير والتهليل، وما أكثر الأشباه والنظائر!

ولم يبق إلا أن أدعو للشيخ بطول العمر وتمام السلامة والعافية، ثم أهمس في أذنه - ولم يقدر لي أن أراه أو أجالسه - ببعض الملاحظات:

أولاً: أرجو من الشيخ الجليل أن يترفق في رد آراء العلماء السابقين حين يرى رأياً يخالف رأيهم، ومن ذلك إنكاره عليهم أن في القرآن حروفاً زائدة، مثل «ما» في قوله تباركت أسماؤه: ﴿فِيمَا رَحَّمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩]، فالزيادة ها هنا زيادة نحوية، والحرف الزائد عند النحاة هو الذي يكون دخوله وخروجه سواء، أو هو الذي لا يخلّ حذفه بالمعنى، وقد جاء منه أمثلة من القرآن العزيز، منها قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، وجاء كذلك في كلام العرب، ومنه قولهم: غضبت من غير ما جُرم، وقولهم: سمعت كلاماً ما، وجئت لأمر ما. ومولانا الشيخ يعلم هذا جيداً، فتسمية ذلك زيادة لا غبار عليه، بل إن إمام المفسرين أبا جعفر الطبري يسمي ذلك أحياناً «لغواً»، فهل يعتقد مؤمن أن في القرآن لغواً، ولكنها الصناعة النحوية، فيجب أن ينص الشيخ على أن هذا من اجتهاداته الخاصة، حتى لا يتجرأ الناس على أهل العلم.

ثانياً: نعترف أن للشيخ معرفة جيدة بالسيرة النبوية وأحوال الرجال وتراجمهم وضبط أسمائهم وكُنَاهم وألقابهم، ولكنه يندُّ عنه أحياناً أشياء لعدم المراجعة، ومن ذلك أنه نطق مرة اسم «حِبان بن العَرِقة» أحد المشركين الذين قاتلوا المسلمين في غزواتهم، نطقه «العرفة» بفتح الراء بعدها فاء، والصواب «العَرِقة» بفتح العين وكسر الراء بعدها قاف.

وكذلك ذكر وصية بعضهم لابنه حين أراد الزواج: «لا تتَّخذها حَنَانَةً ولا أُنَانَةً ولا مَنَانَةً ولا عَشْبَةَ الدَّارِ ولا كَيْيَةَ القَفَا»، نطقها الشيخ: «كُبَّة» بضم الكاف بعدها باء موحدة، والصواب: «كَيْيَةَ» بفتح الكاف بعدها ياء منقوطة باثنتين من تحتها. قال ابن

سيده: «وأما كَيْة القفا: فهي التي يأتي زوجها أو ابنها القوم، فإذا ما انصرف من عندهم قال رجل من خبثاء القوم لأصحابه: قد والله كان بيني وبين زوجة هذا المولّي أو أمه أمر. فتلك كية القفا، من أجل أنه يقال في ظهر زوجها أو ابنها القبيح، حين يولّي» المخصص ٢٣/٤، ٢٤.

ثالثاً: الشيخ حفظه الله مسموع متبوع، فنرجوه أن يتحرّى صفات الحروف ومخارجها وبخاصة الحروف الثلاثة: الثاء والذال والظاء في القرآن الكريم.

وهذه الملاحظات وغيرها مما لا يكاد يسلم منها بشر، إنما هي في حق الشيخ الجليل: تَعْوِذٌ من عين الكمال، فإن الكمال لله وحده والمعصوم من عصمه الله.



الهجرة وكتابة التاريخ الإسلامي^(١)

[١]

مكث رسول الله ﷺ بمكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة، ثم أمره ربُّه بالهجرة إلى المدينة. وروى الشيخان في صحيحيهما أنه ﷺ قال: «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب»، — وهلي، بفتح الواو والهاء: أي وهمي واعتقادي — .

وروى الشيخان أيضاً، ومالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال: «أمرتُ بقرية تأكل القرى، يقولون: يثرب، وهي المدينة، تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد». وقوله: «أمرتُ بقرية»، أي أمرني ربي بالهجرة إليها. وقوله «تأكل القرى»، أي تغلبها، وكُنَى بالأكل عن الغلبة، و«تنفي الناس»، أي الخبيث الرديء منهم.

وقد اتخذ رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة مستقراً ومقاماً، وبدأ عهد جديد في الدعوة، سمي العهد المدني، أكمل الله فيه للمسلمين دينهم، وأتم عليهم نعمته، ورضي لهم الإسلام ديناً. وقد بدأ تاريخ الإسلام والمسلمين يُعد ويحسب بالسنة الأولى من الهجرة.

ويقال إن أول من كتب التاريخ من الهجرة، عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — في شهر ربيع الأول سنة ست عشرة. وكان سبب ذلك أن أبا موسى الأشعري

(١) مجلة «الهلal»، يونيو ١٩٩٤م.

عامل عمر على البصرة كتب إليه : إنه يأتينا من قبل أمير المؤمنين كتب ، لا ندري على أيها نعمل ، قد قرأنا صكاً منه محله شعبان ، فما ندري أي الشعبانين : الماضي أم الآتي ؟ فعمم عمر رضي الله عنه على كتب التاريخ — أي كتابته — وأراد أن يجعله أول شهر رمضان ، فرأى أن الأشهر الحرم تقع حينئذ في سنتين ، فجعله في المحرم ، وهو آخر الأشهر الحرم ، فصيّره أولاً لتجتمع الأشهر الحرم في سنة واحدة . ذكر ذلك أبو هلال العسكري في كتابه الأوائل ٢٢٧/١ .

وروى الطبري في تاريخه ٣٨٨/٢ — طبعة دار المعارف — أن عمر حين جاءه كتاب أبي موسى الأشعري جمع الناس للمشورة ، فقال بعضهم : أرخ لمبعث رسول الله ﷺ ، وقال بعضهم : أرخ لمهاجر رسول الله ﷺ ، فقال عمر : لا بل نؤرخ لمهاجر رسول الله ﷺ ، فإن مهاجره فرق بين الحق والباطل .

وهكذا كانت بداية حضارتنا وثقافتنا فوق هذه الأرض ، على الوجه الذي تُبين عنه آثارنا المكتوبة التي لا يدخل عليها الشك من أي باب تدخل منه الشكوك ، لا على وجوه الاجتهاد والتخمين والحدس والاستنتاج التي تقوم أحياناً على استنطاق نقوش ورموز على جدران معابد وهياكل ، قد تتأثر بعوامل التعرية وتقلبات الحرارة والرطوبة ، فتصدق مرة وتكذب أخرى ، مع تقدير كل الجهود العظيمة التي قام بها علماء الآثار واللغة في هذا الباب .

وحين أخذ العلماء المسلمون في تدوين العلوم وتسجيل المعارف ، كان علم التاريخ من أول ما كتبوا وصنفوا ، وكانت الريادة في ذلك لعبيد بن شَرِيَّة الجعفي ، ذلك المعمر الذي أدرك الإسلام فأسلم ، وقدم على معاوية وألف له تأليفاً حول أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها وقد طبع باسم «كتاب الملوك وأخبار الماضين» بحيدر آباد بالهند سنة ١٣٤٧هـ ، مع كتاب «التيجان في ملوك حمير» لوهب بن منبه المتوفى نحو سنة ١١٤هـ ، ويعد كتابه هذا أيضاً من أوائل ما صنف في علم التاريخ عند المسلمين .

وقد توفي عبيد بن شَرِيَّة نحو سنة ٦٧هـ ، ويعد أيضاً أول من كتب في الأمثال

العربية . ويزعم المستشرق الألماني كرنكو أن «عبيد بن شريّة شخصية وهمية اخترعها ابن النديم، وكتب بذلك إلى خير الدين الزركلي، وقد نفت نبيهة عبود الشكوك التي ثارت حول أخباره – انظر تحقيق ذلك في: الأعلام للزركلي ٣٤١/٤، وتاريخ التراث العربي لمحمد فؤاد سزكين: المجلد الأول. الجزء الثاني. التدوين التاريخي ص ٣٢، ومصادر الشعر الجاهلي لناصر الدين الأسد ص ٢٤٠، والأمثال العربية القديمة للمستشرق الألماني زلهاييم ص ٥١.

ولا يزاحم التاريخ في أولية التصنيف في علومنا إلا ما ذكر به من ذلك التأليف النحوي الذي قام به أبو الأسود الدؤلي بتكليف من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، حين فشا اللحن بين الناس وخيف على القرآن الكريم، وذلك في الخبر الذي ذكره الوزير القفطي المتوفى سنة ٦٢٤ هـ، قال: «ورأيت بمصر في زمن الطلب بأيدي الورّاقين – أي باعة الكتب أو النساخ – جزءاً فيه أبواب من النحو، يجمعون على أنها مقدمة علي بن أبي طالب التي أخذها عنه أبو الأسود الدؤلي». إنباء الرواة على أنباء النحاة ١/ ٤٠.

نصف الكتب العربية :

ومهما يكن من أمر فإن علم التاريخ عند المسلمين من العلوم الضخمة، ويوشك هذا العلم أن يكون نصف المكتبة العربية. وانظر تصديق ذلك في: علم قوائم الكتب (البibliوجرافيا العربية) مثل الفهرست لابن النديم، ومفتاح السعادة لطاش كبري زاده، وكشف الظنون للحاج خليفة، وذيله المسمّى: إيضاح المكنون لإسماعيل باشا البغدادى، ثم انظر من المصنفات الحديثة في هذا العالم – علم قوائم الكتب – : «اكتفاء القنوع بما هو مطبوع» لإدوارد فنديك، و «معجم المطبوعات العربية والمعربة» ليوسف إيلان سرقيس، و «تاريخ الأدب العربي» للمستشرق الألماني كارل بروكلمان، و «تاريخ التراث العربي» للدكتور محمد فؤاد سزكين، ثم انظر في فهارس المكتبات العامة الكبرى الموزعة على الفنون، بل ادخل مكتبة من المكتبات الخاصة التي يُعنى أصحابها بجمع الكتب، وسترى في ذلك كله غلبة ظاهرة لعلم التاريخ.

وتفسير هذا أن علم التاريخ عند المسلمين ليس هو فقط تلك الكتب الحَوْلِيَّة، مثل تواريخ الطبري وابن الأثير وابن كثير، أو كتب الأحداث العامة، مثل مروج الذهب، والتنبيه والإشراف للمسعودي، وإنما يدخل فيه، بل يمثل الجانب الأكبر منه «فن التراجم والطبقات» وهو بحر خضم.

وينبغي أن يكون واضحاً أن «فن التراجم» عند المؤرخين المسلمين لا يُعنى فقط بذكر أحوال المترجم من حيث مولده ووفاته، وشيوخه وتلاميذه، وعلمه وتأليفه، بل إنه غالباً — وبخاصة في الموسوعات — يمتد ليشمل الحوادث والأحداث العامة التي يكون العَلَمُ المترجم قد شارك فيها، أو عاصرها، أو كان منها، أو كانت منه بسبب، بل إن بعض مصنفي كتب التراجم يعرض للحوادث والأحداث بدواعي الاستطراد ليس غير، والاستطراد سمة من سمات التأليف عند كثير من علمائنا ومؤرخينا.

وعلى سبيل المثال فإن كتاباً موسوعياً مثل «طبقات الشافعية الكبرى» لتاج الدين السبكي، يضعه مصنّفو العلوم في فن التراجم والطبقات، إذ كان مؤلفه قد أقامه على تراجم الفقهاء الشافعية منذ إمامهم محمد بن إدريس الشافعي في أوائل القرن الثالث، إلى منتصف القرن الثامن، ولكن النظر الصحيح يضعه في المكتبة العربية كلها، إذ كان مؤلفه قد أداره على علوم كثيرة، فهو لا يكاد ينتهي من ترجمة الرجل على رسمها المعروف حتى يخلص إلى مسائل من علم الرجل وفقهه، تُفضي به إلى استطرادات ومداخلات كثيرة تكاد تأتي على جمهور علوم العربية، ثم كان لأحداث التاريخ عنده النصيب الأوفى، فأنّت تجد عنده أحاديث ضافية عن حادثة الصليبيين، وكائنة التتار، وقصة جنكيزخان وحفيده هولاكو، (انظر مثلاً الطبقات: ١/٣٢٨ — ٣٤٣، ٧/٣٤٤ — ٣٦٩، ٨/٢٦٨ — ٢٧٧).

وقُلْ مثل هذا في كثير من موسوعات كتب التراجم، مثل وفيات الأعيان لابن خلكان، وسير أعلام النبلاء للذهبي، ونفع الطيب للمقري.

مناهج كتب التراجم:

ولقد تفنن المؤرخون المسلمون في كتب التراجم تفناً عجيباً، وأخذت

تصانيفهم في هذا الفن طرائق شتى : فبعد كتاباتهم الأولى في السيرة النبوية والشمال والمغازي، جاءت تصانيفهم موزعة مفرقة على تراجم الصحابة والتابعين، والقراء والمفسرين، والمحدثين والرواة، وفقهاء المذاهب الأربعة، والأصوليين، والشيعة والمعتزلة، والزهاد والصوفية، والوعاظ والقصاص والمذكرين، والأدباء والشعراء، واللغويين والنحاة، والأطباء والحكماء والفلاسفة، والقضاة، والخلفاء والوزراء، والمؤرخين والنسائين، ثم تراجم النساء، ولكل طائفة من هذه الطوائف كتب تراجم خاصة بهم.

ثم يأتيك هذا الفن أيضاً في التراجم على البلدان، مثل أخبار مكة والمدينة والقدس ومصر واليمن وبغداد والموصل والشام، وجرجان وأصبهان، وإربل وواسط، والمغرب والأندلس، والكتب في هذين القطرين فيض زاخر.

وكذلك في التراجم على القرون: كالدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني، والضوء اللامع لأهل القرن التاسع، لشمس الدين السخاوي، وما جاء بعد ذلك إلى القرن الرابع عشر (انظر هذه السلسلة من التراجم على القرون في كتابي: «الموجز في مراجع التراجم والبلدان» ص ٧٤، وانظر كتب التاريخ بمناهجها المختلفة في: «الوافي بالوفيات» للصفدي ٤٧/١).

ثم تأتي التراجم العامة — وهي كتب التاريخ عند بعض الناس ممن يظنون أنها كتب التاريخ فقط، ولا كتب للتاريخ غيرها — وهذه التراجم العامة على قسمين:

(أ) التراجم المرتبة على السنين، وذلك في كتب التاريخ المعروفة بالحوليات، كتاريخ الأمم والملوك للطبري، والكامل لعز الدين بن الأثير، والمختصر في أخبار البشر لأبي الفداء الملك المؤيد صاحب حماة، والعبر في خبر من عبر (بالعين المهملة وليس بالعين المعجمة) للذهبي، والسلوك للمقريزي، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي.

(ب) التراجم المرتبة على الأسماء، ومن أبرزها وأشهرها: وفيات الأعيان

لابن خلكان، وفوات الوفيات لابن شاعر الكتبي، والوافي بالوفيات للصفدي، وسير أعلام النبلاء للذهبي.

ثم تأتيك التراجم أيضاً في كتب أنساب العرب، مثل جمهرة النسب لابن الكلبي، ومختلف القبائل ومؤلفها لابن حبيب، والاشتقاق لابن دريد، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم، والإيناس بعلم الأنساب للوزير المغربي، وعجالة المبتدي وفضالة المنتهي في النسب لأبي بكر الحازمي.

وفي كتب الأنساب بوجه عام: إلى قبيلة، أو بلد، أو صناعة، أو مذهب، أو شيخ. ومن هذه الكتب: الأنساب، لأبي سعد السمعاني — والتراجم في هذا الكتاب غنية جداً —، واللباب في تهذيب الأنساب، لعز الدين بن الأثير، ولب اللباب في تحرير الأنساب، للسيوطي.

وفي كتب ضبط الأعلام والكنى والألقاب والأنساب، مثل: المبهج في تفسير أسماء شعراء الحماسة، لابن جني، والإكمال في رفع الارتياح عن المختلف والمؤتلف من الأسماء والكنى والأنساب، للأثير ابن ماكولا، وتكملة الإكمال، لابن نقطة البغدادي الحنبلي، والمشتبه في الأسماء والأنساب والكنى والألقاب، للذهبي، وتوضيح المشتبه، للحافظ ابن ناصر الدين، وتبصير المنتبه بتحرير المشتبه، لابن حجر العسقلاني.

وفي كتب البلدان (الجغرافيا العربية) مثل: «معجم ما استعجم» للبكري، و«معجم البلدان» لياقوت الحموي، و«الروض المعطار في خبر الأقطار» للحميري.

وتأتيك التراجم أيضاً في علم قوائم الكتب (البليوجرافيا العربية) التي حدثت عنها قريباً.

ومن هذا الفن فرع مهم جداً، وهو ما يُعرف بالمعاجم والفهارس والمشيخات والأثبتات والبرامج: وهو لون من التأليف يجمع بين الشيوخ والكتب، فقد جرى كثير من العلماء على أن يصنع لنفسه معجماً أو فهرساً أو مشيخة أو ثبناً أو برنامجاً، يذكر فيه شيوخه الذين أخذ عنهم العلم، والكتب التي سمعها منهم، مسندة إلى مؤلفيها.

ومن فوائد هذا اللون من التأليف أنك ترى من حياة الشيوخ في تلك الكتب وخاصة أمرهم، ودقائق سلوكياتهم ما لا تراه في كتب التراجم العامة والخاصة، وما ظنك بتلميذ يكتب عن شيخه؟ والكتب في هذا اللون كثيرة، ومن أشهرها كتاب «فهرسة ما رواه عن شيوخه أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي»، وأحب أن أسجل هنا أن عناية العلماء المغاربة بهذا الفن أظهر وأبين من عناية العلماء المشاركة. وقد كتب في ذلك كلاماً جيداً الدكتور عبد العزيز الأهواني يرحمه الله، في العدد الثاني من مجلة معهد المخطوطات بالقاهرة.

ثم تأتي التراجم أيضاً في ذلك اللون من التأليف الذي يديره المصنفون حول عَلم واحد أو اثنين أو ثلاثة، ثم يستطردون من ذلك إلى تراجم أخرى بالتبعية أو المناسبة، كما ترى في: مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه أبي يوسف ومحمد ابن الحسن الشيباني، للذهبي، ومناقب الشافعي، للبيهقي، ومناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي، والانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء: مالك والشافعي وأبي حنيفة، لابن عبد البر، وتبيين كذب المفتري فيما نُسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، لابن عساكر، وسيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، وسيرة عمر أيضاً، لابن الجوزي، والمصباح المضيء في خلافة المستضيء لابن الجوزي — وسأعيد حديثاً عنه مرة أخرى — ومحاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي، لأحد رجال القرن التاسع، كما ذكر محققه ونشره الأمير شكيب أرسلان.

وتأتيك التراجم أيضاً فيما يُسمى بكتب الحضارة الإسلامية، مثل المعارف لابن قتيبة، والمجبر والمنمق، كلاهما لابن حبيب، ومروج الذهب والتنبيه والإشراف، كلاهما للمسعودي، والأوائل، لأبي هلال العسكري، ولطائف المعارف، لأبي منصور الثعالبي.

وتأتي التراجم أيضاً في تلك الكتب التي يُظن أنها من كتب المسامرات والمفاكهات والطرائف، مثل: أخبار الأذكىاء، وعقلاء المجانين، وأخبار الحمقى والمغفلين، وأخبار الطُرَاف والمتماجنين، وكل أولئك لأبي الفرج ابن الجوزي،

ومحاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، والمستطرف من كل فن مستظرف للإبشيهي، والفلاكة والمفلوكين للدلجي، والكشكول والمخللة، كلاهما للعامللي.

وهناك باب عظيم أيضاً من باب التراجم: هو ما يعرف بالسؤالات، وذلك أن يسأل عالم عالماً عن جملة من الرجال، مثل سؤالات أبي عبيد الآجرّي: أبا داود السجستاني، وسؤالات عثمان بن سعيد الدارمي: يحيى بن معين، وسؤالات أبي عبد الرحمن السلمي صاحب طبقات الصوفية: الدارقطني، وسؤالات الحافظ السلفي: خميساً الحوزي عن جماعة من أهل واسط.

وواضح أن هذه «السؤالات» تدور حول علم الرجال — وهو علم الجرح والتعديل — لكنها مع ذلك اشتملت على تراجم لغير المحدثين، ثم تضمنت فوائد جلية في التاريخ وغيره، كما ترى مثلاً في «سؤالات الحافظ السلفي» المذكورة (طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق).

كتاب واحد:

ومن وراء ذلك كله: فإن التراجم تأتيك في غير مظانها — وهو في تراثنا باب طويل جداً — حسبي أن أشير إلى شيء منه هنا، رغبة في إفادة طالب العلم المبتدئ الذي قد تقع هذه المقالة في يده، أما أهل العلم وخاصته فهم أقدر مني على ذلك وأبصر، ثم إنني أريد أيضاً أن أؤكد على أن المكتبة العربية كتاب واحد، وأن العلوم يحتاج بعضها إلى بعض، وأنه لا يغني كتاب عن كتاب.

معلوم أن تراجم الصحابة تُلتَمَس من مصادرها: الطبقات الكبرى، لابن سعد، والاستيعاب، لابن عبد البر، وأسد الغابة، لعز الدين بن الأثير، والإصابة، لابن حجر. ولكنك إذا أردت ترجمة صحابي على نحو كامل مستوعب، فلا بد لك من النظر في كتب أخرى، منها دواوين السنة: صحاحها ومسانيدها، فقد أفرد أصحاب السنن في دواوينهم كتباً وأبواباً تسمى: المناقب أو الفضائل، ويسمونها الحاكم النيسابوري في المستدرک: معرفة الصحابة. ولا غنى لك أيضاً عن النظر في كتاب

«هدي الساري مقدمة فتح الباري» لابن حجر، فقد أفرد فيه ابن حجر مكاناً ضخماً لتراجم الصحابة والتابعين، لا تقل إنه سيكرر في كتابه هذا ما ذكره في كتبه الأخرى مثل الإصابة أو تهذيب التهذيب، ولا تقل هذا، لأن في كل كتاب من الفوائد ما ليس في الآخر (وانظر على سبيل المثال ترجمة: عكرمة مولى ابن عباس في «تهذيب التهذيب» ٢٦٣/٧، وفي «هدي الساري» ص ٤٢٥، وتأمل الفرق بين مساق الترجمة في الكتابين).

ومن باب التماس التراجم من غير مظانها: ما تراه من تراجم اللغويين والنحاة الأوائل في مقدمة معجم «تهذيب اللغة» للأزهري، وفي كتاب «المزهر» في علوم اللغة للسيوطي، ثم ما نثره العلامة عبد القادر بن عمر البغدادي في موسوعاته: خزانة الأدب، وشرح أبيات مغني اللبيب، وحاشيته على شرح قصيدة «بانت سعاد» لابن هشام، وشرحه على شواهد شرح التحفة الوردية. وباب التراجم عند البغدادي باب واسع جداً لأن مكتبته كانت ضخمة جداً.

وقُلْ مثل هذا في كتاب المرتضى الزبيدي الضخم «تاج العروس» شرح القاموس، ففي هذا الكتاب أنساب وتراجم كثيرة جداً، وبخاصة ما يتصل بالمتأخرين.

وعلى ذكر اللغويين والنحاة، فإن أوسع ترجمة وأشملها لواضع النحو أبي الأسود الدؤلي، تراها في كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني، وما أبعد كتاب الأغاني عن طبقات اللغويين والنحاة! وقد جاءت ترجمة أبي الأسود في الأغاني طويلة جداً استغرقت ٣٨ صفحة من القطع الكبير - انظر: «الأغاني» ٢٩٧/١٢ - ٣٣٤ (طبعة دار الكتب المصرية).

والعلة في ذلك واضحة، وهي جامعة «التشيع» التي تجمع بين أبي الأسود وأبي الفرج. على أنه مما ينبغي التنبيه له أن صلاح الدين الصفدي قد اعتبر «كتاب الأغاني» من مصادر كتب التاريخ، ووضعه في قائمة «التواريخ الجامعة» كتاريخ الطبري وما إليه (انظر: الوافي بالوفيات ٥٠/١).

وكلك تجد أجود ترجمة وأحسن كلام عن أبي سعيد السيرافي النحوي الكبير في «كتاب الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي، وكان هذا شديد الإعظام لأبي سعيد، والتوقيع له (انظر: الإمتاع والمؤانسة ١٠٨/١).

وتنتشر التراجم أيضاً في معارف القوم وعلومهم: ففي موسوعات التفسير والحديث والفقه وأصوله وعلم الكلام، وكتب اللغة والأدب وشروح الشعر — بصورة خاصة — وسائر فروع العلم استطرادات مهمة في تراجم الرجال.

وأريد أن أذكر بما قلته في صدر هذه الكلمة، من أن علم التاريخ الإسلامي بمعنى الحوادث والأحداث قد اختلط بعلم التراجم والطبقات، كما أن هذا العلم اختلط أيضاً بكتب التاريخ القائمة أساساً على الحوادث والأحداث؛ دخل كل منهما في نسيج الآخر والتحم به، بل إن علومنا كلها يجذب بعضها بعضاً، على نحو ما قال سفيان بن عيينة: «كلام العرب بعضه يأخذ برقاب بعض».

إن علم التاريخ عند المسلمين ليس كعلم التاريخ عند الأمم الأخرى؛ أحداثاً وتقلبات أيام ودول فقط، إن كتب التاريخ عندنا هي مجلى حضارتنا وثقافتنا العربية والإسلامية كلها.

إن علماء الحديث يخرجون الأحاديث من «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي، وأهل الأدب يجمعون أشعار الشعراء من «تاريخ دمشق» لابن عساكر، وكذلك يجمعون الشعر من كتب الجغرافيا العربية: معجم ما استعجم للبكري، ومعجم البلدان لياقوت الحموي، والروض المعطار في خبر الأقطار للحميري، كما جمعوا منها التراجم من قبل.

بل إن اللغة والشعر يجمعان من كتب النبات وكتب الهيئة، كالذي تراه في كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري، وكتاب الأزمنة والأمكنة للمرزوقي، والحديث في هذا ونحوه مما يطول جداً.



الهجرة وكتابة التاريخ الإسلامي^(١)

[٢]

[كتابة التاريخ الإسلامي من الموضوعات المهمة التي حرص «الهلal» على إلقاء الضوء عليها، وقد تناولنا في الجزء الأول أبرز ما في هذا المجال، ويواصل د. الطناحي في الجزء الثاني كيفية إعادة كتابة التاريخ الإسلامي حيث يقول:]

وهذا الذي ذكرته في الجزء الأول من هذا المقال والذي نشرته الهلال في الشهر الماضي على سبيل الوجازة والاختصار - وقد فاتني منه الكثير - يدلك، إن شاء الله، على اتساع دائرة علم التاريخ عند المسلمين: أحداثاً وتراجم، ولعله يُرْهَدُك في تلك الدعوة التي تثار بين الحين والآخر: وهي دعوة «إعادة كتابة التاريخ الإسلامي» على ما يرى بعضهم من نبذ الكتاب القديم، بعد استخلاص مجمله، وتخليصه من الشوائب التي فيه، ثم تقديمه بلغة العصر، وذلك كله مركب صعب وطريق مخوف، وهو مما يخطب الناس فيه خطباً شديداً، وليس هنا موضوع الرد على هذه القضية، لكن لا بأس من التذكير ببعض الأمور:

أولاً: إذا ثبت عندك اتساع دائرة التاريخ الإسلامي، فإن من يحاول إعادة كتابة ذلك التاريخ لا بد أن يكون على معرفة بمراجع التاريخ الإسلامي بفرعيه: الأحداث والتراجم، ثم ما يتناثر منه في تضاعيف الفنون الأخرى، كما حدثتك.

ثانياً: اللغة هي الباب الأول في ثقافة أية أمة من الأمم، فواجب على من

(١) مجلة «الهلal»، يولييه ١٩٩٤م.

يتصدى لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي أن يكون متضلّعاً — أو على الأقل عارفاً — من اللغة: مألوفها وغريبها، ونحوها وصرفها، ليس على سبيل الإتيان والإحاطة، فهذا غير وارد وغير ممكن، ولكن على سبيل المعرفة التي تعصم من الأخطاء الشنيعة البقاء.

يقول الحافظ أبو الحجاج المزي في مقدمة كتابه «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» ص ١٥٦: «وينبغي للناظر في كتابنا هذا أن يكون قد حصل طرفاً صالحاً من علم العربية، نحوها ولغتها وتصريفها، ومن علم الأصول والفروع، ومن علم الحديث والتواريخ وأيام الناس». فهذا شأن الناظر في الكتاب، فما بالك بمن يحاول إعادة كتابته أو اختصاره؟

وكذلك يجب التنبيه للأعراف اللغوية لكل عصر من العصور، وتظهر المحنة في هذا الأمر واضحة جلية عند من يتصدون للتاريخ المملوكي، وهو زاخر بالأعراف اللغوية والمصطلحات غير المألوفة إلا لمن جمع مراجع ذلك العصر: لغة وأدباً وتاريخاً.

ثالثاً: إن من يعيد كتابة تاريخ من تواريخ السابقين، أو يحاول اختصار كتاب في علم من العلوم، أو تهذيبه، لا بد أن يكون في علم صاحب الكتاب الأصلي، أو على درجة مقاربة له؛ لأن المعيد أو المختصر أو المهذب حيثئذ يكون سمياً بصيراً، يعرف ماذا يأخذ وماذا يدع، ولذلك قبل أهل العلم «مختصر صحيح مسلم» للحافظ المنذري، و «مختصر تفسير الطبري» لأبي يحيى محمد بن صمادح التجيبي، وتهذيب أنساب السمعاني؛ المسمى «اللباب» لعز الدين بن الأثير، و «مختصر الأغاني» للأصفهاني، و «مختصر تاريخ دمشق» لابن عساكر، وكلا المختصرين لابن منظور صاحب «لسان العرب».

وفي عصرنا الحديث قبلنا «تهذيب الأغاني» للشيخ محمد الخضري، و «عمدة التفاسير» لمحدث العصر الشيخ أحمد محمد شاكر، الذي اختصر فيه بعض أجزاء من «تفسير ابن كثير»، و «تهذيب سيرة ابن هشام»، و «تهذيب الحيوان» للجاحظ، كلاهما لأستاذنا عبد السلام محمد هارون.

رابعاً: إن الخدمة الحقيقية لتاريخنا إنما تكون بجمع مخطوطاته التي لم تنشر، ثم تحقيقها وتحقيق ما نشر من قبل غير محقق، وفق الأصول العلمية الصحيحة، ثم فهرسته الفهرسة العلمية الفنية، التي تضم النظر إلى النظر، وتقرن الشبيه إلى الشبيه، وستكون هذه الفهارس الفنية الكاشفة عدة وعوناً للدراسات والبحوث التي لا تقوم إلا على النص الموثق المحرر.

أما ما يقال عن غربلة التاريخ الإسلامي وتصفيته من الأخطاء والأوهام، وتخليصه من محاباة الحكام والملوك، وتنقيته من مظاهر الإسراف والمبالغات، ثم ما يقال لك من أن ماضيها غارق في الظلمات، وأن تاريخ الدول يكتب في غير أوانه، كتاريخ الدولة الأموية الذي كتب في أيام الدولة العباسية: فكل أولئك من الكلام الذي يرسل إرسالاً؛ لتملأ به مجالس السمر، ويتخذ سبيلاً لادعاء العلم.

الهجوم على التاريخ والمؤرخين:

لقد تعرّض التاريخ الإسلامي والمؤرخون المسلمون لكثير من الحيف والعدوان، وكان أعجب ما قيل: «إن التاريخ صنع للحكام والملوك، ولم يرصد نبض الشعوب وأشواقها»، وبمثل هذه الألفاظ البراقة الخادعة يستميلون الشباب ويوقعونهم في قرار مظلم من الافتتان الكاذب والشك الموبق.

إن هذه القضية ينبغي أن تناقش على وجهها الصحيح، ويبدو أن كثيراً من كتابنا المعاصرين قد خلطوا بين كتب التاريخ العام — أحداثاً وتراجم — وبين كتب المناقب. فكتب التاريخ العام إنما ترصد الحوادث والأحداث بصورة عامة وشاملة، ويدخل في نسيجها أخبار الخلفاء والملوك لا محالة، ويظهر لك هذا المنهج بوضوح في كتب التاريخ المرتبة على السنين «الحوليات»، وكذلك في كتب التراجم العامة، وتأمل مثلاً كتاب «سير أعلام النبلاء» للذهبي، و«الوافي بالوفيات» للصفدي، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان، وسترى أن تراجم الخلفاء والوزراء إنما تأتي في ترتيبها الألف بائي ليس غير، بل إن بعض تراجم هؤلاء الخلفاء والوزراء تأتي أحياناً خافتة وموجزة إذا قيست بترجمة عالم معاصر لهم، كالإمام أحمد بن حنبل مثلاً،

الذي تملأ ترجمته صفحات كثيرة، فضلاً عما يتعرض له بعض هؤلاء الخلفاء أو الوزراء من نقد شديد، وإحصاء دقيق لأخطائهم وزلاتهم، ولست هنا بسبيل التمثيل لهذا أو ذاك.

أما كتب المناقب فهي كتب خاصة تدور حول شخصية واحدة، خليفة أو وزيراً، ولا بأس في ذلك ولا نكران؛ فإن من حق أي كاتب أن ينحاز إلى شخصية حاكمة ومؤثرة، ويفرد لها كتاباً يأتي على تاريخها وأعمالها، وهذا ما نشاهده إلى يوم الناس، نحن نقبله ولا نرفضه، ثم إن ما كتب في تراجم الأفراد خاصة ومناقبهم لم ينفرد به الحكام والخلفاء فقط، فقد ذكرت لك من قبل: مناقب أبي حنيفة، ومناقب الشافعي، ومناقب أحمد، وسيرة عمر بن عبد العزيز.

ويبدو أيضاً أن بعض من خاضوا في قضية «صنع التاريخ للحكام والملوك» قد خدعوا بتلك العنوانات التي تحمل أسماء الملوك والوزراء، مثل كتاب الصاحبى في فقه اللغة لابن فارس، نسبة إلى الصاحب ابن عباد، الوزير الشهير، والإيضاح العضدي في النحو، لأبي علي الفارسي، نسبة إلى عضد الدولة بن بويه حاكم فارس والموصل وبلاد الجزيرة، واللامع العزيزي — وهو شرح ديوان المتنبي — لأبي العلاء المعري، نسبة لعزیز الدولة فاتك بن عبد الله الرومي، الذي كان من رجال الحاكم بأمر الله الفاطمي، والمستظهري — وهو فضائح الباطنية — لأبي حامد الغزالي، نسبة إلى الخليفة العباسي المستظهر بالله، أحمد بن عبد الله.

فليس للصاحب بن عباد، ولا لعضد الدولة، ولا لعزیز الدولة، ولا للمستظهر بالله، ذكر في تلك الكتب إلا ما يكون من إشارة في المقدمات، فيها إشادة بهؤلاء الكبار أصحاب السلطة؛ لأن لهم عوناً ظاهراً للمؤلف ومساندة، كما نقول الآن: إن الكتاب الفلاني طبع بدعم من جامعة كذا، أو هيئة كذا، وتأمل الكتب التي تصدر تحت عنوان «سلسلة جب التذكارية» ونحوها، لأن هذه الجامعات والهيئات مؤلت الكتاب وأنفقت على طبعه، وهات لي الآن أميراً أو تاجراً ثرياً يعينني على طبع كتاب من كتبي، وأنا زعيم، أن أسمى كتابي باسمه الشريف، بل أجعل اسمه يتقدم

اسمي، ثم أكيل له المديح والثناء منظوماً ومنثوراً. على أن هؤلاء الملوك والوزراء الذين جاءت أسماؤهم عنوانات للكتب كانت لهم مشاركة واهتمام باللغة والأدب وفروع العلم عموماً، ويكفي أن تعلم أن مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي حين ترجم لعضد الدولة البويهى وصفه بالنحوي.

ولعل من أشد العنوانات خداعاً: ذلك الكتاب الذي ألفه ابن الجوزي وسمّاه: «المصباح المضيء في خلافة المستضيء»، فهذا الكتاب وإن كان في ظاهره أنه في مناقب الخليفة العباسي المستضيء، فإنه ليس خالصاً له، وإنما استطرد ابن الجوزي فيه إلى تراجم كثيرة للصحابة وللخلفاء العباسيين، مع عناية ظاهرة بالوعظ والتذكير، يقدمها ابن الجوزي للسلطان أو للحاكم، لكي يستضيء بها في معالجة الأحوال السياسية والاجتماعية، كما ذكرت محققة الكتاب وناشرته العراقية الدكتورة ناجية عبد الله إبراهيم.

وكذلك كتاب: «الدر الفاخر في سيرة الملك ناصر» لابن أيك الدواداري من مؤرخي المماليك في القرن الثامن الهجري، فهذا ابن أيك وإن كان منحازاً للسلطان محمد الناصر بن قلاوون؛ لأنه كان يعمل في بلاطه، فإن كتابه هذا يعد وثيقة مهمة في تاريخ مصر والشام في ذلك الوقت، وهو بمثابة يوميات لهذين القطرين الكبيرين وجهادهما مع فلول الفرنجة من التتار.

فليس صحيحاً إذن ما سمعته — في برنامج تلفزيوني — من الدكتورة الأدبية الفصيحة نعمات أحمد فؤاد من قولها: «إن التاريخ يخطيء حين يقول: هرم خوفو، وخوفو لم يبن هرمه، وإنما بناه المهندس المصري».

إنَّ التاريخ لم يخطيء يا سيدتي الدكتورة، ولكن هذا هو المعروف والمألوف في نسبة الأعمال الكبيرة، تنسب إلى عصورها، وإلى رموز هذه العصور، وهم الملوك والحكام، إن علماء البلاغة يمثلون لمجاز الحذف بقولهم: «بنى الأمير القصر»، ثمَّ يقولون: وإنما بناه عماله. ألم نقل «مصحف الملك فؤاد» لهذه الطبعة المحررة العالية من القرآن الكريم، وهي أصح طبعة للكتاب العزيز بشهادة مشايخ

الإقراء بمصر وغير مصر، من حيث الالتزام بالرسم العثماني، والضبط، وعلامات الوقف. وقد كتبه بخطه الشيخ محمد علي خلف الحسيني، ثم شاركه شرف ضبطه وتصحيحه: حفني ناصف ونصر العادلي ومصطفى عناني وأحمد الإسكندري. وطبع هذا المصحف الكريم بالمطبعة الأميرية عام ١٣٣٧هـ في عهد الملك فؤاد، فنسب إليه.

وتبقى قضية «تخليص التاريخ الإسلامي من الأخطاء والمبالغات»، وهي أيضاً من القضايا التي يعالجها الناس بكثير من الخفة والسهولة والمتابعة.

ومما لا شك فيه أن لبعض مؤرخينا الأولين أوهاماً وأخطاء، في رصد الأحداث وتسجيلها وتحليلها، وهذه الأوهام والأخطاء مما ينبغي التنبيه لها والتنبيه عليها. على أنه ينبغي أن يكون واضحاً أن علومنا كلها ومعارفنا كلها منقودة من داخلها، ومدلول على الخطأ والوهم فيها منذ اللحظة الأولى لتدوين العلوم والمعارف، فالنقد عندنا سار مع التأليف خطوة خطوة، وهذا المنهج المعروف عند علماء الحديث، من القبول والرد، والتعديل والتجريح، قد امتد أثره إلى سائر العلوم الأخرى، وإن باب النقد في تراثنا وعلومنا باب واسع جداً، وضخم جداً، وينبغي أن يكون واضحاً أيضاً أن هذه الأمة لم تغفل عن تراثها هذه الآماد الطوال حتى يجيء فلاسفة هذا الزمان لينقدوا ويجرحوا ويخطئوا، ونعم، ليس لأحد — بعد الأنبياء — عصمة، فانقد ما تشاء، وحلل ما تشاء، واستنتج ما تشاء، ولكن بعد أن تجمع للأمر عدته، وتأخذ له أخذه، من القراءة المستوعبة المتأنية، والنظر الصحيح، وترك المتابعة إلا بعد ثبوت الدليل، على ما قالت العرب في كلامها الحكيم: «ثَبَّتْ نَسَباً واطْلُبْ مِيراثاً»، وعلى ما قال أبو الفتح ابن جني: «فكل من فرق له عن علة صحيحة وطريق نهجة كان خليل نفسه وأبا عمرو فكره... إلا أننا مع هذا الذي رأيناه وسَوَّغْنَا مرتكبه لا نسمح له بالإقدام على مخالفة الجماعة التي قد طال بحثها وتقدم نظرها... إلا بعد أن يناهضه إتقاناً، ويثابته عرفاناً، ولا يخلد إلى سانح خاطره، ولا إلى نزوة من نزوات تفكره» الخصائص ١/ ١٩٠.

ويريد ابن جني أن يقول: إن من اهتدى إلى وجه من النقد صحيح، أشبه الخليل بن أحمد، وأبا عمرو بن العلاء، ولا ينبغي لأحد أن يخالف السابقين في آرائهم لشهوة الخلاف فقط، وأنه ليس من حقه أن يخالفهم إلا إذا وصل إلى مرتبتهم أو فاقها: علماً وبحثاً ونظراً، على ألا يسرع إلى الرأي بمجرد الخاطرة السانحة، والنزوة الفكرية الطارئة.

فهذا هو كلام أهل العلم، أما التخيل بالمنهج والتفكير العلمي، للهجوم على تخطئة الأقدمين بالحق وبالباطل، فليس من العلم في شيء، ولا من العقل في شيء، وليس من الأدب أيضاً مع تاريخ الأمة أن يقول كاتب كبير معاصر، عن الإمام المفسر المحدث المؤرخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري: «المؤرخ الأبله».

ولو سألت هذا الكاتب الكبير عن ترجمة الطبري: حياة وعلماً وتصنيفاً، ووفاء، لما ظفرت بشيء، بل لو سألته عن عدد طبعات كتابه «تاريخ الأمم والملوك»، والفرق بين هذه الطبعات لما أجابك بشيء. ويقرأ الناس هذا ويسكتون؛ لهوان الماضي عليهم، وخفة الموروث في موازينهم، وقل: سبحان ربي!

لو تعرّض أحد لبعض كتابنا ومفكرينا المعاصرين، لاهتزّت الأرض بمن عليها، ولسمعت دويّاً هائلاً وجلبة صاحبة حول رموزنا العظيمة التي لا ينبغي أن تنال، وأعلام التنوير التي لا يصح أن تطال، أما الهجوم على الأوائل، والسخرية منهم، والتطاؤل عليهم، فلا نكرة فيه ولا غضب منه؛ لأن «حمزة لا بواكي له»:

أَتَغْضَبُ أَنْ أَدْنَا قَتِيَّةَ حُرَّتَا جَهَاراً وَلَمْ تَغْضَبْ لِقَتْلِ ابْنِ خَازِمٍ
وَالْمَوْعِدِ اللَّهِ.



الجامعة المصرية إلى أين؟ الكتاب الجامعي والطريق الصحيح^(١)

ذات يوم ضمّنا مجلس علمي لقسم اللغة العربية بإحدى الكليات، وطرح رئيس المجلس قضية محالة على القسم من عميد الكلية، توصي بأخذ رأي الطالب في تقييم عمل الأستاذ وترقيته. ولم يكد رئيس القسم ينتهي من قراءة هذه التوصية حتى هبت ريح عاصفة كادت تدمّر كل شيء، ومادت بنا الأرض، وعلا ضجيج، واختلطت أصوات، وجحظت عيون، وانطلقت ألسن تدفع الضيم وترد الحيف عن الأستاذ الجامعي، وتريد أن ترفعه إلى مكان عليّ لا ينال ولا يطال، وكأنه ذلك النبي المرسل المصطفى المختار من عباد الله، المؤيد بالوحي، الذي لا ينطق عن الهوى، المعصوم من الخطأ، المبرأ من الهوى، أو كأنه تلك الصخرة التي شبه بها سفيح بن رباح الفرزدق، في قوله:

إن الفرزدق صخرة ملمومةٌ طالت فليس تنالها الأوعالا

(وانتصاب الأوعال بطالت: أي طالت هذه الصخرة المشبه بها الفرزدق الأوعال. وإنما قال هذا؛ لأن مأوى الوعل أعالي الجبال. والوعل: هو التيس الجبلي)، وسمعنا في هذه الجلسة كلاماً ضخماً فخماً عن كرامة العلم وهيبة الجامعة. أما ذلك الطالب المسكين فقد جاءه الدم من كل مكان، ونال حظه موفوراً من التنقص والمعابة، وسوء الرأي وضعف التدبير.

(١) مجلة «الهلal»، أكتوبر ١٩٩٤م.

وتركت القوم حتى سكنت فورتهم، وهدأت ثائرتهم، ثم قلت لهم: على رسلكم يا قوم، اربّعوا على أنفسكم، ولا تغضبوا ولا تفزعوا، وتعالوا إلى كلمة سواء: أليس الطالب هو أساس العمل الجامعي كله؟ أليس هو قطب الرّحى وعمود الصورة؟ فلماذا نحقر شأنه وإنما نحن أساتذة به؟ ونحن حين نعلمه ونخرجه إنما نتعلم العلم معه مرة أخرى، ولولاه لصدت عقولنا وتقصفت أqlامنا، والطالب النابه — ولا زال موجوداً بجامعاتنا ومعاهدنا والحمد لله — يستخرج من أستاذه علماً خبيئاً حين يدارسه ويفاتشه، وقد يفتح عليه أبواباً من النظر والعلم كانت موصدة دونه لولا مذاكرة ذلك الطالب ومدارسته.

وفي موروثنا الثقافي كان التلميذ النابه يسمى صاحباً لشيخه: فأبو يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني صاحباً أبي حنيفة، والربيع بن سليمان صاحب الشافعي، وهو ناسخ كتابه العظيم «الرسالة»، وكان الشافعي يقول له: «أنت راوية كتبتي»، وابن جني صاحب أبي علي الفارسي، بل قد تتوثق العلاقة وتشتد الآصرة فيصير التلميذ غلاماً لشيخه، كما ترى في أبي عمر الزاهد غلام ثعلب، فالتلاميذ أصحابٌ لشيخوخهم، وتأمل عبارة الشافعي في الليث بن سعد رضي الله عنهما: «الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به».

فينبغي أن ينظر إلى الطالب على أنه صاحب ومشارك؛ لأن العالم لا يكون عالماً إلا بمتعلم، وينبغي أيضاً أن نحشد لهذا الطالب احتشاداً، وأن نحبر له الكلام تحبيراً؛ تأليفاً ومحاضرات، وقد أدركنا جيلاً من الأساتذة والأشياخ — في مراحل تعليمنا كلها — كانوا يلقوننا بكثير من الجد والإسماح، ومنهم من كان يدور بعينه علينا واحداً واحداً، في أثناء المحاضرة، يعطي كلاً منا حظه من العناية والنظر، وكأنه يلتمس أمارات الرضا عما يقول، ومواقع القبول لما يلقي، بل إن منهم من كان يصرح فيقول: إيه رأيكم يا ولاد؟ كلام حلو؟ عليه نور؟ وكان أستاذنا عباس حسن رحمه الله إذا خاطب أحداً في المحاضرة قال: «يا حضرة الأستاذ»، مع أنه كان صاحب كبر وبأو، مع كثير من زملائه، كما كنا نرى — ولا تحتجّن علينا بقلّة عدد

الطلبة آنذاك، وكثرتهم الآن، فلو ظفر طلاب الصفوف الأولى في المدرجات الآن بهذه العناية لكفى .

الرأي الجمعي :

على أن قضية أخذ رأي الطالب في تقييم عمل الأستاذ وترقيته لا ينبغي أن تؤخذ على ظاهرها هذا السهل الساذج، فنحن لا نتوجه إلى الطلبة واحداً واحداً، نسألهم رأيهم في أستاذهم، على طريقة قوائم الاستبيان المعروفة، فذلك أمر مرفوض ومطّرح، ولكن المسألة أبعد من هذا، ولعل أقرب صورة لتحقيق هذه الغاية هي الرأي الجمعي للطلاب، فحين نرى إجماعاً أو شبه إجماع من الطلبة على حضور محاضرات ذلك الأستاذ فهذه شهادة له، وحين نلمس حرص الطالب على كتاب أستاذه وحفاوته به واحترامه له، فذلك إقرار بعلم ذلك الأستاذ — ودعك من مسألة الاستلطاف أو الارتياح الشخصي بتأثير خفة ظل الأستاذ أو تودده إلى طلبته بحلو الكلام ومعسوله، أو سخاوته في درجات الامتحان، على قاعدة: «إنما يمدح السوق من ريح»، فهذه أمور إن دامت أسبوعاً فلن تدوم شهراً، وإن تجاوزت الشهر فلن تبلغ العام.

ودعك أيضاً من الوشايات والإشاعات والسعايات لرفع خسيس أو وضع عال، فهذه كلها أمور مكشوفة مفضوحة، ولا يصح إلا الصحيح. وحين نرى إعراضاً من الطالب عن محاضرات أستاذ، واستخفافه بما يكتب، وزهده فيما يقول، فذلك إيذان بضعف ذلك الأستاذ.

والعجيب أن ذلك كله — مدحاً وذمّاً، وإقبالاً وإعراضاً — لا يخفى على عمدة الكليات ورؤساء الأقسام بها، بل لا يخفى على الزملاء أنفسهم، ولكنها الإدارة والمصانعة. وفي آخر الأمر فإن الطالب النابه هو شاهد الصدق على علم الأستاذ وإخلاصه؛ لأنه يبدي رأيه في أستاذه وهو سليم الصدر، منزّه عن الغرض، بريء من الشبهة، ولا يجد الهوى إلى نفسه سبيلاً، فينبغي أن يصار إلى رأي ذلك الطالب:

شهادة تزكية إلى جانب تقرير اللجان العلمية التي يقول عنها بعض الناس ما يقولون، وربك يعلم ما تكنّ صدورهم وما يعلنون.

وهذا الذي قرأته أيها القارئ الكريم إنما هو مقدمة ومدخل لأمرٍ جليل وشأن عظيم، وهو الكتاب الجامعي: منهجاً وإخراجاً. إن الكتاب الجامعي هو حامل العلم إلى الطالب، وهو الصورة الماثلة الثابتة للأستاذ أمام الطالب، فإما أن يحرص على هذه الصورة، يستصحبها معه ويتمثلها في مستقبل أيامه، وإما أن يستهين بها، ويتخلص منها ساعة فراغه من حاجته إليها.

إن الأصل في الكتاب الجامعي أنه يقدم علماً قائماً على منهج، وهذا المنهج وضعه بعناية أساتذة كبار منذ اليوم الأول لقيام الجامعات والمعاهد العليا، وفي داخل هذا المنهج مفردات ومقررات تغطي على مدار سنوات الطلب أصول كل علم، وهذه المفردات والمقررات وضعها هؤلاء الكبار أيضاً. وقد طرأت على هذه المناهج بعض التغييرات والإضافات نتيجة لتقدم بعض فروع العلم، باستحداث مواد لم تكن موجودة، أو تطوير بعض ما هو قائم، لكن هذه التغييرات أو الإضافات لم تمس أصول ذلك المنهج القائم على تزويد الطالب بأصول العلم وجوهر المعرفة، ويظل الأستاذ الجامعي مهما علا شأنه وارتفع قدره مشدوداً إلى هذا المنهج، ملتزماً بمفرداته ومقرراته، دائراً في مراجعه ومصادره، فإذا حاد عنه رد إليه رداً جميلاً أو غير جميل، من رئيس قسمه أو عميد كليته.

هكذا كانت الأمور، وهكذا مضت، وفي ذلك الطريق تخرجت أجيال من الجامعيين مؤسسة على العلم الصحيح. ويداول الله الأيام بين الناس، فتحدث أمور تفضي إلى أمور، ويترخص الناس فيما لا يترخص فيه، وتقل المرجعية في العلم، ويتصرف بعض المعلمين من عند أنفسهم استبداداً واستقلالاً، فتضيع المعالم، ويختلط المرعي بالهمل، وتتداخل النوايا والمقاصد «وبعض السجاياء ينتسب إلى بعض» على ما قال ابن الرومي.

وكان ما كان مما لست أذكره، وإذا نحن بين يوم وليلة أمام بعض الكتب

الجامعية لبعض الأساتذة الذين أباحوا لأنفسهم أن يتعدوا قليلاً أو كثيراً عما كان مستقراً وثابتاً في أصول المنهج ومفرداته التي درجت عليها الأجيال، بل إن بعض مفردات هذه المناهج قد اختفت فعلاً لتحل محلها بحوث الأساتذة التي حصلوا بها على شهادتهم العليا (الماجستير والدكتوراه)، ثم ما قدموه من بحوث للترقيات العلمية، وبعض ذلك يقدم بعنواناته الأصلية، وبعضه يغير ويوضع تحت مسميات جديدة، ويقدم كل ذلك للطلاب ويطلب منه تحصيله وفهمه وأداء الامتحان فيه .

لقد أصبح محتوى المقرر الدراسي خاضعاً لمشيئة المدرس ومزاجه، وفضلاً عن وعورة هذا المسلك وجهد المشقة فيه، فإن الطالب لن يعود منه بشيء ذي بال، في هذه المرحلة من العمر، ولن يفيد في معرفة أصول العلم وقواعده، وخذ مثلاً علم النحو، وهو علم التراكم الذي لا غنى عنه لطالب العربية في أي فرع من فروعها، هذا العلم يقوم على التعريفات والقواعد والشواهد — وقد قيل بحق: النحو شاهد ومثل — فكل جهد يبذل فيه في السنوات الجامعية الأربع ينبغي أن يدور حول هذه الأركان الثلاثة، لا يتجاوزها ولا يتعداها إلى غيرها من النظر في أصول النحو، من قياس وسماع وعلة، بل يؤجل ذلك كله إلى ما بعد المرحلة الجامعية الأولى لمن أراد أن يتم الطريق، ولكن الأمر قد جرى على غير هذا — وبخاصة في العقدين الأخيرين — وليت الأمر قد وقف عند هذا الحد، فإن بعض زملائنا يفتح على الطلبة أبواباً من النظر في فلسفة النحو تضرهم ولا تنفعهم؛ لأنها تورثهم الشك والحيرة .

جاءني يوماً أحد الطلبة يسألني: يا دكتور، ما الفرق بين الموقع الإعرابي والحالة الإعرابية؟ فقلت له: من أنباك هذا؟ قال: الدكتور الفلاني في الكتاب الفلاني، فقلت له: يا بني، هذا الدكتور رجل من أهل العلم، وكلامه هذا للكبار من أهل العلم، أما أنت فلا زلت في أول الطريق، وقد جئت إلى هذه الكلية تدرس فيما تدرس علم النحو، لكي تقرأ قراءة صحيحة وتكتب كتابة صحيحة، فاشتغل بذلك ودع ما سواه .

ومن أخطر الأمور أيضاً ما يقوم به بعض زملائنا من نقد للفكر اللغوي

والنحوي أمام هؤلاء الشباب، ويحدثنا بعض الطلبة أن أستاذاً يخصص نصف المحاضرة لعرض القاعدة النحوية، ثم يصرف النصف الآخر لنقدها ونقضها، وبعضهم يبدأ حديثه عن المعاجم العربية بذكر عيوب المعجم العربي، من تكرار المادة وتشويشها وتضارب النقول فيها، ثم يأتي حديثه عن مناهج هذه المعاجم ومدارسها وطريقة التعامل معها، خافتاً ضعيفاً في آخر الكلام.

الحاجة الملحة للمعلم :

لقد تحول كثير من الأساتذة الآن إلى مُنظِّرين وفلاسفة، وبعضهم يستخدم مصطلحات وتراكيب لامعة براقة، تأسر الطالب أسراً، وتجعله دائم التطلع إليها والتشبث بها، يريد أن يحاكيها، وقد يصده ذلك عن التماس العلم الحقيقي.

إنَّ الطالب في حاجة إلى مربٍّ ومعلم، لا إلى منظر وفيلسوف، فكل ما يلقي على الطلبة في هذه المرحلة الجامعية الأولى، وكل ما يكتب لهم ينبغي أن يقوم على أساس ثابت من أصول العلم وحقائقه، وما فوق ذلك من نقد وتحليل وتبع ينبغي أن يؤجل إلى مرحلة الدراسات العليا، كما قلت، فمناهج تدريس النحو والصرف واللغة والبلاغة والأدب يجب أن تدور في فلك القاعدة والشاهد، ولا بأس من الإلمام بشيء من النقد والتحليل، يُشْرِف ولا يتوغل، ويحوم ولا يواقع؛ لأنه لا يصح بحال أن نكشف لصغار الطلبة في هذه المرحلة الجامعية الأولى، عن أبواب النقد هذه، وأن ندلهم عليها، فإن مداركهم تقصر عن إدراك تلك المرامي البعيدة، فضلاً عما يحدثه ذلك في نفوسهم من زلزلة وبلبلة قد ترهدهم في العلم كله.

وقد نبّه أهل العلم إلى ذلك من قديم، فقد ذكر أبو داود في رسالته إلى أهل مكة «أنه ضرر على العامة أن يكشف لهم كل ما كان من هذا الباب فيما مضى من عيوب الحديث؛ لأن علم العامة يقصر عن مثل هذا»، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: «وهذا كما قال أبو داود؛ فإن العامة تقصر أفهامهم عن مثل ذلك، وربما ساء ظنهم بالحديث جملة إذا سمعوا ذلك» شرح علل الترمذي ص ٥٤٣، وروى أبو سعد السمعاني بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «إن الرجل

ليحدث بالحديث فيسمعه من لا يبلغ عقله فهم ذلك الحديث فيكون عليهم فتنة» أدب الإماء والاستملاء ص ٥٩، ٦٠، وروى ابن عبد البر عن هشام عن عروة بن الزبير بن العوام، قال: «قال لي أبي: ما حدثت أحداً بشيء من العلم قط لم يبلغه علمه إلا كان ضلالاً عليه» جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٣٤.

وقال بدر الدين بن جماعة، فيما يجب على المعلم نحو طلبته: «وكذلك لا يلقي إليه ما لم يتأهل له؛ لأن ذلك يبدد ذهنه ويفرق فهمه، فإن سأله الطالب شيئاً من ذلك لم يجبه، ويعرفه أن ذلك يضره ولا ينفعه، وأنَّ منعه إياه منه لشفقة عليه وعطف به، لا بخلاً عليه، ثم يرغبه عند ذلك في الاجتهاد والتحصيل، ليتأهل لذلك وغيره، وقد روي في تفسير «الربّاني» أنه الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره». وقال أيضاً: «ولا يشير على الطالب بتعليم ما لا يحتمله فهمه أو سنه، ولا بكتاب يقصر ذهنه عن فهمه» تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم ص ٥١ - ٥٢ و ٥٥، وذكر جلال الدين السيوطي من أدب الرواية والتعليم، قال: «ومن آدابهما الإخلاص، وأن يقصد بذلك نشر العلم وإحياءه، والصدق في الرواية، والتحري والنصح في التعليم، والاقتصار على القدر الذي تحمله طاقة المتعلم». المزهر ٢/ ٣٣٠.

على أن بعض الأساتذة قد هُدي إلى صراط مستقيم، فوضع بين يدي طلبته ذلك الكتاب الجامعي القائم على الكشف عن أصول العلم، وعرض القاعدة مؤيدة بالنصوص والشواهد؛ دون إغراق في النقد والتحليل، لكنه كان من المؤسف والمحزن حقاً أن ينظر إلى مثل ذلك العمل على أنه كتاب مدرسي، وصار هذا الوصف «الكتاب المدرسي» علامة على الخفة والسهولة، وصار مجلبة للتنقص وطريقاً إلى المعابة، بل بلغت الجرأة مداها أن يصف بعضهم ما كتبه أحد أعلامنا الكبار - متعه الله بالصحة والعافية - في تاريخ الأدب العربي في عصوره المختلفة، بأنه عمل مدرسي، غايته الجمع والتبويب، وأنه خال من التحليل والموازنة والنقد.

ومعنى هذا أنه إذا جاءك أحدهم بعمل قائم على الثروة بتلك المصطلحات

الخادعة: التحليل — الموازنة — النقد، ثم قَمَشَ علماً من هنا وسلخ علماً من هناك، واختار عنواناً أَخَذَ بَرَّاقاً. أقول: معنى هذا أن ذلك العمل يفوق أعمال هذا الأستاذ الكبير، الذي قدم أعمالاً ضخمة في تاريخ الأدب العربي وعصوره، أفنى فيها عمره، وأطاب بها ذكره.

إن مصطلح «التحليل» وما أثير حوله من صخب وطنطنة قد عطل علماً كثيراً، ودفع إلى كثير من التهويل والتضخيم، وغمط فضلاً كثيراً، ولقد ذكرني هذا الحديث بكتابين عظيمين التقيت بهما في أوائل الستينات، إذ كنت طالباً بكلية دار العلوم، أولهما كتاب «أسس النقد الأدبي عند العرب» للدكتور أحمد بدوي رحمه الله، وثانيهما: كتاب «البيان العربي» للدكتور بدوي أحمد طبانة، أطال الله في عمره.

وهذان الكتابان مشحونان بالتعريفات والنصوص، لأعلام النقد والبلاغة كالجاحظ، وابن قتيبة، وأبي هلال العسكري، والآمدي، والقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، والشيخ عبد القاهر الجرجاني، وابن سنان الخفاجي، وابن طباطبا العلوي، وضياء الدين بن الأثير، وأذكر أننا كنا شديدي الضيق بهذين الكتابين، وكنا نشكو منهما كل الشكوى، ولعل مما أغرانا بالضيق والشكوى من هذا اللون من التأليف: ظهور جيل جديد من صغار النقاد، بدأوا يثرثرون من خلال المقاهي الأدبية التي كانت في تلك الأيام، مثل مقهى الإنديانا بميدان الدقي، ومقهى ريش بشارع طلعت حرب، وكنا صغاراً قليلي الخبرة، ولم يتح لنا أن نعيش أيام «رسالة الزيات» و«ثقافة أحمد أمين»، فكان يسهل خداعنا بمثل هاتيك المصطلحات: الوحدة الموضوعية، والمعاناة والتجربة الشعورية، وتراسل الحواس، والمونولوج الداخلي، والدفقة الشعورية، والتعبير بالصورة، والألفاظ الموحية، والشعر المهموس، وكانت هذه الكلمات الضخمة تهزنا هزاً، فإذا رحنا نلتمسها في كلام الجاحظ وابن قتيبة والآمدي لم نجد لها، فيشتد ضيقنا بكتابي الدكتورين الفاضلين، ونذم زماننا، ونلعن حظوظنا، ونود لو ضرب بيننا وبين أمثال هذه الكتب بسور ليس له باب.

ولقد بلغت السفاهة ببعضنا أن ذهب إلى ناقد ناشئ في تلك الأيام وحرّضه على كتاب الدكتور أحمد بدوي، ثم استكتبه مقالة طائشة بجريدة الجمهورية، تطاول فيها تطاولاً فارغاً على الكتاب، فكانت كما قالت العرب في أمثالها: «أوسعتهم سباً وأودوا بالإبل»، وهو مثل يضرب لمن لم يكن عنده إلا الكلام. والآن وبعد مضي هذا الزمان أستغفر الله مما كان مني من طيش وزلل في حق ذلك الكتاب، فقد كنت أيضاً من الساخرين العابثين، وإنما هي غفلة الصبا وغرارة الشباب، ولا أملك الآن إلا أن أنشد قول الشاعر:

رُبَّ يَوْمٍ بَكَيْتُ مِنْهُ مَرَّاراً ثُمَّ لَمَّا مَضَى بَكَيْتُ عَلَيْهِ
وقول الآخر:

فَلَيْتَ أَنْ زَمَاناً مَرَّ دَامَ لَنَا وَلَيْتَ أَنْ زَمَاناً دَامَ لَمْ يَدُمْ
وقول الثالث:

عَتَبْتُ عَلَى سَلَمٍ فَلَمَّا فَقَدْتُهُ وَجَرَّيْتُ أَقْوَاماً بَكَيْتَ عَلَى سَلَمٍ
رَجَعْتُ إِلَيْهِ بَعْدَ تَجَرِبٍ غَيْرِهِ فَكَانَ كِبُرٍ بَعْدَ طَوْلٍ مِنَ السُّقَمِ

وأعتقد أن كتاب الدكتور أحمد بدوي قد خرجت منه رسائل جامعية كثيرة، وكذلك كتاب الدكتور بدوي طبانة، فكانا أيضاً كما قالت العرب في أمثالها: «أكلاً وذمّاً».

ومرة أخرى: لا بد من إعادة النظر في هذا المصطلح «الكتاب المدرسي» وإعادة التوقيع له والهبة. إن متون النحو الأولى مثل الموجز لابن السراج، والإيضاح لأبي علي الفارسي، واللمع لابن جني، وإعراب ثلاثين سورة لابن خالويه، والفصول الخمسون لابن معطي، والآجرومية، وقطر الندى لابن هشام، كلها تأليف صغيرة عملت للمبتدئين في دراسة النحو، فهي كتب مدرسية، ولكنها علامات بارزة في طريق العلم، ونازعة بالثقة في أصحابها واحترامهم وإنزالهم المنزلة العالية. ولم يقتعد ابن جني هذه الذروة الضخمة بكتابه الفذ «الخصائص»

وحده، بل كان إلى جانبه كتبه الصغار المدرسية، مثل «اللمع» الذي ذكرته، والكتاب «الملوكي في التصريف».

ومن جناية هذا الوصف «الكتاب المدرسي» أن ذلك الكتاب القائم على أصول العلم وحدها دون إغراق في التحليل والتفلسف يرفض من أبحاث الترقيات ويستبعد من الجوائز الأدبية؛ لأنه كتاب مدرسي عمل للطلبة ليس غير، وهذا خلف من القول، وخطأ في الحكم. والكتاب المدرسي عمل من الأعمال العلمية: جيدة، جيد، ورديته رديء، فلا يصح أن يُستبعد جيده من أبحاث الترقيات، بل إنني أتوق إلى اليوم الذي أرى فيه ترقية علمية يقصد بها الطالب قصداً، فإن بعض أبحاث الترقيات تدور غالباً في فلك بعيد عن الطالب، بل إن منها لما يشقق فيخرج منه كلام مفصل تفصيلاً على أعضاء لجان الترقيات، من حيث السير في طريقهم، والاستكثار من الرجوع إلى مؤلفاتهم بحق وبغير حق.

إن هذه النظرة المستخفة إلى الكتاب المدرسي قد دفعت كثيراً من الأساتذة المجيدين إلى شيء من الملل، فلم يعطوا الكتاب الجامعي حظه من الإجابة والإتقان، وكان هذا الذي يقدم للطلاب حُسوة الطائر أو قَبْسة العَجَلان، لا تروي غليلاً ولا تضيء ظلاماً، ولا تنضج طعاماً، فجاء الكتاب الجامعي الآن — أو قل الكثير منه — في صورة مهلهلة: طباعة سيئة وورق رديء، فضلاً عن المادة العلمية الخفيفة، وتنظر إلى هذه الكتب الجامعية والمذكرات على أبواب لجان الامتحانات وقد ألقاها الطلبة إلقاء على الأرض بعد أن نظروا فيها النظرة الأخيرة، فتراها وقد تحولت إلى شيء مكور مستدير كالذي يتقاذفه الأطفال بأرجلهم شبيهاً بالكرة التي يسمونها «الكرة الشراب». وابلِك ما شاء الله لك أن تبكي على هذا العلم الملقى على الأرض، على ما قال الشاعر:

وَيُقَفُّ الْمِسْكُ فِي الثُّرْبِ بِفَيْسُوطٍ وَيُـدَسُّ

إن أزمنا الحقيقية أن الملل يسيطر على حياتنا الجامعية كلها، وإن أضعف جوانب الأستاذ الجامعي الآن هو ما يظهر للطلاب في أثناء المحاضرة ومن خلال

الكتاب الجامعي، أما الجوانب المضيئة لذلك الأستاذ فهي مُدخّرة ومصونة ليوم تشخص فيه الأبصار، وهو يوم المؤتمرات والندوات والحلقات .

إن الجامعة ينبغي أن تتدخل — ممثلة في عمداء الكليات ورؤساء الأقسام، بالنظر في المادة التي يضمها الكتاب الجامعي، وفي الصورة التي يخرج بها ذلك الكتاب، وفي هذا الطريق ينبغي أن يكون لرؤساء الأقسام الهيمنة الكاملة على ما يقدم للطلبة، وليس فقط النظر في تلك الأعمال الإدارية النمطية المعروفة، ولا يعتصمَنَ أحد بكرامة الأستاذ الجامعي، وهيبة الأستاذ الجامعي، فهذه الكرامة وتلك الهيبة تثبتان للأستاذ ما لزم الجادة واستوى على الطريق، فإذا زاغ أو مال سقطت الكرامة وضاعت الهيبة، على ما قال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني :

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعُظِّموا

إن الهيبة التي تمنحها الجامعة للأستاذ ليست حقاً إلهياً لا ينازع صاحبه فيه ولا يغلب عليه، إن الهيبة الجامعية تبقى ما بقيت دواعيها، فإذا سقطت الدواعي تبعثها الهيبة، على ما قال ابن زريق في عينيته الشهيرة :

أُعْطِيََتْ مُلْكاً فَلَمْ تُحَسِّنْ سِيَاسَتَهُ وَكُلٌّ مِنْ لَا يَسُوسُ الْمُلْكَ يُخْلَعُهُ
وَالسَّعِيدُ مِنْ عَصَمَهُ اللَّهُ .

وعوداً على بدء أقول : إن الطالب هو أساس العمل الجامعي كله، فهو قطب الرّحى وعمود الصورة، فيجب أن نحشد له؛ تأليفاً ومحاضرات، وأن يكون هو المقصد والغاية، ثم يكون حظ الأستاذ من التقدير والترقية والاحترام قائماً على ما يقدمه للطالب ورفعة شأنه .

* * *

تركيا.. والمخطوطات العربية^(١)

زرت تركيا مرتين: الأولى في شتاء عام ١٩٧١م، والثانية في صيف هذا العام،
ويا بُعد ما بين اليومين في حياة الكاتب، وفي عالم المخطوطات:

ففي المرة الأولى كنت عضواً صغيراً في بعثة معهد المخطوطات التابع للمنظمة
العربية للتربية والثقافة والعلوم غداة إنشائها، وكان هذا المعهد من قبل تابعاً للأمانة
العامة لجامعة الدول العربية منذ قيامها سنة ١٩٤٥م.

وفي هذه المرة الثانية كنت مدعواً من قبل مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي،
التي يرعاها ويدعمها معالي الشيخ أحمد زكي يمانى، وزير البترول والثروة المعدنية
السابق بالمملكة العربية السعودية، وذلك لإلقاء محاضرات عملية في الدورة
التدريبية الثانية على تصنيف وفهرسة المخطوطات الإسلامية.

وقد دُعيت إلى حضور هذه الدورة نفر من الشباب المشتغلين بالمكتبات
والاستشراق، من تركيا وألبانيا وبلغاريا وزغرب والبوسنة والهرسك، وكاشغر
(الصين الشعبية)، وبعض جمهوريات آسيا الوسطى: أذربيجان وأوزبكستان،
وقازقستان وطاجيكستان، وشارك في إلقاء المحاضرات طائفة من العلماء المشتغلين
بعلم المخطوطات، كان منهم من مصر: الدكتور عبد الستار الحلوجي، والأستاذ
نصر الله مبشر الطرازي.

وكذلك اختلف حال المخطوطات اليوم عن حالها بالأمس اختلافاً كبيراً،

(١) مجلة «الهلal»، ديسمبر ١٩٩٤م.

وبخاصة في ديارنا المصرية، ففي ذلك الزمان كانت المخطوطات في مصر مصنونة متاحة، وكان القائمون عليها والمتصرفون فيها أولي علم وبصر، يعرفون أسماء المخطوطات في كل علم وفن، كما يعرف الناس آباءهم، وكانت لديهم القدرة على قراءة العسر المعنى من المخطوطات، وتمييز الصحيح من الزائف، والعتيق من المحدث، إلى معارف أخرى تتصل بهذا العلم، كالمخطوط النادر، ومقاييس هذه الندرة: من خطوط المؤلفين أنفسهم، وحظوظ بعد الكتب من كثرة مخطوطاتها أو قلتها، ومعرفة مظان المخطوطات وأماكن وجودها. وقد ذهب هذا كله، إلا بقية خافتة الصوت ضعيفة الأثر.

ويشتد بي العجب — وقد قضيت مع هذا العلم خمسة وثلاثين عاماً: ناسخاً ومفهرساً ومحققاً ودارساً — حين أقرأ لبعض الناس الآن كلاماً أخاذاً برأفاً عالي النبرة عن المخطوطات وسرقتها والغيرة عليها، مع يقيني الذي لا يداخله الشك أنهم لم يعانون هذا العلم ولم يعرفوا شيئاً عن أسرارها وخباياه، فضلاً عن أنهم لم يجالسوا شيوخه وأعلامه، وأساس العلم التلقي والمشافهة، فهي حماسة كاذبة، وولاء مدخول:

وكلُّ يدْعي وصلاً بليلي وليلى لا تقرُّ لهم بذاكا

وهذا الحديث مما يطول جداً فلنتركه إلى حين، ولنعد إلى تركيا هذا الجزء العزيز من العالم الإسلامي، وحديث المخطوطات فيها، وهو حديث غريب عجيب.

وقبل أن نتكلم على فضل الأتراك العثمانيين على هذا التراث الإسلامي، بجمعه وحفظه وصيانتته، لا بد من التذكير بفضلهم في نشر الإسلام بأوروبا، لأن هذا من ذاك، ومعلوم أن كلمة «تركي» كانت في وقت من الأوقات مرادفة لكلمة «مسلم» في أذهان الأوروبيين الغربيين، وكان زحف الأتراك العثمانيين على بلاد البلقان وتوغلهم فيها، ثم اتجاههم إلى قلب أوروبا، ودخول محمد الفاتح القسطنطينية وفتحها سنة ٧٥٧هـ = ١٤٥٣م، كان ذلك كله بمثابة الضربة الثانية للمسلمين في

أوروبا، وكانت الأولى يوم أن عبر المسلمون بقيادة طارق بن زياد بوغاز جبل طارق سنة ٩٢هـ - ٧١٠م.

يقول الدكتور عبد العزيز الشناوي في كتابه القيم «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها» ص ٤٣: «وقد نظرت أوروبا إلى الفتوح العثمانية على أنها فتوح إسلامية، وكان الأتراك العثمانيون - في تقدير أوروبا - هم الرمز الحي المجسد للإسلام، واختلط الأمر على الأوروبيين في ذلك الوقت، فكانوا يطلقون على المسلم لفظ تركي». وانظر بقية كلامه، فإنه عال نفيس، ثم انظر الدّوي الهائل الذي أحدثه فتح السلطان محمد الفاتح للقسطنطينية في كتاب شيخنا أبي فهر محمود محمد شاكر «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»، وقرأ أيضاً ما كتبه المستشرق الروسي كراتشكوفسكي في كتابه «تاريخ الأدب الجغرافي العربي» ص ٤٥١، عن أثر فتح السلطان سليم العثماني لمصر سنة ٩٢٣هـ، وأن استانبول أخذت منذ ذلك الحين تجتذب إليها بشكل مطرد أنظار العرب الذين أخذت أوطانهم تدور في فلك الدولة العثمانية بطريق مباشر أو غير مباشر، وفي ذلك الوقت بالتحديد بحث البابا ليون العاشر الإيطالي مع فرنسوا الأول ملك فرنسا، في عام ١٥١٥م، مشروع حملة صليبية ضد الترك العثمانيين لوقف زحفهم وتوغلهم.

ثم اقرأ أيضاً ما قاله المؤرخ ابن العماد الحنبلي، في كتابه شذرات الذهب ١٤٣/٨، في ترجمة السلطان سليم العثماني هذا، يقول: «هو من بيت رفع الله على قواعده فسطاط السلطنة الإسلامية، ومن قوم أبرز الله تعالى لهم ما ادخره من الاستيلاء على المدائن الإيمانية، رفعوا عماد الإسلام وأعلوا مناره، وتواصوا باتباع السنة المطهرة، وعرفوا للشرع مقداره» - ويلاحظ أن ابن العماد قائل هذا الكلام توفي سنة ١٠٨٩هـ، فهو قريب العهد بأحداث زمان دخول السلطان سليم مصر، وأنه ولد بدمشق وأقام بالقاهرة مدة طويلة، ومات بمكة، فلم يكن عثمانياً يميل بهواه إلى أبناء جلدته، ولم يدخل بلاد الروم - استانبول وما حولها - حتى يكون له فيها حظ من جاه، أو نصيب من نفع، يحملانه على الثناء والمدح - فاقراً هذا كله وتدبره،

ودع عنك ما يقال عن الغزو العثماني لمصر أو الاحتلال العثماني لمصر، فهذا كله من حديث السياسة، وللسياسة دروب ومضايق، يضعف فيها الحق، ويضل معها الحكيم، وهذه كلها من آفات المتابعة وعدم التحري، على ما قال الجاحظ: «وإنما يؤتى الناس من ترك التثبت وقلة المحاسبة».

ولقد قال الناس وأكثروا عن أخذ السلطان سليم للصناع والمهرة من مصر، وسلب المخطوطات، ولقد — والله — رأيت هذه المخطوطات بعيني بالمكتبة السليمانية الوطنية في «أدرنة» بشمال تركيا، حيث مات ودفن السلطان سليم، فرأيتها محفوظة مصونة، لم تمس بسوء.

نشاط علمي وثقافي:

ومهما يكن من أمر فقد واكب نشاط سلاطين آل عثمان في الجهاد والفتوح، نشاط آخر في العلم والكتب، وآية ذلك أن كل سلطان أو صدر أعظم كان يحرص على أن يبني بجوار المسجد مدرسة ومكتبة تابعتين له وملحقتين به، ولما كان الناس على دين ملوكهم، فقد اقتدى بالسلاطين في ذلك الوزراء ومشايخ الإسلام، وعلى ذلك، فمجموعات المخطوطات في تركيا تنسب إلى ثلاث طوائف: السلاطين، مثل مكتبة السلطان سليم الأول — وهي المكتبة السليمانية بأدرنة التي حدثت عنها — ومكتبات السلطان محمد الفاتح والسلطان بايزيد، والسلطان أحمد الثالث، والمكتبة السليمانية نسبة إلى السلطان سليمان القانوني — أو المشرّع — وكلها باستانبول.

والطائفة الثانية: الوزراء، مثل راغب باشا، وشهيد علي باشا، وكوبريلي باشا. والمكتبات الثلاث باستانبول، وكوبريلي باشا هذا، هو الوزير الفاضل أحمد بن محمد، وهو من كبار الرجال في الدولة العثمانية، يقول عنه المحبي في خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ٣٥٣/١: «ولم يكن في الوزراء من يحفظ أمر الدين وقانون الشريعة مثله، صعباً شديداً في أمور الشرع، سهلاً في أمور الدنيا، وكان حاذقاً مدبراً للملك، قائماً بضبطه، وملك من نفائس الكتب وعجائب الذخائر ما لا يدخل تحت الحصر، ولا يضبط بالإحصاء».

قلت: وممن اتصل به من العلماء: العلامة عبد القادر بن عمر البغدادي، صاحب «خزانة الأدب» فأكرمه وحظي عنده بمكانة رفيعة، وقد أهدى له البغدادي مؤلفه «حاشية على شرح بانث سعاد».

والطائفة الثالثة: مشايخ الإسلام، مثل: أسعد أفندي، وعاشر أفندي، وولي الدين أفندي، وعاطف أفندي، وفيض الله أفندي، وعلي أمير أفندي، ووهبي أفندي، وشيخ مراد أفندي – ومكتبته غير مكتبة مراد ملا – وكل هذه المكتبات باستانبول. وإسماعيل صائب أفندي ومكتبته بأنقرة.

ومع هذه الطوائف الثلاث ظهرت طائفة النساء اللائي عنين بجمع المخطوطات، فأنشأن لها مكتبات نسبت إليهن، مثل مكتبة طرخان، وصالحة خاتون، وأسما خان، وجلنوش، وبرتونيال، وكثير من المكتبات التي تسمى «والدة باشا» ثم تضاف إلى ابنها السلطان.

حفظ العلم:

ولعل هذا التنافس في جمع المخطوطات وإنشاء المكتبات بهذا الحشد الكبير في استانبول كان مبعثه رغبة سلاطين آل عثمان والوزراء ومشايخ الإسلام والوجهاء، أن يكون لاستانبول تلك المكانة التي كانت لدمشق عاصمة الأمويين، وبغداد عاصمة العباسيين، ومصر عاصمة الفاطميين والأيوبيين والمماليك.

هكذا يقول بعض الدارسين والمحللين، أما أنا فإنني أرى أن هذا كله من تسخير الله بعض عباده لحفظ العلم وبقاء الكتب، ولعل كثيراً من الذين جمعوا المخطوطات وأنشأوا لها الخزائن والمكتبات لم يخطر ببالهم عاصمة كذا وعاصمة كذا، وهل نظن أن امرأة تركية من الفضليات اللائي جمعن المخطوطات وأنشأن المكتبات كانت تفكر في مثل هذا الذي يذكره المحللون؟ إنها عناية الله وتسخير الله، وكلٌ ميسرٌ لما خُلِقَ له، ألسنت ترى بعض الكتاب الآن يكتبون في موضوعات غاية في الخصوصية، ويعكفون على تحقیقات وبحوث، لا تحقق شهرة، ولا تجلب مالاً، ولكنه التسخير الإلهي، والله في خلقه شؤون.

على أن اللافت للنظر حقاً أن المخطوطات العربية ليست توجد في استانبول وحدها — العاصمة القديمة لتركيا — كما هو الشأن في المخطوطات التي تقتنيها الدول، أن تكون في عواصمها فقط، فإنك واجد مخطوطات كثيرة في غير استانبول، من أنحاء تركيا كلها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وقد أورد الأستاذ أحمد آتش في مقالة له بمجلة معهد المخطوطات العربية (المجلد الرابع — الجزء الأول) بعنوان: «المخطوطات العربية في مكتبات الأناضول» أورد إحصائية عن المكتبات الكائنة خارج استانبول، قال بعد أن أشار إلى المؤسسات العلمية في أنحاء تركيا: «ولما اضطرت الدولة العثمانية بعد القرن السابع عشر الميلادي إلى مدافعة قسم كبير من العالم الإسلامي ضد عدوان أوروبا، طرأ على هذه المؤسسات العلمية نوع من الإهمال، ومع ذلك فإنه قد بذل بعد منتصف القرن الماضي على عهد السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ — ١٩٠٩) مجهود عظيم لإحياء هذه المؤسسات العلمية، وحسب إحصاء سنة (١٣١١ — ١٣١٢) المطبوع في استانبول من قبل وزارة المعارف، في سنة ١٣١٨، فقد ثبت أنه كان موجوداً في المملكة العثمانية ما عدا استانبول ٢٧٢ مكتبة، تحتوي على ٧٦,٧٧٣ نسخة مخطوطة»، ثم ذكر أسماء هذه المكتبات ومكانها من بلدان تركيا، وعدد المخطوطات بها. ثم ذكر أنه يوجد الآن في الأناضول وضواحيها ٥٩ مكتبة، أوردها بأسمائها وبلدانها وعدد المخطوطات بها.

وقد زرت أنا من هذه المدن ورأيت مخطوطاتها: أدرنه — بورسة — إسكي شهر — كوتاهية — أماسية — قيسارية — سمسون — قونية، وهي بلد الصوفي الكبير جلال الدين الرومي، صاحب «المثنوي» وبها قبره، وبها أيضاً قبر صدر الدين القونوي الفقيه الشافعي الصوفي.

وعلى ذلك فقلّ أن تجد مدينة من بلاد تركيا المتراحة الواسعة ليس بها مكتبة مخطوطات، وهذا فرق ما بين تركيا وبين سائر الدول التي تضم مخطوطات في عواصمها فقط، أو مدنها الشهيرة، كما ذكرت من قبل. وتستطيع أن تقول باطمئنان

إن تركيا تعد أول دولة، من حيث تجميع المخطوطات وعددها، ولئن كان كثير من المشتغلين بعلم المخطوطات يقدرّون عدد المخطوطات في مكتبات العالم بنحو ثلاثة ملايين مخطوط، فإني أرجح أن ما تضمه تركيا يبلغ نحو ثلث هذا العدد.

ومن بين مدن تركيا على امتدادها واتساعها تفرد مدينة استانبول بثلاثي التراث المخطوط في تركيا، فهي بحق مدينة المآذن والمخطوطات، وقد حدثتكم من قبل عن مكتباتها المنسوبة إلى السلاطين والوزراء ومشايخ الإسلام، وهناك مكتبات أخرى غير هذه المكتبات المنسوبة، مثل طوبقبوسراي، ونور عثمانية، ومراد ملا، والبلدية، وجامعة استانبول وملّت كتبخانه، وسليم أغا بأسكودار، في البر الأسوي من استانبول، ويوصل إليها بالباخرة من أمينون في قلب استانبول، أمام مسجدني جامع، إلى مكتبات أخرى ضمت إلى المكتبة السليمانية، وتعد هذه المكتبة أضخم مكتبات استانبول، وقد أمر بإنشائها السلطان سليمان القانوني — أو المشرّع — ابن السلطان سليم الأول فاتح مصر، وقد قام بتصميمها وبنائها «معمار سنان» وهو ذلك المعماري الشهير الذي بنى عشرات المساجد والتكايا والحمامات، وقد انتهى من بناء المكتبة سنة ٩٦٤هـ — ١٥٥٧م، وتقع هذه المكتبة العريقة بالقرب من مسجد السليمانية، وتتوسط المكتبة حديقة صغيرة مزدانة بالورد والزنابق، وتظللها شجرة صنوبر ضخمة تغطي الحديقة كلها بأغصانها المتناسقة.

وفي جانب من المكتبة — وفي القسم الثاني منها — كتبت لوحة تقول: «أنشأ هذه المكتبة المعمار سنان بين ١٥٤٩ — ١٥٥٧ ميلادي، بأمر السلطان سليمان القانوني ابن السلطان سليم الأول. يوجد اليوم في مكتبتنا ١٠١ خزانة كتب. أما المخطوطات الموجودة في مكتبتنا فهي ٦٣٩٤٧ مجلداً، والمطبوع ٣٨٥٠٠ مجلداً فقط، منها المخطوطات التركية ١١٤٥١ مجلداً — المخطوطات العربية ٤٨٨٥٤ مجلداً — المخطوطات الفارسية ٣٦٤١ مجلداً. وبلغ مجموع عدد المخطوطات الموجودة في المكتبة أكثر من ١٠٠,٠٠٠ كتاب ورسالة».

وتضم المكتبة أقسام التصوير والفهرسة، وتعقيم المخطوطات وترميمها

وتجليدها، ثم تسجيلها على الكمبيوتر. ويشيع في هذه المكتبة جو من السكينة والجلال لم أحسهما في مكتبة من مكتبات المخطوطات شرقاً وغرباً.

أما الخدمة المكتبية في هذه المكتبة فشيء معجب حقاً، تطلب المخطوط فتأتيك به الموظفة تحمله بين يديها في حنو وحذب وإشفاق، وكأنه وليد طال انتظاره، على ما قال ساعدة بن جُوَيَّة الهذلي:

أتاها على هون وقد شاب رأسها وحين تصدَّى للهوان عشيروها

ثم تظل عيناها معلقة بك وبه، فإذا رأت منك جفاء مع المخطوط، كاتكاء بيدك عليه، أو بلّ إصبعك لتقليب صفحة من صفحاته، أو اتخاذه سِناداً لما تكتب ردّتكَ عن ذلك ردّاً جميلاً، ولهذا ترى كثيراً من المخطوطات محتفظة بروائها وجمالها، وكأنها خرجت من يد النساخ للتو واللحظة.

وتوشك هذه المكتبة السلিমانيّة أن تكون المكتبة المركزية العامة للمخطوطات، فإن وزارة الثقافة التركية تعمل على نقل المخطوطات إليها من الأقاليم البعيدة لتكون قريبة من الباحثين.

وإذا كانت تركيا تملك أكبر قدر من المخطوطات في العالم، فإنها كذلك تحتفظ بأكثر قدر من النفائس والنوادر، وللنفاسة والندرة في عالم المخطوطات معايير كثيرة، من أبرزها وأظهرها قدم المخطوط، ونجد في مخطوطات تركيا كتباً ذوات عدد يرجع تاريخ نسخها إلى القرون المتقدمة: كالثالث والرابع والخامس والسادس، فضلاً عن المخطوطات التي كتبت بأقلام مؤلفيها أو تلاميذهم، والمخطوطات الفريدة التي لا تُعرف لها نسخ أخرى في مكتبات العالم، كل ذلك وأشباهه مما تغص به مكتبات تركيا، فمن نماذج القدم والعتاقة هذه المخطوطات:

المأثور عن أبي العميش الأعرابي، في اللغة، المتوفى سنة ٢٤٠، نسخ سنة ٢٨٠، بخط نسخ مشكول بالحركات شكلاً جيداً، وهذا يفيد في معرفة تاريخ الشكل بالحركات، كيف كان في ذلك الزمان المتقدم. والنسخة بمكتبة ولي الدين باستانبول — دستور ثابت بن قرة المتوفى سنة ٢٨٨ — وهو كتاب في آلات الساعات — نسخ

سنة ٣٧٠، مكتبة كوبريلي باستانبول — رسالة مدح الكتب والحث على جمعها للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥، بخط علي ابن البواب الخطاط الشهير، سنة ٤١٣، متحف الأوقاف باستانبول — تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن، للبيروني المتوفى سنة ٤٤٠، نسخ سنة ٤١٦، (أي في حياة المؤلف) مكتبة الفاتح باستانبول — شرح كتاب أرسطوطاليس للفارابي المتوفى سنة ٣٣٩، نسخ سنة ٥٣٨ — مكتبة أحمد الثالث باستانبول.

وليست النفائس والنوادر في مكتبات استانبول وحدها، بل هي في سائر المكتبات التركية، ومما رأيته بعيني من تلك النفائس: نسخة من «جامع معمر بن راشد» المتوفى سنة ١٥٣، وكتابه هذا في الحديث، وهو أقدم من «موطأ مالك» كما يقول ابن سمرة في طبقات فقهاء اليمن ص ٦٦، والنسخة بخط مغربي على رق غزال سنة ٣٦٤، وقد رأيته في مجموعة إسماعيل صائب أفندي بمكتبة كلية الآداب بجامعة أنقرة، ومجموعة إسماعيل صائب هذه تحتوي على كثير من النفائس، لأن جامعها هذا كان يعمل مديراً لمكتبة بايزيد باستانبول، وقد جمع هذه المكتبة لنفسه خاصة لتحمل اسمه، وقد ظلت هذه المجموعة حبيسة الصناديق نحو عشرين عاماً، ولهذا لم تتضمنها موسوعة «تاريخ الأدب العربي» للمستشرق الألماني كارل بروكلمان، ومن نفائسها أيضاً كتاب «حلية الفقهاء» لابن فارس المتوفى سنة ٣٩٥، نسخ سنة ٥٨٩، وترجع نفاسة هذه النسخة — مع قدم نسخها — إلى أنها النسخة الوحيدة في العالم إلى الآن. وعنها كانت نشرة الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي وزير الدعوة والشؤون الإسلامية بالمملكة العربية السعودية.

ومن النفائس التي رأيته بمكتبة قونية: نسخة من «المقصود والممدود» لابن ولّاد المتوفى سنة ٣٣٢، ونسخة من «المذكر والمؤنث» لأبي حاتم السجستاني المتوفى سنة ٢٥٥، وكلتا النسختين من خطوط القرن الرابع. ثم رأيت في قونية أيضاً نسخة من «غريب القرآن» لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦، من خطوط القرن السادس، ولم ير أستاذنا السيد أحمد صقر رحمه الله، هذه النسخة عند نشره للكتاب سنة

١٧٧٨هـ = ١٩٥٨ ، وإنما كان تعويله على نسخة وحيدة كانت صورتها في مكتبة المحدث الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر .

ومما رأيت من النفائس مجموعة شعرية كتبت بخط نسخي جيد من خطوط القرن السابع تقديراً، تشتمل على أشعار بشر بن أبي خازم، وتميم بن أبيّ بن مقبل، والطرمّاح بن حكيم . وهذه المجموعة الشعرية محفوظة في مدينة صغيرة تسمّى «جوروم» تقع في هضاب الأناضول في الوسط، إلى الشمال الشرقي من أنقرة العاصمة، وعن هذه المجموعة نشر الدكتور عزة حسن دواوين الشعراء الثلاثة بدمشق .

أما نسخ المصاحف القرآنية، والمخطوطات الخزائنية – وهي التي جودت وزينت لخزائن السلاطين والملوك، والمخطوطات المزوّقة، فشيء بالغ الكثرة .

وهكذا امتلأت خزائن تركيا بالمخطوطات العربية التي تنافس في جمعها السلاطين والوزراء ومشايخ الإسلام، ووجهاء الناس حتى النساء، جمعوها من البلاد التي طالها حكمهم ثم حفظوها وصانوها، كما يصون كرام الأبناء ودائع الآباء، وهذا الحفظ وتلك الصيانة قامت بهما تركيا العثمانية (الخلافة) وتركيا العلمانية (الجمهورية) سواء بسواء .

وليس فضل الأتراك العثمانيين على اللسان العربي، وعلى الفكر العربي محصوراً فقط في هذا القدر الكبير من المخطوطات العربية التي جمعوها وحفظوها، بل قد جاءنا منهم خير كثير: جاءنا منهم أعظم وأجمع ما كتب في علم أحوال الكتب، أو قوائم الكتب (الببليوغرافيا العربية)، وهو كتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لمصطفى بن عبد الله، كاتب جلبي، المعروف بالحاج خليفة، أو: حاجي خليفة، المولود باستانبول سنة ١٠١٧هـ = ١٦٠٩م، والمتوفى بها سنة ١٠٦٧هـ = ١٦٥٧م، وهذا الكتاب «من أوسع ما بأيدي الباحثين اليوم من الكتب المؤلفة في استقصاء ذكر المؤلفات في الإسلام، وأنفعها في بيان أحوال الكتب، كما يقول بلديّه العلامة الشيخ محمد زاهد الكوثري، وكيل المشيخة الإسلامية في دار الخلافة العثمانية، والمتوفى بمصر سنة ١٣٧١هـ – في كتابه مقالات الكوثري ص ٤٧٨ .

ولهذا الكتاب — كشف الظنون — قيمة كبرى في رصد حركة التأليف العربي، وتتبع مساره منذ بداية التدوين حتى القرن الحادي عشر الهجري. ومادته العلمية غزيرة جداً، فقد ذكر نحو (٢٠٠) علم وفن، ونحو (١٥٠٠٠) عنوان كتاب، ونحو (٩٥٠٠) مؤلف.

وجاءنا من تركيا العثمانية أيضاً «الخط العربي»، هذا الفن الجميل الذي يعد معلماً بارزاً من معالم الإبداع الفني عند المسلمين، وخاصة حضارية ينفردون بها عن سائر الشعوب.

وإذا كان تاريخنا يذكر أسماء عظيمة كان لها أثر واضح في تزيين الخط العربي والإبداع فيه، مثل ابن مقلة الوزير الشاعر البغدادي (٣٢٨هـ)، وابن البواب البغدادي (٤٢٣هـ) وقد هذب طريقة ابن مقلة، وكساها رونقاً وبهاء، ويقال: إنه كتب القرآن بيده ٦٤ مرة، ومن حسن حفظنا أن يبقى من خطه أثر، وهو «شعر سلامة بن جندل» في مخطوطة كتبها بقلمه الجميل سنة ٤٠٨، وهي محفوظة بمكتبة بغداد كشك باستانبول. وكذلك بقي من خطه رسالة «مدح الكتب والحث على جمعها» للجاحظ، وقد ذكرتها من قبل. وياقوت المستعصمي الرومي (٦٨٩هـ) وآثار هذا الخطاط كثيرة، في تركيا وفي غيرها، وبخاصة المصاحف الشريفة. وفي مكتبة السليمانية وحدها نسختان من المصحف الشريف بخطه.

أقول: إذا كان تاريخنا قد سجل هذه الأسماء التي أبدعت وجوّدت في الخط العربي، فإن الخطاطين الأتراك العثمانيين قد ارتقوا بهذا الفن إلى أعلى درجاته، وتألقت أقلامهم وأبدعت تشكيلات هي الغاية والمنتهى، وسيظل تاريخ الخط العربي يردد أسماء الخطاطين الأتراك العثمانيين، مثل الحافظ عثمان، وأسد اليساري، وقاضي العسكر مصطفى عزت، والحاج حسن رضا، وحقي، وسامي، وخلوصي، وعثمان أوزجاي، ومحمد أوزجاي، وقنوي، وحمد الله المعروف بابن الشيخ، وأحمد كامل المعروف برئيس الخطاطين، ثم العلم الكبير: حامد الآمدي. وقلّ أن تجد واحداً من هؤلاء لم يكتب المصحف الشريف، فكان كلام ربنا عزّ وجلّ

مجلّى فن هؤلاء الخطاطين الذين أجادوا في كتابته غاية الإجادة، ما بين كتابته كاملاً، أو كتابة بعض آياته، حتى قيل بحق: «إن القرآن الكريم نزل بمكة، وقرئ في مصر، وكتب في استانبول».

وهذا الإبداع في فن الخط العربي ليس في المسطور بين دفتي كتاب فقط، فأنت تراه أيضاً يزين جدران وقباب المساجد كلها صغارها وكبارها، بأقلام الخط الستة المعروفة، وإن كان أكثر ما رأيته في المساجد: الثلث والفارسي، ومن المألوف في أكثر المساجد أن تجد مكتوباً: الله جل جلاله — محمد ﷺ — الصحابة الأربعة الراشدين، ثم الحسن والحسين، وأحياناً الصحابة الستة الذين تتم بهم العشرة المبشرون بالجنة.

ومن أنفس وأبداع المجموعات الخطية ما رأيته في مسجد السليمانية باستانبول، والمسجد الكبير بمدينة بورصة، وهو المسمّى «أولوجامع»، فالخطوط في هذين المسجدين من وراء الوصف، فهي من الأشياء التي تحيط بها المعرفة ولا تدرکها الصفة. ولست أدري كيف كتب ذلك الخطاط التركي العظيم تلك القافات الثلث في مدخل جامع بورصة، فقد كتب بها سورة العلق: «قافات كبيرة جداً على شكل دائرة ثم وصل بينها ببقية الآيات بالحرف الصغير، وكذلك صنع بالسينات التي تنتهي بها سورة الناس».

لفظ الجلالة :

على أن أبداع وأجمل ما رأيته في كتابة لفظ الجلالة «الله» و «محمد» ﷺ، ما رأيته في صدر كنيسة آيا صوفيا التي حولها السلطان محمد الفاتح إلى مسجد، وقد تحوّل هذا المسجد الآن إلى متحف، وقد راعني ما رأيته: قباب عالية تملؤها خطوط تخطف البصر بجمالها، وعلى جانبي الكنيسة آثار إسلامية، مستحدثة على هذا البناء الكنسي العتيق، وفي مكان الهيكل وبعيداً عنه شيئاً ما أقيم المحراب، وعلى يمينه نهض منبر فخم، ومن وراء المحراب بقيت صورة السيدة مريم عليها السلام في صدر الهيكل. ومما يلفت النظر في هذه الكنيسة أن الآثار المسيحية لم تمح فبقيت كما هي، ثم استحدثت أبنية إسلامية كبعض الإيوانات ومصلى النساء.

ومما ينبغي التنبيه له والتنبيه عليه أن عناية الأتراك بالخط العربي وتحسينه لا زالت باقية إلى الآن في تركيا (الجمهورية)، ومن الخطاطين الأتراك المعاصرين: داود بكتاش، وإيدين أركون، وعثمان أونال، وأفضل الدين فيلج، وعلي طوي، وتحسين قورت، وآي تكين أرسلان، ثم يتقدم هؤلاء كبيرهم الأستاذ حسن جلبي خطاط الجمهورية. فما برح النهر يجري متدفقاً زخاراً.

ورغم أن لمصر تاريخاً في فن الخط العربي، فإن أثر الخطاطين الأتراك كان واضحاً على هذا الفن في مصر، وحين أنشأ الملك فؤاد مدرسة تحسين الخطوط الملكية عام ١٩٢٠م – ومقرها كان ولا يزال بمدرسة خليل آغا الثانوية بشارع الجيش – قام بالتدريس فيها الخطاطون المصريون المعروفون آنذاك: الشيخ علي بدوي، والشيخ محمود رضوان، ومحمد إبراهيم، ونجيب هوايني، وهو سوري عاش ومات في القاهرة، ثم استقدم الملك فؤاد خطاطاً تركياً كبيراً من استانبول هو «الشيخ محمد عبد العزيز الرفاعي» الذي يوقع أحياناً على خطوطه باسم «عزيز»، وهو من تلاميذ الخطاط الحاج أحمد العارف الفلبوي، والخطاط حسن حسني القرين آبادي، كما ذكر هو في بعض لوحاته.

وقد أثر الشيخ عبد العزيز تأثيراً كبيراً في تلاميذه الذين درسوا على يديه وارتقى به فن الخط في مصر ارتقاءً عظيماً، وظهر أثره واضحاً في سيد إبراهيم، وبخاصة في خط الثلث، وفي محمد حسني، وبخاصة في الخط الفارسي.

وقد جمعت روائع الشيخ عبد العزيز الرفاعي في كتالوج فخم جداً، وفيه ترجمة لحياته وأسفاره، وطبع هذا الكتالوج في استانبول سنة ١٩٨٨، وفيه صورة رسالة بخط الشيخ عبد العزيز الرفاعي إلى شيخ الأزهر، وهي وثيقة مفيدة، في تاريخ نزوله بمصر ومحل إقامته.

وهذه صورة الوثيقة: «حضرة صاحب الفضيلة شيخ الجامع الأزهر الشريف. أعرض لفضيلتكم أنني دعيت من الآستانة العلية لكتابة المصحف الشريف لحضرة مولانا صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول، وقد كتبت نموذجاً لطلبة المدارس

والأزهر، وها هو مرفق طيه للاطلاع عليه حتى إذا حاز القبول يكرم باعتماد تقريره بالأزهر، وإني مستعد لتقديم الكمية اللازمة، وفي الختام تفضلوا بقبول فائق الاحترام - في ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٢٣ الشيخ محمد عبد العزيز الرفاعي الخطاط المقيم بتكية المولوية بشارع السيوفية نمرة ٣١ قسم الخليفة».

توفي الشيخ عبد العزيز ودفن في استانبول يوم ١٦ من أغسطس سنة ١٩٣٤م وقبره قريب من مسجد الفاتح، وهو أكبر خطاط في هذا الجيل، وترى نماذج من خطه في عنوانات بعض الكتب التي طبعتها دار الكتب المصرية: الأغاني للأصفهاني، وذيل الأمالي والنوادر لأبي علي القالي، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ونهاية الأرب للنويري. ورأيت في الستينات بعض لوحات بخطه في قاعة المعارض بدار الكتب المصرية، لا أعرف مصيرها الآن.

وإلى جانب هذا الكتلوج الخاص بالشيخ عبد العزيز الرفاعي، رأينا عملاً رائعاً آخر أصدره مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي، وهو كتاب «فن الخط» وهو ثمرة جهود طويلة قام بها فريق من الباحثين تحت إشراف الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي مدير عام المركز، ويضم الكتاب مقدمة تاريخية حول نشأة الكتابة العربية وأعلام الخطاطين القدامى، إلى أن يصل إلى الخطاطين العثمانيين، ويحتوي الكتاب على ١٩٢ لوحة وصورة بالألوان.

ويقوم هذا المركز بجهود عظيمة في مجال التاريخ والفنون الإسلامية، ومن صور نشاطه إقامة مسابقات دولية لفن الخط العربي توجه منها الدعوة لخطاطي العالم كله. ومن إصداراته الجيدة «فهرس مخطوطات مكتبة كوبريلي» في ثلاثة مجلدات ضخام - استانبول ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م، وفهرس مخطوطات الطب الإسلامي باللغات العربية والتركية والفارسية في مكتبات تركيا، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م، ويدير هذا المركز ويوجه نشاطه شاب مثقف، يتوقد ذكاء، ويتوهج حماسة، هو الأستاذ الدكتور «أكمل الدين إحسان أوغلي» وهو تركي، ولكنه مصري المولد والنشأة والتعليم، تخرج في كلية العلوم، وعين معيداً بجامعة الأزهر في أول

سني التطوير، ثم أكمل تعليمه العالي في لندن، وعاد إلى موطنه تركيا.

ووالده الشيخ «إحسان» من علماء الأتراك الذين نزلوا مصر، واتخذوها داراً ومقاماً، وكان رئيس قسم الفهارس الشرقية بدار الكتب المصرية إلى أوائل الستينات. رأيته شيخاً مهيب الطلعة، حسن السميت، صالح الوجه.

ولا يبقى إلا أن نلتفت التفاتة جادة إلى تجربة الأتراك في حفظ المخطوطات وصيانتها، وأن ننقلها إلى ديارنا، فالحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها. وكذلك ينبغي أن نستفيد من جهودهم في فن الخط العربي، جمعاً لروائعه ونشراً لها، وإني أدعو ورثة الخطاطين المصريين الكبار، من أمثال سيد إبراهيم ومحمد حسني ومحمد إبراهيم ويوسف أحمد، والخطاطين الأحياء أمثال محمد عبد القادر وحسين أمين، ومن إليهما، أدعو هؤلاء جميعاً إلى جمع ما لديهم من خطوط، ونشرها بين دفتي كتاب يحفظها، أثراً يبقى ونموذجاً يحتذى، بل إننا لو جمعنا فقط عناونات الكتب التي خطها سيد إبراهيم ومحمد حسني لأظهرنا كنزاً من الفن العالي، ولأحيينا تاريخاً عزيزاً كاد يضيع بتأثير الكمبيوتر وتشكيلاته المستحدثة التي لا تقوم على قواعد، ولا تستند إلى أصول، كما ذكر الأستاذ حامد العويضي في مقالته الجيدة «جماليات الخط العربي أمام مخاطر الكمبيوتر» — عدد أكتوبر الماضي من الهلال.

والحق أن هذا الذي نراه من الكمبيوتر الآن من تخطيط واضطراب إنما سبقه ومهد له، وأغرى به ما قام به بعض الرسامين وخريجي الفنون الجميلة منذ زمن، من اللعب بقواعد الخط العربي وتجاوزها، في هذه الخطوط الصاعدة والهابطة، والمنتصبة والمضطجعة، وقد قالوا وقتها: إنه الخط الحر، على مثال الشعر الحر، وكلها فتن ومصائب يأخذ بعضها برقاب بعض، ولا ننتبه لها في بدايتها ونتركها حتى تعظم ويتطاير شررها، على ما قال الحارث بن وَغْلة الذهلي:

والقول تحقِّره وقد ينمي وباللله نستدفع البلايا



في كم يتلى القرآن؟^(١)

القرآن كلام الله، تنزيل من حكيم حميد، نزل به الروح الأمين جبريل عليه السلام على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين، وقد أمر عليه السلام بتلاوته على أمته، وأمرت أمته بتلاوته وتدبر آياته والعمل بها، وقد أثنى ربنا عز وجل على عباده التالين له، فقال تقدّست أسماؤه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَارَةً لَّن تَبُورَ ۖ لِيُؤْفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر].

ويأتي رمضان كل عام مذكراً بهذا النور المبين، فقد نزل القرآن الكريم في ليلة مباركة منه. والمسلم وإن كان مأموراً بقراءة القرآن في كل وقت وحين، فإنه يجد لذة وأنساً حين يقرؤه في رمضان لا يجدهما في وقت آخر، ونعم إن القرآن يطيب به الفم ويزكو به العمل في كل آن، ولكن الله يجعل لبعض الأيام ولبعض المواضع خصوصية ليست لغيرهما، وقد روي عن محمد بن مسلمة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها»، مجمع الزوائد للهيتمي ٢٣١/١٠.

ولقد حفظت القرآن صغيراً، واشتغلت بعلومه كبيراً، وقرأته على فحول شيوخه واستمعت من كبار مقرئيه، ولا زلت مغموراً بنوره وضياؤه، فهو معي في مغدائي ومراحلي، وفي حلّي وترحالي، والحمد لله، ولكن حلاوته تعظم في فمي، ونغمة يعذب في سمعي حين أقرؤه في رمضان، وفي الحرمين الشريفين، وكم كان

(١) مجلة «الهلal»، فبراير ١٩٩٥ م.

قلبي يخشع وكياني يهتز، ودموعي تجري حين أقرأ — وأنا في الروضة الشريفة — تلك الآيات التي تخاطب الرسول ﷺ وتناديه، فأقرأ وأتمثل وأستحضر وأنا بقرب النور وفي كرم الجوار، فأني جلال وأي جمال!

وما دخلت المسجد النبوي مرة إلا وقرأت سورة النساء، لأستحضر تلك الصورة الغالية الخاشعة لرسول الله ﷺ وابن مسعود يقرأ عليه سورة النساء وذلك ما رواه البخاري عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ علي»، قلت: يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «نعم»، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قال: «حسبك الآن». فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان. صحيح البخاري (باب قول المقرء للقارئ حسبك من كتاب فضائل القرآن) ٦/ ٢٤١.

وهكذا تكون معرفة التفسير وأسباب النزول معينة على فهم القرآن وتدبره، فإذا انضم إلى ذلك معرفة غريبه ووجوه قراءاته ونحوه وإعرابه ومعانيه، كان ذلك أعون على معرفة أسرارهِ والوقوف على دقائقهِ، ثم التلذذ بتلاوته، واستصغار لذائد الدنيا كلها بجوار آية واحدة من آياته يتلوها المؤمن مستجمعاً لها فكره مخلياً لها قلبه، ولذلك يقول أحمد بن أبي الحواري الصوفي المتوفى سنة ٢٣٠: «إني لأقرأ القرآن فأنظر في آية فيحار عقلي فيها، وأعجب من حفاظ القرآن كيف يهنيهم النوم ويسعهم أن يشتغلوا بشيء من الدنيا وهم يتلون كلام الرحمن؟ أما لو فهموا ما يتلون وعرفوا حقه، وتلذذوا به، واستحلوا المناجاة به، لذهب عنهم النوم، فرحاً بما رزقوا ووفقوا». طبقات الصوفية للسلمي ص ١٠٢.

والقرآن مؤنس لتاليه، مزيل لوحشته، يقول الراغب الأصفهاني في مقدمة كتابه «حل متشابهات القرآن»: «اتفقت خلوة سطوت على وحشتها بالقرآن، ولولا إنه لم يكن لي بها يدان.. وكانت هذه الخلوة خلوة عين لا خلوة قلب، واضطرار لا عن اختيار، بل لقهر وغلب». والظاهر أن المراد بهذه الخلوة السجن. مقدمة تحقيق كتاب المفردات في ألفاظ القرآن ص ٢٩.

والمسلم حين يتلو القرآن ليس لساناً يضطرب في جوبة الحنك فقط، ولكنه لسان يتلو، وقلب يخشع، ونفس تموج، وعزم ينهض، ولعمر بن الخطاب رضي الله عنه كلام نفيس، في أن المسلم مطالب بأن يجمع القرآن ويحفظه ويحيط به ويجعله إمامه في جوارحه كلها، وفي عمله كله، وذلك ما أخرجه ابن جرير الطبري عن الحسن «أن ناساً لقوا عبد الله بن عمرو بمصر، فقالوا: نرى أشياء من كتاب الله، أمر أن يعمل بها، لا يعمل بها، فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين في ذلك. فقدم وقدموا معه، فلقيه عمر رضي الله عنه فقال: متى قدمت؟ قال: منذ كذا وكذا، قال: أياذن قدمت؟ قال: فلا أدري كيف رد عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، إن ناساً لقوني بمصر فقالوا: إنا نرى أشياء من كتاب الله تبارك وتعالى، أمر أن يعمل بها لا يعمل بها؛ فأحبوا أن يلقوك في ذلك. فقال: اجمعهم لي، قال: فجمعتهم له... فأخذ أدناهم رجلاً، فقال: أنشدك بالله وبحق الإسلام عليك، أقرأت القرآن كله؟ قال: نعم، قال: فهل أحصيته في نفسك؟ قال: اللّهُمَّ لا، - قال: ولو قال «نعم» لخصمه -، قال: فهل أحصيته في بصرك؟ هل أحصيته في لفظك؟ هل أحصيته في أثرك؟ قال: ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم، فقال: ثكلت عمر أمه! أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله؟ قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات. قال: وتلا: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء] - هل علم أهل المدينة - أو قال: هل علم أحد - بما قدمتم؟ قالوا: لا، قال: لو علموا لوعظت بكم) تفسير الطبري: ٢٥٤/٨، ٢٥٥.

قال شيخنا أبو فهر محمود محمد شاكر: «وقوله: «لوعظت بكم»، أي: لأنزلت بكم من العقوبة ما يكون عظة لغيركم من الناس، وذلك أنهم جاءوا في شكاة عاملهم على مصر، وتشددوا ولم ييسروا، وأرادوا أن يسير في الناس بما لا يطيقون هم في أنفسهم من الإحاطة بكل أعمال الإسلام، وما أمرهم الله به، وذلك من الفتن الكبيرة، ولم يريدوا ظاهر الإسلام وأحكامه، وإنما أرادوا بعض ما أدب الله به خلقه، وعمر أجل من أن يتهاون في أحكام الإسلام. إنما قلت هذا وشرحته مخافة أن يحتج

به محتج من ذوي السلطان والجبروت، في إباحة ترك أحكام الله غير معمول بها، كما هو أمر الطغاة والجبابرة من الحاكمين في زماننا هذا.

ولهذه الغايات كلها أمرنا بترتيل القرآن، في قوله عزَّ وجلَّ مخاطباً وأمراً نبيه ﷺ — والأمر لأُمَّته معه — ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ٤]، قال القرطبي: «أي لا تعجل بقراءة القرآن، بل اقرأه في مهل وبيان، مع تدبر المعاني. والترتيل: التنضيد والتنسيق وحسن النظام، ومنه ثغر رتل ورتَّل، بكسر التاء وفتحها: أي حسن التنضيد». تفسير القرطبي ٣٧/١٩، وحكي عن أبي بكر بن طاهر قال: «تدبر في لطائف خطابه، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبك بفهم معانيه، وسرك بالإقبال عليه».

وروي أن علقمة بن قيس قرأ على عبد الله بن مسعود، فكأنه عجل، فقال ابن مسعود: «فذاك أبي وأمي، رتل فإنه زين للقرآن» المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، لأبي شامة المقدسي ص ١٩٨.

لكن قوماً من أهل الصدق والإخلاص — في زماننا ومن قبل زماننا — حسنت نياتهم، وسلمت صدورهم، يرغبون في إحراز الأجر ومضاعفة الثواب، يشتدون في هذا الشهر المبارك، ويبالغون في ختم القرآن أكثر من مرة، ويتباهون في ذلك، فيقول أحدهم: ختمته عشرين مرة، ويقول آخر: بل ختمته ثلاثين، ثم يزيد بعضهم وينقص بعضهم، وما يدرون أنهم بذلك يتعدون عن السنة المشأورة عن رسول الله ﷺ، وعن صحابته الأكرمين.

فقد روى البخاري ومسلم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال لي رسول الله ﷺ: «ألم أخبر أنك تصوم الدهر، وتقرأ القرآن كل ليلة؟»، قلت: بلى يا نبي الله، ولم أرد بذلك إلا الخير، قال: «فصم صوم داود — وكان أعبد الناس — [كان يصوم يوماً ويفطر يوماً]، واقرأ القرآن في كل شهر»، قال: قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك، قال: «فاقرأه في كل عشرين»، قال: قلت:

يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك، قال: «فاقرأه في كل عشر»، قال: قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك، قال: «فاقرأه في كل سبع، لا ترد على ذلك»، قال: فشددت، «فشدد علي»، وقال لي: «إنك لا تدري، لعلك يطول بك عمر». قال فصرت إلى الذي قال لي النبي ﷺ، فلما كبرت وددت أني كنت قبلت رخصة نبي الله ﷺ. جامع الأصول في أحاديث الرسول، لمجد الدين بن الأثير ٤٧١/٢، ٤٧٢، وجمع للحديث طرقاً أخرى.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال «لأن أقرأ سورة أرتلها أحب إلي من أن أقرأ القرآن كله»، وروي عنه أيضاً أنه قال: «لأن أقرأ القرآن في ثلاث أحب إلي من أن أقرأه في ليلة كما يقرأ هذرة». والهذرة: السرعة في الكلام والمشي، وقال: هذرم في كلامه هذرة: أي خلط، ويقال للتخليط: الهذرة.

وثبت عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أن رجلاً قال له: إني أقرأ المفصل في ركعة واحدة، فقال عبد الله بن مسعود: أهذا كهذا الشعر؟ إن أقواماً يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع»، أراد: أنهذا القرآن هذا فتسرع فيه كما تسرع في قراءة الشعر؟ والهذ: سرعة القطع. والمفصل من سور القرآن: من سورة الحجرات إلى سورة الناس، وقيل غير ذلك، وسمي مفصلاً لكثرة الفصول بين سوره، أو لقلّة المنسوخ فيه، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي ١٩٤/٤.

وسئل مجاهد عن رجل قرأ البقرة وآل عمران، ورجل قرأ البقرة، قيامهما واحد، وركوعهما واحد، وسجودهما واحد، وجلسهما واحد، أيهم أفضل؟ فقال: الذي قرأ البقرة، ثم قرأ: ﴿وَقَرَأَ آيَاتُهَا لِقَوْمٍ عَلَيَّ الْآيَاتِ عَلَى مُكْثٍ وَتَزَلَّتْهُ زُرِّيلاً﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وانظر بيان ذلك كله في: المرشد الوجيز ص ١٩٧، والبيان في آداب حملة القرآن للنووي ص ٧١.

وإذا كان كثير من الناس يشتدون ويجهدون في ختم القرآن في رمضان أكثر من

مرة، فإن كثيراً منهم أيضاً كان على السنة، وعلى المنهج الراشد المقتصد. فقد روي أن أبا رجاء العطاردي - وكان إماماً كبيراً من المخضرمين - كان يختم بأصحابه في قيام رمضان القرآن كل عشرة أيام. حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ٣٠٦/٢، وصفة الصفوة لابن الجوزي ٢٢١/٣.

وقال القرطبي في كتاب التذكار في أفضل الأذكار ص ٦٧: «وذهب كثير من العلماء إلى منع الزيادة على سبع، أخذاً بظاهر المنع في قوله: «فاقرأه في سبع ولا تزد - يعني في حديث عبد الله بن عمرو السابق - واقتداء برسول الله ﷺ، فلم يرو عنه أنه ختم القرآن كله في ليلة، ولا في أقل من السبع، وهو أعلم بالمصالح والأجر، وفضل الله يؤتيه من يشاء، فقد يعطي على القليل ما لا يعطي على الكثير».

وروي أن عبد الله بن مسعود كان يقرأ القرآن في غير رمضان من الجمعة إلى الجمعة، ويقرؤه في رمضان في ثلاث، وكذلك كان تميم والأعمش يختمان في كل سبع، وكان أبيّ يختمه في كل ثمان، وكان الأسود يختمه في ست، وكان علقمة يختمه في خمس، جمال القراءة وكمال الإقراء لعلم الدين السخاوي ١٠٧/١.

وقد عقد أبو عمر الداني باباً في (كم يستحب ختم القرآن وما روي عن الصحابة والتابعين في ذلك)، في كتابه البيان في عد أي القرآن صفحة ٣٢١.

بل إن بعض الصحابة والتابعين كان يقف في قراءته عند سورة بعينها، يظل يرددها، أو آية بخصوصها، فلا يزال يكررها، طلباً للتدبر، وخشوعاً لجلال المعنى، وكان إمامهم في ذلك وقدوتهم رسول الله ﷺ.

فقد روي عن أبي ذر رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قام ليلة من الليالي يقرأ آية واحدة الليل كله حتى أصبح، بها يقوم، وبها يركع، وبها يسجد ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابٌ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وعن تميم الداري أنه أتى المقام - في الكعبة الشريفة - ذات ليلة، فقام يصلي، فافتتح السورة

التي تذكر فيها الجائية، لما أتى على هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ نَجْزِيهِمْ وَمَآئِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [٢١] ﴿[الجائية: ٢١]، لم يزل يرددها حتى أصبح، وعن ابن مسعود أنه لم يزل يردد: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه]، حتى أصبح. وعن عامر بن عبد القيس أنه قرأ من سورة المؤمن - غافر - فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ﴾ [غافر: ١٨] لم يزل يرددها حتى أصبح. وروي عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أنها افتتحت سورة الطور فلما انتهت إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنْكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقْنَا عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الطور] ذهبت إلى السوق في حاجة، ثم رجعت وهي تكررهما، وهي في الصلاة أيضاً.

وعن سعيد بن جبير أنه ردد هذه الآية في الصلاة بضعاً وعشرين مرة: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة]، وعنه أيضاً أنه استفتح بعد العشاء الآخرة بسورة: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [١]، فلم يزل فيها حتى نادى منادي السحر. المرشد الوجيز ص ١٩٥ - ١٩٧.

فمدار الأمر في تلاوة القرآن على التدبر واستحضار المعاني، وتأمل الإشارات وتبيين الدلالات، فمن أنس في نفسه قدرة وجلادة، مع تحقيق هذه الغايات وتعهده الواجبات الأخرى من الفرائض والنوافل، ومن سعى في أمور المعاش وإعمار الحياة، فليقرأ ما شاء الله له أن يقرأ، على ألا يزيد على السنة المأثورة.

وللحافظ الذهبي هنا كلام جيد، ينبغي ذكره وتأمله، قال رضي الله عنه، تعقيباً على حديث عبد الله بن عمرو بن العاص السابق: «وصح أن رسول الله ﷺ نازله إلى ثلاث ليال، ونهاه أن يقرأه في أقل من ثلاث، وهذا كان في الذي نزل من القرآن، ثم بعد هذا القول نزل ما بقي من القرآن. فأقل مراتب النهي أن تكره تلاوة القرآن كله في أقل من ثلاث. فما فقه ولا تدبر من تلا في أقل من ذلك، ولو تلا ورتل في أسبوع، ولازم ذلك لكان عملاً فاضلاً، فالدين يسر، فوالله إن ترتيل سبع القرآن

في تهجد قيام الليل، مع المحافظة على النوافل الراتبة، والضحي، وتحية المسجد، مع الأذكار المأثورة الثابتة والقول عند النوم واليقظة، ودبر المكتوبة والسحر، مع النظر في العلم النافع، والاشتغال به مخلصاً لله، مع الأمر بالمعروف، وإرشاد الجاهل وتفهيمة، وزجر الفاسق، ونحو ذلك، مع أداء الفرائض في جماعة بخشوع وطمأنينة وانكسار وإيمان، مع أداء الواجب، واجتناب الكبائر، وكثرة الدعاء والاستغفار والصدقة وصلة الرحم، والتواضع، والإخلاص في جميع ذلك: لشغل عظيم جسيم، ولمقام أصحاب اليمين وأولياء الله المتقين، فإن سائر ذلك مطلوب، فمتى تشاغل العابد بختمه في كل يوم، فقد خالف الحنيفية السمحة، ولم ينهض بأكثر ما ذكرناه، ولا تدبر ما يتلوه.

هذا السيد العابد صاحب — يعني عبد الله بن عمرو بن العاص — كان يقول لما شاخ: ليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ، وكذلك قال له عليه السلام في الصوم، وما زال يناقسه حتى قال له: «صم يوماً وأفطر يوماً، صم صوم أخي داود عليه السلام»، وثبت أنه قال: «أفضل الصيام صيام داود»، ونهى عليه السلام عن صيام الدهر، وأمر عليه السلام بنوم قسط من الليل، وقال: «لكني أقوم وأنا، وأصوم وأفطر، وأنزوج النساء وأكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وكل من يزم نفسه — أي يمنع ويكبح — في تعبدته وأوراده بالسنة النبوية يندم ويترهب ويسوء مزاجه، ويفوته خير كثير من متابعة سنة نبيه الرؤوف الرحيم بالمؤمنين، الحريص على نفعهم، وما زال ﷺ معلماً للأمة أفضل الأعمال، وأمرأً بهجر التبتل والرهبانية التي لم يبعث بها، فنهى عن سرد الصوم أي تواليه وتتابعه — ونهى عن الوصال — في الصوم — وعن قيام أكثر الليل إلا في العشر الأخير — يعني من رمضان — ونهى عن العزبة — عدم الزواج — للمستطيع ونهى عن ترك اللحم، إلى غير ذلك من الأوامر والنواهي.

فالعابد بلا معرفة لكثير من ذلك معذور مأجور، والعابد العالم بالآثار المحمدية المتجاوز لها، مفضول مغرور، وأحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن

قلّ. ألهمنا الله وإياكم حسن المتابعة، وجنبنا الهوى والمخالفة». سير أعلام النبلاء ٨٤/٣ - ٨٦.

وذكر الذهبي أيضاً في ترجمة «أبي بكر شعبة بن عياش، أنه مكث نحواً من أربعين سنة يختم القرآن في كل يوم وليلة مرة، وعلق على ذلك فقال: «وهذه عبادة يخضع لها، ولكن متابعة السنة أولى، فقد صح أن النبي ﷺ نهى عبد الله بن عمرو أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث، وقال عليه السلام: «لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث». سير أعلام النبلاء ٨/٤٤٢.

وكذلك ذكر في ترجمة «وكيع بن الجراح» أنه كان يصوم الدهر، ويختم القرآن كل ليلة، وعقب على ذلك فقال: «هذه عبادة يخضع لها، ولكنها من مثل إمام من الأئمة الأثرية مفضولة، فقد صح نهيه عليه السلام عن صوم الدهر، وصح أنه نهى أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث، والدين يسر، ومتابعة السنة أولى». سير أعلام النبلاء ٩/١٤٣.

ومن قبل الذهبي، ذكر خطيب السنة الإمام الجليل أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، في كتابه تأويل مشكل القرآن ص ٢٣٣، قال: «ولم يفرض الله على عباده أن يحفظوا القرآن كله، ولا أن يختموه في التعلم، وإنما أنزله ليعملوا بمحكمه ويؤمنوا بمتشابهه، ويأتروا بأمره، وينتهوا بزجره، ويحفظوا للصلاة مقدار الطاقة، ويقرأوا فيها الميسور. قال الحسن - البصري - نزل القرآن ليعمل به فاتخذ الناس تلاوته عملاً.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم - وهم مصابيح الأرض وقادة الأنام ومنتهى العلم - إنما يقرأ الرجل منهم السورتين والثلاث والأربع، والبعض والشرط من القرآن، إلا نفرأ منهم وفقهم الله لجمعه، وسهل عليهم حفظه، قال أنس بن مالك: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا، أي جل في عيوننا، وعظم في صدورنا».

وفي تفسير القرطبي ٤٠/١، عن ابن عمر قال: «كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يقرأون القرآن، منهم الصبي والأعمى، ولا يرزقون العمل به».

اللَّهُمَّ حُبِّ إلینا القرآن، وأذقنا حلاوته، وارزقنا تلاوته وفقهه والعمل به آناء الليل وأطراف النهار — واجعله أنيساً لنا في هذا الزمان الذي ذهب فيه من يؤنس به ويستراح إليه، واجعله اللَّهُمَّ ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء — بكسر الجيم — حزننا، وذهاب — بفتح الذال — همّنا، واجعلنا ممن يرعاه حق رعايته، ويقوم بقصده، ويوفي بشرطه، ولا يلتمس الهدى في غيره، ويرحم الله عبداً قال آميناً.



البيان.. والطريق المهجور^(١)

[١]

من أجل نعم الله على عباده: نعمة البيان، وقد امتنَّ الله على عباده بهذه النعمة، فذكرها في أشرف سياق، فقال تقدَّست أسماؤه: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾.

ولا ينبغي أن يكون المراد بالبيان هنا مجرد الكشف عما في النفس لقضاء الحاجات واتصال مصالح العباد، لأن الكشف عما في النفس يؤديه الكلام وهيئة الحال والإشارة والعلامة، وليس المراد أيضاً بالبيان مطلق الكلام، لأن هذا مما يستوي فيه الناس جميعاً، ولا يفضل بعضهم بعضاً فيه إلا بما يكون من سلامة مخارج الحروف، واستواء النطق، والبراءة من أسباب العي والحصر والحُبسة.

لكن المراد بالبيان: الإحسان في تأدية المعاني، يقول أبو الحسن الرماني: «وليس يحسن أن يطلق اسم بيان على ما قُبُح من الكلام، لأن الله قد مدح البيان واعتد به في أياديه الجسام، قال: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾، ولكن إذا قيد بما يدل على أنه يعني به إفهام المراد جاز»، النكت في إعجاز القرآن ص ٩٨.

وقد مدحوا البيان وعظموا شأنه، فقالوا: البيان بصر والعي عمى، كما أن العلم بصر والجهل عمى، والبيان من نتاج العلم، والعي من نتاج الجهل، وقال

(١) مجلة «الهِلال»، مارس ١٩٩٥ م.

يونس بن حبيب: «ليس لعيي مروءة، ولا لمنقوص البيان بهاء، ولو حكّ بيافوخه أعنان السماء»، راجع البيان والتبيين للجاحظ ٧٧/١، ثم انظر مقالة الشيخ عبد القاهر الجرجاني في فضل البيان، في دلائل الإعجاز ص ٥.

ووجوه الإحسان في تأدية المعاني كثيرة، ومناحدها واسعة، ولا يكاد يظفر بها إلا من وهب لطافة الحس وخفة الروح ورحابة النفس، والارتياح والطرب لمظاهر إبداع الله عزّ وجلّ في هذا الكون، وما بثه في ملكوت السموات والأرض، وما أجراه على السنة خلقه، أما «أهل الكثافة» وهم الذين امتحنهم الله بثقل الظل وركود الهواء، فما أبعدهم عن البيان والإحسان:

وهلّك الفتى ألا يَراح إلى الندى وألا يرى شيئاً عجيباً فيعجبا

ثم إن هذه المواهب التي يمتن الله بها على من يشاء من عباده، لا بد لها لكي تؤتي ثمارها عند الأدباء وأرباب البيان، من طول دربة ومعالجة يأتیان بكثرة النظر في الأساليب العالية الشريفة، من بديع الشعر وكريم النثر، ثم معاشرة الأصفياء أصحاب الفطر السوية والطبائع النقية والفرار من مخالطة «أهل الكثافة»، فإن مجالسة الثقلاء حمى الروح كما قال بختيشوع بن جبريل للخليفة المأمون، لطائف الظرفاء لأبي منصور الثعالبي ص ٧٠.

ونحن أمة العرب أمة بيان وفصاحة، ولغتنا معينة على ذلك بما أودع فيها من خصائص شعرية في الحروف والأبنية والتراكيب، ثم هذه الثروة الهائلة من الأسماء والأفعال، والمترادف والمشارك والأضداد، ولغتنا معينة أيضاً على البيان والفصاحة بهذه القوانين الرحبة الواسعة من الحقيقة والمجاز، والسماحة في تبادل وظائف الأبنية، كالذي يقال من مجيء فعيل بمعنى فاعل وبمعنى مفعول وبمعنى مُفْعِل، وتبادل وظائف الأفراد والتثنية والجمع ووقوع بعضها موقع بعض، والتساهل في التعبير عن الأزمنة، كالتعبير عن الماضي بالمستقبل، وبالمستقبل عن الماضي، إذا اقترن بالفعل ما يدل على زمانه، ووقوع بعض حروف الجر مكان بعض، وتذكير ما حقه التأنيث وتأنيث ما حقه التذكير، والحمل على المعنى، والحمل على اللفظ،

وحرية التعامل مع الضمائر، غيبة وحضوراً فيما يعرف بالالتفات، والتعويل على القرائن والسياق في تخليص الكلام من كثير من الفضول والزوائد، وهو باب الحذف الذي يجعله ابن جني من باب «شجاعة العربية» وهو تعبير عجيب، انظره في كتابه الفذ: الخصائص ٢/ ٣٦٠، إلى سائر قوانين اللغة وأعرافها، حتى علم النحو الذي يظن به العسر والتشدد، ولو تأملته حق التأمل لوجدت فيه كثيراً من الرخص والإباحة، على ما قاله الأصمعي: «من عرف كلام العرب لم يكذب يلحن أحداً».

ولقد تضرعت هذه اللغة العربية الشريفة على ألسنة الشعراء والخطباء، شعراً شجي النغم، ونثراً حلو الوقع، فيما بقي لنا من أدب الجاهلية. ثم كان مجلى هذه اللغة العزيزة كلام ربنا عز وجل، بما نزل به جبريل الأمين على خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ﷺ، في هذا البيان الذي لا يطاوله بيان، ثم ألقى ربنا تباركت أسماؤه على لسان نبيه المصطفى بياناً عالياً آخر، هو ما نطق به ﷺ من جوامع الكلم: فصاحة صافية المورد، وبلاغة عذبة المشرع، ومنطقاً صائب الحجة.

وقد جرت لغتنا العربية بما حملته من أدب الجاهلية، وبيان الكتاب العزيز، والحديث الشريف، على أقلام الكتاب وألسنة المتكلمين وقصائد الشعراء: بياناً يأخذ منه الناس بما قدر لهم من رزق الله المقسم على خلقه، فتفاوتت حظوظهم في ذلك، فمنهم من أحسن، ومنهم من قارب، لكن البيان ظل هدفاً يسعى إليه، وغاية يشد الناس في طلبها، ومعياراً يلجأ إليه النقاد في الحكم على الكلام وإعطاء الأدباء حقهم من التقديم والتأخير، ولعل أول من أصل هذا الفن هو أديب العربية الكبير أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، حين صنع كتابه الذي جعل عنوانه دالاً بصريح اللفظ على الغاية التي تغنيها منه، وكان كتاب الجاحظ هذا مع كتاب معاصره والراوي عنه أبي محمد عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة «عيون الأخبار»، هما الأساس الأول في إرساء قواعد هذا الفن «البيان» بذكر الأدوات الموصلة إليه والمعينه عليه، من ذكر كلام العرب وخطبها وشعرها ومحاوراتها وأجوبتها المسكتة، وتوالت الكتب في هذا الطريق، ككتب الأمالي والمجالس والمختارات

والحماسات، مع عناية ظاهرة باللغة والغريب، تمثلت في أمالي أبي علي القالي ومجالس أبي العباس ثعلب.

ولم تكن كتب هذا اللون من التأليف قاصرة على الأدباء واللغويين فقط، بل دخل فيها الحفاظ والفقهاء أيضاً، كالذي رأيناه من كتاب «بهجة المجالس وأنس المجالس وشحن الذهن والهاجس»، لفقيه الأندلس الحافظ المحدث أبي عمر بن عبد البر القرطبي، صاحب كتاب «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد»، وصاحب «الاستيعاب في طبقات الأصحاب». وكتابه هذا «بهجة المجالس» من المجاميع الأدبية العظيمة، ويقول فيه ابن سعيد، بعدما ذكر مصنفاته في الفقه والحديث والتراجم: «مع أنه في الأدب فارس، وكفاك دليلاً على ذلك كتاب بهجة المجالس». المٌعرب في حلى المٌعرب ٢/٤٠٨، وهذا ابن عبد البر الفقيه المحدث هو الذي جمع ديوان أبي العتاهية، وعن نسخته كانت نشرة الدكتور شكري فيصل رحمه الله.

وهكذا كان الأدب مشرعاً يرده الناس جميعاً، وغبرت أجيال ونشأت أجيال، حتى جاء ابن خلدون في القرن التاسع ليخبرنا أن كتب الأدب هي: أدب الكاتب لابن قتيبة، والكامل للمبرد، والبيان والتبيين للجاحظ، والأمالي — أو النوادر — لأبي علي القالي، ويريد ابن خلدون أن يقول: إن هذه الأصول هي مكونات الأديب.

البارودي والمرصفي:

وطويت أيام ونشرت أيام، حتى كان العصر الحديث، وجاء رجال البعث والإحياء، هؤلاء الذين ردوا الناس إلى أصولهم الأدبية، وكشفوا عن تلك المناجم الغنية الضاربة في التاريخ بعروقها، فكان الشاعر محمود سامي البارودي و«مختاراته»، والشيخ حسين المرصفي و«الوسيلة الأدبية»، والشيخ سيد بن علي المرصفي و«رغبة الآمل من شرح كتاب الكامل»، وما قرأه على تلاميذه من «شرح حماسة أبي تمام»، وبعدهما كان الشيخ حمزة فتح الله وكتابه الجيد «المواهب الفتحة»، فكانت هذه الآثار كلها زاداً ومدداً للجيل التالي.

ولقد كان من حسن حظنا نحن أبناء هذا الجيل أننا فتحنا عيوننا وعقولنا في أوائل الخمسينات، ورأينا القاهرة قبل أن يدهمها السيل وتغشاها المحن والنوائب، وكان من صنع الله لنا أننا نعمنا بثمرات دار الكتب المصرية: قراءة في قاعة المطالعة الشهيرة بها، واستعارة باشتراك زهيد متاح لطلبة العلم. وأخذنا نتضلع بالقراءة لتلاميذ مدرسة البعث والإحياء المذكورة، وفيما يتصل بالبيان كان هناك اسمان كبيران: مصطفى صادق الرافعي، ومصطفى لطفى المنفلوطي، وقد شق علينا الرافعي في أول الأمر.

وجدنا في المنفلوطي واحة خصبة عامرة بالندى والأزاهير، فأى جنة فتحها لنا هذا المنفلوطي في ذلك الزمان؟ وكم دموع أراقها، وكم قلوب خفقت على بيانه الحلو الأسر الذي انساب في «العبرات» و«الشاعر أوسيرانودي برجرارك» و«الفضيلة» و«ماجدولين»، ولئن كنا قد فرغنا من المنفلوطي بعد حين، فإن أثره الضخم الذي لا ينسى أنه حجب إلينا القراءة جملة، فإن هذه الليالي التي قضيناها مع بيانه المعجب الأخاذ لم تضع سدى، لأنها وثقت صلاتنا بالأدب عامة وبالبیان خاصة.

ومن عجب أن المنفلوطي هو الذي ردنا إلى الرافعي، وعند هذا الرافعي وجدنا دنيا أخرى حافلة بالغرائب والعجائب، لكن صورة الرافعي لم تأخذ حجمها الحقيقي عندي إلا بعد أن اتصلت بتراث الآباء والأجداد فيما قرأت وفيما نسخت وفيما حققت، وأيضاً حين توثقت علاقتي بصاحبه ووارث أدبه وعلمه أبي فهر محمود محمد شاكر، فعرفت أن هذا من ذاك، وأنها ذرية بعضها من بعض، وإن كنت أرى أن بيان أبي فهر لا يشبهه بيان، وأن علمه لا يقرن به علم، على ما فصلت في كلمتي عن كتابه الممتع «المتنبي» في الجزء الأول من «موسوعة عصر التنوير» التي أصدرها الهلال، ولو كتب أبو فهر الآن — وهو في هذه السن العالية — لزلزل الدنيا، ولرأيت ثم نعيماً وعلماً كبيراً، فهل تستجيب يا أبا فهر؟ وهل أنت مخرج ما عندك من «حديث الأحرف السبعة» و«مداخل إعجاز القرآن» و«كتاب الشعر»، شرح الله لك صدرك، وأمتع أهل الأدب ببقائك.

ولئن كانت مدرسة البيان قد عرفت يومئذ في كتابات الرافعي والمنفلوطي والزيات ومحمد صادق عنبر، فإن سائر الأدباء والكتاب لم يكونوا بعيدين عنها، لأن حسن البيان وتجويد العبارة كانا لازمين لكل كاتب يريد لكتابته أن تقرأ، ولكل مفكر يريد لأفكاره أن تذيع، فلقد كان الأدب ولا يزال خير سبيل لإيصال المعرفة، وسرعة انصبابها إلى السمع وتولجها في القلب واستيلائها على النفس، والبليغ يضع لسانه حيث أراد، وإنك لتجد كثيراً من الدراسات قد جمعت فأوعت لكنها لم تبلغ مبلغها من النفع والفائدة لجفافها وعسرها، و «حسن البيان يُري الظلماء كالنور» على ما قال الشاعر.

ولقد كنا في زمان الصبا نظن أن أسلوب «العقاد» معقد، حتى كبرنا واستطعنا أن نميز الخبيث من الطيب، فوقعنا عند «العقاد» على مناطق من البيان وحلاوة الأداء هي الغاية والمنتهى.

وكذلك سائر الكتّاب والأعلام ممن لا يصنفون مع الأدباء كانوا أصحاب فصاحة وبيان، فمكرم عبيد السياسي الشهير والمحامي الجهير كان أديباً وصاحب بيان، ثم كان كثير الاستشهاد بالقرآن الكريم، وفتحي رضوان المحامي الضليع وأحد أقطاب الحزب الوطني كان كاتباً صاحب بيان، والدكتور أحمد عمار طبيب النساء الشهير كان لغوياً صاحب بيان، والدكتور محمد كامل حسين طبيب العظام الشهير كان أديباً صاحب بيان، وهو صاحب القصة الشهيرة في الخمسينات «قرية ظالمة»، والدكتور محمد الصياد الجغرافي الكبير كان شاعراً صاحب بيان، وسيد إبراهيم الخطاط العظيم كان شاعراً صاحب بيان، وهو أحد مؤسسي جماعة أبولو، والدكتور حسن حبشي عالم التاريخ شاعر وصاحب بيان، والدكتور محمد يوسف حسن الجيولوجي الكبير، وعميد كلية العلوم بجامعة الأزهر سابقاً وعضو مجمع اللغة العربية الآن، أديب يحفظ شعر أبي العلاء حفظاً عالياً، وله في اللغة نظرات جواد نسعد بها في لجنة المعجم الكبير بالمجمع.

ومن وراء هؤلاء طوائف لا تحصى من الأدباء المجيدين الأغفال أصحاب

البيان، كنت تقرأ لهم في الصحيفة اليومية والمجلة الأسبوعية، ثم كنت تراهم في فصول المدارس الابتدائية والثانوية، يروّضون صغار التلاميذ على البيان، ويجمعون لهم «عناصر موضوع الإنشاء» الذي صار الآن «التعبير» ولا تعبير هناك ولا عبارة، ثم كانوا يخوضون بهم لجح بحار الشعر والنثر فيما كان يعرف بالمحفوظات والمطالعة.

حسن البيان :

وقد ذهبت تلك الأيام بحلاوتها ونضارتها وصرنا إلى هذا الزمان الذي زهد الناس فيه في حسن البيان، وهجروا طريقه هجراً يوشك أن يكون تاماً، وأصبحت أساليب كثير من الكتاب، ومن ينتسبون إلى الأدب الآن تدور في فلك ألفاظ مستهلكة تشبه العملة المعدنية الممسوحة، أو العملة الورقية التي تهرأت أطرافها من كثرة ما تداولتها الأيدي، أو كالعملة الزائفة التي ليس لها رصيد في مصرف النفس، وإنما هي ألفاظ وتراكيب تُسوّد بها الصحف، تروح وتجيء، تتجاوزها عينك على عجل، لا تقف عندها، لأنك لا تجد فيها إمتاعاً، ولا تحس معها أنساً، فضلاً عما تجده في بعضها من ثقل وغثاء، تكاد تطبق على القلب وتسد مجرى النفس — وما أمر «الزخم» منك ببعيد — إلى هذه البلية المستحدثة، وهي بلية الغموض الذي يندفع فيه كثير من الأدباء الآن، وليس هو الغموض الذي يحرك النفس لتستخرج بحسن التأمل خبيء الكلام ومطوي المشاعر، ولكنه الغموض المظلم الذي يكد العقل، ويكون مجلبة للغم والكآبة، غموض العجز والحيرة.

وهذه الألفاظ والتراكيب التي يستعملها بعض أدباء هذا الزمان، أشبه بتقاليع (الموضة) تظهر ثم تختفي، لا تعرف ثباتاً ولا استقراراً، فقد كنا نسمع في الستينات — كما ذكرت في مقال سابق بالهلال — الوحدة الموضوعية، والمعاناة، وعمق التجربة والخلق وتراسل الحواس، والمونولوج الداخلي، والدفقة الشعورية، والتعبير بالصورة، والألفاظ الموحية، والشعر المهموس. والآن نسمع: الإبداع وتكثيف التجربة، والزخم (والعياذ بالله) والطرح، والمنظومة والإشكالية والتناسخ والتماهي والتفجير والتفكيك... وهذا وأشباهه إنما هو كما قال ابن قتيبة منذ

(١٢٤٠) سنة في مقدمة أدب الكاتب: «ترجمة تروق بلا معنى، واسم يهول بلا جسم، فإذا سمع الغُمر - أي الجاهل - والحدث الغرُّ قوله: الكون والفساد وسمِع الكيان... راعه ما سمع، فظن أن تحت هذه الألقاب كل فائدة وكل لطيفة، فإذا طالعتها لم يحل منها بطائل»، أو كما قال أبو السعادات ابن الشجري: «تهاويل فارغة من حقيقة» الأمالي ٥٦/١، ولا يغرنك أيها القارئ المبتدئ اجتماع الكتاب على هذه الألفاظ، وكثرة استعمالهم لها، فإن الاستعمال ليس بدليل على الحسن، كما يقول ضياء الدين ابن الأثير في المثل السائر ٢٢١/١.

إن كثيراً مما يكتب الآن لا صلة له بالعربية إلا صورة الحروف والأبنية من الأسماء والأفعال، أما روح العربية وآمادها الرحبة الواسعة فلا تجدوها في أسلوب مما تقرأ، ولا في كلام مما تسمع، إنني أحس أحياناً أن هؤلاء الذين يكتبون أدباً عربياً لم يَمروا بالقرآن ولا بالبيان النبوي، ولا بكلام العرب، فإن ثروتهم اللفظية محدودة جداً، وتصرفهم في وجوه الكلام قصير الخطو، منقطع النفس، ولذلك تأتي معانيهم هزيلة خفيفة. لأن ضيق الألفاظ يؤدي إلى ضيق المعاني، كما يقول عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز.

ومن الكلام الحكيم للجاحظ في هذه البابة قوله: «والأصل في ذلك أن الزنادقة أصحاب ألفاظ في كتبهم، وأصحاب تهويل، لأنهم حين عدموا المعاني ولم يكن عندهم فيها طائل، مالوا إلى تكلف ما هو أخصر وأيسر وأوجز كثيراً» الحيوان ٣٦٥/٣.

وهؤلاء الذين يزعمون أنهم ورثة طه حسين لم يسيروا في طريق بيانه، ولم يحاكو حلاوة أدائه، وكان له في ذلك مستراد ومذهب، فانتماؤهم لطه حسين إذن انتماء كاذب وولاء منقوص.

وأيضاً هؤلاء الذين يتحدثون عن التنوير ورموز التنوير، لم يَمروا بأدب أعلام هذا التنوير، ولم يسلوكوا طرائقهم في معرفة العربية ورعاية قوانينها في حسن الأداء وجمال العبارة.

إن الذين يشكون الآن من «الأغاني الهابطة» لا ينبغي أن ينسوا أن هذه القضية مرتبطة بألوان الأدب الأخرى، وأن البيان كله من باب واحد، فيوم أن كان عندنا أدباء بيان كبار، كالمنفلوطي والزيات، كان عندنا كتاب أغان كبار، مثل أحمد رامى ويبرم التونسى وعبد الفتاح مصطفى وحسين السيد، لأن كلام الناس ينزع بعضه إلى بعض، ويأخذ بعضه برقاب بعض، وقد أنشدتك أيها القارىء الكريم من قبل قول ابن الرومى:

«وبعض السجايا ينتسبن إلى بعض»

ولن تجد مع كثرة الغبار إلا قذى العيون.

والآن إذا أردت أيها القارىء العزيز أن تعرف سر هذا التردى فى الكتابة، ومجافاة حسن البيان، والإعراض عن جمال العبارة، أعجزك أن ترده إلى سبب واحد أو سببين اثنين، وإنما هى أسباب كثيرة تداخلت وتشابكت، وسيأتىك حديثها — إن شاء الله — فى المقال التالى.



البيان .. والطريق المهجور^(١)

[٢]

وقفت في المقال السابق عند أسباب التردّي في الكتابة ومجافاة حسن البيان وجمال العبارة، وقلت إن ذلك يرجع إلى أسباب كثيرة، أرجأت الحديث عنها إلى هذا المقال.

وبدءة ذي بدء لا أحب لك أيها القارئ العزيز أن تقول كما يقولون: إنها طبيعة العصر، وسرعة إيقاع الحياة، لا يدعان للكاتب فرصة لأن يحسن ويزين ويتأنق، كما أنني لا أرضى لك أيها الشاب المبتدئ أن تصدق ما يقولونه من أن لغتنا العربية هي لغة الخيل والليل والبيداء، وأن زمانها قد راح وولى، وأن هذا عصر الكمبيوتر، فافسحوا له الطريق، لا أحب هذا لقارئ ولا أرضاه له.

وذلك لأن حسن البيان قيمة جمالية، والقيم الجمالية باقية ثابتة، لا تتغير بتغير الأيام وتبدل الأحوال، والفطر السوية تطرب للكلمة الحلوة، كما تطرب لهديل الحمام وزقزقة العصافير، وحفيف الشجر في ليلة طيبة الهواء، والعطر الفواح ينعشك سواء ركبت جملاً أو طائراً، ولا زلنا مع تغير الأصوات وتحولات الموسيقى نستقبل رمضان بأغنية أحمد عبد القادر «وحوي يا وحوي» كما نستقبل العيد بشدو أم كلثوم «يا ليلة العيد أنستينا» و«حبيبي يسعد أوقاته» وإن كانت هذه قد قلت في عيد جلوس «فاروق» ملك مصر.

(١) مجلة «الهلal»، أبريل ١٩٩٥م.

ولا أظن أنه سيأتي يوم لا يطرب الناس فيه لصوت الشيخ مصطفى إسماعيل
وأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب، إن الأنغام متوارثة في الأنفس، والجمال مصون في
تلايف القلوب، والطرب مركز في الطباع، فلا يخدعك عن الحق غلبة الباطل،
ولا يزهّدك في الطيب كثرة الخبيث.

ثم أعود بك أيها القارئ الكريم إلى أسباب محنتنا فيما نكتب وفيما نقول،
وقد جمعت لك أسباباً شتى، ولعلك جامع إليها أسباباً أخرى بصائب نظر، وحسن
تأنيك، وتهديك إلى ما لم أهد إليه:

أولاً: ذهاب الكبار بالموت أو بالملل أو بالمصانعة: والموت لا مردّ له ولا
حيلة فيه، وبموت الكبار يضيع الصغار ويذهب العلم، أخرج البخاري عن
عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يقبض
العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق
عالمٌ اتخذ الناس رؤوساً جهالاً ففستلوا فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»، صحيح
البخاري (باب كيف يقبض العلم، من كتاب العلم) ٣٦/١.

أما الملل فهو من كواذب الأخلاق، كما جاء عن عمرو بن العاص رضي الله
عنه، على أن بعض كبار أدبائنا معذورون فيما دفعوا إليه من الملل، لما يرونه من
فساد لم ينشأوا عليه، ولما حاق بهم من أذى أضرروا منه.

وأما المصانعة فهي داء خبيث، لا معذرة له ولا مسامحة فيه، وبالمصانعة
هذه خاض بعض كبارنا فيما يهزل به مدّعو الأدب والحدّاة، وكان هؤلاء الكبار
خشوا على أنفسهم آفة النسيان، وأرادوا أن يكونوا ظاهرين في الأرض، وكانهم
يقولون: لأن نكون في جلبه الأضواء خير من أن نكون في صمت الظلام، وهم
يعلمون في دخيلة أنفسهم أن هذه الأضواء خادعة، وأن مداها منقطع، لأن مولدها
ضعيف، ولا ينقضي عجبني من بعض هؤلاء الكبار، وهم من تلاميذ طه حسين
وأمين الخولي وأحمد أمين ومصطفى السقا وإبراهيم أنيس، وبقية هذا الجيل
العظيم، كيف يسكتون على هذا العبث، بل كيف يتعاملون معه ويحضرونه

ويقدمونه، بل ويدافعون عنه، وهم يعلمون باليقين الذي لا يدخله شك أنه لا طائل تحته ولا غناء فيه.

ثانياً: قلة المحصول اللغوي عند الكتاب: والقلة تغري بالقلة، والفقر يقود إلى الفقر (وهذا كلام موزون وقع لي اتفاقاً من غير قصد كما ترى)، ولو تأملت ما يكتبه كثير من الأدباء الآن لوجدته يدور حول طائفة محدودة من أبنية الأسماء والأفعال والحروف، مع العجز عن تحريكها والتصرف فيها وفق قوانين العربية التي حدثتكم عنها في المقال السابق، وإنما هي أبنية وأدوات ترص رصاً، بلا دم ولا روح، وكأنها الدمى، وكان ذلك الأديب يكتب بلغة أجنبية ليس له بها أنس، ولا يشده إليها تاريخ وموروث.

وليس يخفى أن قلة المحصول اللغوي والعجز عن التصرف في الكلام إنما يرجعان إلى قلة القراءة وضعف الزاد، فالأديب لكي يكتب أدباً عالياً جميلاً لا بد أن يكون على صلة لا تنقطع بالقراءة، وأن يجعل من يومه نصيباً مفروضاً للمراجعة والاستزادة، فالإبداع — كما يقال في هذه الأيام — لا بد له من مدد، والمدد ليس له إلا طريق واحد، هو القراءة الرشيدة المستمرة، ثم التأمل.

وتقرأ في كتب التراجم والطبقات أن العالم الفلاني صنف الكتاب الفلاني بعد أن قرأ له كذا كتاباً، فالصالح الشامي المتوفى سنة ٩٤٢، يذكر أنه ألف كتابه «سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد» من أكثر من ثلاثمائة كتاب، وروى عن إمام الحرمين الجويني المتوفى سنة ٤٧٨، أنه قال: «ما تكلمت في علم الكلام كلمة حتى حفظت من كلام القاضي أبي بكر وحده اثني عشر ألف ورقة»، طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي ١٨٥/٥، وأبو بكر في هذا النص هو محمد بن الطيب الباقلاني، من كبار المتكلمين الأشاعرة، وصاحب «إعجاز القرآن»، فهذا أثر القاضي أبي بكر وحده في محفوظ إمام الحرمين، فكيف يكون أثر العلماء الآخرين؟

لكن الملاحظ والمشاهد الآن أن الأدباء يتكلمون أكثر مما يقرأون، وأن ما تقرأه من مصطلحات في القصة والرواية والشعر والنقد، إنما هي مسموعات، تتردد في الندوات، يتلقفها بعض من بعض، ولا خير في ذلك كله، فقد قال ابن قيم الجوزية: «من لم تنفعه عينه لم تنفعه أذنه».

ثالثاً: تسويغ العجز باصطناع نظريات تمهد له وتسانده: وفي ذلك الطريق جاءت مغالطات شتى، وجاء خداع كثير، فقليل مثلاً: إن العناية بتحسين العبارة أصباغ وزخارف، وأنها تكون على حساب المعاني والأفكار، وأن التفكير والموضوعية يبيان الزخارف والأصباغ، وأن غايتهما الحقائق ليس غير، وقد تبع ذلك التفرقة بين الأسلوب الأدبي والأسلوب العلمي، تفرقة تفضي في نهاية الأمر إلى التهوين من الأسلوب الأدبي، ووصف من يحسن البيان بأن كلامه «كلام إنشاء»، وقولهم في سياق المدح: إن فلاناً يكتب كما يتكلم.

وقيل أيضاً: لا ينبغي التعامل بالكلام المأثور، حتى لا يجد القارئ نفسه يتعامل في المنزل والشارع بلغة، وفي الكتاب بلغة الشعر الجاهلي، وأنا يجب أن نصطنع لغة تقرب الفجوة بين الشارع والكتاب، وهذا كلام غير صحيح — فضلاً عما فيه من لعب وخداع — لأن هذه الفجوة لا بد أن تكون قائمة وثابتة، ففي كل لغات الدنيا فرق بين لغة العامة ولغة الخاصة (وانظر مقالتي عن الشيخ الشعراوي واللغة — ص ٢٨٠، وتقديمي لكتاب الأستاذ محمود رؤوف أبو سعدة: من إعجاز القرآن — ص ٢٧٠).

وقيل أيضاً: إن أحسن الأساليب هو ما لا يحتاج معه القارئ إلى مراجعة معجم، وهذا مما يفتتن به الشباب المبتدئون، والكلام مقلوب، والقضية معكوسة، فإننا إذا لم نراجع لبعض ما نكتب شيئاً من المعاجم فإننا نكون قد وقعنا في حماة العامة والكلام السوقي، واستوى في ذلك عالمنا وجاهلنا. ولماذا كانت المعاجم، ولأي غاية وضعت؟

حسن البيان :

ولقد كان من أشنع الخطأ هنا وأغلظه : الخلط بين المحسنات اللفظية وتحسين العبارة، وبينهما فرق لا يخفى، فالمحسنات اللفظية هي أنماط تعبيرية محصورة في قواعد محددة بشواهد معينة، أما تحسين العبارة الذي هو البيان، فمجاله واسع رحب، وهو قائم على أسباب كثيرة، من الغنى اللغوي، واختيار الأبنية الشاعرة المتجانسة، من الأسماء والأفعال والأدوات، وإحكام بناء الجمل وحسن تنسيقها، وإشاعة الألفة بينها، وقدرة الكاتب في ذلك كله على أن ينشئ علاقة أنس بين قارئه وبين ما يكتب، إن الكاتب المبين يجعلنا نحب بعض الكلمات ونعشقها، ترى هذا في أسلوب الجاحظ وأبي حيان التوحيدي (إذا نسي مشاكله النفسية) ومصطفى صادق الرافعي، ومحمود محمد شاكر.

وحسن البيان لا يمنع من الإلمام بهذه المحسنات اللفظية إذا جرت على قلم الكاتب في حاق موضعها غير متكلف ولا مستكره.

على أن هذه المحسنات اللفظية ليست سيئة السمعة، على نحو ما يلقيه بعض أساتذة البلاغة على طلبتهم، وأنها قائمة على التكلف والتزييف، إن المحسنات اللفظية باب ضخم من أبواب الجمال في البيان العربي، وما يجيء منها متكلفاً يعاب ويذم، كما يعاب التكلف في كل شيء ويذم، وكيف تعاب المحسنات اللفظية جملة، وقد جاء منها في كلام ربنا عز وجل وكلام نبيه ﷺ وكلام العرب وأشعارها، قدر صالح، ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]، وقوله تباركت أسماؤه: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإَيْنٍ ﴿٢٢﴾﴾ [النمل: ٢٢]، ثم انظر «المجازات النبوية» للشريف الرضي، وشعر أبي تمام على وجه الخصوص.

إن كثيراً من شواهد التورية والجناس تحدث إمتاعاً للنفس لا مزيد عليه، فضلاً عما يستخرجه بعضها من أسباب الضحك والبهجة، وكثير من نكاتنا المصرية تجري على هذا الباب، ولولا الجد الذي نحن فيه لأمتعك بشيء منها.

وكان هذه السمعة السيئة للمحسّنات اللفظية قد استقرت عند بعض الناس — وهذا هو البلاء العظيم — فقد سمعت أحد الأساتذة في محاضرة له، وقد جاء على لسانه شيء من هذه المحسّنات فغمغم بعض الجالسين، فقطع المحاضر كلامه كالمسوع وقال: «لا والله، دي جت كده، غصب عني!» وكأنه يبرأ من عيب يخشى أن يلحق به عاره.

وأقرأ لبعض النقاد، وأسمع لبعضهم فيما يذاع من ندواتهم تنفيراً شديداً من هذا اللون الأدبي، وتحذيراً للشباب منه، فلا أملك إلا أن أتلو قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ [النساء: ٣٧]، و [الحديد: ٢٤].

رابعاً: اقترن بتسويق العجز عن جمال البيان: السخرية منه والإزاء بقائله: على ما قال تعالى: ﴿وَأَذَلَمَ يَهْتَدُوا بِهِمْ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]، أو كما قال أبو علي الفارسي: «من عرف ألف، ومن جهل استوحش». الأشباه والنظائر النحوية للسيوطي ٤٦٤/٣.

ومن أعجب العجب أن أكثر من يسخرون من البيان الآن هم بعض أساتذة العربية الذين يدرسونها في الجامعات (نحواً وأدباً وبلاغة)، وأرجو من قارئ العزيز أن يأذن لي مرة واحدة — إن شاء الله — بذكر بعض التجارب الخاصة، واستعمال ضمير المتكلم.

بين الدعابة والسخرية:

لي صديقان أحدهما طبيب والآخر صيدلي، يحبان الأدب حباً جمّاً، ويحرصان على قراءة ما أكتب، ويطربان جداً لما أجتهد فيه من ضروب البيان وتحسين العبارة، وعلى الجانب الآخر يقرأ بعض زملائي من أساتذة العربية هذا الذي أكتب، فيداعبونني بمثل قولهم: إيه الكلام ده؟ إيه الأساليب دي؟ ألفاظك كلها كلاكيع! وأعلم يقيناً أنه لولا المحبة لاستحالت هذه الدعابة سخرية لاذعة وإزاء شديداً.

ودعيت منذ خمس سنوات إلى ندوة عن «مستقبل التعليم في مصر» أقامها مشكوراً مأجوراً نادي أعضاء هيئة التدريس بجامعة أسيوط، وقدمت بحثاً عنوانه: «استثمار التراث في تدريس النحو العربي»، قدمت له بمقدمة أدرتها على شيء من البيان فتح الله به عليّ فتحاً، وقد طرب له كثير من الحاضرين، وكان أكثرهم من الشباب المعيدين والمدرسين المساعدين بكلّيات الطب والهندسة والعلوم والتجارة، وأخذ هؤلاء الشباب يلاحقونني فيما بين الجلسات، يطلبون المشورة والدلالة على كتب العربية التي يقرأون فيها مثل هذا الكلام الذي جرى على لساني.

أما أساتذة العربية الذين حضروا الندوة — ومنهم كبار في السن والدرجة — فقد سخروا مني سخرية شديدة، أعلنوها ولم يكتموها، وكان بعضهم يناديني هكذا: تعال يابتاع التراث، قول يابتاع التراث، ازيك يابتاع التراث! (لكني أشهد في تلك الأيام أن الأستاذ الدكتور حامد عمار — وكنت قد اختلفت معه في هذه الندوة — قال لي ونحن في القطار من أسيوط إلى القاهرة بالحرف الواحد: يا أستاذ اثبت على ما أنت عليه، فإنني سعيد أن أرى إنساناً يتحدث عن لغته وتراثه بهذه الحماسة)، وهذا إنصاف من الرجل، وهو شأن الكبار، أما الصغار فما أجراًهم على لغتهم وعلى تاريخهم، ومهما يكن من أمر فإنه من العار أن يذم الناس مذهبهم، ويهجنوا طريقهم، هل تعرف طبيباً يذم مهنة الطب؟ وهل تجد مهندساً يحتقر حرفة الهندسة؟ قد يشكوان إرهاباً أو أعباءً، أما أن يكون ذم ومعاينة فلا.

وقد انتقلت سخرية الأساتذة إلى تلاميذهم من معلمي العربية في مدارسنا الآن: سأل مدرس اللغة العربية التلاميذ في الثانوية العامة عن مرادف لعبارة «رغد العيش» فأجاب ابني «بُلْهَنِيَّة» فضحك المدرس ضحكة عالية وسخر منه قائلاً: «إيه يا خويه؟» وحمدت الله أن وقف المدرس العابث بالسخرية عند هذا الحد، فإن لهذا التركيب الذي نطق به ذلك المدرس تكملة سوقية يعرفها أهل السخرية، ولعله قالها وكتمها ابني عني!

أرأيت أيها القارئ العزيز؟ إنه أمر محير فعلاً، وهو يحتاج إلى محلل نفسي لا إلى كاتب مثلي.

خامساً: الكسل والإخلاد إلى الراحة: أعرف نفرّاً من زملائي الجامعيين، أعرف نشأتهم العربية الأصيلة، وأقرأ لبعضهم شعراً عذب النغم، فصيح الأداء، أسر النغمة، وأحاورهم فأقع منهم على كل لطيفة ودقيقة من الفطنة والقول الحسن ولكنهم إذا كتبوا قرأت كلاماً خفيفاً يخدعك عن حقيقة أمرهم وما عندهم من العلم والأدب، ولا تفسير لذلك عندي إلا الكسل وطلب الخفة، و«طلب الخفة» مطلب نحوي، ولكنه لا يحمد في الأدب والبيان.

ويبقى أن أقول: إن إهمال البيان والتأنق في الكلام وتحسين العبارة قد أدى إلى هجر كثير من أبواب النحو، وقلة استعمال بعضها في كتابات الكاتبين الآن مثل البذل، وبخاصة بدل البعض وبدل الاشتمال، و«كان» التامة في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُوُعُسْرَقٌ فَنَظَرُهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، و«كان» الزائدة في نحو: ما كان أغناك عن هذا، وقول قتيلة بنت النضر بن الحارث، تخاطب رسول الله ﷺ:

مَا كَانَ ضَرْكَ لَوْ مَنَنْتَ وَرَبَّمَا مِنْ الْفَتَى وَهُوَ الْمَغِيْظُ الْمُخَنَقُ

واسم الفاعل واسم المفعول العاملان في التركيب، والمصدر الميمي والمصدر المؤول، وبعض جموع التكسير الفصيحة، وزيادة الباء في خبر «ليس» وفي خبر «ما» مع كثرة ذلك في القرآن وكلام الفصحاء، ولا يزال ذلك يجري على ألسنة الناس في الخطاب اليومي في السعودية والكويت، يقولون: ما أنا بمبطن عليك، وما أنا بناسي كلامك.

ومما أهمل أيضاً المفعول المطلق المؤكد للفعل، فأنت لا تكاد تقرأ لكاتب يقول: كَلَّمْتَهُ كَلَاماً، من غير أن يضيف إليه وصفاً، فيقول كلاماً شديداً ونحوه، مع مجيء ذلك بكثرة في الفصح، ومنه قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، ومن الغريب أن هذا المفعول المطلق مستعمل بكثرة

في عاميتنا المصرية، تقول: أكلت أكل - شربت شرب - نمت نوم - الأهلي لعب لعب.

ومن ذلك باب تعدي الأفعال بنفسها أو بحرف الجر، مثل شكرته وشكرت له، ونصحته ونصحت له، فلا يكاد الكتاب يستعملون إلا الأول... إلى أبواب نحوية أخرى كثيرة أهملت وعطلت.

على أن من أبواب النحو التي كادت تختفي الآن تماماً، باب التوكيد اللفظي، وهو إعادة الكلمة بلفظها - والاستغناء عنه بالتوكيد المعنوي، وهو التوكيد بالنفس أو بالعين أو بكل وجميع، مع أن التوكيد اللفظي أوسع مجالاً من التوكيد المعنوي، كما قال علم الدين اللورقي الأندلسي المتوفى سنة ٦١١، قال: «لأنه يدخل في المفردات الثلاث - يعني الاسم والفعل والحرف - وفي الجمل، ولا يتقيد بمُظهر أو مُضمَر، معرفة أو نكرة، بل يجوز مطلقاً»، الأشباه والنظائر النحوية ٢/ ٢٢٩.

ولعل الذي زهد الناس في أيامنا في استعمال التوكيد اللفظي، هو ما تلقوه في دراسة النحو، من مثل: جاء جاء محمد، أو جاء محمد محمد، وهذه أمثلة تعليمية، وفي مثل هذا يقول سيبويه كثيراً: «وهو تمثيل ولا يتكلم به»، ويقول ابن جني: «التمثيل للصناعة ليس ببناء معتمد» الخصائص ٣/ ٩٧، ولو التمس معلّم النحو أمثلة التوكيد اللفظي من الكلام الفصيح لوجدوا منه أمثلة ذوات عدد تغري باستعماله واعتياده، من نحو قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًا﴾ (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) [الفجر: ٢١، ٢٢]، ومن نحو قول عروة بن أذينة:

لقد علمت وما الإشراف من خلقي	أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى له فَيَعْنِيْنِي تَطَلُّبُهُ	ولو قعدت أتاني لا يعنيني
وكل حظ امرئ دوني سيأخذه	لا بد لا بد أن يحتازه دوني

ولعدم إلف الناس الآن لهذا التوكيد اللفظي يظن بعض من يقع إليه شيء منه أنه من باب التكرار الخاطيء.

كتبت مرة مقالاً بإحدى المجلات، وكنت قد كتبت فيه هذه العبارة: «والكلام هنا طويل طويل» وحين قرأته مطبوعاً وجدت «طويل» مرة واحدة، فأيقنت أن الأخ مصفف الحروف حذف الثانية لأنه ظنها تكراراً مني من باب السهو، وعذره في ذلك واضح، لأنه لم يتعود مثل هذا التوكيد اللفظي فيما يقدم له من كتابات، وعلى ذلك فإنني أنصح من يستعمل التوكيد اللفظي أن يستعمل اللفظ ثلاث مرات لا مرتين، فإن ذلك أبعد من مظنة التكرار وأنفى للبس.

وبعد: فإنني أخشى أن تكون هذه الحقة التي نعيشها هي أسوأ الحقب التي مرت بها العربية والبيان العربي. فإن اللغات تنتعش أو تذوي باحترام أهلها لها وممارستهم لها، وما أظن لغتنا العربية فيما يسمونه — خطأ وتسرعاً بعصور الانحطاط الأدبي — وهو العصر العثماني — لا أظنها في تلك الأيام إلا أحسن حالاً، وأجمل بياناً مما هي عليه الآن.

والرثاء كل الرثاء لشباب هذه الأيام الذين يخدعون عن تاريخهم وعن لغتهم فيما يقرأون وفيما يسمعون.

أما أنا وأنت ومن يجري معنا في حب العربية والبيان العربي، فليس لنا إلا الصبر نعتصم به ونفزع إليه، حتى يكشف الله الكربة، ويزيل الغمة، ويرد الغربة: ما في الصحاب أخو وجدٍ نظارحه حديث نجدٍ ولا صَبٌّ نجاريه



المعاجم اللغوية.. والهجوم الذي لا ينتهي^(١)

كتب أستاذنا الكبير الدكتور شكري محمد عياد، في عدد «المصور»، ١٧ من مارس الماضي كلمة جعل عنوانها «عاشق العربية» حياً فيها شيخنا أبا فهر محمود محمد شاكر، وإذا اجتمع للكلمة شرف الكاتب وشرف المكتوب إليه كانت ذخيرة تحفظ وتصان، وأيضاً فإن الكاتب الجاد يفتح أمام قارئه أبواباً من النظر، ويستخرج منه ألواناً من الفكر كانت دفيئة لولا إثارة هذا الكاتب الجاد.

وهكذا عودنا ذلك الأستاذ الجليل: يمتعنا بما يكتب، ثم يمد لنا من حبال الفكر والبيان، ويصلنا بأسبابه، فنمضي معه موافقين أو مخالفين، والكاتب العظيم لا يحفل كثيراً بموافقة أو مخالفة، فحسبه أنه يحرك الساكن، ويجري الراكد، ويهز المألوف، بل إن المخالفة قد تعجبه أحياناً، لأنها تردّه إلى الرأي الأول، فيستدرك فائته ويكمل نقصه، فيزداد جلاءً ووضوحاً، وقد يقتنع بالرأي المخالف إذا عرف صدقه، ولمعت أمامه أنواره، وثبتت لديه صحته، فيرجع عما قال راضياً سعيداً، على ما قال عمر بن الخطاب في كتابه إلى أبي موسى الأشعري في القضاء: «لا يمنعك قضاء قضيت اليوم، فراجعت فيه عقلك، وهُديت فيه لرشدك، أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل»، الكامل للمبرد ٢٠/١.

وكان مما قاله الأستاذ الكبير في كلمته عن أبي فهر، وإعجابه بجهوده وجهاده

(١) مجلة «الهلal»، مايو ١٩٩٥م.

في قراءة الشعر الجاهلي وفهمه والإبانة عنه: «وليس بوسع أحد أن ينكر المصاعب التي تكتنف قراءة الشعر الجاهلي، وأولها - لا شك - صعوبة اللغة، فلا بد لنا أن نستصحب الشروح التي قام بها اللغويون القدماء، وربما غصنا في المعاجم القديمة - وهي على ما نعرف من سوء الترتيب - إن أعوزتنا تلك الشروح».

هكذا قال أستاذنا، وكنت أحب للعبارة أن تكون «عسر الترتيب» وليس «سوء الترتيب»، وليس يخفى فرق ما بين الكلمتين، على أن «عسر المعاجم» هذا لم يعرف إلا في زماننا هذا، لأسباب كثيرة يأتيك حديث عن بعضها إن شاء الله.

ومهما يكن من أمر، فإن هذه العبارة من أستاذنا الفاضل تحمل على أحسن محاملها، على ما قال عمر بن الخطاب أيضاً: «ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يغلبك عليه» طوق الحمامة ص ٢٦٤، ونحن لم نعرف من أستاذنا إلا حبه للعربية وإجلاله لموروثها، ورأيه هذا في المعاجم العربية لا يطعن فيها جملة، ولا ينقصها قدرها بمرة، وإنما هو رأي من الرأي، يعرضه صاحبه فيناقش فيه فيقبل منه أو يرد عليه، وليس هو أول من نقد المعاجم العربية، ولن يكون آخره، فما برح أهل العلم منذ مطالع العصر الحديث ينقدون تلك المعاجم، ويكشفون عن جهات النقص فيها، وما يظهر من الاضطراب في ترتيب موادها، مع اختلاف مناهج ذلك النقد وغاياته.

يقول الدكتور عدنان الخطيب: «وإذا كان الكلام على عيوب المعجمات العربية يكاد يكون معاداً أو مكروراً، وإذا كان المهتمون بالمعجم العربي اليوم على شبه اتفاق حول كثير من تلك العيوب، إلا أن العلماء الذين تصدوا لنقد المعاجم القديمة، اختلفوا في أسلوب الكشف عن عيوبها، فكان لكل منهم أسلوبه ونهجه، لهذا كانت عيوب المعاجم عند اللغويين غيرها عند النحاة أو علماء الصرف أو الاشتقاق، وكذلك العيوب التي يراها علماء اللغات غير العيوب التي يراها علماء آخرون يهتمون بنواح تاريخية أو جغرافية أو طبية أو نباتية، أو غير ذلك من النواحي التي اشتملت عليها معاجمنا القديمة، ومن هنا نجد أن نقد الشدياق غير نقد الأب

الكرملي، ونقد أحمد أمين غير نقد الأمير الشهابي...»، المعجم العربي بين الماضي والحاضر ص ٦٣، وينظر أيضاً المعجم العربي - نشأته وتطوره - للدكتور حسين نصّار ٧٤٧/٢، والمعجم العربي - بحوث في المادة والمنهج والتطبيق - للدكتور رياض زكي قاسم ص ٢٥٩.

نقد المعاجم العربية :

ولعل أول من نقب هذا النقب، وفتح ذلك الباب في نقد المعجم العربي، في عصرنا الحديث: هو: «أحمد فارس الشدياق» صاحب مطبعة الجوائب الشهيرة باستانبول، في كتابه المعروف «الجاسوس على القاموس»، وقد وضعه لاستدراك ما فات الفيروزآبادي من «قاموسه المحيط» ورد ما وهم فيه من الألفاظ إلى أصولها، وقد طبع باستانبول سنة ١٢٩٩هـ، وتوفي الشدياق سنة ١٣٠٤هـ = ١٨٨٧م، ثم تابعت النقود في ذلك الطريق، وإن اختلفت فيما بينها شرعة ومنهاجاً، على ما تراه مفصلاً في المراجع الثلاثة المذكورة.

ولا ينبغي أن ننسى جهود العلماء القدامى في نقد المعاجم العربية، مثل نقد ابن بري المتوفى (٥٨٢) لصّاح الجوهري، واسم كتابه: «التنبيه والإيضاح عما وقع في الصّحاح»، ويعرف أيضاً بحواشي ابن بري على الصّحاح، وكذلك نقد صلاح الدين الصفدي المتوفى (٧٦٤) للصّحاح أيضاً، الذي سمّاه: «نفوذ السهم فيما وقع فيه الجوهري من الوهم». ثم ما نثره الفيروزآبادي المتوفى (٨١٧) من نقد للصّحاح، من خلال «القاموس المحيط»، لكن نقود هؤلاء اللغويين القدامى لم تمس أصول المعجم العربي وقواعده الأساسية، كما نرى في نقود المحدثين، وإنما هو نقد يدور حول التصحيف والتحريف ونسبة الشواهد، وذكر بعض الأبنية في غير أصولها، وإهمال بعض الأصول اللغوية.

وليس من غرضي هنا أن أناقش كل ما وُجّه للمعجم العربي من نقد، فليس هذا في وسعي ولا في طاقتي، وليس هذا مكانه، وإنما أحب أن أقف عند وجه واحد من وجوه ذلك النقد. وهو ما يقال عن «سوء ترتيب المعجم العربي» أو «تشويش

مادته»، وهو كلام يتردد بين الكبار والمبتدئين، ولا يكاد يخلو منه نقد من نقود المعجم العربي.

وفي رأيي أن الحامل على هذا الوجه من النقد أمران: الأول: المقارنة أو الموازنة الدائمة بين معاجمنا العربية وبين المعاجم الأوروبية، مثل «معجم أكسفورد» و «معجم لاروس». والأمر الثاني: النظر في المعاجم الكبرى فقط، مثل «لسان العرب» لابن منظور المتوفى (٧١١)، و «تاج العروس من جواهر القاموس» للمرئضي الزبيدي المتوفى (١٢٠٥)، وهذا في رأيي هو أصل القضية وجوهرها، فالذين يصفون المعجم العربي بسوء الترتيب وتشويش المادة لا يفتأون يقارنون بين سهولة المعجم الأوروبي والوصول إلى المعاني فيه بيسر، وبين صعوبة المعجم العربي والتخبط في أبنيته وتراكيبه، وهي مقارنة ظالمة، بل هي غير صحيحة، للفرق الضخم بين العربية وبين غيرها من اللغات، فلغتنا لغة اشتقاقية، ومفرداتها بالغة الكثرة، وما زلنا نجد صدق كلمة الإمام الشافعي عن هذه اللغة في قوله: «ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي»، الرسالة ص ٤٢.

وما أظن الناظر في معجم أوروبي لمعرفة معنى كلمة أو تركيب يحتاج إلى العدة والأدوات التي يحتاج إليها الناظر في معجم عربي، فهناك مراحل معينة لا بد أن يمر بها الباحث في المعجم العربي ليجد بغيته في ذلك المعجم، وهي تقوم على معرفة الأصل الاشتقاقي للكلمة المراد البحث عن معناها. ومعرفة الأصل الاشتقاقي هذا تركز على أسس أربعة:

(أ) حذف الزائد.

(ب) رد المحذوف.

(ج) تصحيح المعتل.

(د) فك المدغم.

وتحت كل فقرة من ذلك كلام كثير، هو علم الأبنية المعروف بعلم الصرف،

وبخاصة أبواب المجرد والمزيد، والإعلال والإبدال، وقد يعرف المرء هذه الأبواب الصرفية، ثم يصعب عليه التهدي إلى موضع الكلمة من المعجم، لعدم المراس والدربة، كما يجد بعضهم صعوبة في موضع «تري» و «ترقوة» من المعجم، وكذلك موضع ميناء، بل إن بعض الكلمات تأتي في موضعين من المعجم، كما ترى في «البازي» الصقر، يأتي في (بوز) وفي (بزي)، وكذلك كلمة «الصدد» التي تأتي في قولك «بصدد كذا» أو «في ذلك الصدد» تأتي في مادة (صدد)، وفي مادة (صدى)، وقالوا في قوله تعالى: ﴿فَأَن تَلُمُ تَصَدَّى﴾ [عبس: ٦]، إن أصلها «تتصدد»، فلما كثرت الدالات قلبت إحداهن ياء، كما قبل إن قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ [الشمس: ١٠]، أصلها «دسَّها» بثلاث سينات، فقلبت إحداهن ياء، تنطق ألفاً، ولذلك يأتي شرح هذه الكلمة في موضعين من المعجم، الأول (دسس)، والثاني (دسى)، ولهذا نظائر أخرى في الأبنية، ومنها: قصيت أظفاري، والأصل: قصصت.

أغزر المعاجم اللغوية :

فهذا ما كان من الأمر الأول، أمر المقارنة بين المعجم العربي والمعجم الأوروبي. أما الأمر الثاني، وهو النظر في المعاجم الكبرى فقط، دون المعاجم الأوساط والصغار: فما أظن الذين حكموا على المعجم العربي بسوء الترتيب وتشويش المادة، قد انتهوا إلى هذا الحكم إلا بعد طول معاناة مع أكبر معجمين، وهما «لسان العرب» لابن منظور، و «تاج العروس» للمرئضي الزبيدي، وهذا الثاني هو أغزر المعاجم اللغوية مادة وأكثرها شمولاً، فقد بلغت جذوره اللغوية (١١٩٧٨) جذراً، على حين بلغت جذور لسان العرب (٩٢٧٣) جذراً — انظر دراسة إحصائية لجذور معجم تاج العروس، للدكتور عبد الصبور شاهين، والدكتور حلمي موسى، نقلاً عن حاشية كتاب الاستدراك على المعاجم العربية للدكتور محمد حسن جبل ص ٧.

ومما لا شك فيه أن البحث في هذين المعجمين متعب، ولا سيما لمن لم

يألف التعامل معهما وكثرة النظر فيهما، ولا تنتظر من طالب مبتدئ، أو من شخص محدود الثقافة، يريد معنى كلمة أو تركيب أن يرضى عن كتاب لغة موسوعي كهذين المعجمين، يمتد فيهما الكلام ويطول.

إن الحكم الصحيح على هذين المعجمين ينبغي أن يتم في إطار معرفة حال ابن منظور والمرتضى الزبيدي، ثم معرفة حال معجميهما المذكورين، فالرجلان ليسا من واضعي اللغة ولا من رواتها، لتأخر زمانهما كما تعلم، وتأليفهما الأخرى تدور حول شروح الكتب واختصاراتها. أما المعجمان اللذان صُنِّقا هما: لسان العرب وتاج العروس فهما تجميع موسوعي ضخّم للمعاجم السابقة عليهما بمناهجها المختلفة وتباينها: اتساعاً وضيقاً، وقلة وكثرة.

ولقد صرح ابن منظور في مقدمة «اللسان» بأنه جمعه من أصول معجمية خمسة، هي بحسب ذكره لها: تهذيب اللغة للأزهري (٣٧٠هـ)، والمحكم لابن سيده (٤٥٨هـ)، والصّحاح للجوهري (حدود ٤٠٠هـ)، والحواشي عليه لابن بري (٥٨٢هـ) وتسمّى هذه الحواشي: التنبيه والإيضاح عما وقع في الصّحاح. والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٦٠٦هـ).

وتمثل هذه المعاجم الخمسة ثلاث مدارس في التأليف المعجمي: المدرسة الأولى مدرسة ترتيب المواد اللغوية وفق مخارج الحروف، وهي مدرسة الخليل بن أحمد، ويمثلها من هذه المعاجم: التهذيب للأزهري والمحكم لابن سيده، والمدرسة الثانية: التي ترتب المواد على الجذور اللغوية (أصل الاشتقاق) واعتبار الحرف الأخير منها باباً يبنى عليه المعجم، والحرف الأول فصلاً، مع مراعاة الترتيب الألفبائي فيما بين حرفي الباب والفصل، وهذا النظام يعرف أيضاً بنظام التقفية. فكان المادة اللغوية المشروحة كافية شعرية، ينظر إلى حرفها الأخير قبل كل شيء، ويمثل هذه المدرسة الصّحاح وحواشيه. والمدرسة الثالثة — وهي المدرسة المألوفة لنا — التي ترتب المواد وفق الأول والثاني والثالث — ويمثلها النهاية لابن الأثير.

وقد ارتضى ابن منظور من مناهج هذه المدارس منهج المدرسة الثانية، مدرسة

«الصَّحاح» ورتب كتابه «اللسان» على أساسها، وأخضع المدرستين الآخرين لها، ويصرح ابن منظور في مقدمته بأن عمله في معجمه لم يخرج عن حدود ما في مراجعه الخمسة، وإن كان قد استطرد إلى ذكر فوائد من قراءاته وسماعاته، ثم تعقب في أحيان قليلة بعض ما وجدته في مراجعه الخمسة المذكورة، كما أشرت إلى ذلك في مقالتي عن «لسان العرب» في الهلال (مارس ١٩٩٢م) [راجعها ص ١٧٧].

فقد ظهر إذن أن المادة المعجمية في «لسان العرب» مجموعة من مراجع خمسة، تخضع لمناهج ثلاثة مختلفة كل الاختلاف، وهذا هو سر ما يبدو من التشويش وعسر الترتيب عنده. فالتكرير وارد لا محالة في كتاب موسوعي صرح مؤلفه بأنه لم يخرج عن مراجعه الخمسة، فهو لم يبح لنفسه أن يغير شيئاً من المادة التي أمامه، غاية ما في الأمر أنه أخضعها لمنهج واحد في الترتيب، وترك كل شيء في الكتب على حاله، إلا أن يتدخل في أحيان قليلة جداً بنقد أو ترجيح، ولذلك قد تجد لديه شرحاً لشيء من غريب الحديث والأثر مختلفاً عن شرح آخر للحديث نفسه في المادة نفسها، لاختلاف مرجعه في ذلك، فقد ينقل في المرة الأولى عن «تهذيب اللغة» للأزهري، وفي الثانية عن «النهاية» لابن الأثير، بل قد تجد شاهداً شعرياً غير منسوب لقاتل في موضع من المادة، وبعد قليل تجد الشاهد نفسه منسوباً، وما ذلك إلا لاختلاف مرجعه في الحالين، وقل مثل هذا في اختلاف الشروح، والحظر اللغوي أحياناً والإباحة أحياناً أخرى، ولذلك يوصي كبار المحققين في الإحالة على ما في اللسان أن تقول: «جاء في اللسان كذا وكذا»، ولا تقول: «قال صاحب اللسان، أو قال اللسان».

فهذا هو «لسان العرب» كتاب موسوعي، جمع مادة لغوية ضخمة من خمسة كتب كبار مختلفة المناهج، أخضعها لمنهج واحد، وهو جهد شاق يحسب في موازين الرجل، ولم يكن عدلاً أن نتظر من مؤلفه أن يصطفي من هذه المعاجم الخمسة معجماً يصنعه على هوانا ووفق مشيئتنا، وعلى حسب مواصفات العصر الحديث — عصر الحاسبات الآلية والكمبيوتر — يجلس الواحد منا متكئاً على أريكته

فيجد بغيته من أقرب طريق، ويعثر على ضالته بأقل جهد: الأفعال الثلاثية وحدها، وما زاد على الثلاثة وحده، والأفعال اللازمة وحدها والمتعدية بعدها، ولا بأس أن يميز بين المتعدي بنفسه، والمتعدي بالحرف، بل المتعدي لواحد ولاثنين وثلاثة، والجموع يأتي القياسي منها وحده، والسماعي وحده، وأبنية المصادر وحدها وأسماء المصادر وحدها، والمشتقات وحدها. وهذا كله منطق «اللُّقطة» تصيبها في عُرْض الطريق، أو «الغنيمة الباردة» تحوزها بغير حول منك ولا قوة.

نحن والفهارس:

لقد صنع ابن منظور معجمه «اللسان» في أوائل القرن الثامن، ونحن نحاكمه بمنطق القرن الخامس عشر، وقد صنعه ليقوم يقرأون الكتب من أولها إلى آخرها، ونحن نلزمه أن يكون قد نظر إلى أبعد من عصره، بل نريده أن يكون قد نظر إلينا على وجه الخصوص، ونحن الآن لا نتعامل مع الكتب إلا عن طريق الفهارس، ولأخذ حاجتنا فقط، وَقَلَّ أن تجد منا من قرأ كتاباً كاملاً، للمعرفة وحدها، لا للمرجعية فحسب.

وما قيل عن ابن منظور و«اللسان» يقال عن المرتضى الزبيدي و«الناج»، فقد جمعه الزبيدي من مراجع كثيرة، منها اللسان، وجمهرة ابن دريد، ومقاييس اللغة لابن فارس، وأساس البلاغة للزمخشري، ثم كتب الصاغانى، وأخضعها جميعاً للمنهج الذي ارتضاه صاحب اللسان.

على أن ابن منظور والمرتضى الزبيدي لو كانا قد أرادا ترتيب المادة اللغوية على ما يريدانها الناس الآن، لما استقام الأمر لهما ولا لغيرهما، فهناك أبنية لا تأتي إلا مقرونة بغيرها، كأبنية المصادر التي تأتي عقب الأفعال، وكالجموع التي تأتي مقترنة بالمفرد، ثم هناك الأبنية المرتبطة بالنصوص، والتي لو عُزلت عن سياقها في شاهدها وسلكت مع نظائرها لفقدت روح دلالتها، وعندي من هذا وذاك أمثلة كثيرة، لا يتسع المقام هنا لذكرها. وإن تفتيت المادة اللغوية على ما يريده الناس الآن يصادم روح اللغة ونظامها، ولذلك تعجبني كلمة الدكتور رياض زكي قاسم، في كتابه الذي ذكرته

من قبل، قال حين تحدث عن عيوب المعجم العربي: «فهذه العيوب تنقسم إلى ثلاث مجموعات: منها ما يمكن تهذيبه، ومنها ما يمكن تطويره وتحديثه، ومنها عصي يرتبط بمسألة تدوين اللغة، وهو ما لا يمكن تهذيبه أو تحديثه»، المعجم العربي ص ٢٦٠.

فهذا الذي يرتبط بمسألة تدوين اللغة هو روح اللغة ونظامها الذي لا ينبغي أن يُمس بحال، ومن ثم لا ينبغي أن يوصف بعسر ترتيب أو سوء ترتيب، وليس أمام الباحث الآن إلا مد حبال الصبر والاستمساك بعرى الأناة، والتدرج في مراقبي الإلف والعادة، لتنتفتح له مغاليق هذه المعجمات الكبار، وأعرف أناساً من أهل العلم ثم من شداته والمبتدئين فيه، يقرأون اللسان والتاج في يسر وسهولة، ويقعون على حاجتهم منه في غير مؤونة ولا كلفة.

وليس يخفى الفرق بين شخصين، يطلب أحدهما معنى كلمة أو تركيب، ويريد الثاني تحرير قضية لغوية، تتصل بالأبنية أو الدلالة، فالأول يكفيه معجم صغير، مثل مختار الصحاح أو المعجم الوجيز أو الوسيط اللذين أصدرهما مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وفيهما جهد كبير، أما الثاني فلا بدَّ له من أن يركب الصعب، ويأخذ نفسه بالجلادة والصبر، إن معرفة اللغة والوقوف على شيء من أسرارها لا يكفي فيها اللسان أو التاج، بل لا بد فيها من الرجوع إلى ما لا يُحصى من كتب اللغة الصغار والأوساط، وكتب الألفاظ، ومعاجم المعاني وشروح الشعر، وشروح غريب القرآن وغريب الحديث، وكتب الأمالي والمجالس، بل كتب التاريخ والبلدان والمعارف العامة.

ويبقى التنبيه على عدة أمور:

أولاً: ثبت — إن شاء الله — أن لسان العرب وتاج العروس هما أوسع المعاجم اللغوية وأغزرها مادة، وأنهما قائمان على أساس التجميع من المعاجم السابقة ليس غير، فهما بهذا الوصف داخلان في حيز الموسوعات، والتعامل مع الموسوعات له أدوات، منها الصبر وبذل الجهد، والنفس الطويل، والخبرة السابقة بكتب العربية في

فنونها المختلفة، فالعسر الذي يجده الباحث في هذين المعجمين الكبيرين لا ينبغي أن يعمم على سائر المعاجم العربية.

ثانياً: ابن منظور من علماء القرن الثامن والزيدي من علماء القرن الثاني عشر، وقد سبقتها جهود كثيرة في التأليف المعجمي، وهذه التأليف خضعت لمناهج مختلفة في المادة والترتيب، وكلها قائمة على اليسر والسهولة، مثل الصّحاح ومختاره، وأساس البلاغة للزمخشري، والمصباح المنير للفيومي.

ثالثاً: هناك طائفة من المعاجم اللغوية قائمة على فكرة الأبنية، فالمنهجية تحكمها، والغاية فيها واضحة، مثل إصلاح المنطق لابن السكّيت (٢٤٤هـ) وديوان الأدب لأبي إبراهيم الفارابي (٣٥٠هـ) وهو غير الفارابي الفيلسوف، ومثل كتب الأفعال لابن القوطيّة (٣٦٧هـ)، وللسرقسطي (بعد ٤٠٠هـ) وابن القطّاع (٥١٥هـ) إلى جانب معاجم الأضداد والمشارك اللفظي، ومعاجم المعاني، والأجناس اللغوية، وأعلاها المخصص لابن سيده (٤٥٨هـ)، ثم معاجم الموضوعات الخاصة، مثل معاجم غريب القرآن وغريب الحديث، وما كتب في خلق الإنسان والبهائم والحشرات والإبل والخيول والنبات، والمطر واللبن، وما كتب في نوادر الأبنية.

رابعاً: مما ينبغي أن يضم إلى المعجم اللغوي تلك المؤلفات التي عنت بشرح ألفاظ ومصطلحات العلوم، وهذه المؤلفات تقسم إلى قسمين:

(أ) مؤلفات عامة، تجمع المصطلحات المستخدمة في كافة العلوم الإسلامية — بما فيها علوم اللغة العربية — أو في أكثر هذه العلوم دون تمييز.

(ب) مؤلفات خاصة، يفرد كل منها لمصطلحات علم واحد، أو مجموعة قليلة من علوم متقاربة.

ومن أشهر مؤلفات القسم الأول: مفاتيح العلوم للخوارزمي (٣٨٧هـ)، والتعريفات للسيد الشريف الجرجاني (٨١٦هـ). والكليات لأبي البقاء الكفوي

(١٠٩٤هـ) - وهذا الكتاب من أعظم الكتب وأنفعها، وإني أنصح به كل طالب علم - وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، أتم تأليفه سنة (١١٥٨هـ). وأبجد العلوم لصديق القنوجي (١٣٠٧هـ). أما مؤلفات القسم الثاني فشيء كثير، لا يتسع له هذا المقام، انظره في مقدمة الدكتور حسن محمود الشافعي لكتاب: الممين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين، لسيف الدين الآمدي (٦٣١هـ)، ثم انظر كتابي: الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم.

فهذا هو بناء المعجم العربي، بناء ضخمة متماسكة، واضح المعالم، قريب المورد، ميسور الاجتناء، ما لم تطبق عليه نظام المعجم الأوروبي، وتنتظر منه أن يعطيك ما يعطيكه ذلك المعجم.

وبعد: فإن من الخير والعدل أن نتوقف عن الطعن في معاجمنا اللغوية، ونُمسك عن سوء الترتيب وتشويش المادة، نتجاوز هذا كله، ثم ننظر في أمر هذه المعاجم: نستدرك فائتها، ونكمل نقصها، ونبرز فوائدها، ونُيسر سبيلها، وفي ذلك الطريق، أ طرح هذه المقترحات:

أولاً: جمع اللغة التي جاءت في كتب العربية الأخرى غير المعاجم، وذلك ما تراه في أشعار العرب التي شرحها أئمة الأدب واللغة، من أمثال الأصمعي وتلميذه أبي نصر الباهلي، وأبي عمرو الشيباني، وأبي العباس الأحول، وابن السكيت وثعلب والسكري، وقد قدم هؤلاء مادة لغوية غزيرة من خلال شروحهم لما جمعوه من شعر، هذا إلى اهتمام علماء كل فن وعلم باللغة، يقدمونها بين يدي علومهم، كالذي تراه مثلاً في شرح أبي علي الفارسي لمفردات اللغة في كتابه: الشعر أو شرح الأبيات المشككة الإعراب، وكذلك ما صنعه ابن الشجري في كتابه: الأمالي النحوية. وبعض هذه الشروح اللغوية لم يرد في المعاجم اللغوية المتداولة، وقد تنبه إلى ذلك ونبه عليه مشايخنا فيما نشره من كتب الأوائل، ومن ذلك ما ذكره شيخنا أبو فهر بآخر طبقات فحول الشعراء باسم «ألفاظ من اللغة أخلت بها المعاجم أو قصرت في بيانها»، وما ذكره أستاذنا عبد السلام هارون رحمه الله، من إحصاء

لهذه الألفاظ والكلمات التي لم ترد في المعاجم بآخر: البيان والتبيين، ومقاييس اللغة، والأصمعيات والمفضليات ومجالس ثعلب.

ومن تجاربي الشخصية في التماس الشروح اللغوية من دواوين الشعراء: أني كنت أبحث يوماً عن توثيق كلام في اللغة لأبي العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب (٢٩١هـ)، فنظرت في المطبوع من كتبه اللغوية، المجالس، والفصيح، فلم أجد فيها كلامه الذي نقله عنه الأئمة، ثم نظرت في شرحه على ديوان زهير بن أبي سلمى، فوجدت بغيتي فيه، وما دلني على ذلك إلا فهرس اللغة الذي صنفه محققو الديوان من مشيخة دار الكتب المصرية.

ثانياً: استخراج المواد اللغوية المذكورة في المعاجم في غير أبوابها، كأن تجد مثلاً كلاماً على مادة (قلب) في أثناء مادة (بدأ) ومثل هذا كثير، فإننا نجد ألفاظاً وتراكيب قد ذكرت في غير موادها؛ لدواعي الاستطراد والمناسبة، ولا سيما في لسان العرب وتاج العروس، لاتساع مادتهما وكثرة نقولهما، كما عرفت من قبل.

ومن أنفع ما قرأت من ذلك ما صنعه الدكتور محمد حسن جبل، في كتابه الذي سمّاه: «الاستدراك على المعاجم العربية في ضوء مثنين من المستدركات الجديدة على لسان العرب وتاج العروس». وقد نشره منذ تسع سنوات، ولعله يمضي في هذا الطريق إلى نهايته، هو ومن يختار من تلاميذه، ثم رأيت في نشرة دار العلم للملايين ببيروت لكتاب «الجمهرة» لابن دريد (٣٢١هـ) رأيت في هذه النشرة فهرساً نافعاً جداً في هذا المقترح، سموه: فهرس الجذور غير الواردة في أبوابها.

ومثل هذين المستدركين على المعاجم العربية — جمع اللغة التي جاءت في غير المعاجم، واستخراج المواد والجذور المذكورة في غير أبوابها من المعاجم — يمكن أن يقوم بها معيدو أقسام اللغة العربية بالكلية الجامعية، مع شيء من التحليل والدراسة، ويحصلوا بها على الماجستير والدكتوراه، بدلاً من تلك الموضوعات المكررة المتشابهة التي يدخل فيها اللاحق على السابق.

ثالثاً: إعادة نشر معاجمنا العربية التي طبعت منذ زمن بعيد، بالاستفادة من التقدم الطباعي الحديث، باستخدام الألوان، والتوسع في علامات الترقيم وأوائل السطور والفقرات، وإبراز أوائل المواد وآخرها. ومن أعظم التجارب وأنفعها التي ينبغي الاستفادة منها في هذا السبيل: ما قام به الناشر السوري النابه «رياض دعبول» صاحب مؤسسة الرسالة، في تلك الطبعة العظيمة من «القاموس المحيط» للفيروزآبادي (٨١٧هـ)، وقد جاءت هذه الطبعة العالية في مجلد واحد (١٧٥٠) صفحة، فاختصر المجلدات الأربع التي كان يطبع عليها القاموس قديماً، وقد اتبعت مؤسسة الرسالة هذه الخطوات — في إخراج تلك الطبعة الرائعة من القاموس، التي ظهرت الطبعة الثانية منها سنة ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م — :

- ١ — تحليل النص وتنسيقه بإدخال علامات الترقيم.
 - ٢ — وضع كل مادة جديدة من أول السطر، وتمييز ألفاظ المادة بالحرف الأحمر.
 - ٣ — إثبات الحواشي أسفل الصفحة مع أرقام في المتن تشير إليها وتدل عليها.
 - ٤ — إثبات إشارة خط هكذا — (باللون الأحمر) للدلالة على أن الكلمة كررت في ذاك الموضع لإيراد معنى آخر لها، فهذا الخط هو بديل عن إعادة كتابة الكلمة.
 - ٥ — تخريج الآيات القرآنية وقراءاتها، وتبيين الشاذ من القراءات.
 - ٦ — جعلت الآيات القرآنية بين قوسين متركبين، والأحاديث الشريفة والأمثال بين قوسين صغيرين.
 - ٧ — أثبت في أعلى كل صفحة أول وآخر مادة فيها، تسهيلاً للعثور على المادة.
- وعلى نحو من هذا الإخراج الميسر طبع من «تاج العروس» ثمانية وعشرون

جزءاً، وبقي منه اثنا عشر جزءاً، والمأمول من وزارة الإعلام بالكويت التعجيل بإخراج هذه الأجزاء الباقية من الكتاب الذي ظهر الجزء الأول منه عام ١٩٦٥ م.

رابعاً: إعادة نشر «لسان العرب» أشهر المعجمات العربية، وقد طبع أول مرة بمطبعة بولاق سنة ١٣٠٠هـ، فقد مضى على طبعه (١١٥) سنة، وقد آن الأوان لكي نظهره في طبعة تليق به، وتيسر سبيل الانتفاع به، باستخدام التطور الطباعي الحديث كما ذكرت، ثم تخليصه من شوائب التصحيف والتحريف التي مني بها، وذلك بجمع كل ما كتبه أهل العلم في ذلك، ومنهم العلامة المغفور له أحمد تيمور باشا، وقد نشر جزءين صغيرين في تصحيح اللسان، أحدهما في مطبعة الجمالية سنة ١٣٣٤هـ، والآخر في المطبعة السلفية سنة ١٣٤٣هـ، وكذلك صنع أستاذنا عبد السلام هارون، برّد الله مضجعه، في كتابه الذي سمّاه: «تحقيقات وتنبهات في معجم لسان العرب»، وطبعه سنة ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م، وقد استدرك غيرهما شيئاً من ذلك على اللسان، فيُجمع ذلك كله، وينزل على منازل من المواد اللغوية، مع مراجعة الكتاب على مراجعه الخمسة التي ذكرتها من قبل، وقد طبعت كلها.

فهذه المقترحات وغيرها مما يخدم لغتنا، ويسر سبيل الانتفاع بمعاجمها، أما ما يقال في تغيير ترتيب المعاجم العربية، وإعمال يد الإصلاح فيها، بالحذف والتقديم والتأخير، فكلام لا يصدر إلّا عمّن لا يحترم لغته، ولا يعرف تاريخه، وربنا المستعان.



الكتاب.. والتواصل العلمي^(١)

تلقيت في بريدي مجموعة مختارة من مطبوعات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، وقد زان هذه المجموعة رسالة رقيقة من المدير العام للمنظمة الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري، ولم أشرف بمعرفة هذا الرجل من قبل، وما دله علي إلا تلك المقالات التي أنشرها بالهلال، كما ذكر في رسالته الطيبة الزكية، التي فاضت بالثناء المستطاب علي والرضا الكامل عما أكتب، وهذه نعمة أحمد الله عليها، وأشكر من أسداها، ثم أنشده قول أبي نخيلة السعدي:

شكرتك إن الشكر جبل من التقى وما كل من أوليته نعمة يقضي
ونوّهت من ذكري وما كان خاملاً ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

وكان الأولى بي الإمساك عن ذكر هذا البيت الثاني، لولا حلاوة هذا الشعر، وقوة الآصرة بين البيتين، وإن أردت الكلمة كلها فاطلبها في أمالي أبي علي القالي ٣٠/١، وانظر ما استخرجه منها الشيخ عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز ٤٨٤، ثم اقرأ أخبار أبي نخيلة في الأغاني ٣٩٠/٢٠ (تنبيه: العرب تطلق الكلمة على القصيدة، وهو شائع مستفيض في كتبهم).

ثم أما بعد: فلنقف قليلاً عند هذه الرسالة التي شرّفني بها المدير العام للمنظمة الإسلامية، وهي رسالة غريبة في زماننا هذا ذي التعاجيب، فهذا مدير مؤسسة علمية مقرها الرباط عاصمة المغرب الأقصى، يتابع ما يكتبه كاتب في مجلة الهلال

(١) مجلة «الهلال»، يولييه ١٩٩٥م.

بالقاهرة، ويرى في هذا الذي يكتب ما يوجب تحية كاتبه وإهداءه شيئاً من مطبوعات المنظمة، وما أظن هذا المدير القارئ المتابع قد أثّرني وحدي من بين الكاتبين بهذا الفضل، فلا شك أنه يقرأ لي ولغيري في الهلال، وفي سائر المجلات الثقافية، ليكون في ذلك عونٌ له على أداء رسالته وإنجاح عمل المنظمة التي يتولى إدارتها، ولولا ما جاء في رسالته من ثناء بالغ على كتاباتي، لوضعت رسالته كلها هنا؛ ليرى القارئ الكريم كيف يكون مدير المؤسسة الثقافية، على ما قال أبو زياد الأعرابي:

ولم يك أكثر الفتيان مالاً ولكن كان أرجههم ذراعاً

فقد أتى على مؤسساتنا الثقافية حين من الدهر كانت مناصبها العليا توزع على أساس من التوازنات السياسية، وإرضاء جميع الأطراف، ولا ينبئك مثل خبير، فقد عملت بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم خمس عشرة سنة، ورأيت أنماطاً غريبة من أصحاب هذه المناصب العليا، وبعضهم لا صلة له بالثقافة، لا من قريب ولا من بعيد، حتى إنه كتب ذات يوم: «لقد حضرت فوجت الباب مغلق» هكذا كتب «وجت» وهو يريد «وجدت» وكأنه يكتبها كتابة صوتية، يكتب كما ينطق، وما رأيت هذا المدير إلا وأنشدت قول البحري:

الآن أيقنت أن الرزق أقسام لما تقلد أمر البُرد حجام

«البرد: جمع البريد، والحجام: هو الذي يتولى الحجامة، وهي المعالجة بفصد الدم، أو امتصاصه بالمحجمة، وكان معروفاً ومستعملاً إلى عهد قريب»، وهذا كما ترى أحد مصائبنا الكبرى: أن يُوسد الأمر إلى غير أهله، ولو تتبععت مراكزنا العلمية ومنظماتنا الثقافية لوجدت فيها من هذه النماذج الكثير، على ما قالت العرب في أمثالها: «وفي كل واد بنو سعد».

ومهما يكن من أمر، فهذه المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة التي يديرها ذلك المدير المثقف المتابع، أنشئت في ٣ مايو ١٩٨٢م، واتخذت الرباط عاصمة المملكة المغربية مقراً لها، والمغرب الأقصى، حرسه الله، ثغر من ثغور

العربية والإسلام، وما زالت طائفة من أهله قائمة على حراسة موروثها من علوم الإسلام: حفاظاً على مخطوطاتها، وتحقيقاً لنفائسها، هذا إلى فضلهم القديم في شرح آثار المشاركة والعناية بها، فاتخاذ الرباط مقراً لهذه المنظمة الإسلامية، عمل صالح، إن شاء الله، على ما قال الزاهد الكبير يوسف بن أسباط رضي الله عنه: «وإنما يطيب الموضع بأهله».

كما كان من العمل الصالح أيضاً اتخاذ منظمة المؤتمر الإسلامي مدينة استانبول مقراً لمركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية. ولاستانبول في تاريخ الإسلام أيام بيض وصفحات مضيئة، ذكرت شيئاً منها في الهلال (ديسمبر ١٩٩٤) في كلمة عنوانها «تركيا والمخطوطات العربية» (راجع ص ٣٢١ من هذا الكتاب).

التعريف بالتراث الإسلامي :

وتعلن هذه المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة عن غاياتها وأهدافها التي تحرص على صيانة التراث الإسلامي ورعايته والتعريف به، كما تعمل على دعم الثقافة الإسلامية الأصيلة وحماية استقلال الفكر الإسلامي من عوامل الغزو الثقافي والمسخ والتشويه، ولتحقيق هذه الغايات تقوم المنظمة بعقد الندوات التي تتناول موضوعات بعينها، أو شخصيات بخصوصها، ثم تقوم بطبع حصيلة هذه الندوات في كتب يقرأها الناس على مكث، وبجانب هذه المطبوعات الخاصة تقوم المنظمة بتحقيق ونشر ما تراه صالحاً ومفيداً من عيون المخطوطات العربية. ومن هذا وذاك وصل إلي من مطبوعات المنظمة :

١ - الإمام الطبري في ذكرى مرور أحد عشر قرناً على وفاته (فقيهاً ومؤرخاً ومفسراً) جزءان.

٢ - الإمام الشافعي، الاحتفاء بمرور اثني عشر قرناً على وفاته.

٣ - أحمد بابا التمبكتي، بمناسبة مرور أربعة قرون ونصف على ولادته.

٤ - الأحكام الصغرى، لأبي بكر ابن العربي المتوفى سنة ٥٤٣هـ، وهو مختصر كتابه أحكام القرآن الذي نشر بمطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٣٧٦هـ = ١٩٥٧م بتحقيق الأستاذ علي محمد البجاوي، رحمه الله.

٥ - التقسيم والتبيين في حكم أموال المستغرقين - من الظلمة والغاصبين - لأبي زكريا الشبلي، من علماء القرن الثامن الهجري. وهذا الكتاب خاص بوجوه الأموال الحرام، وطرق الكسب غير المشروع - كما يقال في أيامنا - من التعدي على الأموال، والغصب والإكراه، والربا والرشوة، والشركات الفاسدة، وكذلك ظلم أصحاب الوظائف العامة وغيرهم من أصحاب القوة والنفوذ والسلطان، مما يدخل في أحكام القانون المدني الإسلامي، أو أحكام القانون الدولي الإسلامي.

٦ - المهذب في الكحل المجرب، لعلي ابن أبي الحزم القرشي المعروف بابن النفيس، المتوفى سنة ٦٨٧هـ (والقرشي هنا تضبط وتقرأ بفتح القاف وسكون الراء نسبة إلى «قرش» اسم بلد فيما وراء النهر - نهر جيحون، المسمى نهر أموداريا، بوسط آسيا)، وبعض الناس ينطقه «القرشي» بضم القاف وفتح الراء، يظنه نسبة إلى «قريش» وهو ما أسميه أخطاء الإلف والعادة.

٧ - الكافي في الكحل، لخليفة بن أبي المحاسن الحلبي، من علماء القرن السابع الهجري، وقد ذكر محققا الكتاب أن من أهم ما يميز هذا الكتاب:

(أ) أنه أول كتاب يضم رسماً توضيحياً لتشريح الدماغ، وعلاقة العينين به، والطريق الذي يسلكه البصر بين العينين والدماغ.

(ب) أنه أول كتاب يضع رسوماً للأدوات الجراحية المستعملة في جداول أنيقة.

(ج) أنه أول كتاب يضع جداول منظمة أنيقة لأمراض الأجفان والعيون وآلية الإبصار.

(د) أنه أول كتاب يفرد فصلاً خاصاً عن المكايل والأوزان والمقاييس

المستعملة في الطب آنذاك، وتعتبر هذه المقادير التي ذكرها أوفى من تلك المقادير التي ذكرها ابن سينا في آخر كتابه «القانون».

(هـ) أنه أول كتاب يفرد فصلاً خاصاً عن الفصد، ويعتبر ما ذكره المؤلف عن الفصد، أوفى مما كتبه عنه ابن سينا في الجزء الأول من كتابه «القانون».

وهذا الكتاب والذي سبقه، من تراث العرب العلمي، وهو من الفنون التي لا يقبل عليها الناشرون كثيراً؛ لأن جمهورها قليل، فلا تحقق لهم عائداً مادياً مجزياً أو غير مجزٍ، فلم يبق إلا هذه المنظمات الكبرى، والهيئات العلمية التي قامت في السنوات الأخيرة في أكثر دول الخليج، تابعة للجامعات هناك، أو مستقلة عنها، وقد أحسنت هذه المنظمات والهيئات في نشر طائفة كبرى من عيون التراث العربي، في مختلف العلوم والفنون، وبعض هذا التراث المنشور ذو أجزاء كبيرة، مما لا يقبل عليه الناشرون أيضاً.

وقد ضمنت مكتبتي معظم هذه المطبوعات؛ لعلاقات خاصة بيني وبين القائمين على تلك المنظمات والهيئات، أو لأخذ رأيي أحياناً فيما ينشر. وأذكر من هذه الهيئات: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، والمجلس العلمي — إحياء التراث الإسلامي بالمدينة النبوية.

وبدولة الكويت: وزارة الإعلام، ووزارة الأوقاف، وقسم التراث العربي بالمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ومؤسسة الكويت للتقدم العلمي.

ومركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، وهو مركز نشط جداً، والقائمون عليه يعملون وفق خطة محكمة، ومنهج رشيد، وحماسة بالغة.

وإذا كانت هذه المطبوعات العظيمة لتلك المؤسسات والهيئات تتاح لي ولغيري — وهم قلة — ممن لهم صلات مشاركة وتوجيه أو صداقة مع هذه المؤسسات، فما هو حظ القارئ العربي وغير العربي من هذه المطبوعات؟

إن الكتاب المطبوع هو أساس التواصل العلمي، والأصل فيه أن يكون متاحاً لكل قارئ، إما بالشراء وإما بالإهداء وإما بالإيداع في دور الكتب العامة.

أما الشراء فليس متاحاً لكل الناس؛ لأمرين: الأمر الأول أن بعض هذه الهيئات لا تطرح مطبوعاتها للبيع، والأمر الثاني أن بعض هذه المطبوعات ذات أجزاء كبيرة، قد يصل بعضها إلى عشرة أجزاء، فلو عرض للبيع لشق ثمنه على كثير من أهل العلم.

وأما الإهداء فدائرته محدودة جداً، على أن في هذا الإهداء بعض الآفات، وهو أنه يوجه أحياناً لمن لا يعرف قدره، أو لا يدرك وجه النفع منه، وأعرف بعض من يهدى إليهم كانوا يتركونه في الفندق؛ استثقلاً لحمله، أو فراراً من مؤونة الوزن الزائد وتكاليفه في شركات الطيران.

أهمية إيداع المطبوعات:

فلم يبق إلا الوجه الثالث، وهو إيداع المطبوعات في المكتبات العامة، وهذه المكتبات العامة ينبغي أن ينظر إليها على أنها: إما أن تكون مكتبات الدولة القومية، مثل دار الكتب المصرية، والخزانة العامة بالرباط، وإما أن تكون مكتبات الجامعات (مكتبة الجامعة نفسها، ومكتبات كلياتها ومعاهدها العليا).

فواجب على المنظمات والهيئات العلمية التي تعنى بطبع الكتاب العربي، أن تتيح لهذه المكتبات العامة، واجباً حتمياً ونصيياً مفروضاً، لا مسامحة فيه، ولا معذرة عنه. وكنت زمان عملي بمعهد المخطوطات التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أرى قوائم ثابتة بالمعهد للجامعات والمراكز العلمية، نهدي إلى هذه وتلك جميع مطبوعات المعهد، دون انتظار لطلب أو استهداء.

وعلى الجانب الآخر ينبغي أن يكون بمكتبات الجامعات والكليات متابعة دائمة يقظة لجهات النشر والطبع شرقاً وغرباً، مما يعرف في علم الكتاب بقسم التزويد، وهذا في رأيي جانب أساسي من عمل مدير المكتبة الجامعية أو أمينها: أن

يتابع ما يُنشر، ويستهدي جهات النشر، فليس عمله فقط هو استقبال الكتب وتصنيفها وتوزيعها على الأرفف، وفق نظام «ديوي» أو تنظيم القراءة أو الإعارة بالمكتبة.

ومما يقترح هنا أن تقوم بكل كلية لجنة دائمة، يختارها عميد الكلية بترشيح من رؤساء الأقسام، وتكون مهمة هذه اللجنة مساعدة مدير مكتبة الكلية في متابعة ما ينشر، واستهداء المراكز والهيئات العلمية، وأقترح أيضاً أن يكون جمهور هذه اللجنة من المعيدين والمدرسين المساعدين؛ لأن هؤلاء وهؤلاء أقرب إلى الكتاب، وأكثر حاجة له.

ومن وراء الإهداء والاستهداء تبقى قضية باللغة الأهمية، وهي غياب مطبوعات هذه المنظمات والهيئات العلمية عن وسائل الإعلام، ففي كل صحيفة ومجلة من صحفنا ومجلاتنا صفحات للأدب والثقافة، ترى فيها أبواباً ثابتة عن «الإصدارات الجديدة»، لكنك لا تطالع من هذه الإصدارات إلا المجموعة القصصية لفلان، والديوان الشعري لفلان، وكأن دنيا العلم والمعرفة قد خلت إلا من هذه القصص وتلك الأشعار، على ما في بعض هذه وتلك من برد وغثاء.

ويبدو أن هذه الإصدارات إنما يسعى بها أصحابها إلى صفحات الجرائد والمجلات، لتصنع لهم شهرة لا تقدم في طريق العلم أو الفن شيئاً.

ولو كانت الأمور تجري على وجهها الصحيح لكان المشرفون على هذه الصفحات الأدبية هم الذين يسعون بأنفسهم إلى جهات النشر، ويتابعون نشاط المطابع في كل مكان وفي كل علم.

وأذكر هنا بما كان يصنعه الشاعر المحقق حسن كامل الصيرفي رحمه الله، في مجلة الكتاب العربي، التي كانت تصدرها الدار المصرية للتأليف والترجمة في منتصف الستينات، فقد كان — وهو مدير تحرير هذه المجلة — يحرر باباً عنوانه: (أخبار الكتاب العربي في العالم)، وكان يبذل فيه جهداً طيباً في ملاحقة أخبار الكتاب شرقاً وغرباً.

ولو كانت الأمور تجري على وجهها الصحيح أيضاً لكان مندوبو الصحف في عواصم العالم هم الذين يزودون صحفهم بالنشاط الفكري والطباعي في البلدان التي يقيمون بها، فما ينبغي أن يكون عمل مندوب الجريدة في الخارج هو متابعة أخبار السياسة، ليس غير. وبذلك كله يكون الكتاب هو الرافد الصحيح للتواصل العلمي بين الأفراد والجماعات.

ولم يبق إلا تقديم أصدق التحية إلى الأستاذ الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري، المدير العام - المثقف المتابع - للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الذي فتح لنا هذه الأبواب من القول.



المتنبى.. وعلم المخطوطات^(١)

يبدو أن أبا الطيب سيظل يملأ الدنيا ويشغل الناس، فما يكاد الأدباء يفرغون من قضية من قضاياها حتى تظهر لهم قضية أخرى.

وكان من سوائف القضية أنني دُعيت من قبل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض حاضرة المملكة العربية السعودية، للقيام بعمل هو من أحب الأعمال إلى نفسي وأعلقها بقلبي، وهو النظر فيما جمعته عمادة شؤون المكتبات بالجامعة، من نواذر المخطوطات ونفائسها، واستصفاء طائفة من تلك النواذر والنفائس، وتقديمها لأهل العلم؛ شاهداً ودليلاً على أنه لا يزال في الزوايا خبايا.

والثدرة أو النفاسة في علم المخطوطات ترجع إلى عدة أمور، منها:

- (أ) أن يكون المخطوط بخط المؤلف، وهي الغاية التي ليس وراءها غاية.
- (ب) أن يكون المؤلف قد أملى المخطوط على أحد تلاميذه فكتبه، وأثبت هو عليه خطه بصحة القراءة عليه، أو سماعه، أو إجازته.
- (ج) أن يمتلك المخطوط أحد العلماء المشهورين، ويثبت عليه خطه بالقراءة أو التملك.

(د) أن يكون المخطوط وحيداً لا توجد منه إلا هذه النسخة.

(هـ) أن يكون المخطوط قديم النسخ.

وهذا هو المعيار العام في تقديم المخطوط، وهو القِدَم والقرب من المؤلف.

(١) مجلة «العربي»، العدد ٤٤٠، يوليو ١٩٩٥ م.

على أن هناك أسباباً أخرى للندرة والنفاسة، ولا يمكن حصرها والإحاطة بها هنا، وإنما يظهر منها الشيء بعد الشيء، ومعرفة ذلك موكولة إلى ثقافة المفهرس، ومعرفته بتاريخ الكتب وحال المطبوع منها، وعن أي أصول خطية حُقق الكتاب، ولا يتأتى هذا إلا بعد دربة وكثرة تفتيش، ومجالسة ومشاهدة أهل العلم، وقد أدركت طائفة منهم كانت أحوال المخطوط والمطبوع من تراثنا عندهم على طرف الثمام.

وقد يُطبع الكتاب ويشيع، وتكثر إفادة الدارسين منه وإحالتهم عليه، ثم تظهر منه مخطوطة تشتمل على زيادات ليست في ذلك المطبوع منه، والأمثلة من ذلك كثيرة، أكتفي منها بمثال واحد: هو شرح ديوان المتنبي للواحدى، والواحدى هو: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد، المتوفى بنيسابور سنة ٤٦٨هـ، وهو عالم بالتفسير والأدب، ومن أشهر تصانيفه: أسباب نزول القرآن الكريم، وتفسيره: البسيط والوسيط والوجيز.

ويعد شرحه لديوان المتنبي من أقدم شروحه وأحسنها، وقد تنبه له المستشرقون منذ زمن بعيد، فنشره المستشرق الألماني فريدرك ديتزسي بمدينة برلين سنة ١٢٧٦هـ - ١٨٦٠م، أي منذ ١٣٥ عاماً، وما زالت هذه هي الطبعة الوحيدة التي بأيدي الناس.

مخطوطة نفيسة :

وقد رأيت من هذا الشرح مخطوطة نفيسة في أثناء عملي بعمادة شؤون المخطوطات بجامعة الإمام محمد بن سعود التي أشرت إليها. وهذه المخطوطة منسوخة سنة ٦٨٠هـ بخط نسخي جيد مضبوط، وكتبت أبيات المتنبي بخط الثلث الكبير.

وفضلاً عن قدم هذه المخطوطة وجودة خطها فقد اشتملت على خاتمة لم تأت في طبعة برلين المذكورة، وهذا نصها، يقول الواحدى :

«هذا آخر ما اشتمل عليه ديوانه الذي رتبته بنفسه، وهو خمسة آلاف وأربعمائة

وأربع وتسعون قافية . وكان الفراغ من هذا التفسير والشرح اليوم السادس عشر من شهر ربيع الآخر، سنة اثنتين وستين وأربعمائة . وإنما دعاني إلى تصنيف هذا الكتاب مع خمول الأدب وانقراض زمانه، اجتماع أهل العصر قاطبة على هذا الديوان، وشغفهم بحفظه وروايته، والوقوف على معانيه، وانقطاعهم عن جميع أشعار العرب، جاهليتها وإسلاميتها، إلى هذا الشعر، واقتصارهم عليه في تمثلهم ومحاضراتهم وخطبهم ومقاماتهم، وحتى كأن الأشعار كلها فُقدت، وليس ذلك إلا لتراجع الهمم وخلو الزمان عن الأدب، وتقاصر الرغبات، وقلة العلم بجوهر الكلام ومعرفة جيده من رديئه، ومطبوعه من متكلفه .

ومع ولوع الناس بهذا الديوان لا ترى أحداً يرجع في معرفته إلى محصول، أو يفي ببيان عن مودعاته وغوامض معانيه ومشكلاته، وإنما المَفْزَع فيه إلى فُسْر [أي تفسير] أبي الفتح ابن جني، وهو في ذلك كقول من قال :

أصبحت ترجو الغوث من قبلي والمستغاث إليه في شُغْلٍ

وأنه اقتصر في كتبه على تفسير الألفاظ، واشتغل بإيراد الشواهد الكثيرة والنحو والغريب، حتى اشتمل كتابه على عَظْم نواذر أبي زيد، وجميع أبيات سيبويه وأكثر مسائله، وزهاء عشرين ألفاً من الأبيات الغربية، وحشاه بحكايات باردة، وأخبار من العرب غريبة نادرة، لا يحتاج في فُسْر هذا الديوان إلى شيء منها . والله تعالى ذكره يتغمدنا وإياه بسعة رحمته، وجميل عفوهِ، إنه الغفور .

فهذه الخاتمة التي انفردت بها تلك المخطوطة أفادتنا عدة فوائد :

(أ) تاريخ فراغ الواحدي من شرحه، وأن ذلك كان قبل وفاته بست سنوات، فيكون قد ألفه وهو في تمام نضجه العلمي .

(ب) ذكره لدواعي تأليفه .

(ج) ما يفهمه الناقد البصير من خبىء هذا الكلام، وكشفه عن رأي الواحدي

في شعر المتنبي جملة، وكأنه يريد أن يقول: إن أبا الطيب لا يستحق كل هذه الضجة، وإنه لا ينبغي أن يحجب شعره بالأوائل.

(د) نقده لشرح ابن جني لشعر المتنبي، وكأنه يريد أن يقول: إن إخضاع الشعر لقضايا النحو واللغة، على نحو ما يصنع ابن جني ومن على شاكلته، لا يكشف عن جوهر الشعر، ولا يستشرف آماده الرحبة الواسعة.

وهذه الفائدة التي جاءت بها مخطوطة شرح ديوان المتنبي، وأُخِلَّت بها مطبوعته، تقودنا إلى أهمية البحث الدائم عن المخطوطات العربية، وعدم الإخلاد إلى الراحة، والتعويل على ما بين أيدينا من المطبوعات.

حاجتنا إلى المخطوطات :

ويأتي السؤال المهم: هل نحن في حاجة إلى مخطوطات جديدة، تكشف عن تراثنا وتجلوه بعد هذا القدر الهائل من المطبوعات، منذ ظهور المطبعة في القرن الخامس عشر الميلادي؟

وأقول: نعم، نحن في حاجة لا تنقطع إلى المخطوطات، وحاجتنا هذه لغائتين:

الغاية الأولى: البحث عن تلك المخطوطات التي تتردد في كتب التراجم والبليوغرافيا، لعلمائنا، ويكثر النقل عنها والإحالة عليها في كتب اللاحقين، ولا نرى لها وجوداً في فهارس المكتبات، مطبوعة أو مخطوطة، والذي يُغرنا بدوام البحث وعدم اليأس: تلك المخطوطات التي تظهر بين الحين والحين وكنا نعتها من المفقودات، وحديث ذلك معلوم عند أهل الاختصاص، ولي في ذلك تجارب أيام عملي بمعهد المخطوطات بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، فقد اكتشفت أشياء من المخطوطات لا يعلم الناس عنها شيئاً، وذلك من خلال رحلات معهد المخطوطات إلى البلدان التي تكثر فيها المخطوطات مثل تركيا والمغرب واليمن وإسبانيا.

والغاية الثانية: أن بعض مطبوعاتنا نشرت عن أصول مجهولة، وقد كان هذا في مراحل الطبع الأولى، قبل أن يستقر علم تحقيق المخطوطات، وقد يسأل سائل: كيف كانت هذه الأصول المخطوطة مجهولة؟ والجواب: أن ناشري الكتب في تلك المراحل الأولى من الطباعة لم يكونوا يُعنون بذكر وصف المخطوط الذي ينشرون عنه، بل إنَّ بعضهم كان يتخلَّص من المخطوط نفسه بعد الفراغ من طبعه، فإن العمال أحياناً كانوا يجمعون من المخطوط نفسه، ولقد رأيت مرة عند بعض باعة الكتب القديمة أوراقاً من كتاب مخطوط، ورأيت آثار يد وأحبار على هذه الأوراق في غير مكان منها، فتعجبت من ذلك، ولكن عجبني زال حين أخبرني ذلك الوراق أن هذه آثار يد الجميع — يعني عامل المطبعة — الذي كان يجمع من المخطوطة مباشرة.

وأيضاً: فإن بعض أصول علمنا — على شهرتها — طبعت عن أصول ناقصة، ومن ذلك معجم الشعراء للمرزباني، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ومعجم الأدباء لياقوت الحموي.

ومن وراء ما ذكرته من نقص المطبوعات وجهالة أصلها، فإن هناك أمراً في غاية الأهمية، وهو أن بعض كتبنا المطبوعة قد ظهرت لها مخطوطات نفيسة توجب إعادة تحقيقها ونشرها، والأمثلة من ذلك بالغة الكثرة، أكتفي منها ببعض ما رأيته بعيني في رحلاتي وأسفاري، ومن ذلك: الكتاب لسيبويه، والصَّحاح للجوهري، والعمدة لابن رشيقي، فهذه الكتب الثلاثة مطبوعة أكثر من طبعة، لكني رأيت منها نسخاً مخطوطة عالية جداً: فمن كتاب سيبويه رأيت أقدم مخطوطة منه، ترجع إلى القرن الرابع، بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء، ومن هذه النسخة نفسها قطعة في مكتبة الإمبروزيانا بميلانو بإيطاليا، وانتقال بعض المخطوطات من اليمن إلى الإمبروزيانا له قصة معروفة عند أهل الشأن والاختصاص.

والصَّحاح للجوهري أصل من أصول المعاجم العربية، وعلم الصرف بوجه خاص، وقد رزق حُظوة في كثرة مخطوطاته ونفاستها مما لم أره لكتاب آخر، ومن ذلك ما رأيته في مكتبات تركيا والمغرب واليمن والسعودية. ونسخة الصَّحاح

المطبوعة زاخرة بالأخطاء والتصحيقات، فيجب إعادة طبعه على هذه المخطوطات النفيسة منه.

والعمدة لابن رشيقي رأيت منه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض مخطوطة تشتمل على الجزء الثاني - وهو آخر الكتاب - بقلم نسخي نفيس عتيق، لا يخرج عن القرن السادس، وكانت هذه المخطوطة في ملك الأديب المصري الشيخ علي الليثي، ثم خرجت من القاهرة واستقرت بالرياض، وكلها بلاد الله، المهم ألا تضيع المخطوطات، ودعك من حديث سرقة المخطوطات وبيعها فهو حديث خرافة.

ماذا عن علم المخطوطات؟

وهذا الذي ذكرته لك أيها القارئ الكريم هو جزء من علم ضخيم هو «علم المخطوطات»، وهذا العلم ذو شعب كثيرة، وقد بدأ الاهتمام به حين استقر علم «تحقيق النصوص ونشرها»، فإن النصوص حين تحقق إنما تعتمد على أصول مخطوطة موثقة، ثم استقل الحديث عنه علماً قائماً بذاته، يتناول قضايا كثيرة: تبدأ بتاريخ التدوين بعد انحسار عصر الرواية، وأدوات الكتابة من أقلام وأحبار، وما يكتب عليه من عشب النخل، وعظام الإبل، واللخاف: وهي الحجارة البيض العريضة الرقيقة، والجلود والرق - بفتح الراء - وهو الجلد الرقيق الذي يؤخذ من بطن الغزلان، وتاريخ ظهور الورق وصناعته، وأماكن وجوده، وأنواعه من الصيني والسمرقندي والمصري والبغداي والمملوكي، ثم ما يتبع ذلك كله من الإملاء والنسخ ومنازل النساخ وطبقاتهم، ثم معرفة منازل النسخ للكتاب الواحد، وتقديم نسخة على أخرى، وفق المعايير التي ذكرتها في مقدمة هذه الكلمة، ومعرفة الخط العربي بنوعيه: المشرقي والمغربى، وتطوره وسمات كل عصر في نوع الخط الذي يشيع فيه، وتوظيف ذلك كله في تقريب زمن كتابة المخطوط عندما يفقد المخطوط تاريخ كتابته، ومعرفة أمراض المخطوطات، من الرطوبة والأرضة، وهي تلك الحشرة الآكلة التي تسمى في بلادنا المصرية: السوس أو العثة - وينطقها العوام

بكسر العين بعدها تاء مثناة من فوق، كما يقلبون الثاء تاء في بعض الكلمات، مثل قولهم: ثعلب بدل ثعلب، والتوب مكان الثوب — وطرق الوقاية من مثل هذه الآفات، واصطناع الوسائل التي تحفظ المخطوطات من البلى، مثل فن الترميم.

ومن ميادين هذا العلم معرفة البلدان التي تكثر فيها المخطوطات، أصالة أو انتقالاً، وحديث المكتبات العامة والخاصة، وما فُهرس منها وما لم يفهرس.

مسار التأليف العربي :

وقد تنازع معرفة هذا العلم والاهتمام به طائفتان من الناس، الطائفة الأولى : هم العلماء المحققون الذين شغلوا بتحقيق المخطوطات ونشرها، والطائفة الثانية : هم نفر من الناس اشتغلوا بهذا العلم جمعاً وفهرسة ليس غير، كما يعنى جامع الآثار بتحصيلها وتهيئتها للدارسين ليس غير، ومن الناس من حاز الفضيلتين وجمع بين الاهتمامين : تحقيق المخطوطات وجمعها وفهرستها، وهذا الصنف من الناس قليل، ولا شك أن من يشتغل بعلم المخطوطات من العلماء المحققين يكون أقدر من غيره على تقييم ما يقع بين يديه من مخطوطات؛ لأنه يعرف مسار التأليف العربي وتطوره خلال العصور، كما أنه يدرك العلائق بين الكتب شرحاً أو اختصاراً أو نقداً أو تذيلاً، فضلاً عن معرفته بالموجود والمفقود من تراثنا، وتاريخ العلماء وتراجمهم وتقلبهم في العالمين، وقد أدركت نفرأ من هذه الطائفة كانوا يعرفون أسماء الكتب ومدخلاتها، وأسماء العلماء وكُنَاهم وألقابهم وأنسابهم، وتاريخ وفياتهم ومبلغ أعمارهم، كما يعرف الناس آباءهم، إلى جانب تلك الحصيلة اللغوية التي تعين على قراءة العسر المعمى من المخطوطات، والخطوة الأولى في الحكم على المخطوط وتقييمه هو قراءته قراءة صحيحة مبرأة من التصحيف، سليمة من التحريف.

وقد كُتِبَتْ في علم المخطوطات دراسات كثيرة تناولت قضاياها كلها، وذلك في المجلات المتخصصة، مثل مجلة معهد المخطوطات بالقاهرة، التي صدر العدد الأول منها سنة ١٣٧٥هـ = ١٩٥٥م وما زالت تصدر بحمد الله، برغم ما تعرض له

المعهد من هزات وتقلبات، ومجلات مجامع اللغة في القاهرة ودمشق وبغداد والأردن، ومجلة المورد العراقية، والمجلات العلمية في المغرب العربي، ومجلات الاستشراق، ثم صدرت فهارس كثيرة للمخطوطات في الشرق والغرب، ترصد المخطوطات وتصنفها وتعرف بها، إلى جانب العاملين الكبيرين في هذا الميدان، وهما: تاريخ الأدب العربي للمستشرق الألماني كارل بروكلمان، وتاريخ التراث العربي للعالم التركي مولداً ونشأة، الألماني جنسية وإقامة، الدكتور محمد فؤاد سزجين.

وقد ارتبط هذا العلم بأسماء كبيرة، أحببت المخطوطات حباً شديداً، وسعت لها سعيها، فصرت لها الجهود، وبذلت في تحصيلها الأموال، تسخيراً من الله عزَّ وجلَّ لحفظ ذلك التراث وحياطته وصيانتها، ويرز هنا عالمان جليلان، أحدهما في المشرق العربي، والثاني في المغرب العربي:

فأما الذي في المشرق: فهو العلامة أحمد تيمور باشا، وهو فرد زمانه وواحد عصره، نشأ في بيت عز ونعيم، ثم صرف همهته إلى العلم والأدب، وجمع مكتبة قيمة حوت كثيراً من نواذر المخطوطات ونفائسها، ضُمَّت بعد وفاته إلى دار الكتب المصرية، وعرفت باسم: المكتبة التيمورية، وقل أن تجد مخطوطة من مخطوطات مكتبته إلا وفي أولها فهرس واف لما تضمه هذه المخطوطة بخطه الدقيق الواضح.

وأما الذي في المغرب: فهو العلامة محمد عبد الحي بن عبد الكبير، المعروف بعبد الحي الكتاني، صاحب «التراتب الإدارية» و«فهرس الفهارس والأثبات» وهو في شيوخه ومروياته عنهم، سافر وارتحل، وحصل كثيراً من المخطوطات، جُمع بعضها في الخزانة العامة (دار الكتب) بالرباط، باسم: المكتبة الكتانية.

ومن وراء هذين العَلمين تأتي أسماء كثيرة أيضاً في هذا العلم، مثل: محمد محمود بن التلاميذ التركي الشنقيطي، وشيخ العروبة أحمد زكي باشا، وهو أول من

استخدم كلمة «تحقيق» في صدر الكتب المنشورة، وهو أيضاً ناشر كتاب «أنساب الخيل» وكتاب «الأصنام» كلاهما لابن الكلبي، وقد جمع مكتبة مخطوطات قيمة عرفت في دار الكتب المصرية بالمكتبة الزكية، ومحب الدين الخطيب العالم الناشر، وهو صاحب المكتبة السلفية، والناشر العظيم ذو الأثر الكبير محمد أمين الخانجي، والعالم التونسي الكبير حسن حسني عبد الوهاب، والفقهاء التطواني بمدينة سلا بالمغرب، وأحمد عبيد بدمشق.

وقد أدركت من تلاميذ هذا الجيل العظيم وورثته اسمين كبيرين: فؤاد سيد عمارة، ومحمد رشاد عبد المطلب.

أما فؤاد سيد، فقد كان أمين المخطوطات بدار الكتب المصرية، وكان هذا الرجل آية في معرفة المخطوطات وقراءتها، وميز صحيحها من زائفها، وعتيقها من محدثها، مع اطلاع واسع وحافظة قوية. وأما محمد رشاد عبد المطلب فقد عمل بمعهد المخطوطات بالقاهرة منذ إنشائه سنة ١٩٤٦م إلى حين وفاته سنة ١٩٧٥م، وقد خرج في بعثات المعهد لتصوير المخطوطات، من القدس والهند وتركيا والمغرب والسعودية، وكان أعجوبة زمانه في معرفة المخطوطات ومطابقتها وجودها، وكان يتحدث عنها حديث العاشق المدلّ بحبها، كما كان له معرفة واسعة بالكتاب المطبوع، زماناً ومكاناً، وفرق ما بين الطباعات.

وقد كان لهذين الرجلين فضل ظاهر على جمهرة الدارسين والباحثين، وأشهد — وقد جلست إليهما زماناً وتعلمت منهما الكثير — أنهما دلاً أعداداً كبيرة من طلبة الدراسات العليا على مصادر وموارد في أبحاثهم لم يكونوا بالغياها إلا بشق الأنفس، بل لعلهم لم يكونوا يقفون عليها لولا عونهما ومساعدتهما.

علماء المخطوطات :

ثم عرفت من علماء المخطوطات غير هذين الكثير، من أمثال صلاح الدين المنجد، وهو سوري تولى إدارة معهد المخطوطات بالقاهرة سنوات، كانت من

أزهى سنوات ذلك المعهد، وكان من أنشط وألمع من تولوا إدارة المعهد، وهو الذي حرك المعهد في أنشطته المختلفة، من تصوير ونشر وفهرسة، وكان أول رئيس تحرير لمجلة المعهد.

ومن المغرب عرفت أسماء كبيرة في علم المخطوطات، مثل محمد العابد الفاسي أمين المخطوطات بمكتبة القرويين بفاس، وكان جبل علم، مات وفي صدره الكثير، ومحمد إبراهيم الكتاني أمين المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط، وله دراسات كثيرة حول علم المخطوطات، وله أيضاً اكتشافات جيدة في نسبة المخطوطات المجهولة إلى أصحابها، أذكر منها هنا اكتشافه لنسبة مخطوطة الجزء الثاني من كتاب «تذكرة النحاة» لأبي حيان الأندلسي، وعبد السلام بن سودة صاحب كتاب «دليل مؤرخ المغرب الأقصى»، والعلامة التقي النقي بقية السلف الصالح الشيخ محمد المنوني، زين المغرب الأقصى، ونور الرباط وبهجتها، جلست إليه ورويت عنه، وهو إلى جانب اشتغاله بعلم المخطوطات باحث عظيم، وله تحقيقات وتصانيف جياذ — وبخاصة في تاريخ المغرب ومظاهر نهضته، ويبدل علمه في سخاء وأريحية لكل من يقصده أو يكاثبه، أطال الله في النعمة بقاءه.

وعرفت أيضاً من علماء المخطوطات: إبراهيم شيوخ بتونس، ومحمد بن شريفة بالمغرب، ومن المملكة العربية السعودية علامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر، وعبد الرحمن بن سليمان العثيمين، ومن اليمن القاضي إسماعيل الأكوع، وأخاه القاضي محمد الأكوع، وعبد الله الحبشي، وهو باحث جيد، ومن العراق أسامة النقشبندي، وقاسم السامرائي، وله اهتمام خاص بتاريخ الورق وصناعته، ومن الكويت عبد الله يوسف الغنيم، وله اهتمام خاص بمخطوطات الجغرافيا العربية، ومن تركيا رمضان ششن.

وإنما استكثرت من ذكر هذه الأسماء — وقد عرفتها من خلال اشتغالي بهذا العلم سنوات ذات عدد — لأدلل على أن علم المخطوطات في عالمنا العربي يرتبط

بأسماء بأعيانها، ومعظم هذه الأسماء إنما ارتبطت بهذا العلم لاهتمامات خاصة، ومن مخاطر الاهتمامات الخاصة أنها تتوقف بتوقف أصحابها، بدواعي التوقف التي لا يمكن حصرها، ومعنى هذا أننا بحاجة إلى تأصيل هذا العلم، ولا سبيل إلى ذلك إلا الجامعات العربية، بأقسام المكتبات بها، أو بمراكزها العلمية، وأعلم أن أقسام المكتبات ببعض كليات الآداب تعنى بتدريس هذا العلم، ولكن بمناهج مخففة، وبالجوانب النظرية فقط، ثم بالاختصار على أساتذة قسم المكتبات فقط، دون الاستعانة بخبراء هذا العلم الذين هم خارج الإطار الجامعي: أقول قولي هذا وأنا أعلم أن لبعض أساتذة أقسام المكتبات بالجامعات علماً بالمخطوطات ولكنهم قليلون، ولا بد من الإفادة من هذه الخبرات التي ليست من أعضاء هيئة التدريس.

كما أنني أعلم أيضاً حديث هذه الحلقات التي تقام بين الحين والآخر لدراسة شئون المخطوطات وقد كثرت هذه الحلقات في السنوات الأخيرة كثرة ظاهرة، ولكن التنسيق بينها مفقود، كما أن الجهود اللاحقة فيها لا تستفيد من الجهود السابقة، فكل في فلك يسبحون.

وأعتقد أن الحلقة المفقودة في مثل هذه الجهود أنها لا تتجه إلى تكوين جيل من الشباب يؤسس على المعرفة الصحيحة ليمضي في هذا الطريق على بصيرة، أما أن تلقى بحوث ومحاضرات يخاطب العلماء فيها بعضهم بعضاً، فهذا ما لا غناء فيه ولا طائل تحته. ومن جهات النقص في مثل هذه الحلقات أن الدول التي تدعى إليها والمؤسسات التي تشترك فيها ترسل في الغالب موظفين بدور الكتب وبالإدارات الثقافية بها، والموظف يحرص على أن يقدم تقريراً، لا أن يُحصِّل علماً.

إن علماء المخطوطات يتناقصون يوماً إثر يوم، بالموت الذي لا يُرد، وبالصوارف التي لا تدفع. وقد مات كثير من علماء المخطوطات وفي صدورهم الشيء الكثير، فبعضهم ضنَّ واحتجن، وبعضهم تراخى وغرَّه طول الأمل. ولهذا

فإني أدعو كل من أنعم الله عليه بشيء من هذا العلم أن ينشره ويذيعه، فإن الموت لا موعده له، وعلمه عند علام الغيوب.

ثم إنه من أوجب الواجبات على جامعاتنا العربية أن تعتني بهذا العلم، وتجعل له من ميزانيتها نصيباً مفروضاً، وأن تستثمر من بقي من خبراء هذا العلم، لتخرج عليهم أجيال جديدة، تمضي في الطريق وتكمل المسيرة، فلا ينقطع مدد هذا العلم الذي هو الأساس لاكتشاف المغيب من تراثنا، وتأكيد الثقة بما سلم لنا منه، من عوادي الناس والأيام.



تم القسم الأول من مقالات
العلامة الدكتور محمود محمد الطناحي
ويتبعه القسم الثاني وفيه :
تتمة مقالاته رحمه الله تعالى

هذه النقطة.. وقضية التصحيف والتحريف^(١)

كتب الأستاذ سامح كريم بصفحة الأهرام الأدبي ١٩٩٥/٨/١ كلمة أشار فيها إلى ذلك الخطأ الذي جاء في امتحان اللغة العربية (سؤال البلاغة) للثانوية العامة هذا العام، حيث جاء بيت أحمد شوقي:

ولم أخل من وجدٍ عليك ورقة إذا حلَّ عيد أو ترَحَّل عيد

بالعين المهملة في الكلمتين، والصواب «غيد» بالعين المعجمة.

وفي ظني وتقديري أن الذي أوقع في هذا الخطأ هو مجيء الفعل «حل» خالياً من تاء التأنيث، فظن واضع السؤال أن الكلمة لو كانت «غيد» بالعين المعجمة، للحقت التاء الفعل، فكان يكون «حلت»، لأن «الغيد» جمع «غيداء» وهي المرأة الممتشية من اللين، ومن ذلك: الغادة، وهي الفتاة الناعمة، ولو قال الشاعر «حلت» لاختل الوزن. وقد نسي واضع السؤال أو مراجعه أن الفاعل إذا كان مجازي التأنيث، جاز ترك تأنيث فعله.

ومهما يكن من أمر، فهذه النقطة التي سقطت من فوق الغين لها تاريخ في تراثنا الأدبي قديماً وحديثاً.

روي أن سليمان بن عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي كان غيوراً، فقليل له: إن المختشين قد أفسدوا النساء بالمدينة، فكتب إلى أبي بكر بن عمرو بن حزم

(١) مجلة «الهلال»، سبتمبر ١٩٩٥ م.

والي المدينة «أن أحص من قبلك من المخنثين» يريد إحصاء بأسمائهم. فلما وصل الكتاب إلى ابن حزم صحف كاتبه فقرأ «أحص» بالخاء المنقوطة من فوق.

قال الراوي: فدعا ابن حزم بمن عرف من المخنثين — وكانوا ستة أو سبعة — فخصاهم، قال ابن جعدبة: فقلت لكاتب ابن حزم: زعموا أنه كتب إليه: أن أحصهم. فقال: يا ابن أخي، عليها والله نقطة إن شئت أريتكها. وقال الأصمعي: عليها نقطة مثل سهيل — وهو النجم المعروف — . ورؤي أن أحد المخنثين قال لما اختلفوا في الحاء والخاء، لا أدري ما حاؤكم وخاؤكم، قد ذهبت خُصانا بين الحاء والخاء. انظر لهذه القصة: تصحيفات المحدثين لأبي أحمد العسكري ٧٢/١، وشرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف، له أيضاً ص ٤٣، والتنبيه على حدوث التصحيف لحمزة بن الحسن الأصفهاني ص ١٠، وتصحيح التصحيف وتحريف التحريف لصلاح الدين الصفدي ص ١٧، والحيوان للجاحظ ١٢١/١.

ولا ينبغي التشكيك في هذه القصة، لأنها مروية بأسانيدها، ولأن هؤلاء الذين خصوا معروفون بأسمائهم، ويقال في ترجمة كل منهم: «وهو ممن خُصي بالنقطة». انظر مع المراجع السابقة الأغاني لأبي الفرج ٢٧٦/٤ (طبعة دار الكتب المصرية). فهذه أشهر نقطة، صنعت ما صنعت قديماً.

أما النقطة الثانية فكانت في أوائل الستينات من هذا القرن، حين كتب الدكتور لويس عوض في الأهرام، على امتداد شهري أكتوبر ونوفمبر ١٩٦٤م، سلسلة مقالات حول أبي العلاء المعري ورسالة الغفران، وجعل عنوانها: «على هامش الغفران شيء من التاريخ»، وفي بعض هذه المقالات أورد الدكتور لويس من شعر أبي العلاء قوله:

صَلَّيْتُ جُمْرَةَ الْهَجِيرِ نَهَاراً ثُمَّ بَاتَتْ تَغْصُ بِالصُّلْبَانِ
هكذا أثبت الدكتور قافية البيت «الصلبان» بباء منقوطة بنقطة واحدة، على أنها جمع «صليب»، وكتب تحت البيت «سقط الزند في وصف حلب»، وساق الكلام كله في بيان غلبة نصارى الروم على أهل الإسلام.

وصحة رواية البيت كما جاء في سقط الزند ٤٥١/١ - وبها تمام وزنه -
«الصِّلَّيَان» بالصاد المكسورة بعدها لام مشددة، مكسورة أيضاً، ثم ياء مثناة من
تحت، أي بنقطتين اثنتين. وأبو العلاء يذكر في هذا البيت الإبل، ويصف ما لاقته
نهاراً في البداء من هجير وظمأ، وما رعت ليلاً من صِّلَّيَان، وهو نبت له جذور
ضخمة في الأرض، تجتثها الإبل بأفواهها فتأكلها من شدة حبها لها، فإذا كانت رطبة
أساغتھا، وإذا كانت يابسة غصّت بها، أي شرقت.

وقد فجرت هذه القضية بركان غضب عند شيخ العربية أبي فهر محمود محمد
شاكر، وأدار عليها كتابه الفذ الدامغ (أباطيل وأسمار).

فهذان مثالان على البلايا التي جرّتها النقطة، زيادة أو نقصاً.

وفي الرد الذي أرسلته وزارة التربية والتعليم ونشر في الأهرام ١٩٩٥/٨/٨
اعتذار عن الخطأ في «غيد» التي كتبت «عيد»، وتسويغ له بأنه راجع إلى ظاهرة
«التصحيف والتحريف»، وهذا خلط شديد ومغالطة صريحة كما ورد في تعقيب
الأستاذ سامح كريم.

فهذا الذي جاء في سؤال البلاغة في امتحان الثانوية العامة، إنما يرجع إلى
الغفلة وعدم المراجعة، وترك الثبوت، ولا صلة له بقضية التصحيف والتحريف، لأن
هذه القضية لها وجه آخر، وقد كتب فيها أهل العلم قديماً وحديثاً، ووضعت فيها
مؤلفات كاملة، وأشهرها ما ذكرته في صدر هذه الكلمة في قصة خصاء المخنثين.

وأخطر ما في هذه القضية أن بعض الذين يكتبون فيها الآن يردون «التصحيف»
كله إلى طبيعة الحرف العربي الذي يتشابه مع عدم النقط، وهذا غير صحيح، لأننا
نجد كلمات كثيرة منقوطة نقطاً واضحاً لا لبس فيه، ومع ذلك تقرأ على غير وجهها،
وهذا هو مفتاح القضية، إن كثيراً مما يتصحّف من الكلام إنما يأتي نتيجة
للغفلة، أو الجهل بتاريخ أمتنا وعلومها، وتاريخ رجالها، وكل ما أبدعته وأنتجته،
ومن قبل ذلك ومن بعده عدم إعطاء الكلام حقه من التأمل والأناة، يؤكد هذا قول

أبي أحمد العسكري — وهو خال أبي هلال صاحب كتاب الصناعتين، وكتاب ديوان المعاني — يقول أبو أحمد: «فلاحتراس من التصحيف لا يدرك إلا بعلم غزير، ورواية كثيرة، وفهم كبير، وبمعرفة مقدمات الكلام، وما يصلح أن يأتي بعدها مما يشاكلها، وما يستحيل مضامته لها ومقارنته بها، ويمتنع من وقوعه بعدها، وتمييز هذا مستصعب عسر إلا على أهله الحاملين لثقله والمستعذبين لمرارته، وقد قالت الحكماء: العلم عزيز الجانب، لا يعطيك بعضه أو تعطيه كلك، وقالوا: لا يدرك العلم براحة الجسم»، شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص ٢٠١.

هذا وقد عرّف العلماء التصحيف والتحريف بتعريفات شتى، أعدلها وأقربها إلى الصواب ما قيل من أن التصحيف: هو تغيير في نقط الحروف أو حركاتها مع بقاء صورة الخط، مثل كلمة «الغيب» التي يمكن أن تقرأ هكذا، وتقرأ أيضاً: الغيث — العنب — الغيب — العتب. فلو أهمل النقط في هذه الكلمة لأمكنك تحديد المراد عن طريق السياق والقرائن واللفظة، على الوجه الذي بيّنه أبو أحمد العسكري.

وأما التحريف: فهو العدول بالشيء عن جهته، قال عزّ من قائل: ﴿مَنْ أَلْزَيْنَ هَادُواً يَحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦]، وقال تقدست أسماؤه: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

والتحريف قد يكون بالزيادة في الكلام أو النقص منه، وقد يكون بتبديل بعض كلماته، وقد يكون بحمله على غير المراد منه، فهو بكل هذه التعريفات أعم من التصحيف، وبعض القدماء لا يفرق بين التصحيف والتحريف، يجعلهما مترادفين. راجع الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير. شرح الشيخ أحمد محمد شاكر ص ١٧٢.

والمأخذ اللغوي لمصطلح «التصحيف» يرجع إلى الأخذ عن الصحف، دون التلقي من أفواه المشايخ، لأن علومنا في الأصل قائمة على التلقي والرواية والمشافهة.

وقد كتبت رسالة في «التصحيف والتحريف» حاولت فيها أن أجمع أسباباً لحدوث هذه الظاهرة، وقد انتهيت إلى عشرة أسباب، يدور معظمها حول الجهل بغريب اللغة ومعانيها ولغات القبائل ولهجاتها، وخداع السمع، وخفاء معنى الكلمة على الناسخ أو القارئ، فيعدل بها إلى كلمة مأنوسة مألوفة تتفق حروفها أو تتقارب مع الكلمة الغامضة، ثم الجهل بأنماط التعبير عند القدماء، والجهل بمصطلحات العلوم، وأسماء البلدان، ثم الإلف والعادة، وضربت لذلك كله الأمثال، من الكتب المطبوعة، وأحاديث الناس ومحاضراتهم، مما لا يتسع المقام لذكره هنا.

التصحيف . . وتغيير التنقيط :

وتبقى قضية خطيرة جداً، أرجو من قارئتي الكريم أن يمنحني شيئاً من وقته واهتمامه، وأنا أدعوه بالسلامة والعافية إن شاء الله :

لقد جاء في رد وزارة التعليم الذي نشرته الأهرام يوم الثلاثاء ٨/٨/١٩٩٥م في الاعتذار عن الخطأ الواقع في شعر أحمد شوقي، هذا الكلام : ما حدث من خطأ يعود كما يعرف أهل اللغة إلى ظاهرة شائعة في تراثنا العربي تسمى «التصحيف»، وكما يعرف الجميع أن المقصود بالتصحيف هو تغيير التنقيط من حيث الوجود والعدم، وهي ظاهرة تتكامل مع ظاهرة أخرى تسمى «التحريف» وتؤدي إلى اختلاف موضع التنقيط بين حروف الكلمة، ومن أشهر الأدلة على ذلك في تراثنا القراءة المشهورة للآية الكريمة في سورة الحجرات رقم ٦ : ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِبَلَاٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهَلَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (٦)، حيث تقرأ «فتبينوا» كما قرئت «فتبينوا» أما في الشعر العربي فهناك الآلاف من الأبيات التي رويت بروايات متعددة جميعها صحيح من حيث الوزن وإن اختلفت من حيث الكلمة والشكل والمعنى والدلالة، ويتضمن ذلك بديهيّاً ظاهرتا التصحيف والتحريف .

وهذا كلام واه ضعيف، بل قل : إنه كلام لا وزن له، وأمسك القلم عن الاسترسال في وصفه، ولكنني أحب أن أسأل : كيف يتأتى وصف ظاهرة «التصحيف»

بأنها شائعة في تراثنا العربي؟ وما هو هذا الشيع، وما هي نسبته أمام التراث العربي المقطوع بصحته وسلامته؟ وما حقيقة هذه الآلاف من الأبيات التي رويت مصحفة؟ ألا يسقط هذا الكلام الثقة في تراثنا الشعري والنثري كله؟ ثم بأي وجه وبأي لسان تلقى أبناءنا وطلابنا في فصول المدارس ومدركات الجامعات، بعد هذا التشكيك الذي نشر في أكبر صحفنا وأوسعها انتشاراً.

ولنترك هذا كله، ولنقف عند أبشع شيء وأغلظه، وهو ذلك الكلام: «ومن أشهر الأدلة على ذلك في تراثنا القراءة المشهورة للآية الكريمة في سورة الحجرات رقم ٦: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا...﴾، حيث تقرأ «فتثبتوا» كما قرئت «فتبينوا»!!! لا يا قوم، توبوا إلى بارئكم، واتقوا ربكم واخشوا يوماً ترجعون فيه إلى الله.

إن إيراد الكلام على هذا النحو وفي ذلك السياق والاستدلال يعطي بصريح اللفظ أن القراءتين «فتبينوا» — «فتثبتوا» أثر من آثار التصحيف، ثم لنا أن نسأل: من الذي صحف في هذه الآية الكريمة؟ أو: من هو المصحف الأول الذي تبعه الناس منذ نزول القرآن الكريم إلى يوم الناس هذا؟ ثم ما هي القراءة الأصل وما هي القراءة المصحفة، فإن كل تصحيف له أصل عدل عنه؟ وثم وثم وثم...

يا أيها الناس، إن القراءة سنة وأثر ورواية واتباع، وليست لغة يلعب بها الناس مهما بلغ مبلغهم من العلم. روى الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء، قال: «لو تهياً لي أن أفرغ ما في صدري من العلم في صدرك لفعلت، لقد حفظت في علم القرآن أشياء لو كتبت ما قدر الأعمش على حملها، ولولا أنه ليس لي أن أقرأ إلا بما قرىء به لقرأت كذا وكذا، وذكر حروفاً»، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار للحافظ الذهبي ١/١٠٢، ١٠٣.

وأبو عمرو ابن العلاء هو أحد القراء السبعة، وكان إماماً في اللغة والنحو، ثم كان راوية لذي الرمة الشاعر المعروف الذي يقال إن شعره ثلث لغة العرب. وقول أبي عمرو: «ليس لي أن أقرأ إلا بما قرىء به»، يريد: أي بما جاءت به الرواية

المسندة إلى رسول الله ﷺ، فليست القراءة عن رأي واجتهاد، ليقرأ كل قارىء بما يرتاح إليه أو بما يمشي مع قواعده، وليس كل ما يجوز في العربية والنحو تجوز به القراءة، وقد شدد أهل العلم في ذلك، وكان أكثرهم تشديداً ونكيراً أبو إسحاق الزجاج رحمه الله، وكرّره في أكثر من موضع في كتابه (معاني القرآن وإعرابه) فمما قاله في الجزء الثالث ص ٢٨٨: «والأجود اتباع القراء ولزوم الرواية، فإن القراءة سنة، وكلما كثرت الرواية في الحرف وكثرت به القراءة فهو المتبع، وما جاز في العربية ولم يقرأ به قارىء فلا تقرآن به، فإن القراءة به بدعة، وكل ما قلّت فيه الرواية وضعف عند أهل العربية فهو داخل في الشذوذ، ولا ينبغي أن تقرأ به»، وانظر أيضاً ص ٤٥ من الجزء الأول من كتاب الزجاج هذا، ففيه كلام عال نفيس عن اتباع السنة والرواية في قراءة القرآن الكريم.

وقال القرطبي في تفسيره ٤/٥: «والقراءات التي قرأ بها أئمة القراء ثبتت عن النبي ﷺ تواتراً يعرفه أهل الصنعة، وإذا ثبت شيء عن النبي ﷺ، فمن ردّ ذلك فقد ردّ على النبي ﷺ، واستقبح ما قرأ به، وهذا مقام محذور، ولا يقلد فيه أئمة اللغة والنحو، فإن العربية تتلقى من النبي ﷺ، ولا يشك أحد في فصاحته».

فإذا ثبت هذا — وهو ثابت إن شاء الله — فإن كلتا القراءتين في آية سورة الحجرات مروية عن رسول الله ﷺ، وهما في اصطلاح القراء قراءتان سبعيتان، بأيهما قرأ القارىء أصاب السنة وأحرز الأجر، وليست إحدى القراءتين مصحّفة عن الأخرى، تعالى الله وتعالى كلامه عما يقولون علواً كبيراً.

وقد قرأ «فتبينوا» بالتاء الفوقية والباء الموحدة والياء التحتيّة والنون: ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر، وقرأ «فتثبتوا» بالتاء الفوقية والتاء المثلثة والباء الموحدة والتاء الفوقية: حمزة والكسائي، قال الإمام الجليل أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: «والقول عندنا في ذلك أنهما قراءتان معروفتان مستفيضتان في قرأة المسلمين بمعنى واحد، وإن اختلفت بهما الألفاظ، لأن «المتثبت» متبيّن، و«المتبين» مثبت، فبأي القراءتين قرأ القارىء فمصيب صواب القراءة في ذلك»

تفسير الطبري ٨١/٩، وراجع: السبعة في القراءات لابن مجاهد ص ٢٣٦، والحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي ١٧٣/٣، وإعراب القراءات السبع وعللها لابن خالويه ١٣٦/١، والكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي بن أبي طالب ٣٩٤/١، والنشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢٥١/٢، والبحر المحيط لأبي حيان النحوي ٣٢٨/٣، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ٧٣/٤.

ويلاحظ أن علماء القراءات والاحتجاج يذكرون هاتين القراءتين عند الآية ٩٤ من سورة النساء وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرِئْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَيِّنُوا﴾، وعند آية سورة الحجرات المذكورة يحيلون على موضع سورة النساء، وهذا هو منهجهم إذا تكررت القراءة، يذكرون اختلاف القراء في الموضع الأول، ثم يحيلون في الموضع الثاني إليه.

أرأيت أيها القارئ الكريم — نفعلك الله بما تقرأ، وعمر قلبك باليقين، وأزال عنك الشبهة، وجنبك الضلالة، وحرسك بالتوفيق — هذا هو القول الحق في القراءتين: «فَبَيِّنُوا — فَتَبَيَّنُوا» قراءتان صحيحتان مرويتان بالسند الصحيح إلى رسول الله ﷺ، لا دخل للتصحيح أو التحريف فيهما، ولكل قراءة محمل ووجه من العربية، يذكرهما أهل الاحتجاج من علماء القراءات والعربية، لكن هؤلاء العلماء — وهذا مهم جداً — لا يحتجون للقراءة إلا بعد ثبوتها رواية، وقد ذكر مكي بن أبي طالب — وهو من علماء الفن — ضوابط القراءة المقبولة، وحصرها في ثلاث:

١ — أن ينقلها الثقات عن النبي ﷺ.

٢ — أن يكون لها وجه صحيح شائع من العربية.

٣ — أن تكون موافقة لخط المصحف الإمام، أي الرسم العثماني. راجع الإبانة عن معاني القراءات ص ١٨، ونظم ذلك الإمام ابن الجزري في مقدمة منظومته المسماة: طيبة النشر في القراءات العشر، قال رحمه الله:

فكل ما وافق وَجْهَ نحو وكان للرسم احتمالاً يحوي
وصحَّ إسناده هو القرآن فهذه الثلاثة الأركان

وبعد: فيا أيها الوزير الفاضل الهُمام الأستاذ الدكتور حسين كامل بهاء الدين،
راعي التعليم في ديارنا المصرية: صَبَّحَكَ اللهُ بكل خير إن قرأت هذا الكلام في
الصباح، وختم يومك بكل خير إن قرأته في المساء، لقد أسعدتنا وأثلجت صدورنا
حين أعلنت في صحيفة الأهرام أنك ستعاقب كل من اشترك في وضع أو مراجعة
أو تقييم سؤال البلاغة الخاطيء، واليوم أسألك بل أطلبك — وأرجو أن تتقبل مني
هذا التعبير برحابة صدرك المعروفة وسماحة وجهك المألوفة — نعم أطلبك أن توقع
أشد العقاب وأقساه على من تجرأ على كتاب الله، وأقحم هذه الآية الكريمة: ﴿يَتَأْتِيَ
الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ نَبِيٌّ فَتَّبِعُوا﴾ في الاعتذار عن خطأ لا يعتذر عنه ولا يتسامح
فيه.

نعم أطلبك يا معالي الوزير النبيل بتوقيع هذه العقوبة وإعلانها في صدر
صحفنا الكبرى، لأن الأمر يتصل بكتاب ربنا عزَّ وجلَّ، وهو أعز ما نملك، ثم هو
من قبل ومن بعد كتاب العربية الأكبر.

وَفَّقَكَ اللهُ وأنجح أعمالك كلها، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

السيرة الذاتية.. والصدق مع النفس^(١)

[١]

كتب الأستاذ صلاح عيسى في عدد الهلال «مايو ١٩٩٥» كلمة، جعل عنوانها: «السيرة الذاتية، السؤال الذي لم يجب عنه أحد»، وقد عرض في هذه الكلمة لقلة كتب السيرة الذاتية في المكتبة العربية، ورد هذا إلى أننا «نحن العرب نعيش في ظل منظومة معلنة من القيم الخلقية الاجتماعية تتصف بالترمت، وتظاهر جميعاً باحترامها، مع أنها تتناقض عادة مع منظومة القيم الخلقية الفردية التي يؤمن بها كل منا، ويمارس حياته على أساسها، ومع ذلك فهو يحرص على أن يقدم نفسه للآخرين في الصورة التي تكفل رضاءهم عنه، بصرف النظر عن حقيقته، حتى أصبح ذلك قاعدة يقنننها المثل الشعبي الذي يقول: «كل ما يعجبك، والبس ما يعجب الناس»، ثم استطرد بعد ذلك إلى صور من النفاق الاجتماعي، قال عقبها: «وهذا هو الذي جعل الأدباء والساسة العرب يعزفون عن كتابة سيرهم الذاتية بنفس الصراحة والصدق اللذين كتب بهما جان جاك روسو اعترافاته».

وهذا كلام يردده الناس كثيراً، ويعجبون به، ويرضون عن قائله، لكنني قبل أن أستطرد إلى مناقشته وبسطه والزيادة فيه أحب أن أوضح أن المثل الشعبي «كل ما يعجبك، والبس ما يعجب الناس» ليس كما فهم الكاتب الفاضل مسوغاً «ولا تقل مبرراً» للنفاق الاجتماعي، وإرضاء الناس ليس غير، وإنما معناه عندي: أن يحرص

(١) مجلة «الهلال»، يناير ١٩٩٦م.

الإنسان في ملبسه على رعاية الذوق العام، وعدم مصادمة العرف الاجتماعي، وإن لم يصح هذا الفهم والتفسير يكون الكلام ساقطاً لا محالة، لأن إنساناً مهما جهد واجتهد لا يستطيع أن يلبس لباساً يرضي كل الناس.

مثل قديم :

وقد ذكر هذا المثل أحمد باشا تيمور، في كتابه الأمثال العامة، صفحة ٤٠٤، وقال في تفسيره: «لأن ما تأكله تابع لشهوة نفسك، وأما ما تلبسه فالمراد به التزين للناس، فليكن على ما يعجبهم». وأرى أن أحمد تيمور قد قصّر أيضاً في بيان حقيقة معنى هذا المثل، حين أغفل قضية رعاية الذوق العام، وعدم مصادمة العرف الاجتماعي، وهما المقصد والغاية من هذا المثل.

فائدة: قد يظن بعض الناس أن هذا المثل الشعبي: «كل ما يعجبك، والبس ما يعجب الناس» مثل معاصر، أو قريب من المعاصرة، والحقيقة أنه كلام قديم عمره نحو «١٤٠٠ سنة» فهو من كلام أبي عمرو بن العلاء، إمام العربية، وأحد القراء السبعة، المتوفى ١٥٤هـ، مع اختلاف في بعض العبارات، فقد روي أنه نظر إلى بعض أصحابه وعليه ثياب مُشَهَّرَة، فقال: «يا بني، كل ما تشتهي والبس ما يشتهي الناس»، والثياب المُشَهَّرَة: الفاضحة المفضوحة، وقد نظم هذا المثل بعض الشعراء القدامى، فقال:

إن العيون رمتك من فجآتها وعليك من شُهرِ اللباس لباسُ
أما الطعام فكل لنفسك ما اشتئت والبس ثيابك ما اشتهاه الناس

انظر: المثل والشعر في لطائف الظرفاء، للثعالبي ص ٥٢، وبهجة المجالس لابن عبد البر ٥٨/٢، والكشكول، لبهاء الدين العاملي ٤٠٤/٢.

ثم لنعد إلى ما فتحه أماننا الأستاذ صلاح عيسى، فأقول: إن حب النفس مركز في الطباع، ثابت في أصل الخلقة، فطرة فطر الله الناس عليها، يستوي فيها العربي والعجمي. ولا بأس على الإنسان أن يستر عيوب نفسه، ما دام ذلك الستر

لا يضر غيره بإبطال حق أو إحقاق باطل، وما أصدق كلمة الأستاذ إحسان عبد القدوس رحمه الله: «إني لا أكذب ولكن أتجمل»، فالتجمل مطلوب، أما الكذب فمرفوض، ومن أسوأ مظاهر الكذب: الكذب مع النفس، بأن يطوي الإنسان نفسه على شيء، ويقابل الناس بشيء آخر، وهو داء معروف في كل الأزمان والعصور، لكنه زاد في أيامنا هذه، لأسباب ودواعٍ كثيرة، يعرفها الناس ولا يجهلونها.

على أن بعض الناس قد يتظاهر بأنه يجري في طريق الإنصاف وهضم النفس، فيزعم أنه يعرض على الناس شيئاً من عيوبه ومساوئه، ولكنه يترفق في ذلك ترفقاً واضحاً، بل إنه يخادع، فيقول: إن من أشد عيوبي الثقة الزائدة بالناس، أو إن من مساوئي التفريط في حقوقي، وبذل حبي لمن لا يستحقه من الناس، وهذه كلها ضروب وألوان من خداع النفس، لأنه كلام صدره ذكر العيوب والمساوىء، وعجزه ضارب في مدح الذات بعروقه، فهو من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم، كما يقول سادتنا البلاغيون، ولعل كثيراً من السير الذاتية التي نقرأها في هذه الأيام من هذا الباب، فضلاً عما في بعضها من ثلب للآخرين وتجريحهم.

على أننا لا ننتظر ممن يكتبون سيرتهم الذاتية أن يكشفوا لنا عن عيوبهم الفاضحة، ويطلعونا على عوراتهم ومساوئهم القاذحة، لأن هذا يصادم موروثاتنا الدينية وأعرافنا الأخلاقية، ثم إنه من النبالة والمروءة أن تسكت أنت عن ذكر سوءاتك، ويسكت الناس عن ملاحقتك واستنطاقك بما تكره، وفي هذا وذاك نعود إلى موروث ديني:

فمن الأول: ما أخرجه مسلم في صحيحه «باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه من كتاب الزهد والرقائق» من حديث أبي هريرة، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل أمتي معافاة إلا المجاهرين، وإن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملاً، ثم يصبح قد ستره ربه، فيقول: يا فلان، قد عملت البارحة كذا وكذا، وقد

بات يستره ربه، فبييت يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه» صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ص ٢٢٩١.

ومن الثاني: ما أخرجه أحمد في مسنده، من حديث أبي برزة الأسلمي، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته»، مسند أحمد ٤/ ٤٢١، وأخرجه مرة أخرى من حديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ، بلفظ: «لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم، ولا تطلبوا عوراتهم، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته»، مسند أحمد ٦/ ٢٧٩.

أما ما يطلبه الأستاذ صلاح عيسى، من أن يكتب العرب سيرهم الذاتية بنفس الصراحة والصدق اللذين كتب بهما «جان جاك روسو» اعترافاته، فهذا ليس عدلاً، وليس إنصافاً، مع ما فيه من إغفال للموروث الديني، فجاء جاك روسو ومن إليه من سائر القوم يرجع إلى بيئة مختلفة عن بيئتنا، وأعراف اجتماعية مباينة لأعرافنا، وموروث ديني يغاير موروثنا.

وليس يخفى أن مصطلح «الاعترافات» عند القوم له دلالة خاصة ترتكز على أساس ديني، وتتطلب إجراءات ووسائط يعرفها الناس، أما في موروثنا الديني فالأمر في غاية اليسر والسهولة، فما عليك إلا أن تكاشف نفسك في لحظة صدق، وحدك منفرداً، تبسط أخطئك وخطاياك أمام عينك، ناوياً البراءة منها، والخلاص من أثقالها، طالباً من ربك — ليس بينك وبينه حجاب — العون على تجاوزها، معاهداً له على عدم العودة إليها، فإذا صح منك العزم واستجبت للبراءة والتوبة في ظاهر أمرك وباطنه، خرجت من ذنوبك كلها كيوم ولدتك أمك، وليس للناس بعد ذلك حاجة في أن يعرفوا ما كان منك وما صرت إليه، فحسبهم منك الوجه الطيب والعمل الزاكي.

ويبقى في كلام الأستاذ صلاح عيسى ما ينبغي الوقوف عنده، والاحتفال به، وهو «الصدق» فيما يكتبه الناس من سيرهم الذاتية.

والصدق فضيلة الفضائل، وعنوان الشرف والكمال، به يسمو الإنسان أمام نفسه، وعليه يعظم في أعين الناس وإليه يعود صلاح المجتمع، وجاء في الأثر: «الصادق يعطى ثلاث خصال: المُلحة والمحبة والمهابة»، والمُلحة بضم الميم وسكون اللام: البركة، يقال: كان ربيعنا مملوحاً فيه: أي مخصباً مباركاً، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٣٥٤/٤، روي شبيهه عن الزاهد الكبير يوسف بن أسباط قال: «للصادق ثلاث خصال: الحلاوة والملاحة والمهابة»، سير أعلام النبلاء، للذهبي ١٧٠/٩.

وبعض الذين يكتبون سيرهم الذاتية يستطردون مع شهوة الحديث عن النفس إلى ذكر محاسن ومآثر لهم، في مواقف ووقائع، يضخمونها وينفخون فيها، غير مدركين أن هناك من الناس من شهد هذه المواقف، وعاش تلك الوقائع، وغير متنبّهين إلى أنهم ربما نقضوا كلامهم ذلك في مكان آخر مما كتبوه في سيرهم الذاتية أو في غيرها، فكان واجباً عليهم أن يتذكروا هذا المثل الحكيم من أمثال العرب: «إن كنت كذوباً فكُن ذكوراً»، ويروى: «كُن ذكوراً إذا كنت كذوباً» مجمع الأمثال للميداني ٧٤/١، ١٧٣/٢، وقد نظمه شاعر فقال:

تَكْذِبُ الكَذْبَةَ جَهْلًا ثُمَّ تَنْسَاهَا قَرِيْبًا
كُنْ ذَكُورًا لِلَّذِي تَخْشَى إِذَا كُنْتَ كَذُوبًا
جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري ٣٩٦/٢.

وأعلى مراتب الصدق: الصدق مع النفس، ومظاهر الصدق مع النفس كثيرة، وجماعها ألا يخالف الظاهر الباطن، وألا يصادم السر العلن.

ويقراً الناس في تراثنا، على اختلاف علومه وفنونه، كلاماً كثيراً، منظوماً ومثوراً، عن الصدق وفضائله، في نصوص عالية موثقة، لكنها تظل نصوصاً مجردة، يصدقها من يصدقها، ويكذبها من يكذبها، وتبقى ممارسات الناس وحدها شاهداً ودليلاً على التزامهم أبواب الصدق، وتحريمهم وجوهه ودروبه.

الجزئي دون الكلّي !

وهذه الممارسات مطروحة في كتب التاريخ: تراجم وأحداثاً، وفي كتب الأدب والأخبار، بل في سائر ما كتبه العرب في علومهم المختلفة، ومن المؤسف أن هذه الممارسات التي تمتلئ بها كتبنا ومعارفنا لا يقف الناس الآن عندها كثيراً بحسن التأمل والنظر، بل إنها عند بعض الناس ألوان من النوادر والمسامرات التي تستخرج الضحك ليس غير، بل إن بعضهم قد يسرف في «التفلسف» فيرى أنها ممارسات مصنوعة، في أخبار يراد بها إضحاك الخلفاء والملوك، للحظوة عندهم وأخذ عطاياهم، وأن هذه الممارسات والأخبار إن صدقت فهي لا تخرج عن اهتمام العقل العربي بالجزئي دون الكلّي، وهو كلام قد مللنا من الرد عليه، وهو في جملته لا يدل إلا على عدم المعرفة بكتبنا وتاريخنا.

ولو أردت أن أكتب لك أيها القارئ الكريم ما وقفت عليه من هذه الممارسات المطروحة في الأخبار، لاحتجت إلى مجلّدات وأسفار، فحسبي أن أجتزئ هنا ببعضها، لكن لي عليك أيها القارئ العزيز شرط واحد: هو أن تعطي هذه الأخبار حظها من التأمل والتدبر، وأن تتنبه لذلك الخيط الذي يربط بينها، وسيُفضي بك هذا الخيط - إن شاء الله - إلى روح هذه الحضارة العربية القائمة على الصراحة والوضوح، وشرط آخر: ألا تظن أنني أريد أن أسلّيك أو أضحكك بهذه النوادر، وإن كنت أدعو لك أن يضحك الله سنك، ويسط أساريك.

وبعض هذه الأخبار مما وعته صدور الرواة من عربية الجاهلية، وكثير منه من عربية الإسلام.

وإذا كانت مظاهر صدق النفس كثيرة، وصورها شتى، فإن أولاهها بالعناية وأحقها بالتأمل: ما يتصل منها بالاعتراف بالخطأ والرجوع إلى الصواب، والإنصاف في الحكم، ولو كان مما يجر إلى الانتقاص من النفس، وهو ما يسميه الناس الآن: الموضوعية ونقد الذات.

ومن أقدم ما عُرف من صور الإنصاف في تاريخنا الأدبي، ما يسمى في تاريخ الشعر بالمنصفات، ويسميتها الجاحظ «الأشعار المنصفة» البيان والتبيين ٢٣/٤. والأشعار المنصفة: «هي القصائد التي أنصف قائلوها أعداءهم فيها، وصدقوا عنهم وعن أنفسهم فيما اصطَلَوْه من حَرِّ اللقاء، وفيما وصفوه من أحوالهم في إمحاض الإخاء»، خزنة الأدب للبغدادى ٣٢٧/٨.

فالشاعر المنتصر لا يغره انتصاره فينسيه ما رآه من عدوه من بسالة في الطعن والضرب والرمي، فهو يزهو بانتصاره، لكنه يعترف لعدوه بالثبات والجلد، وهذا هو خلق الفرسان، وقد جمع الأستاذ عبد المعين الملوحي ست قصائد من هذه الأشعار المنصفة، ثم ضم إليها بعض المقطوعات الشعرية في الإنصاف، وقدم لذلك كله بشيء من الدراسة التحليلية لهذا اللون من الشعر العربي، وقد صدر هذا العمل عن وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي بدمشق ١٩٦٧م.

أما الاعتراف بالخطأ والرجوع إلى الصواب ففي تاريخنا منه الكثير مكتوباً في أخبار، وممارساً في وقائع، وأكتفي هنا بخبرين من تاريخ الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الأول من رسالته الشهيرة في القضاء التي بعث بها إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وهو على قضاء البصرة، وفيها يقول: «لا يمنعك قضاء قضيته اليوم، فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك، أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل»، الكامل للمبرد ٢٠/١.

فهذا خبر عن عمر، في الاعتراف بالخطأ والرجوع إلى الصواب، ثم تأتي ممارسة عمر نفسه تصديقاً له في ذلك الخبر الذي يرويه المفسرون في سياق تفسير الآية ٢٠ من سورة النساء، وأصحاب السنن في أبواب النكاح. فقد روي أن عمر خطب يوماً فقال: «لا تغالوا صداق النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله، كان أولاكم وأحقكم بها محمد ﷺ، ما أصدق امرأة من نسائه ولا أصدقت امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية، وإن الرجل لِيُثْقَل صدقة امرأته — أي مهرها —

حتى يكون لها عداوة في نفسه»، فقامت إليه امرأة فقالت: يا عمر، يعطينا الله وتحرمنا! أليس الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَأَتَيْتُمُ إِحْدَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾، فقال عمر: أصابت امرأة وأخطأ عمر، وفي رواية: «فأطرق عمر، ثم قال: كل الناس أفه منك يا عمر!»، وفي أخرى: «امرأة أصابت ورجل أخطأ، وترك الإنكار» تفسير القرطبي ٩٩/٥، وسنن ابن ماجه (باب صداق النساء، من كتاب النكاح) ص ٦٠٧، والمصنف لعبد الرزاق بن همام الصنعاني (باب غلاء الصداق، من كتاب النكاح) ١٧٥/٦.

وهذا باب آخر من أبواب صدق النفس، وهو الصبر على تلك الأجوبة المسكتة التي يواجه بها مشاهير الرجال، من أوساط الناس وضعفائهم، وفي تلك الأجوبة أحياناً ما يكون مثل لدغ النار أو نهش الأفاعي، يصبر لها كبار النفوس، لأنها تردهم إلى الحق، وتعيدهم إلى الصواب، وبعض من ذلك يسميه الناس الآن: الديمقراطية، يكتب الناس عنها كثيراً، ويمارسونها قليلاً.

ومن ذلك ما رواه الزمخشري، قال: حبس عمرو بن العاص عن جنده العطاء (أي الرواتب) فقام إليه رجل حُميري، فقال: أصلح الله الأمير، اتخذ جنداً من حجارة لا يأكلون ولا يشربون! قال عمرو: اسكت يا كلب، قال: إن كنت كذلك فأنت أمير الكلاب! فأطرق عمرو، وأخرج أرزاقهم (أي رواتبهم). ربيع الأبرار ٦٩٠/١. وحدث محمد بن حبيب، قال: أخبرني ابن الأعرابي، قال: شهد أعرابي عند معاوية بشهادة، فقال له: كذبت! فقال الأعرابي: الكاذب المتمزمل في ثيابك! فقال معاوية وتبسم: هذا جزاء من عجل. الهفوات النادرة للصابي ص ٣٥٥، وربع الأبرار ٦٦٥/١.

وروي عن الفرزدق أنه قال: ما استقبلني أحد بمثل ما استقبلني به نبطي — والنبط: جيل من الناس كانوا ينزلون سواد العراق، ثم استعمل في أخلاط الناس وعوامهم — قال: أنت الفرزدق الذي يمدح الناس ويهجوهم ويأخذ أموالهم؟ قلت:

نعم، قال: أنت في الكنيف من قدمك إلى أنفك، قلت: لم حاشيت العينين؟ قال: حتى ترى هوان نفسك، يقول الفرزدق: فبهت. ربيع الأبرار ٧١١/١.

وروي عن الجاحظ قال: «ما خجلتني إلا امرأة، حملتني إلى صائغ، فقالت: مثل هذا، فبقيت مبهوراً، فسألت الصائغ، فقال: هي امرأة استعملتني (أي طلبت مني أن أعمل) صورة شيطان، فقلت: لا أدري كيف أصوره، فأتت بك، فقالت: مثله» أي اصنع مثله. ربيع الأبرار ٨٥٣/١، ومعلوم أن الجاحظ كان دميماً قبيح الوجه.

صحة العقل:

وروي أن المحدث الجليل سفيان بن عيينة بكى يوماً، فقال له يحيى بن أكثم: ما يبكيك يا أبا محمد؟ قال: بعد مجالستي أصحاب أصحاب رسول الله ﷺ بليت بمجالستكم! فقال له يحيى — وكان حدثاً —: فمصيبة أصحاب أصحاب رسول الله ﷺ أعظم من مصيبتك! قال: يا غلام، أظن السلطان سيحتاج إليك، ربيع الأبرار ٦٦٩/١، ويريد سفيان أن يصف يحيى بصحة العقل حين أحسن الدفاع عن نفسه وعن أبناء جيله، ثم رد المذمة عليه، وأن مثله جدير بأن يتخذه السلطان عوناً وسنداً، وفي رواية أخرى أن يحيى بن أكثم حين سمع هذا الكلام من سفيان بن عيينة قال له: أنتصف يا أبا محمد؟ قال: إن شاء الله، قال له: والله لشقاء من جالس أصحاب رسول الله ﷺ بك أشد من شقائك بنا، فأطرق وتمثل بشعر أبي نواس:

خل جنبيك لرام وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام

تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٩٣/١٤.

وقد ألف غرس النعمة أبو الحسن محمد بن هلال الصابي المتوفى (٤٨٠هـ) كتاباً سَمَّاهُ «الهفوات النادرة» جمع فيه أخباراً عن سقطات الناس وأخطائهم التي أوقعتهم فيها الغفلة وسوء التقدير، وكان أول خبر يورده من ذلك ما وقع فيه هو

نفسه، يقول: «فأول ما أبدأ به ما خصّني منه، وهو أنني كنت جالساً وإلى جانبي أبو سعد القادسي، أحد المتفهبين المتشدقين، وجرى ذكر بعض ثقلاء الزمان المتعسفين، فقلت مسرعاً متبرعاً: إنه ليشبه ابن القادسي فيما يتعاطاه، مما يتجاوز فيه الصواب ويتخطاه. ثم استيقظت من رقدة زلتي، وانتبهت لهفوتي . . ثم ذكر بعد ذلك استدراكه على هذا الخطأ بتوجيه القول بعيداً عن ابن القادسي.

ولم أرَ في أدباء هذا الزمان من يكثر من الاعتراف بخطئه، والتنويه بمن دله على وجه الصواب، من شيخنا أبي فهر محمود محمد شاكر، وهو كثير عنده، ومنه ما ذكره في المستدرک بآخر كتاب إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع، للمقريزي المتوفى (٨٤٥هـ)، فقد صحح ما ورد في ص ٢١٦ من الجزء الأول، من قوله: «لم أجد ذكر أبي عامر الفاسق في حديث بعد خبره يوم أحد، إلا خبر موته عند هرقل، وذلك عام حجة الوداع»، فقال في الاستدراك: «وهذا خطأ مني، فيه نسيان وعجلة، إذ ليس يخفى خبر أبي عامر الفاسق في أمر مسجد الضرار».

فلم يكتف بنسبة الخطأ إلى نفسه حتى ضم إليه النسيان مقروناً بالعجلة، وهذا منهج شيخنا في كتاباته كلها، وفي تحقیقاته أيضاً، وإنما ذكرت هذا المثال بعينه، لأن كلام شيخنا هذا كان في سن الشباب، وهو زمن الخُيلاء والتهيه، فقد صدر الجزء الأول من كتاب المقريزي سنة ١٩٤٠م.

نواصل في المقال القادم كلام الناس، وصدقهم في الإبانة عن دخائل نفوسهم.



السيرة الذاتية.. والصدق مع النفس^(١)

[٢]

أثار الأديب صلاح عيسى سؤالاً محدداً حول «السيرة الذاتية»، وهو السؤال الذي لم يُجب عليه أحد، وتحدثنا في العدد الماضي من الهلال عن مدى الصدق مع النفس من الذين يكتبون سيرهم الذاتية، وهل يذكرون العيوب والنقائص بجانب ذكرهم للمحاسن والمآثر، واستعرضنا ألوان السير الذاتية وصور الاعترافات ومدى صدقها من زيفها.

وفي هذا المقال نتناول نماذج من كلام الناس وصدقهم في الإبانة عن دخائل نفوسهم، ومدى حرصهم على الحديث عن جوانب الضعف والقوة في شخصياتهم. ونترك باب الأجوبة المسكتة، وباب الاعتراف بالخطأ والرجوع إلى الصواب، ودلالة ذلك كله على صدق النفس، وننظر ونتأمل في كلام الناس عن ذواتهم، وصدقهم في الإبانة عن دخائل نفوسهم وما تنطوي عليه قلوبهم، غير هيّابين ولا وجلين، ولو كان ذلك في ظاهره مما يصادم العقيدة، أو يخالف المذهب:

روي أن عبد الله بن الزبير قطع ذكر رسول الله ﷺ في خطبة الجمعة جمعاً كثيرة، فاستعظم الناس ذلك، فقال: إني لا أرغب عن ذكره، ولكن له أهيل سوء (تصغير أهل) إذا ذكرته أثلّعوا أعناقهم (أي مدوها ورفعوها)، فانا أحب أن أكتبهم

(١) مجلة «الهلال»، فبراير ١٩٩٦م.

شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٢٧/٢٠ ، وروي أنه قال: والله ما تركت ذلك علانية إلا وأنا أقوله سرّاً وأكثر منه .

ومن هذا الباب أيضاً ما روي أن علويّاً قال لأبي العيّناء: أتبغضني وقد أمرت بالصلاة عليّ؟ تقول: صلّى الله على محمد وآله . قال أبو العيّناء: إني أقول: «الطيّبين الأخيار» فتخرج أنت . ربيع الأبرار ٧١٧/١ .

وأبو العيّناء هذا: اسمه محمد بن القاسم ، كان أديباً فصيحاً ، من ظرفاء الدنيا ، ومن أسرع الناس جواباً ، اشتهر بنوادره ولطائفه ، وكان ذكياً جداً ، حسن الشعر ، مليح الكتابة والترسل ، خبيث اللسان في سب الناس والتعريض بهم ، نشأ بالبصرة وتوفي بها سنة ٢٨٣ ، كُفّ بصره بعد بلوغه أربعين سنة ، قال عنه الخليفة العباسي المتوكل: لولا أنه ضرير لنادمته ، فبلغه ذلك فقال: إن أعفاني من رؤية الأهلة وقراءة نقوش الفصوص ، فأنا أصلح للمنادمة ، وفَيَات الأعيان لابن خلكان ٣٤٥/٤ ، والأعلام للزركلي ٢٢٦/٧ .

وروي عن الجاحظ أنه قال: كان رجل من أهل السواد — والسواد: ناحية بالعراق افتتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب ، سميت بذلك لكثرة الزروع والنخيل والأشجار بها ، والعرب تسمي الخضرة سواداً — كان هذا الرجل يتشيع ، وكان ظريفاً ، فقال ابن عم له: «بلغني أنك تبغض عليّاً عليه السلام (أي تدعو الناس إلى بغضه وكرهيته) والله لئن فعلت لتردن عليه الحوض ولا يسقيك! قال: والحوض في يده يوم القيامة؟ قال: نعم ، فقال: وما لهذا الرجل الفاضل يقتل الناس في الدنيا بالسيف وفي الآخرة بالعطش؟ ف قيل له: أتقول هذا مع تشيعك ودينك؟ قال: والله لا تركت النادرة ولو قتلتنني في الدنيا ، وأدخلتنني النار في الآخرة» ، معجم الأدباء لياقوت الحموي ص ٢١٠٨ (طبعة الدكتور إحسان عباس ، وهي طبعة عظيمة فاقت الطبعتين السابقتين: طبعة مرجليوث ، وطبعة فريد رفاعي) .

ومن باب الصدق مع النفس أيضاً قول دعبل بن علي الخزاعي ، الشاعر

المعروف المتوفى ٢٤٦هـ: «ما كانت لأحد قط عندي مئة إلا تمنيت موته» الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ١٣٧/٢٠، ولا تستبشع هذا القول من ذلك الشاعر، فهو رجل صادق، يستثقل ممن الناس عليه، ويراهما قيوداً على لسانه وعقله، وكثير من الناس يستصحب هذا الشعور، دون أن يصرح به، بل إن بعض الناس يأنف من السؤال ويطوي نفسه على الحرمان مخافة المنع والخذلان، تقول الصوفية الكبيرة أم علي امرأة أحمد بن خضرويه البلخي المتوفى ٢٤٠هـ: «فوت الحاجة أيسر من الذل فيها»، كتاب ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات لأبي عبد الرحمن السلمي ص ٧٧، وقال شاعر:

لا تحسبن الموت موت البلى وإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكنّ ذا أشد من ذاك على كل حال
الحيوان للجاحظ ٣/ ١٣١، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر ص ٢٥٦.

ويبقى أن تلاحظ أيها القارئ الكريم - رجوعاً إلى الخبر السابق - أن أبا الفرج الأصبهاني ودعبلاً الخزاعي كلاهما شيعي، ولم تمنع هذه الجامعة بينهما أبا الفرج من ذكر ذلك الخبر الذي قد يسيء إلى صاحبه على نحو ما. وهذا من باب الصدق أيضاً.

الصراحة الكاشفة:

وهذا أبو العباس المبرد المتوفى ٢٨٥هـ وهو أحد أئمة العربية، كان معروفاً بالبخل، وكان هو يظهر ذلك للناس ولا يكتمه، يقول الوزير القفطي: «وكان المبرد ممسكاً بخيلاً، يقول: لا وزنت شيئاً بالدرهم إلا ورجح الدرهم في نفسي، هذا مع السعة التي كان فيها»، إنباه الرواة على أنباه النحاة ٣/ ٢٤٩.

وقصة المبرد هذه مع ما يشاكلها تعطيك دلالة أخرى؛ لأن الذي يتحدث عن نفسه بهذه الصراحة الكاشفة يصدق في كل ما يلقيه عليك بعد ذلك، لأن الشخصية لا تتجزأ، كما يقول الناس في هذه الأيام، ومن هنا تثق في كل ما كتبه أبو العباس

المبرد: في كتابه الكامل في الأدب والأخبار، وكتابه المقتضب في النحو، وكتابه في التعازي والمراثي.

ومع تظاهر كثير من الناس بالزهد في المال وعدم الحرص عليه، نرى الإمام الجليل سفيان بن سعيد الثوري المتوفى (١٦١هـ) وهو إمام الحفاظ، وأمير المؤمنين في الحديث، يقول: «لأن أخلف عشرة آلاف درهم، يحاسبني الله عليها أحب إلي من أن أحتاج إلى الناس»، وروي أنه سئل مسألة وهو يشتري شيئاً، فقال: «دعني فإن قلبي عند درهمي»، وروي عنه أنه قال: «كان المال فيما مضى يكره، فأما اليوم فهو ترس المؤمن»، ونظر إليه رجل، وفي يده دنانير، فقال: يا أبا عبد الله، تمسك هذه الدنانير؟ قال: اسكت، فلولاها لتمدّل بنا الملوك.

«كأنه يريد: اتخذونا مناديل يمسحون بها وجوههم وأيديهم»، سير أعلام النبلاء، للذهبي ٢٤١/٧، يقول سفيان الثوري هذا كله، وهو سيد العلماء العاملين في زمانه، وهو القائل أيضاً: «ما وضع رجل يده في قصعة رجل إلا ذل له».

وهذا الأحنف بن قيس، العالم الكبير المتوفى (٧١هـ) وهو أحد من يضرب بحلمه وسؤدده المثل يقول: «كذبت مرة واحدة، سألني عمر بن الخطاب عن ثوب: بكم أخذته؟ فأسقطت ثلثي الثمن»، سير أعلام النبلاء للذهبي ٨٩/٤.

وكان للأحنف هذا ولد، يقال له: بحر، وبه كني، وكان مضعوفاً (أي قليل العقل خاملاً) فقليل له: لم لا تتأدب بأخلاق أبيك؟ فقال: الكسل»، وفيات الأعيان لابن خلكان ٥٠٦/٢. وهذا من باب الصدق مع النفس أيضاً.

وهذا رجل يحب الشهرة وبعد الصيت، ولو ركب لهما الصعب، فيروى عن الحسن بن أحمد بن عبد الله بن البناء، المقرئ المحدث الحنبلي المتوفى (٤٧١هـ) أنه قال: «هل ذكرني الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» في الثقات أو مع الكذابين؟ قيل: ما ذكرك أصلاً، فقال: ليته ذكرني ولو مع الكذابين»، سير أعلام النبلاء للذهبي ٣٨١/١٨، والإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، لشمس الدين السخاوي ص ٣٣.

على أنه ينبغي التنبيه الدائم للفرق الدقيق بين صراحة هؤلاء الناس، وصدقهم في الإبانة عن أنفسهم، وبين كشف العيوب القادحة، ونشر المساوئ الفاضحة، التي تدخل في باب العورات، وهو ما نهينا عن الحديث عنه، أو تتبعه واستقصائه، كما ذكرت في صدر هذه الكلمة، وضم إليه ذلك الحديث العظيم الذي أخرجه الإمام مالك، وهو حديث من اعترف على نفسه بالزنا، وفي آخره يقول رسول الله ﷺ: «من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله، فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه الحد» الموطأ (باب ما جاء فيمن اعترف على نفسه بالزنا، من كتاب الحدود) ص ٨٢٥.

ومن أحلى وأعذب صور الصدق مع النفس وإرسالها على سجيتها: قصة ذلك المحدث الجليل إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، أبو إسحاق القرشي الزهري العوفي المدني، المتوفى (١٨٣هـ) كان حافظاً كبيراً، وإماماً ثقة حجة، يقول الحافظ الذهبي في ترجمته من سير أعلام النبلاء ٢٧٢/٨: «وكان ممن يترخص في الغناء على عادة أهل المدينة، وكأنه ليم في ذلك، فانزعج على المحدثين، وحلف أنه لا يحدث حتى يغني قبله»، أي قبل التحديث.

وروى الخطيب البغدادي هذا الخبر، برواية أخرى، قال: «وسئل عن الغناء فأفتى بتحليله، وأتاه بعض أصحاب الحديث ليسمع منه أحاديث الزهري، فسمعه يتغنى، فقال: لقد كنت حريصاً على أن أسمع منك، فأما الآن فلا سمعت منك حديثاً أبداً، فقال: إذاً لا أفقد إلا شخصك، عليّ وعليّ — يقصد الحلف بالطلاق — إن حدثت ببغداد ما أقمت حديثاً حتى أغني قبله... وذكر أن هذه القصة بلغت الرشيد، فاستدعاه، ودعا له بعود فغناه:

يا أم طلحة إن البين قد أفدا قل الشواء لئن كان الرحيل غدا

تاريخ بغداد ٨٤/٦، وهذا البيت لعمر بن أبي ربيعة، وروايته في ديوانه ص ٣٩١: «ألمم بزینب إن البین قد أفدا». ومعنى «أفد» دنا وقرب موعده.

فهذا محدث فنان. ومما يشاكل هذا الباب ما رواه الذهبي أيضاً، عن علي بن حرب الطائي المتوفى (٢٦٥هـ) قال: سمعت أبي يقول: أحب أن تكون لي جارية في غُنج سفيان بن عيينة إذا حدث، سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٠٤ (والغنج في المرأة: حسنهما وتدللهما وترققهما في الكلام).

ومثل هذه الأخبار ينبغي أن تفهم على حقيقتها، وهي أن القوم الذين كانوا يروون حديث رسول الله ﷺ، كانوا يروونه بانسباط نفس، وانشراح صدر (يعني في تعبيراتنا المصرية: يروونه بمزاج)، أما الورع الكاذب، والخشوع المصطنع فلا وجود له في عقيدتنا ولا في حضارتنا، وقرأ إن شئت كتاباً واحداً في آداب وأعراف التحديث بحديث رسول الله ﷺ وهو كتاب «أدب الإملاء والاستملاء» لأبي سعد السمعاني المتوفى (٥٦٢هـ) وتأمل على سبيل المثال ما يذكره عن وجوب نظافة المحدث وحسن ثيابه وتطيبه بالعطور حين يجلس لإملاء الحديث، وما نقله عن علماء الحديث من التعوذ من الثقل والثقلاء.

وهذه صورة من صور الصدق مع النفس، تسجلها كتب التاريخ والأدب، مع أن هذه الصور تجري في ذرائع الشر ومكروه الأخلاق، لأن هذه الكتب وثائق تسجل واقع البشر، فهي لا تنتقي من الأخبار ما يرضي الناس فحسب، وتحجب عنهم ما يسوؤهم، إن كتبنا في التاريخ وسائر المعارف شهود صدق وقضاة عدل.

فهذا «دؤيد بن زيد بن نهد» معمر جاهلي قديم، وشعره من قديم الشعر العربي، تقول كتب التاريخ والأدب: إنه جمع أولاده عند موته، ثم قال لهم: «أوصيكم بالناس شراً، لا تقبلوا لهم معذرة، ولا تقيلوهم عشرة، أوصيكم بالناس شراً، طعنأ وضربأ، وما احتجتم إليه فصونوه، وما استغنيتم عنه فأفسدوه على من سواكم، فإن غش الناس يدعو إلى سوء الظن، وسوء الظن يدعو إلى الاحتراس». راجع أيها القارئ العزيز كتاب المعمرين لأبي حاتم السجستاني ص ٢٦، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٣١، وأمالى الشريف المرتضى ١/ ٢٣٦.

ومن وصايا الشر أيضاً التي سجلتها الكتب: ما وصّى به أبو النجم العجلي
الراجز الشهير المتوفى (١٣٠هـ) بناته الثلاث، قال للأولى:

أوصيتُ من برّة قلباً حراً بالكلب خيراً والحمة شراً
لا تسأمني ضرباً لها وجراً حتى ترى حلو الحياة مرّاً
وإن كستك ذهباً ودُّراً والحيّ عميهم بشرٌ طُراً

وقال للثانية:

سُبّي الحمة وابهتي عليها وإن دنّت فإزدلفي إليها
وأوجعي بالفهر ركبتها ومرفقيها واضربي جنبها

يقال: بهته بهتاً: أخذته بغتة، ولعلماء اللغة في قول أبي النجم «ابهتي عليها»
كلام كثير انظره في الصّحاح للجوهري، والتنبيه والإيضاح عما وقع في الصّحاح لابن
بري، والتكملة والذيل والصلة للصاغاني، وكلها معاجم لغوية.

الفهر: بكسر وسكون الهاء: الحجر يملأ الكف.

وقال للثالثة:

أوصيك يا بنتي فإني ذاهبُ أوصيك أن تحمدك القرائب
والجار والضيف الكريم الساغب لا يرجع المسكين وهو خائب
ولا تني أظفارك السلاهب منهن في وجه الحمة كاتب

والزوج إن الزوج بئس الصاحب

والأظافر السلاهب: الطويلة.

وروي أن هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي سمع هذا الشعر من أبي النجم
ثم قال له: ما هكذا أوصى يعقوب ولده! قال أبو النجم: ولا أنا كييعقوب، ولا بني
كولده! راجع الكامل للمبرد ص ٩٩٨، والأغاني لأبي الفرج ١٥٦/١٠.

هكذا وصى دويد بن زيد، وأبو النجم. وسبحان خالق الطباع، ومصرّف القلوب.
وما أصدق كتبنا ومؤرخينا في تسجيل الحياة بخيرها وشرها وحسنها وسيئها!

فيا أيها القارىء الكريم، أنار الله بصرك وبصيرتك، اقرأ وتدبر ولا تعجل فترمي هذا الكلام بالوضع والانتحال، فقد عرفنا في زماننا هذا من يوصي أولاده بسوء الظن، والاستيحاء من الناس، والإمساك دونهم، والحرص على المال بتزيين البخل، فلا زلنا نسمع هذه الأمثال كل يوم: اللي معاه قرش يساوي قرش — اللي معاه قرش ابنه يزمر — القرش الأبيض ينفع في النهار الأسود — وأنا ما لي يا عم هو أنا خلفته ونسيته — ويبقى ابني على كتفي وأدور عليه؟ — وبالله نفسي نفسي — ويا روح ما بعدك روح — واللي يعوزه البيت يحرم على الجامع — وخالتي وخالتك واتفرت الخالات .

بل سمعنا أشد من ذلك كله في تسويغ البخل والإعراض عن نجدة الناس والبر بهم، والنظر إلى المصلحة الذاتية فقط، وهو قولهم: «عيش ندل تموت مستور»، فهي هي طبائع البشر في كل زمان ومكان، وإن اختلف التعبير عنها .

أما وصية أبي النجم في التشديد على الحماية والإغلاظ للزوج، فما زلنا نسمع من هذا وذاك الشيء الكثير، وأظن أنه لا يغيب عنك: «يا مأمنه للرجال يا مأمنه للميّه في الغربال»، ولا زلت أذكر ما كنت أسمعه من نساء حي الدرب الأحمر — وهو الحي الذي نشأت فيه — فتقول الأم لابنتها قبل انتقالها لبيت الزوجية: «خلي بالك من المرة القرشانة اللي اسمها أمه، إديها على دماغها أول بأول كده، مَتَسْكُتْ لَهَا ش أحسن تركبك»، أو تقول لها عن زوجها: «إوعي مئّه، ربنا يستر، والله أنا خايفه، دا باين عليه ابن أمّه» .

أما التوصية بنتف ريش الزوج حتى لا يطير، فلم يعد لها مكان الآن، لأن الزوج أصبح لا ريش له بعد اشتراك الزوجة معه في الوظيفة، ومساهمتها في دخل البيت ومزاحمتها له في اتخاذ القرار، وربنا المستعان، وحسبنا الله ونعم الوكيل !

ثم نعود إلى أخبار الصدق مع النفس: فمع حرص خلفاء المسلمين على أن يظهروا للناس وجه العفو والمسامحة، فإن بعضهم كان صادقاً مع نفسه كل الصدق حين أظهر الحزم والمخاشنة وسوء المعاملة، فقد روي أن عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب قال للخليفة العباسي المنصور — وكان

ابن أخيه — «لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو! قال: لأن بني مروان — يعني الأمويين — لم تبل رممهم، وآل أبي طالب — يعني العلويين — لم تغمد سيوفهم، ونحن بين قوم قد رأونا أمس سوقة — أي من عامة الناس — واليوم خلفاء، فليس تتمهد هيبتنا في صدورهم إلا بنسيان العفو، واستعمال العقوبة»، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٦٧، وهو كلام عال نفيس، فاقرأه مرة أخرى.

أما حديث الشعر في الصدق مع النفس فهو كثير جداً، ومنه قول حارثة بن بدر الغُدَّاني التابعي الجليل المتوفى (٦٤هـ) وهو ما رواه أبو الفرج الأصبهاني، والشريف المرتضى، قالاً: «اجتاز حارثة بن بدر الغداني بمجلس من مجالس قومه من بني تميم، ومعه كعب مولاه، فكلما اجتاز بقوم قاموا إليه وقالوا: مرحباً بسيدنا، فلما ولَّى قال له كعب: ما سمعت كلاماً قط أقرّ لعيني، ولا ألد بسمعي من هذا الكلام الذي سمعته اليوم، فقال له حارثة: لكنني لم أسمع كلاماً قط أكره لنفسي وأبغض إليّ مما سمعته! قال: ولم؟ قال: ويحك يا كعب، إنما سوّدي قومي حين ذهب خيارهم وأماثلهم، فاحفظ عني هذا البيت:

خلت الديار فسدت غير مُسَوَّد ومن البلاء تفرّدي بالسوّد
أرأيت موضوعية وصدقاً ونقداً للذات أبرع من هذا؟ وما أخرى كثيراً من أصحاب المناصب الآن أن يتمثلوا بهذا البيت لو رزقوا الصدق مع أنفسهم.

وانظر الخبر في الأغاني — ملحق الجزء الثامن ص ٢٤٢، من طبعة دار الكتب المصرية، وأمالى الشريف المرتضى ٣٨٨/١، ثم انظر شرح الحماسة لأبي علي المرزوقي ص ٨٠٧، ففيه كلام عن التوجيه النحوي للبيت، إن كنت تحب النحو، وأود لك أن تحبه.

وهذا البيت الحكيم الذي أنشده وتمثل به حارثة بن بدر، هو من قطعة أوردتها أبو تمام في حماسته، ونسبها لرجل من خثعم، لم يذكر اسمه — راجع الموضع المذكور قريباً من شرح الحماسة للمرزوقي — ونسبه ياقوت الحموي، ضمن ستة أبيات، إلى عمرو بن النعمان البياضي، معجم البلدان ٧٠٣/١، في رسم «البقيع»

ونسبه الجاحظ إلى حارثة بن بدر، فجعله منشئه لا منشده، في الحيوان ٨٠/٣، والبيان والتبيين ٢١٩/٣، لكنه في ص ٣٣٦ من ذلك الجزء أنشده من غير نسبة.

وقد كثر تمثل أهل العلم بهذا البيت، فيذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد ٢٩٠/٢ عن الهيثم بن عدي قال: لما انفرد سفيان بن عيينة (١٩٨هـ) ومات نظراؤه من العلماء تكاثر الناس عليه، فأنشأ يقول: خلت الديار... البيت. وذكر ابن خلكان في وفيات الأعيان ٢٢٠/٤، في ترجمة «أبي بكر محمد بن أحمد الحسين الشاشي الفقيه الشافعي (٥٠٧هـ) أنه يوم جلس على كرسي التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد - وكان قد سبقه إلى التدريس فيها فحول العلماء - وضع منديله على عينيه وبكى كثيراً، وأنشد: خلت الديار... البيت، قال ابن خلكان: «وهذا إنصاف منه واعتراف لمن تقدمه بالفضل والرجحان عليه».

وروي أن التابعي الجليل إبراهيم بن يزيد النخعي (٩٦هـ) قال: لقد تكلمت، ولو وجدت بدأ ما تكلمت، وإن زماناً تكلمت فيه لزمان سوء»، ثم أنشد البيت: خلت الديار... عيون الأخبار لابن قتيبة ٢٦٨/١، والخبر رواه أبو نعيم الأصبهاني هكذا: «وإن زماناً أكون فيه فقيه الكوفة لزمان سوء»، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٢٢٣/٤.

وللشعراء وأهل الأدب كلام كثير، في فضيلة كتم السر وصونه وعدم إذاعته، لكن بعض الناس يضيق صدره عن كتمان السر، ويحس أنه يحمل همّاً ثقيلاً على صدره، أو جبلاً ضخماً على ظهره، فهو يريد أن يتخلص من عبئه، فيدور به على الناس، لا يبالي أين يقع منهم، وليس بالضرورة أن يكون إفشاؤه السر لغاية من إفساد أو سعاية، ولكنها الثرثرة ليس غير، وإراحة النفس من هم مغالبة الكتمان ومرافعة الحفظ، وقد ترجم عن هذا شاعر، في لحظة صدق عالية، فيقول سحيم الفقعي (لم أعرف تاريخه، وانظر من اسمه سحيم من الشعراء في خزانة الأدب للبغدادى ٢٦٦/١)، يقول سحيم هذا:

ولا أكتُم الأسرار لكن أذيعها ولا أترك الأسرار تغلي على قلبي

وإنَّ قليل العقل من بات ليله تقلبه الأسرار جنباً إلى جنب
وأُنشد الأصمعي، قال: أنشدني أعرابي:

ولا أكتُم الأسرار لكن أبُثها ولا أدع الأسرار تقتلني غمّاً
وإن سَخيف الرأي من بات ليله حريباً بكتمان كأن به حمى
وفي بثك الأسرار للقلب راحة وتكشف بالافشاء عن قلبك الهما
وقال ثالث:

وأمنع جارتِي من كل خير وأمشي بالنميمة بين صحبي
انظر هذه الأشعار في الحيوان للجاحظ ١٨٥/٥، وعيون الأخبار لابن قتيبة ٤١/١، والكامل للمبرد ص ٨٨٤، وبهجة المجالس لابن عبد البر ٤٦٠/١. وذكر الجاحظ أن ضيق الصدر بكتمان السر من أخلاق الصبيان والنساء، ومن أخلاق الخَصِيّ أيضاً - والخصي: هو المقطوع الخصية - قال في الحيوان ١٣٥/١: «ويعرض للخصي سرعة الغضب والرضا، وذلك من أخلاق الصبيان والنساء، ويعرض له حب النميمة، وضيق الصدر بما أودع من السر، وذلك من أخلاق الصبيان والنساء».

ومن رقيق شعر عزيز باشا أباظة قوله من قصيدته «همسة حائرة»:

يبيت يودع سمع الليل عاصفة ضاق النهار بها سترأ وكتمانا
فأثبت للنهار أيضاً ضيقاً بكتمان السر، كالإنسان سواء بسواء.

وبعد: فهذه صور من الصدق مع النفس، سلوكاً وكلاماً منشوراً ومنظوماً، امتلأت بها كتبنا وآثارنا التي تعرض الحياة كلها بخيرها وشرها، وبياضها وسوادها، وتلك طبيعة الحضارات العظيمة.

وتحية إلى الأستاذ صلاح عيسى، الذي فتح لنا هذا الباب من القول.



من حصاد الندوات:

أولية الطباعة العربية في مصر^(١)

أقام مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي في أواخر أكتوبر الماضي ندوة عن «تاريخ الطباعة العربية حتى انتهاء القرن التاسع عشر»، وقد دارت محاور الندوة حول تاريخ الطباعة العربية في أوروبا وتركيا وبلاد الشام ومصر وشبه القارة الهندية والأمريكيتين والمغرب وبلاد فارس وشبه الجزيرة العربية، وروسيا وبلاد ما وراء النهر.

وقد دعيت إلى هذه الندوة وقدمت بحثاً مطولاً عن تاريخ الطباعة في مصر، في ذلك القرن الماضي. ويبدأ حديث الطباعة في مصر بتلك المطبعة الصغيرة التي أحضرها نابليون معه أيام حملته على مصر سنة ١٧٩٨م، ليبعث من خلالها برسائله إلى المصريين، ثم لينشر بها بعض الرسائل والنصائح الطبية، استمالة لقلوب المصريين، ثم رحل نابليون عن مصر، وترك مطبعته ليقيم على أنقاضها محمد علي باشا مطبعة سميت أول الأمر المطبعة الأهلية، ويقال: إن محمد علي أنشأ مطبعته إنشاء، ولم يقمها على أنقاض مطبعة نابليون، ومهما يكن من أمر فقد أنشأ محمد علي مطبعته هذه على ضفاف النيل ببولاق سنة ١٨٢١م، ثم تبعتها بعض المطابع الملحقة بإدارات الجيش والمدارس العليا، وبعد ذلك جاءت المطابع الأهلية، فهذه ثلاث مراحل في بداية الطباعة العربية في مصر، ولكل مرحلة قصة وتاريخ.

(١) جريدة «الأهرام» (مصر)، ٢٣ فبراير ١٩٩٦م.

مطبعة بولاق :

تمثل هذه المطبعة الباب الواسع الذي دخل منه العرب إلى النهضة الحديثة، كما تمثل في الوقت نفسه البعث الحقيقي لتراث الآباء والأجداد، وإذا كانت بعض البلدان قد سبقت مصر في الطباعة العربية، فإن الوجه العربي للطباعة لم يظهر إلا في مطبعة بولاق بمصر، لقد كان إنشاء هذه المطبعة صيحة مدوية أيقظت الغافلين، ومركز ضوء هدى الحائرين، وقد تدافعت مطبوعاتها من الكتاب العربي كالسيل الهادر.

وقد ذكر سركيس في مقدمة معجم المطبوعات أن مجموع ما طبعته مطبعة بولاق، منذ إنشائها سنة ١٨٢١م وحتى سنة ١٨٧٨م بلغ (٦٠٣٨٩٠) كتاباً، أوليتم إلى هذا العدد الذي يزيد على نصف المليون في نحو (٥٠) عاماً، وهي مدة يسيرة لا تعد شيئاً في تاريخ الأمم والشعوب، مع ملاحظة ضعف الوسائل الطباعية في تلكم الأيام.

وفي مجال تقييم أعمال مطبعة بولاق تبرز هذه الحقائق :

أولاً: كان إنشاء محمد علي مطبعة بولاق متزامناً مع إرساله البعثات لتلقي العلم في أوروبا، ولا يستطيع الدارس أن يغفل العلاقة بين هذه البعثات ونشاط مطبعة بولاق، فقد عاد الدارسون المصريون في أوروبا برغبة عارمة في الإصلاح والنهوض، ولم يركنوا إلى الدعة وعجمة اللسان والاكتفاء بمدح الإفرنج، والطعن في أمتهم العربية والانتقاص من تاريخها وذم علومها ومعارفها، كما نرى ونسمع الآن.

ثانياً: يلاحظ في السنوات الأولى من نشاط مطبعة بولاق غلبة للكتب المترجمة في الشؤون الطبية والزراعية والهندسية وتدبير المعاش.

ثالثاً: إن الذين قاموا على نشر كتب التراث بتلك المطبعة كانوا يستهدفون غاية ضخمة، هي إبراز كنوز الفكر العربي والإسلامي، فعمدوا إلى نشر الأمهات

والأصول في كل علم، ولم يغلبوا جانباً على جانب، شأن دور النشر التجارية التي تتحسس حاجة السوق وتلبّي رغبات عاجلة لخدمة بعض الاتجاهات.

فهم قد نظروا إلى التراث نظرة شمولية كلية، فنشرت مطبعة بولاق: منهاج السُّنة النبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية، ثم طبعت الفتوحات المكية لابن عربي، ويا بُعد ما بينهما، وطبعت من تراجم المشاركة وفيات الأعيان لابن خلكان، ومن تراجم المغاربة نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري، وطبعت تفسير الطبري والفخر الرازي وصحيح البخاري وشرحه لابن حجر وللقسطلاني، ثم طبعت ألف ليلة وليلة، طبعتين.

رابعاً: تزامن نشاط مطبعة بولاق مع الدعوة إلى العامية التي تولى أمرها نفر من الأجانب الذين حلوا بمصر، وقد جاهد هؤلاء في الترويج لدعوتهم الخبيثة جهاداً لاهثاً، وقد صانعهم وظاهرهم قوم أغبياء من أهل جلدتنا.

ومما لا شك فيه أن طبعت بولاق من أصول التراث العربي في ذلك الوقت كانت خير وسيلة للوقوف في وجه تلك الأفكار، ثم إنها من وراء ذلك قد غدت عقول أرباب العلم وأهل الأدب، حين وضعت أمامهم زاداً شهياً من علوم الأوائل وآدابها، أعانهم على ما هم بسبيله من الإبداع والإحسان، فكانت البعث والتنوير الذي حمل لواءه رفاة الطهطاوي ومحمود سامي البارودي، والشيخ حسين المرصفي، ومن سار في طريقهم.

خامساً: أقدمت مطبعة بولاق في ذلك الزمان المبكر على طبع الموسوعات الضخمة، مثل لسان العرب (٢٠) جزءاً، والأغاني (٢٠) أيضاً، وتفسير الطبري (٣٠) جزءاً.

سادساً: حرصت مطبعة بولاق في كثير من منشوراتها على طبع كتاب أو أكثر بهامش الكتاب الأصلي. وهذه الظاهرة دالة بوضوح على أن القوم كانوا في سباق لنشر العلم والمعرفة.

سابعاً: لم تكن مطبوعات بولاق كلها على نفقة الدولة، فقد رأينا جهود الأفراد والجماعات وأموالهم وراء كثير من مطبوعات تلك المطبعة العتيقة، وحديث هذا يطول جداً، ولكن حسبك أن تعلم أن طبعة «صحيح البخاري» العظيمة التي طبعتها بولاق سنة ١٣١٥هـ - ١٨٩٧م كانت على نفقة أحد التجار، وهو: محمد حسن عيد.

المرحلة الثانية:

مرحلة مطابع إدارات الجيش والمدارس الحكومية. وقد بدأت هذه المطابع نشاطها بعد قيام مطبعة بولاق بنحو عشرة أعوام، وقد دارت معظم مطبوعاتها حول الشؤون العسكرية والطبية والرياضية والجغرافية والهندسية، مع الإمام بشي يسير من العلوم النظرية. ومن أشهر هذه المطابع: مطبعة ديوان الجهادية والمدفعية والحرية السلطانية والمدرسة الطبية بأبي زعبل، والمهندسخانة الخديوية ومدرسة الفنون والصنائع.

المرحلة الثالثة: المطابع الأهلية:

وهي الصورة المكملة لمرحلة بولاق والماضية في طريقها. لقد سطع نور بولاق وتألق، ثم مد ظلاله على الأفراد والجماعات، فنشط هؤلاء وهؤلاء لطبع الكتاب العربي، مدفوعين بنفس الروح التي سرت في مطبعة بولاق، وحملت مطبوعاتها نفس السمات التي عرفت في مطبوعات بولاق.

وقد انتشرت عشرات المطابع في قلب القاهرة، وبالأخص في تلك المنطقة المتصلة بالأزهر ودار الكتب المصرية، وهو أمر طبيعي أن تنشأ المطابع والمكتبات حول دور العلم والفكر، وإذا أنت وقفت في ذلك الزمان في ميدان باب الخلق، ونظرت عن يمينك وشمالك، ثم من قدامك ومن ورائك، ثم سرت في هذه الاتجاهات الأربعة رأيت أعداداً كثيرة من المطابع: في الأزيكية والفجالة وباب الشعرية وشارع محمد علي ودرب الجماميز (بور سعيد الآن) وشارع حسن الأكبر

وعابدين وشارع عبد العزيز ودرب سعادة والحسين والأزهر والموسكي والدراسة
والخرنفش والجمالية، ومن دور هذه الشوارع الكبيرة ومن خلالها انتشرت أيضاً
عشرات المطابع. وهذه المناطق التي انتشرت فيها تلك المطابع الأهلية على ما
وصفت لك لا تزيد على عشرة كيلومترات مربعة، فمن هذه المناطق المتجاورة
المحدودة من قلب القاهرة: شوارع وحارات وأزقة، مع المنطقة الصغيرة التي تقع
فيها مطبعة بولاق على ضفاف النيل؛ خرجت ثقافة العالم العربي والإسلامي في
القرن الماضي، فأى ضوء سطع، وأي نور أضاء؟



محمود محمد شاكر.. والتكريم المستحق^(١)

في مساء يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شهر فبراير أقام اتحاد الناشرين المصريين والعرب حفلاً ضخماً كرم فيه أوائل الناشرين، ثم جعل على رأس المكرمين علماء من أعلام العربية وحارساً من حراسها الأوفياء في زماننا هو الأستاذ محمود محمد شاكر، وقد طلب إلي أن أقدم الأستاذ الجليل. فكانت هذه الكلمة: هذا شيخ العربية وحارسها: الإمام أبو فهر محمود محمد شاكر، نقف حوله في ليلة تكريمه، محفوفاً بالمهابة، ملففاً بالجلال، مصوناً في تلافيف القلوب، ويقف معنا ألوف الألوف من أعلام العرب وعلمائها، منذ أن نطق بالعربية ناطق وكتب بها كاتب إلى أن يأتي أمر ربك، وما كان ذلك إلا لأن كلام هذا الإمام موصول بكلام الأوائل، منتزع منه، ودال عليه ومكمل له، وشيخنا — حرس الله مهجته — لا تخرم مشيته مشية واحد من علماء الصدر الأول.

ولد شيخنا بمدينة الإسكندرية يوم الاثنين العاشر من المحرم سنة ١٣٢٧هـ — أول فبراير ١٩٠٩م، ومنذ شب واستوى إلى يوم الناس هذا وهو يعيش حياة حافلة بالغرائب والعجائب. نعم لم يهدأ شيخنا يوماً واحداً خلال هذه الحياة المتطاولة، التي نرجو لها أن تمتد إن شاء الله، حياة صاخبة مؤارة شديدة الحركة.

إن أقصى ما يعرفه كثير من الناس الآن — وبخاصة الشباب — عن أبي فهر أنه صاحب الخصومة مع الدكتور طه حسين حول قضية الشعر الجاهلي وحول المتنبي،

(١) جريدة «الأهرام» (مصر)، ٢٩ مارس ١٩٩٦م.

وصاحب الخصومة مع الدكتور لويس عوض حول أبي العلاء المعري والفتن الأخرى المنشورة في «أباطيل وأسمار»، ثم يعرفه المشتغلون بالدراسات الأدبية بقراءته الفذة وشرحه النفيس لطبقات فحول الشعراء لابن سلام، ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، ثم تحقيقه المعجب لتفسير الطبري وتهذيب الآثار، ويحمل بعضهم معرفته به في هذه العبارة الفضفاضة التي لا تدل على شيء «شيخ المحققين».

والحقيقة أن الرجل وراء ذلك كله، وفوق ذلك كله، إنه تاريخ ضخم لرجل تنبه منذ طراءة الصبا وأوائل الشباب إلى هموم أمته وما يراد بها ويكاد لها، وقد فطن منذ عقل إلى أن الطريق الوحيد للتغيير هو العلم والمعرفة، فانصرف إليهما، ولم يشغل بغيرهما، ثم أخذ نفسه، بأسلوب صارم حازم، فقرأ القرآن صبيّاً، وأقبل على الشعر مبكراً، يحفظه لا كما يحفظه الناس: مقطوعات للإشاد والتسلي والمطارحة في المجالس، وإنما الشعر عنده باب العربية كلها، وقد قاده الشعر إلى كتب العربية كلها، فالمكتبة العربية كلها عند أبي فهر كتاب واحد، والعلوم عنده علم واحد، فهو يقرأ صحيح البخاري كما يقرأ الأغاني، ويقرأ كتاب سيبويه قراءته لمواقف عضد الدين الإيجي، فهو بتعبيرنا المصري «خد البيعة على بعضها».

وهكذا خالط أبو فهر العربية منذ أيامه الأولى، وعرف مناهج الكتب والكتّاب في مختلف فنون العربية، وخبر مصطلحات الأقدمين وأعرافهم اللغوية، وهذا فرق ما بينه وبين سواه، من الكتاب والنقاد، فأنت قد تجد ناقدًا ذا ذوق وبصيرة، ولكن محصوله اللغوي على قدر الحاجة، وقد تصادفه جمع بين الذوق والبصيرة واللغة ولكن معارفه التاريخية لا تتجاوز الشائع العام الدائر على الألسنة، وقد تراه فاز من الثلاثة بأوفر الحظ والنصيب، ولكنك لن تجد عنده ما تجد عند أبي فهر من الأنس بالمكتبة العربية كلها في فنونها جميعها، ودوران هذه الفنون في فكره وقلبه.

ولقد سارت حياة أبي فهر في طريقين استويا عنده استواء واضحاً عدلاً: الطريق الأول طريق العلم والمعرفة، يعبّ منهما ولا يروى. والطريق الثاني التنبه

الشديد لما يحاك لأمتنا العربية من كيد ومكر، وما يراد لثقافتها وعلومها من غياب واضمحلال، وظل حياته كلها قائماً على حراسة العربية والذود عنها، يحب من أجلها ويخاصم من أجلها، وقد احتمل في حالتيه من العناء والمكابدة ما تنوء بحمله العصبة أولو القوة.

وقد حارب أبو فهر في جهات كثيرة، وخاض معارك كثيرة: حارب الدعوة إلى العامية، وحارب الدعوة إلى كتابة اللغة العربية بحروف لاتينية، وحارب الدعوة إلى هلهلة اللغة العربية والعبث بها بحجة التطور اللغوي، وحارب الخرافات والبدع والشعوذة. وقد حارب في كل ذلك وحده غير متحيز إلى فئة، أو منتصر بجماعة، وهو صلب عنيد فاتك، ألقى الدنيا خلف ظهره ودبر أذنيه، فلم يعبأ بإقبالها أو إدبارها، واستوى عنده سوادها وبياضها. ولقد أقصي كثيراً عن محافل الأدب ومجال الشهرة فلم يزد ذلك إلا إصراراً وثباتاً، ووقف وحده في ساحة الصدق شامخ الرأس مرفوع الهامة.



النحو العربي.. والجمي المستباح^(١)

[١]

من أمثال العرب الشائعة قولهم: «ذكَرْتَنِي الطعن وكُنْتُ ناسياً»، ويضرب في الحديث يستذكر به حديث غيره، كما قال الزمخشري.

وقال أبو هلال العسكري: يضرب مثلاً للشيء ينساه الإنسان وهو محتاج إليه.

وقد ذكرت ذلك حين قرأت في جريدة الأهرام ١٩٩٦/٦/٢٦م مقالة للأستاذ الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي، عنوانها: «حين يستوي الصمت والكلام» وقد أعاد في هذه المقالة كلاماً قديماً عن اللغة والنحو، كان قد كتبه في الأهرام أيضاً بتاريخ ١٩٩٢/٣/٤م و ١٩٩٢/٨/٢٦م، وكنت قد رددت عليه في عددين من الهلال (نوفمبر - ديسمبر ١٩٩٢م). (راجع ما مضى ص ٢٠٦، ٢١٤).

ويقول الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي في كلمته الأخيرة هذه: «وبعض الناس يظنون أن اللغة معناها النحو، ولهذا قد يستغربون هذه الضجة التي نثيرها؛ لأن القيامة في رأيهم لن تقوم إذا أخطأ أحدنا أو أخطأنا جميعاً، فجعلنا الفاعل منصوباً أو حتى مجروراً بدلاً من أن نجعله مرفوعاً كما يطالبنا النحاة به، والحقيقة أن هذا فهم بالغ السذاجة، فاللغة ليست النحو، والمبالغة في الاهتمام بالنحو ليست دائماً دليلاً على نهضة أدبية أو حاسة لغوية يقظة، بل ربما كانت بالعكس دليلاً على ضعف السليقة وانحطاط الملكة.

(١) مجلة «الهلال»، سبتمبر ١٩٩٦م.

هكذا رأينا أن عصور الانحطاط التي شهدتها الآداب اليونانية في المرحلة الهلنسية أو السكندرية كانت مصحوبة بنشاط واسع لعلماء النحو والعروض، وكذلك في عصور الانحطاط التي شهدتها روما في القرن الرابع الميلادي، وكذلك في عصور الانحطاط التي شهدتها الأدب العربي في العصر المملوكي، ففي ذلك العصر الذي تراجع فيه الشعر وتدهورت الكتابة ظهر ابن منظور وابن هشام.

هكذا قال الأستاذ حجازي، وقد قرأت كلامه هذا أكثر من مرة، وأعطيته حظه من النظر والتأمل، ثم قلبته ظهراً لبطن، والتمست لكاتبه المَعذرة، فما استقام على وجهه، ولا كشف عن جديد مما يكتبه الأستاذ حجازي، وما يكتبه غيره الآن عن النحو، هذا العلم الذي هو ملاك العربية وقوامها، والذي يقول عنه أبو العباس ثعلب أحد أئمة العربية في القرن الثالث: «لا يصح الشعر ولا الغريب ولا القرآن إلا بالنحو، النحو ميزان هذا كله»، (مجالس ثعلب ص ٣١٠).

وكان ينبغي على أبي العباس ثعلب أن يضيف: «ولا الفقه»، فقد قال أبو بكر الشنتريني من علماء القرن السادس: «ولقد رأيت جماعة من الفقهاء المتقدمين الذين لم يبلغوا درجة المجتهدين قد تكلموا في مسائل من الفقه فأخطأوا فيها، وليس ذلك لقصور أفهامهم، ولا لقلّة محفوظاتهم، ولكن لضعفهم في هذا العلم — يعني علم النحو — وعدم استقلالهم به»، تنبيه الألباب على فضائل الإعراب ص ٦٣.

كتاب سيبويه والقياس :

وروي أن أبا عمر الجرمي — من نحاة القرن الثالث — قال: «أنا منذ ثلاثين سنة أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه»، فحدّث ابن شُقير بهذا الحديث المبرد، على سبيل التعجب والإنكار! فقال المبرد: «أنا سمعت الجرمي يقول هذا — وأوماً بيديه إلى أذنيه — وذلك أن أبا عمر الجرمي كان صاحب حديث، فلما علم كتاب سيبويه تفقه في الحديث، إذ كان كتاب سيبويه يُتعلّم منه النظر والتفتيش»، (كتاب سيبويه ٥/١)، وروي ياقوت هذا الخبر برواية أخرى، «قال الجرمي: أنا منذ ثلاثين سنة أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه، فقليل له: وكيف ذاك؟ قال: أنا رجل مكثّر من

الحديث، وكتاب سيبويه يعلمني القياس، وأنا أقيس الحديث، وأفتي به»، (معجم الأدباء ص ١٤٤٣، طبعة د. إحسان عباس)، وهي أصح الطبقات.

هذا وقد روى الزجاجي قصة تؤكد هذا الخبر، قال: «وكان أبو عمر الجرمي يوماً في مجلسه، وبحضرته جماعة من الفقهاء، فقال لهم: سلوني عما شئتم من الفقه، فإني أجيبكم على قياس النحو، فقالوا له: ما تقول في رجل سها في الصلاة، فسجد سجدي السهو فسهو؟ فقال: لا شيء عليه، قالوا له: من أين قلت ذلك؟ قال: أخذته من باب الترخيم، لأن المرخم لا يُرخم».

ورويت هذه القصة أيضاً عن أبي زكريا الفراء، بإجابة أخرى شبيهة بالسابقة، وذلك قوله: «أخذته من كتاب التصغير؛ لأن الاسم إذا صُغِرَ لا يُصَغَّرُ مرة أخرى» (مجالس العلماء للزجاجي ص ٢٥١، ٢٥٢).

ومما ينبغي التنبيه له أن بعض علماء الفقه كانوا يلجأون إلى بعض علماء النحو؛ ليضبطوا لهم بعض مسائلهم الفقهية، ومن ذلك ما ذكره السرخسي صاحب كتاب المبسوط، في أثناء شرحه لكتاب السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني صاحب الإمام أبي حنيفة، قال: «اعلم بأن أدق مسائل هذا الكتاب وألطفها في أبواب الأمان، فقد جمع بين دقائق علم النحو ودقائق أصول الفقه، وكان - أي محمد بن الحسن، يشاور فيها علي بن حمزة الكسائي رحمه الله تعالى، فإنه كان ابن خالته، وكان مقدماً في علم النحو»، شرح السير الكبير ٢٥٢/١.

وفي مكتبتنا العربية كتاب حاشد، يدور حول ربط الفقه بالنحو، هو كتاب: «الكوكب الدرّي في تخريج الفروع الفقهية على المسائل النحوية» لجمال الدين الإسنوي، من علماء القرن الثامن.

ولا أظنني بحاجة إلى الاحتشاد والاستشهاد على سلطان النحو على سائر علوم العربية، ودورانه في نسيج الثقافة العربية، فهذا شيء مسطور في الكتب، ومحفوظ في صدور الذين أوتوا العلم، لكن لا بأس من الإشارة إلى بعض الأمثلة التي تؤكد سلطان النحو على اللغة وعلى الفكر والفن معاً، وهذه الأمثلة التي تأتيك أيها

القارئ الكريم مما لا يتنبه له كثير من الناس؛ لأنها مطروحة في أخبار لا يقف الناس عندها كثيراً: حكى المسعودي قال: «وذكر عمرو بن بحر الجاحظ في كتابه في تفضيل صنعة الكلام — وهي الرسالة المعروفة بالهاشمية — أن الخليل بن أحمد من أجل إحسانه في النحو والعروض وضع كتاباً في الإيقاع وتراكيب الأصوات»، مروج الذهب ٣٢٤/٤.

أرأيت أيها القارئ العزيز، كيف قاد الإحسان في النحو والعروض إلى الموسيقى؟ ولعل هذا خير تفسير لما قاله الأستاذ الكبير الدكتور مصطفى ناصف، فيما نقله الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف في كتابه الجيد: النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي. يقول الدكتور مصطفى ناصف: «فالنحو ليس موضوعاً يحفل به المشتغلون بالمثل اللغوية، والذين يرون إقامة الحدود بين الصواب والخطأ، أو يرون الصواب رأياً واحداً، النحو مشغلة الفنانين والشعراء، والشعراء أو الفنانون هم الذين يهتمون بالنحو، أو هم الذين يبدعون بالنحو، فالنحو إبداع».

نعم النحو إبداع، ولا يعرف هذا إلا من قرأ القرآن الكريم قراءة تبصر وإحسان، ثم أطلال النظر في كلام العرب: نثرها وشعرها، وصبر نفسه على قراءة الكتب والسَّير في دروبها، وحمل تكاليف العلم وأعبائه.

ونعم إن في النحو مناطق فن وإبداع، فإذا أنت تركت نحو الصنعة المتمثل في التعريفات والإخراج بالمحترزات والحدود والقوالب والنظام والأطراد، وما تقتضيه القسمة العقلية التي تفترض أشياء لا وجود لها؛ لاستواء الصنعة النحوية ليس غير، وسائر هذه الأمور التي جعلت أبا سعيد السيرافي يقول: «النحو منطق ولكنه مسلوخ من العربية، والمنطق نحو ولكنه مفهوم باللغة»، (الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدى ١١٥/١).

أقول: إذا أنت تركت هذا كله، وجئت إلى نحو التراكيب وبناء الجملة العربية وجدت ذلك النحو العربي الشامخ القائم على رعاية المعاني والدلالات، التي

خرجت بالنحو من دائرة القوالب والنظام والاطراد، إلى العلاقات بين أجزاء الكلام، وتلك المنداح الواسعة، من التقديم والتأخير، والحذف والتقدير، والإضمام والفصل، والاتساع والحمل، والتضمين والجوار، والاستغناء ورعاية الظاهر واعتبار المحل، ومعاني الحروف والأدوات ووقوع بعضها موقع بعض، وتبادل وظائف الأبنية، ثم لغة الشعر التي يسمونها الضرائر.

مقتضى المعنى وحق الإعراب :

وحين انفسحت هذه الآفاق أمام النحاة الأوائل فطنوا إلى ما قد يكون من تعارض بين مقتضى المعنى وحق الإعراب، الذي هو أبرز شيء في الصنعة النحوية، فحاولوا الإبقاء على الصنعة والنظام، مع إعطاء المعاني والدلالات حقها، وكان أبو الفتح ابن جني أسبق النحاة إلى هذا التوفيق، وقد عالجه في غير موضع من كتبه، وفي مقدمتها كتابه الفذ «الخصائص»، فعقد في ص ٢٧٩ من الجزء الأول منه باباً سمّاه: (باب في الفرق بين تقدير الإعراب وتفسير المعنى) قال فيه: «ألا ترى إلى فرق ما بين تقدير الإعراب وتفسير المعنى، فإذا مر بك شيء من هذا عن أصحابنا، فاحفظ نفسك منه ولا تسترسل إليه، فإن أمكنك أن يكون تقدير الإعراب على سمت تفسير المعنى، فهو ما لا غاية وراءه، وإن كان تقدير الإعراب مخالفاً لتفسير المعنى، تقبلت تفسير المعنى على ما هو عليه، وصححت طريق تقدير الإعراب، حتى لا يشذ شيء منها عليك، وإياك أن تسترسل فتفسد ما تؤثر إصلاحه».

وقال في (باب تجاذب المعاني والإعراب) الخصائص ٢٥٥/٣: «هذا موضع كان أبو علي - الفارسي - رحمه الله، يعتاده ويلم كثيراً به، ويبعث على المراجعة له، وإلطف النظر فيه، وذلك أنك تجد في كثير من المنشور والمنظوم، الإعراب والمعنى متجاذبين، هذا يدعوك إلى أمر، وهذا يمنعك منه، فمتى اعتورا كلاماً أمسكت بعروة المعنى، وارتحت لتصحيح الإعراب».

ثم كانت القفزة الثانية في ربط معاني الكلام ودلالته بالنحو على يد الشيخ عبد القاهر الجرجاني في كتابه العظيم «دلائل الإعجاز»، وكانت نظريته المعروفة في

النظم هي مجلى ذلك الربط، وبأمل هذه النظرية نستطيع أن ندرك أن المنهج العقلي المحكم الذي سار عليه عبد القاهر «هو الذي قاده إلى اعتماد النحو التقعيدي (نحو الصنعة) أساساً لإدراك القيمة الحقيقية للصياغة، وما يمكن أن يتيح هذا النحو من إمكانات تركيبية تقترب من الإنسان ومقاصده الواعية»، كما قال الدكتور محمد عبد المطلب في كتابه قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني ص ٢٨٦.

ومما ينبغي التنبيه له أن عبد القاهر الجرجاني هذا مع شهرته الواسعة في البلاغة بكتابه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، يُعرف عند الأقدمين بعبد القاهر النحوي.

فهذا النحو القائم على رعاية التراكيب والدلالات في الكلام العربي الملفوظ والمكتوب هو النحو الذي ينبغي معرفته وتأمله والاستكثار منه؛ لأنه بهذا المفهوم ملاك العربية وقوامها، بل إنه كان يعبر عنه أحياناً في القديم بالعربية، حكى ابن جني عن أبي العباس ثعلب، قال: «وكان يعقوب — يعني ابن السكيت — وضياً عظيماً الخلق، وكان ذكياً حافظاً عالماً بالشعر واللغة، صالح المعرفة بالعربية، وكان ابن قادم وغيره من أصحابنا يحتاجون إليه في الشعر واللغة، ويحتاج هو إليهم في العربية»، (الخطريات ص ١٩٨)، وكذلك عبر ابن خلدون عن النحو بعلم العربية. (انظر: مقدمة ابن خلدون ص ٥٣٢).

وجهان للفعل الواحد :

ومن الشواهد على سلطان النحو على اللغة ما ذكره أبو حيان التوحيدي قال : «سمعت في مجلس أبي سعيد — يعني السيرافي — شيخاً من أهل الأدب يقول : ومن الأفعال ما له وجهان، كشيء ينصرف على معنيين : مثل : أصاب عبدُ الله مالا، وأصاب عبدُ الله مالا، إذا أصابه مال من قسمة، ووافق زيد حديثنا، إذا صادفهم يتحدثون، ووافق زيدا حديثنا، إذا سره وأعجبه، وأحرز زيد سيفه، إذا صانه في غمده، وأحرز زيدا سيفه، إذا خلّصه من القتل وشبهه. ولو قلت : أحرز امرؤ أجله لم يجز؛ لأن الرجل لا يحرز أجله، ولكن أجله يُحرزه، إلا أن تذهب إلى قولك : أحرزت أجلي بالعمل الصالح.

ثم يقول أبو حيان: انظر — فديتك — إلى أثر النحو في هذا القدر اليسير، وتعجب عنده من أبي حنيفة الصوفي حين قال لك: إن الله عزَّ وجلَّ أمرنا بالطاعة والإيمان، وإنه لم يأمرنا بالنحو، وإلا فهات أنه يدل على أنه أمرنا بأن نتعلم «ضرب عبد الله زيدا»، وقد رأيت روغانه عن تحصيل الحجة في معرفة ذلك: ألا يعلم أن الكلام كالجسم والنحو كالحلية وأن التمييز بين الجسم والجسم إنما يقع بالحلى القائمة والأعراض الحالة فيه، وأن حاجته إلى حركة الكلمة بأخذه وجوه الإعراب حتى يتميز الخطأ والصواب، كحاجته إلى نفس الخطاب، وليس على كلامه قياس، ولا في ركافة بني جنسه التباس، وإنما غرّه من هو أنقص منه فطرة، وأخس نظراً وفكرة، أتراه يصل إلى تخليص اللفظ المبني على معنى دون اللفظ المبني على معنى آخر، إلا بحفظ الأسماء وتصريفها؟ أو تراه يقف على تحصيل المعنى المدفون في هذا اللفظ دون المعنى المدفون في هذا اللفظ إلا بتمييز وجوه حركات اللفظ؟»، (البصائر والذخائر ١/ ١٧٩ — ١٨٠).

وفي هذا النص — فوق ما أورده له — إشارة إلى ضيق بعض الناس بالنحو من قديم، وهذا مما يرجع إلى ضعف الهمم وقصور الخطى ليس غير، على نحو ما قال ربنا عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ ۝﴾ [الأحقاف: ١١]، فما ينبغي أن يتخذ مثل ذلك حجة على اطراح النحو أو إهماله.

على أن مثل «أبي حنيفة الصوفي» هذا لا ينبغي أن يهتم برأيه في النحو واستصعابه له، وذلك لجهالة شأنه وخفوت ذكره، أما أن يأتي شاعر ضخم مثل الفرزدق فيسخر من قواعد النحو، فيما أجاب به عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، في القصة المشهورة، وقوله: «علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا»، أو أن يؤثر عن الفيلسوف الشهير «ابن الراوندي — على زندقته وإلحاده — طعن في النحو ونقض على النحويين، فهذا الذي ينبغي الوقوف عنده والاحتفال به، وقد قلت رأيي في قصة الفرزدق تلك، في الهلال (ديسمبر ١٩٩٢م)، وانتهيت يومئذ إلى أن قول الفرزدق وقول سواه من الشعراء الذين أظهروا سخطهم على النحو وقواعده إنما هو

من باب المعابثة والاستطالة بالذكاء، وكأنهم يريدون أن يقولوا: إن نحوكم أيها النحاة صنعة، ونحونا فطرة، وآية ذلك أن شعرهم الذي حمل سخريتهم من النحاة ليس فيه شيء خارج عن النظام النحوي، أو خارق لقواعده، وكأنها سخرية بالنحاة لا بالنحو.

ومع هذا المأثور عن الفرزدق من استخفافه بالنحاة وخروجه أحياناً قليلة عن النظام النحوي، فقد بقي جمهور شعره على الجادة النحوية، وظل مدداً ثرياً للنحاة، ينتزعون منه شواهدهم في الدرس النحوي واللغوي والصرفي والصوتي.

وأما «ابن الراوندي» أحمد بن يحيى بن إسحاق (٢٩٨هـ) الفيلسوف المعروف، والزنديق المجاهر بالإلحاد، فقد عرف عنه الطعن على النحويين، وذلك ما ذكره أبو حيان التوحيدي قال: «وأما قوله — يعني أبا حنيفة الصوفي — : فقد نقض على النحويين ابن الراوندي نحوهم، فإنه ذاهب بهذا القول عن وجه الرشد؛ لأن ابن الراوندي لا يلحن ولا يخطيء، لأنه متكلم بارع، وجهبذ ناقد، ويبحث جدل، ونظار صبور، ولكنه استطال باقتداره على علل النحويين، ورآها مفروضة بالتقريب، وموضوعة على التمثيل؛ لأنها تابعة للغة جيل من الأجيال، ومقتربة بلسان أمة من الأمم، فلم يكن للعقل فيها مجال إلا بمقدار الطاقة في إيضاح الأمثال وتصحيح الأقوال»، (البصائر والذخائر ١/ ١٨١).

وهذا النص مهم جداً، وهو شاهد صريح على ما قلته أنا منذ أربع سنوات بمجلة الهلال، من أن الذين يهاجمون النحو قديماً لا يلحنون ولا يخطئون، وإنما هو الضيق بنحو الصنعة ليس غير، و«علل النحويين» التي ذكرها أبو حيان، إنما هي من أبرز نحو الصنعة، ومن التوافق العجيب أن هذا النص الشاهد لما قلته قد جاء فيه لفظ «الاستطالة» أيضاً، وقد استعملته أنا وصفاً لموقف الفرزدق من النحاة، واستعمله أبو حيان وصفاً لموقف ابن الراوندي من النحاة أيضاً.

وضح إذن أن النحو نحوان: نحو الصنعة، ونحو التراكيب، فالأول هو النظام

والقواعد والتعريفات والقوالب، وما صحب ذلك كله من العلة والعامل، ولبعض خلق الله الحق في أن يضيّقوا بالنحو على هذا الوصف؛ لأن فيه أحياناً ما يكدّ الذهن ويصدع الرأس، مع ما في بعض النحويين قديماً وحديثاً من ثقل وغثاء، ولكنه على كل حال علم ينبغي أن يعرف ويحاط به.

والنحو الثاني: نحو التراكيب، وهو الذي اتكأ على النظام وانطلق منه إلى إدراك العلائق بين أجزاء الكلام، وتلك المنداح الواسعة التي ذكرتها من قبل، وهذا تستطيع أن تدركه من أول كتاب سيبويه إلى النحو الوافي لعباس حسن، على تفاوت بين النحاة في ذلك، وتستطيع أن تدركه أيضاً في كتب أعاريب القرآن وتوجيه القراءات السبع والعشر والشواذ، وشروح الحديث النبوي وفي شروح الشعر وكتب الأمثال وعلوم البلاغة. والنحو بهذا الوصف لا يصح أن يُطعن فيه أو يُنتقص منه، لأن الطاعن فيه منتقص للعربية كلها، ذاهب عنها جميعها.

ومن أعجب العجب أننا لا ننتبه لمناطق العظمة في تراثنا إلا إذا نبّهنا إليها غيرنا من الطارئین على ثقافتنا وفكرنا، وهم طائفة من المستشرقين الجادين الذين عملوا بإخلاص وتفان في الكشف عن كنوزها وإبرازها، فحين التفتوا إلى ابن جني وعبقريته الفذة التفتنا نحن أيضاً إليه، ويوم أن خرج اللغوي الأمريكي المعاصر «تشومسكي» بنظريته في النحو التحويلي التوليدي، وما قاله عن «البنية العميقة» و «البنية السطحية» فرح كثير من المشتغلين بالدراسات النحوية عندنا، وقالوا: إن ذلك يتشابه مع كثير مما قدمه النحويون العرب القدماء في معالجتهم لتفسير الجمل في العربية، وجهد بعضهم في المقارنة بين جهود عبد القاهر الجرجاني وجهود تشومسكي في هذا السبيل، ويرد الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف ذلك فيقول: «ومهما تكن أسباب هذا التشابه أو التقارب في أسس المعالجة فإنه ينبغي ألا نعد ذلك من جانبنا شهادة للنحو العربي، بل قد أبالغ فأقول وبغير تواضع كاذب أو ادعاء خادع إن العكس هو الصحيح، أي أن هذا التقارب أو التشابه قد يعد شهادة لنظرية تشومسكي»، (من الأنماط التحويلية في النحو العربي ص ٦).

اللغة ليست هي النحو :

وإذ قد فرغت من التفرقة بين نحو الصنعة الذي هو النظام، ونحو التراكيب الذي هو التراكيب والعلاقات بين أجزاء الكلام، أعود إلى ما كتبه الأستاذ الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي، وأول ما يلقانا من كلامه — حفظه الله — قوله : «وبعض الناس يظنون أن اللغة معناها النحو، ولهذا قد يستغربون هذه الضجة التي نثيرها؛ لأن القيامة في رأيهم لن تقوم إذا أخطأ أحدنا أو أخطأنا جميعاً، فجعلنا الفاعل منصوباً أو حتى مجروراً، بدلاً من أن نجعله مرفوعاً، كما يطالبنا النحاة» .

وأقول: أما أن اللغة ليست هي النحو، فهذا صحيح، وقد قاله أهل العلم من قديم، ومن أقرب ما قاله القدماء قول أمير المؤمنين يحيى بن حمزة العلوي اليميني (٧٤٥هـ)، قال في كتابه الطراز ٤٤٢/٣ : «إن المقاييس النحوية تابعة للأمور اللغوية، فيجب تنزيلها على ما كان واقعاً في اللغة، فإذا ما ورد ما يخالف الأقيسة النحوية من جهة الفصحاء، وجب تأويله، ويطلب له وجه في مقاييس النحو، ولا يجوز رده لأجل مخالفته للنحو» .

ومع استقلال اللغة عن النحو وتبعيته لها، فإن له سلطاناً بضوابطه الإعرابية على دلالات اللغة، وقد مربك كلام ذلك الأديب، الذي حكاه أبو حيان .

أما قول الأستاذ حجازي عن بعضهم: «إن القيامة لن تقوم إذا جعلنا الفاعل منصوباً أو حتى مجروراً، بدلاً من أن نجعله مرفوعاً كما يطالبنا النحاة»، فالأمر في العلامة الإعرابية ليس بهذه السهولة وذلك اليسر، والذين يقولون هذا إنما يستشهدون بجملة مثل «جاء محمد» ويقولون: إن الفاعل معروف، سواء سَكَّنَا الدال أو رفعناها أو نصبناها أو جررناها، وهو كلام ركيك، لأن جملة كهذه لا تكاد توجد، لا في الفصحى ولا في العامية، فالذي يستعملها فصيحة لا بد أن يضم الدال، ولا يُسَكَّنُها إلا إذا وقف على الدال، أما في العامية — وبخاصة العامية المصرية — فلا يكاد الناس يستعملون في هذا الموضع إلا الجملة الاسمية «محمد جه» وعلى لهجة أهل دمياط وما حولها «إجة» وفيها قلب مكاني، مثل جذب وجذب، وأرانب وأنارب ومسرح ومرسح .

والعلامة الإعرابية هي قضية القضايا في النحو العربي بقسميه: نحو الصنعة ونحو التراكيب، وقد أكثر الدارسون القدامى والمحدثون من الكلام عنها، وعن العامل الذي جلبها، وهل هو عامل لفظي أو معنوي، مما لا يتسع المقام هنا لبسطه وشرحه، ومن أجمع ما كتب فيها كتاب: «العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث»، للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف.

وهذه العلامة هي إحدى القرائن النحوية، ومهما اختلف الدارسون في وضع هذه العلامة مع القرائن الأخرى، سبقاً أو توسطاً أو تأخراً، فلن يستطيع الدارس المستند إلى قراءة واسعة في كتب النحو وفي غير كتب النحو، أن يغفل أثر هذه العلامة، وأنها أحياناً تكون حاسمة في تحديد المعاني والدلالات، لا يشركها معها غيرها، ولا يقوم شيء مقامها، وأمثلة ذلك مما يطول به الكلام جداً، وأظن أنه لا يخفى على القارئ اختلاف الدلالة في قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣]، برفع اللام وجرها من (رسوله) وكذلك اختلاف تقدير عدد النسوة في قولنا: «جاء سبعة رجال ونسوة» بين جر «نسوة» ورفعها، فإذا قلنا و «نسوة» بالجر، كان عددهن سبعة، لأن «نسوة» حيثئذ تكون معطوفة على «رجال» وهم سبعة، وإذا قلنا «نسوة» بالرفع، كانت على الابتداء، والخبر محذوف، وتقدير الكلام «ونسوة لا يعلم عددهن».

سأتترك هذا وأشباهه لأذكر مثالين اثنين على الإعراب وأثره في توجيه المعنى، وعلى المعنى وأثره في توجيه الإعراب، وإنما ذكرت هذين المثالين لأن الناس لا تلتفت إليهما ولا تقف عندهما.

الفرق بين الرفع والنصب:

المثال الأول، ذكره ابن هشام في المغني ٥٢٨/٢: «قال الشَّلوِّين (٦٥٤هـ): حُكي لي أن نحويّاً من كبار طلبة الجُزُولي سئل عن إعراب (كلالة) من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً﴾ [النساء: ١٢]، فقال: أخبروني ما

الكلالة؟ فقالوا: الورثة إذا لم يكن فيهم أب فما علا، ولا ابن فما سفل. فقال: فهي إذن تمييز». قال ابن هشام: «وتوجيه قوله أن يكون الأصل: وإن كان رجل يرثه كلاله، ثم حُذف الفاعل وبُني الفعل للمفعول، فارتفع الضمير واستتر، ثم جيء بكلالة تمييزاً»، ثم عقب ابن هشام برأيه في المسألة.

أما المثال الثاني: فهو ما ذكره معربو القرآن الكريم في الفرق بين الرفع والنصب في جواب «ماذا» من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أُسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ﴾ [النحل: ٣٠]، وواضح هنا أن سياق الآيتين واحد، في (قيل) المبني للمجهول، ثم في صورة السؤال (ماذا أنزل ربكم)، ومع ذلك فقد جاء الجواب في الآية الأولى برفع (أساطير)، وفي الثانية بنصب (خيراً).

وتوجيه الرفع في (أساطير) أنه خبر لمبتدأ محذوف، تقديره «هو»، أما توجيه النصب في (خيراً) فهو أنه مفعول به لفعل محذوف، تقديره «أنزل».

قال المعربون: وإنما قُدر في الأول «هو» ولم يُقدر «أنزل»، لأن الآية إخبار عن الكافرين، والكافر جاحدٌ لإنزال القرآن، وإنما هو عنده كذب وأساطير، كما حكى القرآن عنهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أُسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، وقُدر في الثاني «أنزل» لأنه من جواب المؤمنين بأن القرآن منزلٌ من عند الله.

قال الزمخشري عقب تلاوة الآيتين: «فإن قلت: لِمَ نصب هذا ورفع الأول؟ قلت: فصلاً بين جواب المُقرّر وجواب الجاحد، يعني أن هؤلاء لما سُئلوا لم يتلعثموا، وأطبقوا الجواب على السؤال بيناً مكشوفاً مفعولاً للإنزال فقالوا خيراً: أي أنزل خيراً، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال، فقالوا: هو أساطير الأولين، وليس من الإنزال في شيء»، (الكشاف ٤٠٧/٢).

فهذا أثر العلامة الإعرابية في تحديد الدلالة والفصل بين المعاني، وسوف تقوم

القيامه فعلاً في هذا ونحوه لو رفعنا ما حقه النصب، أو نصبنا ما حقه الرفع . وترى لذلك نظائر كثيرة في الشعر، وفي غيره من مآثور كلام العرب .

ثم يقول الأستاذ الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي : «والمبالغة في الاهتمام بالنحو ليست دائماً دليلاً على نهضة أدبية أو حاسة لغوية يقظة، بل ربما كانت بالعكس دليلاً على ضعف السليقة وانحطاط الملكة، هكذا رأينا أن عصور الانحطاط التي شهدتها الآداب اليونانية في المرحلة الهلينية أو السكندرية كانت مصحوبة بنشاط واسع لعلماء النحو والعروض، وكذلك في عصور الانحطاط التي شهدتها روما في القرن الرابع الميلادي . . . »، ويجيء بعد ذلك كلام نستبقيه إلى حين .

ضعف الحجة :

وهذا كلام غريب حقاً، وبدء ذي بدء، فليس صحيحاً ولا عدلاً أن نضع نحو أولئك القوم وعروضهم بإزاء نحونا وعروضنا، فالجهة منفكة كما يقول أهل المنطق . فإن الأمر على نحو ما قال أبو عمرو بن العلاء : «ما لسان حنير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعريتنا» .

على أن الزج بهذه الكلمات : الآداب اليونانية، والمرحلة الهلينية والسكندرية، وروما في القرن الرابع . . . كل ذلك وأشباهه مما يلقيه الكاتب إلى القارئ أو السامع — وبخاصة المبتدئ — فيهزه هزاً، ثم يدهشه ويرعش عقله ويخيفه (ويخضه) فتضعف حجته في الرد عليه أو دفعه لو وجد إليهما سبيلاً، على ما جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما : «ونصرت بالرعب مسيرة شهر» .

ثم نعود إلى كلام الأستاذ حجازي الذي يقول إن المبالغة في الاهتمام بالنحو ليست دائماً دليلاً على نهضة أدبية . . . إلى آخر ما قال وانتهى إليه من أن الاهتمام بالنحو دليل على ضعف السليقة وانحطاط الملكة .

وليس بيننا وبين الأستاذ حجازي إلا التاريخ نلوذ به ونحتكم إليه : تاريخ نشأة

النحو وتاريخ الاهتمام به، ولنترك ونحن بسبيل ذلك القرن الأول وما قيل عن وضع النحو على يد أبي الأسود الدؤلي بإشارة من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ففي تلك الحقبة بعض غموض لا يُقضي إلى الاطمئنان إلى رأي، ولنقفز إلى القرن الثاني، حيث تلقى الخليل بن أحمد، عبقرى العربية، وتلميذه سيبويه الذي ترك لنا كتاباً مكتملاً محكماً لا سبيل إلى الطعن فيه أو الغض منه. وتوفي سيبويه على الأرجح سنة (١٨٠هـ) فكان هذا القرن الثاني هو بداية التصنيف النحوي الذي مهد لما بعده، فجرى الناس في أثره، ولناخذ القرنين التاليين: الثالث والرابع وننظر في حال النحو في هذه القرون الثلاثة معاً: تأليفاً ومدارسة واهتماماً، وإنما اخترت تلك القرون الثلاثة لأنها تمثل البداية والتدرج والنضج، وسوف ننظر بعد ذلك في حال اللغة والأدب في تلك القرون الثلاثة أيضاً، لنرى أثر الاهتمام بالنحو فيها علواً أو انحطاطاً وفق رؤية الأستاذ حجازي.

على أنه مما ينبغي التذكير له أنه كان هناك اهتمام بالنحو في القرنين الأول والثاني قبل ظهور كتاب سيبويه، ولكنه كان اهتماماً بالنحو، لا من حيث هو علم ذو قوانين وضوابط، ولكن من حيث الاستعانة به في محاصرة اللحن الذي بدأ يطغى ويفشو نتيجة اختلاط اللسان العربي بغيره من ألسنة الأمم الوافدة على المجتمع العربي، ونستطيع أن نقول: إن النحو في تلك الفترة المبكرة كان نحو السليقة والفطرة العربية المتوارثة، وهي تلك السليقة التي عبر عنها الشاعر بقوله:

ولستُ بنحوي يلوك لسانه ولكن سليقي أقول فأعربُ

وأخبار التصدي للحن ومحاصرته في ذلك الزمان المبكر كثيرة، من أبرزها خبران يتصلان بلحنين وقعا من شخصيتين كبيرتين، لم يمنع مركزهما الاجتماعي من تنبيههما على ما وقعا فيه من خطأ:

الخبر الأول: ما وقع من الحجاج بن يوسف الثقفي «وقد سأل يحيى بن يعمر: أسمعني ألحن؟ قال: حرفاً، قال: أين؟ قال: في القرآن، قال: ذلك أشنع له! فما هو؟ قال: تقول: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿[التوبة: ٢٤]﴾ — قرأها برفع (أحبُّ) وحقها النصب لأنها خبر كان — قال الحجاج: لا جَرَمَ، لا تسمع لي لحناً أبداً، فألحقه بخراسان، (طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ١٣)، كان الحجاج غَضِبَ فنفاه.

والخبر الثاني: عن الأخفش، قال: كان أمير البصرة يقرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، برفع (وملائكته)، فمضيت إليه ناصحاً له، فزبرني وتوعدني، وقال: تُلَحِّنُونَ أمراءكم.

وفي رواية أن اللاحن كان محمد بن سليمان الهاشمي أمير البصرة أيضاً، وأنه رضي عن الأخفش لتنبئيه إياه، وأجازه. (إنباه الرواة للقِطَفي ٤١/٢).

وقد قلت إن القرون (الثاني والثالث والرابع) تمثل بداية التأليف في النحو وتدرجه ونضجه، ففي القرن الثاني ظهر كتاب سيبويه الرائد، وفي القرن الثالث جاء أبو بكر بن السراج بكتابه الأصول، الذي قيل فيه: «كان النحو مجنوناً حتى عقَّله ابن السراج بأصوله». وفي القرن الرابع جاء العَلَمُ الضخم أبو علي الفارسي، إمام الصناعة النحوية، وتلميذه العبقري أبو الفتح ابن جني، وفي وسط هؤلاء الأعلام ظهر نحاة كثيرون، في البصرة والكوفة وبغداد والشام ومصر والأندلس.

وفي تلك القرون الثلاثة ظهر النحو ظهوراً بيناً على ساحة الفكر العربي، وأخذ الاهتمام به أشكالاً كثيرة: تأليف في النحو خالصة، وأعاريب للقرآن الكريم، وكتباً في توجيه قراءاته والاحتجاج لها، مثل: معاني القرآن للفراء (٢٠٧هـ) — والمعاني في ذلك الوقت يراد بها الإعراب — ومجاز القرآن لأبي عبيدة (٢١٠هـ) ومعاني القرآن للأخفش (٢١٥هـ) ومعاني القرآن للزجاج (٣١١هـ) وإعراب القرآن للنحاس (٢٣٨هـ) والحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي (٣٧٧هـ) والمحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات لابن جني (٣٩٢هـ).

ثم تجلّى الاهتمام بالنحو أيضاً في شروح الشعر الجاهلي والإسلامي، وقد

عُنيت هذه الشروح عناية فائقة بالنحو، مثل شروح الأصمعي، وأبي نصر الباهلي وابن السكيت وأبي العباس ثعلب، وأبي العباس الأحول، وأبي بكر بن الأنباري، وأبي سعيد السكري.

مظاهر الاهتمام بالنحو:

ومن وراء ذلك كله كان هناك مظهر رابع للاهتمام بالنحو، وهو تلك المجالس التي كانت تعقد بين عالَمين أو أكثر من علماء النحو واللغة، وقد عُرفت بالمجالس النحوية، ومن أشهرها مجلس سيويه مع الكسائي، حول المسألة الزنبورية: «كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور، فإذا هو هي، أو فإذا هو إياها»، وقد حضرها هارون الرشيد.

وقد جمع هذه المجالس — التي بلغت ١٥٦ مجلساً — أبو القاسم الزجاجي، في تأليف مستقل، باسم: مجالس العلماء، نشرها شيخنا عبد السلام هارون، برّء الله مضجعه.

أرأيت اهتماماً بالنحو أكثر من هذا؟

البقية في المقال القادم.



النحو العربي.. والحمى المستباح^(١)

[٢]

الاهتمام بالنحو كان مترامناً مع النهضة العامة التي كانت آخذة في النمو والاتساع، في علوم العرب وفنونها في ذلك الزمان، لكن التركيز هنا يكون على النهضة اللغوية والنهضة الأدبية اللتين يرى الأستاذ حجازي أنهما لا يجتمعان مع الاهتمام بالنحو:

فالعلماء الرواة يغدون ويروحون لمشاهدة الأعراب في البوادي، وكذلك رواة الشعر وجامعوه في نشاط دائم، واللغة تدوّن في تلك الرسائل الصغار القائمة على الأجناس، مثل كتب خلق الإنسان والبهايم والحشرات والخيال والإبل والنخل والنبات والمطر والسحاب واللبن، والمذكر والمؤنث، ثم تظهر المعاجم في ذلك الوقت المبكر، مثل العين للخليل بن أحمد أو الليث بن المظفر، وكتاب الجيم لأبي عمرو الشيباني.

ثم يتجه التأليف اللغوي وجهة أخرى، فينهض العلماء إلى تنقية اللغة، فيما عُرف بلحن العامة، وقد جاء ذلك صريحاً فيما صنفه الكسائي من «لحن العامة» أو ما جاء ضمناً كالذي صنعه ابن السكيت في «إصلاح

(١) مجلة «الهلal»، أكتوبر ١٩٩٦م.

المنطق»، وما صنعه ابن قتيبة في «أدب الكاتب».

أما النهضة الأدبية المواكبة لذلك الاهتمام النحوي في القرون الثلاثة المذكورة، فلست أعرف سبيلاً للتدليل عليها، ولا أحسب أن الأستاذ حجازي يخفى عليه مكان هذه الكتب واجتماع النحو واللغة والأدب فيها: البيان والتبيين للجاحظ، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والكامل للمبرد، وأمالى أبي علي القالي، ويبرز كتاب الكامل من بين هذه الكتب، بعنايته الفائقة بالنحو.

أما الشعر والشعراء فلا يخفى تألقهما في تلك القرون الثلاثة التي اهتم فيها أهل العلم بالنحو، وهاتان قائمتان بأبرز النحاة وأبرز الشعراء الذين تعاصروا في ذلك الزمان، أسوقهما تذكرة للمبتدئين، أما أهل العلم فهم أقدر مني على معرفة ذلك:

النحاة: سيبويه (١٨٠هـ)، الكسائي (١٨٩هـ)، الفراء (٢٠٧هـ)، المبرد (٢٨٦هـ)، ثعلب (٢٩١هـ)، الزجاج (٣١١هـ)، ابن السراج (٣١٦هـ)، السيرافي (٣٦٨هـ)، أبو علي الفارسي (٣٧٧هـ)، ابن خالويه (٣٧٠هـ)، ابن جني (٣٩٢هـ).

الشعراء: بشار بن برد (١٦٧هـ)، أبو نواس (١٩٨هـ)، مسلم بن الوليد المعروف بصريع الغواني (٢٠٨هـ)، أبو العتاهية (٢١١هـ)، أبو تمام (٢٣١هـ)، ابن الرومي (٢٨٣هـ)، البحتري (٢٨٤هـ)، ابن المعتز (٢٩٦هـ)، المتنبّي (٣٥٤هـ)، أبو فراس الحمداني (٣٥٧هـ)، الشريف الرضي (٤٠٦هـ).

ومن المعروف أنه كانت هناك خصوصية بين بعض هؤلاء النحاة وبعض هؤلاء الشعراء، أذكر منها ما كان بين أبي العباس المبرد والشاعرين البحتري وابن الرومي، فالبحتري يدعو المبرد إلى حضور مجلسه على النهر، في قصيدة يقول فيها:

ودوام المُدام يُذْنِيك مَمَّنْ كنت تهوى وإن جفاك الحبيبُ
فائننا يا محمد بن يزيد في استار كي لا يراك الرقيبُ

ثم يمدحه بشعر آخر، يقول فيه :

ما نال ما نال الأمير محمد إلا بيمن محمد بن يزيد

ديوان البحري ص ١٣٢ ، ٧٧٤ (تحقيق حسن كامل الصيرفي).

وابن الرومي يمدح المبرد أيضاً في قصيدة طويلة، بلغت عدة أبياتها (٩٨) بيتاً، يقول في أولها :

طرقت أسماء والركب هُجودُ والمطايا جُنحُ الأوزارِ قُودُ

ديوان ابن الرومي ص ٧٥١ (تحقيق د. حسين نصار).

ثم أذكر أيضاً الخصوصية التي كانت بين ابن خالويه وأبي فراس الحمداني، وقد شرح ابن خالويه ديوانه الذي نشره الدكتور سامي الدهان.

ومن أشهر الصلات بين نحوي وشاعر ما كان بين أبي الفتح ابن جني وأبي الطيب المتنبي، فقد اجتمعا معاً في بلاط سيف الدولة بن حمدان بحلب، وفي مجلس عضد الدولة بن بويه بشيراز، وكانا يتبادلان الإعجاب، ويتقارضان الثناء، وكان المتنبي يقول عن ابن جني: «هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس»، وكان إذا سئل عن شيء من دقائق النحو والتصريف في شعره يقول: «سلوا صاحبنا أبا الفتح»، ثم كان إذا سئل عن معنى قاله، أو توجيه إعراب حصل فيه إغراب دل عليه، وقال: «عليكم بالشيخ الأعور ابن جني فسلوه، فإنه يقول ما أردت وما لم أرد».

الاستشهاد بالشعر :

وأما ابن جني فقد كان يُجلُّ المتنبي، وهو أول من شرح ديوانه، وقد شرحه شرحين: أحدهما كبير يسمّى: «الفسر» أي التفسير، وقد طبع جزء منه بتحقيق الدكتور صفاء خلوصي، والشرح الآخر صغير يسمّى: «الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي»، وقد طبع في جزء واحد بتحقيق الدكتور محسن غياض.

ومن وراء ذلك فقد كان ابن جني يثني على أبي الطيب ويستشهد بشعره، متجاوزاً بذلك ما حدده متشدّدو النحاة من الوقوف بالاستشهاد عند الشاعر

إبراهيم بن هرمة (١٧٦هـ) ومما قاله ابن جني في ذلك عندما استشهد بشعر المتنبي: «ولا تستنكر ذكر هذا الرجل — وإن كان مولدًا — في أثناء ما نحن عليه من هذا الموضع وغموضه ولطف متسربه، فإن المعاني يتناهبها المولّدون كما يتناهبها المتقدمون» الخصائص ١/ ٢٤، ومن أقواله فيه أيضاً: «وحدثني المتنبي شاعرنا، وما عرفته إلا صادقاً»، الخصائص ١/ ٢٣٩، «وذاكرت المتنبي شاعرنا نحواً من هذا»، الخصائص ٢/ ٤٠٣، وكان يفاضه في أمور من النحو والصرف، منها قوله: «ودار بيني وبين المتنبي في قوله «وقلنا للسيوف هَلُمُّنَا» كلامٌ فيه طول» سر صناعة الإعراب ص ٧٢٢.

وحين مات المتنبي رثاه ابن جني بقصيدة أولها:

غاض القريض وأودت نضرة الأدب وصوّحت بعد ريّ دوحة الكتب

فهل تصدق بعد ذلك ما يقال عن عداوة ومُدابرة بين النحاة والشعراء؟

ثم هل بقي بعد ذلك موضع لقول الأستاذ الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي: «والمبالغة في الاهتمام بالنحو ليست دائماً دليلاً على نهضة أدبية أو حاسة لغوية يقظة، بل ربما كانت بالعكس دليلاً على ضعف السليقة وانحطاط الملكة»، هل بقي موضع لهذا الكلام؟ إلا أن يكون الأستاذ حجازي يريد نحواً آخر، وأدباً آخر غير اللذين يعرفهما الناس في تراثنا العربي.

كلام فظيع جداً:

ثم نأتي إلى أخطر شيء في كلام الأستاذ الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي، وهو قوله في سياق الحديث عن عصور الانحطاط التي يسود فيها الاهتمام بالنحو والعروض، يقول: «وكذلك في عصور الانحطاط التي شهدها الأدب العربي في العصر المملوكي، ففي ذلك العصر الذي تراجع فيه الشعر وتدهورت الكتابة ظهر ابن منظور وابن هشام». انتهى كلام الأستاذ حجازي بنصه وفصّه، وهو كلام فظيع جداً، مفزع جداً، وهو فظيع جداً، ومفزع جداً؛ لأنه دال بصريح اللفظ على أن ابن منظور

وابن هشام آيتان من آيات الضعف، ومظهران من مظاهر الانحطاط.

وأنا أسأل الشاعر الكبير، وأقول له: من أنباك هذا؟ ثم ما هي جريرة ابن منظور وابن هشام عندك حتى تهوي بهما إلى مكان سحيق من التخلف والانحطاط؟ أهو شيء استنبطته أنت بقراءتك، وقامت لك شواهد، ولمعت أمامك أدلته، فنبئنا بتأويله؟ أم هو كلام سقط إليك مما نقرأه من البلايا التي تصب علينا هذه الأيام، تريد أن تغتال تاريخنا اغتيالاً، تحت شعار: تنوير العقل العربي؟ فدلُّنا على مصدر هذا الكلام، واخرج من العُهدَة فيه.

وابن منظور هنا: هو جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الإفريقي المصري، ينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل رُوَيْفَع بن ثابت، والإفريقي في نسبه معناها التونسي، فقد كانت إفريقية في ذلك الزمان يراد بها تونس الآن.

ولد ابن منظور يقيناً بالقاهرة سنة ٦٣٠هـ، ونشأ بها وتعلم وصنّف، وتوفي بها أيضاً سنة ٧١١هـ، وخلاصة أمره أنه كان مشغلاً بالأدب نظماً ونثراً، مع معرفة بالنحو واللغة والتاريخ، وتولى وظيفة كاتب الإنشاء بالدولة، وكان كثير النسخ ذا خط حسن.

وقد عُرف ابن منظور باختصاره للكتب، فاختصر كتاب الأغاني، وهذّبه ورتبه على الحروف، وقد طبع هذا المختصر في ثماني مجلدات.

ومن الكتب التي اختصرها ابن منظور أيضاً: الحيوان للجاحظ، وزهر الآداب للحُصري، وبيتمة الدهر للشعالبي، والذخيرة لابن بسام، ونشوار المحاضرة للتونخي، وتاريخ بغداد للخطيب، والذيل عليه لابن النجار، وصفة الصفوة لابن الجوزي، ومفردات ابن البيطار، وسرور النفس بمدارك الحواس الخمس للتيفاشي، نشره الدكتور إحسان عباس، وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، ويقوم على تحقيقه الآن الدكتور رضوان السيد الأستاذ بالجامعة اللبنانية.

وقد تغيا ابن منظور من تأليف معجمه هذا غايات، أبنت عنها في مقالة لي بالهلال (مارس ١٩٩٢م)، لكنني أستاذ قارئ الكريم في أن أعيد ذكر غاية واحدة من تلك الغايات — لاتصالها بموضوعنا الآن — وهي غاية قومية وطنية، باعثها الغيرة على العربية والعصية لها، بعد أن اطرح بعض الناس الحديث بالعربية وهجروها إلى اللغة الأعجمية، وهي التركية في ذلك الزمان.

اختلاف الألسنة :

يقول ابن منظور في مقدمة اللسان: «وذلك لما رأيته قد غلب في هذا الأوان من اختلاف الألسنة والألوان، حتى لقد أصبح اللحن في الكلام يعد لحناً مردوداً، وصار النطق بالعربية من المعايير معدوداً، وتنافس الناس في تصانيف الترجمات في اللغة الأعجمية، وتفاصحوها في غير اللغة العربية، فجمعت هذا الكتاب في زمن أهله بغير لغته يفتخرون، وصنعت كما صنع نوح الفلك وقومه منه يسخرون». فهذا حديث ابن منظور، سقته على سبيل الوجازة والاختصار.

أما حديث ابن هشام فمُجمل القول فيه أنه: جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن أحمد... ابن هشام الأنصاري المصري، ولد بالقاهرة سنة (٧٠٨هـ) وتوفي بها سنة (٧٦١هـ)، حصل علوم العربية، واشتغل بالتدريس والإقراء، وصنف تصانيف كثيرة، جمهورها في علم النحو، وقد بلغت تأليفه فيه نحو (٣٠) مصنفاً، ما بين رسالة صغيرة، إلى كتاب كبير، ومن أشهرها: الإعراب عن قواعد الإعراب، وقطر الندى وبلل الصدى، وشذور الذهب، وأوضح المسالك، وشرح ألفية ابن مالك، المسمى أوضح المسالك. ويأتي على رأس مصنفاته النحوية كلها: كتابه الممتع: «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب»، وهو الذي يقول عنه ابن خلدون: «ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها، استوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة، وتكلم على الحروف والمفردات والجمل، وحذف ما في الصناعة من المتكرر في أكثر أبوابها، وسمّاه بالمغني في الإعراب».

وكان ابن خلدون قد وصف أمر ابن هشام على الجملة، فقال وهو يتحدث عن صعوبة تحصيل علم من العلوم من جميع جهاته، والإحاطة به كله، ومثل لذلك بعلم العربية، وهو علم النحو، فقال في سياق حديث طويل: «كيف يُطالب به المتعلم وينقضي عمره دونه، ولا يطمع أحد في الغاية منه إلا في القليل النادر، مثل ما وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد من تأليف رجل من أهل صناعة العربية، من أهل مصر، يعرف بابن هشام، ظهر في كلامه فيها أنه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة، لم تحصل إلا لسيبويه وابن جني وأهل طبقتهم لعظم ملكته وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه وحس تصرفه فيه، ودل على أن الفضل ليس منحصرًا في المتقدمين»، المقدمة ص ٥٣٢.

(تحقيق):

شاعت عن ابن خلدون في حق ابن هشام كلمة تناقلها مترجموه، وهي قوله: «ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية، يقال له ابن هشام، أنحى من سيبويه»، ولم أجد هذه الكلمة بسياقها هذا وحروفها في مقدمة ابن خلدون، وإن كان الكلام الذي نقلته من المقدمة يؤول إليها ويدلُّ عليها. وقد تتبعت الكلمة فوجدت أن الذي ذكرها بهذا النسق والسياق: هو ابن حجر العسقلاني، في ترجمة ابن هشام من الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٤١٦/٢، ويلاحظ أن ابن حجر صَدَّرَ هذه الكلمة بقوله: «قال لنا ابن خلدون» فهو سماع إذن، وقد ذكر شمس الدين السخاوي في الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ١٤٨/٤، أن ابن حجر اجتمع بابن خلدون مراراً، وسمع من فوائده.

تعمق مذهب النحاة:

ويقول أستاذنا الدكتور شوقي ضيف عن ابن هشام: «وقد تحوّل يتعمقُ مذاهب النحاة، وتمثلها تمثلاً غريباً نادراً، وهي مبثوثة في مصنفاته مع مناقشتها وبيان الضعيف منها والسديد، مع إثارتها ما لا يحصى من الخواطر والآراء في كل ما يناقشه وكل ما يعرضه»، ويقول أيضاً عن مصنفاته: «وهو يمتاز فيها جميعاً بوضوح عبارته،

مع الأداء الدقيق إلى أبعد حدود الدقة، مسهباً مطنباً، أو موجزاً مجملًا»، المدارس النحوية ص ٣٤٦، ٣٤٧.

فهذا ابن هشام يراه الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي مظهرًا من مظاهر الضعف والانحطاط، ويراه ابن خلدون وشوقي ضيف: محيي صناعة النحو في تلك العصور الوسطى بعدما كادت تؤذن بالذهاب، وأنه قرين سيويه وابن جني، وأنه قد تعمق مذاهب النحاة وتمثلها ثم أحسن عرضها ومناقشتها... وهذا على نحو ما قال ربنا عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۖ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦، ٧].

وهذا ابن منظور يراه الأستاذ حجازي مظهرًا من مظاهر الانحطاط والضعف أيضاً، ويراه أهل العلم بالعربية صاحب أول معجم عربي كبير، جمع جذور اللغة العربية بمناهج المعاجم المختلفة «لسان العرب» تذكره ولا تصفه، لأنه أحد معالم حضارتنا العربية.

على أن للقضية وجهاً آخر، هو ما ذكره الأستاذ حجازي ويذكره غيره من الدارسين الجامعيين وغير الجامعيين، من وسم العصر المملوكي بالانحطاط والتخلف لضعف الأدب والشعر فيه. ورد هذا الكلام ونقضه في غير هذا المكان، لكنني أشير هنا إلى أنه لولا ما صنعه ابن منظور وابن هشام ومن إليهما من لغوي ونحاة وعلماء القرن الثامن (وهو العصر المملوكي) من هذه الأعمال الموسوعية لضاع علم كثير، ولضعفت ذاكرة الأمة العربية ثم تلاشت، وهو (الدور) العظيم الذي اضطلعت به مصر والشام في ذلك الوقت غداة سقوط بغداد، وإيذان شمس الأندلس بالغروب، فكانت القاهرة ودمشق ملاذاً وملجأ لعلماء بغداد والأندلس، فواصلوا المسيرة التي بدأوها في بلدانهم قبل أن تغشاها النوائب، وشاركوا قرناءهم من علماء مصر والشام في تلك الأعمال التجميعية الضخمة، كابن منظور وابن هشام وصلاح الدين الصفدي، وشمس الدين الذهبي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وأبي الحجاج المزي، وأبي حيان الأندلسي، وابن سيد الناس اليعمري، وشهاب الدين النويري، صاحب «نهاية الأرب في فنون الأدب» الذي يقول فيه المستشرق فازيليف: «إن نهاية

الأرب على الرغم من تأخر عصره يحوي أخباراً خطيرة عن صقلية، نقلها عن مؤرخين قدماء لم تصل إلينا كتبهم، مثل ابن الرقيق وابن رشيق وابن شداد وغيرهم».

فما ينبغي أن تكون بعض مظاهر الضعف في الشعر والكتابة الأدبية في العصر المملوكي، صارفة الأنظار عن مظاهر الحضارة العربية في ذلك العصر، فلنكف إذن عن ثلَب هذا العصر وتجريحه. ومرة أخرى: لولا ابن منظور وابن هشام وأشباههما من الحَفَظَة لضاع الإرث والورثة، ولم يجد الأستاذ حجازي عربية يقيم بها لسانه، وينسج بها شعره.

وليعلم الشاعر الكبير أن مكانته العالية التي اقتعدها في دنيا الشعر في زماننا هذا ليست مؤهلة له لأن يذهب هذه المذاهب في دنيا اللغة والنحو، فاللغة بحر لا ساحل له، والنحو صعب وطويل سُلَّمه، ولست آمن إذا ظل الشاعر الكبير ماضياً في هذا الطريق: طريق الجراءة على اللغة والنحو، لست آمن أن يقوم له أحد المعيدين الصغار الذين تخصصوا في هذين العلمين، فيقعد له كل مرصد، ويأتيه من كل مكان، حتى ينقض كلامه غُرُوة غُرُوة، «وأول راض سنة من يسيرها» كما يقول خالد بن زهير الهذلي.

هجوم وازدراء:

على أن هذا الذي ذكره الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي عن النحو العربي إنما هو نفخ في نار خامدة، شَبَّت في العقود الأخيرة من هذا القرن ثم طَفِئَتْ، ثم شبت ثم طَفِئَتْ... وهكذا، على نحو ما قال ربنا سبحانه: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وإذا كانت ثقافة هذه الأمة العربية كلها قد تعرضت للتقصص والتجريح، كقولهم في تفسير القرآن إن به إسرائيليات، وقولهم في الحديث إن به وضعاً وضعفاً، وإن في الشعر انتحالاً، وفي الأدب ذاتية، وفي البلاغة تكلفاً وزخارف وأصباعاً... إلى آخر هذا الكلام المعاد المموج، فإن النحو العربي قد ذهب بالهجوم كله وبالازدراء كله.

على أن أغرب ما في الأمر أنه قد صار (مَلْطَشَة) يتكلم فيه من يعرف ومن لا يعرف، فإن بعض الذين يكتبون عن النحو الآن لا صلة لهم به، لا من قريب ولا من بعيد، وإنما هي نُقُول ومتابعات ينقلها لاحق عن سابق، ثم ينسبها إلى نفسه ويتنفخ بها على خلق الله، وهذا هو الزور بعينه، على ما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما: «المتشبع بما لم يُعطَ كلابس ثوبي زور»، وهكذا تسير الأمور، وكأن الأمر في الكتابة عن النحو قد صار (على المشاع).

ومن ذلك ما كتبه الأستاذ بدر نشأت في الأهرام ١٩٩٦م/٧/٥ بعنوان: «بين فصحي نعرفها وعامية نجهلها»، وفي هذه الكلمة ترديد لأقوال السابقين، مع تخليط كثير، وجراءة عجيبة، من مثل قوله: «إن القراءة الصحيحة السليمة تفتقد السرعة والمباشرة، فالقراءة بالتونين تطيل الوقت، وتضاعف جهود النطق، وهي أمور ما عادت تتفق وإيقاع العصر وتتعارض مع النزوع البشري المطرد إلى الاقتصاد في الجهد والوقت، فاللغة كائن حي، لا بد لها من أن تلاحق إيقاع الحياة وتكيف معه».

وأنا لا أفهم معنى القراءة بالتونين هذه؟ هل التراكيب النحوية كلها تجري في نطقها على التونين؟ فما بال الأسماء التي لا يجتمع معها التونين، مثل الأسماء المعرفة بأل، والأسماء المعربة المضافة، والأسماء المبنية، والأسماء الممنوعة من الصرف، والثنى والمجموع؟ ثم ما بال الأسماء الموقوف عليها؟

ويقول الأستاذ بدر نشأت أيضاً: «ويجب أن يعلم النحويون عندنا أن علم النحو العربي يحتاج في كثير منه إلى صياغة جديدة، فقد قام على رؤية معيارية، وعمد إلى الافتراض، واستنباط القواعد التي تضبط الجانب الكتابي، وأهمل الجانب الصوتي الذي هو موطن اللغة الأصلي، وهو ما أدى إلى ما نشكو منه اليوم من تعقيد في اللغة العربية».

وهذا كلام مكرور ومُعاد، أعرف منابته ومغارسه، كما قالت العرب في

أمثالها: «سِنَّشَنَةُ أَعْرِفَهَا مِنْ أَخْزَمَ»، ولا تغرنك هذه العبارات: «إيقاع العصر، واللغة كائن حي، وصياغة النحو صياغة جديدة...»، أبعد أربعة عشر قرناً من جهود الرجال الكبار تطلب للنحو صياغة جديدة؟ (صياغة إيه يا راجل؟ وَحَدَّ اللهُ وَصَلَ عَلَى اللّٰي حِشْفَعُ فَيْكُ!).

ولا بأس علينا إن شاء الله من الإلمام بشيء من العامية، فإنها تحلو في هذا الموضوع، ولا تقوم الفصحى مقامها، وأيضاً فإن ذلك من باب المناسبة أو المشاكلة، كما يقول علماء البلاغة؛ لأن الأستاذ بدر نشأت قصاص بارع، ومكانه في الأدب معروف، وما زلت أذكر مجموعته القصصية الجيدة التي نشرها في الخمسينات «مساء الخير يا جدعان»، وقد مزج فيها بين الفصحى والعامية مزجاً رائعاً، مع تطويعه العامية المصرية لبعض المحسنات البديعية، كالجناس والتورية، على نحو ما كان يفعل الشاعر العظيم فؤاد حداد، رحمه الله، لكن أن يسلك الأستاذ بدر نشأت تلك الدروب الضيقة في النحو والصرف واللغة، فهذا ما لا يجمل به، ولا يحسن منه.

أقول قولي هذا، وأنا أعلم يقيناً أننا جميعاً أصحاب هذه اللغة، لنا أن نتحاور حولها، وأن نبدي الرأي فيها، لكن الأمر مشروط بتقدم الأهلية وامتلاك الأدوات، كما قالت العرب في أمثالها: «بُتَّ نَسَباً وَاطْلُبْ مِيراثاً».

ويبدو لي أن مجال الحديث مع من يهاجمون النحو العربي ينبغي أن يأخذ منحى آخر، ففي نيتي إن شاء الله أن أسأل من يكتب عن النحو الآن جملة من الأسئلة، فمثلاً أقول له: ماذا تعرف عن نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة؟ ماذا قرأت من كتب النحو الأولى؟ وماذا في مكتبتك الخاصة منها؟ ثم أسأله عن طائفة من المصطلحات النحوية التي تدور في كتب القوم، وبعد ذلك أضع أمامه بعض أبيات من الشعر وقطعة من الشر، وأطلب إليه أن يقرأ هذا وذاك قراءة صحيحة أو مقاربة، فإن جاءت الإجابة على ذلك كله وفق المراد، قلت: أجل ونعمي عين، هات ما عندك، ومددت حبال الحديث بيني وبينه، وإن تعثر وكبا

قلت: حسبك فقد سقطت مؤونة الكلام بيني وبينك، فانت غريب المحل، ناء عن الديار.

ثم أزيدك عجباً أيها القارئ الكريم — ومن يعيش ير عجباً، كما قالت العرب — أن النحو العربي الآن يهاجم أيضاً من بعض الإسلاميين الذين يصرخون ليل نهار، دفاعاً عن الإسلام وخوفاً عليه، ولكن كيف يهاجم هؤلاء النحو؟ سمعت كبيراً منهم في محفل عام يقول: «إن المسلمين الأوائل شغلوا بإعراب القرآن عن تطبيقه»، وقد غفل هذا الغبي — نستغفر الله من فاحش القول — عن أن كثيراً من كلام ربنا عز وجل لا يفهم ولا يطبق إلا إذا عُرف وجهه النحوي الصحيح، والأمثلة من ذلك كثيرة لا أريد أن أطيل بذكرها، وقد ذكرت شيئاً منها في صدر كلمتي.

وما بقي إلا الإشارة إلى أن النفخ في نار الهجوم على النحو العربي في هذه الأيام، إنما خرج من كير الزميل العزيز الدكتور أحمد درويش، الذي كتب خمس مقالات بجريدة الأهرام أيضاً، اختار لها عنواناً جذاباً هو «أنقذوا اللغة من أيدي النحاة»، وفي هذا العنوان من الإثارة وفتح الشهية ما ترى.

وأخطر ما في كلام الزميل العزيز أنه استطال فيه بذكائه، واحتشد له بتلك المصطلحات والتراكيب التي تخطف بصر القارئ وتهزه هزاً وتخيفه وتخشعه على ما وصفت من كلام الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي من قبل. وهو نمط من الكلام إن أعجب بعض الناس فإنه عند كثير منهم خفيف هين، كما قال الشاعر: «وخمر أبي الرِّوْقَاءِ ليست تُسْكِر».

وليس من همي هنا أن أنقض كلام الزميل العزيز أو أردعه، فلذلك موضع آخر، لكنني أريد أن أذكره فقط بأن هذا النحو القديم الذي سخر منه ومن أعلامه، ثم دعا إلى إنقاذ اللغة منه ومنهم: هو الذي أنطق لسانه وفجر بيانه؛ فإن الزميل العزيز ممن ينتمون إلى جيل الحفظة: حفظة المتون، فقد التقى وهو في طراءة الصبا ثم في ميعة الشباب بالتحفة السنية شارحة الآجرومية، وتنقيح الأزهرية وقطر الندى وشذور

الذهب وابن عقيل وأوضح المسالك، ولو أن زميلنا العزيز تعلم النحو بعيداً عن هذه الكتب، ووفق منهجه الذي يقترحه اليوم لما استقام له بيان، ولا نهضت له حجة.

وهذا الإعلال والإبدال الذي يهزأ به زميلنا العزيز: هو الذي أعانه على معرفة المعجم العربي، بمعرفة الزوائد والأصول في الأبنية العربية، ولولا هذا الإعلال والإبدال ما عرف أن «تراث» من «ورث» وأن ميناء من «وَنَى»، وأن «تترى» من «وتر»... وهلم جرّاً. فهذا موضع المثل «أكلًا وذمًا».

وما ينبغي أن يكون في تسويغ الزميل العزيز لكلامه أنه يغار على النحو العربي، وأنه يريد له أن ينهض من كبوته، ويقوم من عثرته، لا ينبغي أن يقول هذا؛ لأنه نَقَبَ نقباً وأباح حمى، فاتكأ بعض الناس على ما قاله في مقالاته الخمس، واندفع يميناً وشمالاً، يحارب بسيفه وينزع عن قوسه، فالزميل العزيز شريك في هذه الحملة الشرسة على النحو العربي، شاء أم أبى، على ما قال الشاعر:

فإلاً يكونوا قاتليه فإنه سواء علينا مُنْسِكَاهُ وضارِبُهُ

ولو لم يكن إلا الوفاء لهذه السنوات التسع التي قضاها الأستاذ الدكتور أحمد درويش بالأزهر الشريف، فملأت شرايينه بدم العربية، وكست عظمه لحم الفصحى، لكان في ذلك ما يزعجه عن الهجوم على النحو العربي، الذي هو ملاك العربية وسلطانها.

إن الأيام الأولى عزيزة علينا، نحرص عليها، ونذود عنها، ونفخر بها، أليس كذلك يا دكتور؟

ولشد ما يعجبني ويؤنسني كلام الأستاذ الشاعر محمد إبراهيم أبو سنة، الذي ما يفتأ يذكر فضل الأزهر عليه، وعلى لسانه، فيقول: «كانت دراستي في الأزهر قد أمدتني بفيض من الأبيات المتناثرة في كتب النحو والبلاغة، وأصبح الشعر هم الليل والنهار»، تجربتي مع الإبداع (الهلال يونيه ١٩٩٤م)، وأشار إلى مثل هذا أيضاً في الأهرام ١٩٩٦م/٦/٢٥.

وبعد... .

فقد كتب الأستاذ الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي كلامه هذا الذي أدرت عليه مقالتي، بجريدة الأهرام، يوم ١٩٩٦/٦/٢٦م، وتأخر ردي عليه إلى هذا الوقت، لأنني كنت أريد أن أمهد له العذر، لعله يستدرك ما فرط منه، أو يفسر ما أشكل على الناس من كلامه، ولم يفعل الأستاذ حجازي شيئاً من ذلك، ولكنه على العكس حشد في صفحته في الأسابيع التي أعقبت مقالته، طائفة من كتابات القراء: رضا عما كتب، وحفاوة بما قال! والله الأمر من قبل ومن بعد.

* * *

هل أدلكم على تجارة؟^(١)

مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن — وراعيها معالي الشيخ أحمد زكي يمانى — ومركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، وجائزة الملك فيصل العالمية، وجائزة محمد حسن فقي الشعرية، وجائزة سلطان بن علي العويس بالشارقة، ومؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري بالكويت، وجائزة الشيخ عبد الله مبارك الصباح للآداب والفنون بالكويت: نجوم تلالآت في سماء الثقافة العربية، فبددت ظلمة غشيت أمتنا العربية، أطبقت عليها زمناً، وصيحات دوت في سمع الدنيا، فحركت جسداً خامداً ظنوا أنه ميت وما هو بميت، ولو قدر لهذه الجهود الطيبة الراشدة أن تنمو وتطرد، وألا تقف في أوائل الطريق أو منتصفه لكان الحال غير الحال.

ولما كانت هذه الشمس قد طلعت في أفق الجزيرة العربية ودول الخليج العربي، فقد يسر إلى الخاطر أن هذا البذل وذلك السخاء مرتبطان بتلك الثروة البترولية التي أفاءها الله على القوم في العقود الخمسة الأخيرة، وهذا سبب معين بلا شك، ولكن ليس هو كل الأسباب، فإن الله جلت قدرته وعظمت حكمته حين يسر لتراث العربية من نذروا أنفسهم لتصنيفه وجمعه وتسجيله، في جهاد دائب لم تشهده أمة من الأمم، ولم تعرفه ثقافة من الثقافات، قد تمت الفضل وأكمل النعمة بأن هياً لذلك التراث أيضاً من عملوا على نشره وإذاعته، وتكريم أهله، والأخذ بأيديهم، لا يضمنون بجهد أو مال، فقد وقف كثير من أهل اليسار والسعة وراء أهل العلم،

(١) مجلة «العربي»، العدد ٤٥٨، يناير ١٩٩٧م.

وجعلوا من أموالهم نصيباً مفروضاً لطبع الكتب وتعميم النفع بها.

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي بدأ نهر الخير يتدفق على يد هؤلاء الأثرياء الأبرار الذين سعوا في طبع أصول الكتب العربية، ولن يتسع المقام هنا لذكر أولئك الأثرياء، فلنكتف بأبرزهم، وأولهم: العلامة أبو الطيب صديق بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني القنّوجي البخاري، وهو أحد رجال النهضة الإسلامية المجددين، وصاحب المؤلفات الشهيرة: الدين الخالص، وأبجد العلوم، والتاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول، وكان هذا الرجل مع اشتغاله بالعلم والتصنيف ميسوراً صاحب ثروة، فقد تزوج بملكة بهوبال، فعظم شأنه وكثرت ثروته، وقد كان من فضل الله على هذا الرجل أن وفقه لأن يطبع على نفقته أعلى كتاب في شروح الحديث، وهو «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» للحافظ ابن حجر العسقلاني المصري الشافعي.

ومن هذه الطائفة النبيلة: أحمد بك أحمد الحسيني الشافعي المحامي، المولود بالقاهرة سنة ١٢٧١هـ = ١٨٥٤م، اشتغل بالمحاماة ونبح فيها، ثم انقطع للتأليف، فكانت له رسائل معظمها في الفقه الشافعي. وقد أنفق هذا السري النبيل الكثير على طبع كتاب «الأم» للإمام محمد بن إدريس الشافعي، وقد سمعت من مشايخي من أهل العلم، وعلماء المخطوطات أن السيد أحمد الحسيني هذا، باع «عزبة» من أملاكه للإنفاق على طبع كتاب «الأم».

ومن وراء هذين الاسمين الكبيرين نرى أسماء كثيرة مضت في ذلك الطريق العظيم.

ولم يقف الأفراد وحدهم لطبع الكتب على نفقتهم، فقد رأينا في ذلك الزمان قيام جماعات من أهل العلم ومحبيه لنشر الكتب الموسوعية، نذكر منها جمعية المعارف بمصر، التي أسسها محمد عارف باشا عام ١٨٦٨م، وقد وصل أعضاء هذه الجمعية إلى «٦٦١» عضواً، وشركة طبع الكتب العربية سنة ١٨٩٨م. بل إن جماعة من أهل الخير في مكة المكرمة قد نشطوا للإنفاق على طبع كتاب خزانة الأدب

لعبد القادر البغدادي، وهو أكبر وأهم كتاب في شرح شواهد العربية. وقد تم طبع هذا الكتاب بمطبعة بولاق سنة ١٢٩٩هـ = ١٨٨٢م، وجاء في أربعة أجزاء ضخام، وطبع بهامشه كتاب شرح الشواهد الكبرى لبدر الدين العيني.

وهذه أسماء أهل مكة الذين ساهموا في طبع هذا الكتاب الجليل، كما ذكرها مصحح الكتاب الشيخ محمد قاسم، قال: «هذا وكان حسن طبعه وزهر ثمر طبعه على ذمة عصابة أجلة نبلاء، لهم في نشر العلوم والمعارف اليد البيضاء، فاستحقوا بذلك الثناء الجميل. وهاك مقادير حصصهم على هذا التفصيل: فقيراط ونصف لتاج المفتين حضرة الفاضل الشيخ عبد الرحمن سراج، مفتي بلد الله الأمين، وثلاثة قراريط لحضرة العلامة الشيخ عبد الرحمن الشيبسي عمدة الأماثل، وقيراط ونصف للسامي الماجد حضرة الشيخ أحمد المشاط عين الأماجد، وثلاثة قراريط لذي القدر السني حضرة الحاج عبد الواحد الميمني، وثلاثة قراريط لذي المورد الهني حضرة الحاج حسين بن عبد الله الميمني، وستة قراريط لذي المشرب الأدبي حضرة الفاضل الشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد الباز الكتبي، وستة قراريط للمستعين بربه الغني حضرة الحاج أبي طالب الميمني».

وهنا تنبيهان: الأول: أن مصحح الكتاب لم يذكر أن هؤلاء الأعلام من أهل مكة المكرمة، ولكنني عرفتهم من خلال إقامتي بالبلد الحرام، ورأيت أسماءهم تتردد في سلسلة أبنائهم وأحفادهم وعائلاتهم.

والثاني: أن هؤلاء الرجال المكيين الذين أنفقوا على طبع الكتاب سنة ١٢٩٩هـ = ١٨٨٢م، لم ينفقوا عليه من عائد البترول، فلم يكن البترول قد عرف يومئذ بتلك البلاد، فالأمر راجع إلى عزائم الرجال لا إلى كثرة الأموال.

وهكذا اجتمع على طبع التراث العربي بمصر، في أواخر القرن التاسع عشر، الهندي والمصري والحجازي والحضرمي، وغيرهم ممن لم يبلغنا خبره، وهو تجمع عربي إسلامي شامخ، قبل أن تكون للعرب جامعة، وقبل أن يوجد للإسلام منظمة.

نهر العطاء :

وعوداً على بدء، فإن هؤلاء الأثرياء النبلاء من أهل الجزيرة العربية والخليج الذين بدأت بهم حديثي، موصولون بنهر العطاء الذي شقه أهل الخير والفضل من أمتنا العربية والإسلامية، وهم ينفقون بسخاء لا حدود له، سواء في جمع المخطوطات وفهرستها والتعريف بها، أو في طبع الكتب وإذاعتها، أو في رصد الجوائز للعلماء والأدباء، وقد عرفت ذلك عن قرب، حيث شاركت في نشاط بعض هذه المؤسسات، فقد دعيت إلى التدريب على فهرسة المخطوط الإسلامي في ثلاث دورات أقامتها مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي «أحمد زكي يماني» بالقاهرة واستانبول ولندن، ثم شاركت في ندوة عن تاريخ الطباعة العربية في القرن التاسع عشر، أقامها مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، وفي هذه وتلك رأيت أهدافاً نبيلة وخططاً محكمة راشدة، ورجالاً مخلصين أمناء، وإذا أتيح للعمل شرف المقصد ونبل الغاية وخلوص النية ونزاهة النصح، بلغ من النجاح مبلغه، وانتهى من التوفيق إلى مداه.

فهاأنذا أيها السادة الأثرياء أدلكم على تجارة رابحة، وأفتح أمامكم باباً واسعاً من أبواب الخير، وأسأل الله أن تشرح له صدوركم، وتهش له قلوبكم.

وذلك أني امرؤ شُغلت بالكتاب العربي، مخطوطاً ومطبوعاً، على امتداد سبعة وثلاثين عاماً، وكان اهتمامي بالكتاب العربي المخطوط من طريق اشتغالي بنسخ المخطوطات في صدر شبابي، ثم عملي بمعهد المخطوطات التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، فسافرت كثيراً لانتقاء المخطوطات وفهرستها. ثم كان احتفالي بالكتاب العربي المطبوع عن طريق اشتغالي بتحقيق الكتب، ومن أهم عدة المحقق معرفة المطبوعات وتمييز ما بين الطبعات حتى يقوم توثيق النقول وتخريج الشواهد على أساس صحيح.

ثم إنني نظرت وأطلت النظر، فرأيت أننا، على مستوى الأمة العربية والإسلامية قد عنيينا كثيراً بأمر المخطوطات، فأقمنا لها معهداً تابعاً لجامعة الدول العربية، عام

١٩٤٦م، كان رائداً في هذا المجال، فدل الناس على أماكن المخطوطات، وفتح أمامهم قضاياها ومشكلاتها، فتعددت بعد ذلك مراكز تجميع المخطوطات وصورها، في الجامعات العربية، أو في مراكز البحوث التابعة لها، ثم عقدنا للمخطوطات أكثر من مؤتمر، وأصدرنا أكثر من توصية، وهذا كله عمل صالح وجيد ومطلوب، وينبغي ألا نتوقف فيه عند حد، فلا يزال في الزوايا خبايا. لكننا في الوقت نفسه أهملنا شأن المطبوعات، إلا ما كان من بعض الرسائل الجامعية المحدودة التي تظهر هنا وهناك، وبعض الندوات التي أقيمت حول الطباعة العربية، ولعل أهمها وأبرزها تلك الندوة التي أقيمت في أكتوبر الماضي بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، لكن هذه الجهود كلها تدور حول تاريخ الطباعة العربية، والذي أدعو إليه اليوم شيء آخر، وهو باختصار شديد «تجميع الكتاب العربي المطبوع».

تفاصيل المشروع:

لقد بدأت الطباعة العربية بمدينة فانو Fano بإيطاليا، في أوائل القرن السادس عشر، ثم تعددت المطابع العربية بعد ذلك في أوروبا وبلدان الشرق، وفي مقدمتها الآستانة «استانبول» ثم كانت الوثبة الكبرى للطباعة العربية بمطبعة بولاق بمصر، التي بدأت نشاطها نحو سنة ١٨٢٠م.

وإذا كان من أقدم المطبوعات العربية كتاب «الكافية» في النحو لابن الحاجب، الذي طبع في روما بإيطاليا سنة ١٥٩٢م، و «القانون» في الطب لابن سينا الذي طبع في روما أيضاً سنة ١٥٩٣م، فإن هذه أربع مائة سنة في تاريخ الطباعة العربية، أخرجت المطابع خلالها ألوف الألوف من الكتب العربية الكبار والأوساط والصغار، في مختلف العلوم والفنون والآداب.

وهذه الكتب المطبوعة أودعت مكتبات عامة ومكتبات خاصة، فالذي أودع منها في المكتبات العامة سجل ودون في فهرس، أما الذي أودع في المكتبات الخاصة فهو في غالب أمره محفوظ مرعي ما دام صاحب المكتبة حياً يرزق، فإذا ما جاء أمر الله ولم يكن له ولد من أهل العلم، تفرقت هذه الكتب بدداً.

ومما ينبغي التنبيه إليه أن بعض هذه المكتبات الخاصة تحتوي على بعض المطبوعات النادرة التي ربما لا توجد في المكتبات العامة، وتعليل ذلك سهل، فإن صاحب المكتبة الخاصة يحرص على اقتناء النواذر والنفائس، وهو يجمع الكتب على عينه، ويتعهدا بالحفظ والرعاية، وأيضاً فإن قانون الإيداع الذي كان يلزم الناشرين وأصحاب المطابع بإيداع نسخ من المطبوعات في دور الكتب الوطنية، لم يكن معروفاً في تلك الأيام، وعلى هذا فكثيراً ما بحثنا عن كتاب مطبوع قديماً في دار الكتب المصرية فلم نجده فيها، على كثرة مخزونها ومحفوظها، ثم وجدناه في مكتبة شيخنا محمود محمد شاكر أو السيد أحمد صقر أو حسن كامل الصيرفي، ومن إليهم من محبي الكتب وجامعيها، وقل مثل هذا في سائر الأقطار العربية والإسلامية.

على أن هذه الكتب التي تقادم عهد طباعتها قد صارت الآن في حكم المخطوطات، في ندرتها وصعوبة الحصول عليها، ثم في قلة العارفين بها، وهذه مسألة في غاية الأهمية، فإن للمطبوعات علماء، كما أن للمخطوطات علماء، ويتجلى علم علماء المطبوعات في معرفة أماكن طبع الكتاب، وعدد طبعاته، وفرق ما بين هذه الطبعات، وقد أدركت جيلاً عظيماً من علماء المطبوعات هؤلاء، منهم محمد رشاد عبد المطلب في مصر، وأحمد عبيد بدمشق، والفقير التطواني بمدينة سلا من المغرب، والحاج مظفر أوزاق باستانبول، وقد انتقلوا جميعاً إلى رحمة الله، ويخشى أن يوصد هذا الباب بموت هؤلاء العلماء، على ما جاء في الحديث الصحيح: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، فإذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهلاً فاستلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا».

وقد بدأت آثار غياب هذا العلم تظهر، فأنت تقرأ الآن مثلاً رسالة جامعية في مصر، تتناول قضية من قضايا تاريخ الأندلس أو المغرب، فترى فجوات كثيرة ونقصاً ظاهراً لغياب بعض المراجع الأندلسية والمغربية عن ذلك الطالب الذي يعد رسالته في مصر، وأنتى لمثل هذا الطالب أن يحصل على مرجع من مطبوعات تونس، أو مطبوعات فاس الحجرية القديمة؟

والذي يقال عن غياب بعض المراجع الأندلسية والمغربية المطبوعة في فاس أو تونس، قديماً، يقال أيضاً عن مطبوعات كثيرة في مختلف العلوم والفنون طبعت في مصر في أوائل الطباعة العربية بمطبعة بولاق، أو بالمطابع الأهلية التي انتشرت بالعشرات وبما فوق العشرات، في قلب القاهرة المعزية حول الأزهر والحسين، وكثير من طلبة العلم الآن لا يعلمون شيئاً عن هذه المطبوعات، ولذلك تأتي بعض دراساتهم وأبحاثهم وبها جهات من النقص كثيرة.

ولو أنك جئت الآن إلى معيد بإحدى الكليات الأدبية، وسألته مثلاً عن هذه الكتب الثلاثة: الفتح - أو الفيح - القسي في الفتح القدسي، والفلاكة والمفلوكون، والمكاثرة عند المذاكرة، لمن هي؟ ومتى طبعت وأين؟ لما عرف أن الأول للعماد الأصفهاني، وأنه طبع بمطبعة الموسوعات بمصر سنة ١٣٢١هـ = ١٩٠٣م، وأن الثاني لشهاب الدين الدلجي، وأنه طبع بمطبعة الشعب بمصر سنة ١٣٢٢هـ = ١٩٠٤م، وأن الثالث لجعفر بن محمد الطيالسي، وأنه من مطبوعات معهد الشرقيات بجامعة استانبول سنة ١٩٥٦م. . . وهذا باب واسع جداً.

وإذا تركنا حديث الكتب العربية المطبوعة قديماً وغيابها عن طلبة العلم، وجئنا إلى الكتاب العربي المطبوع حديثاً، فإننا نجد هذه الظاهرة أيضاً: ظاهرة غياب الكتب عن طلبة العلم ودارسيه. لقد تعددت جهات طبع الكتاب العربي الآن، ولم يعد الأمر مقصوراً على الناشرين من التجار وأصحاب المطابع، فقد دخل إلى الميدان كثير من الهيئات والمراكز العلمية التابعة للجامعات العربية أو المستقلة عنها، يمولها نفر من أهل الخير الذين ذكرت بعضاً منهم في صدر حديثي، وكثير من مطبوعات هذه الهيئات والمراكز لا يعرض للبيع، وإنما يقصر على الإهداء، وهذا الإهداء دائرته محدودة جداً، وفيه بعض الآفات، وهو أنه يقدم أحياناً لمن لا يعرف قدره، أو لا يدرك وجه النفع منه، وأعرف بعضاً ممن تهدي إليهم الكتب كانوا يتركونها في الفندق استثقلاً لحملها، أو فراراً من مؤونة وزنها في شركات الطيران، وقد كتبت كثيراً في هذا الأمر، فلم يبق إلا الإيداع في دور الكتب العامة في البلدان

العربية، وهناك قانون ملزم بذلك الإيداع، لكنني أحسب أن هذا القانون إنما يلزم الناشرين فقط من التجار وأصحاب المطابع.

غياب الكتاب العربي :

فأنت ترى أيها القارئ الكريم أن الكتاب العربي المطبوع قد غاب مرتين : المرة الأولى لتقدم عهد طباعته حتى صار كالكتاب المخطوط، والمرة الثانية لبعده عن أيدي الدارسين بمحدودية توزيعه وإذاعته.

ولقد أدى غياب الكتب الآن إلى غياب المرجعية في قضايا الفكر والأدب، وصار كثير من الناس الآن، وبخاصة المبتدئون من الدارسين يكتبون من رؤوسهم، وما تسرع إليه خواطرهم، وقديماً قال الجاحظ : « وإنما يؤتى الناس من ترك التثبت وقلة المحاسبة ». وقال الشيخ عبد القاهر الجرجاني : « وتلك جريرة ترك النظر وأخذ الشيء من غير معدنه »، ولا يخفى أن من ترك التثبت وأخذ الشيء من غير معدنه غياب الكتب والتعويل على الرأي وحده.

إذن نحن مطالبون بأمرين : الأمر الأول : إنعاش ذاكرة الأمة العربية، وإنقاذ تاريخها من قرارة النسيان وبثر الضياع، باسترجاع مطبوعاتها العربية على امتداد الأربعمئة سنة التي أشرت إليها.

والأمر الثاني : رصد ومتابعة وجمع ما يطبع من الكتب العربية في كل بلدان العالم أولاً بأول، وبتحقيق هذين الأمرين نكون قد عملنا على تجميع الكتاب العربي المطبوع، وهو مقترحي الأساسي، وهدفنا من هذه الكلمة كلها.

مكتبة العرب :

ولكن كيف يتم ذلك؟ وما السبيل إلى تحقيقه؟ والجواب وبالله التوفيق، دون تطويل أو ثرثرة، إنشاء مكتبة كبرى، تسمى «مكتبة العرب» ينشئها هؤلاء السادة الأثرياء النبلاء، مجتمعين أو متفرقين، ويختارون لها مكاناً كبيراً في بلد عربي يتوسط البلدان العربية، ويسهل على أبناء الأمة العربية النزول به والإقامة فيه،

ولا أحسب هذا البلد إلا «القاهرة»، أقول قولِي هذا وأنا آمن — إن شاء الله — من سوء الظن بعصية البلد، فجمهور قراء «العربي» ممن يحسنون الفهم، ولا تسرع إليهم الظنون.

وأعلم أن بعض أهل الخير من أبناء السعودية والخليج يقيمون الآن مساجد فخمة بالقاهرة، ولو كنت من أهل الفتيا لأفتيت بأن إقامة المكتبات الآن أولى من بناء المساجد، مع علمي بالأحاديث التي تحض على بناء المساجد وترغب في إقامتها.

وسوف يكون إنشاء «مكتبة العرب» بالقاهرة مذكراً بتلك القلعة الشامخة «دار الكتب المصرية» التي تتوسط ميدان «باب الخلق» الشهير، والتي كانت ملتقى لرجال الفكر والأدب، يجدون فيها بغيتهم من الكتاب العربي المخطوط والمطبوع، ويذكر أساتذتنا الكبار من أبناء الأمة العربية الذين حصلوا على شهاداتهم العليا من جامعة القاهرة في الأربعينيات والخمسينيات فضل دار الكتب المصرية عليهم، وأثرها في تكوينهم الفكري... وسقى الله تلك الأيام!

وواضح مما قلته إن الغاية الأولى من إنشاء هذه المكتبة «مكتبة العرب» هي تحقيق فكرة تجميع الكتاب العربي المطبوع، ولكن لن تكون هذه هي الغاية الوحيدة من إنشاء هذه المكتبة، فسوف تكون هناك غايات أخرى عظيمة مما تتيحه المكتبات الحديثة المؤسسة علمياً، والمستفيدة من مظاهر التقدم التكنولوجي المذهل الذي أتى به العلم الحديث في وسائل الاتصال والتكشيف واستدعاء المعلومات.

ومن هذه الغايات العظيمة أيضاً تجميع صور المخطوطات العربية التي صورت على «الميكروفيلم» مما صورته معهد المخطوطات العربية الذي أنشئ تابعاً لجامعة الدول العربية عام ١٩٤٦م، وكذلك صور المخطوطات التي صورتها الجامعات العربية والمراكز العلمية التابعة لها، ومراكز العلوم الأخرى غير التابعة للجامعات.

ولن أطيل بذكر هذه المراكز، فهي معروفة مشهورة، بحيث تكون «مكتبة العرب» هذه في آخر الأمر هي المكتبة المركزية للأمة العربية كلها التي جمعت الكتاب العربي: مطبوعاً ومخطوطاً.

وإذا كانت منظمة اليونسكو تعمل الآن في مشروع «ذاكرة العالم»، فما أحرانا نحن العرب أن نعمل في مشروع «ذاكرة العالم العربي» الذي يكون مجلده «مكتبة العرب» هذه.

أما كيف تقوم هذه المكتبة، وما هي الأسس التي تركز عليها، وما هي القواعد الصحيحة التي تضمن لها البقاء والنمو والازدهار؟ فكل ذلك وأشباهه موكول إلى لجنة عليا تختار من كبار رجال الفكر والأدب في عالمنا العربي، تخطط لهذا الصرح العربي الكبير، على أن ننبد من تفكيرنا الإقليمي والفردية. وما أريد أن أمد في حبال الكلام عن هذه المكتبة وأهدافها، حتى لا يطول الحديث، والحديث إذا طال أمل وأضجر، وإذا جاء موضع الكلام تكلمنا، وأخرجنا ما عندنا من تصورات واقتراحات، لكنني أريد أن أعجل وأقول: إن تكاليف إنشاء مثل هذه المكتبة لن تتجاوز ما ينفق على عشر ندوات تراثية لا تخرج إلى أبعد من التوصيات، وعشر جوائز سنية لا تتجاوز جيوب أصحابها.

ولا عليكم أيها المفكرون والشعراء والمبدعون من أن تبطئ عليكم الجوائز سنتين أو ثلاثاً، حتى يتحقق هذا الأمل الكبير، والله يعوضكم خيراً، وسوف يكون يوم افتتاح هذه المكتبة العظيمة إن شاء الله، عيداً لأولنا وآخرنا.

وبعد: فيا أيها السادة النبلاء، من أثرياء العرب الذين سخوا وجادوا، هذه تجارة رابحة، دلتكم عليها، وفتحت لكم أبوابها، وأقمت لكم سوقها، فامضوا على بركة الله وهداه، ونرجو أن يعود بكم وبفضل أموالكم تاريخنا العظيم، في إقامة دور الكتب وخزائنها التي حفظت لنا ما بقي من تراثنا، وأدته إلينا سالماً، واستنقذته من عوادي الناس والأيام، وسوف يكون في موازينكم إن شاء الله دعوة طالب علم أو معيد بإحدى الجامعات يتحرق شوقاً إلى مرجع قديم أو حديث لا تطوله يده الكليلتان، يجده ميسوراً متاحاً في مكتبتيكم «مكتبة العرب».

أما أنتم أيها السادة المستشارون الأمناء الذين عهد إليكم هؤلاء السادة الأثرياء بالإشراف على أعمالهم النبيلة هذه: لقد حملتم أمراً عظيماً فاصطبرتم له، وقد أدبتم

الأمانة بإحسان النصح، وإخلاص المشورة، وطهارة اليد، وأنا أدعوكم اليوم لأن تقرأوا هذا الكلام وتتدبروه، ثم تقدّموه للسادة الأثرياء النبلاء، قدّموه لهم ليقرأوه بأنفسهم، ولا تلخصوه لهم، فهم أهل فضل وأدب وعقل قبل أن يكونوا أصحاب ثروة وجاه، وبينهم وبين أهل العلم نسب أقاموه مقام الوالد، على نحو ما قال أبو تمام، وأنتم بعد ذلك شركاؤهم في إحراز الأجر وكمال المثوبة، فالدال على الخير كفاعله، كما جاء في الحديث الشريف.

قال محدّث الشام أبو الفدا العجلوني: والمشهور على الألسنة: «الدال على الخير كفاعله، وفاعله من أهل الجنة».

والله من وراء القصد، وهو ولي التوفيق.



محمود محمد شاكر.. ومنهجه في تحقيق التراث^(١)

تحقيق النصوص علم له قوانينه وأعرافه ومصطلحاته وأدواته، وله جانبان: جانب الصنعة وجانب العلم، فأما جانب الصنعة فهو ما يتصل بجمع النسخ المخطوطة للكتاب المراد تحقيقه، والموازنة بينها، واختيار النسخة الأم. ثم ما يكون بعد ذلك من توثيق عنوان المخطوط واسم المؤلف ونسبة المخطوط إليه، ونسخه والتعليق عليه، وتخراج شواهد وتوثيق نقوله، وصنع الفهارس الفنية اللازمة.

فهذا كله جانب الصنعة الذي يستوي فيه الناس جميعاً، ولا يكاد يفضل أحد أحداً فيه، إلا بما يكون من الوفاء بهذه النقاط أو التقصير فيها.

وأما جانب العلم في تحقيق النصوص فهو الغاية التي ليس وراءها غاية، وهو المطلب الكبير الذي ينبغي أن تصرف إليه الهمم، وتبذل فيه الجهود، ولواء لهذا التراث العريق، وكشفاً لمسيرتنا الفكرية خلال هذه الأزمان المتطاولة، وعدة المحقق في ذلك هي معرفة الكتب العربية في كل فن، وحسن التعامل معها والإفادة منها؛ لأنه في كل خطوة يخطوها مطالب بتوثيق كل نقل وتحرير كل قضية، بل إن المحقق الجاد قد يبذل جهداً مضمياً لا يظهر في حاشية أو تعليق، وذلك حين يريد الاطمئنان إلى سلامة النص واتساقه.

(١) مجلة «الهلal»، فبراير ١٩٩٧م.

وقد مرَّ تاريخ نشر التراث في ديارنا المصرية بأربع مراحل: المرحلة الأولى: مطبعة بولاق والمطابع الأهلية، ومرحلة الناشرين النابهين، ومرحلة دار الكتب المصرية، ومرحلة الأفذاذ من الرجال.

وفي المرحلة الأولى نشرت النصوص التراثية خالية من دراسة الكتاب وترجمة مؤلفه، وذكر مخطوطاته وفهرسته، وإن كان النشر في هذه المرحلة قد اتسم بالدقة المتناهية والتحرير الكامل، إذ كان يقوم على التصحيح فئة من أهل العلم منهم الشيخ نصر الهوريني، والشيخ محمد قُطَّة العدوي.

والمرحلة الثانية عنت إلى حد ما بجمع النسخ المخطوطة للكتاب، وذكر ترجمة المؤلف وبعض الفهارس، وتعرف هذه المرحلة بتلك الأسماء: أمين الخانجي، ومحب الدين الخطيب، ومحمد منير الدمشقي، وحسام الدين القدسي، وكلهم من أهل الشام.

والمرحلة الثالثة هي مرحلة دار الكتب المصرية، وفي هذه المرحلة أخذ نشر التراث يتجه إلى النضج والكمال من حيث جمع نسخ الكتاب المخطوطة من مكتبات العالم، وإضاءة النصوص ببعض التعليقات والشروح، وصنع الفهارس التحليلية، وما يسبق ذلك كله من التقديم للكتاب، وبيان مكانه في المكتبة العربية، وقد تأثر هذا المنهج إلى حد ما بمناهج المستشرقين الذين نشطوا في نشر تراثنا وإذاعته منذ القرن الثامن عشر؛ وقد وقف على رأس هذه المرحلة أحمد زكي باشا شيخ العروبة.

أعلام في ميدان التحقيق:

أما مرحلة الأفذاذ من الرجال فهي مرحلة أحمد محمد شاكر، ومحمود محمد شاكر، وعبد السلام هارون، والسيد أحمد صقر، وقد دخل هؤلاء الأعلام ميدان التحقيق والنشر، مزوَّدين بزاد قوي من علم الأوائل وتجاربهم، ومدفوعين بروح عربية إسلامية عارمة، استهدفت إذاعة النصوص الدالة على عظمة التراث الكاشفة عن نواحي الجلال والكمال فيه، ومن أعظم آثار هذه المرحلة تحقيق هذه الأصول:

الرسالة للشافعي، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام، والبيان والتبيين والحيوان للجاحظ، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة.

وإن اتفق أعلام هذه المرحلة فيما ذكرت، فإن أبا فهر محمود محمد شاكر يقف وحده من بينهم، وينفصل عنهم بأمرين، الأول: أنه صاحب قضية صحبته وأزقته منذ الثأنة – أي منذ صباه ونشأته الأولى – وهي قضية أمته العربية، وما يُراد لها من كيد في لغتها وشعرها وتراثها كله، وقد أبان عن هذه القضية في كل ما كتب، وبخاصة في كتابيه: أباطيل وأسمار، ورسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ثم نشرها فيما دق وجل من كتاباته، وما برح يعتادها في مجالسه ومحاوراته، يهمس بها حيناً، ويصرخ بها أحياناً أخرى، لا تفرحه موافقة الموافق، ولا تحزنه مخالفة المخالف.

ولقد حكمت هذه القضية الضخمة أعمال أبي فهر كلها، وهي التي وجهته إلى تحقيق التراث، فكان عمله في نشر النصوص جزءاً من جهاده في حراسة العربية والذود عنها، سواء فيما نشره هو، أم فيما حث الناس على نشره وأعانهم عليه.

الأمر الثاني: أن أبا فهر دخل إلى ميدان تحقيق التراث بثقافة عالية وقراءة محيطة أعتقد جازماً أنها لم تيسّر لأحد من أبناء جيله، سواء من اشتغلوا بتحقيق التراث، أم من انصرفوا إلى التأليف والدرس.

لقد ألقى هذا الرجل الدنيا كلها خلف ظهره ودَبَّرَ أذنيه، واستوى عنده سوادها وبياضها، وخلا إلى الكتاب العربي في فنونه المختلفة، والمكتبة العربية عند أبي فهر كتاب واحد – فهو يقرأ صحيح البخاري كما يقرأ الأغاني، ويقرأ كتاب سيويه قراءته لمواقف عضد الدين الإيجي، وقد قلت عنه مرة بالتعبير المصري: «إنه خد البيعة على بعضها»، وقد كشف هو نفسه عن ثقافته وأدواته، فقال بعد أن حكى محنته عقب ذلك الزلزال العنيف الذي رجه رجاً حين خرج المستشرق الإنجليزي «مرجليوث» بمقالته عن نشأة الشعر العربي، وما أثاره من شك حول صحة الشعر الجاهلي، وما كان من متابعة الدكتور طه حسين لهذه المقالة، في كتابه: «في الشعر الجاهلي»، يقول في صدر رسالته في الطريق إلى ثقافتنا: «قد أفضى بي... إلى

إعادة قراءة الشعر العربي كله أولاً، ثم قراءة ما يقع تحت يدي من هذا الإرث العظيم الضخم المتنوع من تفسير وحديث وفقه، وأصول فقه وأصول دين (هو علم الكلام) وملل ونحل، إلى بحر زاخر من الأدب والنقد والبلاغة والنحو واللغة، حتى قرأت الفلسفة القديمة والحساب القديم والجغرافية القديمة، وكتب النجوم وصور الكواكب، والطب القديم ومفردات الأدوية، وحتى قرأت البيزرة والبيطرة والفراصة، بل كل ما استطعت أن أقف عليه بحمد الله سبحانه، قرأت ما تيسر لي منه، لا للتمكن من هذه العلوم المختلفة، بل لكي ألاحظ وأتبين وأزيح الشرى عن الخبيء والمدفون».

فهذه هي ثقافة أبي فهر التي دخل بها ميدان تحقيق التراث، الذي اختار هو من عند نفسه نصوصه وأصوله، لم يملها أحد عليه، ولم يطلبها أحد منه، وكان من أبرز هذه النصوص: طبقات فحول الشعراء لابن سلام، وتفسير الطبري (١٦ جزءاً)، وتهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار، للطبري (ستة أجزاء)، وجمهرة نسب قريش وأخبارها للزبير بن بكار (جزء منه)، ودلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، كلاهما للشيخ عبد القاهر الجرجاني، إلى نصوص أخرى نشرها قديماً: فضل العطاء على العُسر لأبي هلال العسكري، والمكافأة وحسن العقبى، لأحمد بن يوسف الكاتب المعروف بابن الداية، وإمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع، للمقرئزي (جزء منه).

ومما يستطرف ذكره هنا أن أول كتاب تراثي يضع فيه أبو فهر قلمه بالتحقيق هو كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة، الذي أخرجه الشيخ محب الدين الخطيب عام ١٣٤٦هـ = ١٩٢٧م، أي منذ (٧٠) عاماً، وكان عمره إذ ذاك (١٨) عاماً، وقد شاركه تصحيح صفحات من الكتاب أستاذنا عبد السلام هارون، برّده الله مضجعه.

وفي هذه الأصول التراثية التي أخرجها أبو فهر، يظهر علمه الغزير الواسع الذي لا يدانيه فيه أحد من أهل زماننا، لأنه علم موصول بكلام الأوائل، متزعم منه

ودال عليه ومكْمُل له، والشيخ - حرس الله مهجته - يسير في طريق الفحول، لا تَخْرِم مَشْيَتُهُ مَشْيَةَ واحد من الصدر الأول.

وقبل أن أستطرد إلى ذكر أمثلة من منهج أبي فهر في تحقيق التراث؛ أحب أن أضع أمامك أيها القارئ الكريم مثلاً واحداً على دوران قضايا التراث في عقل هذا الرجل، وأنها شغله الشاغل وهمه الناصب.

أصل في علم البلاغة:

أخرج أبو فهر كتاب الشيخ عبد القاهر الجرجاني «دلائل الإعجاز» عام ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م، وكانت طبعته الأولى عام ١٣٢١هـ = ١٩٠٣م، وقد أخرجها الشيخ محمد رشيد رضا. وهذا الكتاب يعد أصلاً في علم البلاغة وإعجاز القرآن، وكان مما عالجه الشيخ عبد القاهر فيه الرد على من يقولون: «إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات، ولكن تظهر بالضم على طريقة مخصوصة»، وقد عرّض الشيخ عبد القاهر بأصحاب هذه المقالة في مواضع كثيرة من كتابه، كان منها قوله: «واعلم أن القول الفاسد والرأي المدخول إذا كان صدره «أي صدره» عن قوم لهم نباهة وصيت وعلو منزلة في أنواع من العلوم غير العلم الذين قالوا ذلك القول فيه، ثم وقع في الألسن، فتداولته ونشرته، وفشا وظهر، وكثر الناقلون له، والمشيّدون بذكره، صار ترك النظر فيه سنة والتقليد ديناً»، الإعجاز ٤٦٤، ٤٦٦، وانظر مقدمة التحقيق.

ويسأل الشيخ أبو فهر: من يكون هؤلاء القوم الذين لهم نباهة وصيت... إلى سائر ما وصفهم به الشيخ عبد القاهر؟ يقول أبو فهر: وفُتِّشت ونقِّبت، فلم أظفر بجواب أطمئن إليه، وتناسيت الأمر كله إلا قليلاً، نحواً من ثلاثين سنة، حتى كانت سنة ١٣٨١هـ = ١٩٦١م وطبع كتاب «المغني» للقاضي عبد الجبار الفقيه الشافعي المعتزلي، في تلك السنة صدر الجزء السادس عشر من كتاب «المغني»، فإذا هو يتضمن فصلاً طويلاً في الكلام على «ثبوت نبوة محمد ﷺ»، وفي إعجاز القرآن وسائر المعجزات الظاهرة عليه ﷺ. فلما قرأته ارتفع كل شك وسقط النقاب عن كل مستتر، وإذا التعريض الذي ذكره عبد القاهر حين قال: «واعلم أن القول الفاسد

والرأي المدخول... لا يعني بهذا التعريض وبهذه الصفة أحداً سوى قاضي القضاة المعتزلي عبد الجبار». وبعد ذلك نقل أبو فهر عبارة القاضي عبد الجبار، من كتابه: «المغني»، وهي: «أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة».

أرأيت أيها القارئ الكريم؟ هذه ثلاثون عاماً تصرّمت من الزمان، والقضية في بال الرجل، كأنها همّ الليل والنهار، قضية حية في عقله، جارية في دمه، لم تسقط بالتقدم، ولم تنسحب عليها ذيول النسيان! ومثل هذه القضية كثير في كل ما كتب أبو فهر في اللغة والشعر، وسائر علوم الأمة، ولا نفيض في هذا لأن القصد الآن الكشف عن منهج الشيخ في تحقيق التراث، وهو منهج صعب شاق، لأنه مبين لكل ما ألفه الناس الذين اشتغلوا بنشر الكتب من عرب وعجم، إذ كان قائماً على الجد والصرامة والإتقان، مستنداً إلى قراءة واسعة محيطية، مع الذكاء الشديد لللمح، والحفظ الجامع الذي لا يتفكّ ولا يخون.

الشيخ واللغة:

وأول ما يلقانا من منهج أبي فهر: اللغة، حروفاً وأبنية وتراكيب، فقد استولى من ذلك كله على الأمد. واللغة هي الباب الأول في ثقافات الأمم، وإهمالها أو التفريط فيها، أو السخرية منها، هدم لتاريخ الأمم، ومحو لها من الوجود. وعناية أبي فهر باللغة قديمة، ومن أقدم ما كتب فيها ما نشره بالمقتطف عام ١٩٤٠، بعنوان (علم معاني أسرار الحروف - سر من أسرار العربية)، وفي الفترة القليلة التي شارك فيها في إخراج مجلة «المختار» استطاع أن يقدم مستوى عالياً للترجمة الصحفية لم يُعرف من قبل؛ وأدخل جملة من المصطلحات الجديدة في اللغة للتعبير عن وسائل واختراعات حديثة من نوع «الطائرات النفاثة»، وما زال الجيل الذي عاصر «المختار» من الصحفيين المعاصرين يعتبرون عناوين «المختار» التي كان يصوغها نموذجاً يحتذى. وطالما ذكر صديق عمره يحيى حقي، رحمه الله، فضله عليه في التنبه لأسرار اللغة وفنية استخدامها والتعامل معها.

وإجلال أبي فهر للغة والحذر في استعمالها واضح لائح في كل ما كتب وفي كل ما حقق. ويقول تعليقاً على كلام لأبي جعفر الطبري، في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا حَرْجُكُم أَنَّى شِئْتُمْ﴾: «حجة أبي جعفر في هذا الفصل، من أحسن البيان عن معاني القرآن، وعن معاني ألفاظه وحروفه، وهي دليل على أن معرفة العربية وحذقها والتوغل في شعرها وبيانها وأساليبها، أصل من الأصول، لا يحل لمن يتكلم في القرآن أن يتكلم فيه حتى يُحسِّنه ويحذقه». تفسير الطبري ٤/٤١٦.

ومعلوم أن من عدة المحقق معرفة غريب اللغة حتى يتمكن من تصحيح ما يصادفه من ذلك التصحيف والتحريف الذي مُنيت به بعض مخطوطاتنا، نتيجة لجهل النساخ، أو عوامل الزمن. ولأبي فهر في ذلك وقفات كثيرة وتصحيحات، منها: جاء في تفسير الطبري ٨/٥٢٨، من قول أبي جعفر الطبري، في الآية ٦٥ من سورة النساء: «وإذا قرئ كذلك فلا مَرَزَّة على قارئه في إعرابه»، ويعلق أبو فهر: «المرزئة — بفتح الميم وسكون الراء وكسر الزاي — مثل الرزء والرزئة، وهو المصيبة والعناء والضرر والنقص... وكان في المطبوعة والمخطوطة: «فلا مرد به على قارئه»، وهو شيء لا يفهم ولا يقال».

وجاء في طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ١٠٦، قول كعب بن زهير: ألا أبلغاً هذا المعرض آيةً أيقظان قال القول إذ قال أو حَلَمَ ويشير أبو فهر في الحاشية إلى أن الرواية في ديوان كعب، والاستيعاب لابن عبد البر «أنه» مكان «آية» ثم يقول: وهي ضعيفة جداً، والصواب ما في مخطوطة ابن سلام، وقد جاء أبو جعفر الطبري بهذا البيت شاهداً على أن الآية: القصة، وأن كعباً عنى بقوله: «آية» رسالة مني وخبراً عني. قال أبو فهر: والآية بمعنى الرسالة لم تذكره كتب اللغة، ولكن شواهد لا تعد كثرة، ومن ذلك قول حجل بن نضلة:

أبلغ معاوية الممزق آية عني فليست كبعض ما يُتَقَوَّل

وقول أبي العيال الهذلي:

أبلغ معاوية بن صخر آية يَهْوِي إليك بها البريدُ الأعجلُ

وهذا تفسير واضح في الشعر، وأوضح منه قول القائل :

أَتَنْتَـيَ آيَـةَ مَنْ أَمَ عَمَـرُو فَكَدْتَ أَغْصُـً بِالْمَاءِ الْقَرَّاحِ
فَمَا أَنْسَى رَسَالَتَهَا وَلَكِنْ ذَلِيلٌ مَنْ يَنْوِى بِلا جَنَاحِ
لتصحيف^(١)، يعد إضافة إلى مواد المعجم العربي .

ومن هذا الباب – باب التقاط اللغة من كتب العربية، مما لم تقيده المعاجم المتداولة – ما جاء في تفسير الطبري ٢٤٨/١٦، يقول أبو جعفر: «وقوله تعالى: ﴿يَأْتِ بِصِيرَ﴾ يقول: يُعَدُّ بصيراً»، ويعلق أبو فهر: «هذا معنى يقيد في معاجم اللغة، في باب «أتى» بمعنى «عاد»، وهو معنى عزيز، لم يشر إليه أحد من أصحاب المعاجم التي بين أيدينا» .

ومن تصحيحاته اللغوية العجيبة ما جاء في تفسير الطبري ١٨٢/٩: «فجاء اليهودي إلى نبي الله ﷺ يُهَنِّفُ»، ويعلق أبو فهر فيقول: «في المطبوعة والمخطوطة – من تفسير الطبري – «يَهْتَفُ» بالتاء كأنه أراد يصيح ويدعو رسول الله ويناشده، ولكنني رجحت قراءتها بالنون، من قولهم: أهنف الصبي إهنافاً: إذا تهياً للبكاء وأجهش . ويقال للرجل: أهنف الرجل: إذا بكى بكاء الأطفال من شدة التذلل . وهذا هو الموافق لسياق القصة فيما أرجح» .

ومن ذلك أيضاً ما علق به على قول ابن سلام في الطبقات ص ٥: «وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم»، يقول أبو فهر: «كتب في المخطوطة «صناعة» بكسر الصاد، ثم ضُرب على الكسرة (أي شطب) ووُضع على الصاد فتحة، وكذلك فعل بعد في لفظ «الصناعات»، وقد خلت كتب اللغة من النص على «صناعة» بفتح الصاد، إلا أنني وجدت في كتاب «الكليات» لأبي البقاء ما نصه: «والصَّناعة بالفتح تستعمل في المحسوسات، وبالكسر في المعاني»، ولكن إجماع كتب اللغة على ذكر

(١) هكذا ورد في الأصل، وهو غير مفهوم، والملاحظ أن كلاماً سقط من المقال في المجلة، ولم يسعفنا البحث والمراجعة لاستدراكه!!! ولعل الله يُيسِّر ذلك لاحقاً.

«الصَّنَاعَة» بالكسر، وأنها حرفة الصانع وعمله بيديه، دال على أن «الصَّنَاعَة» بالفتح في المعاني دون المحسوسات، وأنها الحذق والدَّربة على الشيء».

وتأمل صنيع أبي فهر، لقد أفاد من صاحب «الكليات» ضبط «الصناعة» بفتح الصاد، لكنه خالفه في توجيه معناه!.

تصحيح الكلام:

على أن من أعجب ما ألقاه الله على قلب هذا الرجل، من تصحيح الكلام الذي شاع خطأه في الكتب، ولم يتنبه له أحد، ما جاء في قصيدة عبد الله بن الزُّبَيْرِ يوم أحد يرثي قتل المشركين (طبقات فحول الشعراء ص ٢٣٨):

حِينَ أَلْقَيْتُ بِقَنَاءَ بَرَكْهََا وَاسْتَحَرَّ الْقَتْلَ فِي عَبْدِ الْأَشْلِ
يقول أبو فهر: «في جميع ما وقع في يدي من الكتب «بقباء» - يعني مكان «بقناة» - وقباء قرية على ميلين أو ثلاثة من المدينة على يسار القاصد إلى مكة، فهي إلى جنوب المدينة. وهذا أمر مشكل كل الإشكال، فلم أر أحداً ذكر أن القتال يوم أحد نشب في قباء، وجبل أحد في شمال المدينة بينها وبينه ميل أو نحوه، ويقول البكري في معجم ما استعجم ١١٧: «أحد: جبل تلقاء المدينة دون قناة إليها»، وقناة هذه التي ذكرها البكري أحد أودية المدينة، وإد يأتي من الطائف حتى يمر في أصل قبور الشهداء بأحد. فأكاد أرجح أن في رواية هذا الشعر خطأ قديماً جداً، وأن صواب الرواية ما أثبتته في الشعر»... وانظر بقية كلامه فإنه نفيس جداً.

وبعد ذلك البيت يقول ابن الزبيري:

فَقَبِلْنَا النِّصْفَ مِنْ سَادَتِهِمْ وَعَدَلْنَا مِيلَ بَدْرٍ فَاعْتَدَلْ

ويقول أبو فهر: «وهذا أيضاً بيت تكثر روايته في سائر الكتب «فقتلنا النصف» أو «فقتلنا الضعف» وهو خطأ كله؛ فإن المشركين لم يقتلوا يوم أحد نصف المقاتلة، فإن من شهد القتال من المسلمين في يوم أحد سبعمائة، قتل منهم أربعة وسبعون من الشهداء، ولا قتلوا ضعف ما قتل المسلمون يوم بدر من المشركين، فإن عدة قتلى

بدر من المشركين سبعون أو أربعة وسبعون. وإنما أراد ابن الزبير أنهم قتلوا من المؤمنين في أحد مثل الذي قتله المسلمون منهم يوم بدر، فانتصفوا منهم، أي أخذوا حقهم كاملاً حتى صاروا على النصف سواء... يقول: قبلنا يومئذ العدل واكتفينا به، فقتلنا من سادتهم في أحد مثل عدة من قتلوا من سادتنا في بدر.

ويدل على ذلك قوله: «فعدلنا ميل بدر فاعتدل»، أي صار سواء لم ترجح كفة على كفة».

ويتصل باللغة النحو، ولأبي فهر فيه وقفات جياذ، تدل على حسن نظر وتمام فقه، ويلقاك هذا في كثير من تعليقاته وحواشيه، وحسبك أن تقرأ في مقدمة كتابه: «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» شرحه لعبارة سيبويه التي جاءت في أول كتابه: «وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء، وبنيت لما مضى، ولما يكون ولما يقع، وما هو كائن لم ينقطع»، فقد أدار على هذه العبارة كلاماً عالياً لم يذكره أحد من شراح سيبويه، ولا من غيرهم من النحاة.

ويرى النحاة أن جذيمة الأبرش الشاعر الجاهلي القديم قد ارتكب ضرورة نحوية في قوله:

ربما أوفيت في علم تَرْفَعُنْ ثوبِي شمالات

حيث أكد الفعل «ترفع» بالنون الخفيفة، وليس هذا من مواضع التوكيد؛ لأن الكلام موجب، فأنت لا تقول: «أنا أقوم إليك»، ويعلق أبو فهر: «ويقول النحاة: زاد النون في «ترفعن» ضرورة، وأقول إنها لغة قديمة لم يجلبها اضطرار»، طبقات فحول الشعراء ص ٣٨، وزاد ذلك في كتابه الفذ: أباطيل وأسمار، فقال في ص ٣٨٧: «وقال: «ترفعن ثوبي»، ولم يقل: «ترفع أثوابي»، وارتكب تأكيد الفعل بالنون في غير موضع تأكيده؛ لأنه جعله في حيز كلام مؤكد حذفه، ليدل على معنى ما حذف، كأنه قال: «ترفع ثوبي شمالات، ولترفعن هذه الرياح الهوج، مهما جهدت أضمت على ثوبي وأجمعه، فلما حذف «ولترفعنه» ارتكب تأكيد الفعل الأول في غير موضع تأكيد».

قلت: وقد دلّنا شيخنا أبو فهر مشافهة - على موضع آخر لهذه الظاهرة النحوية، في شعر لحسان السعدي، وهو من أقدم ما قيل في الجاهلية، وهو قوله:

أرى الموت ممن شارك الماء غاية له أثر يجري إليه ومنتهى
فلا ذا نعيم يثُرُ كُنْ لنعيمه وإن قال فرطني وخذ رشوة أبي
ولا ذا بؤوس يثُرُ كُنْ لبؤوسه فتنفعه الشكوى إذا ما هو اشتكى
النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري ص ٣٥٨.

أما البصر بمعاني الشعر، والوقوف عند وقائعه، وترجيح رواياته، فقد أوفى فيه أبو فهر على الغاية، والشعر كان ولا يزال هو مدخله إلى ثقافة هذه الأمة وحضارتها، وكانت قضية انتحاله والشك فيه هي المفجر الأول لطاقاته وإبداعه، ثم كانت هي الدافع له إلى أن يظهر على فروع الثقافة العربية كلها، ولا سبيل إلى ذكر كل تجليات أبي فهر في فهم الشعر وتذوقه، وتخطئة الأقدمين والمحدثين في فهمه، فذلك مما يحتاج إلى سفر خاص، ولنكتف بذكر مثال واحد:

أنشد أبو جعفر الطبري في تفسيره ٤٧٣/٩ هذا الرجز المشهور لرشيد بن رميض العنزي - وهو الذي أنشده الحجاج بن يوسف الثقفي فيما بعد:

قد لفَّه الليل بسوَّاقٍ حُطِمَ ليس براعي إبِل ولا غنم
بات يقاسيها غلام كالزَّلَم خدلج الساقين ممسوح القدم
ورواية الشطر الأخير مما استفاضت به كتب العربية، لكن أبا فهر يقول:

«خدلج الساقين: ممتلىء الساقين، وهذا غير حسن في الرجال؛ وإنما صواب روايته ما رواه ابن الأعرابي: «مهفهف الكشحين خفاق القدم»، أي ضامر الخصر».

تصحيح رواية الشعر:

وتصحيح اللغة وتصحيح رواية الشعر مما يفرض ويتسع في كتابات وتحقيقات أبي فهر كلها، وهو موصول بما كتبه الأوائل في ذلك، مثل التنبيهات على أغاليط الرواة، لعلي بن حمزة البصري (٣٧٥هـ)، والتنبيه على حدوث التصحيف لحمزة بن

الحسن الأصفهاني (٣٦٠هـ)، وشرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف، لأبي أحمد العسكري (٣٨٢)، وتصحيح التصحيف وتحريف التحريف، لصالح الدين الصفدي (٧٦٤هـ)، ألم أقل لك إن الرجل ماضٍ في طريق الأوائل؟

والذين لا يقرأون محمود محمد شاكر قراءة جيدة، ولا يفهمون فكره حق الفهم، يقولون: إنه غارق في التراث إلى أذنيه، لا يكاد يدير وجهه عنه، وأنه شديد العصبية لآثاره ولرجالها، لا يقبل فيه ولا فيهم نقداً أو معابة، وهذا صحيح من وجه، لكنه باطل من وجه، فوجه صحته أنه شديد التمسك بذلك الإرث العظيم؛ لأنه قرأه وعرف مواضع العزة فيه، ثم إنه رأى أن الذين يعيونه ويتنقصونه لا يصدر عن علم ولا هدى، وإنما هو الهوى الجامح والمتابعة العمياء، والنظر لثقافات الأمم الأخرى بعين الدليل.

ووجه بطلانه أنه لا يسلم بالتراث كله، ولا يدعن لرجالها كلهم، فهو يعرف وينكر، وينفي ويثبت، وآية ذلك ما تراه من نقده لبعض كتب الأوائل، ثم من نقده لبعض رجال ذلك التراث، على جلالة قدرهم وعظم شأنهم، وهذه بعض أمثلة:

١ - وازن أبو فهر بين شرحين لأبي جعفر الطبري والجاحظ، لبیت من شعر الكميت، ولم يرض تفسير الجاحظ له، وقدم عليه تفسير الطبري، ثم نقد الجاحظ نقداً مرأً، فقال: «من شاء أن يعرف فضل ما بين عقليين من عقول أهل الذكاء والفطنة، فلينظر إلى ما بين قول أبي جعفر في حسن تأتيه، وبين قول الجاحظ في استطالته بذكائه . . . والجاحظ تأخذ قلمه أحياناً مثل الحِكَّة، لا تهدأ من ثورانها عليه حتى يشتفي منها ببعض القول، وببعض الاستطالة، وبفرط العقل، ومع ذلك فإن النقاد يتبعون الجاحظ، ثقة بفضله وعقله، فربما هجروا من القول ما هو أولى، فتنة بما يقول»، تفسير الطبري ٢/ ٤٨٦، ٤٨٧.

٢ - أبو الحسن المرزوقي شيخ من شيوخ العربية، وهو شارح حماسة أبي تمام، وصاحب كتاب الأزمنة والأمكنة، وصاحب الأمالي، وقد خطأه أبو فهر في مواضع من شرحه لأبيات قصيدة تأبط شراً «إن بالشَّعب الذي دون سَلع»، ومن تلك

المواضع قول أبي فهر: «وأما ثاني اللفظين الطليقين، وهو «مُدِلّ»، فقد أساء الناس فهمه، وتبعوا في ذلك المرزوقي، حين فسرّه بأنه: «هو الواثق بنفسه وآلاته وعدته وسلاحه»، فهذا تفسير يذبح الشعر بغير سكين»، وقوله: «وأما «يجدي»، فقد ذهب المرزوقي وسائر الشراح إلى أنه من «الجدوى»، وهي العطية، وهذا لغو وفساد»، وقوله: «وهذا فساد كبير في تناول معاني الشعر، ولا يُعدُّ بياناً عنه، بل هو طرح غشاوة صفيقة من «الإبهام» ينبغي أن تزال، وإلا فقد الشعر بهاءه بانتقاص دلالات ألفاظه وإهمالها». ويصف بعض شروح المرزوقي بأنه كلام لا تحقيق له «وإنما هو كذب محض، وبذلك أباد المرزوقي معنى القصيدة إبادة من لا يرحم».

ويقول: «والمرزوقي إمام جليل من العلماء بالعربية، ولكنه ليس من العلماء بالشعر في شيء، وقد جزر البيت جزراً بسكين علم اللغة، واستصفى دمه بتفسيره الذي أساء فيه من جهتين»، ويصف بعض كلام المرزوقي، فيقول: «وهذا كلام بارد غثٌ سقيم، فاختمه التبريزي في شرحه، فلم يحس بشيء من برده؛ لأنه نشأ بتبريز من إقليم أذربيجان، وهو إقليم بارد جداً»، وراجع لهذه النصوص: كتاب أبي فهر: «نمط صعب ونمط مخيف» صفحات ١٨٢، ١٩١، ٢١٣، ٢٣٠، ٢٥٦، ٢٥٩، وهذا الكتاب من أوثق الدلائل على بصر أبي فهر بالشعر واللغة والنحو.

٣ — ابن فارس من أئمة العربية، وله في التأليف المعجمي كتابان جليلا القدر: المقاييس والمجمل، وقد نقل أبو فهر بعض شروحه اللغوية التي لم يطمئن إليها، فقال: «ولا أدري هل يصح نقل ابن فارس أو لا يصح... وأنا لا أطمئن إلى أقوال ابن فارس إلا بحجة مؤيدة»، طبقات فحول الشعراء ص ٢٣٨.

٤ — مما نشره أبو فهر قديماً جزء من كتاب «إمتاع الأسماع» للمقريزي، نشره عام ١٩٤٠م، يقول المقريزي في مقدمة كتابه: «والله أسأل التوفيق لديممة العمل بالسنة»، ويعلق أبو فهر فيقول: «يريد لدوام العمل، فأخطأ، وشبه عليه حديث عائشة وذكرت عمل رسول الله ﷺ فقالت: «كان عمله ديمة»، شبهته بالديممة من المطر في الدوام والاقتصاد».

وبعد: فهذا منهج محمود محمد شاكر، في نشر التراث، سُقِّتْهُ على سبيل
الوجازة والاختصار، وقد أدّرتْهُ على علمه باللغة والنحو والشعر، وبقي بابان من
أبواب العلم، ظهر عليهما أبو فهر ظهوراً بيناً، وامتلك أسباب القول فيهما والحكم
عليهما امتلاكاً واضحاً: أعني علم التاريخ، وعلم الجرح والتعديل (قبول روايات
الحديث النبوي وردّها)، ولكن المقام لا يتسع الآن للإفاضة في الكلام على معرفته
بهذين العلمين الكبيرين، فلعلي أفرد لهما مقالة أخرى، أستأنف بها كلاماً عن هذا
الرجل الذي يعد رمزاً ضخماً من رموز حضارتنا العربية، ولكن أسباباً كثيرة حجّزته
عن الناس، وحجّزت الناس عنه، وكان هو نفسه أحد الأسباب المعينة على ذلك،
بهذه العزلة التي ضربها على نفسه، ثم بتلك الصرامة التي يعامل بها الأشياء والناس،
والبشر منذ أن برأهم خالقهم يحبون الملاينة والملاطفة، ثم المصانعة التي أشار إليها
زهير بن أبي سلمى في معلقته الشريفة، ولكن أبا فهر اختار الطريق الأعظم، وترك
الطرق التي تشعب منه، وهي التي تسمّى: «بُنيّات الطريق»، فكاشف وصارح فيما
بينه وبين نفسه، وفيما بينه وبين الناس، ومنذ أن ظهرت أمامه غواشي الفتن التي
أحدثت بأمنته العربية؛ فتح عينه، وأرهف سمعه، ثم شد مثزره وأيقظ حواسه كلها،
يرصد ويحلل ويستنتج، ثم قال: «فصار حقاً علي واجباً ألا أتلعجل، أو أحجم،
أو أجمجم، أو أداري»، أباطيل وأسماص ص ١٠.

وكان أن دخل بيته بعد أن استتب الأمر له: علماً وفكراً، مئآت من طوائف
الناس، من شرق وغرب جالسوه واستمعوا له، فمنهم من آمن بمنهجه، ومنهم من
صدّ عنه، وكان على الذين آمنوا بمنهجه أن يصبروا على لأواء الطريق، ويحتملوا
أعباء المتابعة، على ما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «من أحببنا أهل البيت
فلنُعِدَّ للفقر جلابباً»، ولكن لأنه منهج صعب مكلف، وطريق عسر شائك، فما آمن
معه إلا قليل!

هذا، وما أحب أن أختم كلمتي هذه قبل أن أؤكد ما بدأت به حديثي: أن أبا
فهر إنما دخل ميدان تحقيق التراث خدمة وعوناً على قضيته الكبرى: قضية تاريخ أمته

العربية، ثم إزالة الغبار الذي طمس معالمها، وعلى هذا فلا ينصفه من يذكره في عداد المحققين والناشرين. إن تحقيق التراث بالنسبة له عمل هامشي، ولذلك تراه يكتب على أغلفة كثير من تحقیقاته هذه العبارات: قرأه وشرحه، أو قرأه وعلّق عليه، أو قرأه وخرّج أحاديثه.

سيدي أبا فهر: لئن عرف علمك العارفون، وغفل عن ذكرك الغافلون:
فلقد عُرِفْتَ وما عُرِفْتَ حقيقةً ولقد جُهِلْتَ وما جُهِلْتَ خُمولا
كتب الله لك السلامة والعافية، وأطال في النعمة بقاءك، وأمتع أهل العربية
بحياتك، ويرحم الله عبداً قال آميناً.

* * *

دراسة في مصادر الأدب^(١)

للدكتور الطاهر أحمد مكي

[١]

هذا كتاب جليل القدر، غَفَلْتُ عنه طويلاً، وأحسب أيضاً أن كثيراً من الناس قد غفلوا عنه طويلاً، ولعل أحداً كتب عنه أو أشاد به لم يبلغني خبره، لكنني لم أجد له صدى عند أهل المذاكرة وأرباب المحاضرة.

«وحظوظ الكتب كحظوظ الناس، يصيبها ما يصيبهم من ذبوع أو خمول»، وتلك كلمة كنت قلتها في بعض ما كتبت منذ عشرين عاماً، ولا زلت أجد صدقها إلى يوم الناس هذا، لكن الأمر في هذا الكتاب الجليل القدر لا يعود إلى الحظ وحده، وإنما يعود إلى أنَّ مصنفه الفاضل كان قد صرح في خطبته، وهي التي يسميها أهل زماننا: المقدمة، صرح بأنه صنعه لطلبة قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم، ففضى على كتابه هذا الجليل بأن يجتويه الناس ويصدوا عنه صدوداً، إذ صار عندهم «كتاباً مدرسياً»، وقد أصبح هذا الوصف في زماننا علامة على الخفة والسهولة، وصار أيضاً مجلبة للتنقص والمعابة، وآية ذلك أنه لا يحسب في موازين الترقيات العلمية، ولا يقدم إلى الجوائز الأدبية، وقد كتبت في ذلك كلمة، في «الهلال» - أكتوبر ١٩٩٤. وانتهيت إلى أن الكتاب الجامعي - أو المدرسي - عمل علمي، جيده جيد، ورديته رديء.

(١) مجلة «الهلال»، يولييه ١٩٩٧م.

ومهما يكن من أمر فقد أدار المؤلف كتابه هذا على عشرة كتب، هي: طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، والبيان والتبيين للجاحظ، والحيوان له أيضاً، والكامل للمبرد، والشعر والشعراء لابن قتيبة، والأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، والعقد الفريد لابن عبد ربه، والفهرست لابن النديم، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام، ونفع الطيب للمقري.

فهذه عشرة كتب كما ترى: سبعة منها في الأدب العربي بمعناه العام، وقد خرجت من المشرق العربي، وكتابان اثنان خرجا من المغرب العربي، وكتاب واحد، هو أقدم ما عرفنا من علم البليوجرافيا العربية.

على أنه مما ينبغي التنبيه عليه أن المؤلف الفاضل حين جاء إلى كتاب «الحيوان» للجاحظ أنبأنا أن هذه دراسة كتبها المستشرق الإسباني ميغيل أسين بلاثيوس، ونشرها في مجلة «إيزيس» Isis مايو ١٩٣٠، العدد رقم ٤٣، المجلد الرابع عشر، ثم نشرت بعد وفاته في أعماله المختارة، المجلد الثاني الصفحات ٢٩ - ٧٠، مدريد ١٩٤٨ م.

وقد نقل المؤلف دراسة بلاثيوس إلى كتابه، وهذه أمانة العلماء.

وقد سلك المؤلف في عرض هذه الكتب سبيلاً راشداً، واتبع منهجاً محكماً، خرج بالكتاب من أن يكون للطالب المبتدئ الشادي، إلى أن ينتفع به كل قارئ للعربية، مبتدئاً كان أو متوسطاً أو منتهياً، وما ظنك بدراسة تعرض للكتاب في مخطوطاته بوصفها والدلالة على أماكن وجودها، ومطبوعاته والفرق بين طبعات الكتاب: التجارية منها والمحققة، ومنهج المؤلف في كتابه، ثم الإبانة عن مكان الكتاب في الفكر العربي والإنساني، وذكر الدراسات التي قامت حوله قديماً وحديثاً: شرحاً أو اختصاراً أو نقداً وعرض نماذج كاشفة منه.

على أن المؤلف الفاضل قبل أن يدخل إلى موضوعه الذي عقد له الكتاب، وهو الحديث عن تلك الكتب العشرة، قدم بمقدمتين نفيستين جداً، شغلنا «١٥٣» صفحة من الطبعة السابعة للكتاب الصادرة عن دار المعارف ١٩٩٣ م.

وتحدثت المقدمة الأولى عن تراثنا العربي من الرواية الشفوية إلى التدوين، وقد عالج في تلك المقدمة قضايا في غاية الأهمية، واستطاع بذلك شديداً وإحكام بالغ أن يجمع كل ما قيل عن نشأة الخط العربي، والنقوش العربية التي وصلت إلينا، وأقدم الكتابات الإسلامية وتطور الخط العربي وتاريخ النقط والإعجام، وترتيب الأبجدية العربية عند المشاركة، وعند الأندلسيين والمغاربة.

ثم عرض لعصر المخطوطات العربية، وتلك القصة الطويلة من استخدام البردي إلى صناعة الورق، ونشأة المدارس الإسلامية والمكتبات العامة والخاصة، والإملاء والنسخ والوراقة، ثم تطرق إلى قواعد النسخ واختلاف النسخ المخطوطة، ومنازل النسخ، وقواعد تحقيق المخطوطات.

ويعد ما ذكره المؤلف الفاضل حول قواعد النسخ والمقابلة ومنازل المخطوطات، يعد ذلك كله إضافة جيدة لما كتب في هذا الفن «فن تحقيق المخطوطات»، يوضع مع ما كتبه شيخنا عبد السلام هارون رحمه الله؛ وما كتبه غيره في هذا العلم.

ومن أنفس ما صنعه المؤلف هنا ما ذكره عن «طرق التدوين وشرائط النسخ»، فقد أورد ما ذكره الخطيب البغدادي وابن جماعة والعلموي، وبدر الدين الغزي، عن الضوابط والحدود التي يجب على النساخ التزامها، في تقييد العلم وكتابته، وهي ضوابط وشروط صارمة جداً، تؤكد في مجملها الثقة في هذا العلم الذي انتهى إلينا محاطاً بكل هذه الأسوار والحدود.

وهذه المقدمة التي شغلت تسعين صفحة من الكتاب، من أنفع ما يقدم لطالب في الدراسات العربية، ولو كان لي من الأمر شيء لجعلتها مقرراً واجباً على كل طالب في جميع كليتنا ومعاهدنا المعنية بالدراسات العربية والإسلامية، ليس في الدراسات العليا فقط، ولا في قسم الدراسات الأدبية فقط، ولا في كلية دار العلوم فقط.

وتأتي المقدمة الثانية للكتاب، وقد جعلها المؤلف للحديث عن مصادر الشعر الأولى، وعالج فيها جملة من القضايا حول جمع الشعر وتدوينه، فعرض لدواوين القبائل، ودواوين الشعراء، والمجاميع الشعرية، كالمعلقات وشروحها، والمجاميع المنسوبة لجامعيها، مثل المفضليات والأصمعيات، وجمهرة أشعار العرب للقرشي، والحماسات والمختارات والأمالى، كل ذلك ذكره وذكر أصحابه ومخطوطاته ومطبوعاته.

والكتاب في جملته: سواء في مقدمتيه أو في حديثه عن الكتب العشرة، من خير ما يقدم لطالب الدراسات العربية والإسلامية، فهو أولاً قد سلم من تلك الثثرة التي يخوض فيها بعض أساتذة الجامعة من الكلام في المنهج العلمي، والصعود والهبوط مع العموميات التي لا يعود الطالب منها بشيء، ثم في طعنهم في التراث واستهانتهم بالعقل العربي وسخريتهم من علومه وأعلامه، دون سند أو حجة إلا المتابعة والإخلاد إلى الراحة، والزعم بالانتصار للموضوعية والذود عن حماها، وما هو إلا «ما أصاب حياتنا الثقافية من داء الطراوة والليونة والترهل والركود» كما قال المؤلف في ص ١٥٨ من الكتاب.

والكتاب ثانياً مليء بمواضع الفخر والاعتزاز بذلك التراث الذي انتهى إلينا خلال خمسة عشر قرناً، وهي مواقف ثابتة، لا سبيل إلى الطعن فيها، أو الانتقاص منها، لأنها صحيحة السند، ليست وليدة تنفُّخ كاذب، أو ادعاء ساذج.

فأول ما يلقي الطالب من كلام المؤلف هو قوله في مستهل مقدمته: «لا أظن أدباً معاصراً له من العمر ما للأدب العربي».

إن أقدم نص أدبي، في أية لغة أوروبية معاصرة — مثلاً — لا يتجاوز القرن الثاني عشر الميلادي بحال، وما قبله فآداب بلغات أخرى، اندثرت أو أصبحت تاريخاً يدرس، وحتى هذه الآداب الأوروبية تطورت لتصبح على ما هي عليه الآن، تطورت في الأصوات وفي الدلالة وفي التركيب، فالإيطالي العادي، والإسباني غير

المثقف، والفرنسي غير المتخصص، والألماني الذي لا يهتم بالأدب، سيجد من العسير عليه، إذا عاد إلى أدب قومه في القرن الثالث عشر الميلادي، أن يقرأه في سهولة، وأن يفهمه في وضوح.

أما الأدب العربي فأقدم نص فيه يعود إلى مطلع النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي، أي له من العمر ألف وخمسمائة عام كاملة، ولا يجد القارئ العادي صعوبة في قراءته، أو عسراً في تمثيل معناه، فقواعده اللغوية هي التي نسير عليها، وتركيب الجملة فيه هو نفس ما نحتذي، والغموض الذي يصاحب جانباً منه أحياناً مرده سبب آخر غير اللغة نفسها.

ويعبر المؤلف عن حقيقة كنت أزداد اقتناعاً بها كلما توغلت في التعامل مع تراثنا في فنونه المختلفة، يقول في ص ٨: «وعبر ألف ونصف ألف من الأعوام، لم يتوقف العقل العربي عن الإبداع، حتى في أحلك ساعات الأمة العربية، وكانت حصيلة ذلك تراثاً ثقافياً واسعاً، يعكس حقيقة مجتمعه، في سموه واحتضاره، في صعوده وتوقفه».

وكنت قد قلت كلاماً شبيهاً بهذا، في تقدمتي لرسالتي للدكتوراه عام ١٩٧٨، وكان مما قلته: «... وقد شمل هذا النشاط العالم الإسلامي كله، مشرقه ومغرب، ولم يفضل عصر أو مصر سواهما إلا ما يكون من بعض الفروق الهينة التي تفرضها طبائع الزمان والمكان. أما حركة العقل العربي من حيث هي، فلم تخمد جذوتها، ولم تسكن حداثتها، بتغير الحكام وتبدل الأيام، وإن أردت أن تعرف صدق ما أقول فانظر إلى ما اشتمل عليه القرنان السادس والسابع من كبار المفكرين والعلماء، وأنت تعلم أن هذين القرنين قد شهدا أعنف هجوم تعرضت له الأمة الإسلامية: الحروب الصليبية والغزوة التترية، وقد كان هذا الهجوم الكاسح كفيلاً بالقضاء على هذه الأمة الإسلامية لولا دفع الله وصيانتها بما أودعه في روح العقيدة الإسلامية من عوامل النماء والبقاء والازدهار.

أما ما تسمعه الآن من ثرثرة حول الحروب، وما تحدثه من إحباط وانكسار،

فهو من التعلات الباطلة، والكذب على النفس، وكل أولئك مما يلجأ إليه الضعفة ويحتمي به الكسالى، وإنما هو فساد الزمان وسقوط الهمم».

وينبه المؤلف إلى المغيب من تراثنا، ويذكر أن ما نشر منه ليس كاشفاً عن حقيقته، وأن ذلك كان سبيلاً إلى الطعن والمنقصة، فيقول في ص ١١: «إن تراثنا العقلي ما زال مطموراً، وما نشر منه ليس بأفضله دواماً، وغياب هذه النفائس شجع بعض النفوس الضعيفة، على أن تتخذ من سب الأدب العربي والقائمين عليه وسيلة لمشاغبات تظهر بها، والهدم أسهل من البناء، والسلبية طريقها معبد، والخلق الفني محفوف دائماً بالمكاره والصعاب».

ويقول المؤلف الفاضل - في ص ٥٦ - وهو يتحدث عن حركة التعليم العام والخاص في المجتمع الإسلامي في القرن الرابع الهجري: «وإلى جانب التعليم العام كانت الطبقات العالية في المجتمع تحضر لأبنائها معلمين خصوصيين، يفقهونهم في الدين والأدب، وفي الكثير من أجزاء الإمبراطورية الإسلامية بلغ التعليم الابتدائي قدراً عالياً من الانتشار، ويقرر المستشرق الهولندي رينهاوت دوزي Dozy بأن «كل واحد تقريباً في الأندلس كان يعرف القراءة والكتابة» بينما كانت أوروبا المسيحية لا تعرف إلا أوليات المعارف، وكان عرفانها، لا يعدو طبقة قليلة معظمها من رجال الدين».

الحضارة العربية :

وحين يعرض المؤلف للحضارة العربية في قرطبة الأندلسية في أوائل القرن الثامن الميلادي يقول: «كانت الحملة الإسلامية في شبه جزيرة إيبيريا، المدخل الجنوبي الغربي لأوروبا، أروع عمل حربي عرفه تاريخ العصور الوسطى، فما هي إلا سنوات سبع «٧١١ - ٧١٧م» حتى تم فتح شبه الجزيرة التي تعتبر من أجمل وأوسع الأقاليم في أوروبا، وقدر للحضارة العربية بعد نصر يبدو كأنه أسطورة، أن تستقر هناك زمناً، وأن يصبح لها بعد وقت، طابعها الخاص المميز، على الرغم من أصولها الشرقية، وأن تصبح قرطبة - وقد جعل منها السمع بن مالك الخولاني

عاصمة — أعظم مركز للثقافة في أوروبا، وأن تنال شهرة عالمية تبعث الرهبة والإعجاب، لقد كان لها واحد وعشرون صاحبة، وفيها سبعون داراً للكتب، مرصوفة الطرق، مضاءة الشوارع، زاخرة بالحمامات العامة، في الوقت الذي كانت فيه جامعة أكسفورد — مثلاً — ترى الاستحمام عادة وثنية . . . وكانت وسائل الثقافة متاحة للناس جميعاً، وعلى حين لم يكن في بقية أوروبا من يعرف القراءة والكتابة، باستثناء رجال الكهنوت، كانت معرفتها أمراً عادياً وشائعاً في إسبانيا الإسلامية، وقلّ فيها من كان أميّاً» الكتاب ص ٢٧٩ .

ويقول عن محمد بن سلام صاحب كتاب طبقات فحول الشعراء — ص ١٦٣ — : «كان حديثه المفصل عن الانتحال المعالم الهادية لما قام به المستشرقون في أواخر القرن الماضي، وأوائل هذا القرن، من دراسات عن صحة الشعر الجاهلي، ومن احتذى منهجهم وتبنى أفكارهم في العالم العربي، وكل الذين تحدثوا بعده في هذا الأمر كانوا عالة عليه، والفارق بين ابن سلام وبين العرب المعاصرين أن الرجل كان يقدر دور الكلمة فلم يتخفف من المسؤولية، ولم يتخذ الشطط مطية، والشهرة غاية، فجاءت آراؤه، وستبقى تشع جلالاً وتواضعاً وإخلاصاً» .

فأين هذا الكلام الذي يحمل التوقير كله والإجلال كله لعلمائنا الأوائل، من قول أستاذ جامعي عن الطبيب العربي الشهير ابن النفيس : «إنه حلاق صحة»، وقوله عن أبي حيان التوحيدي : «إنه رجل صايع ولو رآه عسكري يسير في الشارع بالليل لأخذه تحري»؟

والعجيب أن هذا الأستاذ الجامعي يقول هذا الكلام على مسمع من الناس، وهو عائد من حفلة عشاء فاخرة على ظهر باخرة نيلية، في ليلة من ليالي مهرجان أبي حيان التوحيدي الذي أقامه المجلس الأعلى للثقافة (طيب يا أخي خلّي عندك شوية دم، دانت لسه واكل على حساب الراجل! ولقد كان من حق «جابر عصفور» أن يضع أصبعه في حلقك لتقيء ما أكلته على حساب أبي حيان)، فهذا موضع المثل العربي الصادق «أكلأ وذمأ»، أي تأكلون أكلأ وتذمون ذمأ، أو كما قال عبد الله بن الزبير في

بعض الحروب لجنده: «أكلتم تمرى وعصيتم أمري، سلاحكم رث، وحديثكم غث، عيال في الجذب، أعداء في الخصب».

ويتحدث المؤلف الفاضل عن مكتبة الصاحب بن عباد، فيذكر أن ما فيها من الكتب يحمل على أربعمائة جمل أو أكثر، وأن فهرس كتبه يقع في عشرة مجلدات «وهي أكثر من كل ما في مكتبات أوروبا العامة والخاصة مجتمعة في العصر الوسيط»، ثم يعلق على هذه العبارة الأخيرة، فيقول في حواشي ص ٦١: «لكيلا ينزعج السادة المتأوربون، فإن التعبير ليس لي، وإنما هو للمستشرق الفرنسي جاك رسلير، في كتابه «الحضارة العربية» ص ٩٢.

ولا يفوت المؤلف أن يضع عيون الطلبة على وجه من وجوه الإنصاف وحرية الفكر في تاريخنا الثقافي، فيقول في ص ٦٧: «وكانت الدولة تضع في المقام الأول من عنايتها نشر الآداب، والعلوم والفنون، ورعاية الكتاب والأدباء والمفكرين، وكان هؤلاء يتمتعون — بصفة عامة — بحرية فكر غير محدودة، ولقد درس الشهرستاني في كتابه «الملل والنحل» العقائد التي كانت سائدة في عصره، في حياد دقيق لا يمكن أن تجد له مثيلاً عند عالم غربي من علماء عصره.

ثم ينقل عن ياقوت الحموي قصة ذات دلالة على حرية الفكر عند بعض العلماء العرب، والقصة كما ذكرها ياقوت في ترجمة شيخه «المبارك بن المبارك بن سعيد ابن الدهان، المعروف بالوجيه النحوي» من معجم الأدباء ص ٢٢٦٦، قال ياقوت: «وحدثني محب الدين محمد بن النجار، قال: حضر الوجيه النحوي بدار الكتب التي برباط المأمونية، وخازنها يومئذ أبو المعاطي أحمد بن هبة الله، فجرى حديث المعري، فذمه الخازن وقال: كان عندي في الخزانة كتاب من تصانيفه، فغسلته، فقال له الوجيه: وأي شيء كان هذا الكتاب؟ قال: كان كتاب نقض القرآن، فقال له: أخطأت في غسله، فعجب الجماعة منه وتغامزوا عليه، واستشاط ابن هبة الله وقال له: مثلك ينهى عن مثل هذا؟ قال: نعم، لا يخلو أن يكون هذا الكتاب مثل القرآن أو خيراً منه أو دونه، فإن كان مثله أو خيراً منه — وحاش لله أن يكون ذلك — فلا

يجب أن يفرط في مثله، وإن كان دونه — وذلك ما لا شك فيه — فتركه معجزة للقرآن فلا يجب التفريط فيه، فاستحسن الجماعة قوله، ووافقه ابن هبة الله على الحق وسكت».

فمثل هذا الكلام، وتلك الأخبار التي ملأ بها المؤلف الفاضل كتابه، مما يقوي ثقة أبنائنا بماضيهم وتراثهم، ويبعث فيهم الاعتزاز به، والحرص عليه، والدفاع عنه.

مواضع للنقد:

أما ما يندفع فيه بعض أساتذتنا وزملائنا الجامعيين، من نقد لعلوم الأمة ومعارفها، مع ما يصحب ذلك أحياناً من السخرية والاستهزاء، فهو مما لا يصح ولا يستقيم، ونعم إن في تراثنا مواضع للنقد والتتبع، وهو منقود من داخله من قديم، فقد اعترض على سيبويه إمام النحاة ونقد واستدرك عليه، وكذلك تعرض البخاري للنقد والتصحيح، وممن نبه على أوهامه الحافظ شرف الدين الدمياطي، عبد المؤمن بن خلف المتوفى بالقاهرة سنة «٧٠٥هـ»، وليس أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك — على ما قاله يونس بن حبيب — ولكن هذه الأمور ينبغي أن تنحى عن طلبه العلم في أول أيامهم، وتؤجل إلى أن يشتد عودهم ويستحصد زرعهم، حتى يستطيعوا أن يميزوا الخبيث من الطيب.

وقد زان هذه المعارف التي امتلأ بها الكتاب أسلوب مشرق، وبيان عذب، ارتفع بها المؤلف عن هذا الجفاف، وذلك العسر اللذين يشيعان في كتابات كثير من الجامعيين الآن.

وقد استحيا المؤلف بعض الأبنية والتراكيب الفصيحة التي يتحاشاها كثير من الكتبة الآن، استخفافاً بها، أو غفلة عنها، فمن ذلك استعماله الفعل «كسر» بمعنى قسم وفصل، وذلك قوله عن ابن النديم وكتابه الفهرست — ص ٣٠٠ — «وقد كسر محمد بن إسحاق كتابه على عشر مقالات». وقوله عن المقرئ وكتابه نفح الطيب — ص ٣٧٧ — «وكسره على ثمانية أبواب». واستعمل هذا الفعل الفصيح أيضاً في ص ١٤٥، فقال عن دراسة الدكتور حنا جميل حداد «شواهد النحو الشعرية» قال:

«وكسرها على قسمين: درس في الأول منهما المناهج والمصادر، وجمع في الثاني كل شواهد النحو».

هذا وقد هُدي المؤلف الفاضل إلى تركيب قديم ضارب في التراث بعروقه، وهو ما ذكره في حديثه عن الخط العربي — ص ٢٦ — قال: «ونحن نواجه قضية علمية لا بأس من إسقاط الروايات التي عجز أصحابها عن مواجهة المشكلة، ولم يصبروا على محنة البحث، فلاذوا بالأسطورة يجدون في رحابها التفسير والتعليل والرضا والراحة».

فقوله: «ولم يصبروا على محنة البحث» من التراكيب الدقيقة البديعة، وكنت قد علقت شيئاً شبيهاً به، وقع لي في كلام قديم، عمره أكثر من ألف عام، وذلك ما جاء في كلام للإمام أبي سليمان الخطابي، وهو أحد أعلام العربية في القرن الرابع، ثم هو صاحب غريب الحديث، وإعجاز القرآن، وتوفي سنة «٣٨٨هـ»، قال في مقدمة كتابه غريب الحديث ٥٧/١: «فحق على طالب الحديث أن يرفق في تأمل مواضع الكلام، ويحسن التأني لمحنة اللفظ».

وهكذا تحيا الألفاظ والتراكيب العربية الفصيحة، وتنتقل من جيل إلى جيل، كما تجول النُظف في الأصلاب الكريمة، وكما تنتقل الخصائص في السلالات الزاكية، ودعك من الذين يقولون بالأساليب التراثية، والأساليب المعاصرة، واستحداث المنافرة والمدابرة بينهما، فإنما هو العجز ولا شيء غير العجز.

وبعد: فهذا عرض سريع للكتاب يغري بقراءته، ولا يحيط بمحاسنه، ولم يبق إلا الاستجابة لما قاله المؤلف في خطبة كتابه من أنه سوف يكون سعيداً بأي ملاحظة لتقويم عمله وإصلاح ما قد يكون داخله من نقص أو خطأ.

وهو موضوع المقالة التالية إن شاء ربك.



دراسة في مصادر الأدب^(١)

للدكتور الطاهر أحمد مكي

[٢]

فرغت في المقال السابق من عرض هذا الكتاب الجليل وبيان فضله وجدواه على ناشئة هذا الجيل . واليوم أستجيب لرجاء المؤلف الفاضل في قبول أي ملاحظة تعين على تقويم عمله هذا، وتصلح ما قد يكون قد داخله من نقص أو خطأ، فأقول وبالله الاستعانة:

أول ما يجب مناقشته من قضايا الكتاب ما ذكره المؤلف الفاضل في ص ٤٣ عن تاريخ النُّقَط في الحروف العربية، قال: «وأول محاولة للنقطة كان دافعها وهدفها، كبقية العلوم الأخرى: الحفاظ على دقة ضبط القرآن الكريم، وكان الناس يقرأون في مصاحف عثمان رحمه الله وهي غير منقوطة ولا معجمة فيخطئون القراءة، فكلمة (سلو) قرأها حفص بن سليمان بن المغيرة (نبلو) وقرأها عبد الله بن مسعود (تتلو)، وكلمة (سسا) قرأها حفص (تثبينا) وقرأها مجاهد بن جبر (تبينا). والآية (جعل السهم «السقاية» في رحل أحبه) قرأها رجل: (جعل السفينة في رحل أخيه) وأمثلة أخرى كثيرة، وقف عليها حمزة الأصفهاني مؤلفاً كاملاً هو «التنبيه على حدوث التصحيف».

ومؤدى هذا الكلام أن الاختلاف في القراءات القرآنية راجع إلى تجرد المصاحف من نقط الحروف، وأن ذلك جعل كل إنسان يقرأ بما يؤديه إليه اجتهاده.

(١) مجلة «الهلal»، أغسطس ١٩٩٧م.

وهذا خطأ محض، ووهم غليظ - وليغفر لنا الأستاذ الكبير هذه الأوصاف؛ لأن الأمر يتصل بكتاب ربنا عزّ وجلّ - ولعل أول من وقع في ذلك في عصرنا هو المستشرق المجري جولدزيهر (١٨٥٠ - ١٩٢١م) وذكره في كتابه «مذاهب التفسير الإسلامي» ثم رده من بعده المستشرق الأسترالي الأصل آرثر جفري، وذكره في مقدمة تحقيقه لكتاب «المصاحف» لابن أبي داود الذي نشره بالمطبعة الرحمانية بمصر ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م، وقد خُذع بذلك الرأي بعض الباحثين العرب، ومنهم الدكتور عبد الواحد وافي، رحمه الله، وذكره في كتابه «فقه اللغة» في طبعته الأولى، ولكنه عدل عنه في الطبعات التالية.

وقد رد هذا الرأي ودفعه الدكتور عبد الفتاح شلبي في كتابه «رسم المصحف العثماني» والشيخ عبد الفتاح القاضي، في كتابه «القراءات في نظر المستشرقين والملحدّين».

السند المتصل :

وخلاصة الأمر في هذه القضية: أن القراءات القرآنية كلها أساسها السند المتصل والرواية المتواترة عن رسول الله ﷺ بما نزل به جبريل عليه السلام. فالقراءة سنة واتباع وأثر، ولا دخل لرسم الحروف فيها، ولا دخل كذلك للغة ولا للنحو، وعلماء اللغة والنحو يحتجون للقراءات، أو يحتجون لها بعد ثبوتها بالرواية والسند الصحيح، وقد أشرت إلى شيء من ذلك في مقالة سابقة بالهلال (سبتمبر ١٩٩٥م) فلا أعيد ما ذكرته هناك. (انظر ص ٣٩٩).

لكنني أذكر هنا مثالين لاختلاف القراءات تبعاً لاختلاف الرواية فقط، مع أن الرسم العثماني واحد غير مختلف:

المثال الأول: في قوله تعالى في فاتحة الكتاب ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [١]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقوله سبحانه في سورة الناس: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ [٢]. فلو تأملت المواضع الثلاثة في

المصحف لوجدت الكلمة فيها هكذا ﴿مَلِكٌ﴾ بالميم واللام والكاف، ولكنَّ حفصاً يقرأ عن عاصم - وهي قراءتنا نحن المصريين - في فاتحة الكتاب ﴿مَالِكٌ﴾ بالألف بعد الميم، وكذلك يقرأ آية آل عمران، أما في سورة الناس فيقرأ ﴿مَلِكٌ﴾ بدون الألف، فلو كان حفص يقرأ وفق الرسم والشكل لقرأ الثلاثة ﴿مَلِكٌ﴾ ولكنه يقرأ بالرواية المتواترة. وانظر تفصيلاً أكثر في كتاب الدكتور عبد الفتاح شلبي: رسم المصحف العثماني ص ٣٣.

والمثال الثاني: قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفْثٌ وَلَا فُسُوقٌ وَلَا جِدَالٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقوله تباركت أسماؤه: ﴿لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، قرأ ابن كثير وأبو عمرو الآية الأولى ﴿فَلَا رَفْثٌ وَلَا فُسُوقٌ﴾ بالضم والتنوين، وقرأ الآية الثانية ﴿لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ بفتحة واحدة خفيفة.

ووجه قراءة الضم أن «لا» هنا تعمل عمل «ليس» فيرتفع الاسم بعدها على أنه اسمها، ووجه قراءة الفتح أن «لا» هنا هي النافية للجنس، فالاسم بعدها يبنى على الفتح في محل النصب، ويقال: إنه اسم «لا» النافية للجنس، التي تعمل عمل «إن».

فلو كان ابن كثير وأبو عمرو يقرءان وفق الشكل أو الوجه النحوي لقرأ الآيتين قراءة واحدة، إما بالضم في الاثنتين، أو بالفتح فيهما، ولكنها الرواية والتلقي.

ولا أحب أن أغادر هذا المكان دون أن أناقش هذه القراءة التي أشار إليها الأستاذ الفاضل (جعل السفينة في رجل أخيه) - وهي تصحيف لقوله تعالى من الآية ٧٠ من سورة يوسف ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَجُلٍ أُخِيهِ﴾.

فهذه القراءة مما يتكفه به أهل زماننا، وواضح أنها قراءة مصنوعة، كما صنعت أمثلة أخرى من التصحيف أريد بها التسلي أو الإضحاك ممن نسبت إليه.

وهذه القراءة المصحفة تنسب إلى «عثمان بن أبي شيبة» المتوفى سنة ٢٣٩هـ ويقولون إنه نبه على هذا التصحيف، وأن صواب التلاوة ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَجُلٍ أُخِيهِ﴾ فقال: «أنا وأخي أبو بكر لا نقرأ لعاصم» ويعلق الحافظ الذهبي على ذلك فيقول:

«فكانه كان صاحب دعاية، ولعله تاب وأناب» ميزان الاعتدال في نقد الرجال ٣/٣٨، ويقول الحافظ ابن كثير: «وما ينقله كثير من الناس، عن عثمان بن أبي شيبة، أنه كان يصحف قراءة القرآن، فغريب جدًا؛ لأن له كتابًا في التفسير، وقد نقل عنه أشياء لا تصدر عن صبيان المكاتب». الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ص ١٧١.

ومما يؤكد كلام ابن كثير هذا أن الأئمة أثنوا على «عثمان بن أبي شيبة» الذي تنسب إليه هذه القراءة المنكرة، فقال عنه يحيى بن معين «ثقة مأمون»، وذكر الذهبي أن الإمام البخاري أكثر من الرواية عنه في «صحيحه»... انظر: سير أعلام النبلاء ١١/١٥٢، ١٥٣. فقصّة التصحيف في الآية مصنوعة مكذوبة إن شاء الله.

فهذه أخطر قضية يناقش فيها الأستاذ الكبير، وهو مرجو إن شاء الله أن يبادر إلى طبعة جديدة من الكتاب، يصلح فيها هذا الخطأ الضخم.

ومما يناقش فيه المؤلف الفاضل أيضًا ما ذكره في ص ٢٣٠، وهو يتحدث عن خصائص أبي العباس المبرد الأسلوبية في كتابه «الكامل» قال: «ومن لوازم المبرد، في الشرح أن يتبع قوله بكلمة «يا فتى» مما يوحى بأن الكتاب في الأصل أمال ألقاها على طلابه».

وأقول: هذه العبارة «يا فتى» لا صلة لها بالأمال، وإنما هي كلمة كان المبرد يستعين بها رمزًا للوصل ولبيان وتحقيق حركة الإعراب لا حركة البناء في الكلمة التي تسبقها، وقد نبه على هذا العلامة الشيخ محمد عبد الخالق عزيمة، في تقديمه لكتاب المبرد «المقتضب» ص ١٠٠، وأشار إلى أن سيبويه قد استعمل ذلك مرتين في كتابه، وكذلك ثعلب في مجالس.

قلت: وقد استعمل سيبويه «يا فتى» مرة أخرى في الكتاب ٣/٣٢٠.

وهذا نمط من التركيب، يلجأ إليه المصنفون قديمًا، يأتون بكلمة، قد تكون

اسمًا وقد تكون فعلاً، بعد كلمة، يريدون بيان آخر حرف منها، إعرابًا أو بناءً، وقد استعمل ذلك سيويه وثعلب، كما ذكر الشيخ عزيمة.

وتختلف صيغة هذا التركيب من مؤلف لآخر، فقد استعمل سيويه «قبل» فقال — في غير ما ذكره الشيخ عزيمة — «ومررتم بجواري قبل» واستعمل أبو عمرو الشيباني «يا فتى» كما استعملها المبرد. فقال: «وما جئته قط يا فتى» كتاب الجيم ٧٤/٣، وكذلك أبو سعيد السيرافي، فقال: «هذه جوار يا فتى» ضرورة الشعر ص ٦٥، واستعمل يعقوب ابن السكيت «يا هذا» فقال: «لعب الصبيان خراج يا هذا» إصلاح المنطق ص ٢٨٧ وفي كتابه حروف الممدود والمقصود ص ٧١، استعمل «فافهم» وذلك قوله: «وتميم وقيس يقولون: القصيا فافهم».

واستعمل أبو عمر الزاهد «يا هذا» فقال: «هم النشأ يا هذا» تهذيب اللغة ٤١٨/١١، وكذلك ابن دريد، قال «فهو من اللبأ يا هذا» الاشتقاق ص ٣٢٥، وأبو حيان التوحيدي، فقال في جمع حصان «والجمع حصن يا هذا» البصائر والذخائر ٢٢/١.

واستعمل سيويه «كما ترى» قال: «وذلك قولك: جاء كما ترى» الكتاب ٣٧٦/٤.

وكذلك استعملها أبو الحسن علي بن الحسن الهنائي الملقب بكراع النمل، قال: «ويقال: هو شجاج كما ترى» المنتخب من غريب كلام العرب ١٦٠/١.

وقد خفي المراد من هذه الكلمة على مشيخة دار الكتب المصرية الذين قاموا على تصحيح ديوان كعب بن زهير رضي الله عنه، فقد قال شارح الديوان أبو سعيد السكري، يشرح عبارة «الأسود الضواري: الضواري اللواتي قد ضرين بأكل لحوم الناس، الواحد: ضار كما ترى» ديوان كعب بن زهير ص ٢٨.

قال مصححو دار الكتب المصرية في الحاشية: «هذه الجملة «كما ترى» لا لزوم لها في الكلام».

مناقشات مهمة :

وتبقى جملة مناقشات أسوقها بحسب ورودها في الكتاب :

ص ١٨ : ضبط الفعل «ينميه» بضم الياء وفتح النون وتشديد الميم ، وهو ضبط غير صحيح ، فضلاً عن أنه يكسر وزن البيت ، والصواب «يَنْمِيهِ» بفتح الياء وسكون النون وكسر الميم خفيفة . ويقال : نماه إلى أبيه ينميه نميًا : أي نسبه .

ص ٢١ : إن بالشعب إلى جنب سلع . والصواب : إن بالشعب الذي دون سلع .

ص ٢٤ : أبو عمر إسحاق . والصواب : أبو عمرو . وتكرر في ص ٢٥ .

وفي الصفحة نفسها ذكر من تلاميذ المفضل الضبي : ابن العربي . وهذا من التطبيع ، والصحيح : ابن الأعرابي ، وسيأتي حديثه مرة أخرى .

ص ٤٣ : ذكر أن كتاب التنبيه على حدوث التصحيف لحمزة الأصفهاني مخطوط بإيران . وقد طبع الكتاب بمجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٨٨هـ — ١٩٦٨م بتحقيق محمد أسعد طلس ، ومراجعة أسماء الحمصي وعبد المعين الملوحي .

هذا ومما يحسن التنبيه عليه هنا أن عبارة المؤلف عن كتاب حمزة في التصحيف توحى بأنه عقد كتابه كله للكلمات المصحفة في القرآن الكريم ، فهو يقول بعد ذكر ثلاثة أمثلة من القرآن الكريم ، ويرى أنها اختلفت قراءتها للتصحيف بخلوها من النقط — وقد دفعت ذلك بحمد الله — يقول : وأمثلة أخرى كثيرة وقف عليها حمزة الأصفهاني مؤلفاً كاملاً ، هو التنبيه على حدوث التصحيف .

والحقيقة أن الكتاب يعالج قضية التصحيف بعامة ، في الكلام المنشور والمنظوم . ثم إن ما ذكره حمزة من ذلك في القرآن الكريم إنما شغل من الكتاب ست صفحات ليس غير ، من ص ١٥٤ إلى ص ١٥٩ ، وهو الباب الرابع من الكتاب .

ص ٥٨: ذكر أن آخر من أملى من اللغويين أبو القاسم الزجاجي المتوفى (٣٣٩هـ) لكننا رأينا بعد ذلك ابن الشجري المتوفى (٥٤٢هـ) يملئ «أماليه» الشهيرة، وابن الحاجب المتوفى (٦٦٤هـ) يملئ «أماليه» المعروفة.

ص ٥٩: ذكر تاريخ وفاة الخطيب البغدادي (١٠٧١م)، والأولى ذكر التاريخ الهجري (٤٦٣هـ) وبعده يذكر التاريخ الميلادي، وتكرر ذلك في غير موضع من الكتاب.

ص ٦٧: أشار إلى كتاب أبي العلاء المعري في نقد القرآن، والصواب «نقض» بالضاد، وليس «نقد» بالذال، وقد ذكرت ذلك في المقالة السابقة.

ص ٧١: ذكر المؤلف هنا كلامًا جيدًا عن «طرق التدوين وضوابط النسخ والمقابلة» مما يؤكد الثقة الكاملة بهذا التراث الذي وصل إلينا. وقد أورد المؤلف طائفة جيدة من مراجع هذا الموضوع.

وأحب أن أضيف إلى ما ذكر هذه المراجع:

المحدث الفاضل بين الراوي والواعي، للحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي المتوفى (٣٦٠هـ)؛ والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي المتوفى (٤٦٣هـ)؛ والإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، لعياض بن موسى اليحصبي السبتي المتوفى (٥٤٤هـ)؛ وأدب الإملاء والاستملاء، لعبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني المتوفى (٥٦٢هـ)، وكنت قد علقت من هذا الكتاب الأخير كلمة عالية عن الأصمعي، تكتب بماء الذهب، وهي قوله في ص ١٤٥: «من لم يحتمل دُلَّ التعلم ساعة بقي في دُلَّ الجهل أبدًا».

ص ٧٧: نقل عن كتاب «المقاييسات» لأبي حيان التوحيدي، قول إبراهيم الصابي: «رفع ما وهى يحتاج إلى تدبير» والصواب «رفع» بالقاف، وليس «رفع» بالفاء، ونقل أيضاً قوله: «من جهة صاحبه الأول ومن كان أولى به، وكان كالأبله»، والصواب: «وكان كالأب له» فهما كلمتان لا كلمة. وهذا النقل في ص ١٥٤ من

«المقاييسات» تحقيق حسن السندوبي ١٣٤٧هـ - ١٩٢٩م، ولم يذكر المؤلف الفاضل رقم الصفحة من المقاييسات، وكذلك فعل في كثير من النقول، يذكر النقل، ولا يدل على موضعه من الكتاب المنقول منه، فليته يستدرك ذلك فيما يستقبل من طبعات الكتاب.

وأشد من هذا أن ينقل كلامًا لمؤلف كثير التأليف، دون أن يذكر اسم كتابه الذي ينقل عنه، فضلاً عن أن يذكر رقم الصفحة، ومن ذلك ما ذكره في الصفحة ٧٧ نفسها، قال: «وكان الجاحظ يرى أنه أسهل للمؤلف أن يسود عشر صفحات بالشر الرفيع، المليء بالأفكار القيمة، من أن يكتشف لمصنفه (في المطبوع: مصنفه) أخطاء ارتكبها، أو أمورًا سها عنها» هكذا نقل عن الجاحظ، ولم يذكر لنقله كتابًا، والكلام في كتاب الحيوان ١/ ٧٩، والمؤلف الفاضل تصرف في كلام الجاحظ بعض تصرف، وليته نقله كما هو!

ص ٧٨: ذكر أن ابن الأعرابي حفيد المفضل، والصواب «ريبب المفضل» كانت أمه زوجة له، كما ذكر الوزير القفطي في إنباء الرواة ٣/ ١٣١.

ص ٨٧: ذكر أن المستشرق رودلف جاير حقق ديوان الأعشى، والأدق: حقق ديوان الأعشى والأعشين، وهذا العمل هو المنشور باسم: الصبح المنير في شعر أبي بصير ميمون ابن قيس بن جندل الأعشى والأعشين الآخرين. طبع بفينا سنة ١٩٢٧م.

(فائدة: الأعشين، هكذا بفتح الشين، وليس: الأعشين بكسرهما، وهو جمع مذكر للأعشى في حالة الجر. ولو كان في حالة الرفع لقلت: الأعشون بفتح الشين أيضاً، وهي ما تقتضيه قاعدة الاسم المقصور، نحو مصطفى والأعلى، تقول في جمعهما، في حالة الرفع: مصطفىون والأعلون، وفي حالتي النصب والجر: مصطفىين والأعلين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَنْفَعُ عَنْدَنَا لَبِئَ الْمُصْطَفِينَ الْآخِيارِ﴾ (٤٧). وقد نبهت على ذلك لأنني سمعت كثيراً من لناس يقولون: ديوان الأعشين بكسر الشين).

ص ٩٤ : ذكر أن مصادر نسخة السكري من أشعار الهذليين تتمثل في عالم مجهول، اسمه «عبد الملك بن إبراهيم الجمحي»، والحق أن جهالة هذا الرجل ليست مطلقة، فهو — وإن لم تعرف له ترجمة — كان معروفًا للجاحظ وقد روى عنه خبرًا في الحيوان ٥/ ٥٨٧، وهو ذلك الخبر المشهور «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا رأى رجلًا يضرب في كلامه — أي يخلط — قال: أشهد أن الذي خلقت وخلق عمرو بن العاص واحد» فهو معاصر الجاحظ. وانظر مصادر الشعر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الأسد ص ٥٦٥، وذكر الأستاذ عبد الستار فراج رحمه الله، في مقدمة تحقيقه لشرح أشعار الهذليين ص ١١ أن «عبد الله بن إبراهيم الجمحي» هذا كان في طبقة ابن الأعرابي والأصمعي، وذكر عن «الأغاني» رواية الزبير بن بكار عنه.

ثم أرجو من مؤلفنا الفاضل أن يغير عبارة (وأعاد سبكه — أي ديوان الهذليين — النحوي الرماني) إلى «ورواه الرماني النحوي» فإن العبارة هكذا توشت أن تكون من تعبيرات المستشرقين، وأحسب أن هناك فرقًا بين «سبك» و «روى» فإن الرماني روى شعر الهذليين عن أبي بكر أحمد بن محمد بن عاصم الحلواني، عن أبي سعيد السكري، ثم تصلح وفاة الرماني لتصبح (٣٨٤).

ص ١٣٩ : ذكر من كتب الأمالي «بهجة المجالس وأنس المجالس» لابن عبد البر. والكتاب صنفه مؤلفه تصنيفًا، ولم يملء إملاءً، فلا يعد من هذه الباب.

ص ١٤٠ : ذكر أن «حواشي الصحاح» لابن دريد، والصواب: لابن بري، وهي المسماة: التنبيه والإيضاح عما وقع في الصحاح، وما عرف منها إلا قطعة نشرها في جزئين مجمع اللغة العربية في القاهرة، بتحقيق الأستاذين مصطفى حجازي وعبد العليم الطحاوي.

وفي نفس الموضع ذكر «أمالي ابن بري» من مراجع لسان العرب، وأمالي ابن بري هي حواشيه على الصحاح، فلا تذكر في العدد.

ص ١٤١ : ذكر أن تاج العروس قريب في قدره من لسان العرب ، والمعروف أن التاج أوسع مادة من اللسان ، فمجموع جذور اللسان (٩٢٧٣) جذرًا . ومجموع جذور التاج (١١٩٧٨) جذرًا ، راجع مقالتي عن المعاجم اللغوية (الهلال مايو ١٩٥٥م) .

ص ١٤٤ : ذكر أن كتاب أبيات الاستشهاد لابن فارس لا يزال مخطوطًا والكتاب نشره شيخنا عبد السلام هارون — برّد الله مضجعه — في المجموعة الثانية من نوادر المخطوطات ١٣٧٠هـ — ١٩٥١م .

ص ١٥٠ : ذكر أيضًا أن كتاب من اسمه عمرو من الشعراء لابن الجراح لما يزل مخطوطًا . والكتاب طبع بتحقيق الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع ، بمطبعة المدني بالقاهرة ١٤١٢هـ — ١٩٩١م .

ص ١٧٨ : عرض للخلاف المعروف في اسم كتاب الجاحظ ، وهل هو «البيان والتبيين» بياء واحدة مشددة بعد الباء ، أو «التبيين» بياءين اثنتين؟ وهو الخلاف الذي لم يحسم بعد ، لكنني أحب أن أضيف جديدًا في هذا الموضوع ، من واقع التجربة الخاصة .

أولاً : زرت مكتبة القرويين بمدينة فاس بالمغرب الأقصى — حرسه الله — عام ١٩٧٥م عضوًا في بعثة معهد المخطوطات التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، وهناك رأيت جزءًا مخطوطًا من كتاب الجاحظ ، هو الجزء الثالث ، وكتب على صدره في العنوان «البيان والتبيين» بياء واحدة مشددة مضمومة واضحة جدًا . وهذه المخطوطة مكتوبة على رق غزال — وذلك من سمات المخطوطات القديمة — بقلم أندلسي نفيس نفيس مוגل في القدم ، وجاء بآخر المخطوطة أنها معارضة بثلاثة أصول صحيحة ، ذات حواش قيمة : أصل أبي الوليد القشبي المتوفى (٤٨٩هـ) وسيأتيك حديث آخر عنه . وأصل عبد الملك بن سراج المتوفى (٤٨٩هـ) وسيأتيك حديث آخر عنه أيضًا . وأصل عطاء بن الباذش — لم أعرف تاريخ وفاته — ولم ير شيخنا عبد السلام هارون هذا الجزء النفيس من الكتاب .

ثانيًا: هذا التوثيق لكلمة «التبيين» التي جاءت في صدر هذه المخطوطة العتيقة قد يعكر عليه ما قرأته في كتاب العواصم من القواصم، لأبي بكر بن العربي، ص ٤٧٧ من الجزء الثاني – تحقيق الدكتور عمار طالبي – وطبعته هي الطبعة الكاملة للكتاب، ولا تغتر بتلك الطبعة التي تحمل اسم الشيخ الجليل محب الدين الخطيب، وإنما هي جزء صغير من الكتاب، خاص بتاريخ الصحابة، وقد نبه الشيخ محب الدين على ذلك. قرأت في ذلك الموضوع من الكتاب كلام ابن العربي عن الجاحظ، فقد أشار في سياق ذمه له أنه صاحب كتاب «الضلال والتضليل» ألا ترشح كلمة «التضليل» كلمة «التبيين» من حيث جاءت على وزنها؟

ثم تحدث المؤلف الفاضل عن مخطوطات كتاب البيان والتبيين، ووصفها ودل على أماكنها، ثم ذكر أن الأستاذ عبد السلام هارون نشر الكتاب، مستخدمًا مخطوطات الكتاب، باستثناء مخطوطة مكتبة فيض الله أفندي باستانبول.

والحق أن ذلك كان من شيخنا في الطبعة الأولى للكتاب، أما في الطبعة الثانية الصادرة عام ١٣٨٠هـ – ١٩٦٠م فقد رجع إلى تلك المخطوطة، ونص على ذلك في صدر عنوان الكتاب، فكتب هذه العبارة «الطبعة الثانية تمتاز بمقابلتها على نسخة مكتبة فيض الله».

ص ٢٢٠: ذكر من كتب المبرد التي لا تزال مخطوطة: المذكر والمؤنث، والتعازي والمراثي، وقد طبع الكتابان: الأول عن دار الكتب المصرية عام ١٩٧٠م، بتحقيق الدكتور رمضان عبد التواب، والدكتور صلاح الدين الهادي، والثاني عن مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٧٦م بتحقيق الأستاذ محمد الديباجي.

ص ٢٣١: ذكر أن كتاب التنبهات على أغاليط الرواة، لعلي بن حمزة مخطوط بدار الكتب المصرية، والكتاب طبع بدار المعارف مصر ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م، مع كتاب المنقوص والممدود للفراء، بتحقيق العلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي.

ص ٢٣٢: ذكر المؤلف الفاضل من شروح الأندلسيين على الكامل للمبرد: شرح أبي الوليد الوقشي المتوفى (٤٨٩هـ)، ويسمى «نكت الكامل» وشرح ابن السيد البطليوسي المتوفى ٥٢١هـ، وذكر أن هذين الشرحين مفقودان إلى الآن، وإن كان السيوطي ٩١١هـ والبغدادى ١٠٩٣هـ قد أشارا إليهما ونقلتا عنهما.

قلت: وهذان الكتابان وإن كانا قد فقدتا إلى الآن، فقد حفظهما عالم أندلسي قريب من عصرهما هو: أبو الحسن علي بن إبراهيم المعروف بابن سعد الخير الأنصاري البلنسي المتوفى (٥٧١هـ) فقد جمع بين شرحي الوقشي والبطليوسي، وسمى ذلك كتاب «القرط على كامل المبرد» وقد سَلِمَ من هذا «القرط» نسختان مخطوطتان، إحداهما بمكتبة إسماعيل صائب أفندي بأنقرة بتركيا، وتاريخ نسخها (٦٥٨هـ) والنسخة الثانية وجدت في الزاوية الحمزاوية بصحراء تمجروت من المغرب الأقصى — حفظه الله — ثم نقلت إلى الخزانة العامة بمدينة الرباط، وتاريخ نسخها مجهول لوجود بتر في آخرها، لكنها جيدة الخط.

وعن نسخة تركيا فقط قام باحث باكستاني، هو «ظهور أحمد أظهر» بتحقيق الكتاب، وحصل به على درجة الدكتوراه من كلية اللغة العربية بجامعة «البنجاب» ثم نشره بالمطبعة العربية بلاهور سنة ١٤٠١هـ — ١٩٨٠م.

وجاء بعده باحث من أهل الطائف بالمملكة العربية السعودية هو «حمد عبد الله أحمد الزائدي» وقدم دراسة الكتاب وتحقيقه إلى كلية اللغة بجامعة أم القرى وحصل بذلك على درجة الدكتوراه سنة ١٤٠٧هـ — ١٩٨٧م. وقد استفاد هذا الباحث من مخطوطة المغرب التي لم يرها الباحث الباكستاني.

ويلاحظ أن البلنسي يسمي شرحي الوقشي والبطليوسي: الطرر والحواشي على كتاب الكامل.

وتأمل أيها القارئ العزيز: كيف ضاعت كتب وحفظتها كتب: فهذا عمل الوقشي والبطليوسي يضيع، لكن البلنسي يحفظه في عمل يجمعهما، وقد عرفت هذه الظاهرة في غير كتاب من تراثنا، وهذا من حفظ الله وكلاءه لعلوم الأمة ومعارفها.

ص ٢٣٤: تحدث عن طبعات الكامل للمبرد، وأحب أن أضيف أن أصح طبعاته إلى الآن هي طبعة مؤسسة الرسالة ببيروت ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، بتحقيق الدكتور محمد أحمد الدالي.

ص ٢٤١: ذكر من مؤلفات المبرد كتابه «الفاضل والمفضول» والكتاب مطبوع بدار الكتب المصرية ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م، بتحقيق العلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي بعنوان «الفاضل» فقط، وقد رجح الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم، في تقديمه للكتاب والأستاذ الميمني في خاتمته أن صواب العنوان «الفاضل» ليس غير.

ص ٢٦١: ذكر أن كتاب «مقاتل الطالبين» لأبي الفرج الأصبهاني طبع بالقاهرة منذ أعوام غير بعيدة وهو يريد تلك الطبعة التي أذاعها شيخنا السيد أحمد صقر رحمه الله، بمطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م، والحق أن الكتاب طبع قبل ذلك طبعتين: الأولى في طهران سنة ١٣٠٧هـ، والثانية في النجف الأشرف بالعراق سنة ١٣٥٣هـ.

ص ٢٦٦: في تحليله لمنهج أبي الفرج في الأغاني أنه كان يعتمد لشرح الألفاظ الغامضة فيما يورده من شواهد. وأحب أن أشير هنا إلى عمل نافع جدًا، قام به الدكتور حسن محسن: فقد استخرج شروح أبي الفرج هذا من أجزاء كتاب الأغاني - على ضخامتها - وجمعها مرتبة في كتاب سماه «معجم الألفاظ المفسرة في كتاب الأغاني» ونشرته وزارة الأعلام بالكويت ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م فأسدى الجامع وأسدت الوزارة بذلك يدًا جليلة إلى تراثنا اللغوي والأدبي، وبمثل هذه الأعمال يستفيد «المعجم الكبير» الذي يضطلع به مجمع اللغة العربية بالقاهرة، فليست اللغة في المعاجم فقط.

ص ٢٦٩: ذكر أن الطبعة الثانية من كتاب الأغاني قام بها الحاج محمد الساسي والصواب: المغربي، وقد كتبت عنه في كتاب الهلال (الكتاب المطبوع في مصر في القرن التاسع عشر. أغسطس ١٩٩٦م) في الصفحات ١٠٠، ١٠٢، ١٥٤.

ص ٣٦٠: ذكر أن كتاب رايات المبرزين لابن سعيد الأندلسي نشره المستشرق الأسباني غرسية غومث بمديرية عام ١٩٤٢م. وأضيف: أن الكتاب أعيد نشره نشرة علمية محررة، بتحقيق الدكتور النعمان القاضي، وصدر عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، ورحم الله ذلك المحقق «النعمان القاضي» فقد كان من أفاضل الناس.

ص ٣٧٦: أشار إلى الأجزاء الثلاثة التي طبعت بالقاهرة من كتاب أزهار الرياض في أخبار عياض، في الأعوام ١٩٣٩م، ١٩٤٠م، ١٩٤٢م، بتحقيق الأساتذة مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، ثم ذكر أن بقية الكتاب لا تزال مخطوطة. وأبشر الأستاذ الكريم بأن هذه البقية قد طبعت في جزءين بالمغرب العزيز بدعم من صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، بتحقيق الأساتذة سعيد أعراب، ومحمد بن تاويت، وعبد السلام الهراس، مع إعادة الأجزاء الثلاثة المطبوعة بالقاهرة بالتصوير، مع استدراقات وتصويبات عليها.

وبعد: فلم يبق إلا تقديم أصدق التحية والشكر للأستاذ الكبير الدكتور الطاهر أحمد مكي، على هذا العمل الجليل الذي هو خير ما يقدم لأبنائنا في هذه المرحلة من العمر، وإن كانت مادة الكتاب مما يفيد منها كل قارئ للعربية، ثم أعود إلى ما اقترحته في صدر كلمتي من أن يكون هذا الكتاب - وبخاصة المائة صفحة الأولى - فرض عين على كل طالب علم في كليائنا ومعاهدنا المعنية بالدراسات العربية والإسلامية، لا أستثني معهداً أو كلية، والله الهادي إلى سواء السبيل.



الشيخ محمود شاكر.. وتاريخ ضخم^(١)

إن أقصى ما يعرفه كثير من الناس الآن — وبخاصة الشباب — عن أبي فهر أنه صاحب الخصومة مع الدكتور طه حسين حول قضية الشعر الجاهلي وحول المتنبي، وصاحب الخصومة مع الدكتور لويس عوض حول أبي العلاء المعري والفتن الأخرى المنشورة في «أباطيل وأسمار»، ثم يعرفه المشتغلون بالدراسات الأدبية بقراءته الفذة وشرحه النفيس لطبقات فحول الشعراء لابن سلاّم، ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، ثم تحقيقه المعجب لتفسير الطبري وتهذيب الآثار، ويجمال بعضهم معرفته به في هذه العبارة الفضفاضة التي لا تدل على شيء «شيخ المحققين».

والحقيقة أن الرجل وراء ذلك كله، وفوق ذلك كله، إنه تاريخ ضخم لرجل تنبه منذ طراءة الصبا وأوائل الشباب إلى هموم أمته وما يراد بها ويكاد لها، وقد فطن منذ عقل إلى أن الطريق الوحيد للتغيير هو العلم والمعرفة، فانصرف إليهما، ولم يشغل بغيرهما، ثم أخذ نفسه بأسلوب صارم حازم، فقرأ القرآن صبيّاً، وأقبل على الشعر مبكراً، يحفظه لا كما يحفظه الناس، مقطوعات للإنشاد والتسلي والمطارحة في المجالس، وإنما الشعر عنده باب العربية كلها، وقد قاده الشعر إلى كتب العربية كلها، فالمكتبة العربية كلها عند أبي فهر كتاب واحد، والعلوم العربية عنده علم واحد، فهو يقرأ صحيح البخاري كما يقرأ الأغاني، ويقرأ كتاب سيبويه قراءته لمواقف عضد الدين الإيجي، فهو بتعبيرنا المصري «خد البيعة على بعضها»، وهكذا

(١) «الوطن»، العدد ٧٧٢٤، ١٤ ربيع الآخر ١٤١٨هـ، أغسطس ١٩٩٧م.

خالط أبو فهر العربية منذ أيامه الأولى، وعرف مناهج الكتب والكتاب في مختلف فنون العربية، وخبر مصطلحات الأقدمين وأعرافهم اللغوية، وهذا فرق ما بينه وبين سواء من الكتاب والنقاد.

فأنت قد تجد ناقداً ذا ذوق وبصيرة، ولكن محصوله اللغوي على قدر الحاجة، وقد تصادفه جمع بين الذوق والبصيرة واللغة ولكن معارفه التاريخية لا تتجاوز الشائع العام الدائر على الألسنة، وقد تراه فاز من الثلاثة بأوفر الحظ والنصيب، ولكنك لن تجد عنده ما تجد عند أبي فهر من الأنس بالمكتبة العربية كلها في فنونها جميعاً، ودوران هذه الفنون في فكره وقلبه دوران الدم في العروق.

ولقد سارت حياة أبي فهر في طريقين استويا عنده استواء واضحاً عدلاً:

الطريق الأول طريق العلم والمعرفة، يعب منهما ولا يروى.

والطريق الثاني: التنبه الشديد لما يحاك لأمتنا العربية من كيد ومكر، وما يراد لثقافتها وعلومها من غياب واضمحلال، وظل حياته كلها قائماً على حراسة العربية والذود عنها، يحب من أجلها ويخاصم من أجلها.

وقد احتمل في حالتيه من العناء والمكابدة ما تنوء بحمله العصبية أولو القوة.

وقد حارب أبو فهر في جهات كثيرة، وخاض معارك كثيرة، حارب الدعوة إلى العامية، وحارب الدعوة إلى كتابة اللغة العربية بحروف اللاتينية، وحارب الدعوة إلى هلهلة اللغة العربية والعبث بها بحجة التطور اللغوي، وحارب الخرافات والبدع والشعوذة، وقد حارب في كل ذلك وحده غير متحيز إلى فئة، أو منتصر بجماعة، وهو صلب عنيد فاتك، ألقى الدنيا خلف ظهره ودبر أذنيه، فلم يعبأ بإقبالها أو إدبارها، واستوى عنده سوادها وبياضها.

ولقد أقصي كثيراً عن محافل الأدب ومجالي الشهرة فلم يزد ذلك إلا إصراراً وثباتاً، ووقف وحده في ساحة الصدق شامخ الرأس مرفوع الهامة يرقب الزيف ويرصده ويدل عليه، ولم يجد خصومه في آخر الشوط إلا أن ينفروا الشباب عنه،

ويغضوه إليهم بما أشاعوه عن حدته وبأسه وتعالیه، ونكص من نكص مسيئاً في نكوصه، وثبت من ثبت محسناً في ثباته.

ومع كل هذا الحصار الذي ضرب حول الأستاذ الإمام فقد خلص إليه أهل العلم ومحبو المعرفة، ينهلون من هذا المنهل العذب، فكان بيته جامعة عربية ضخمة: طوائف من الناس من مختلف البلدان والأعمار والانتماءات، وسعهم هذا البيت المفتوح دائماً، ولم يفتح لهم يوماً دون يوم أو ساعة دون ساعة.

ولأبي فهر في البيان طريق معجب، وأسلوبه في الكتابة أسلوب عال، تحدر من سلالة كريمة، ومداره عى التذوق الذي واتاه بعد دربة طويلة متوارثة، انطلقت من الشعر الجاهلي الذي هو أنبل كلام العرب وأشرفه، ثم استقرت عند القرآن العظيم الذي هو البيان الإلهي الملفوظ، وقد أفضى به ذلك إلى الإحساس العميق باللفظ العربي في ترجيعه ونغمته: في الدلالة والألفاظ والتراكيب والصور. وأسلوب أبي فهر بعد ذلك أسلوب كاتب يحترم قارئه ويحبه ويؤنس ويمتعه، ولا يتعالى عليه بالإغماض، ولا يعتته بالرمز والإشارة إلى ما لا تطوله يده، ولا يستخف به بالثرثرة وفضول الكلام، ولو كان هذا الرجل قد خرج من الملالة والثورة المتفجرة في نفسه التي لا تهدأ، لأتى بكل عجيبة وغريبة، ولكن الله يشبط أقواماً ليرزق آخرين، على أن هذه الملالة التي حجزته عن كثرة التأليف والكتابة جاءت بخير كثير، فقد أخلت وجهه لطلاب المعرفة من الشرق والغرب.

وبعد، فيا أبا فهر:

لقد كنت في قوم عليك أشعة بنفسك إلا أن ما طاح طائح
يودون لو خاطوا عليك جلودهم ولا تدفع الموت النفوس الشحائح
رحمك الله رحمة واسعة سابغة، وجعل كل ما قدمته لأمتك ولعروبك في موازينك يوم تجد كل نفس ما عملت من خير مُحضراً.



محمود شاكرون والديار التي خلت^(١)

وقالوا الإمام قضى نجبه وصيحة من قد نعاها علّت
فقلت فما واحد قد مضى ولكنه أمة قد خلت
وليس في وصف محمود شاكرون بأنه أمة وحده شيء من استرسال القلم بدواعي
الشجن لحادثة الموت وفوت الأمانى بطلب البقاء، فإن سيرة هذا الرجل تنطق بأنه
واحد في هذا العصر، فلا يشبهه أحد من أدباء زماننا، وما ظنك بأديب قرأ كتب
العربية في فنونها كلها، لا أستثني فناً ولا علماً. أقول قولى هذا غير شك ولا متردد،
فقد خالطت محمود شاكرون ثلاثين عاماً، وخبرت سواده وبياضه، وعرفت علنه،
وأطلعني على كثير من سره، ونظرت في مكتبته الضخمة فإذا على كل كتاب منها أثر
قراءة ونظر وتعليق.

لقد ولد محمود شاكرون في أول فبراير ١٩٠٩م، وتوفي في ٧ أغسطس ١٩٩٧م،
فهذه ثمانية وثمانون عاماً، قضى منها سبعين عاماً في القراءة والنظر والكتابة، وهذا
تاريخ موثوق به، فقد ظهر اسمه في أول عمل علمى سنة ١٩٣٧، حين صحح
صفحات من كتاب «أدب الكاتب» لابن قتيبة، الذي أخرج الشىخ محب الدين
الخطيب في ذلك العام، وأشار إلى صنيع محمود شاكرون في مقدمته، ومعلوم أنه
التحق بكلية الآداب عام ١٩٢٦م، وقد اتصل بالعلم من قبل، فقد أخبرني رحمه الله
أنه قرأ «لسان العرب» كله، و «الأغانى» كله، وهو طالب بالثانوى، فهل تظن أن أديباً
من أدباء عصرنا قرأ هذين الأثرين، وهو في سن الثالثة عشرة أو الخامسة عشرة؟

(١) جريدة «الأهرام» (مصر)، ٢٢ أغسطس ١٩٩٧م.

وتروح أيام وتجيء أيام، ويظل محمود شاكر لصيقاً بالكتاب، لا يكاد يدير وجهه عنه. لقد ألقى محمود شاكر الدنيا خلف ظهره ودَبَّرَ أذنيه، ولم يبال بإقبالها أو إدبارها، وفرغ للعلم والمعرفة، وقد أعانه على أمره عقل فذ، ونفس متوثبة، وأشياء كثيرة مركوزة في الطبع، مذكورة في أصل الخلقة، مما يصطفي الله بها خلقه من الأنبياء وأصحاب الرسالات وصناع الحضارات.

وقد كتبت عن محمود شاكر كثيراً، وحاولت أن ألتمس وجوهاً من الوصف تنبئ عن حقيقة حاله ومكنون أمره، وغاية ما انتهيت إليه أن الرجل رزق عقل الشافعي وعبقريّة الخليل ولسان ابن حزم وجلد ابن تيمية، بل إنني رأيت أن ليس بينه وبين الجاحظ أحد في الكتابة والبيان، وكنت أرى أن كل هذا الذي قلته غير كاف في حقه، حتى وقفت على ما أريد من وصفه في كلام لأبي حيان التوحيدي، يقارن بين الجاحظ وابن العميد، يقول أبو حيان:

«إن مذهب الجاحظ مدبر بأشياء لا تلتقي عند كل إنسان، ولا تجتمع في صدر كل أحد، بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والبلوغ. وهذه مفاتيح قلما يملكها واحد، وسواها مغالط قلما ينفك منها أحد».

فهذا كلام مفصل على محمود شاكر تفصيلاً، ومصروف إليه صرفاً، ويزد عليه غيرته الشديدة على العربية ودفاعه الحار عنها، وخوضه تلك المعارك الرهيبة التي خاضها بقلب رجل صلب عنيد فاتك، وقد خاض معاركه كلها وحده، غير متحيز إلى فئة ولا منتصر بجماعة.

وبعد: فيا أبا فهر، أي علم باذخ طوي بموتك، وأي دليل هاد غاب برحيلك، وأي ضوء ساطع طفئ بغيابك، وأي حزن أسود نشب بالقلب بفقدك:

ما في الصحاب أخو وجد نظارحه حديث نجد ولا صب نجاريه
وليرحمك ويرحمنا الله.



أجمل كتاب في حياتي: «البيان والتبيين»، للجاحظ^(١)

الكتب كالبشر، منها ما تعرفه ثم لا تطيقه فتلفظه، ومنها ما تأنس به ساعة من نهار، وقد تؤمل فيه خيراً فتستبقيه في ركن من نفسك، علّك أن تعود إليه يوماً، لكنك تكتشف من قريب أنه ليس بذاك فتعرض عنه، ومنها ما يخطف بصرك ويعلق بقلبك فإذا أنت منجذب إليه ومعقود به، لا تكاد تدبر وجهك عنه، وكأنه «سالم» ذلك الذي يقول فيه أبوه عبد الله بن عمر بن الخطاب، رضي الله عنهم:

يُديرونسي عن سالم وأديرهُم وجلدةُ بين العين والأنف سالم
وكتب أبي عثمان الجاحظ من هذه الطائفة الثالثة. وقد عرفت الجاحظ أيام الطلب، وكان أساتذتنا رضوان الله عليهم يعرفوننا بأعلام تراثنا ويقدمونهم إلينا في صورة محفوفة بالجلال ملففة بالمهابة، وكان تعريفهم لنا بهؤلاء الأعلام مقروناً بنصوص من كلامهم، يقرأونها علينا، ويخوضون بنا لججها، ويكشفون لنا عن أسرارها، فعرفنا العربية صافية قبل أن تكدرها الدلاء، فلم يكن الدرس الأدبي واللغوي في أيامنا غارقاً في ضباب المصطلح والنظرية، وتقويم الفكر العربي، وسائر تلك التهاويل الفارغة والدعاوى العريضة التي فتحت الباب للصغار يعبثون بتاريخهم وعلومهم!

ما علينا، عرفت في ذلك الزمان الجاحظ، مع من عرفت من أعلام النقد

(١) مجلة «الهلal»، سبتمبر ١٩٩٧م.

العربي: أبو الهلال العسكري، وأبو الحسن الأمدي، والقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، والشيخ عبد القاهر الجرجاني، ثم كان من صُنِعَ الله لي وتوفيقه إياي أن تخلص أيامي للتراث العربي في فنونه المختلفة: ناسخاً للمخطوطات ومفهرساً لها ومحققاً لنصوصها، ثم كان من فضل الله وإنعامه علي أيضاً أن أتصل بأعلام التراث وناشريه: محمود محمد شاكر وعبد السلام هارون والسيد أحمد صقر ومحمد أبو الفضل إبراهيم وحسن كامل الصيرفي، وهؤلاء جميعاً فتحوا لي أبواباً من النظر، ودلّوني على فوائد من الكتب، ما كنت لأقف عليها وحدي. وهذه ثمار مجالسة أهل العلم والرواية عنهم، وهذا مما حُرِمَ منه شباب هذه الأيام.

ولقد كان من وصاة شيخنا محمود محمد شاكر — عليه رحمة الله — أن نقرأ الكتب كاملة، والألّا نتعامل معها تعامل المراجع والمصادر، نأخذ حاجتنا ونمضي، كالطائر العجل يَحْسُو من الماء حُسوة ثم ينطلق في فضاء الله.

وكان من وصاته لنا أيضاً أن نقرأ كتب الأدب التي تعنى باللغة والنحو مثل: كتاب الكامل للمبرّد، وأمالي أبي علي القالي، وشرح الحماسة للمرزوقي، ولكنه — رحمه الله — لم يكن يتحمس للجاحظ كثيراً، مع إجلاله له وحفاوته به، لأنه يرى أن الجاحظ يستطيل على الناس بذكائه، ويخدعهم بتصرفه في القول والبيان، ولعل الذي زهد شيخنا في الجاحظ هو ميوله الاعتزالية، والشيخ كما هو معروف من أهل السنة والأثر، ولكنني خالفت الشيخ رأيَه في الجاحظ، ولعل هذه هي المرة الأولى التي أخالف فيها عن أمره، ألم أنشدك من قبل:

يُديرونني عن سالم وأديرهم وجلدة بين العين والأنف سالم

أسس حضارة فتية:

وُلد الجاحظ عام ١٦٠هـ بالبصرة، وتوفي بها عام ٢٥٥هـ، فهذه خمسة وتسعون عاماً ملأها الجاحظ بالقراءة والنظر والتأليف، ولم يُشغل عن ذلك كله بزوجة ولا ولد، وقد ساعدته على ذلك نفس طلعة، راغبة في المزيد، لا تقنع بما

حصلت، ولا تقف عند ما قاله الأوائل، روي عنه أنه قال: «إذا سمعت الرجل يقول: ما ترك الأول للآخر شيئاً فاعلم أنه ما يريد أن يفلح».

وتروى عنه حكايات كثيرة في شغفه بالعلم والتحصيل. يقول أبو هفان: «لم أرق قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين (باعة الكتب) ويبيت فيها للنظر». وقد استغرقتة القراءة حتى أنسته ما لا ينسى. روي عنه أنه قال: «نسيت كنيتي ثلاثة أيام حتى أتيت أهلي فقلت لهم: بم أكنى؟ قالوا: بأبي عثمان». (وهذا شبيه بما نقوله في أيامنا، في مقام التوعد والتهديد: والله أنسيك اسمك).

عاش الجاحظ النصف الثاني من القرن الثاني، والنصف الأول من القرن الثالث، وفي ذلك العصر بالتحديد والقطع — عصر هارون الرشيد وابنه المأمون — وُضعت أصول العلوم العربية، فالبصرة والكوفة وبغداد ومصر ودمشق وقرطبة وسائر عواصم الإسلام تغلي وتموج بالرواية الشفوية والسماع والتلقي والتدوين، وقد تم نقط المصحف الشريف، وثبتت قراءاته المتواترة عن رسول الله المنزل عليه ﷺ، وعلماء الحديث يجمعونه، ويؤسسون فيه هذا العلم الشامخ «الجرح والتعديل»، وهو أساس القبول والرد، ويأتي البخاري ومسلم وبقية الستة من أصحاب الجوامع والمسانيد.

وفي ذلك الوقت أيضاً يظهر الأئمة الأربعة، ويدونون الفقه الإسلامي: مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل، وينفرد الشافعي من بينهم بتأسيس علم أصول الفقه، ويضع فيه مؤلفه الشهير «الرسالة»، ثم يقيم الخليل بن أحمد أساس أول معجم عربي «العين»، ثم يهتدي إلى ضبط أنغام الشعر وبحوره، ويؤسس فيه علماً لم يسبق إليه، وهو «علم العروض» الذي يسميه بعض أهل زماننا «موسيقى الشعر»، وما هي إلا «العروض»، فلا تُسمّه بغير هذا!

وينهض تلميذ الخليل: سيبويه، فيضع «الكتاب» في علم النحو.

وينشط الإخباريون بتدوين ما وصل إليهم من أخبار الأمم الماضية، والسيرة النبوية وأخبار الصحابة والتابعين، مثل وهب بن منبه وعبيد بن شربة — وهذان كانا في عصر بني أمية — والواقدي وكتابه محمد بن سعد، ومحمد بن إسحاق، وعبد الملك بن هشام، ومحمد بن حبيب، وأبي الحسن المدائني، والزبير بن بكار.

ويأتي جامعو اللغة والشعر وشُرَّاحه ونُقَّاده: يونس بن حبيب، وأبو عمرو بن العلاء، وأبو عمرو الشيباني، ومحمد بن سلام الجمحي، وأبو عبيدة، والأصمعي، وأبو زيد الأنصاري، بحار علم جاشت أمواجه وأزبدت وتدفت.

ويتألق فرسان الترجمة من اليونانية: جبريل بن بختيشوع، ويوحنا بن ماسويه، ويوحنا البطريق، وحنين بن إسحاق، وثابت بن قرّة. ومعظم هؤلاء قد ولي الترجمة في أيام الرشيد والمأمون، وقد كانت صلتهم بالعربية قوية، فيروى أن «حنين بن إسحاق» — وكان فصيحاً جداً في اليونانية — لزم الخليل بن أحمد حتى برع في لسان العرب، وهو الذي أدخل كتاب «العين» بغداد، كما يقول ابن جلجل في طبقات الأطباء والحكماء.

فهذه أسس حضارة كاملة، قامت مائة وخمسين عاماً، فأئى زمن هذا؟ وأية أمة هذه؟

عاش الجاحظ ذلك العصر كله، وقرأ آثاره كلها، وروى عن رجاله وأعلامه، واستوعب حصاده كله، وأتاه حقه فأودعه جميعه في مؤلفاته الكثيرة، التي يقول عنها المسعودي: «لا يُعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً منه». وقد أحصى ياقوت الحموي من مؤلفات الجاحظ مائة وثمانية وعشرين مصنفاً، طبع منها: الحيوان والبيان والتبيين والبخلاء والعثمانية والبرصان والعرجان والعميان والحوالان، والرسائل، والتاج في أخلاق الملوك (المنسوب إليه).

التصاق الفن بالنفس :

وأنت حين تقرأ كتب الجاحظ هذه إنما تقرأ ثقافة القرون الثلاثة كلها — رواية وتدويناً — وهذا شأن الكاتب الكبير، يفتح منفذاً يُقضي إلى منافذ، ويشق باباً يدل على أبواب.

وأحسب أنني لو تركت القلم يسترسل في وصف علم الجاحظ وأدبه لما انتهيت إلى غاية، فحسبي هنا أن أنقل كلام ذلك العالم الجليل المجهول القدر الدكتور طه الحاجري، رحمه الله، يقول في مقدمة تحقيقه لكتاب البخلاء: «كان الجاحظ إماماً من أئمة الكلام، وزعيماً من زعماء المعتزلة، وصاحب نحلة من نحلهم، وكان عالماً محيطاً بمعارف عصره، لا يكاد يفوته شيء منها، سواء في ذلك أصيلها ودخيلها، وسواء منها ما كان إلى العلم والتحقيق، وما كان إلى الأخبار والأساطير، وكان راوية من رواة اللغة وآدابها وأخبارها، غابرها ومعاصرها، واسع الرواية، دقيق المعرفة، قوي الملكة في نقد الآثار وتمييزها، ولكنه كان فوق هذا كله كاتباً أديباً بكل ما تتضمنه هذه الصفة من رهافة في الحس، وخصوبة في الخيال، وقوة في الملاحظة، ودقة في الإدراك، وقدرة على التغلغل في دقائق الموجودات، واستشفاف الحركات النفسية المختلفة، وتمكن من العبارة الحية النابضة، والتصوير الكاشف البارع الذي يبرز الصورة بشتى ملامحها وظلالها، في بساطة ودقة وجمال».

وهذه النزعة الفنية التي غلبت على الجاحظ، ووسمت أعماله كلها، ترجع كما يقول الدكتور الحاجري إلى «طبيعة الفن الجميل، من شدة لصوقه بالنفس وتأثيره في الوجدان، وقدرته على مغالبة تقلبات الرأي ومذاهب الحياة، وترجع إلى قوة المزاج الفني وغلبة النزعة الفنية عند الجاحظ»، انتهى كلام الدكتور الحاجري.

وهذه النزعة الفنية هي التي خففت من جفاف تلك المباحث الكلامية التي شحن بها الجاحظ مؤلفاته، وكذلك ما حشده من المعارف والنظريات العلمية السائدة في عصره.

يقول أبو الحسن المسعودي: «وكتب الجاحظ — مع انحرافه المشهور — (يريد ما كان عليه من الاعتزال وعداوة الشيعة، وكان المسعودي شيعياً) تجلّو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان، لأنه نظمها أحسن نظم، ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ، وكان إذا تخوّف ملل القارئ وسأمة السامع خرج من جد إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة»، مروج الذهب ٤/ ١٩٥.

ويبرز من بين مؤلفات الجاحظ كتابه «البيان والتبيين» معلماً ضخماً من معالم كتب العربية، وباباً واسعاً من أبواب الفكر العربي. ولهذا الكتاب في حياتي أثر ضخم، فهو الذي قادني إلى كتب الجاحظ الأخرى، فقرأتها كلمة كلمة، ولم أتعامل معها تعامل المراجع الخاطفة، ثم هو الذي جذبني إلى كتب العربية الأخرى، ومن قبل ذلك ومن بعده فهو الذي أذاقني حلاوة البيان العربي، وهو الذي هداني إلى هذه الأنغام الجليلة الفخمة المترققة من مختار الكلام: شعراً موزوناً معقوداً بقواف محكمة، ونثراً مصقولاً مسنوناً يتهدى بالحرف العربي مشرقاً وضيقاً متسقاً لينصبّ في السمع، ويتولّج في القلب، فيحدث تلك النشوة الغامرة، ويمتع بذلك الطرب المؤنس الودود.

ترك الأستاذ على جهله :

والكتاب في وصف بعض الأقدمين يُصنّف ضمن علوم البلاغة بمعناها الواسع، لا بمعناها الذي حُصر فيما بعد بالمعاني والبيان والبديع. يقول أبو هلال العسكري: «وكان أكبرها وأشهرها — يعني كتب البلاغة — كتاب البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وهو لعمرى كثير الفوائد، جمّ المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبّه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة، وغير ذلك من فنونه المختارة ونعوته المستحسنة» الصناعتين ص ٥.

ويقول ابن رشيّق القيرواني — وهو يُعرّف علم البيان — : «وقد استفرغ أبو عثمان الجاحظ — وهو علامة وقته — الجهد، وصنع كتاباً لا يبلغ جودة وفضلاً،

ثم ما ادعى الإحاطة بهذا الفن لكثرتة، وأنه كلام الناس وأنفاسهم، لا يحيط به إلا الله عزَّ وجلَّ»، العمدة ١/ ٤٤١.

ويقول المسعودي - وهو يعدد كتب الجاحظ - : «منها كتاب البيان والتبيين، وهو أشرفها، لأنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب، ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به»، مروج الذهب ١٩٦/٤.

وقد وضعه ابن خلدون ضمن علوم الأدب بمعناه الواسع أيضاً، فقال قوله السائرة: «وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين، وهي أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر - يعني الأمالي - لأبي علي القالي البغدادي. وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها»، مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٣.

والكتاب بذلك الوصف دائر على مباحث في البيان والبلاغة والخطابة والشعر والأسجاع، مع ما يصحب ذلك كله من عرضه لنماذج من الوصايا والرسائل وطائفة من كلام النساك والقصاص وكلام الحمقى ونواديرهم، ثم بعض الاختيارات البلاغية من الكلام الموثق المنسوب.

وأخشى أن يسرع بك الظن أيها القارئ المبتدئ فتظن أن ذلك الكتاب من كتب الأسمار والتسلية والنوادر وإزجاء الفراغ، وأنه صورة من صور اهتمام أدباء العرب بالجزئي دون الكلّي، كما يزعم الزاعمون! وليس الطريق هنالك، إن الجاحظ مفكر قبل أن يكون أديباً، حكى شمس الدين بن خلكان، عن أبي القاسم السيرافي، قال: «حضرنا مجلس الأستاذ أبي الفضل بن العميد الوزير، فجرى ذكر الجاحظ، فغض منه بعض الحاضرين وأزرى به، وسكت الوزير عنه، فلما خرج الرجل قلت له: سكت أيها الأستاذ عن هذا الرجل في قوله مع عادتك في الرد على أمثاله! فقال: لم أجد في مقابلته أبلغ من تركه على جهله، ولو واقفته (جاء في وفيات الأعيان: واقفته، بتقديم الفاء على القاف، وهو خطأ، وصوابه بتقديم القاف على الفاء) وبينت

له لنظر في كتبه وصار بذلك إنساناً يا أبا القاسم، فكتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً، فلم أستصلحه لذلك»، وفيات الأعيان ٤٧٣/٣.

وهذا كلام عال نفيس، فكتب الجاحظ تعلم العقل قبل الأدب، وقد أخذ من ذلك الأستاذ شفيق جبري عنوان كتابه: «الجاحظ معلم العقل والأدب»، وكذلك تعلم العقل كتب أصحاب البيان الآخرين، مثل أبي حيان التوحيدى، الذي يقول عنه الدكتور زكي نجيب محمود: «إنه يعمق بالفكرة ويزخرف باللفظ»، ولكن كثيراً من نقادنا المحدثين قد اصطنعوا فجوة بين الفكر والبيان، وأقاموا حجازاً عالياً بين قضايا العقل والإحسان في تأدية المعاني والإبانة عنها، وقد تسلل هذا الفصل إلى عقول الناشئة فيما يقدم إليهم من الفرق بين الأسلوب العلمي والأسلوب الأدبي.

ومن ثم فقد حكم هؤلاء النقاد على مصطفى صادق الرافعي ومحمود محمد شاكر، وإبراهيم عبد القادر المازني، ومن إليهم من المحسنين في الأداء، المجيدين في طرائق الكلام، بأنهم بمعزل عن الفكر، وأن بضاعتهم لا تخرج عن الزخرف من القول، والמושى من الكلام. ولعل هذا أحد أسباب الغموض والظلام الذي يشيع في كتابات بعض الأدباء الآن. وقد امتد هذا البلاء إلى مجال الغناء والطرب، فأصبحنا نسمع عن الفرق بين «المؤدي» و«المطرب» وإعلاء شأن المؤدي، والإزراء بالمطرب، لأن المؤدي هو الذي يلتزم باللحن، ولو كان صوته خشناً غليظاً منكرًا، وأن المطرب مردد، ولو ظفر من حلاوة الصوت بأوفر الحظ والنصيب! وبالله نستدفع البلاء! (إنتوا عاوزين تعملوا فينا إيه يا جماعة؟ حرمتونا من حلاوة الكلام، والآن تحرمونا من حلاوة الصوت).

وقد عرض الجاحظ في كتابه لقضايا من اللغة، فتحدث عن مخارج الحروف، وأثر اكتمال الأسنان أو نقصها في البيان، وأثر لحم اللثة في النطق، وذكر الحروف التي تدخلها اللثغة، وأي اللثغة أشنع وأيها أظرف. وذكر لكل ذلك المثل والمثلين. وقد أشار إلى طريف من لغة الأطفال، فقال: «والميم والباء أول ما يتهياً في أفواه الأطفال، كقولهم: ماما وبابا»، البيان والتبيين ١/٦٢.

وقد صار ما أورده الجاحظ من كلام الفصحاء والخطباء، وما أنشده للشعراء المقلّين والمكثرين، مدداً لجامعي اللغة وأصحاب المعاجم، فهو قريب عصر بالرواية، مع حافظة واعية تجمع كل شاذة وفادة.

كتاب شامل للحضارة العربية :

وقد اتسع كتاب البيان والتبيين أيضاً لكثير من أوجه الحضارة العربية، مثل نظم العرب الاجتماعية والسياسية والمالية والخلقية والتعليمية.

وكنت على أن أذكر لك أيها القارئ الكريم شيئاً من حلاوة الكلام في كتابنا هذا: البيان والتبيين، لكنني رأيت المقام لا يتسع له، فحسبي أن أنقل لك هنا فاتحته وخاتمته، وحسبك بهما دليلاً على حسن البيان، وجمال الأداء، يقول الجاحظ: «اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن، كما نعوذ بك من العُجب بما نحسن، ونعوذ بك من السلاطة والهذر، كما نعوذ بك من العي والحصر، وقديماً ما تعوّدوا بالله من شرهما، وتضرعوا إلى الله في السلامة منهما».

ثم يقول في خاتمته: «وهذا أبقاك الله آخر ما ألفناه من كتاب «البيان والتبيين» (هكذا بياء واحدة مشددة، وراجع ما كتبت في عدد الهلال الماضي) ونرجو أن نكون غير مقصرين فيما اخترناه من صناعته، وأوردناه من تأليفه. فإن وقع على الحال التي أردناها، وبالمنزلة التي أمّلنا، فذلك بتوفيق الله وحسن تأييده، وإن وقع بخلافها، فما قصرنا في الاجتهاد ولكن حرمنّا التوفيق، والله سبحانه وتعالى أعلم».

هذا، ولقد كان من فضل الله وإنعامه أن يشرّ لكتاب الجاحظ علّمين من أعلام العصر، وقفا على تراث الجاحظ، وأعطياه حظه من النظر والفقه والصبر، وبذلاً غاية الوسع والطاقة في تحريره وتحقيقه والتعليق عليه، ثم ألبساه حلة العصر بذلك الإخراج المعجب الأنيق، والفهارس الفنية الكاشفة: عنيت أستاذي العلامة عبد السلام محمد هارون، والأستاذ الجليل الدكتور طه الحاجري، برّد الله مضاجعهما، وأنزلهما منازل الأبرار، وقد نشر الأول من تراث الجاحظ: الحيوان

(ثمانية مجلدات)، والبيان والتبيين (أربعة مجلدات)، والرسائل (أربعة مجلدات، تشتمل على ٤٥ كتاباً ورسالة) والعثمانية، والبرصان والعرجان. ونشر الثاني: البخلاء بمقدمة نفيسة جداً عن النزعة الفنية عند الجاحظ، ثم أبرز الخصائص الفنية في كتاب البخلاء.

وبعد: فلم يبق إلا هذا الرجاء الصادق، أسوقه لزملائنا مدرّسي العربية في كليات الجامعات ومعاهدها: أن يلتفتوا التفاتة جادة إلى أدب الجاحظ، وبخاصة ذلك الكتاب: البيان والتبيين، وأن يجعلوا من نصوصه نصيباً مفروضاً على تلاميذهم، فقد استقامت بهذا الكتاب السنة، وارتقت عليه أذواق، واستوت به ملكات، وكفانا إغراضاً وتجافياً عن موروثنا العظيم، وإنما يغفل الناس عن تراثهم بتلك الغشية التي تصيب الأمم في فترات ضعفها، فتذهل عن ماضيها، ثم لا تقنع بذلك الذهول حتى تضم إليه السخرية منه والتحقير له، وإنما يأتي ذلك كله من الاستخذاء والشعور بالدونية والقهر والغلبة والمسخ والتشويه. وربنا كاشف كل كرب وبلية.



أي شلال هادر توقّف! (١)

في الساعة الخامسة من عصر يوم الخميس ٣ من ربيع الآخر ١٤١٨ هـ - ٧ من أغسطس ١٩٩٧ م دُعي محمود شاكر فأجاب، وبعد نصف ساعة من انتقاله للرفيق الأعلى كنت على رأسه ألقنه الشهادتين، ثم دارت بي الأرض وأنا أنظر إلى هذا الجسد الساكن وقد صرعه الموت، وهو الذي غالب المحن وصارع الشدائد، فلم تلتن له قناة، ولم يخفت له صوت، ولم يرتعش في يده قلم، حتى جاءه القاهر الذي لا يُغلب. ثم نظرت إليه أخرى وقلت: أي صوت مجلجل سكت، وأي شلال هادر توقّف، وأي نبع عذب غاض، وأي نبت مزهر صوّح، وأي ركن جليل ساخ، وأي فارس فاتك ترجّل؟

ثم تذكرت أبيات مطيع بن إلياس، يرثي يحيى بن زياد الحارثي:

وينادونه وقد صمّ عنهم	ثم قالوا وللنساء نحيبُ
ما الذي غال أن تحير جواباً	أيها المصقع الخطيب الأديبُ
فلئن كنت لا تحير جواباً	فما قد ترى وأنت خطيبُ
في مقال وما وعظت بشيء	مثل وعظ بالصمت إذ لا تجيبُ

وحين جاء الرجال لينقلوه إلى حيث يشيّع، وتناولوه من جانبيه لان لهم وانقاد، وهو الذي كان عصياً أبيتاً، ثم تذكرت كلمة معاوية وهو في النزع يُحتضر، يقول لابنيه وهما يقلبان: «إنكما لتقلبان قلباً حَوْلًا». والقلب: الرجل العارف

(١) مجلة «العربي»، العدد ٤٦٩، ديسمبر ١٩٩٧ م.

بالأمور، الذي ركب الصعب والذلول، وقلب الدنيا ظهراً لبطن، والحَوْل: ذو
التصرف في الأمور، وكذلك كان محمود شاكر.

ثم اعتراني ما يعترى الناس من غم، وركبني ما يركبهم من هم، لفقد الأحباب
وغياب العلماء، وبذهابهم يذهب العلم، على ما جاء في الأثر: «إن الله لا يقبض
العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء». ولكن ماذا نصنع
وكل حي إلى فناء، وكل جديد إلى بلى، والملجأ الله، منه يأخذ المحتسب، وإليه
يرجع الجازع.

ولقد كتبت عن محمود شاكر غداة وفاته، وكتبت عنه من قبل، وأبنت عن
تاريخه الحافل مع العربية: تحصيلاً لها وإحاطة بها، وذوداً عنها، ومنافحة دونها،
وكشفاً لأسرارها، مما تفرد به ولم يدانه فيه أحد من أدباء جيله، لكنني أستسمح
القارئ الكريم أن أعيد كلمة كنت قد كتبتها بالأمس القريب، تلك كلمة أبي حيان
التوحيدي، يقارن بين الجاحظ وابن العميد: «إن مذهب الجاحظ مدبر بأشياء
لا تلتقي عند كل إنسان، ولا تجتمع في صدر كل أحد، بالطبع والمنشأ والعمل
والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والبلوغ. وهذه مفاتيح قلما
يملكها واحد، وسواها مغالط قلما ينفك منها أحد».

فاقرأ هذا الكلام العالي، وأعطه حظه من النظر والتأمل، ثم نزلْه على محمود
شاكر — إن كنت تعرفه معرفتي — وستراه مفصلاً عليه تفصيلاً، ومصرفاً إليه صرفاً.
وللناس أن يتكلموا عن علم محمود شاكر وجهاده، ما شاء الله لهم أن يتكلموا،
فالحوض ملآن والنفس جياشة، ولكن الحديث عن مجلسه مما ينبغي الوقوف عنده
وتأمله! فأئني رجل كان محمود شاكر؟ وأئني مجلس كان مجلسه؟ وأئني أنس كان يشيع
في هذا المجلس؟ وأئني علم كان يتفجر في رحابه؟

لقد قلت في بعض ما كتبت: إنه لم يحظ أحد من أدباء هذا الجيل بمعشار ما
حظي به محمود شاكر، من الالتفاف حوله والأخذ عنه والتأثر به: طوائف من الناس
من مختلف البلدان والأعمار والانتماءات، ضمهم بيته المفتوح دائماً، وقد خلا من

الرسميات والمواعيد المضروبة من قبل . يقول الأستاذ فتحى رضوان، في وصف ذلك البيت الشاكري :

«كان بيته ندوة متصلة لا تنفّض، من أعضائها الثابتين : يحيى حقي، إذا حضر من أوروبا، وعبد الرحمن بدوي، وحسين ذو الفقار صبري، وغيرهم وغيرهم، ولم يكن من حظّي أن أكون عضواً دائماً فيها، فقد كنت ألمّ بهم أحياناً، فأراهم وأرى من العالم العربي كله، ومن العالم الإسلامي على تراميه، شخصيات لا حصر لها، تتباين بعضها عن بعض، في الرأي والمظهر والثقافة واللهجة والشواغل والمطامح، ولكنها تلتقي كلها عند محمود شاكر، تسمع له وتأخذ عنه وتقرأ عليه وتتأثر به. وكلما كان من حظي أن أشهد جانباً من هذه الندوة أحسست بسعادة غامرة، أن يبقى ركن في بلدي كهذا الركن، ينقطع أصحابه للفكر والدرس والتحدث في أمور لا تجد من يسمع بها أو يعرف عنها شيئاً في مكان آخر».

وإذا كان الأستاذ فتحى رضوان قد ذكر من عرفهم من أعلام المفكرين والأدباء، الذين كانوا يختلفون إلى بيت محمود شاكر، في الخمسينيات وما قبلها، فإنني ذاكر أيضاً من عرفتهم في هذا المجلس العامر، على امتداد الستينيات والسبعينيات : عبد الرحمن صدقي وعلي أدهم وحسن كامل الصيرفي ومحمود حسن إسماعيل ووديع فلسطين وعلي أحمد باكثير ويوسف شوقي وعبد بدوي.

ومن أعلام العرب وأدبائه : أحمد المانع، وناصر الدين الأسد، وأحمد راتب النفاخ، وإحسان عباس، وشاكر الفحام، وإحسان النص، ومحمد يوسف نجم، ووليد عرفات، وعبد القدوس أبو صالح، وعبد الله الطيب المجذوب، وحمد الكبيسي، ونوري القيسي، وعبد الله الجبوري، وهاشم الطعان، وبشار عواد معروف، وإبراهيم السامرائي، ويعقوب الغنيم وأخواه عبد الله ومرزوق، وجمعة الياسين، وصالح العثمان، وعبد الله العيسى، وعبد الله عسيلان، وإبراهيم شيوخ، ومحمد بن شريفة، وعبد السلام الهراس، والحبيب اللمسي . . فهل وجدت هؤلاء قد اجتمعوا يوماً عند أديب من أدباء مصر! ثم يتسع المجلس أيضاً للطلاب

المبتدئين، والشباب المعيدين.

ولقد يجتمع الناس في ندوة أديب من الأدباء، ثم تنفض الندوة وينفرط عقدها، ويذهب كل في طريق، وكأنهم كانوا رفقاء رحلة عابرة. ولكن مجلس محمود شاكر يختلف عن غيره من المجالس، بما يشيع فيه من أنس وود وبهجة، وما تنعقد فيه من صداقات عذبة حميمة، يغذيها وينميها صاحب المجلس.

أما المناقشات العلمية والمحاورات الأدبية فلكل امرئ منها حظ مقسوم، لا ينفرد بها صاحب الدار، ولا يستبد بها الكبار، فالكل في هذا المجلس سواء، والكل يتكلم ويشارك، ولم يكن صاحب المجلس يستريح للأحاديث الجانبية أو ثنائية الحوار، فما يكاد يرى اثنين يتحدثان منفردين حتى يتدخل بينهما قائلاً: «أنتوا بتقولوا إيه»، وكأنما يريد أن يقطع عليهما طريق الانفراد، ولا شك أنه كان يصدر في هذا عن روح الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر — حتى تختلطوا بالناس — من أجل أن ذلك يحزنه». بل إن مائدة الجمعة والموائد الأخرى الحافلة كيوم عاشوراء، الذي كان يوافق مولد صاحب الدار بالتاريخ الهجري، هذه الموائد كانت تجمع إلى أهل الأدب والفكر بعض أهل الحرف والصناعات الذين كان لهم بالبيت وصاحبه صلة وتاريخ، كالمجلد والنجار والحلاق.

ومن طريف ما يُذكر هنا ما رواه لي أبو فهر رحمه الله، قال: «في يوم الجمعة، في أوائل ثورة يوليو كان يجلس على مائدة الغداء: محمد رشاد مهنا، والشيخ أحمد حسن الباقوري، ومحمد فؤاد جلال، وكان يجلس على المائدة نفسها الأسطى أنور الحلاق. وفي صباح اليوم التالي اتصل بي الشيخ الباقوري وقال لي إن محمد فؤاد جلال — وكان وزيراً للشؤون الاجتماعية — عاتب عليك لوجود الأسطى أنور بيننا. يقول أبو فهر: وفي الجمعة التالية قلت لمحمد فؤاد جلال: اسمع يا فؤاد أنت وزير هناك في مجلس الوزراء، ولكنك هنا في بيتي واحد من عامة الناس، مثلك مثل الأسطى أنور وغيره».

لقد صحبت محمود شاكر ثلاثين عاماً، وما زلت أذكر أول يوم زرته فيه، وكنت في صحبة الأخ العلامة الكبير أحمد المانع أحتمي به من مشاعر الهيبة والخشية والحذر، من تلك الحدة المزعومة في شخصية محمود شاكر، وهو شعور عرفناه جميعاً قبل أن ندخل البيت، وحين توثقت صلتنا بالشيخ اكتشفنا زيف هذا الشعور، وكذب تلك المزاعم التي أشاعها بعض الناس ليصدوا أهل العلم عنه، وإذا نحن أمام قلب طاهر نقي، يغضب ويثور حين يرى حداً من حدود العلم قد انتهك، أو حين يسمع تطاولاً على تاريخ الأمة العربية وعلومها.

وبعد: فالكلام عن محمود شاكر لن ينتهي بنهاية هذه الكلمة، وسيظل هذا الرجل أثراً ضخماً في ضمير هذه الأمة: حراسة للعربية وذوداً عنها، وبصراً بها، وإضاءة لها. وإن أحق ما يقال عن محمود شاكر هنا وفي كل وقت وحين ما قاله هو عن أستاذه مصطفى صادق الرافعي: «بأن الرافعي قد صار ميراثاً نتوارثه، وأدباً نتدارسه، وحناناً نأوي إليه»، وكذلك يكون محمود شاكر «ميراثاً نتوارثه»، إلى آخر ما قال في حق شيخه الرافعي.



«تاج العروس».. والزمن البعيد^(١)

كتب الأستاذ سامح كريم في «الأهرام الأدبي» من الأسبوع الماضي كلمة سمّاها: «تاج العروس والاهتمام بتراث الأجداد»، وقد نشر بهذه الكلمة أمجاداً وآثاراً وأشجائناً.

أما الأمجاد فقد تجلّت في شخصية أبي الفيض المرتضى محمد بن محمد الهندي مولداً، الزيّدي – بفتح الزاي – اليميني نشأة، المصري حياة ووفاة. وهو علم من أعلام النهضة العربية في القرن الثاني عشر الهجري – الثامن عشر الميلادي (توفي سنة ١٢٠٥ هـ يوافق ١٧٩٠ م) أي قبل دخول نابليون بحملته مصر بثماني سنوات.

وهذه الحقبة من الزمان يصنّفها بعض أهل زماننا بعصور الظلام والاحتلال العثماني لمصر، وواقع تاريخنا الفكري يقول غير هذا.

ففي ذلك الزمان وما قبله ببعض العقود، شهدت الساحة العربية أعلاماً كباراً، جمعوا تراث العرب وأضاءوه وأحيوه ونفخوا فيه. يذكر التاريخ منهم: عبد القادر البغدادي صاحب «خزانة الأدب»، والشوكاني صاحب «فتح القدير»، و«نيل الأوطار»، وصاحبنا الزيّدي في كتابه «تاج العروس»، و«إتحاف السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين».

ويُعد «تاج العروس» أكبر معجم عربي فاق «لسان العرب» لابن منظور، فقد بلغ مجموع جذور اللسان (٩٢٧٣) جذراً، على حين بلغ مجموع جذور التاج

(١) جريدة «الأهرام» (مصر)، ١٧ فبراير ١٩٩٨ م.

(١١٩٧٨) جذراً، ومن وراء ذلك فإن لتاج العروس أهمية أخرى، وهو أنه عني إلى جانب اللغة بضبط المشتبه من الأعلام والأنساب والألقاب، كما عني بكتب الطب والنبات وسائر المعارف العامة. ثم كانت له عناية فائقة بالبلدانيات والجغرافية العربية، وبخاصة جغرافية اليمن ومصر، وما أكثر المواضع في هذين البلدين التي يقول فيها: رأيته أو شاهدها - انظر على سبيل المثال مادتي: شبر - حلل، وتأمل أسماء البلاد «شبرا - والمحلة»، فقد أحصاها عدداً، وذكر أنه رأى بعضها ودخلها.

لكل هذه الأسباب اتجهت أنظار الناشرين مبكراً إلى طبع هذا الكتاب الجليل، فكانت أول طبعة له طبعة جمعية المعارف بمصر من سنة ١٨٦٨م - ١٨٧٠م. لكنها طبعت خمسة أجزاء فقط. ثم توقفت. وبعد ذلك خرجت منه طبعة كاملة في عشرة مجلدات كبار سنة ١٨٨٨م بالمطبعة الخيرية لصاحبها عمر حسين الخشاب [وهو جد الدكتور يحيى الخشاب رحمه الله].

ويذهب زمان ويجيء زمان، وفي أوائل الستينات الميلادية تقوم وزارة الإرشاد والأنباء بدولة الكويت بمشروع عظيم لنشر كتب التراث، وقد أعدت لهذا المشروع عدته، فاختارت نصوصاً عالية، ومحققين كباراً.

ثم كانت الوثبة الكبرى في نشر تاج العروس للزبيدي، فوزعت أجزاءه على طائفة من المحققين الأثبات، وصدر الجزء الأول منه سنة ١٣٨٥هـ = ١٩٦٥م.

وهذا هو موضع الأشجان من كلمة الأستاذ سامح كريم، لقد قدر لهذا الكتاب أن يكون في أربعين مجلداً، وقد تم تحقيق هذه المجلدات كلها، لكن الذي تم طبعه منها إلى الآن تسعة وعشرون جزءاً فقط، وبقي أحد عشر جزءاً.

ولمّا كنا الآن في سنة ١٩٩٨م، فيكون قد مضى على صدور الجزء الأول ثلاثة وثلاثون عاماً، وهو زمن بعيد جداً، فقد صار «العروس» شيخاً، وأوشك «التاج» أن يسقط من فوق رأسه، وهذا التراخي في إخراج كتاب هو من عمد تراثنا اللغوي لا يقبل من دولة تملك المال، وتعرف للثقافة حقها وتقدر العلم قدره، ولها في نشر العلم والتنمية الثقافية مكان ومكانة.

إن مطبعة بولاق بمصر قد أخرجت طبعة محررة من «لسان العرب» لابن منظور في عشرين مجلداً، في خلال ثماني سنوات من سنة ١٣٠٠هـ إلى سنة ١٣٠٧هـ، وكذلك أخرجت مطبعة بولاق كتاب «المخصص» لابن سيده، في سبعة عشر مجلداً، في ست سنوات، من سنة ١٣١٦هـ إلى سنة ١٣٢١هـ، ولم يكن هناك كمبيوتر ولا جمع تصويري، ولكنها عزائم الرجال وصلاح الأزمان!

إن مهمة طبع «تاج العروس» قد انتقلت من وزارة الإعلام إلى المجلس الوطني للثقافة، فهل يطلب الأستاذ سامح كريم من صديقه الأمين العام للمجلس الدكتور سليمان العسكري أن يفزع ويفرغ لهذا الكتاب العظيم، إن الأجزاء الباقية منه لن تأخذ أكثر من حولين كاملين لمن أراد أن يتم هذا العمل الجليل، والله الهادي والمعين.



مطبعة للمنشورات.. وليست للثقافة^(١)

تشتجر الأقلام الآن حول الحملة الفرنسية وأثرها على مصر؛ فمن قائل إنها جاءتنا باليمن والسلوى، وأنها أزالنا غواشي الظلم، واستنقذتنا من قرابة التخلف وردغة الخبال، ومن قائل إنها مرّغتنا في التراب وسامتنا سوء العذاب، وتوسّط فريق ثالث فقال عن الحملة ونابليون إنهما جاءا بشيء من النفع، وإثمهما أكبر من نفعهما.

لكن الذي يعنيني هنا قصة تلك «المطبعة» التي أتى بها نابليون. لقد ضخم الناس من أمر هذه المطبعة تضخيماً، ورأوا أنها فتحت لنا طريق العلم والمعرفة. وحقيقة الأمر أن هذه المطبعة لا تعدو أو توشك أن تكون «آلة كاتبة» كبيرة، أحضرها نابليون معه لطبع منشوراته وأوامره باللغة العربية.

وكانت هذه المطبعة الصغيرة تعمل وهي على السفينة في عرض البحر، وحين اقتحم نابليون ثغر الإسكندرية قام رجال حملته بتوزيع المنشورات والأوامر التي أعدوها في البحر، وأطلق على هذه المطبعة الصغيرة آنذاك اسم «المطبعة الأهلية»، ثم نقلت إلى القاهرة ووضعت في «بيت السناري» بحي السيدة زينب، وقد طبع نابليون على تلك المطبعة الصغيرة إلى جانب المنشورات والأوامر: أمثال لقمان الحكيم، ثم بعض رسائل في النصائح الطبية؛ استمالة لقلوب المصريين واجتلاباً لرؤسائهم.

(١) جريدة «الأهرام» (مصر)، ١٤ أبريل ١٩٩٨ م.

وقد طبعت على تلك المطبعة أيضاً محاكمة سليمان الحلبي قاتل كليبر، ووضع اسم المطبعة على الغلاف هكذا «مطبعة الجمهور الفرنسي ١٧٩٩م - ١٨٠٠م»، ولم تطبع هذه المطبعة الصغيرة بعد ذلك شيئاً ذا بال، ولا غير ذي بال.

ومهما يكن من أمر، فقد طويت صفحة هذه المطبعة وخرجت من مصر، وعادت إلى فرنسا، كما ذكر الدكتور خليل صابات، والدكتور أبو الفتوح رضوان.

لكن الجديد في هذه القضية أن الدكتور قاسم السامرائي، العالم العراقي والأستاذ بجامعة ليدن بهولندا ذهب إلى أن هذه المطبعة التي جاء بها نابليون إلى مصر، إنما هي مطبعة «آل ميدتشي» بروما، أخذها نابليون من إيطاليا أيام غزوه لها، وحين دخل الإنجليز مصر، وأخرجوا من بقي بها من الفرنسيين، أخذ هؤلاء تلك المطبعة، وأعادوها إلى مكانها الأول في إيطاليا، وما زالت بقايا هذه المطبعة محفوظة بمدينة «فرنزة» في مقاطعة «بروفانوس» بإيطاليا. وهذا الدكتور قاسم السامرائي ثقة مصدق؛ لأنه خبير في الوثائق وتاريخ الكتاب (مخطوطاً ومطبوعاً)، وله دراية عظيمة بالاستشراق والمستشرقين.

فإذا ثبت هذا - وهو ثابت إن شاء الله - فيكون قول أحد كتابنا عن محاسن الحملة الفرنسية: «إن المدفع ذهب وبقيت المطبعة» قولاً غير صحيح، وفيه من خداع الكلام واللعب بالألفاظ ما لا يغني شيئاً.

على أنه مما ينبغي التنبيه له والتنبيه عليه أن المطبعة قد عرفت في الشرق قبل مولد نابليون، وكانت «مطبعة حلب» أول مطبعة عربية في الشرق كله، وقد ظهر أول إنتاج لها عام ١٧٠٦م (ولد نابليون سنة ١٧٦٩م).

وقد أطلعني الدكتور محمد هيثم الخياط العالم السوري الحجة، على صورة غلاف لبعض مطبوعات هذه المطبعة الرائدة في هذه الفترة المتقدمة. وانظر معلومات

أكثر في مقالة للدكتور وحيد قدورة التونسي بعنوان: «أوائل المطبوعات العربية في تركيا وبلاد الشام»، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي ١٩٩٦م.

ولا يبقى إلا القول إن المطبعة التي أضاءت الدنيا كلها إنما هي «مطبعة بولاق» التي أنشأها محمد علي باشا، سنة ١٨١٩م، أو ١٨٢١م، بأيدي المصريين وبهيمنة مشايخ الأزهر، مثل الشيخ نصر الهوريني، والشيخ محمد قطة العدوي، وتفصيل ذلك كله في كتابي: «الكتاب المطبوع في مصر في القرن التاسع عشر».



كمال النجمي.. والثغور التي تتساقط^(١)

عرفته في أوائل الستينيات، وكنت يومئذ غارقاً في هوى الشيخ مصطفى إسماعيل وأم كلثوم، ولا أدير أذني عنهما، ولا أقبل فيهما شريكاً ولا مزاحماً، وكان يسوؤني أن يضعهما أحد في مقارنة.

وفي أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات لم يكن يزاحم الشيخ مصطفى إسماعيل إلا الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، ذلك الفتى الأسمر الوسيم القادم من أقصى صعيد مصر (وقد أطلقت عليه مجلة الجبل الجديد آنذاك: الشيخ مارلون براندو)، وقد أحدث ظهوره في أوائل الخمسينيات دويّاً هائلاً بصوته الأبيض الجلي الرنان ونفسه الطويل المعجب، ولكنني كنت أرى يومذاك أن الفرق بين الشيخين بعيد جداً، وكنت أسمع ذلك الرأي أيضاً من هؤلاء السميعة الكبار الذين كنت أحضر مجالسهم في الموالد التي كان يقرأ فيها الشيخ مصطفى، وكان من أشهر تلك الموالد التي يبدع فيها الشيخ: مولد السلطان أبو العلا، والشيخ سلامة الراضي ببولاق.

ثم كان يحزنني أيضاً ما يقوله بعض الناس: أن أسمهان لو عاشت لكانت قد حجبت أم كلثوم، أو أن سعاد محمد صوتها أعذب من صوت أم كلثوم، أو قول بعضهم: اصبروا قليلاً على هذه الفتاة السورية — يعنون فائزة أحمد — فسوف يكون لها شأن مع أم كلثوم!

(١) مجلة «الهلal»، مارس ١٩٩٨م.

ومهما يكن من أمر: فقد خلا لي وجه الشيخ مصطفى والست أم كلثوم، أعب من صوتهما عباً، لكن إحساسي بعبقريّة صوتهما كان إحساساً غامضاً، أو قل إنه كان إحساساً ساذجاً، يقف عند حدود الإعجاب والطرب الذي يقنع بالآهات والتنهدات و (إيه الحلاوة دي) و (مفيش كده)، وإن كان قلبي يغلي بمشاعر الإكبار لهذين الصوتين العجيبين، لكن يضيق صدري ولا ينطلق لساني، فلم أكن في ذلك الزمان قد عرفت صنعة الكتابة والإبانة عما في النفس، وأيضاً فإنني كنت أستشرف إلى من يأخذ بيدي لتحليل هذين الصوتين تحليلاً فنياً يقوم على أسس ومعايير تتعدى هذا الإعجاب الساذج الذي يستوي فيه العامة.

صحيح أنّ أذني في تلك الأيام كانت قد التقطت من مجتمعات السميعة أسماء المقامات: السيكاه والصبا والنهاوند والراست والبياتي والحجاز، ولكن كيف تنزل هذه المقامات على منازلها، وكيف يتصرف أهل الطرب فيها، وتلفت حولي في ذلك الزمان فلم أجد من عُنِي بالشيخ مصطفى وإخوانه من قراء القرآن سوى الأستاذ محمود السعدني في كتابه الذي أصدره في سنة ١٩٥٩م باسم (ألحان من السماء)، والأستاذ السعدني سميع كبير وصاحب قلم سيال، ولكنه صاحب دعاية، وإغراقه في الدعاية يميل به أحياناً عما ينتظره أهل الجدل من التحليل والغوص في الكشف والإبانة، ولذلك لم أجد عنده شيئاً ذا بال عن الشيخ مصطفى، وكذلك نظرت فيما كتب عن أم كلثوم، فلم أجد وقتها إلا كتاب الدكتورّة نعمات أحمد فؤاد، وقد شغلتنني حلاوة بيانها عن كل شيء، والدكتورّة نعمات صاحبة بيان آسر، وقلمها نديّ رقيق، ولكن الذي أريده عن أم كلثوم شيء آخر، فالذي قالته عن أم كلثوم لا يخرج عما قاله ابن الرومي في «وحيد» المغنية:

يسهل القول إنها أحسن الأشـياء طراً ويعسر التحديد
(ديوانه ٧٦٣)

وظللت أتقلب في حيرتي وعجزتي حتى أذن ريك بالفرج وجاءني اسم «كمال النجمي» من فم سميع كبير كنت أراه في جلسة الطرب القديم التي كان يقيمها معهد

الموسيقى العربية يوم الثلاثاء كل أسبوعين في أوائل الستينيات، وهذه الجلسة كان يشهدها حراس الطرب القديم، مثل عباس البليدي وعبد السروجي وطبقتهما، وأنماط غربية من عجائز الرجال والنساء، شهود عصر النغم الذهبي في مصر المحروسة. ولعل جلسة الطرب هذه هي التي أوحى إلى الراحل الكبير عبد الحليم نويرة بفكرة «فرقة الموسيقى العربية» التي يرى بعض أهل زماننا من المتفلسفة أنها قامت لتغطية هزيمة ٦٧، بالبحث عن أمجاد قديمة، وهو إغراق في التفلسف والهروطة.

كاشفت ذلك السَّميع الكبير عن حيرتي في البحث عن محلل لصوت الشيخ مصطفى وأم كلثوم، فقال لي: عليك بكاتب عظيم اسمه «كمال النجمي» فستجد عنده ضالتك ومأمولك، وقمت من فوري ألتمس كتابات هذا الرجل، وجمعت ما تيسر لي منها وعكفت عليها، فانفتح أمامي باب ضخمة من أبواب المعرفة النغمية والصوتية بكلام عال نفيس مباين لكل ما يكتبه الكاتبون في هذه الأبواب، وكان أول ما قرأته له كلام عن الأصوات العربية من الرجال، وكان مما قاله: إن أكمل الأصوات العربية من الرجال هو المطرب اللبناني وديع الصافي، ثم يليه مباشرة صوت الشيخ مصطفى إسماعيل، ثم قدم لذلك بشواهد ودلائله، وقد مكن هذا الكلام للشيخ مصطفى في نفسي، ثم دلني أيضاً على وديع الصافي، وكنت في غفلة عنه.

وهكذا ظللت أتتبع كلام النجمي عن المقامات الغنائية والمسارات اللحنية والفروق بين القراء بعضهم مع بعض، وكذلك أهل المغنى في التصرف بهذه المقامات والانتقال من بعضها إلى بعض، والفَقَلات والعَفَق والعُرب، وطبقات الصوت، من القرار والجواب وجواب الجواب.

ولقد يكتب بعض الناس عن هذه المصطلحات، ولكن يظل الفرق واضحاً بين ما يكتبونه وما يكتبه النجمي، إن النجمي صاحب خلفية فنية ضخمة، ثم هو يأوي إلى ركن شديد من المعرفة النغمية الممتدة الضاربة بعروقه في التاريخ. والشواهد على ذلك من كتاباته كثيرة، من أبرزها ما كتبه عن غناء زرياب والموصلي، ثم هذه السباحة الطويلة في كتاب أبي الفرج الأصبهاني «الأغاني»، ومن الدلائل أيضاً على

محصوله واطلاعه الواسع ما ذكره في شرح زجل «الشيخة زعزوعة» تلك الرجال المصرية القديمة :

دواخل مصر في قاعه حداثهم بنت جنكبيّة
وزعزوعة ترقضهم على شامي وشامية

يقول النجمي : «ولقولهم «دواخل» أصل قديم، ففي كتابه «شفاء الغليل» يقول مؤلفه : «المحدثون يسمون حسن الصوت دخولاً، ويسمون ضده خروجاً»، انظر كتابه : محمد عبد الوهاب ص ٧٠.

وأقول : شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، من كتب المعرب في اللغة، ومؤلفه هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري. توفي سنة ١٠٦٩هـ = ١٦٥٩م، ومن كتبه الكبار: عناية القاضي وكفاية الرازي، وهي حاشية على تفسير البيضاوي، وشرح درة الغواص للحريري، وريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، وهو من رجال البعث والإحياء والنهضة العربية في تلك الحقبة التي يسميها بعض أهل زماننا عصور الظلام!

ومن وراء ذلك كله فالنجمي شاعر، يعرف جمال الكلمة ويحسها ويتذوقها، والكاتب إذا اجتمعت له الأصول المعرفية والشاعرية، مع الصدق واستقامة القصد والترفع عن الدنيا وسفاسف الأمور، بلغت كتابته مبلغها، وانتهت إلى غايتها. وهكذا كان كمال النجمي وكانت كتاباته عن الأنغام والأصوات العربية: قديمها الذي جاء موصوفاً في الكتب، وحديثها الذي حفظته الأسطوانات والأشرطة. لقد كتب النجمي كثيراً، وحلل كثيراً، وسجل تاريخاً عزيزاً، ومن أبرز ما شهده وسجله بقلمه البديع: ذلك اليوم المشؤوم الحزين الذي احتبس فيه صوت الشيخ محمد رفعت وسط مستمعيه يوم الجمعة بمسجد مصطفى فاضل باشا بدرب الجمايز (بور سعيد الآن)، وما أحسب أن أحداً سجل هذا اليوم الأسود غير كمال النجمي.

ومن أشهر ما كتب النجمي: أصوات وألحان عربية، وسحر الغناء العربي، والغناء العربي من عصر زرياب إلى عصر أم كلثوم وعبد الوهاب، والغناء المصري: مطربون ومستمعون. والموجة الجديدة وما بعد الثمانينات، والشيخ مصطفى إسماعيل: حياته في ظل القرآن، ومحمد عبد الوهاب مطرب المائة عام. وهذا الكتاب لم يقف عند حدود محمد عبد الوهاب، فهو كشف عام عن الغناء والمغنين في مصر، فضلاً عما استطرد إليه من حديث كاشف عن أم كلثوم... إلى غير ذلك مما نشره في مقالات ذوات عدد بمجلة الهلال وغيرها من المجلات العربية.

ومن وراء ذلك الجهد الضخم في رصد وتحليل الغناء العربي كان للنجمي جهد آخر، تجلّى في كتاباته بمجلة الهلال عن ظاهرة شعارير الحداثة وما بعد الحداثة، وقد سلقهم النجمي بالسنة حداد، وكشف ضعفهم وتهافتهم، وكان رحمه الله يربط ربطاً محكماً بين ظهور شعراء الحداثة، ومطربي الأغاني الهابطة.

وأقول: لقد صدق النجمي في هذا الربط. فما هو الفرق بين قول الشاعر الحدائي: «أتمضمض بالشمس وأحلب ثدي النملة. إني أعطس في شهر أغسطس» وبين قول ذلك المغني الهابط: «قزقز لبك على القهوة وخشّ ف عبي لا تستهوى»، إنها فجاجة وفساد يأخذ بعضه برقاب بعض!

وهناك جهد ثالث نهض به النجمي: وهو ذلك الباب الذي كان يصدر بمجلة الهلال باسم «لغويات»، فقد كان هو صاحبه ومحرره، ولقد ناقشته يوماً في بعض ما كتب فيه بمقالة في مجلة الهلال (أغسطس ١٩٩٢) ثم ناقشته أيضاً في كتابه عن الشيخ مصطفى إسماعيل (يوليو ١٩٩٢) فما ضاق بنقدي وما عاب عليّ منه شيئاً، وهذا هو شأن العلماء الكبار.

وبعد: لقد مات كمال النجمي كما مات من قبله وكما يموت من بعده، فالموت حق لكن القرآن الكريم سمّاه: مصيبة، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ

مُصِيبَةً قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ [البقرة: ١٥٦]، وقال تعالى: ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَبْتُمْ مُصِيبَةَ الْمَوْتِ﴾ [المائدة: ١٠٦] — وإن كانت المصيبة في اللغة كل ما أصاب الإنسان — وتعظم هذه المصيبة إذا كان الراحل يقف على ثغر من ثغور العلم ولا يقوم أحد مقامه، وما أكثر الثغور التي تسقط برحيل حراسها، ولقد عاش كمال النجمي حياته كلها حارساً أميناً من حراس الفن الراقي — كلمة مقروءة ونعمة مسموعة — يجلوه ويذود عنه .

إننا إذا رحل عنا عزيز نقول كما قال التابعي الجليل يوسف بن أسباط: «ذهب من يؤنس به ويستراح إليه» (صفة الصفوة لابن الجوزي ٤/٢٦٣). وما أحرانا إذا رحل عنا عالم أن نقول: اللّهُمَّ عوضنا به خيراً، وهيسء لهذه الأمة رشدّها، ثم نأمل الخير في الاستخلاف، ونتشبث بمثل قول العز بن عبد السلام: «ولن تخلو الأرض من قائم لله بحجة» (البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/٣٧٩)، وبمثل قول الحافظ الذهبي: «ففي الناس بقايا خير»، (سير أعلام النبلاء ٧/٢٥٠).

ولا يبقى إلا رجاء: إلى دار الهلال، ثم إلى أولاد الراحل الكريم:

فأما الذي إلى دار الهلال: فهو أن تصدر الأعمال الكاملة لكمال النجمي، على أن يشمل ذلك كتبه المطبوعة بين دفتين، ثم مقالاته المتناثرة في الهلال والمصور والكواكب وغيرها.

وأما الذي إلى أولاده: فألا يفرطوا في أي قصاصة ورق تكون في مسودة من مسودات والدهم ويدفعوها إلى دار الهلال لنشرها، ثم رجاء آخر إلى هؤلاء الأولاد البررة، أن يحافظوا على مكتبة والدهم، وليعلموا أن أباهم كان يحب كتبه كما يحب أولاده، ولعله قد أخذ عليهم موثقاً في ذلك، وليس لي أن أقترح وجهاً من وجوه المحافظة على مكتبة الراحل العزيز، لكنني أخشى أن تدفع إلى من لا يعرف قيمتها، أو أن تبقى حبيسة الأرفف والجدران تغتالها الأيام اغتيالاً.

وأنتم أيها الكتاب والمفكرون — أطال الله في النعمة بقاءكم — لا تغفلوا عن

حادثة الموت ، وأخرجوا ما عندكم من علم ولا تضنوا ببذله لقرائكم أو تلاميذكم ،
ولا تنتظروا به الفرصة المناسبة والزمن المواتي فإني أعلم أن بعضكم يدخر الموضوع
الفلاني للندوة الفلانية ، والفكرة الفلانية للمؤتمر الفلاني ، وتأملوا قول الله تعالى :
﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [نوح : ٤] .

لقد قلت غداة وفاة شيخنا محمود شاكر — برّء الله مضجعه — إن الذي دفن في
صدر محمود شاكر معه في قبره من العلم أضعاف ما أخرجه للناس .

رحم الله كمال النجمي رحمةً واسعة سابعة ، وإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجعون ، ولا
حول ولا قوة إلا بالله .

* * *

الناشرون الأوائل.. وسماحة مصر^(١)

في اليوم الثالث من مايو أقام اتحاد الناشرين المصريين حفلاً بهياً شرفته السيدة الفاضلة سوزان مبارك لتكريم الناشرين الذين مضى على نشاطهم مائة عام، وهم ستة فيمن يمثلون مرحلة مهمة في تاريخ نشر الكتاب بمصر، وهي المرحلة التي تبعت مرحلة مطبعة بولاق، وسادت على وقع خطواتها، متأثرة بمنهجها في الاختيار والإتقان، وقد احتمل هؤلاء الناشر العظام عناء باهظاً وسلكوا دروباً مضيئة في سبيل إذاعة الكتاب ونشره، فأخرجوا الموسوعات الضخمة في أزمان يسيرة، وفي وقت لم يكن التقدم الطباعي قد عرف.

وإذا كان التكريم قد وقف عند هؤلاء الستة، فإنهم لم يكونوا وحدهم في الميدان، فقد انتشرت عشرات المطابع في وسط القاهرة: الأزهر وباب الخلق ودرب الجماميز وعابدين والأزبكية والظاهر والفجالة، تخرج آلاف الكتب، بحيث أنك تستطيع أن تقول: إن ثقافة العالم العربي والإسلامي في القرن الماضي قد خرجت من عشرة كيلومترات في وسط القاهرة، مضافاً إليها تلك الرقعة المحدودة في رملة بولاق التي سميت مطبعة بولاق.

ومما ينبغي التنبيه له أن ثلاثة من هؤلاء الناشرين المكرمين كانوا من أهل الشام، استقبلتهم مصر فأحسنست استقبالهم وأعدت لهم متكاً، فأتججوا وملأوا الدنيا علماً. وهناك ناشران سوريان لم يدخلوا في التكريم، لأنهما خارجان عن شرط

(١) جريدة «الأهرام» (مصر)، ١٢ مايو ١٩٩٨ م.

التكريم، هما محمد منير الدمشقي، وحسام الدين القدسي، فقد كان لهذين الناشرين العظيمين أثر ضخم في نشر الكتب الموسوعية.

وإن نشاط هؤلاء الشوام في مصر، وهناك غيرهم من المغاربة مثل الحاج محمد الساس دليل على سماحة مصر ورحابة صدرها.

ولا يبقى إلا سؤال واحد هو: أين مكان الأحفاد من نشاط الأجداد؟

لا أكاد أرى أثراً لنشاط مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ودار المعارف أوقفت نشر «ذخائر التراث» واكتفت بإعادة ما طبعته، وبقية الدور خافتة الصوت، ولست أرى من واصل مسيرة جده إلا محمد أمين الخانجي، فلا يزال حريصاً على طبع الكتاب التراثي بعناية وجمال إخراج.

بل إن مما يؤلم النفس ويورث الحسرة أن بعض هؤلاء الأحفاد قد أعطوا إذناً مكتوباً لمزوري الكتب في بيروت أن يطبعوا تراث أجدادهم، وتنازلوا عن حقوقهم، وحين طبعت الكتب مصورة في بيروت نزع منها اسم المطبعة الأولى وتاريخ النشر، وبذلك شارك هؤلاء الأحفاد في اغتيال تاريخ أجدادهم، بل اغتيال تاريخ مصر العظيم، والله المستعان على كل بلية.



الآي تتری^(۱)

تدور بنا الأيام وتطوينا الليالي، ونحن غارقون في لجة الحياة، نضرب في الأرض ونمشي في مناكبها، نغدو ونروح بآمالنا وحاجاتنا التي لا تنقضي، وأيامنا متشابهة وليالينا مكرورة، ولا ينسخ هذا التشابه، ويكسر ذلك التكرار إلا بعض أيام من الدهر، تبعث فينا النشوة والبهجة، حين تردنا إلى ذكرى عزيزة.

وليس كالمولد النبوي الشريف داعياً إلى البهجة، وجالباً للنشوة، وناشراً لما طوي من الذكريات العزيزة.

ففي اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأنور ولد ذلك الصبي «اليتيم» الذي جاء على فترة من الرسل، وقد غير وجه الدنيا بما أنزل الله عليه من القرآن العظيم، والسنة المطهرة التي هي الحكمة، في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةَ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [البقرة: ۲۳۱]، اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد بن عبد الله، وعلى أبويه الكريمين إبراهيم وإسماعيل ثم على سائر إخوانه المصطفين الأخيار، وآله الأطهار وأصحابه الأبرار.

وهذا النبي الكريم الذي تحدّر من أصلاب كريمة، صنعه الله على عينه، ورزقه الخلق العظيم، فكان مثلاً أعلى للكمال الإنساني، وقد ملأ العيون نوراً، وغمر القلوب حباً، واستوى في حبه من رآه وصحبه، ومن قرأ سيرته واتبع سنته. وقد فتحت سيرته العطرة للأدباء وقالة الشعر، باباً واسعاً لمديحه وذكر شمائله ﷺ،

(۱) مجلة «الهلal»، يوليو ۱۹۹۸م.

بما عرف في الأجناس الأدبية بالمدائح النبوية، وهو ديوان ضخم من دواوين الشعر العربي، وقد كتب فيه العلامة الدكتور محمود علي مكي كتاباً جيداً، فاطلبه واقرأه واحرص عليه.

وقد أخذ الشعراء في مديحه ﷺ في حياته الشريفة، وبعد انتقاله للرفيق الأعلى، وكان أول من مدحه عمه أبو طالب، بقصيدته التي أولها:
وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
وتبعه عمه العباس، بقصيدته التي مطلعها:
من قبلها طبت في الظلال وفي مستودع حيث يخصف الورق
وقد كتبت عن هذه القصيدة كلمة بمجلة الهلال (سبتمبر ١٩٩٣). (انظر ص ٢٤٧).

ثم الأعشى بتلك القصيدة العالية التي أولها:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وعادك ما عاد السليم المسهدا
ثم كان حسان بن ثابت وقصائده الجياد، وتتابع الشعراء على ذلك في مشرق العالم الإسلامي ومغربه، حتى عصرنا الحديث، بل إن مما يستطرف ذكره هنا أن يدخل إلى الحلبة بعض إخواننا المسيحيين من شعراء المهجر. فهذا الشاعر إلياس فرحات ينظم قصيدة عذبة في المولد النبوي، يجعل عنوانها: «يا رسول الله»، وفيها يقول:

غمر الأرض بأنوار النبوة كوكب لم تُدرِك الشمس عُلوّه
لم يكد يلمع حتى أصبحت ترقب الدنيا ومن فيها دُئوّه
بينما الكون ظلامٌ دامس فُتحت في مكة للنور كُؤوّه

والشاعر القروي رشيد سليم الخوري ينظم أيضاً في المناسبة قصيدة، أولها:

عيد البرية عيد المولد النبوي في المشرقين له والمغربين دوي
ويعد أمير الشعراء أحمد شوقي من أكثر شعراء العصر الحديث حفاوة بالمديح

النبوي، ونظماً فيه، وقد أخلص بعض قصائده للمديح والمولد، ثم جاءت الإشارة إلى مدحه ﷺ في أثناء قصائده الأخرى. فمن قصائد الطائفة الأولى: «الهمزية الشهيرة»، وجاءت على البحر الكامل:

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسّم وثناء
و «نهج البردة» وقد عارض بها قصيدة البوصيري، وهي من البحر البسيط، وأولها:

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي في الأشهر الحُرْم
وقصيدة «إلى عرفات الله»، وهي من البحر الطويل، ويقول فيها:

إلى عرفات الله يا خير زائر عليك سلام الله في عرفات
ثم أرجوزته في السيرة النبوية، التي جاءت في ديوانه: دول العرب وعظماء الإسلام، وأولها:

محمد سلاله النبوة ابن الذبيح الطاهر الأبوة
ومن قصائد الطائفة الثانية قصيدة: «سلوا قلبي غداة سلا وتابا»، وهي من البحر الوافر، وفيها يقول:

أبا الزهراء قد جاوزت قدري بمدحك بيد أن لي انتسابا
وتقف من بين هذه القصائد، القصيدة الهمزية، عالية باذخة، وتقع في مائة وواحد وثلاثين بيتاً، وفي البيت الحادي والعشرين منها يقول:

والآي تترى والخوارق جمّة جبريل رواح بها غداء
وفي كلمة «تترى» مبحث لغوي طريف، وذلك أن كثيراً من الناس – ولا أقول بعض الناس – يظنون هذه الكلمة «تترى» فعلاً مضارعاً، ويستعملونها في موضعه، ومنذ زمن بعيد كنت أسمع وأقرأ هذا التخليط في تلك الكلمة، فلم أكن أعياً به أو أقف عنده، للذي كان يغلب على ظني أن هذا مما يقع فيه الطلبة المبتدئون،

فكنت أصحّحه لهم وأبين وجه الصواب فيه، وأكثر ما كنت أرى ذلك في مناقشة الرسائل الجامعية، حتى استشرى الأمر، ورأيت بعض كبار كتابنا يقع فيه، ومن ذلك ما قرأته لكتاب عالم كبير، قال: «تتري الثورات العلمية وتتواتر»، وقد كنت أخشى من تنبيهه على هذا الخلط، ولكنه سعد كثيراً لذلك التصحيح، وهذا شأن العلماء، فقلت له: «ولست أول سار غرّه القمر»، فقد وقع كثير من الناس في هذا الخلط، وقد أخبرني عالم اللغة العراقي الدكتور إبراهيم السامرائي أن الدكتور طه حسين وقع في هذا الخطأ واستعمله، ونبّهه أحد قراء مجلة «الرسالة» وأنا أشك في ذلك، ولكن العهدة على الدكتور السامرائي.

ومهما يكن من أمر فقد رأيته واجباً متعيناً عليّ أن أبينه للناس ولا أكتمه، ولكنني كنت أسوّف حتى سألني ذات صباح قريب صديقي عبد الرحمن شاكر، عن تلك الكلمة، من أي أنواع الأبنية هي؟ وما سأل عنها الصديق إلا لأنها حاكت في صدره حين لم يجد لها تصريفاً في الفعل الماضي أو الأمر، فقلت له: إنها اسم.. فقال: كيف وشارح ديوان شوقي يقول في الحاشية: «تتري: تتوالى» ففسرها بالفعل. فقلت له: هذه هي المشكلة، فإن بعض الأقدمين قد فسرهما بالفعل أيضاً، على ما يأتي تفصيله. وهنا قلت: لا بد من بيان يكشف وجه الصواب في هذه الكلمة.

وستدور مقالتي — إن شاء الله — حول ثلاث نقاط: تأصيل الكلمة وبيان اشتقاقها، وتحرير معناها، وذكر شواهدا من النثر والشعر، وإعرابها في سياقها، ثم دفع شبهة.

يقول علماء الصرف: تتري، اسم، وأصلها: وتري، فالتاء الأولى مبدلة من واو؛ لأنها من المواترة، وإبدال التاء من الواو كثير شائع في العربية، مثل تراث، وأصلها: وراث؛ لأن الفعل ورث، وتقاة، أصلها: وقاة؛ لأن الفعل وقى، وتخمة؛ أصلها: وخمة؛ لأنها من الوخامة، وتجاه، أصلها: وجاه؛ لأنها من الوجه، ونظائر أخرى كثيرة.

ولك في نطقها وجهان: تترى، بغير تنوين وتترأ، بالتنوين، فمن لم ينون يعتبر الألف ألف تأنيث، مثل سكرى وغضبي، ومن ينون يعتبر الألف ألف إلحاق، أي أن الكلمة ملحقة باسم آخر منون - وهو جعفر - لاتفاقهما في نظم الحركات والسكنات، وتفصيل ذلك في كتب الصرف، وعلى ذلك تقول: جاء القوم تترى، بغير تنوين، وتترأ بالتنوين، والمعنى: جاءوا متتابعين، وتنوين الكلمة دليل على اسميتها؛ لأن التنوين من خصائص الأسماء، والأفعال لا تنون.

وبعبارة أخرى: من نَوَّنَه جعله مصدراً، وزنه «فَعَلًا» مثل ضرباً ونصرأ، ومن لم ينونه جعله مصدراً أيضاً، لحقته ألف التأنيث المقصورة، فهو مصدر على وزن فعلى، مثل دعوى، من دعا، وذكرى، من ذكر. انظر هذا المبحث في: الكتاب لسيبويه ٢١١/٣، والمقتضب للمبرد ٣٣٨/٣، ٣٨٥، وسر صناعة الإعراب لابن جني ص ١٤٦، وشرح شافية ابن الحاجب للرضي الإستراباذي ١٩٥/١، ٨١/٣، ٢٢٠، ولسان العرب، مادة (وتر).

والصرفيون واللغويون يستشهدون على ذلك بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ [المؤمنون: ٤٤]، قرأ ابن كثير وأبو عمرو (تترأ) بالتنوين، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي (تترى) بغير تنوين. انظر: كتاب السبعة لابن مجاهد ص ٤٤٦.

وإعرابه على النصب من وجهين: الأول: أنه حال من (رسلنا) أي أرسلنا رسلنا متواترين، أي واحداً بعد واحد، أو متتابعين، والثاني: أنه نعت لمصدر محذوف، أي أرسلنا رسلاً إرسالاً متتابعاً، أو إرسالاً بعد إرسال. انظر: التبيان في إعراب القرآن للعكبري ص ٩٥٥، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي ٣٤٤/٨.

وإذا ثبت أن «تترى» من التواتر والمواترة، وهو التتابع، فهل المواترة والتتابع واحد، أم أن بينهما فرقاً؟ يرى كثير من اللغويين أن التواتر غير التتابع، وإن تقاربا في المعنى، وممن ذهب إلى هذا الحريري، يقول: «العرب تقول: جاءت الخيل

متتابعة، إذا جاء بعضها في إثر بعض فلا فصل، وجاءت متواترة، إذا تلاحت وبينها فصل.. قال: ومما يؤيد ما ذكرنا من معنى التواتر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾، ومعلوم ما بين كل رسولين من الفترة وتراخي المدة.

وروى عبد خير، قال: قلت لعلي رضي الله عنه: إن عليّ أياماً من شهر رمضان، أفيجوز أن أقضيها متفرقة؟ قال: اقضها إن شئت متتابعة، وإن شئت تترى. قال: فقلت: إن بعضهم قال: لا تجزئ عنك إلا متتابعة. فقال: بلى، تجزئ تترى؛ لأنه عز وجل قال: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، ولو أرادها متتابعة لبين التابع، كما قال سبحانه: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ — درة الغواص في أوهم الخواص ص ٨، وانظر أيضاً: تقويم اللسان لابن الجوزي ص ٨٨، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٧٦/٩، وسفر السعادة وسفير الإفادة للسخاوي ١٧٤/١.

ومن الدليل أيضاً على أن التواتر غير التابع حديث أبي هريرة: «لا بأس بقضاء رمضان تترى»، قال ابن الأثير: «أي متفرقاً غير متتابع»، وروى هذا الحديث أيضاً: «لا بأس أن يواتر قضاء رمضان»، قال ابن الأثير: أي يفرقه، فيصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يلزمه التابع فيه» النهاية في غريب الحديث والأثر ١٨١/١، ١٤٨/٥.

والخلاصة: أنه إذا كان بين الأمرين فصل فهي المواترة والتواتر، وإذا لم يكن بينهما فصل فهي التابع والمداركة والمواصلة، وهذا من الفروق اللغوية بين الشيئين المتقاربين في المعنى، وهو باب مهم من العربية، ومن أحسن ما ألف فيه كتاب «الفروق اللغوية» لأبي هلال العسكري، وهو مطبوع متداول، فاحرص عليه واجعله قريباً منك يستقم لسانك وبيانك.

وهذه جملة من الشواهد الثرية والشعرية على استعمال «تترى» اسماً لا فعلاً.

أخرج البخاري من حديث قباث بن أشيم الليثي قال: قال النبي ﷺ: «صلاة رجلين يؤم أحدهما صاحبه أزكى عند الله من صلاة أربعة تترى، وصلاة أربعة يؤمهم

أحدهم أزكى عند الله من صلاة ثمانية تترى، وصلاة ثمانية يؤمهم أحدهم أزكى عند الله من صلاة مائة تترى»، التاريخ الكبير للبخاري ١٩٣/٧، وانظر: المعجم الكبير للطبراني ٣٦/١٩، والطبقات الكبرى لابن سعد ٤١١/٧، والترغيب والترهيب للمنذري ١٥٢/١، ومجمع الزوائد للهيتمي ٤٢/٢.

و «تترى» في هذا الحديث في موضع الصفة للأعداد السابقة عليها، يؤكد هذا ما جاء في رواية الحديث عند ابن سعد: «فقلت لأبي خالد: ما تترى؟ قال: متفرقين».

وأخرج الإمام أحمد، من حديث أبي أمامة الباهلي — وهو حديث طويل — قال: «ثم أنشأ رسول الله ﷺ غزواً ثالثاً، فأتيته فقلت: يا رسول الله قد أتيتك تترى، مرتين، أسألك أن تدعو الله لي بالشهادة، فقلت: «اللَّهُمَّ سَلِّمْهُمْ وَغَنِّمْهُمْ»، وفي رواية أخرى لأحمد أيضاً: «أتيتك تترى، ثلاثاً»، مسند أحمد ٢٥٥/٥. ٢٥٨.

و «تترى» هنا حال: من تاء الفاعل في «أتيتك»، وقوله: «مرتين وثلاثاً» المراد أنه قال: أتيتك تترى تترى، وأتيتك تترى تترى تترى.

وأخرج الطبري من حديث حجاج، عن ابن جريج، قال لعطاء: «الرجل ينكح المرأة لم يرها ولم يجامعها حتى يطلقها، أتحل له أمها؟ قال: «لا» تترى. قال حجاج: قلت لابن جريج: ما تترى؟ قال: كأنه قال: لا، لا» تفسير الطبري ١٤٧/٨ في تفسير الآية ٢٣ من سورة النساء.

و «تترى» هنا في موضع الصفة للفظ «لا» على ظاهر لفظه، كأنه قال: متتابعة متواترة، واحدة بعد واحدة.

وفي خبر علي بن أبي طالب، يتحدث عن الطاووس وعجيب خلقه، فيقول في حديث طويل: «وقد ينحسر من ريشه، ويعرى من لباسه، فيسقط تترى»، قال ابن أبي الحديد: ينحسر من ريشه فينكشف فيسقط. وتترى: أي شيئاً بعد شيء وبينهما فترة»، شرح نهج البلاغة ٢٧٥/٩، ٢٧٦.

و «تترى» في هذا الخبر حال من ضمير الفاعل في «يسقط».

وذكر ابن إسحاق في قصة مسير خالد بن الوليد، بعد فتح مكة، إلى بني جذيمة، قول امرأة من هذه القبيلة، ترد على شعر شاعر: «وأنت فحييت سبعاً وعشرًا وترًا، وثمانياً تترى» السيرة النبوية ٢/ ٤٣٤.

و «تترى» في محل نصب صفة قولها «وثمانياً» أي متتابعة. وفسرها أبو ذر الخشني بقوله: تترى، أي تتوالى، شرح غريب السيرة ص ٣٨٢، وهو تفسير غير دقيق؛ لأنه فسر بفعل، فأوحى بأن «تترى» فعل أيضاً، والأولى أن يقول: تترى: متوالية.

وفي خبر معاوية حين ولي الخلافة، أنه صعد المنبر، وخطب خطبة بليغة قال فيها: «وإن السيل إن جاء تترى — وإن قل — أغنى»، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٤٨/٣، والعقد الفريد لابن عبد ربه ٨٢/٤، وفيه تصحيف يصحح بما عند الذهبي.

وتأويل هذا الكلام: أن السيل إن جاء متتابعاً متواتراً كان فيه الفائدة والغناء وإن كان قليلاً، فتترى هنا في حال من الفاعل المضمر في «جاء».

وفي كلام لأبي العلاء المعري، يقول: «رُب حَيٍّ أُشْرِي، كأنهم ليوث الشرى... جاءتهم المنيا تترى»، الفصول والغايات ص ٢٨٢، و «أشري» جمع «أشر»، وهو البطر الذي لا يشكر النعمة. وواضح أن «تترى» هنا حال من «المنيا».

وتأتي كلمة «تترى» في الخطب التي يفتتح بها المؤلفون كتبهم، ومن ذلك قول صدر الدين البصري، صاحب كتاب الحماسة البصرية، قال: «الحمد لله حمداً يكون لقائه ذخراً، والصلاة على نبيه محمد القائل: «إن من البيان لسحراً»، صلاة دائمة على ممر الأيام تترى». و «تترى» صفة ثانية لصلاة، أي صلاة دائمة متواترة، وإن كان وضع الكلمة في ذلك السياق يوهم أنها فعل مضارع، فيه ضمير يعود إلى «صلاة» كأنه قال: صلاة دائمة تستمر وتتصل.

فهذه أمثلة من دوران الكلمة في الكلام المنشور، أما مجيئها في الشعر فهو كثير جداً، أجتزئ منه ببعض الأمثلة. فمن أقدم ما رأيته منه قول الحارث بن وعله الجرمي (جاهلي):

ولما رأيت الخيل تترى أثائجاً علمت بأن اليوم أحمس فاجر

أثائجاً: جماعات. وأحمس: شديد. وفاجر: يركب فيه الفجور. شرح المفضليات للأنباري ص ٣٣٠، وقال الشيخان: أحمد شاعر وعبد السلام هارون، في حواشي المفضليات ص ١٦٦، «تترى: متواترين، وهي من المواترة، وهي المتابعة... ويخطئ كثير من الكتاب في عصرنا، فيظنونها فعلاً مضارعاً، ويضعونها موضعه».

وقال سويد بن جدعة (جاهلي أيضاً):

ونحن نفينا خثعما عن بلادها تقتل حتى عاد مولى شريدها
فريقين فرقاً باليمامة منهم وفرقاً بخيف الخيل تترى خدودها

شرح المفضليات ص ١١٤، ولا يخدعك تقدم «تترى» هنا على الاسم، فتظن أنها فعل، وإنما الكلام على التقديم والتأخير، والأصل: «خدودها تترى» بدليل نظم البيت السابق «عاد مولى شريدها»، وإنما الكلام: «عاد شريدها مولى»، والمولى: هنا العبد. ثم لا يخدعك أيضاً شرح أبي العباس ثعلب لتترى، بقوله: «تترى، تتبع بعضها بعضاً» حيث فسر بالفعل، فإنه شرح على المعنى.

وقول الشاعر: «خدودها» لم يشرحوه، وأرى أنه هنا جمع خد، وهو الجمع من الناس، فالخدود هنا: هي الجماعات، وليست تلك التي في الوجه.

وذكر ابن كثير عن ابن عساكر، أن سعدى بنت كريض خالة عثمان بن عفان، قالت له تبشره، وتنبئه بزواجه من رقية بنت رسول الله ﷺ:

أبشر وحييت ثلاثاً تترى ثم ثلاثاً وثلاثاً أخرى

البداية والنهاية ٣٤٨/١٠، و «تترى» في موضع الصفة لثلاث، أي ثلاثاً متتابعة متواترة.

وقال ابن قلاقس، الشاعر الإسكندري المتوفى سنة ٥٦٧هـ، يمدح الحافظ أبا طاهر السلفي:

يا من أياديه تترى ليس يجحدها إلا أناس لفضل الله قد جحدوا
وقال أيضاً يمدحه:

ظل ذا لوعة وحزن ووجد وعليل وحرقة واشتياق
ودموع تترى وقلب عميد راعه لمع مبسم براق
ديوانه ص ٣٠١، ٤٨٦، والتقدير: يا من أياديه متواترة، ودموع متواترة.

ثم نعود إلى بيت أحمد شوقي، الذي بدأنا به الكلام:

والآي تترى والخوارق جمّة جبريل رواح بها غداء

وقد أشرت إلى أن شارح الديوان قد فسر الكلمة بأن معناها: تتوالى، فأوهم بذلك أن الكلمة فعل. وقد يظن ظان أن أحمد شوقي وقع فيها، وأنا أعيده من ذلك؛ فالرجل كان ذا ثقافة لغوية عالية جداً، وقد أخبرني شيعي محمود شاكر رحمه الله أن أحمد شوقي كان كثير النظر في «لسان العرب»، وأخبرني الأستاذ مصطفى حجازي عضو مجمع اللغة العربية أن الشيخ سليم البشري أحصى ألف لفظة من الكلام الغريب الفصيح أحياها أحمد شوقي في شعره، فبعيد جداً أن يتوهم هذا الشاعر الكبير فعلية «تترى»، وتأويلها في بيته المذكور أن تكون خبراً للآي، والتقدير: والآي متواترة، أو تكون حالاً من فاعل فعل محذوف معه، ويكون تقدير الكلام: والآي تجيء تترى ويستأنس لذلك بما ورد من كلام معاوية «إن السيل إن جاء تترى».

ولا يبقى إلا دفع شبهة تتصل باشتقاق هذه الكلمة «تترى»، والجنوح بها نحو الفعلية:

نقل ابن منظور في لسان العرب عن ابن الأعرابي «تري يترى: إذا تراخى في العمل، فعمل شيئاً بعد شيء»، وقد نقل ابن منظور ذلك الكلام في موضعين من

اللسان، الموضع الأول في أثناء مادة (وتر) والموضع الثاني في مادة (تري). وفي النفس من هذا النقل شيء :

أولاً : لانفراد ابن الأعرابي به ، ولم ينقل عن غيره من اللغويين .

وثانياً : أن صاحب اللسان ذكره في مادة (تري) أن هذا من التهذيب «خاصة» ، وهو فعلاً في تهذيب اللغة للأزهري ٣٠٩/١٤ ، لكن قول صاحب اللسان «خاصة» مما يضعف هذا النقل ؛ لأن مراجع اللسان خمسة ، كما هو معروف : الصَّحاح للجوهري ، وحاشيته لابن بري ، والمحكم لابن سيده ، والتهذيب للأزهري ، والنهاية لابن الأثير ، ولم يرد هذا النقل في شيء منها ، سوى التهذيب .

وثالثاً : أن ابن الأعرابي لم يستشهد لهذا الفعل بشاهد من نثر أو شعر ، واللغة إنما أخذت من كلام العرب وأشعارها .

هذا وقد زاد الصاغاني في الطنبور نغمة — كما جاء في المثل — فأضاف إلى ما قاله ابن الأعرابي : «أترى : إذا عمل أعمالاً متواترة ، ويكون بين كل عمليْن فترة» ، التكملة ٣٨٠/٦ ، ولا صلة لذلك كله بكلمة «تترى» إلا من بعيد ، كما لا يؤخذ من ذلك فعلية «تترى» .

وبعد : فقد ثبت إن شاء الله ، أن هذه الكلمة اسم ، وليست فعلاً ، وثبت أيضاً أن غالب استعمالها أن تكون حالاً ، وقد تأتي صفة ، ثم قد تأتي خبراً ، وعلى ذلك نقول : جاءت الأنباء تترى بكذا ، أو الأنباء تترى بكذا ، ولا نقول : تترى الأنباء بكذا .

وشكراً خالصاً للصديق الأستاذ عبد الرحمن شاعر الذي فتح لي هذا الباب من القول ، ورحم الله أحمد شوقي رحمة واسعة سابعة .

ثم الصلاة والسلام الأتمَّان الأكملان على صاحب الذكرى العطرة ، اللّهُمَّ احشرنا تحت لوائه ، وارزقنا شفاعته .



الشيخ الشعراوي.. والموازين الصحيحة^(١)

في صباح يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شهر صفر من عام ١٤١٩هـ، الموافق للسابع عشر من شهر يونيو من عام ١٩٩٨م انتقل الشيخ محمد متولي الشعراوي إلى الرفيق الأعلى، وقد أحدث موته دوياً هائلاً اهتزت له مصر وسائر الشعوب العربية والإسلامية، كما تهتز لموت عظماء الرجال.

وما كاد خبر وفاته يصل إلى أسماع الناس حتى ارتفعت أصواتهم بالعويل والنحيب «في كل دار رنة وعويل»، فكان حالهم حال النابغة حين مات حصن بن حذيفة:

يقولون: حصن! ثم تأبى نفوسهم وكيف بحصن، والجبال جُئُوحُ؟
ولم تلفظ الأرض القبور ولم تنزل نجوم السماء والأديم صحيح
فعمّا قليل، ثم جاش نعيه فبات ندي القوم وهو ينوح
أو كما قال المتنبي حين بلغه نبأ وفاة أخت سيف الدولة:

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فزعت فيه بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملاً شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي
وسواء فزع الناس لحادثة الموت أو اطمأنوا، وسواء سخطوا أو رضوا، فالموت واقع لا محالة، فهو مصير كل كائن وغاية كل حي ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَايِنَ مَتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وما رضى الله البقاء إلا لأهون

(١) مجلة «الهلal»، أغسطس ١٩٩٨م.

خلقه عليه «إبليس» عليه لعائن الله تترى، وقد سأل ربه: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ [الحجر: ٣٦ - ٣٨]، و [ص: ٧٩ - ٨١]، وأنظرنني: أي أمهلني ومد في حياتي.

ثم تنجلي غمرة الأسى على وفاة الشيخ الجليل عن سيل متدافع، في رثائه والكتابة عنه والأسف على فقده. وقد شارك في هذه المراثي طوائف من خاصة الناس وعامتهم. والحق أن أهل زماننا انقسموا في أمر الشيخ إلى طائفتين: الطائفة الأولى: أحبته فأسرفت في حبه، وبالغت في شأنه. والطائفة الثانية: أبغضته وشنتته وأسرفت في كرهه، وما أنصف هؤلاء ولا عدل أولئك، والأمر في الحالتين كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «سيهلك فيَّ صنفان: محب مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق، وخير الناس فيَّ حالاً النمط الأوسط فالزموه».

وإذا كانت الطائفة الثانية قد أساءت بسكوته وتجاهلها، فإن الطائفة الأولى قد أساءت أيضاً بإسرافها ومبالغتها في الحديث عن الشيخ وكأنه نبي يوحى إليه، وليس الطريق هنا أو هنالك!.

من أي بئر يستقي؟!

وبدئة ذي بدء فإنني أحب أن يكون واضحاً أنني من أكثر الناس معرفة بقدر الشيخ الجليل، ومن أعظم الناس حباً له، وهو حب له أسبابه ومسوغاته؛ فم منذ أطل هذا الوجه الكريم على الناس من شاشة التلفزيون في أوائل السبعينات، وأنا مرهف له سمعي، صارف إليه عقلي، مسدد نحوه بصري، أريد أن أعرف مصادره، ومن أي بئر عذبة يستقي، وفي أي كلاً مخصب يرتعي، ومن أي نار متأججة يقبس، ويوماً بعد يوم استوى عمود الصورة أمامي لهذا الشيخ الجليل، وحين تم لي ذلك - من خلال سماعي له ومشاهدتي إياه في التلفزيون فقط، وعلى غير لقاء أو تعارف بيننا، إلى أن مات رحمه الله - رأيته واجباً عليّ متعيناً أن أقدم هذا الرجل للناس، على نحو كاشف محلل، يتجاوز الإعجاب الساذج إلى الإبانة الصادقة عن منهج الرجل

وأدواته، فكتبت عنه كلمة ضافية سمّيتها: (الشيخ الشعراوي واللغة) في «هلال» فبراير من عام ١٩٩٤م، ولم أكتف بهذا الذي صنعت منذ أربع سنوات، بل ظللت على حفاوتي بالشيخ وتتبعي له، وتقيد بعض الملاحظات على ما يقوله رحمه الله، وكان ملخص ما قلته يومئذ في حق الشيخ:

إنه شيخ جليل جاء على حين فترة من العلماء الحافظين الضابطين. وهو يمثل صورة زاهية للعالم الأزهري المؤسس على علوم العربية وقوانينها، من حفظ المتون وإتقان التعريفات والصبر على المطولات، والنظر في الحواشي والتعليقات والتقارير، مع عناية فائقة باللغة، في مستوياتها الأربعة: أصواتاً وصرفاً ونحواً ودلالة، واستظهار معجب للشعر العربي في عصوره المختلفة، ومع تعلق شديد بالقرآن وعلومه، إلى ملكات ومواهب أخرى يعرفها المتابعون للشيخ.

فهذه هي الموازين الصحيحة لتقييم الشيخ والحكم عليه، أما ما أفاض فيه المحبون والمريدون من النظر إلى الشيخ نظرة نبوية، تتجلى في ردهم كل شيء عند الرجل إلى الإلهام والفيوض الربانية، والنفحات والتجليات، والعلم اللدني، فهذه كلها «دروشة» في تقييم الرجال والحكم عليهم. وإنما الصواب أن يقال: إنه رجل مثقف مؤسس واسع الاطلاع، غزير الرواية، وافر الحفظ، سريع اللمح، ذكي اللسان.

فبذل الجهد في تحصيل العلم وإخلاء النفس له هو باب التوفيق والفيوض الربانية، ولذلك يقول تاج الدين السبكي: «وهكذا رأينا من لزم باباً من باب الخير فتح عليه غالباً منه»، طبقات الشافعية ٦٥/١، فهذا أول ما ندفعه عن الشيخ من مبالغات الناس فيه.

ومن مبالغاتهم أيضاً قولهم: إنه أتى في تفسير القرآن بما لم يأت به الأوائل، وهذا قول منكر مردود، لأنه قول من لا يعرف تاريخ أمته، وتاريخ علمائها، وأئمة التفسير فيها، ثم هو كلام يرسل إرسالاً، ولا يملك صاحبه عليه دليلاً إلا الهوى الجامح، على ما قال أنس بن أبي أنيس:

يقولون أقوالاً ولا يعلمونها ولو قيل هاتوا حققوا لم يحققوا

ولكم أيها السادة أن تقولوا عن الشيخ أنه فريد عصره، وأنكم لا تعلمون له شبيهاً فيما يعالجه أهل العلم الآن من تفسير القرآن والكشف عن مراد الله فيه، لكم أن تقولوا هذا، ونحن نوافقكم عليه، أما أن تسحبوا هذا الحكم على علمائنا السابقين جميعهم فلا نوافقكم عليه، بل نأخذ على أيديكم ونمنعكم منه، ونضيق عليكم فيه، لأنه اغتيال لتاريخ علمائنا وأئمتنا، وقد دلتكم في مقالتي المنشورة بالهلال، على عالم من أئمتنا السابقين — لا أقول يشبه الشيخ الشعراوي، ولكن الشيخ الشعراوي هو الذي يشبهه — ذلكم هو جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، الفقيه الحنبلي الحافظ المفسر الواعظ المؤرخ الأديب، المولود ببغداد سنة ٥٠٨هـ = ١١١٤م والمتوفى بها سنة ٥٩٧هـ = ١٢٠٠م.

كان عالماً فذاً كثير التصانيف في التفسير والحديث والتاريخ واللغة. لكنه عُرف بالوعظ، وطار له فيه شهرة عظيمة، حتى قيل في وصفه «عالم العراق وواعظ الآفاق»، وقالوا في وصفه: إنه كان من أحسن الناس كلاماً وأتمهم نظاماً وأعذبهم لساناً وأجودهم بياناً، وكان يحضر مجالس وعظه الخليفة العباسي المستضيء بالله، وكذلك الوزراء والعلماء والفقهاء والقضاة وأرباب الدولة وسائر الناس على اختلاف طبقاتهم، حتى قيل إن مجلس وعظه حزر بمائة ألف (انظر: العبر في خبر من عبر للذهبي ٢٩٨/٤).

وقد وصف الرحالة ابن جبير مجلساً من مجالس ابن الجوزي، وقد حضره، فقال: «ثم إنه بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر، طارت لها القلوب اشتياقاً، وذابت بها الأنفس احتراقاً، إلى أن علا الضجيج، وتردد بشهقاته النشيج، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، كل يلقي ناصيته بيده فيجزها ويمسح على رأسه داعياً له، ومنهم من يغشى عليه فيرفع في الأذرع إليه. فشاهدنا هولاً يملأ النفوس إنابة وندامة، ويذكرها هول يوم القيامة»، رحلة ابن جبير ص ١٩٧، ١٩٨.

وقال ابن الجوزي عن نفسه، في آخر كتابه القصاص والمذكرين ص ١٩٥ :
«وإني ما زلت أعظ الناس وأحرضهم على التوبة والتقوى، فقد تاب على يدي إلى أن
جمعت هذا الكتاب أكثر من مائة ألف رجل... وأسلم على يدي أكثر من مائة
ألف»، وانظر تفصيلاً أكثر في: كتاب الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب
٤١٠/١.

فهذا وجه من وجوه الشبه بين ابن الجوزي والشيخ الشعراوي، وثمة وجوه
شبه أخرى، منها هذه التعبيرات والتراكيب الوعظية التي ترد في كلام الشيخين،
ذكر ابن رجب في المرجع السابق أن الناس قد طربوا في مجلس ابن الجوزي،
فقال لهم: «فهمتم فهمتم» الأولى من الفهم، والفاء فيها أصلية، والثانية من
الهيام، والفاء فيها حرف عطف. وذكر ابن رجب أيضاً أن رجلاً سأل ابن الجوزي:
«أيهما أفضل: أسبّح أم أستغفر؟ فقال: الثوب الوسخ أحوج إلى الصابون من
البخور؟»، وواضح أن الصابون هو معادل الاستغفار، وأن البخور هو مقابل
التسبيح.

وكما ازدحم الناس على جنازة الشيخ الشعراوي في بلدته (دقادوس) ازدحم
الناس على جنازة ابن الجوزي في بغداد، قالوا: «وحمّلت جنازته على رؤوس
الناس، وكان يوماً مشهوداً بكثرة الخلائق وشدة الزحام، حتى إنه أفطر جماعة من
شدة الحر»، وكانت وفاته في رمضان.

ومن العجيب أن ابن الجوزي توفي عن عمر يناهز السادسة والثمانين، وكذلك
كان عمر الشيخ الشعراوي يوم وفاته.

وبقي وجه شبه آخر بين الإمامين: وهو أن كليهما كانت تقدم له الهدايا الكثيرة
من الأمراء وأصحاب اليسار، ولكن هل كان ابن الجوزي يجعل من هذه الهدايا نصيباً
مفروضاً لمصارف البر والتوسعة على الناس، كما شاع وذاع عن الشيخ الشعراوي؟
علم ذلك عند ربي!.

فهم النص واستيعابه :

ومع هذا التشابه الواضح بين الشيخين، فإن ابن الجوزي ينفرد بكثرة التأليف والتصنيف. حتى ليقول عنه الذهبي: «وما علمت أحداً من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل» تذكراً الحفظ ص ١٣٤٤، أما الشيخ الشعراوي فلم يترك شيئاً مكتوباً، وأما هذا الركام المطروح في الأسواق من الكتب التي تحمل اسم الشيخ الشعراوي، فلا ينبغي أن تكون محل ثقة أو قبول، وهي أعمال تجميعية من التسجيلات الإذاعية والتلفزيونية، وهي من عمل بعض الناشرين، وواجب على الأزهر وعلى أسرة الشيخ أن تحاصر هذه المطبوعات، وأن تمنع تداولها في الأسواق.

وقد نهى الشيخ رحمه الله عن هذا العمل، فقال في آخر توقيعاته، كما جاء بالأهرام ٦/١٩: «آخر قرار وقعه ناشد فيه الناشرين بأنهم عندما يكتبون كتابات من خواطر الشيخ أن يحسنوا فهم النص ويستوعبوه جيداً، حتى لا يكون هناك هروب من النص، فساء فهمه ويساء إلينا بالتبعية، لهذا أقرر بعدم نشر أي كتاب منسوب إليّ، بغير اطلاعي شخصياً أو من ينوب عني». وهذا الذي يطلبه الشيخ من الناشرين أن يحسنوا فهم النص، شيء لن يكون ولن يتحقق، لأن الشيخ يسترسل في أحاديثه، وينبسط، ولن يستطيع أي إنسان أن يدوّن هذا الكلام المسترسل ويضبطه إلا صاحبه.

فالواجب إغلاق هذا الباب تماماً، ومن العجب إنك تجد الآن في الأسواق ما يسمّى بفتاوى الشعراوي، أو الجامع في الفتاوى، والشيخ رحمه الله لم يكن فقيهاً ولا مفتياً، فشروط الفقيه غير متوفرة في الشيخ، والفتيا في دين الله أمر عظيم، ولها أدوات كثيرة ليست متحققة عند الشيخ، فلنحذر الخلط في أمور ديننا، فإن وراءنا يوماً ثقيلاً، وانظر كتاب: (أدب الفتوى وشروط المفتي وصفة المستفتي وأحكامه وكيفية الفتوى والاستفتاء) لابن الصلاح، ومقدمة محققه الدكتور رفعت فوزي عبد المطلب.

ولم يبق الآن من مبالغات الناس في أمر الشيخ إلا بعض أمثلة، أجتزئ بها عن كثير غيرها.

مبالات :

فمن ذلك ما كتبه صديقنا الدكتور محمد الجوادي في أهرام ٦/٢٠، عن الشيخ: «أنه متابع جيد لكل تفصيلات الحياة والعلم والاقتصاد ولأدق نظريات الاجتماع، وتطورات العلوم الحديثة ومنجزات التكنولوجيا!» أهكذا يا صديقنا الدكتور؟ لقد تبجحت كثيراً، إن الذي يتابع أدق نظريات الاجتماع ومنجزات التكنولوجيا لا بد أن يكون لديه لغتان أجنبيتان أو لغة واحدة على الأقل. وما عرف عن الشيخ ذلك!

وفي عدد الأهرام نفسه يقول الأستاذ حسن دوح: «لقد وجدنا فيك الزمخشري والبيضاوي وابن كثير ومالكاً والشافعي وابن حنبل وأبا حنيفة، ووجدنا فيك البخاري ومسلماً وابن ماجه والنسائي، ووجدنا فيك ابن حزم وابن تيمية»، يا أستاذ حسن، أمسك عليك قلمك، إن الشافعي المتوفى سنة ٢٠٥، والبخاري المتوفى سنة ٢٥٦ لم يتكررا، ولم يعرف التاريخ لهما شبيهاً، لأسباب ودواعٍ كثيرة، وكذلك سائر من ذكرت من الأئمة الأعلام، ولا يتسع المقام هنا لبسط الكلام.

على أن الشيخ رحمه الله لم يكن محدثاً، فإن المحدث بالمعنى الاصطلاحي الدقيق: هو من عرف علم الحديث رواية ودراية، وعلم الحديث رواية: هو ما يشمل على أقوال النبي ﷺ وأفعاله، وروايتها وضبطها وتحرير ألفاظها، وعلم الحديث دراية: هو ما يعرف به حقيقة الرواية وشروطها وأنواعها وأحكامها، وحال الرواة من تعديل وتجريح، وقبول ورد، وشروطهم وأصناف المرويات وما يتعلق به. وذلك كله ما يعرف بعلم الحديث. وما نظن الشيخ رحمه الله ضبط ذلك كله، وانظر تفصيل ذلك في: كتاب تدريب الراوي للسيوطي ٤٠/١، وقواعد التحديث لجمال الدين القاسمي ص ١٧.

والعجيب أن ما قاله الدكتور الجوادي والأستاذ حسن دوح، قد نقله بحروفه الأستاذ أحمد أبو كف في المصور ٦/٢٦، دون أن ينسبه إليهما، وخطورة مثل ذلك أن هذا الكلام قد صار كلاماً مصداقاً ينقله الناس بعضهم عن بعض وكأنه من المسلمات!

ومن المبالغات أيضاً ونسبة أمور للشيخ ليست له ما ذكره الأستاذ عبد الرحمن فهمي في بريد الأهرام ٦/٢٥ بعنوان (إحضر حالاً إلى أندونيسيا) يقول: إن أئمة الإسلام في أندونيسيا قد بعثوا إلى الشيخ الشعراوي ليرى ساحراً بوزياً يدعو إلى أمور دينية خطيرة، ويستعين عليها بأمور من السحر، فسافر الشيخ سراً ورأى ذلك الساحر وهو يخرج من كفه حبلاً طويلاً يسبح في الهواء، بل إنه يخرج من كفه رجلاً يسبح في الهواء ويتعلق بذلك الحبل. فما كان من الشيخ الشعراوي إلا أن طلب مصورين وأجهزة تصوير ليصوّروا الحبل والرجل. وكانت المفاجأة أن أفلام التصوير لم تسجل شيئاً من ذلك كله. وهنا أكد لهم الشيخ أن هذا نوع من التخيل والتمويه، وأن هذا الرجل إنما سحر أعين الناس فقط، كما حكى القرآن العظيم عن سحرة فرعون: ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١١٦]، انتهت القصة، وأقول: يا أستاذ عبد الرحمن فهمي، هذه قصة قديمة جداً، وقد سمعت أشباهاً لها منذ عشرين عاماً، والذي فعله الشيخ الشعراوي أنه صنع ما صنعه غيره من كشف هذه الألاعيب.

على أن من أعجب ما قرأته من مبالغات الناس في أمر الشيخ ما ذكره الدكتور عبد الله النجار في باب (قرآن وسنة) بجريدة الجمهورية ٦/٢٦، فقد ذكر كلاماً عن المواجهة بين الشيوعيين والشيخ الشعراوي، أنهاه بقوله: «وستظهر الأيام أن انتصار الشيخ في تلك المعركة الفاصلة هو الذي مهد لسقوط الدولة الشيوعية، وانتهاء ما كان يتحصن به الذيول والأتباع مما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي، وكانت تلك هي معركة القرن!» هل هذا كلام يا رجل؟ لن أصف ذلك الكلام وسأمسك قلمي، لكنني أدعو الدكتور عبد الله النجار أن يبرأ مما قال، ويخرج من عهده، ويعلن أن ذلك من جمعات القلم، ببواعث الشجن وهيجان العاطفة.

على أنه مما ينبغي التنبيه له والتنبيه عليه أن الشيخ الشعراوي لم يدخل معارك على الحقيقة مع أحد، فإنه لم يكن يعاباً بمخالفه، وليس كبيراً عليهم واستعلاء، وإنما الرجل كان يتصرف وفق منهج الصوفي الذي ألقى الدنيا خلف ظهره ودبر أذنيه،

واشتغل بمحبوبه عمن سواه، ومحبوبه هو القرآن ولغة القرآن، ومنهج الله الذي يبدو له من خلال آيات هذا الكتاب المبين، وهو إن ذكر شيئاً من مقالة الشيوعيين أو الإلحاديين فإنما كان يعالجها من خلال تأمله للقرآن ليس غير، وبحسب للشيخ هنا من ذكائه ووعيه الاجتماعي أنه لم يتعرض لسخط أهل الصحافة وأهل الإعلام، فهو يعلم أن هؤلاء وهؤلاء لهم سلطان وغلبة، ولم يكن يغيب عن الشيخ قول جرير:

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

ثم هو لم تغب عنه أيضاً معركة الشيخ محمد الغزالي في الخمسينات مع الأستاذ إحسان عبد القدوس والفنان صلاح جاهين وكراريكاتيره الشهير «أبو زيد الغزالي سلامة»، ثم معركة الشيخ محمد أبو زهرة مع الأستاذ أحمد بهاء الدين في الخمسينات أيضاً، كذلك لم يغب عنه تعرض الشيخ عبد الحميد كشك لغضب الصحفيين وأهل الفن.

والشيخ كشك كان أيضاً من أصحاب البيان واللسن، وجهارة الصوت وقوة التأثير، وكان وراءه جمهور ضخم، ولقيت تسجيلاته انتشاراً وذبوعاً داخل مصر وخارجها، بل وصلت إلى أوروبا والأمريكيتين. لكن انشغال الشيخ كشك بتتبع الأدباء والكتاب وأهل الفن، والتلفزيون والكرة، شتت جهوده، وحصر تأثيره في دائرة محدودة من الناس، وهذه أزمة بعض أصحاب الخطاب الديني، أنهم يوردون أنفسهم موارد التهلكة، حين ينظرون إلى المجتمع على أنه شر كله، وفي هذا الطريق يستغضبون طوائف مهمة في المجتمع، بدواعي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مهملين طبائع الأزمان، غافلين عن تقلبات الأحوال وتداخل الأمور، وتشابك القوى وقد قيل بحق: العاقل من عرف زمانه، وقد ألمح إلى هذا الدكتور أحمد كمال أبو المجد، في كلمة له بالمصور - العدد المذكور - قال: «ومن السمات الواضحة في منهج الشيخ الشعراوي أنه التزم موقفاً إيجابياً وبنائياً في تعامله مع الواقع، مؤثراً الاشتغال ببناء المنهج السوي، والتبشير به والدعوة إليه، عن الاشتغال بنقد المناهج

الفاصلة، والدعوة إلى هدم الواقع، أو تثبيت الأفكار عند مواضع العوج في دنيا الناس».

لم يعاد يوسف إدريس :

نعم أفلت الشيخ الشعراوي من ذلك كله، فلم يستغضب أحداً، ولم يعاد أحداً، وحين عبس الدكتور يوسف إدريس في وجهه وتناوله وسخر منه، لم يثار منه ولم يحرش جماهيره به، بل تركه حتى ذهب إليه الدكتور يوسف بنفسه، واعتذر إليه، وكأنه بذلك يحقق قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت]، ومن اللافت للنظر أن الشيخ الشعراوي قد ضمن هذه الآية الكريمة في شعر له قديم، قال:

يا من تضايقه الفعا ل من التي ومن الذي
ادفع فديتك (بالتي) حتى ترى (فإذا الذي)
وهذا لون من الشعر، يضمن فيه الشعراء شيئاً من القرآن الكريم، ويجعلونه في قوافيهم، ومنه قول الشاعر:

ألا يا أيها المرء الـ لذي ألهم به برح
وقد أنشد بيتاً لم يزل في فكره يسرح
إذا اشتد بك العسر ففكر في (ألم نشرح)
فعسر بين يسرين إذا أبصرته فافرح

انظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ١٦٦/٩.

وممن عرف بهذا اللون من الشعر أبو بكر محمد بن أحمد المعروف بالخباز البلدي، من شعراء القرن الرابع، قال:

سار الحبيب وخلف القلب يدي العزاء ويضمركربا
قد قلت إذ سار السفين بهم والشوق ينهب مهجتي نهبا
لو أن لي عزاً أصول به (لأخذت كل سفينة غصبا)

والحديث عن موقف الشيخ الشعراوي من الشيوعية — وهو موقف مفتعل كما قلت — يقودنا إلى ما يراه بعضهم من أن الشيخ يمثل ظاهرة سياسية، بجانب كونه ظاهرة دينية، ومن ذلك ما كتبه الدكتور محمد أبو الإسعاد في المصور ٦/٢٦، وأول ما يلقانا من كلام الدكتور قوله عن الشيخ الشعراوي، إنه تأثر بالمذهب الوهابي، بدرجة واضحة، ويرد الدكتور ذلك إلى عمل الشيخ بالسعودية، ومشاركته في إنشاء رابطة العالم الإسلامي هناك.

وهذا القول غير صحيح، فإن مذهب الشيخ مباين تماماً للمذهب الوهابي، أو مذهب «الشيخ محمد بن عبد الوهاب» كما يحب السعوديون أن يسمّوا، فالشيخ الشعراوي صوفي الوجه واليد واللسان، وأنت لا تخطيء صوفيته هذه في كل ما يقول، ولا يخفى الفرق بين الصوفية ومذهب القوم هناك «يا بعد بيرين من باب الفردائيس». والسعوديون يعلمون جيداً صوفية الشيخ الشعراوي، ولم يمنعهم ذلك من أن ينزلوه منزلاً كريماً بينهم، وأن يوسعوا له في مجالسهم، بل أن وزيرهم النابه «محمد عبده يماني» هو الذي قدم الشيخ إلى الأستاذ أحمد فراج، فكانت الشهرة العريضة.

ويرى الدكتور أبو الإسعاد أن الشيخ قد دخل طرفاً في الصراع بين التيار القومي الاشتراكي وبين التيار الإسلامي السلفي، وهو ذلك الصراع الذي ساد منطقتنا العربية في الستينات، ويدلل على ذلك بانضمامه إلى رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة — وليس في جدة — عام ١٩٦٢م، وهذا الكلام هو من إسراف المؤرخين والمثقفين في التحليل والاستنتاج، فالحقيقة أن الشيخ لم يدخل طرفاً في أي صراع، وانضمامه إلى رابطة العالم الإسلامي لم يكن لمواقف سياسية ماثورة عنه، وإنما كان لأنه كان شخصية بارزة في المجتمع المكي، بمحاضراته القيمة وتدريسه المتميز في كلية الشريعة بمكة المكرمة، والسعوديون يحرسون دائماً على اجتذاب النماذج المتميزة في مؤسساتهم العلمية والتعليمية، ولو كانوا يخالفونهم أحياناً (ولا ينبئك مثل خبير).

ولو كان الأمر كما يرى الدكتور لاستغل السعوديون الشيخ في صراعهم المر مع الرئيس جمال عبد الناصر إبان حرب اليمن وغيرها . ولم يؤثر عن الشيخ شيء في ذلك .

وأما ما ذكره الدكتور من أن الشيخ الشعراوي قد صلى ركعتين شكراً لله على نكسة ١٩٦٧م، فهذه زلة عظيمة من الشيخ غفر الله له، ولا يعتذر له عنها، مهما كانت الأسباب والمسوغات، وما أظن أن الشيخ قال هذه القولة الذميمة استجابة لموقف سياسي معين، وإنما قالها صدى لبعض أصوات العامة التي سمعناها تقول غداة هزيمة «٦٧»: «الحمد لله العساكر كانوا حيركبونا»، وقد سمعتها أنا بأذني من الأحياء الشعبية التي كنت أعيش فيها تلك الأيام، ومعلوم أن الشيخ كان كثير المخالطة للعامة .

وكذلك ليس صحيحاً أن الشيخ وظف شعبيته الدينية لدعم نظام الرئيس السادات، فالسادات كان قد كسب شعبية كبيرة بعد انتصار حرب ١٩٧٣م لأنه مسح العار عن جبين مصر والأمة العربية، وذلك قبل أن يلتقي بالشيخ الشعراوي وزيراً عام ١٩٧٦م، ولم يؤخذ على الشيخ إلا قوله في حق الرئيس السادات: لا يُسأل عما يفعل . وهذه قد غضب منها المتدينون، لأنها قيلت في حق المولى عز وجل، والحق أنها كانت غلطة من الشيخ، لا يعتذر عنها إلا بأنها زلة أديب، لا عالم، كما استهجن الناس من قبل قول ابن هانئ الأندلسي (٣٦٢هـ) في الخليفة المعز لدين الله الفاطمي:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

ومع ذلك فلم تطل إقامة الشيخ الشعراوي بالوزارة، ويقولون إن خلافات نشبت بينه وبين الرئيس السادات، بسبب قضية الأوقاف، وبخاصة ما يتصل منها بسور نادي الزمالك، ويروون في ذلك نكتة لاذعة بينه وبين السادات «وكلاهما كان صاحب دعابة»، وأعرف ما يقول الخبثاء الآن!

أما موقف الشيخ من غزو الكويت وتأثير ذلك الغزو، وإجازته الاستغاثة بجيوش غير إسلامية لإنقاذ الكويت، فلم يكن هذا موقف الشيخ وحده.

ولعل ردنا هذا الموجز على مقالة الدكتور أبو الإسعاد يكون هو مدخلنا إلى الحديث الموجز أيضاً، عن الطائفة الثانية – ومعظمها من المثقفين والأدباء والجامعيين – التي أعرضت عن الشيخ وأبغضته، ولم تكتف بذلك الإعراض وهذا البغض حتى ضمت إليهما هزءاً بالشيخ وسخرية منه، فقالوا: إنه رجل دنيا، وإنه ممثل، وإنه بهلوان – ونعوذ بالله من سوء القول، ويستشهدون لذلك بأنه كثير التلفت وتحريك أعضائه والغمز بعينه.

وهذه حجة داحضة، لأن هذا الذي يأخذونه على الشيخ إنما هو من أدوات الواعظ والخطيب، ولا ننسى أن الشيخ كان في أول أمره معلماً، على أن استعانة الشيخ بجوارحه للشرح والتبيين – فضلاً عن أنه من أدوات الخطيب والمعلم – من أساليب القدماء في الشرح والإبانة.

قال السيوطي في المزهري ١/ ١٤٤: «إذا سئل العربي أو الشيخ عن معنى لفظ فأجاب بالفعل لا بالقول يكفي، قال في الجماهرة: ذكر الأصمعي عن عيسى بن عمر، قال: سألت ذا الرمة عن النضناض، فلم يزدني على أن حرك لسانه في فيه. قال ابن دريد: يقال: نضنض الحية (الثعبان) لسانه في فيه: إذا حركه.

وقال القالي في أماليه: سئل الأصمعي عن العارضين من اللحية، فوضع يده على ما فوق العوارض من الأسنان».

وحكى ثعلب في مجالسه ص ٤٠٩ عن معاوية أنه قال لعقبة بن أبي سفيان: «يا أخي، أما ترى ابن عباس قد فتح عينيه ونشر أذنيه، ولو قد قدر أن يتكلم بها فعل».

وهذه الحركات من سمات الخطباء والوعاظ، وتجدها كثيراً في البيان والتبيين للجاحظ، وقال الذهبي في ترجمة أبي منصور العبادي، من سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٣١: «واعظ باهر، حلو الإشارة، رشيح العبارة»، وأيضاً فإن تحريك الأعضاء يعكس حالة انفعالية يعانيتها الشخص، قد تكون رضا، وقد تكون سخطاً. روي أن معاوية سمع رجلاً يغني فطرب لغنائه، فحرك رجله، فقال له عبد الله بن جعفر:

ما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال معاوية: إن الكريم طروب. مجالس ثعلب ص ٤٧.

على أن هذه الحركات من الشيخ إنما تدل على حالة مزاجية خاصة كانت تلازمه في دروسه ومجالسه، وهي حالة من البهجة والنشوة كانت تتلبس الشيخ حين يسبح في أنوار القرآن، ويرتع في رياض العربية: فصاحتها وبيانها، وقل من يتنبه لهذا الأمر في تحليل شخصية الشيخ: إنه يتلذذ بما يقول، ويطرب لما يجري على لسانه، فيتلذذ معه الناس ويطربون، والواعظ الجيد كان يوصف قديماً بالمطرب، قال الذهبي في ترجمة العبادي المذكور قريباً: «الواعظ المشهور المطرب».

وقد صرح الشيخ بهذه الحالة المزاجية، فقال رداً على سؤال للأستاذ صلاح منتصر، عن سر جاذبيته: «يعلم الله أنني ما أقبلت على لقاء أو تسجيل أو ندوة أو حديث إلا وأنا أدرك حلاوة ما أقبل عليه» الأهرام ٦/٢٠.

وأنت لو أرهفت سمعك مع الشيخ لسمعته حين يحلق مع خواطره يتواجد ويطرب فيقول لنفسه بصوت خفيض ولكنه مسموع — «الله الله» — يعني بالتعبير المصري: الرجل يشغل بمزاج — وهذا شيء معهود في قراء القرآن والمطربين، يهمهمون أحياناً تعبيراً عن سعادتهم ونشوتهم، وقد لا يهمهمون ولكن حالتهم المزاجية تدل على ذلك.

وفي تسجيل نادر للشيخ مصطفى إسماعيل في سورة هود، وصل الشيخ رحمه الله إلى درجة عالية جداً من حلاوة الصوت وجمال الأداء، فقال له أحد المستمعين: «وحياة النبي أنت بتسمع معنا الليلة دي»!

وفي تسجيل حفلة لمطرب المائة عام — كما كان يقول أستاذنا كمال النجمي رحمه الله — محمد عبد الوهاب — صدح بأغنية «كل ده كان ليه»، وكانت الحفلة في نادي الضباط، أوائل الثورة، وصل عبد الوهاب إلى الغاية في الحلاوة والسلطنة، فسمعناه يخاطب أعضاء فرقته الموسيقية: «قولوا لنا حاجة، ما تقولوا لنا حاجة»، كأنه يقول لهم: إنني في حالة من الوجد والنشوة فشاركوني أنتم أيضاً في ذلك بالعزف المنفرد (الصولو) على آلاتكم.

أما أم كلثوم العظيمة فهمماتها معروفة مسموعة.

موقف غريب!

فما أظن هؤلاء المثقفين الذين كرهوا الشيخ وأعرضوا عنه وسخروا منه وقالوا فيه أسوأ الذي قالوا، ما أظنهم فعلوا ذلك إلا أنفة واستعلاء وذهاباً بأنفسهم أن يجتمعوا على مائدة واحدة مع العامة الذين يصيحون ويفغرون أفواههم إعجاباً بالشيخ، فهذه (ديماغوجية) بغیضة عند المثقفين الأكابر والأدباء، أصحاب الجباه العالية، وهذا يذكرنا بموقف أولئك الذين كانوا يعرضون عن حزب الوفد ويسخرون منه، لأنه يجمع الغوغاء والدهماء من عامة الشعب، ويرون أن حزباً مثل حزب الأحرار الدستوريين جدير بالاحترام والتبجيل، لاجتماع الصفوة في رحابه في مقدمتهم الدكتور محمد حسين هيكل باشا.

ولم يكن المثقفون وحدهم في هذا الموقف من الشيخ، بل شاركهم كثير من الجامعيين، والعتب على هؤلاء أشد، والمحنة في موقفهم هذا أعظم، لأنهم كانوا أولى الناس بأن ينتبهوا إلى الشيخ، ويتأملوا منهجه في البيان واللغة، وهذا السيل المنهمر من الشعر الذي قلما يجتمع في صدر أحد من أهل زماننا.

لقد سلك الشيخ مسالك عجيبة في بيان إعجاز القرآن والكشف عن مراد الله في هذا الكتاب الحكيم، بتأمل اللغة، والنفاد إلى أعماقها، وإبراز خصائصها الصوتية والتركيبية، وكنتم أنتم أيها الجامعيون أولى الناس بمتابعة الشيخ في ذلك، ودرسه وتكميله، وإضاءته بمناهج الدرس الحديث، ولكنكم فتنتم أنفسكم وارتبتم وغرتكم مناصبكم الجامعية، فتكبرتم وأعرضتم عن الشيخ جملة، وقد ظلمتم أنفسكم باتخاذكم الكبر، فتوبوا إلى بارئكم، واعكفوا على تراث الشيخ المسموع والمرئي، فأعملوا فيه عقولكم، وأعطوه حظه من النظر والتأمل، فإن الشيخ قد أوتي علماً عظيماً، ينبغي علينا نحن ورثة الأنبياء كشفه وإظهاره، وسنحرز معه الأجر ونشركه في المثوبة إن شاء الله. فنحن وإياه على ثغر من ثغور العربية، نحميها ونذود عنها، ونجالد الناس عليها، وتلك مرتبة عليا، فقد قال عبد الله بن المبارك (١٨١هـ): «لا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم»، سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٤٣.

وحين نعكف ويعكف المنصفون من المثقفين والجامعيين على تراث الشيخ، كشفاً وإضاءة، نكون قد أقمنا الموازين الصحيحة لتقييم الشيخ والحكم عليه، ونكون أيضاً قد استنقذناه من أيدي العامة التي توشك أن تتخذ قبره حناناً تأوي إليه — كما جاء في الخبر — ثم تجعل له من كل عام يوماً مشهوداً، ترتفع فيه البيارق وتدق له الطبول وتخفق فيه الرايات، وتدار فيه النفحات، وتدور فيه الرؤوس في حلقات الذكر، وإذا نحن بيوم وليلة أمام طريقة صوفية جديدة تدعى «الطريقة الشعرافية»، ورضي الله عن السادة الصوفية الأعلام، أئمة الزهد وأرباب الحقيقة وأمرء الكلام، ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٢٠].



الشيخ الشعراوي.. والفتنة بما يقوله الكبار^(١)

رحم الله شيخنا الشعراوي، فمنذ نحو ثلاثين عاماً خرج على الناس صوت جديد، يدعو إلى الله على بصيرة، ويكشف عن مراد الله من كلامه القديم، على نحو مبين لما ألفه الناس في زماننا هذا. ذلكم هو الشيخ محمد متولي الشعراوي، وكان الفضل في إبلاغ هذا الصوت وإذاعته مصروفاً كله إلى الأستاذ الأديب أحمد فراج، في برنامجه التلفزيوني «نور على نور».

ويوماً بعد يوم أخذ الناس يجتمعون حول ذلك الصوت لما ظهر لهم من أسلوبه الفريد في عرض القضايا ومناقشتها والاستدلال عليها، وأخذ الشيخ ييسط سلطانه على ساحة الخطاب الديني المرثي والمسموع، مخلياً مساحة كبيرة بينه وبين سائر الدعاة والوعاظ، لكنه قد لقي - في أول أمره - شيئاً من الإنكار والتجافي، وبخاصة من بعض المثقفين الذين أعرضوا عنه أنفة واستعلاء، وذهاباً بأنفسهم عما تجتمع عليه العامة، ولعل ذلك الإعراض يرجع أيضاً إلى ما أثر عن الوعاظ قديماً وحديثاً، من مخاطبتهم للمشاعر القريبة في الناس، واستنفارهم لشجون العواطف والقلوب، وبُعدهم عن معالجة قضايا الفكر ومسارح التأمل، على ما قرره توفيق الحكيم في كتابه «فن الأدب»، وفي كلام بعض أهل العلم قديماً ما يشير إلى ذلك.

يقول مجد الدين بن الأثير في مقدمة كتابه «النهاية في غريب الحديث والأثر»، وهو يتحدث عن جهود العلماء في التأليف في علم غريب الحديث: «وكان في زماننا أيضاً، الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، كان متفناً في علومه،

(١) مجلة «العربي»، العدد ٤٨٠، نوفمبر ١٩٩٨ م.

متنوعاً في معارفه، فاضلاً، لكنه كان يغلب عليه الوعظ»، فتأمل هذا الاستدراك الذي يوشك أن يسلب الوعاظ فضيلة في مجال الفكر والعلم.

وقد كتبت عن الشيخ الشعراوي كلمة بمجلة «الهِلال» فبراير ١٩٩٤م أبنت فيها عن علمه، وكشفت فيها عن المخبوء تحت طي لسانه، وانتهيت إلى أن الشيخ يمثل صورة زاهية للعالم الأزهري المؤسس على علوم العربية وقوانينها، من حفظ اللغة - قريتها وغريبها - وحفظ الشعر واستظهار المتن، وإتقان التعريفات، والنظر في الحواشي والتقريرات. ومن وراء ذلك ما يفتح الله به عليه، ويكشفه له من بعض أسرار الذكر الحكيم، فإن هذا القرآن الكريم «لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه» كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي والدارمي.

وكنت قد ذكرت في كلمتي عناية الشيخ باللغة في مستوياتها الأربعة: النحو والصرف والأصوات والدلالة، وأضيف اليوم شيئاً عجيباً سمعته أخيراً في حلقة تلفزيونية، جاء في كلام الشيخ «البشارة والندارة» يريد التبشير والإنذار.

و «الندارة» بكسر النون بمعنى الإنذار، مما أثر عن الإمام الشافعي فقط، والشافعي لغته حُجة، وهو من أئمة اللسان، كما ذكر الفيومي في المصباح «بعض». قال صاحب القاموس المحيط: «والنذير: الإنذار، كالندارة بالكسر، وهذه عن الإمام الشافعي».

قلت: وقد جاء تصديق كلام الفيروزآبادي هذا، في النسخة الخطية من «الرسالة» للشافعي، وهي بخط الربيع بن سليمان تلميذ الشافعي، وعليها توقيع الربيع سنة «٢٦٥هـ». والنسخة محفوظة بدار الكتب المصرية، وهي من أقدم المخطوطات في العالم. ويقول الشيخ أحمد شاکر في وصف هذه النسخة: «وأما الثقة بها فما شئت من ثقة: دقة في الكتابة، ودقة في الضبط... ومن أقوى الدلالة على عنايته بالصحة والضبط: أنه وضع كسرة تحت النون في كلمة «الندارة»، وهي كلمة نادرة لم أجدها في المعاجم إلا في القاموس، ونص على أنها عن الإمام الشافعي».

قلت: وهكذا ترى أيها القارئ الكريم أن كتب التراث يصدق بعضها بعضاً، ثم تأمل بعد ذلك كيف وقعت هذه الكلمة للشيخ الشعراوي، واستقرت في محفوظه، ثم ظهرت على لسانه.

أنوار اليقين:

وبهذه المعرفة الواسعة باللغة واستحضار الشعر، وتمثل فروع الثقافة العربية الإسلامية كلها، ثم ما يفيضه الله على الشيخ من أنوار اليقين وتجليات الكشف، صار للشيخ الشعراوي عند الناس مكان ومكانة، وأصبح للذي يلقيه على الناس قوة لا يشوبها ضعف، وإقناع لا يعتريه شك، وهكذا شأن الرؤوس والمتبعين، يثق الناس بما يتلقونه منهم، ويُلَقُّون إليهم المقادة راضين مطمئنين، لا يراجعونهم رأياً، ولا يخالفون عن أمرهم، لكن هذا طريق مخوف، والعاقبة فيه وخيمة، فقد يكون بعض هذا الذي يأتي به الكبار المتبعون معدولاً به عن وجهه، مصروفاً إلى غير حقيقته.

وكنت قد راجعت الشيخ الشعراوي في بعض تفسيراته وشروحه، في مقالة الهلال التي أشرت إليها، لكنني أعود إليه اليوم في أمر جلل وقضية خطيرة، وإنما هولت وعظمت لأن الأمر يتصل بالقرآن الكريم وقراءاته، والخطأ في ذلك أو الجرأة فيه مما يوقع في الهلكة ويورث الشك والضلال.

وبيان ذلك أن الشيخ رحمه الله عرض في بعض الحلقات التي سمعتها قبل وفاته لقضية القراءات القرآنية، وانتهى إلى أن سبب الاختلاف فيها هو أن «المصحف الشريف» في أول كتابته لم يكن منقوفاً، يعني «أشكال حروف مجردة»، فكان العربي المسلم يقرأ وينطق بملكة اللغة المتوارثة — هكذا قال بالحرف — ويعني السليقة، ودلل على ذلك ببعض الأمثلة، منها قوله تعالى: ﴿صَبْغَةَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَاءَ السَّمَوَاتِ وَمَاءَ الْأَرْضِ جَمِيعاً مِثْنَهُ﴾ [البجائية: ١٣]، وقال عن الآية الأولى إنها قرئت قراءتين «صبغة» بالصاد المهملة بعدها باء موحدة ثم غين معجمة،

و «صنعة» بالصاد أيضاً بعدها نون ثم عين مهملة . والآية الثانية قرئت «أشاء» بالسين المعجمة، و «أساء» بالسين المهملة، والآية الثالثة قرئت «منه» بكسر الميم وسكون النون ثم هاء، و «منه» بكسر الميم أيضاً وتشديد النون ثم تاء معقودة «مربوطة» .

وقد ردَّ الشيخ هذا الاختلاف إلى خلو الكلمات من النقط، فقرأ كل قارئ بسليقته اللغوية وما أدته إليه ملكته العربية .

صنعة أم صبغة؟

وبدء ذي بدء: فإن قراءة «صنعة الله» بالنون والعين التي ذكرها الشيخ لم أجدها في قراءة متواترة ولا شاذة، ولست أدري من أين جاء بها الشيخ؟ وقد وجه أهل التفسير الآية على معنى «صبغة» ليس غير . قال الزمخشري في الكشاف ٣١٦/١ «وهي فعلة من صبغ كالجلسة من «جلس»، وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ . والمعنى: تطهير الله، لأن الإيمان يطهر النفوس، والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية، ويقولون: هو تطهير لهم، فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم: قولوا آمنا بالله، وصبغنا الله صبغة لا مثل صبغتمكم .

وأما القراءتان الأخريان «أصيب به من أساء» بالسين المهملة، و «جميعاً منه» بكسر الميم وتشديد النون والتاء المعقودة، فهما قراءتان شاذتان، كما ذكر ابن جني في «المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» ٢٦١/١ - ٢٦٢/٢، والقراءات الشاذة لا تعد من القرآن ولا يتعبد بتلاوتها، وإنما تذكر في مجال الاستشهاد للغة والنحو، فلا ينبغي أن نتشاغل بها، ومن باب الأولى ألا نذكرها أمام العامة . وقد ذكر الشيخ الشعراوي أن حماداً الراوية قرأ «من أساء» بالسين، لكن فاته أن الراغب الأصبهاني قد عد ذلك من زلات حماد وتصحيقاته . (انظر: محاضرات الأدباء ١١٠/١).

ثم أعود إلى قضية خلو المصحف الشريف من النقط والإعجام، وهو الذي يراه الشيخ سبباً رئيساً في تعدد القراءات واختلافها، وهي قضية خطيرة جداً، وليس

الشيخ الجليل «أول سار غره القمر»، ولعل أول من نقب هذا النقب في زماننا هو المستشرق المجري جولدزيهر «١٨٥٠م - ١٩٢١م»، فقد ذكره في كتابه «مذاهب التفسير الإسلامي» الذي ترجمه الأستاذان علي حسن عبد القادر، وعبد الحليم النجار، قال في ص ٨ كلاماً عن اختلاف القراءات القرآنية ختمه بقوله: «وإذا فاختلاف تحلية هيكل الرسم بالنقط واختلاف الحركات في المحصول الموحد الغالب من الحروف الصامتة كانا هما السبب الأول في نشأة حركة اختلاف القراءات، في نص لم يكن منقوطاً أصلاً، أو لم تتحر الدقة في نقطه أو تحريكه».

وكذلك ردد هذا الرأي المستشرق الأسترالي الأصل آرثر جفري، وذكره في مقدمة تحقيقه لكتاب «المصاحف» لابن أبي داود، قال في ص ٧ من المقدمة: «وكانت هذه المصاحف - يعني المصاحف التي بعثها عثمان إلى الأمصار - كلها خالية من النقط والشكل، فكان على القارئ نفسه أن ينقط ويشكل هذا النص على مقتضى معاني الآيات».

وقد تابع هذين المستشرقين بعض العلماء العرب، من الجامعيين وغيرهم، وأذاعوه في كتبهم، لكن طائفة أخرى من علمائنا ردوا على «جولدزيهر» رأيه وأسقطوه بأدلة قاطعة، من الآثار والتاريخ ونصوص القرآن الكريم نفسه، ومن أبرز هؤلاء: الدكتور عبد الفتاح شلبي، في كتابه «رسم المصحف العثماني وأوهام المستشرقين في قراءات القرآن الكريم»، والشيخ عبد الفتاح القاضي في كتابه «القراءات في نظر المستشرقين والملحدين».

وقد كتبت أنا في هذه القضية غير مرة، لكنني أعيد الكلام فيها الآن، للذي ذكرته لك أيها القارئ الكريم من مجيء هذا الوهم على لسان فضيلة الشيخ الشعراوي، وهو رجل مجمووع له الناس، ومتبوع مسموع. وأيضاً فإن لمجلة «العربي» عند الناس مكاناً، ولما يكتب فيها ذيعاً وانتشاراً، فلعل عرض هذه القضية على صفحاتها وبيان وجه الصواب فيها، ما يحسم مادة الخلاف، ويقطع أسباب الشبهة إن شاء الله.

حفظ القرآن :

ولا سبيل إلى ذكر كل أطراف القضية، فإنها من الشعب بمكان، فحسبي أن أذكر رؤوس كلام، وفيما ذكره الشيخان شلبي والقاضي، ثم ما يأتيك من كلام أهل العلم: مقنع وبلاغ، والمأمول منك أيها القارئ الكريم أن تجعل هذه القضية على بالك، وأن تشغل بها نفسك ووقتك، فإنها دين وعقيدة، فأقول وبالله الاستعانة :

أولاً: القرآن كلام الله القديم، نزل به الروح الأمين جبريل عليه السلام، على قلب النبي محمد ﷺ، وقد أمره ربه بتلاوته ﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٢٧]، ثم أمره بإبلاغه للناس وقراءته عليهم ﴿يَتْلَاهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، و ﴿وَقُرْءَانَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وكان رسول الله ﷺ حين ينزل عليه جبريل بالوحي حريصاً على استظهار القرآن وحفظه، فكان يحرك لسانه حالة نزول الوحي، مخافة أن تفوته كلمة، أو يسقط عليه حرف، حتى طمأنه ربه بأن تكفل له أن يجمعه في صدره، ويسهل له قراءته لفظاً ومعنى، فقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۚ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ۚ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاقْرَأْ قُرْءَانَهُ ۚ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۚ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩]، وقوله تعالى: ﴿فَالْيَقِ قُرْءَانَهُ ۚ﴾، أي قراءته، وهو مصدر على وزن فعلان، مثل غفران وكفران.

وهذا هو أساس الحفظ في تراثنا العربي: إنه أمر أولاً بتلاوته وحفظه، ثم جاءت مرحلة الإفهام بعد ذلك ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۚ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۚ﴾ [طه: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ ۚ﴾ [الأعلى: ٦]، و «لا» هنا نفي وليست نهياً. والمعنى: فلست تنسى إذا أقرأناك.

ثانياً: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي بالقرآن يقرئه أصحابه فيحفظونه، وكان هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم حريصين على استظهار ما يحفظونه وتعهده بالمدارسة والعمل به، وكان الذي سمع يُعلم من لم يسمع، وكان عليه السلام يبعث إلى من كان بعيد الدار منهم مَنْ يُعلمهم ويقرئهم، كما بعث مصعب بن عمير

وابن أم مكتوم إلى أهل المدينة قبل الهجرة، يعلمانهم الإسلام، ويقرئانهم القرآن، وكما خلف معاذ بن جبل بمكة بعد الفتح يقرء الناس القرآن. قال عبادة بن الصامت: «كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن، وكان يسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجة بتلاوة القرآن، حتى أمرهم رسول الله أن يخفضوا أصواتهم، لئلا يتغالطوا»، انظر: مناهل العرفان للشيخ الزرقاني ١/٢٤١، وهو كتاب جيد جداً في علوم القرآن.

ثالثاً: اهتم الرسول عليه السلام هو وأصحابه أول الأمر بجمع القرآن في الصدور - أي حفظه واستظهاره - وكان ذلك أمراً طبيعياً، لأن الرسول عليه السلام كان أمياً، وبُعث في أمة أمية، يقل فيها الكتاب، ولا يشيع بينها الخط، ثم أوحى إليه عليه السلام أن يكتب القرآن، فاتخذ كتاباً من خيرة الصحابة، زيادة في الاستيثاق لكتاب الله تعالى «حتى تُظاهر الكتابة الحفظ، ويُعاضد النقش اللفظ».

ومع كتابة القرآن الكريم ظل الحفظ هو الأساس والمعتمد، قال ابن الجزري: «ثم إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور، لا على حفظ المصاحف والكتب، وهذه أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة، ففي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم: «إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان»، فأخبر تعالى أن القرآن لا يحتاج في حفظه إلى صحيفة تغسل بالماء، بل يقرؤه في كل حال، كما جاء في صفة أمته: «أناجيلهم في صدورهم».

رابعاً: توفي رسول الله ﷺ والقرآن الكريم كله مجموع في الصدور، ومكتوب في السطور، ثم كان جمع أبي بكر القرآن، وبعده كان جمع عثمان، والفرق بين الجمعين معروف في كتب علوم القرآن. ومن أحسن المراجع في ذلك كتاب الشيخ الزرقاني المذكور قريباً.

وخلاصة الأمر أن عثمان رضي الله عنه جمع الناس على مصحف واحد، سمي «المصحف الإمام»، واستنسخ منه نسخاً أرسلها إلى الأمصار الإسلامية، ولم يكتف

عثمان بإرسال تلك المصاحف، بل أرسل مع كل مصحف عالماً من علماء القراءة يعلم المسلمين وفق هذا المصحف، وعلى مقتضاه، فأمر زيد بن ثابت أن يقرأ بالمدينة، وبعث عبد الله بن السائب إلى مكة، والمغيرة بن شهاب إلى الشام، وعامر بن عبد قيس إلى البصرة، وأبا عبد الرحمن السلمي إلى الكوفة. فكان كل واحد من هؤلاء العلماء يقرأ أهل مصره بما تعلمه من القراءات الثابتة عن رسول الله ﷺ، بطريق التلقي والتواتر التي يحتملها رسم المصحف. وقد أمر عثمان رضي الله عنه بحرق كل ما عدا مصحفه هذا.

خامساً: معلوم أن «مصحف عثمان» هذا كان خالياً من النقط والشكل، وكذلك المصاحف المستنسخة منه، وكذلك كل ما كتب من القرآن زمان النبي ﷺ، كل ذلك كان مجرداً من النقط والشكل، وذلك ليتحمل الرسم ما صح نقله، وثبتت روايته عن رسول الله ﷺ.

قال أبو عمرو الداني: «وإنما أدخل الصدر منهم — أي الأوائل من المسلمين — المصاحف من ذلك — أي من النقط ومن الشكل — من حيث أرادوا والدلالة على بقاء السعة في اللغات، والفُسحة في القراءات التي أذن الله تعالى لعباده في الأخذ بها والقراءة بما شاءت منها، فكان الأمر على ذلك إلى أن حدث في الناس ما أوجب نقطها وشكلها» المحكم في نقط المصاحف ص ٣، وهذا الذي حدث في الناس فأوجب نقط المصحف وشكله هو دخول الأعاجم من غير العرب في دين الإسلام، وقد تمّ ذلك في أواخر القرن الأول وأوائل الثاني، على يد أبي الأسود الدؤلي «٦٩هـ»، ونصر بن عاصم الليثي «٨٩هـ»، ويحيى بن يعمر — بفتح الميم — العدواني — بفتح العين — «١٢٩هـ».

ويقال: إنَّ عمل نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر كان بتوجيه وإشراف الحجاج بن يوسف الثقفي، ويقال إنه أمر بإعدام المصاحف الخالية من النقط والشكل. فانظر فضل هذا الرجل الجبار على العربية وعلى قرّاء القرآن.

ومع هذه الوثبة العظيمة في تاريخ القرآن الكريم، فقد بقي ناس من أهل العلم

على رأيهم في تجريد المصحف من النقط والشكل، منهم الحسن البصري، وابن سيرين، وكان هؤلاء يتمسكون بما روي عن عبد الله بن مسعود: «جرّدوا القرآن ولا تخلطوه بشيء». .

سادساً: ونأتي إلى جوهر القضية، وهو ما يقال من أن خلو المصحف من النقط والشكل كان هو السبب في اختلاف القراءات، لأن كل قارئ كان يقرأ رسم الكلمة وفق ما يؤديه إليه اجتهاده أو سليقته اللغوية، وما يظهر له من معنى الآية.

دلائل لغوية :

والذين ردّوا هذا الرأي دفعوه بأكثر من حجة ودليل، وسأكتفي هنا بدليلين، ومن أراد الزيادة فعليه بما كتبه المشايخ: الزرقاني وشلبسي والقاضي، في كتبهم التي أشرت إليها:

الدليل الأول: أن اختلاف القراء إنما حدث في حياة الرسول ﷺ، فيما تلاه عليهم وسمعوه منه مشافهة، ولم يأت هذا الخلاف نتيجة النظر في المصحف المكتوب المقروء، ودليل ذلك حديث عمر بن الخطاب مع هشام بن حكيم، الذي أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما من المحدثين والمفسرين. وهذا هو نص الحديث كما جاء في رواية البخاري «باب أنزل القرآن على سبعة أحرف. من كتاب فضائل القرآن»:

«قال عمر بن الخطاب: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم، فلبيته بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئها، فقال رسول الله ﷺ: أرسله. أقرأ يا هشام، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال

رسول الله ﷺ: كذلك أنزلت. ثم قال: اقرأ يا عمر، فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ: كذلك أنزلت. إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه».

هذا وقد ذكر الطبري في مقدمة تفسيره آثاراً أخرى في اختلاف القراء فيما سمعوه من رسول الله ﷺ. وهذه الآثار تدل كلها على أن القراءات مأخوذة بالتلقي والمشافهة والسماع من فمه الشريف ﷺ، وإنما اختلفت القراءات عنه ﷺ تيسيراً على أمته وتخفيفاً، مراعاة لاختلاف لغات القبائل، أي لهجاتها.

الدليل الثاني: لو كان خلو المصحف من الشكل والإعجام سبباً في تنوع القراءات واختلافها، لكان القارئ الذي يقرأ الكلمة وفق رسم معين، يلتزمه في أمثاله ونظائره حيث وقع في القرآن الكريم، ولم يحدث هذا، وإليك مثلاً واحداً: قوله تعالى في فاتحة الكتاب: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وقوله سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ﴾، وقوله تعالى في سورة الناس: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾، فلو تأملت المواضع الثلاثة في المصحف لوجدت الكلمة فيها كلها هكذا ﴿ملك﴾ بالميم واللام والكاف فقط، ولكن حفصاً يقرأ عن عاصم، في الفاتحة ﴿مالك﴾ بالالف بعد الميم، وكذلك يقرأ آية آل عمران، أما في سورة الناس فيقرأ ﴿ملك﴾ من دون الألف، فلو كان حفص يقرأ وفق رسم المصحف لقرأ في المواضع الثلاثة ﴿ملك﴾، ولكنه يقرأ بالرواية المتواترة عن رسول الله ﷺ.

وكذلك قد تختلف القراءات أحياناً، لغة ونحواً، وهكذا يبدو للناس في ظاهر الأمر، ولكن الاختلاف في الحقيقة راجع إلى التلقي والرواية، لا إلى القاعدة اللغوية أو النحوية، وهذا مثال واحد:

قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ جاءت هذه الآية في موضعين: سورة النساء ٩٥، وسورة الحديد ١٠، ويقرأ القراء جميعاً (كلأ) بالنصب في الآيتين، لكن ابن عامر يقرأ آية النساء بالنصب، كسائر القراء، أما آية الحديد فيقرأها وحده (وكل) بالرفع، وللنحويين في توجيه الرفع والنصب كلام. فلو كان ابن عامر يقرأ وفق

القاعدة النحوية لقرأ الآيتين بالرفع، ولكنه قرأ بالرواية التي تلقاها هو بالتواتر عن سيدنا رسول الله ﷺ: مرة بالنصب ومرة بالرفع، مع أن تركيب الآية واحد في الموضعين.

ومثال ثان: الإمالة ظاهرة صوتية، وهي «أن تنحي بالألف نحو الياء، فيلزم أن تنحي بالفتحة قبلها نحو الكسرة»، وهي لغة بعض القبائل العربية، وقد قرأ بها بعض القراء، والتزموها حيث وجدت دواعيها في القرآن الكريم، لكن حفصاً الذي يقرأ بقراءته كثير من المسلمين الآن بروايته عن عاصم، لم يقرأ بالإمالة إلا في موضع واحد من الذكر الحكيم، وهو قوله تعالى من الآية ٤١ من سورة هود: ﴿يَسْمِ اللَّهَ مَجْرِبَهَا وَمُزْنَهَا﴾، وهكذا يختلف القراء ويتفقون، بحسب الرواية والتلقي، وليس بحسب رسم المصحف أو الوجه النحوي أو اللغوي، صحيح أن هذين في الاعتبار، ولكن بعد ثبوت الرواية بالتواتر والسند الصحيح، ولذلك قالوا إن للقراءة المقبولة ثلاثة شروط: التواتر بالسند الصحيح إلى رسول الله ﷺ، وموافقة الرسم العثماني، وأن يكون للقراءة وجه صحيح من العربية، فإذا سمعت قراءة مسندة لواحد من القراء السبعة أو العشرة، كأن يقال: قراءة نافع أو عاصم أو الكسائي، فلا تظن أنها من اختراعه أو ابتداعه، ولكنها اختياره الذي ارتضاه من طريق الرواية المسندة الصحيحة، ولذلك أثر عن أبي عمرو بن العلاء — وهو أحد القراء السبعة — قوله: «لولا أنه ليس لي أن أقرأ إلا بما قرئ به لقرأت كذا وكذا. وذكر حروفاً».

ويريد أبو عمرو أن القراءة سنة واتباع وأثر، ولا دخل فيها للسليقة أو الاستحسان اللغوي أو الترجيح النحوي أو رسم المصحف. ومن ثم يرى كثير من العلماء أن ترجيح قراءة متواترة على قراءة متواترة لا يجوز؛ يقول أبو العباس ثعلب: «إذا اختلف الإعراب في القرآن عن السبعة لم أفضل إعراباً على إعراب في القرآن، فإذا خرجت إلى الكلام كلام الناس فضلت الأقوى»، راجع الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي ٤٨/١ — ٥٦٣/٤.

قراءات ربانية :

ثبت إذن أن القراءات القرآنية كلها بوجوهها المختلفة من عند الله، ولا دخل لخط المصحف فيها، ولا للوجوه النحوية أو اللغوية فيها كذلك، وثبت أيضاً أن اختلاف القراءات القرآنية إنما هو اختلاف تنوع، لا اختلاف تضاد.

أما السؤال عن كيفية نزول جبريل عليه السلام بهذه القراءات المختلفة، فقد أجاب عنه ابن قتيبة، فقال: «وكل هذه الحروف — يعني الوجوه المختلفة للقراءات — كلام الله تعالى، نزل به الروح الأمين على رسوله عليه السلام، وذلك أنه كان يعارضه في كل شهر من شهور رمضان بما اجتمع عنده من القرآن، فيحدث الله إليه من ذلك ما يشاء، وينسخ ما يشاء، ويسر على عباده ما يشاء، فكان من تيسيره: أن أمره بأن يقرئ كل قوم بلغتهم، وما جرت عليه عادتهم»، انظر: تأويل مشكل القرآن ص ٣٨ وقرأ بقية كلامه، فإنه عالٍ نفيس.

وبعد: فهلا آن الأوان لجامعاتنا العربية أن تهتم بهذا العلم — علم القراءات — : رواية ودراية، فتجعل له نصيباً مفروضاً في مناهج الدراسات العليا، ونعم إنها تمنح فيه درجات عليا، ولكن في جانب واحد منه، وهو جانب الأصوات مع المقارنة بالدراسات اللغوية الحديثة، وهذا ليس كافياً. ولعلي أعود إلى هذا الموضوع بشيء من البسط والتفصيل إن شاء الله.

وتحية إلى فضيلة الشيخ الشعراوي الذي فتح لنا هذا الباب من القول.



ذيل الأعلام.. ومغالبة الهوى!^(١)

تأليف : أحمد العلاونة

حين عالجت تحقيق ونشر بعض النصوص التاريخية، ظهر لي أن شطراً كبيراً من حضارتنا العربية والإسلامية لا يظهر إلا من خلال كتب التراجم، وأن مصادر التاريخ الإسلامي على نهج الحوليات والحوادث العامة، كالطبري والمسعودي مثلاً، ليست هي الصورة الكاملة لذلك التاريخ.

ثم نظرت إلى من أسعدني زماني بمعرفتهم من علماء العصر، في مصر وفي غير مصر، فرأيت من علمهم وأثارهم كل غريبة وعجيبة، وهو علم معروض للضياع إذا لم يدوّن ويسجل، فتمنيت أن لو أتيح لفن تراجم الأعلام المعاصرين من يصل عمل الزركلي، على النهج الذي سلكه، أو على نهج مقارب له، ولم يطل الانتظار، فقد نهدت إلى هذا العمل باحث من الأردن، وهو الأستاذ «أحمد العلاونة»، وقد أعدّ للأمر عدته، وأخذ له أخذه، فشرع يجمع بجهده، ويتصل بمن يتوسم فيهم المعرفة من الأقطار العربية، ممن لهم عناية بالتراجم وتاريخ الرجال، فسأل واستفسر وطلب العون، فأجيب إلى سؤله، وحين اجتمع له قدر من هؤلاء الأعلام، ترجم لهم في ذلك الجزء الذي جاء في (٣٦٨) صفحة من القطع الكبير، وقد صدر عن دار المنارة بجدة - السعودية - ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

وسمّى الباحث كتابه «ذيل الأعلام»، و «الذيل» تسمية قديمة يراد بها تكميل العمل الأول، أو الاستدراك عليه، مثل: ذيل تاريخ بغداد لابن النجار، والأصل

(١) مجلة «الهلal»، أكتوبر ١٩٩٨م.

للخطيب البغدادي، ومثل: التكملة والذيل والصلة، للمصاغاني، والأصل: الصّحاح للجوهري.

وقد ترجم الأستاذ أحمد العلاونة لأربعمائة وستة وثلاثين علماً (٤٣٦)، وذكر أنه ابتدأ بوفيات سنة ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م، وهي السنة التي أعقبت وفاة الزركلي، ومعنى ذلك أنه ترجم للأعلام المتوفين فقط - وهو شرط الزركلي في الأعلام - ولكنه ذكر كلاماً في مقدمته يوحي بأنه ترجم لبعض الأحياء، وذلك قوله: «وبلوت من بعض المعارضين الذين يكتبون تراجمهم لي ولغيري خصلاً ذميمة، منها: أن أحدهم كان يفيض في ترجمته، ويغدق عليه كل مديح حسن، وينسب إليه ما ليس له، وإذا شارك في تأسيس شيء ما أفردته لنفسه، وإذا سئل عن عمره صغره ليقال: إنه نبغ صغيراً، فيرى القارئ حسناً ما ليس بحسن، فكان علي أن أغربل ذلك كله».

مآخذ على الزركلي:

وقد رأى الباحث من تمام الفائدة أن يتعقب الزركلي في بعض ما سها عنه، أو أخل به، فذكر مآخذه هو عليه، ثم ذكر أيضاً مآخذ الأستاذ محمد أحمد دهمان، من علماء سورية، ومآخذ القاضي إسماعيل الأكوع من اليمن، وهذا كله جيد، فإن «النقد يجبر النقص ويقيم العوج ويصلح المُنَاد»، وقد نقل الباحث كلمة شيخنا محمود محمد شاكر، برّد الله مضجعه: «فإن جودة العلم لا تتكون إلا بجودة النقد ولولا النقد لبطل كثير علم ولاختلط الجهل بالعلم اختلاطاً لا خلاص منه ولا حيلة فيه».

وقد دعا الباحث العلماء إلى نقد كتابه، وها أنذا أستجيب له، رعاية لحق العلم وأداء للأمانة، فأقول:

أول ما أناقشك فيه أيها الباحث الكريم: المعيار الذي اعتبرته للأعلام الذين يستحقون الترجمة، فأنت قد أخذت على الزركلي أنه ترجم لبعض المجاهيل أو ممن ليسوا أحق بالترجمة، وقد وقعت أنت في ذلك فترجمت لطائفة أعرف بعضهم عن قرب، فبعضهم درّس لي وبعضهم كان صديقاً لي، وهم أهل فضل، لكنهم ليسوا هناك، ومحلهم من العلم محدود، وليس كل من ولي منصباً أو نال جائزة، أو شرف

بعضوية هيئة علمية جديراً بأن يكون من الأعلام الذين تسجل أسماؤهم في دوائر المعارف أو ما هو شبيه بها، وأضرب لك مثلاً واحداً:

لقد حصل العقاد وطه حسين ومحمود شاعر على جائزة الدولة التقديرية، ولكن هل تظن أن كل من حصل على هذه الجائزة يكون في قمة واحد من هؤلاء؟

إنَّ الناس تتقلب في حياتها في مجال الشهرة والأضواء وكثير منهم ليس له من أسباب هذه الشهرة وتلك الأضواء إلا ما تتيحه له قدرته على الحركة واستثمار الفرص المتاحة، وفتح أبواب المصانعة وتبادل المنافع، ثم هذا الذكاء الاجتماعي الذي يمكن لصاحبه في الأرض، بالإلحاح على عين القارئ وأذن المستمع، باسمه الذي يتردد وصورته التي تتلأأ في وسائل الإعلام صباح مساء، وذلك كله رزق الله المقسّم على خلقه، وهي حظوظ الناس تصيب بعضاً وتخطىء بعضاً:

يشقى أناس ويشقى آخرون بهم ويسعد الله أقواماً بأقوام
وليس رزق الفتى من فضل حيلته لكن جدود وأرزاق وأقسام
كالصيد يُخرمه الرامي المجيد وقد يرمي فيحرزه من ليس بالرامي

لكن الناس إذا ماتوا انقطعت أسباب شهرتهم، ولم يبق إلا هذه الأعمال الجليلة التي يطيب بها ذكركم وتخلد بها أسماؤهم، فالموت هو قاطع العلائق، ومنصف الموتى من الأحياء.

روى أبو عبد الرحمن السلمي قال: «حضرت جنازة أبي الفتح القواس الزاهد مع أبي الحسن الدارقطني، فلما نظر إلى الجمع (أي كثرة الناس وازدحامهم) قال: سمعت أبا سهل ابن زياد القطان يقول: سمعت عبد الله بن أحمد بن حنبل يقول: سمعت أبي يقول: قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم يوم الجنائز»، انظر: مناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزي ص ٥٦٠.

ولن أستطيع أن أذكر أسماء هؤلاء الأعلام الذين ترجم لهم الباحث، وهم غير أهل للترجمة، حتى لا أغضب ذويهم، وأقاربهم، وحتى لا أنبش القبور. ويبدو أن

الباحث قد عوّل على هؤلاء الذين استشارهم — وذكرهم في مقدمة كتابه — فأشاروا عليه ببعض أصدقائهم الراحلين «وحسن في كل عين ما تود».

وثاني ما أناقش فيه الباحث الكريم: قضية الحيادة والموضوعية في ترجمة الأعلام، فعلى كاتب الترجمة أن يكون حذراً كل الحذر في صياغة الترجمة، وكبح جماح القلم، حتى لا ينزلق إلى ذكر الرأي الخاص، وهو من محاسن كتاب: «الأعلام» للزركلي رحمه الله، ولم يراع الباحث ذلك، فقد غلبه هواه، ومن ذلك ما ذكره في ترجمة الرئيس المصري «محمد أنور السادات» (ويلاحظ أنه ذكره في حرف الهمزة، وكان المنهج يقتضي أن يذكره في حرف الميم).

إنكار حرب رمضان وشماتة لا تليق:

فمما قاله في هذه الترجمة: «أن السادات اشترك مع سورية في حرب خاطفة ضد إسرائيل... غير أن إسرائيل استفادت من تلك الحرب أكثر مما خسرت»، وهذا خَلْف من القول، وباطل من الرأي، وأكثر الناس بغضاً للسادات لا يسعه أن يقول هذا، فإن حرب رمضان التي خطط لها وكتّم خبرها وقادها السادات كانت نصراً كبيراً للعرب ولمصر، وقد غسّلت العار عن جبين الأمة العربية، وقد رأى الناس كلهم صورة الفيلق الإسرائيلي المأسور بقيادة «عساف ياجوري»، ثم رأينا ورأى الناس تلك الاستحكامات والبنائات الراسخة التي أقامها اليهود في «عيون موسى» تحت الأرض وكأنها هي التي يقول الله عزّ وجلّ في وصفها: ﴿لَا يَقْنَلُوكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ [الحشر: ١٤]، نعم رأينا هذه البنائات المحكمة وقد دكها جيش مصر.

ثم يقول الباحث أيضاً عن مقتل السادات: «إنه قتل بطريقة مدهشة، وابتهج الناس بقتله»! وهذه شماتة لا تليق، ثم إن ذلك التعميم في قوله: «ابتهج الناس بقتله» غير صحيح، فلئن كان بعض الناس قد ابتهج بقتله، فإن كثيرين قد حزنوا له، ولم يقنع الباحث بذلك كله حتى نشر صورة الهجوم على المنصة، وأنا لا أدافع عن

السادات — وإن كان ذلك حبيباً إليّ — ولكني أريد أن أقول: إن الأعمال الموسوعية ينبغي أن تبرأ من الهوى، وتتصف بالحييدة والموضوعية.

سقطات:

ومن ذلك أيضاً ما ذكره في ترجمة الأديب «عبد الرحمن الشرقاوي» قال: «أديب وشاعر متجن على تاريخ الإسلام ورجاله، نعته الشيخ محمد الغزالي بأنه يجمع القمامات من كتب التاريخ». ثم قال الباحث: «له تأليف ذميمة، منها الفتى مهران مأساة جميلة»، إلى آخر ما ذكر.

يا سيدي الفاضل، نحن لا نترجم للناس لكي نهينهم ونهوي بهم! وأرى أنه إذا بلغ منك الرجل هذا المبلغ من البغض والشنآن، فأسقطه من كتابك، وإذا سئلت عنه فقل: لا أراه جديراً بالترجمة.

إن مؤرخينا القدماء كانوا أكثر إنصافاً وموضوعية، فمؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي (٧٤٨هـ) يترجم للحجاج بن يوسف الثقفي، ذلك الجبار الذي يكاد الناس يجمعون على بغضه واستبشاع ما صنع، يقول عنه الذهبي: «وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه وأمره إلى الله، وله توحيد في الجملة»، فذكر له «حسنات»، وانظر: سير أعلام النبلاء ٣/٤٣٣.

ومن أجمل وأحكم ما رأيته من مغالبة الهوى وقهر نوازع النفس، مع عدم إغفال الرأي الخاص، ما ذكره شيخنا محمود شاكراً في شأن مستشرق يهودي صحّح له خطأ وقع فيه فقال في ص ٣٩٥ من طبقات فحول الشعراء: «وكنّت أخطأت بيان ذلك في طبعتي السالفة من الطبقات، فجاءتني من الأرض المقدسة التي دنستها يهود، رسالة رقيقة من (م. ي. قسطنطين) فدلني على الصواب الذي ذكرته آنفاً، فمن أمانة العلم أذكره شاكراً كارهاً لهذا الذكر»، فانظر وتأمل، كيف اعترف بالصنيعة وشكرها، ثم لم يخف ما في نفسه.

ونعود إلى ترجمة «عبد الرحمن الشرقاوي»، فمع كل ما ذكره الباحث من إساءة إليه لم يذكر أهم أعماله الأدبية، وهي رواية «الأرض».

ملاحظات تفصيلية :

وهذه بعض الملاحظات التفصيلية أسوقها وفق ورودها في الكتاب :

في ص ١٧ : ذكر في ترجمة «إبراهيم الأبياري» أنه حقق «مختار الأغاني»، و «العجم» للشيباني، والصحيح أنه حقق الجزء الأول منهما فقط .

في ص ٢٩ : يزداد في أعمال «أحمد عبد الستار الجواري» أنه حقق كتاب «المقرب» لابن عصفور، مع الدكتور عبد الله الجبوري .

في ص ٣٢ : ذكر في ترجمة «أحمد رامي» أنه حقق كتاب «قاموس البلاد المصرية»، والحق أن هذا الكتاب من تأليف «محمد رمزي» المتوفى سنة ١٩٤٥ ، وقد ترك هذا الكتاب جذازات وبطاقات، رتبها وأعدّها للنشر أحمد رامي وقت أن كان وكيلًا لدار الكتب المصرية، هكذا أخبرني الدكتور أيمن فؤاد سيد، وهو الخبير بتاريخ دار الكتب ونشاطها. وفي ظني أن «أحمد رامي» إنما أشرف على هذا العمل، وأعانه عليه قوم آخرون من موظفي القسم الأدبي بدار الكتب، وكانوا من أهل العلم .

في ص ٣٤ : ذكر من تحقيقات «أحمد عبيد» كتاب : «مثير العزم الساكن»، والصواب : «الغرام» . وكذلك جاء في كشف الظنون ص ١٥٨٩ .

في ص ٥٥ : استطرد في ترجمة «الشيخ جاد الحق علي جاد الحق» شيخ الأزهر، إلى منصب «مشيخة الأزهر»، وأنه كان في مبدأ أمره يقوم على الانتخاب من هيئة كبار العلماء، ثم أصبح تعييناً من قبل رئيس الجمهورية، ثم خلص إلى أمور أخرى، وليس ذلك من طبيعة كتاب تراجم كهذا الكتاب، ثم إنه نسي أنه يترجم لواحد من مشايخ الأزهر، وليس الأزهر وتاريخه .

في ص ٦٨ : ذكر في ترجمة «حسن كامل الصيرفي» أنه حقق دواوين هؤلاء الشعراء : حارث بن حلزة والمرقشين ولقيط بن يعمر، ثم حماسة البحثري والاختيارين للأخفش، وعبث الوليد للمعري، وأخبار البلدان للقزويني . والحق أن

هذه أعمال كانت تحت يده يعمل في تحقيقها، وكان يشير إليها في تحقيقاته، ولكنه لم يطبع منها شيئاً. ثم ذكر من تحقيقاته: لطائف اللطائف للشعالبي، وصواب العنوان: لطائف المعارف، وقد أخرجه بالاشتراك مع «إبراهيم الأبياري».

في ص ٧٧: مما يكمل لوحة حياة «خالد محمد خالد» — وهو مما يجهله كثير من الناس — أنه كان في مبتدأ أمره خطيباً لامعاً بالجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية التي أسسها الفقيه المالكي الشيخ محمود خطاب السبكي المتوفى سنة ١٣٥٢هـ = ١٩٣٣م.

وبعد مؤلفاته الأولى التي أحدثت ضجة وضجيجاً — مثل: من هنا نبدأ ولكيلا تبحروا في البحر — عاد إلى الكتابات الإسلامية، وطوى صفحاته الأولى، وعاش في آخر أيامه حياة صوفية هادئة.

في ص ٧٨: يزاد في ترجمة «خليل هنداي» أنه من الرواد الأوائل في استخدام مصطلح «الأدب المقارن»، انظر: مقدمة العلامة الدكتور محمود علي مكي لكتاب «في الأدب المقارن» لفخري أبو السعود، الذي أعدته جيهان عرفة . . .

في ص ٨٥: ذكر في ترجمة «رياض السنباطي» أغنية «على بلد المحبوب»، وهو أول لحن له شدت به أم كلثوم، ولكنه كتب «على بلدي المحبوب» بالإضافة إلى ياء المتكلم، والصواب: «على بلد المحبوب» بالإضافة إلى المحبوب.

في ص ٨٧: ذكر في ترجمة الوراق «زكي محمد مجاهد» أنه طبع من كتابه: «الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية» أجزاء ثم أعجلته المنية عن إتمامه. وهذا من كلامي في كتابي «الموجز في مراجع التراجم» ص ٧٤، الذي صدر عام ١٩٨٥م، ولكن الذي حدث بعد ذلك أن أولاده جمعوا تصحيحاته على الأجزاء الأربعة التي طبعت في حياته، ثم أضافوا الجزء الخامس الذي كان أبوه قد أعده ودفعوا بذلك كله إلى الناشر العالم المجاهد الحبيب اللّمسّي، فأخرج العمل كله في طبعة أنيقة في ثلاثة أجزاء عن دار الغرب الإسلامي عام ١٩٩٤م، بمراجعة وتصحيح الدكتور محمد البقلاوي بالجامعة التونسية.

وفي الصفحة نفسها يزداد في ترجمة «زكي المهندس» إنه والد الممثل الكوميدي «فؤاد المهندس»، والإذاعية الرائدة «صفية المهندس»، وأنه خال الدكتور إبراهيم أنيس» المترجم في ص ١٧، ووالد زوجته.

في ص ٩٦: تردد في مولد ووفاة شيخنا العلامة «السيد أحمد صقر»، وقد ولد رحمه الله سنة ١٩١٥م، وتوفي يوم السبت ٣ من جمادى الآخرة ١٤١٠هـ - ٢ من ديسمبر ١٩٨٩م.

في ص ١٠٧: يزداد في ترجمة «طاهر أبو فاشا» أنه كان من ظرفاء العصر، وأن أم كلثوم غنت له شعره الذي صاغه في تمثيلية «رابعة العدوية» بالإذاعة المصرية في أواخر الخمسينيات، وفي تلك الأيام رفع الدكتور «عبد الرحمن بدوي» دعوى قضائية على «طاهر أبو فاشا»، لأنه أغار على كتابه عن «رابعة العدوية»، وصنع منه تمثيليته.

في ص ١١١: ترجم لشيخنا مقرأى الوقت الشيخ عامر عثمان، وتمام اسمه «عامر السيد عثمان»، وقد نقل كلاماً لي في ترجمة الشيخ وعزاه إلي. وكان مما نقله «الوقوف ومواقفها»، وصواب كلامي: «ومواقعها»، ويحمد للباحث أنه ترجم لأبرز علماء القراءات، وأصحاب الأصوات، مثل شيخنا هذا، والمشايخ: عبد الفتاح القاضي، وعبد الفتاح المرصفي، وعبد الباسط عبد الصمد، ولكنه أغفل علمين كبيرين، هما: محمود خليل الحصري، ومصطفى إسماعيل.

أما الأول فكان من أكثر القراء التزاماً بأصول التلاوة ودقة الأداء، وهو أول من سجل «المصحف المرتل» في أوائل الستينيات في إذاعة القرآن الكريم - وكانت أول إذاعة في العالم العربي والإسلامي تخصص للقرآن الكريم، كما أن له تأليفاً في علم الوقف والابتداء، وأما الشيخ مصطفى إسماعيل فكان في الذروة في حلاوة الصوت وجمال الأداء وتمام الصنعة. وقد كتب عنه الأستاذ كمال النجمي كتاباً، وكتبت فيه مقالة بمجلة الهلال.

في ص ١١٥ : ذكر في ترجمة «عبد الحليم حافظ» أنه غنى لكبار الملحنين، أمثال محمد عبد الوهاب، ورياض السنباطي، وقد أغفل «محمد الموجي»، وهو باب تلك الشهرة العريضة التي حظي بها عبد الحليم. وكان تلحينه لأغنية «صافيني مرة» المفتاح الذهبي لهذا الباب. والغريب أن عبد الحليم بدأ حياته بهذه الأغنية، وختمها بأغنية من تلحين الموجي أيضاً، وهي «قارئة الفنجان» من شعر نزار قباني.

ويقول أستاذنا كمال النجمي: «يكاد ينعقد الإجماع الآن على أن ألحان الموجي، من أجمل ما غنى عبد الحليم»، انظر: الغناء العربي بين الموصلي وزرياب، وأم كلثوم وعبد الوهاب ص ٢٥٧.

وفي الصفحة نفسها: ذكر من مؤلفات «الشيخ عبد الحليم محمود» كتاب: «المنقذ من الضلال»، والصحيح أن هذا الكتاب لأبي حامد الغزالي، والشيخ عبد الحليم إنما حققه ونشره. ثم ذكر من تصانيف الشيخ «عبد السلام بن بشيش» هكذا بالباء الموحدة، والصواب: «مشيش» بالميم.

في ص ١٢٦ : ذكر من تأليف «الشيخ عبد الفتاح القاضي» القراءات الشاذة وروااتها»، والصواب: «القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب».

في ص ١٤٢ : ذكر من تحقيقات أستاذنا «علي النجدي ناصف» الجزء الثالث من «لسان العرب» لابن منظور، ولا أعرف له تحقيقاً كهذا، ولسان العرب لم يحقق أصلاً.

في ص ١٤٩ : ذكر في ترجمة «فتحى رضوان» أنه كان من الملازمين لندوات شيخنا محمود شاكر. وهذا غير صحيح، فقد كانت زيارته لشيخنا نادرة، وقد ذكر هو نفسه ذلك في مقالته التي كتبها عن الشيخ في كتاب «دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أديب العربية الكبير محمود محمد شاكر» ص ٤١٠، هذا ولم يذكر الباحث عن «فتحى رضوان» أنه كان أديباً بارزاً، واكتفى بلوحة حياته السياسية.

في ص ١٦٨ : ذكر في ترجمة الشيخ «محمد بهجة الأثري» أنه اعتقل بسبب اشتراكه في ثورة «رشيد كرامي» على الإنكليز، والصواب: «رشيد عالي الكيلاني».

في ص ١٧٩ : ذكر من شعر بدوي الجبل، يشمت بفرنسة في هزيمتها في الحرب العالمية الثانية:

الأم الحنون أكلت (خـ) قد أتاها من هتلر ما أتاها
وواضح أن (خـ) اختصاراً من كلمة «خراها»، وكأن الباحث استنكرها، وهي كلمة صحيحة فصيحة.

وجاءت الكلمة في الشعر بإسقاط الهمزة، قال الشاعر:

زماننا هذا خرا وأهله كـمـا تـرى
ومشيهم جميعهم إلى ورا إلى ورا

انظر: الغيث المسجم شرح لامية العجم، لصلاح الدين صفدي ٢/٢٢٢، والتخرج من ذكر مثل هذه الألفاظ ليس من البر باللغة، وليس ذكرها مخلاً بالآداب العامة (لا مؤاخذه)، على أن إغفال مثل هذه الألفاظ يذهب بشطر كبير من الأدب.

في ص ١٨٠ : ذكر في ترجمة «محمد شوقي أمين» أنه كان يكتب باباً شهرياً في مجلة الهلال بعنوان «أديب وفاكهة»، والذي أذكره أن عنوان ذلك الباب كان «سلطة أدبية».

ويضاف في ترجمته أنه شقيق الأديب الناقد: «محمود أمين العالم»، وبمناسبة ترجمة «محمد شوقي أمين»، فقد فات الباحث أن يترجم لأديب شهير كان من أصدقاء المترجم، وهو «عباس خضر»، وهو من كتاب «الرسالة»، وله تأليف في الأدب كثيرة، وهو من الذين تمسكوا بالطربوش إلى آخر حياته، ومن كتبه الأدباء في طفولتهم، وغرام الأدباء. ولد في ٢ نوفمبر ١٩٠٨، وتوفي ١١ مارس ١٩٨٧، كما أخبرني مؤرخ الأدب الأستاذ وديع فلسطين. وكانوا أصدقاء أربعة: عباس خضر،

ومحمد رفعت فتح الله، وطاهر أبو فاشا، ومحمد شوقي أمين. وقد ترجم الباحث لثلاثة منهم وترك عبّاساً.

في ص ١٨٧: يزداد في ترجمة «محمد المبارك» أنه شقيق العالم النحوي الدكتور «مازن المبارك».

في ص ١٨٨: يزداد في ترجمة «محمد عبد الهادي أبو ريذة» أنه كان من كبار الصوفية، وقد لقّيته بالكويت عام ١٩٩٠، وأخبرني أنه أخذ العهد على الشيخ «الحافظ التيجاني» في أول يناير ١٩٢٨م، ومعنى ذلك أنه كان في التاسعة عشرة من عمره.

في ص ١٩٥: ذكر اسم «الدكتور صبري الصربوني» بالصاد، والصحيح «السربوني» بالسين، نسبة إلى جامعة السربون؟ لأنه كان أول مصري يدرس بها.

في ص ٢٠٦: يضاف في ترجمة «محمود حسن إسماعيل» أنه كان من أخلص أصدقاء شيخنا «محمود محمد شاكر»، وقد سألت الشيخ مرة — وقد قرأ علينا شعراً له هو شجي النغم — لماذا لم تواصل الشعر يا مولانا؟

فقال: تركته لمحمود حسن إسماعيل، وهذان البيتان اللذان أثبتهما الباحث بخط محمود حسن إسماعيل إنما هما من شعره في مقدمة «القوس العذراء» لشيخنا.

في ص ٢١١: ذكر في ترجمة «نجيب البهيتي» أنه مغربي، والصحيح أنه مصري، وقصته طويلة، وفيها جانب مأساوي، وخلاصة أمره أنه أخرج من الجامعة المصرية، في أوائل ثورة يوليو، بقرار مما كان يسمّى يومئذ لجان التطهير، فخرج إلى المغرب، وهناك وجد أرحب دار وخير ناس، فدرس هناك بجامعة محمد الخامس، حتى وافته المنية بالرباط.

في ص ٢٢٩: يزداد في ترجمة «يوسف السباعي» أنه ابن الأديب «محمد السباعي»، وهو من كبار المترجمين عن الإنجليزية. ومن أشهر مترجماته «الأبطال» لكارليل، وقصة مدينتين لديكنز، ورباعيات الخيام، عن فيتز جيرالد، وهو مترجم في الأعلام.

ويزاد أيضاً: أنَّ يوسف السباعي كان عديلاً للنحوي الكبير عبّاس حسن
المتّرجم ص ١١٢ .

وبعد: فهذا عمل جيد. نهنيء صاحبه عليه، ونشد على يده. ونسأل الله له
التوفيق في استكماله، على أن يدقق في المعايير التي يترجم على أساسها للناس،
وأن يغالب هواه، ويلتزم الحيّدة والإنصاف، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، والسعيد من
وفّقه الله .

* * *

محمود محمد شاكر^(١)

ركن باذخ من أركان الثقافة العربية الإسلامية في العصر الحديث، وإمام ضخم من أئمة البعث والإحياء، ورأس مدرسة الأفذاذ في تحقيق التراث ونشره.

ولد محمود محمد شاكر بمدينة الإسكندرية يوم الاثنين العاشر من شهر الله المحرم سنة ١٣٢٧هـ، الموافق أول فبراير عام ١٩٠٩م.

ووالده الشيخ محمد شاكر بن أحمد بن عبد القادر. من أسرة أبي علياء من أشرف مدينة جرجا بصعيد مصر. والشيخ محمد شاكر من أعلام العصر، ومن زعماء الإصلاح في الأزهر الشريف، وكان وكيلاً له، توفي سنة ١٩٣٩م.

وجده لأمه الشيخ هارون بن عبد الرازق، أحد كبار علماء المذهب المالكي في مصر، توفي سنة ١٩١٨م، وهو جد المحقق الكبير عبد السلام محمد هارون المتوفى سنة ١٩٨٨م.

وأخوه الأكبر الشيخ أحمد محمد شاكر، محدث العصر ومُسْنِدُه. اشتغل بالقضاء، وكانت له أحكام مشهورة، ونشر جملة من نصوص التراث، من أعلاها «الرسالة» للإمام الشافعي، وأجزاء من «مسند أحمد بن حنبل»، ومن «سنن الترمذي»، و«المعرب» للجواليقي، و«لباب الآداب» لأسامة بن منقذ. توفي سنة ١٩٥٨م.

تلقى محمود محمد شاكر أول مراحل تعليمه في مدرسة الوالدة أم عباس في القاهرة سنة ١٩١٦م.

(١) مؤسسة الفرقان للتراث، ١٩٩٨م، لندن.

حصل على شهادة البكالوريا — الثانوية العامة — القسم العلمي، فقد كان أبوه يُعده ليكون طبيباً، من المدرسة الخديوية سنة ١٩٢٥ م.

في سنة ١٩٢٦ م التحق بكلية الآداب، الجامعة المصرية، واستمر بها إلى السنة الثانية، حيث نشب الخلاف المعروف بينه وبين الدكتور طه حسين حول (قضية الشعر الجاهلي)، وقد أفضى هذا الخلاف إلى أن يترك الدراسات الجامعية كلها.

وفي سنة ١٣٤٧ هـ = ١٩٢٨ م سافر إلى الحجاز مهاجراً، وهناك أنشأ بناءً على طلب من الملك عبد العزيز آل سعود، مدرسة جدة السعودية الابتدائية وعمل مديراً لها، ولكنه ما لبث أن عاد إلى القاهرة في أواسط عام ١٩٢٩ م، ومنذ ذلك التاريخ وهو ملازم بيته وكتبه، لم يَلِ عملاً وظيفياً يأكل وقته، ولم يتقلد منصباً يريد له أن ينمو ويُنسب إليه الوجاهة عند الناس.

وقد أخذ نفسه منذ طراءة الصبا وأوائل الشباب بأسلوب صارم حازم، فقرأ القرآن صبيّاً، وقرأ «لسان العرب» كله وهو طالب بالتعليم الثانوي، ثم أقبل على قراءة الشعر مبكراً، ويحفظه لا كما يحفظه الناس؛ مقطوعات للإشاد والتسلي والمطارحة في المجالس، وإنما الشعر عنده باب العربية كلها، وقد قاده الشعر إلى كتب العربية كلها، والمكتبة العربية عند أبي فهر كتاب واحد، والعلوم العربية عنده علم واحد، فهو يقرأ «صحيح البخاري» كما يقرأ «أغاني أبي الفرج»، ويقرأ: «كتاب سيبويه»، كما يقرأ: «المواقف» لعضد الدين الإيجي.

وهكذا خالط أبو فهر العربية منذ أيامه الأولى، وعرف مناهج الكتب، وطرائق الكتاب، في مختلف فنون العربية، وخبر مصطلحات الأقدمين وأعرافهم اللغوية، وهذا فَرَق ما بينه وبين سواه من الكتاب والنقاد، فأنت قد تجد ناقداً ذا ذوق وبصيرة، ولكن محصوله اللغوي على قدر الحاجة، وقد تصادفه يجمع بين الذوق والبصيرة واللغة، ولكن معارفه التاريخية لا تتجاوز الشائع العام الدائر على الألسنة، وقد تراه فاز من الثلاثة بأوفر الحظ والنصيب، ولكنك لن تجد عنده ما تجد عند أبي فهر من

الأنس بالمكتبة العربية كلها في فنونها جميعها، ودوران هذه الفنون في فكره وقلبه دوران الدم في العروق.

ولقد سارت حياة محمود محمد شاعر في طريقين، استويا عنده استواء واضحاً عدلاً: الطريق الأول: طريق العلم والمعرفة، يعب منهما ولا يروى. والطريق الثاني: التنبه الشديد لما يُحاك لأمتنا العربية من كيد ومكر، وما يُراد لثقافتها وعلومها من غياب واضمحلال، وظلّ حياته كلها قائماً على حراسة العربية، والذود عنها، يحب من أجلها، ويخاصم من أجلها، وقد احتمل في حالتيه من العناء والمكابدة ما تنوء بحمله العُصبة أولو القوة.

وقد حارب أبو فهر في جهات كثيرة، وخاض معارك كثيرة: حارب الدعوة إلى العامية، وحارب الدعوة إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية، وحارب الدعوة إلى هَلْهَلَة اللغة العربية والعبث بها بحجة التطور اللغوي، وحارب الخرافات والبدع والشعوذة، وقد حارب في كل ذلك وحده غير مُتَحَيِّرٍ إلى فئة، أو منتصر بجماعة، وهو في معاركه كلها صلبٌ عنيدٌ فاتك، ألقى الدنيا خلف ظهره، ودَبَرَ أذنيه، فلم يعبأ بإقبالها أو إدبارها، واستوى عنده سوادها وبياضها، ولقد أقصي كثيراً عن محافل الأدب ومجالي الشهرة، فلم يزد ذلك إلا إصراراً وثباتاً، ووقف وحده في ساحة الصدق شامخ الرأس مرفوع الهامة، يرقب الزيف ويرصده ويدل عليه، ولم يجد خصومه في آخر الشوط إلا أن ينقروا الشباب عنه ويُبَغِّضوه إليهم، بما أشاعوه عن حدته وبأسه وتعاليه، فنكص من نكص مسيئاً في نكوصه، وثبت من ثبت محسناً في ثباته.

ومع كل هذا الحصار الذي ضرب حول محمود محمد شاعر فقد خلص إليه طلبة العلم ومحبو المعرفة، ينهلون من هذا المنهل العذب، فكان بيته جامعة عربية ضخمة: طوائف من الناس من مختلف البلدان والأعمار والانتماءات، وسعهم ذلك البيت المفتوح دائماً، ولم يفتح لهم يوماً دون يوم، أو ساعة دون ساعة.

وقد دار إنتاج أبي فهر في ميدانين: التأليف والتحقيق، وهو في كلا الميدانين

مشغول بقضية أمته العربية، وما يراد لها من كيد، في عقيدتها ولغتها وشعرها وتراثها كله. وقد أبان عن هذه القضية بياناً شافياً في كتابيه «أباطيل وأسمار»، و «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»، ثم نشرها فيما دق وجل من كتاباته، وما برح يعتادها في مجالسه ومحاوراته، يهمس بها حيناً، ويصرخ بها أحياناً، لا تفرحه موافقة الموافق، ولا تحزنه مخالفة المخالف، ولقد قام أمره كله على المكاشفة والمصارحة، فيما بينه وبين نفسه، وفيما بينه وبين الناس، ومنذ أن ظهرت أمامه غواشي الفتن التي أهدت بأمته العربية، فتح عينيه وأرهف سمعه، ثم شد مثزره وأيقظ حواسه كلها، وشحذ قلمه، يرصد ويحلل ويستنتج، ثم قال في كتابه الماتع أباطيل وأسمار: «فصار حقاً عليّ واجباً ألاّ أتلعجل أو أحجم أو أجمعم أو أداري».

ومن أبرز النصوص التراثية العالية التي نشرها أبو فهر: طبقات فحول الشعراء لابن سلام، وتفسير أبي جعفر الطبري (١٦) جزءاً، إلى أثناء تفسير سورة إبراهيم عليه السلام، وتهذيب الآثار لأبي جعفر الطبري (٦) أجزاء، ودلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، كلاهما للشيخ عبد القاهر الجرجاني.

ومما يُستطرف ذكره هنا أن أول كتاب تراثي وضع فيه أبو فهر يده بالتصحيح هو كتاب: «أدب الكاتب» لابن قتيبة، الذي أخرجه الشيخ محب الدين الخطيب عام ١٣٤٦هـ = ١٩٢٧م، أي منذ (٧٠) عاماً، وكان عمره إذ ذاك (١٨) عاماً، وقد شاركه تصحيح صفحات من الكتاب ابن خاله الأستاذ عبد السلام هارون رحمه الله.

وفي كل تلك الأصول التراثية التي أخرجها أبو فهر يظهر علمه الغزير الواسع الذي لا يدانيه فيه أحد من أهل زماننا؛ لأنه علم موصول بعلم الأوائل، منتزع منه ودال عليه ومكمل له. وكان عمله في نشر هذه النصوص التراثية جزءاً من جهاده في حراسة العربية والذود عنها، سواء فيما نشره هو، أم فيما حث الناس على نشره وأعانهم عليه.

وللأستاذ محمود محمد شاكر من الذرية اثنان: فهر المولود سنة ١٩٦٥م. وهو الآن دكتور مدرس بقسم اللغة العربية بكلية الآداب — جامعة القاهرة، وزُلفى

المولودة سنة ١٩٦٩م، وهي متخرجة من كلية التجارة — جامعة عين شمس، وتعمل
بمكتب كبير من مكاتب المحاسبة في القاهرة.

ومما يحز في النفس، ويكدر خاطر، هذا المرض الذي ألمّ بالأستاذ، وأقعده
وألزمه المستشفى الذي دخله ليلة عيد الفطر من العام المنصرم ١٤١٧هـ = فبراير
١٩٩٧م، ولا يزال هناك إلى هذا اليوم صفر ١٤١٨هـ = ١٩٩٧م، كشف الله عنه ما
به، وردّ عليه عافيته، إنه على ما يشاء قدير.



محمود محمد شاكر.. والسّهام الطائشة^(١)

ما تردّدت في اختيار عنوان لمقالة ما تردّدت في عنوان هذه المقالة، فأنا حريص دائماً أن يكون عنوان ما أكتب صريحاً في الدلالة على ما أريد، كاشفاً لما هو مطوي تحت لساني وما يدور في فكري. والذي أكتب فيه اليوم مما زلزل نفسي وملأني غضباً وغيظاً، فكان حقاً أن يكون عنوان المقالة دالاً على هذه الحالة النفسية الغاضبة وممهداً لها.

وقد ترددت بين عدة عنوانات، منها: محمود شاكر والسيوف الكهام – وهي السيوف الكليلة التي لا تقطع ولا تؤثر – ليس هذا بعُشْكٍ فاذرُجي – إن بني عمك فيهم رِماح – كناطق صخرة يوماً ليوهنها، ونحو ذلك من العنوانات التي يحمل عليها الغضب. والغضب – ونعوذ بالله منه – نار تأجج في الصدر، وإذا استبد بالمرء أعمى بصره وأكل قلبه وفرّى كبده وأطلق لسانه، وقديماً ما تعوّد الناس منه.

أما الذي أغضبني أيها القارئ الكريم فهو ما جاء في العدد الثاني من مجلة الجيل – ٨ نوفمبر ١٩٩٨م – من هجوم كاسح أكّول على شيخ العربية وحارسها أبي فهر محمود محمد شاكر، برّد الله مضجعه، والذي تولى كِبَر هذا الهجوم هو الأستاذ حسين أحمد أمين.

والأستاذ حسين هو ابن العلامة أحمد أمين، الذي يُعدّ من أعلام النهضة الحديثة في الفكر العربي الإسلامي، وكانت مؤلفاته عن فجر الإسلام وضحاها وظهره

(١) مجلة «الجيل»، ١٩٩٨م.

منارات وصوّى على طريق العلم والمعرفة، ورصداً عظيماً لمسيرتنا الفكرية، ثم كانت لجنة التأليف والترجمة والنشر التي أنشأها سنة ١٩١٤ م مع مجموعة من الشباب النابهين في ذلك الوقت: أمين مرسي قنديل، وعبد الحميد العبادي، ومحمد صبري أبو علم باشا، ومحمد عوض محمد، ومحمد بدران - كانت هذه اللجنة منارة علم ضخمة. فكان من حقه علينا أن نوّقر تاريخه ونرعاه في احترام أولاده وأحفاده، وأيضاً فإن الأستاذ حسين من كتاب الهلال، فبهذه المنزلة يكون عتابنا وحديثنا للأستاذ حسين أحمد أمين. ونسأل الله العصمة من الخطأ والزلل.

والهجوم على محمود محمد شاكر بدأ غداة وفاته، وكان أول من نقّب هذا الثّقْب السيدة صافيناز كاظم، في كلمة لها بجريدة الدستور ١٩٩٧/٨/٢٠م، أي بعد وفاة الشيخ بثلاثة عشر يوماً، وهي كلمة تقطر غضباً، وتوشك أن تكون شماتة بالموت الذي هو غاية كل حي، وما أصدق الفرزدق:

وما نحن إلا مثلهم غير أننا أقمنا قليلاً بعدهم وتقصدّموا

وكنت حقيقاً أن أردّ على الأستاذة صافيناز لولا أنني رأيت ثورتها ترجع إلى مقابلة جافة من الشيخ لها، في يوم من أيام سنة ١٩٨٢، وبعض الكتاب الذين تتردد أسماؤهم كثيراً في الصحف ووسائل الإعلام يرون لأنفسهم حقاً على الناس، كل الناس أن يهشوا لهم وأن يستقبلوهم بكل ما وسعهم من أسباب الترحيب والبشاشة، وما أريد أن أستطرد في مناقشة الأستاذة صافيناز؛ لأنني أرى في كتاباتها في السنوات الأخيرة وجوهاً من الخير ينبغي أن نستبقها وأن نستزيد منها (إحنا ما صدقنا!)، لكنني أحب أن أنشدها قول أبي العلاء:

لا تظلموا الموتى وإن طال المدى إنني أخاف عليكم أن تلتقوا

ثم قول أبي العتاهية:

إلى الديان يوم العرض نمضي وعند الله تجتمع الخصوم

ونترك السيدة صافيناز لنأتي إلى صديقنا الأستاذ نسيم مجلى، فقد كتب بعد

وفاة الشيخ كتاباً نشره بالأهالي، سَمَّاه: صدام الأصالة والمعاصرة — محمود شاكر ولويس عوض. وكان قد كتب كتاباً كبيراً في القضية نفسها، سَمَّاه: لويس عوض ومعاركه الأدبية، وأهداه إلى الشيخ محمود في حياته، وكتب بخطه: «إلى الصديق الكبير الذي أحببته كثيراً، واختلفت معه كثيراً، وتعلمت منه الكثير، إلى الأستاذ محمود شاكر بطل هذه المعارك ومفجرها مع أجمل أمنياتي. نسيم مجلى ١٩٩٥/١/٦م».

فلَمَّا غاب وجه محمود شاكر بالموت، رَتَعَ نسيم مجلى في لحمه، وإذا الذي كان همساً صار صراخاً، والذي كان تلميحاً أضحى تصريحاً، وإذا الذي كان كلاماً في الحواشي بالبنط الصغير، قفز إلى المتن بالبنط الكبير، فكان هذا الكتاب الذي صدر عن الأهالي، وسأعود إليه في آخر المقالة.

لكنني أعجب كل العجب من الأستاذ نسيم مجلى، فقد كنت أشهد استقبال الشيخ محمود له وحفاوته به وتوديعه له على باب المصعد، وقوله له: ابقى تعال يا نسيم، وهي كلمة حانية من الشيخ، لا يقولها إلا لمن يحبه ويودُّه، ويا ليت كان قد قالها للأستاذة صافيناز (وكنا خُلصنا).

فها أنذا يا أستاذ نسيم أنشدك قول أبي العلاء:

فيسمع مني سجعَ الحمامِ وأسمع منه زئيرَ الأسدِ

ثم أترك الأستاذ نسيم لأصل إلى الأستاذ سمير غريب في كتابه الذي صدر أخيراً عن دار الشروق بعنوان (في تاريخ الفنون الجميلة)، وفي ص ٧٩ منه ينقد مقالاً للأستاذ محمود شاكر، نشره في مجلة الرسالة بتاريخ ١٢ فبراير ١٩٤٠م، وكان محمود شاكر يرد على الدكتور طه حسين كلمة له عن «الفن الفرعوني»، والأستاذ سمير غريب لم يشهد تلك الأيام، فكان هذه المقالة الشاكرية التي قضى عليها (٥٨) عاماً قد دُسَّت إليه دساً للهجوم على الرجل (لاحظ أن ما ذكره سمير غريب في كتابه ص ٨١، عن رأي محمود شاكر في الفن الفرعوني، هو نفس ما ذكره نسيم مجلى في

ص ٥١ من كتابه . فنقول إذن ما قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن امرأة قالت كلاماً لا يظن أن يكون منها : «أما والله ما قالته ولكن قُولْتَهُ» .

ثم إن الأستاذ سمير غريب لا يعرف فكر محمود شاكر وتوجهاته ورأيه في الحضارات السابقة على الإسلام، بل هو لا يعرف لغته، والدليل على ذلك أنه وقف عند كلمة له واعتبرها غامضة، وهي قول الشيخ : «من أعظم الآثار الفنية التي يعدها الجيل الأوروبي»، يقول الأستاذ سمير : «وتعبير الجيل الأوروبي هذا غامض»، وأقول : ليس غامضاً، فالجيل في كلام العرب : هو الصنف من الناس، وقيل : الأمة، وقيل : كل قوم يختصون بلغة : جيل . فبأي هذه المعاني أخذت يكون تأويل كلام الشيخ !

وما أريد أيضاً أن أستطرد في مناقشة الأستاذ سمير غريب، لكنني ما كنت أحب له أن يتورط في تلك الظاهرة التي شاعت في زماننا الرديء، وهي ظاهرة التحرش بالناس وإغراء السفهاء بهم، وذلك قوله : «وخطورة كلام محمود محمد شاكر هنا أنه يمكن أن يستند إليها المتطرفون دينياً بغير تأمل ولا تفكير سليمين، وقد نادى به بالفعل جماعات الإرهاب باسم الدين في مصر بعد نشر كلام شاكر بحوالي خمسين عاماً» .

والذي لا تعرفه يا أستاذ سمير أن محمود شاكر كان من أكثر الناس بغضاً لهذه الجماعات التي أشرت إليها، بل إن مواقفه ضد الإخوان المسلمين وكل الجماعات الإسلامية، مواقف معروفة غاضبة ومستنكرة، وكان يجهر بمواقفه هذه ولا يكتمها، وكذلك كان أخوه الأكبر محدث العصر الشيخ أحمد شاكر، ومقالته عقب اغتيال محمود فهمي النقراشي مشهورة، وكان قد سمّاها : «قَيْدُ الإيمان الفتك»، ونشرها على الناس، بجريدة الأساس، فاقرأوا التاريخ يا ناس ! (وانظروا آخر كلمة لي في هذا المقال، ففيها رفع لهذا الالتباس) .

ثم أطوي الكلام لأفرغ إلى ما قاله الأستاذ حسين أحمد أمين، وقبل ذلك أحب أن أسأل : ما هذا يا قوم؟ أتهاجمون الرجل بعد أن غيَّبَ القبر؟ لماذا لم تردُّوا على

الشيخ كلامه في حياته؟ ما أظن إلا أنكم خفتُم أن يأخذ بأكظامكم، ويأتيكم من فوقكم ومن أسفل منكم، فتزيغ أبصاركم كالذي يغشى عليه من الموت، ثم يترككم فإذا أنتم ضحكة الضاحك وهُزء المستهزء، فنُشدكم قول طرفة بن العبد:

يَا لَكَ مِنْ قُبْرَةٍ بِمَعْمَرٍ
خَلَا لَكَ الْجَوْ فَيُضِي وَاصْفِرِي
وَنَقَّرِي مَا شُتِ أَنْ تُنْقَرِي
قَدْ رَحَلَ الصَّيَادُ عَنْكَ فَابْشِرِي
وَرُفِعَ الْفَخْ فَمَاذَا تَحْذِرِي؟

ثم ننشدكم أيضاً قول المهلهل بن ربيعة يرثي أخاه كليلاً الذي كان يضرب به المثل في العزة المتناهية، وكان من خبره أنه إذا حضر مجلسه الناس لا يجسر أحد أن يفخر أو يجاذب، إعظاماً لقدره وإجلالاً لشأنه، فلما مات قال المهلهل:

نُبِّئْتُ أَنَّ النَّارَ بَعْدَكَ أَوْقَدَتْ وَاسْتَبَّ بَعْدَكَ يَا كَلِيبُ الْمَجْلِسُ
وَتَكَلَّمُوا فِي أَمْرٍ كُلِّ عَظِيمَةٍ لَوْ كُنْتُ حَاضِرَ أَمْرِهِمْ لَمْ يَنْبَسُوا

ومن وراء ذلك كله: فليس من النبالة والإنصاف أن تهاجم من لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ويردَّ عليك قولك، وقد أمرنا ديننا في مثل هذه المواطن بالمكاشفة والمواجهة، يقول ربنا عزَّ وجلَّ يخاطب نبيه المصطفى ﷺ: ﴿وَإِنَّمَا تَخَافُكَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَإِنِذْ لَإِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، قال أبو جعفر الطبري: فناجزهم بالحرب، وأعلمهم قبل حربك إياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم بما كان منهم من ظهور أمار الغدر والخيانة منهم، حتى تصير أنت وهم على سواء في العلم بأنك لهم محارب، فيأخذوا للحرب ألتها، وتبرأ من الغدر.

وجاء في حديث سلمان الفارسي الذي أخرجه الترمذي وأحمد: «وإن أبيتم نابذناكم على سواء»، قال ابن الأثير: أي كاشفناكم وقتلناكم على طريق مستقيم مستوٍ في العلم والمناظرة، منا ومنكم.

وهذا أوان الفحص عن أمر الأستاذ حسين أحمد أمين، وما كتبه في حق شيخ العربية محمود شاكر.

وبدئة ذي بدء، فإني أقول للأستاذ حسين: لقد بنيت مقالتك هذه على إثر مقابلة مع الشيخ محمود لم تقع منك موقع الرضا، وكانت هذه المقابلة يوم ١٢ ديسمبر ١٩٨٣م، وإني لأعجب لك ومنك يا رجل: هذه خمسة عشر عاماً مُجَرَّمة - بتشديد الراء، أي تامة - منذ تلك الليلة التي أشعلتك ناراً، وأنت لا زلت طاوياً صدرك على هذه الحسيكة، فأئي صبرٍ على الكريهة هذا؟ وأي حِمْلٍ ثَقِيلٍ حملته وظللت تدور به حالاً ومرتحلاً طوال هذه السنوات الطُّوال التي يمحو الله فيها ما يشاء ويثبت.

ويحضرني الآن شاهد من الشعر وصورة من التشبيه، ولكني أمسك عنهما؛ صوناً لنفسي من الزلل، واستمسكاً بأصول أخلاقية ألزمت بها نفسي منذ أن عرفت طريقي للكتابة والمذاكرة والمحاضرة. وأنا أنشد لنفسي دائماً قول ابن فرج الجياني الأندلسي:

فمَلَكْتُ الثُّهَى جَمَحَاتٍ أَمْرِي لأَجْرِي فِي الْعَفَافِ عَلَى طِبَاعِي
يقول: جعلت عقلي حاكماً على نفسي، كابحاً لجماح الهوى والخطأ، لكي أستمِر على ما طُبعت عليه من العفة والشرف.

ثم إنني علمت أنك كنت أعددت هذه المقالة في حينها، ودفعت بها إلى مجلة الهلال، ولكن الأستاذ مصطفى نبيل رفض نشرها، مع أن مصطفى نبيل من رؤساء التحرير الذين ينظرون إلى المكتوب لا إلى الكاتب، وهو أيضاً يفتح كل النوافذ، ولا يتعصب لاتجاه لحساب اتجاه، فما أعرض عن مقالتك إلا لما وجد فيها من انحراف وضلال، كما قالت العرب في كلامها الحكيم: «لو كان خيراً ما تركوه». وكأني بك يا أستاذ حسين تنشد مصطفى نبيل قول أبي الأسود الدؤلي يعاتب الحصين بن الحر العبيري، وكان أبو الأسود قد أرسل له كتاباً يستجديه فأهمله، فقال أبو الأسود:

نَظَرْتُ إِلَى عُنوانه فَنَبَذْتُهُ كَتَبْتُكَ نَعْلًا أَخْلَقْتُ مِنْ نَعَالِكَا
[أخلفت: أي بليت وتقادم عليها عهد].

وأول ما أبدأ به الكلام أن أقول: إن ما حدث للأستاذ حسين، ومن قبله للسيدة صافيناز، من جفاف مقابلة الشيخ محمود شاعر، إنما هو ما أسمّيه: صدمة اللقاء الأول. فمحمود شاعر يحب أن يعجم عود من يزوره أول مرة، وهل يصبر على تكاليف العلم، وأعباء التلقي والسماع، أم هو إنسان جاء (يتفرج على هذه القعدة) ويرى بعض الشخصيات، ثم يخرج إلى الناس ويقول: إني حضرت ندوة محمود شاعر، كهؤلاء الذين يقولون: إننا من تلاميذ العقاد، لأننا كنا نحرص على حضور ندوته، ويعلم الله أنه ما كان يلقي إلى كثير منهم بالآ.

ومحمود شاعر ليس عنده وقت يضيعه في المجاملة والمصانعة. وهذا شيء عرفناه منه، يهاجم في اللقاء الأول هجوماً شرساً، فإذا رأى الذي أمامه حريصاً على العلم راغباً فيه أقبل عليه واستمسك به وشدَّ عليه يد الضنّانة. وفي محنة هذا اللقاء الأول ثبت من ثبت محسناً في ثباته، ونكص من نكص مسيئاً في نكوصه. ولو أنهم صبروا حتى يطمنن إليهم لكان خيراً لهم.

على أنه مما يزيد في محنة اللقاء الأول أن يكون لهذا الزائر الوافد الجديد صورة سابقة عند الشيخ محمود، كأن يكون منتمياً إلى اتجاه معين، أو يكون قد كتب شيئاً لم يعجب الشيخ.

وسأخذ في مناقشتك الآن يا أستاذ حسين، وسأترك الحديث عن الشتائم التي وجهتها للشيخ، إلى آخر المقالة، حتى تكون آخر ما يذكره القارئ من أمرك.

أولاً: قلت إن مفتاح شخصية محمود شاعر يكمن في إحساسه العميق بالفشل، وفي شعوره بأن حياته قد ضاعت سدى.

أي فشل يا أستاذ وأي ضياع؟ إن الذي يعرف محمود شاعر عن قرب لا يحس شيئاً من ذلك. وقد عرفت هذا الرجل معرفة وثيقة خلال ثلاثين عاماً، وخبرت سواده وبياضه، وكاشفني بذات نفسه ودخيلة أمره وتقلبه في العالمين، وقد رأيت إنساناً سوياً واضحاً مكشوفاً، لا يداري ولا يماري، يصرّح ولا يكتني، ينطق ولا يجمجم،

باطنه وظاهره سواء، وهو سعيد منشرح مقبل على الحياة، يستمتع بطيباتها إذا أقبلت، ولا يحفل بها إذا أدبرت، وينعم بما أفاء الله عليه من مكتبة ضخمة عامرة، لم تيسر لأحد من علماء عصرنا، قرأها كلها قراءة كتاب واحد، بذلك العقل الذكي الذي يجمع كل شاذة وفادّة، ثم هو سعيد أيضاً بالقلوب التي تجمعت حوله، طوائف من مختلف البلدان والأعمار والانتماءات، وسعهم هذا البيت الكبير، الذي لم يعرف الرسميات فلم يفتح لهم ساعة دون ساعة.

وقد وصفت كثيراً مجلس محمود شاعر وما ضمّ من فئات الناس، ونقلت وصف الأديب الكبير فتحي رضوان له، وهو قوله: «كان بيته ندوة متصلة لا تنفص، من أعضائها الثابتين: يحيى حقي إذا حضر من أوروبا، وعبد الرحمن بدوي، وحسين ذو الفقار صبري، وغيرهم وغيرهم، ولم يكن من حظي أن أكون عضواً دائماً فيها، فقد كنت ألتزم بهم أحياناً، فأراهم وأرى من العالم العربي كله، ومن العالم الإسلامي على تراميه، شخصيات لا حصر لها، تتباين بعضها عن بعض، في الزي والمظهر والثقافة واللهجة، والشواغل والمطامح، ولكنها تلتقي كلها عند محمود شاعر، تسمع له، وتأخذ عنه، وتقرأ عليه، وتتأثر به، وكلما كان من حظي أن أشهد جانباً من هذه الندوة أحسست بسعادة غامرة، أن يبقى ركن في بلدي كهذا الركن، ينقطع أصحابه للفكر والدرس والتحدث في أمور لا تجد من يسمع بها أو يعرف عنها شيئاً في مكان آخر»، انتهى كلام الأستاذ فتحي رضوان.

ومن الحقائق التي لا تُدفع أنه لم يحظ أحد من الأدباء المعاصرين الكبار، الذين تقام لهم الموالد ما بين الحين والحين، بمعشار ما حظي به محمود شاعر من التلاميذ والمريدين الذين صار كثير منهم رؤوساً ورؤساء ببلادهم ومواقعهم.

أما هذه الحدة التي في طبع الشيخ — ونحن نعترف بها — فليست نتيجة الإحساس بالفشل، أو ضياع الحياة سدى. هذه الحدة يا سيدي جاءت نتيجة لإدراك الرجل لمأساة هذه الأمة العربية التي ورثت مجدداً شامخاً أضاعه الورثة من أبنائها. وقد تنبه الرجل منذ طراءة الصبا وأوائل الشباب إلى محنة أمته العربية، في قطع

صلتها بموروثها العظيم، ثم وقوعها في حبال العدو، ينهش في عظمها ويحكم الغلّ في أيديها، فسارت حياته في طريقين استويا عنده استواء واضحاً:

الأول: العلم والمعرفة يعبّ منهما عباً، ويغري الناس بهما إغراءً.

والطريق الثاني: التنبه الشديد لما يحاك لأمتنا العربية من كيد ومكر، وقد حارب في سبيل كشف ذلك وتعريته في جبهات كثيرة، مما فصلته في غير موضع من كتاباتي.

وقد أورثه شعوره بذلك الهم الكبير حدة في الطبع، وشراسة في الخطاب. والحدة: إذا كان هذا هو مبعثها ومحركها لم تكن مذمومة، فقد جاء في الحديث: «الحدة تعتري خيار أمتي»، قال ابن الأثير: «الحدة كالنشاط والسرعة في الأمور والمضاء فيها، مأخوذ من حد السيف، والمراد بالحدة هاهنا: المضاء في الدين والصلابة والقصد في الخير، ومنه الحديث: «خيار أمتي أحداؤها»، وهو جمع حديد، كشدّيد وأشداء».

وقد تحدثت يا أستاذ حسين عن قلة إنتاج الرجل، مع هذه الشهرة العريضة والقراءة والثقافة التي لم يُحصّل طه حسين جزءاً من المائة منها، وقد صدقت في هذا، لكنك لم تصدق في ذلك السياق كله، فقد ذكرت أنه مع شهرته لم يترك غير كتاب عادي عن المتنبي، وديوان شعر هزيل ضحل، ثم تحقيق لبعض كتب التراث. وهذا كله باطل:

فكتابه عن المتنبي ليس كتاباً عادياً، فقد عرض فيه لقضايا ثلاث، لم يكشف القول فيها غيره، ولم يحسم الحكم فيها سواه: نسب المتنبي — حبه لخولة أخت سيف الدولة — ترتيب القسم الثاني من شعر المتنبي على السنين. وقولك: «ديوان شعر هزيل ضحل» ليس لمحمود شاعر ديوان شعر مجموع، وإن كان له شعر معروف، أذاعه من قديم وطرب له الناس. ولعلك تقصد «القوس العذراء»، وهي قصيدة طويلة مستوحاة من قصيدة للشماخ، وهذه «القوس العذراء» من عيون الشعر

العربي، وقد هزت الدنيا وشغلت الأدباء، وكتب عنها كبار الأدباء: إحسان عباس،
ومحمد مصطفى هدار، ومحمد أبو موسى. ثم كتب عنها المفكر والأديب الكبير
زكي نجيب محمود، ولا شك أنك تعرفه حق المعرفة، لأن له مع والدك تاريخاً قد
يسوؤك بعضه!

وكلمة زكي نجيب محمود عن «القوس العذراء» كلمة عالية جداً، وقد أذاعها
في مجلة الكتاب العربي (أغسطس ١٩٦٥م)، قال في أولها: «درة ساطعة هذه بين
الدرر، وآية هذه من الفن محكمة من آيات الفن المحكمات».

وقال في آخرها: «وإني لأستأذن أدينا شاعر في أن أهدي آيته هذه إلى شعراء
اليوم ليروا بأذانهم وليسمعوا بعيونهم؛ إذا كانت للأذان رؤية، وإذا كان للعيون
سمع، كيف يكون الفن الشعري صياغة وارتفاعاً في دنيا القيم من حضيض إلى
أوج».

ثم إن قولك: «تحقيق بعض كتب التراث» يدل على عدم معرفتك، أتسمي
تحقيق ستة عشر جزءاً من تفسير الطبري، وستة أجزاء من «تهذيب الآثار» له،
وطبقات فحول الشعراء لابن سلام، ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وكلاهما
لعبد القاهر الجرجاني، والمكافأة وحسن العقبي لابن الداية الكاتب، وفضل العطاء
على العُسر لأبي هلال العسكري، وإمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال
والحفدة والمتاع، للمقريزي، وكتاب الوحشيات لأبي تمام، وجمهرة نسب قريش،
وأخبارها للزبير بن بكار. أتسمي ذلك كله بعض كتب التراث؟

وإن في بعض حواشيه على هذه الكتب ما يعدّ علامات ضخمة في طريق الفكر
العربي والإسلامي. ولو كنت مُهيئاً لإدراك مرامي هذه التعليقات لدلتك عليها. ثم
انظر القائمة الببليوجرافية التي أصدرها المجلس الأعلى للثقافة ودار الكتب المصرية
بذكرى الأربعين لوفاته وسترى فيها رصدًا جيداً لإنتاج محمود شاعر منذ سنة ١٩٢٦م
إلى سنة ١٩٩٧م، وهي السنة التي توفي فيها.

وإذا كنت ترى أن هذا الإنتاج كله قليل بالنسبة لرجل في مثل قامه محمود شاعر: فإن أثر العالم لا يقاس بكثرة إنتاجه، ففي تاريخنا التراثي أعلام احتلوا مكانة عالية بكتاب واحد أو كتابين ليس غير، فسيبويه إمام النحاة ليس له إلا «الكتاب»، وليس لابن سلام إلا «طبقات فحول الشعراء»، والقَرشي ليس له إلا «جمهرة أشعار العرب»، وابن عبد ربه ليس له إلا «العقد الفريد»، وابن خلكان ليس له إلا «الوفيات»، وليس لأبي الفرج الأصبهاني إلا «الأغاني» و«مقاتل الطالبين».

وفي عصرنا الحديث لم يترك الأستاذ أمين الخولي من الكتب ما يجاوز أصابع اليد الواحدة، ومع ذلك فإن تلاميذه يرونه رأساً في المنهج، وأنه فتح لهم أبواباً من النظر والتأمل لم يفتحها غيره.

ويتبع وصف محمود شاعر بالحِدة وصفه بالتهالي والاعتداد بالنفس وحب الشناء. وهذه القضية ينبغي أن تعالج في هذا الإطار:

العلماء الكبار حين يرون أن الله قد وهبهم ما لم يهبه لغيرهم، يرتفعون بأنفسهم عما حولهم، وفي بعض اللحظات يرون أن من عداهم لا وزن لهم. رُوي أن إبراهيم بن المهدي، وهو أخو هارون الرشيد، وكان حاذقاً بالغناء، اختلف هو وإسحاق الموصلي - وكان أيضاً من أساطين الغناء والموسيقى - اختلفا في صوت، فقال إبراهيم لإسحاق: «إلى من نتحاكم والناس من عدانا بهائم؟»، وقال الأصمعي: سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول - ولم يقله إن شاء الله بغياً ولا تطاولاً - : «ما رأيت أحداً قط أعلم مني».

على أن حب الشناء مركز في الطباع، ثابت في أصل الخِلة. قال أبو حيان التوحيدي: «ومن لم يرغب في الشناء فقد رغب عن ملة إبراهيم؛ لأن الله تعالى أخبر أنه سأله ذلك فقال: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، ولسان الصدق: هو الشناء الحسن.

وإذا بلغ الكبار هذا المبلغ من سعة العلم وغزارة المعرفة كان حقيقاً على الناس أن يُوسِعوا لهم في المعذرة، وأن يتغمدوا أخطاءهم. ذكر الحافظ الذهبي في ترجمة التابعي الجليل «قتادة بن دِعامَة السَّدُوسي» أنه كان يرى القول بالقدر، وهي مقالة منكورة عند أهل السنة والجماعة، ثم عَقَّبَ الذهبي على ذلك، فقال في كتاب سير أعلام النبلاء ٢٧١/٥: «ثم إن الكبير من أهل العلم إذا كثر صوابه، وعُلِمَ تحرُّيه للحق، واتَّسع علمه، وظهر ذكاؤه، وعُرف صلاحُه وورعُه واتباعُه، يُغْفَر له زَلَلُه، ولا نُضَلُّه ونظره ونسَى محاسنه». وهذا كلام عال نفيس في تأصيل موضوعية النقد ورحابة الصدر العلمي، والإنصاف في تغليب الإيجابي على السلبي في الحكم على الرجال، على حد قول زفر بن الحارث:

أيذهب يومٌ واحدٌ إن أسأته بصالح أيامي وحُسنِ بلائيا
وقول المتنبي:

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللائي سَرَزْنَ أُلُوفُ
وقول الآخر:

وإذا الحبيب أتى بذنبٍ واحدٍ جاءت محاسنُه بألف شفيع
وهكذا ينبغي أن يُنظر إلى محمود شاعر، أنه من هذا الطراز؛ رجل حصَّل من العلم ما لم يحصله غيره، وجمع من الكتب ما لم يجمعه سواه، وقرأ قراءة ما أطاقها أحد من جيله، ثم إنه راعه ما رأى فيه الأمة من جهل وتأخر، وفزع من قضية انتحال الشعر الجاهلي، واهتاج لما رآه من محاولة اغتيال تاريخ الأمة العربية، في علومها ومعارفها كلها، وطَمَس معالم حضارتها، ولم تكن المسألة عند الرجل من باب التوهم والظنون، والتماس المعابة عند الآخرين، فقد قامت دلائلها عنده واضحة جلية، ثم أثبتت الأيام صدقها فيما بعد.

وحين ظهرت أمامه صدع بالحق وكشف العلة، وحطَّم الأغلال، ولم يبال بمن يقع عليه مِغُوله، قديماً كان أو حديثاً، من أبناء دينه أو من غيرهم، وكثير من الناس

الذين يأخذون الأمور من أيسر طرقها يرون أن محمود شاكر قد حارب طه حسين وسلامه موسى ولويس عوض ليس غير؛ وهذا غير صحيح؛ فإن محمود شاكر وهو بسبيل تصحيح النظر إلى تراث هذه الأمة، ثم الدفاع عنه، تناول أعلاماً كباراً من المتقدمين بنقود قاسية جداً، وفي هذا الطريق نقد الجاحظ والمرزوقي والتبريزي، بل إنه نقد الإمام الجليل أبا بكر الباقلاني في كتابه «إعجاز القرآن» الذي يراه أهل العلم رأساً في هذا الباب، ونقد من قبله المتكلمين المسلمين، وبخاصة المعتزلة، في قضية إعجاز القرآن، وكان يرى أن المعتزلة قد خدعوا الناس بمقولاتهم العقلية، بل رأيناه هو يقسو على نفسه كثيراً إذا زلَّ في فهم، أو غاب عنه وجه الصواب، ومن أمثلة ذلك استدراكاته على تحقیقاته التي يثبتها في آخر الكتاب، أو في الطبعة التالية، وهذه نماذج من تلك الاستدراكات التي شدد فيها على نفسه هو، وقد اخترتها من تحقیقه لكتاب جمهرة نسب قریش، للزبير بن بكار، يقول: «وقد أسأت أشدَّ الإساءة في الحاشية رقم (٣) وينبغي طمس هذه الحاشية». ويقول عن شيء من تفسيره، وظهر له خطأه: «وفسَّرْته متعجَّلاً»، ويقول في موضع ثالث: «وهو سهوٌ مني شديد».

ويقول في مستدركات تحقیق طبقات فحول الشعراء: «عجلْتُ فقلت ما قاله ياقوت، فأخطأت خطأ لا شك فيه، فلا أدري كيف تهاوى فيه ياقوت؟»

نحن إذن أمام رجل يتحرَّى الصواب، ويروم الصدق، وقد التزم جانب المكاشفة والمصارحة، وترك التجمُّل والتكلُّف والمصانعة، ويعلم الله أننا لو رُزقنا بضعة رجال من طراز محمود شاكر لكان الحال غير الحال!

ثم ذكرت يا أستاذ حسين ثورة الشيخ محمود على الأفغاني والشيخ محمد عبده، وقد غاب عنك أن الذي يقوله الشيخ في هذين الرجلين هو رأي كثير من الناس، من قبل محمود شاكر ومن بعده، ولقد أطلعنا الأديب المثقف الرقيق علي شلش رحمه الله، قبل وفاته بأيام، في بيت محمود شاكر، على وثائق خطيرة تدين الأفغاني، وتحقق رأي الناس فيه. أما الشيخ محمد عبده، فقد عابه كثير من الناس

أيضاً لصلته بكرومر، وقصر الملك، ومن هؤلاء المفكر الكبير علي سامي النشار، وقد سجل ذلك في كتاب منشور، وقد درسناه عليه في أيام الطلب.

ثم ما كان يصح يا أستاذ حسين أن توقع الدسياسة بين الشيخ محمود، وهذا النَّفَر الكريم من الباحثين: الدكتور محمد عمارة، والأستاذ فهمي هويدي، وقد كنت كثير الملازمة للشيخ، وما أذكر أنه عرض بسوء لأيٍّ من الرجلين الجادَّين، ولقد يكون رأيه في محمد عمارة سيئاً أيام أن كان عمارة يقف في الجانب الغربي، فلما أذن الله له بالفرج والانعقاد، وانتقل إلى شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة، ثم نَسِيَ ما كان يدعو إليه من قبل، رضي عنه محمود شاكر، وكذلك كنا نحن أيضاً: أعرضنا عن محمد عمارة يوم أن كان لويس عوض يفسح له صفحة كاملة في جريدة الأهرام في الستينات، والآن نحبه ونحرص على ما يكتب ونوصي بقراءته.

على أن محمد عمارة كان من أكثر الناس إجلالاً لمحمود شاكر، وإن لم يغش مجلسه، وكثير من المفكرين كانوا يحبون محمود شاكر غاية الحب، ولكنهم لا يغشون مجلسه، كأنهم يشفقون من الحدة إياها، وأذكر من كبار هؤلاء المحبين المعرضين: محمد سليم العوا وطارق البشري. وأشير هنا إلى أن محمد عمارة قد أسرع إلى مسجد عمر مكرم ليقدم واجب العزاء في الشيخ محمود، وإن لم يعرف أحداً من أسرته، وقد شدَّ على يديّ معزياً، وقال لي: البركة فيك يا محمود، وهي كلمة ذات دلالة. فكأنه يقول: إننا نريد لفكر محمود شاكر أن يستمر، ولطريقه أن يظل مسلوفاً.

وكأنك يا أستاذ حسين حين ذكرت اسم محمد عمارة وأقحمته إقحاماً وزججت به زجاً، إنما أردت أن تستدرج الرجل ليعفو عنك ويمحو في طبعة قادمة، ما دمغك به في كتابه الجيد: الإسلام بين التنوير والتزوير، الذي صدر عن دار الشروق سنة ١٩٩٥م، فقد عقد فصلاً عنك، سمَّاه: «الهزل وغيبة العدالة في تناول الإسلام»، وقد وصفك في هذا الفصل بأنك من الذين يزعمون أنهم مجتهدون في الإسلام، ومجددون في فكره، مع افتقارهم وافتقارهم للحدود الدنيا من دراية العلم

وعدالة العلماء، بل ومع اتصافهم بقدر من سوء النية في عرض قضايا الإسلام.

وقد ذكر محمد عمارة في حواشي هذا الفصل أنه التفاك (الأفصح والأكثر: لفيك)، وقد لقينا من كلام حسين أحمد أمين نصّاً (أ) في مكتبة دار الشروق بحضور صاحبها الأستاذ إبراهيم المعلم، وسألك عما سقطت فيه من الهجوم على سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وقال لك: ماذا تريد؟ فقلت: أريد أن أشكك في كل شيء!

وأقول: إن من حق محمد عمارة — بعد أن كتب فيك ما كتب وقرأ كلامك اليوم — أن يُنشدك ونحن أيضاً نُنشدك معه، قول الفرزدق يهجو جديع بن سعد الأزدي:

لَا تَحْسَبَنَّ دِرَاهِمًا أَعْطَيْتَهَا تَمْخُو مَخَازِيكَ الَّتِي بِعُمان

فماذا تنتظر يا أستاذ حسين من محمود شاكر، ثم من غيره ممن يحترمون تاريخهم ويوقرون رجالهم، ماذا تنتظر منهم بعد أن أهنت الوارث والموروث؟

وليس يصح لك أن تستنصر باسم والدك العظيم رحمه الله، فهو كان على الجادة، أقام للحضارة العربية صرحاً شامخاً، وأنت انحرفت عن الطريق، وأخذت تضرب في هذا الصرح، ولكن من نعم الله أن جعل مغولك ضعيفاً، كما جعل كيد الشيطان ضعيفاً، فما ينفعك شيئاً^(١) كلما حزبك أمر أن تفزع إلى اسم أبيك، فلن يجزي والد عن ولده شيئاً، ولو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد ﷺ يدها. وبما أنك قد سببت واحداً من الصحابة الأكرمين، ولم يفعلها أبوك، فإننا ننشدك قول الأعشى:

كَلَّا أَبَوَيْكُمْ كَانَ فَرْعاً دِعَامَةً وَلَكِنَّهُمْ زَادُوا وَأَصْبَحَتْ نَاقِصاً

(١) نبّه الأستاذ الطناحي الطابع لهذه الكلمة بقوله: هذه على النصب صحيحة فلا تغيرها لأنها مفعول ثان. أما فاعل «ينفعك» فهو المصدر المؤول «أن تفزع»، وتقدير الكلام: فما ينفعك فزعك إلى اسم أبيك شيئاً.

ثم أنشدك قول الآخر (وقد أغجلتني عن أن أنسبه لك):
إن القديم إذا ما ضاع آخره كساعِدٍ فلله الأيامُ محطومُ
ثم أنشدك - وهو أخفُ الشواهد عليك إن شاء الله - قول أبي تمام:
وابن الكريم مطالبٌ بقديمه غَلِقُ وصافي العيش لابن الزُمَلِ
وأخيراً أترحم على والدك العظيم ثم أنشدك وأنشده قول جرير يخاطب الخليفة
العادل عمر بن عبد العزيز:

تَزَوَّدَ مثل زادِ أبيكَ فِينَا فنعم الزادُ زادُ أبيك زاداً
ثم إنك غضبت من الشيخ محمود لأنه ذكر أمامك رأياً في والدك لم يقع منك
موقع الرضا، فاعلم أن ليس محمود شاكر أول من أبدى رأياً غير طيب في والدك،
فالعقاد فعل ذلك، وأظنك لم تنس كتاب زكي مبارك «جناية أحمد أمين على الأدب
العربي»، وأذكر أن أساتذتنا في أيام الطلب كانوا يكثرُونَ من نقد كتب أبيك في
عصور الإسلام، كلٌّ في مجال تخصصه، ومن هؤلاء العالم الكبير الدكتور ضياء
الدين الريس في كتابه الماتع: «النظريات السياسية الإسلامية»، وأنت الذي أصررت
أن تستخرج رأي محمود شاكر في أبيك، وقد ذكرت أنك كلما ألححت عليه في
الطلب قال لك «فَوْتُتْ»، وكأنه رحمه الله كان يريد أن يقول ما قالته العرب قديماً:
«اغفُ عن ذي قَبْرٍ»، ثم أما بعد:

فيا أستاذ حسين أحمد أمين: لقد وصفت شيخ العربية وحارسها محمود محمد
شاكر - على لسان الحاج وهبه، وقد برىء منه في العدد الرابع من الجيل، فصار
الكلام خالصاً لك، وخارجاً من كيسك وحدك - وصفت الشيخ بأنه فظ فظ فظ، وأنه
يدور كالثور الهائج يهاجم ويطن ويسب ويلعن. فأتيت بذلك منكرًا من القول
وزورًا، ولقد أهنت الأمة العربية كلها في شخص علم كبير من أعلامها، ورأس
ضخم من رؤوسها، وهذه الإهانة لا يُعتذر عنها، ولا تسقط بالتقادم، وقد قال
أبو الطيب الصعلوكي - من فقهاء الشافعية في القرن الرابع - : «عقوق الوالدين
يمحوها الاستغفار وعقوق الأستاذين لا يمحوها شيء».

ولقد كان محمود محمد شاكر أستاذ الأستاذين . فيجب عليك أن تبرأ من هذا الكلام وتخرج من عُهدته، ثم تتوب إلى ربك وتستغفره بعد أن تغسل فمك سبع مرات إحداهن بالتراب، ليظهر من هذه البذاءات التي خرجت منه .

وعلى المستوى الشخصي فقد أدميت قلبي، وأوجعت ظهري، فلساني لا يطاوعني أن أقول لك ما يقوله بعض الناس في مثل هذه المواقف: سامحك الله، أو غفر الله لك، ولكنني أدعو عليك بأن يُسَخِّنَ الله عينك، وأن يُقَيِّضَ لك من يكوي منك الرأس والدماغ، ولا يمنعني من الاسترسال في الدعاء عليك إلا حديثه ﷺ: «لا تُبَرِّدُوا عن الظالم»، أي لا تشتموه وتدعوا عليه، فتخففوا عنه من عقوبة ذنبه. وقوله لعائشة رضي الله عنها وقد سمعها تدعو على سارق سرقها، فقال: «لا تُسَبِّخِي عنه بدعائك عليه»، أي لا تخففي عنه الإثم الذي استحقه بالسرقة.

ولو قام تلاميذ محمود شاكر — وهو كُثُر في الشرق والغرب — بِرَدِّ شتائمك عليك وبَسْطِ ألسنتهم بالسوء فيك، ما كان عليهم لوم ولا تثريب، ولا تجزع ولا تفزع من فعلهم، فأنت البادىء وأنت المعتدي، وقد قال أبو ذؤيب الهذلي:

لا تَجْزَعَنَّ مِنْ سُنَّةٍ أَنْتَ سِرْتَهَا فأول راضي سُنَّةٍ مِنْ يَسِيرُهَا
وإذا كنت قد وصفت شيخنا بأنه يدور كالشور الهائج — وهذه عظمة من العظام — فإنني أنشدك أيضاً لأبي ذؤيب، من القصيدة نفسها:

فلا تك كالشور الذي دُفِنَتْ لَهُ حديدة حَتَفٍ ثُمَّ ظَلَّ يُثِيرُهَا
وصدق الله العظيم: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَاعَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤١).

وتبقى قضية لا بدَّ من الإشارة إليها وبيان وجه الحق فيها، على سبيل الوجازة والاختصار، وهي قضية (محمود شاكر ولويس عوض)، وآخر ما رأيته من ذيولها كلمات قالهن الدكتور ماهر شفيق فريد، وهو كاتب مثقف محتشد، لكنه أنبأنا الآن أنه من مريدي ومحبي الدكتور لويس عوض، ولا بأس ولا نكران، وإن من حقه علينا أن ينشدنا قول أبي ذؤيب الهذلي:

وعَيَّرَهَا الواشون أني أحبها وتلك شكاة ظاهرٌ عنك عارُها
وقوله: «ظاهر عنك عارها»، أي زائل عنك هذا العار لا يعلق بك.

وهذه الكلمات قالها الدكتور ماهر بجريدة الأهالي ٨ من أكتوبر ١٩٩٧م، في سياق كلام له عن ديوان «أغاني العاشق الأندلسي» لصديقنا الشاعر عبد اللطيف عبد الحليم (أبو همام)، فحين عرض الدكتور ماهر لقصيدة أبي همام عن شيخه وشيخنا أبي فهر في عيد ميلاده الثمانين، فتح أقواساً واستفرغ فيها جهداً بهذا الكلام عن أبي فهر: «لا أستطيع مهما بلغت بي الرغبة في أن أكون منافقاً أن أظهار بأنني حزنت على رحيل الرجل الذي سبّ لويس عوض العظيم سباً قبيحاً».

يا دكتور ماهر: حاشاك أن تكون منافقاً، لماذا تركب هذا المركب الصعب؟ قل في محمود شاعر ما تشاء، لكن لا ينبغي أن تكون كراهيتك له من أجل موقف واحد، هو موقفه من لويس عوض! فما يُقال لك إلا ما قد قيل للذين من قبلك: لقد غضبت من محمود شاعر لأنه جرح لويس عوض، ولم تغضبوا من لويس عوض لأنه قتل أمة بأسرها، أو أراد أن يقتلها، فغضبت من جرح، ولم تغضبوا من قاتل، فكنتم كما قال الفرزدق:

أَغْضَبُ إِنْ أَذْنَا قُتِيَّةَ حُزَّتَا جِهَاراً وَلَمْ تَغْضَبْ لِقَتْلِ ابْنِ خَازِمٍ؟

ومهما يكن من أمر فقد خاض محمود شاعر معركة شرسة مع الدكتور لويس عوض بسبب مقالات هذا في جريدة الأهرام حول «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري، وكان لويس عوض قد ذهب إلى أن أبا العلاء قد تأثر بالفكر اليوناني والأدب اليوناني، وأن «رسالة الغفران» تتشابه في كثير من جوانبها مع مسرحية «الضفادع» لأرسطوفانيس، وقد غضب محمود شاعر من هذه المقالات غضباً شديداً، واستخرجت منه آراء وأفكاره التي طوى عليها صدره ردحاً من الزمن، فهب يدفع مقالات لويس عوض، ثم استطرد إلى فتن أخرى كثيرة، تريد أن تغتال تاريخ الأمة اغتيالاً، ومنها: قضية الدعوة إلى العامية في مصر. وقد أودع ذلك كله كتابه الدامغ «أباطيل وأسمار».

ولأن الدكتور لويس عوض مسيحي، فقد بدا لبعض الناس — ومنهم الأستاذ نسيم مجلى — أن يضعوا القضية في إطار التصادم الإسلامي المسيحي، ثم تصوير لويس عوض بأنه الديمقراطي الحر المعتدى عليه، وأن محمود شاكر مثال صارخ للتراثي المتخلف المتعصب لحد النخاع، وأنه انتهاز فرصة لويس عوض ليوجه ضربة قاصمة لتيار الحداثة في الأدب والفن والفكر، وهو التيار المرتبط بالمفاهيم العقلانية والثقافة الغربية العصرية، لصالح التيار السلفي التقليدي أو الأصولي — هكذا قال صديقنا نسيم مجلى في كتابه: صدام الأصالة والمعاصرة ص ١٠، وكان قد قال من قبل في ص ٨: «إن شاكر يفسر الثقافة والتاريخ من خلال منظور ضيق جداً، هو المنظور الديني فقط، بحيث ينعكس على رؤيته لكل إبداعاتنا الأدبية والنقدية الحديثة».

وكنت قد نقلت من قبل كلمة الأستاذ سمير غريب، أن ما قاله محمود شاكر في الفن الفرعوني «يمكن أن يستند إليه المتطرفون دينياً». وهذا كله باطل من القول يأخذ بعضه برقاب بعض، فمحمود شاكر لم يكن يوماً متطرفاً، ولا محارباً للعقل، وإنما هو رجل مؤمن بتاريخ أمته، وفي ثقافتها، مدرك لعبقريتها، يسوؤه ما تردت فيه من أسباب الضعف والتفكك، وفي سبيل دفاعه عن تاريخ أمته وعلومها ومعارفها خاض معارك كثيرة، وقد خاضها وحده غير متحيز إلى فئة ولا منتصر بجماعة، ولم يكن من بين من حاربهم إلا مسيحي واحد، هو لويس عوض، ومن وراء لويس عوض كان من الذين صارعهم محمود شاكر واشتد في حربهم: طه حسين وعبد العزيز فهمي وسيد قطب، بل إن موقفه العنيف من الشيخ حسن البنا وجماعة الإخوان المسلمين معروف مذكور، وكان عنيفاً جداً مع حسن البنا وجماعته، وهو ما كان يأخذه عليه كثير من المسلمين، وما أريد أن أستطرد في هذه القضية فلها مكان آخر، غير أنني أريد أن أنبه الأستاذ نسيم مجلى ومن يُلَفُّ لَفَّهُ إلى نقطة يبدو أنها غائبة تماماً عن نسيم مجلى؛ لأنه حديث عهد بمعرفة محمود شاكر، فأقول:

يا أستاذ نسيم: إن صلة محمود شاكر بالأدباء والمفكرين المسيحيين قديمة

جداً، ومتينة جداً، وإن بينه وبين كثير منهم مودة وصفاء. ومن أقدمهم في حياة محمود شاعر: الطبيب عالم النبات والحيوان الفريق أمين باشا المعلوف، يقول محمود شاعر في وصفه: «دخل علينا رجل عظيم القدر، كنت أحبه ويحبني كان يومئذ شيخاً فوق الستين، وكنت أتوهمه فوق السبعين، كان ذكي العينين باسم الثغر»، ثم ذكر فضله عليه وإطلاعه إياه على نسخة من ديوان المتنبي بشرح اليازجي، وعلى هوامشها فوائد جلية — لاحظ أن محمود شاعر في هذا الوقت كان فتي في السادسة والعشرين من عمره. انظر كتابه: المتنبي ص ٤٣.

ومنهم فؤاد صرّوف ويعقوب صرّوف، صاحباً المقتطف، وقد أفردا له عدداً خاصاً من المقتطف، نشر فيه كتابه الرائد عن المتنبي (يناير ١٩٣٦). ويقول محمود شاعر في بيان قصة تأليفه كتابه عن المتنبي: «والفضل في الذي بلغته مردود كله إلى أخي وصديقي الذي لا أنساه الأستاذ فؤاد صرّوف، أطال الله بقاءه».

ثم شفيق ونجيب ميري، أصحاب دار المعارف، وقد اختار مطبعتهم لطبع الستة عشر جزءاً من تفسير الطبري، الذي هو من أبرز أعماله التحقيقية. ثم الأديب الكبير عادل الغضبان، الذي يقول عن محمود شاعر، في آخر قصيدة القوس العذراء: «التقى صديقنا رفيق الصبا وخِذن الشباب الأستاذ محمود محمد شاعر بصاحب دار المعارف شفيق ميري.. وتطرق الحديث بينهما إلى الكلام على العمل وتجويده...»، ويخاطب محمود شاعر عادل الغضبان في آخر «القوس العذراء»، ولم يُسمّه، ولكنه ذكر لي أن المقصود هو عادل الغضبان، يقول له: «ولكنك بعثت كوامن نفسي منذ رأيتك، فتوسّمت وجهك وعرفت فيه شيئاً أخطأته في وجوه كثير من أهل زماننا». ومن فضلاء المسيحيين الذين كان يحبهم محمود شاعر ويوسع لهم في مجلسه صديقنا الأديب المؤرخ الودود الأستاذ وديع فلسطين.

أما صديقه الأثير من الأحباب المسيحيين، في الأعوام الأخيرة فكان العلامة الدكتور مجدي وهبه عضو مجمع اللغة العربية، وكان محمود شاعر كلفاً به، محباً له، وكان يختار مجلسه بجواره في الاجتماعات الأسبوعية لمجمع اللغة العربية، ثم

كان مجدي وهبه يدعوه كثيراً إلى «عزبته» لشيء من الراحة والاستجمام. وقد كتب عن كتاب محمود شاعر «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» مقالة جيدة بالإنجليزية، ترجمها صديقنا المرحوم زهير علي شاعر ابن أخي الشيخ، باسم: «غضب مرتقب».

ومن وراء ذلك فقد حدثني محمود شاعر أن صديقه القديم توفيق دُوس باشا هو الذي عرفه بأمر كلثوم.

ومن طريف صلة شيخنا بالأصدقاء المسيحيين: ما حدثني به هو — برّد الله مضجعه — قال: كانت لنا جارة مسيحية فاضلة جداً، وكان من عاداتها أنها تزور السيد البدوي بطنطا، فكنت إذا ذكرت لها أن السيّد البدوي هذا خرافة تغضب جداً، وتثور ثورة شديدة.

وشيء آخر: كان من حضور مواعيد محمود شاعر، وبخاصة إفطار يوم عيد الأضحى، على خروف العيد: الأستاذ أنور، وهو مسيحي فاضل جداً، مدرس بمدرسة الطبري، وكان الشيخ يحبه كثيراً.

فأي عصبية دينية؟ اتقوا الله يا قوم، وازبَعُوا على أنفسكم، ولا تعزفوا على هذه النغمة النشاز — نغمة الإسلام والمسيحية — فإنها نغمة غليظة تؤذي السمع وتضكّهُ صكّا، ثم هي بعد ذلك «حجةٌ لاجيءٍ إليها اللثام» كما قال المتنبي.

ثم إنه من البلاء والغباء والحمق أن يظن ظان أن محمود شاعر ومن حوله قوم من الدراويش قد لبسوا الخرق والمرقعات، وقد طالت لحاهم، وطوّقت المسابح الضخمة أعناقهم، وتناثر الزبد على أشداقهم، وقد داروا في حلقة ذكر حول الكتب الصفراء، يتعبدون بأصحابها ويحرقون لها البخور، وقد صمّوا آذانهم وأغمضوا أعينهم عن كل ما يدور في عصرهم!

هل تعلمون يا قوم من كان يحضر مجلس محمود شاعر بصفة دائمة؟ ثم من كان يحبه ويجلّه: يحيى حقي ومحمود حسن إسماعيل وعلي أدهم وعبد الرحمن صدقي، ومن لا يحصى من الأدباء والشعراء المعاصرين، مثل صلاح عبد الصبور، وعبد الوهاب البياتي ومحمد الفيتوري ورجاء النقاش، ويوسف شوقي أستاذ العلوم

والموسيقى . وكان من ألصق الناس به : يحيى حقي ومحمود وحسن إسماعيل ، وكان أثره فيهما واضحاً جداً ، وذكراه في أكثر من موضع ، فيقول يحيى حقي في سيرته الذاتية : «وأثناء عملي بديوان وزارة الخارجية كانت الكتابة بالنسبة لي خاطراً غير تام الأدوات ، ولكن عندما توثقت صلتني بالمحقق الباحثة الأستاذ محمود شاكر ، وقرأت عليه عدداً من أمهات كتب الأدب العربي القديم ودواوين الشعر ، انفتح الطريق أمامي ، ومنذ ذلك الحين وأنا شديد الاهتمام باللغة العربية وأسرارها وبيانها وسحرها» .

أما محمود حسن إسماعيل فقد طالت صحبته وملازمته لمحمود شاكر ، وما فتى يذكر فضله عليه وأثره فيه — ولا يخفى ما كان في محمود حسن إسماعيل من بَأْوٍ وعُجب — وعندما سئل عن أثر محمود شاكر فيه قال : «لا أستطيع تحديد أبعاد ما حُزُّهُ من صداقتي لمحمود ، لقد زَجَّ بي إلى الشعر الجاهلي ، وأملني مع الشعر الأموي ، وطَوَّح بي مع الشعر العباسي ، فأحاطني بلُحمة الشعر العربي وسُداه جميعاً . . . وأستطيع القول إن شعري قبل معرفتي بمحمود كان نبعاً هادئاً فجعله بحرأ متلاطمأ» .

هذا وقد كان من محبي محمود شاكر والعارفين قدره : عبد المنعم تليمة وجابر عصفور ، وقد شكر صديقه عبد المنعم تليمة في مقدمة تحقيق أسرار البلاغة ، وهو الذي حُبب إليّ جابر عصفور ، وكان يقول في محضر جلسائه : «الولد جابر ده كويس» . وفي سرادق عزائه ، جلس عبد المنعم تليمة بجوار محمد عمارة ، وهكذا كان محمود شاكر يجمع كل الأقطاب ، ويفتح كل النوافذ ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

رحمك الله يا أبا فهر ونور قبرك ، وجعل كل ما قدمته لأمتك ، ولتاريخها وللغتها في موازينك يوم تجد كل نفس ما عملت من خير مُحضرأ ، وقطع عنك ألسنة المكذّبين وادعاءات المبطلين ، وما أحراك أن تُنشد هؤلاء هؤلاء قول الشريف الرضي :

وإن مقام مثلي في الأعادي مقام البدر تنبجه الكلاب
رموني بالعيوب ملفقات وقد علموا بأنني لا أعاب
وأني لا تُدُنُّني المخازي وأني لا يروغني السباب
ولمالم يُلاقوا في عيًّا كسوني من عيوبهم وعابوا

وقد ادّخرت نصّين من كلام محمود شاكر يدينان هذه النابتة التي نبتت في أرض بلادنا وتسمّت بالجماعات الإسلامية. وهذان النصان يكشفان عن توجه محمود شاكر الفكري وإدانتة لطائفة من أبناء دينه، بعيداً عن لويس عوض والمسيحية وسائر ما يدمغه به القوم.

يقول رضي الله عنه في مقدمة تحقيق أسرار البلاغة: «بل بلغت الاستهانة مبلغها في الدين، بعدما نشأ ما يُسمّونه بالجماعات الإسلامية، فيتكلم متكلمهم في القرآن وفي الحديث بألفاظ حفظها عن شيوخه، لا يدري ما هي، ولا يرد بل يكذب أحاديث البخاري ومسلم بأنها من أحاديث الآحاد، بجرأة وغطرسة!

بل جاء بعدهم أطفال الجماعات الإسلامية، فيقول في القرآن والحديث والفقه بما شاء هو، ويرد ما قاله مالك وأبو حنيفة والشافعي وابن حنبل، ويقول: نحن رجال وهم رجال! بل تعدى ذلك إلى صحابة رسول الله ﷺ بهذا اللفظ نفسه، فيقول: نحن رجال وهم رجال!

أي بلاء حدث في زماننا هذا؟ إنما هو وباء الاستهانة بكل شيء، وباء نفسي في مصر، بل تجاوزها، ورحم الله أبا العلاء المعري، وذكر وباء نزل بمصر وغيرها فقال:

ما خَصَّ مصرًا وبأً وحدها بل كائنٌ في كلِّ أرضٍ وبأً

انطفأ سراج العلم، وسراج الخلق، وبقيت العقول في ظلمات بعضها فوق بعض. أي نكبة نزلت بعلوم هذه الأمة العربية الإسلامية على يد الصغار في حقيقتهم، الكبار في مراتبهم التي أنزلتهم إياها تصارييف الزمان، فأطلقوا ألسنتهم في مواريث أربعة عشر قرناً، بالاستهانة والقدح والازدراء.

وبعد :

فلئن كان الأستاذ حسين أحمد أمين قد أغضبنا في أول الأمر، فإننا نشكره في آخره؛ لأنه فتح لنا أبواباً من القول، كشفت شيئاً من منهج شيخنا محمود محمد شاكر، رحمه الله.

ولا زلنا ننتظر من الأستاذ حسين أن يبرأ من ذلك الكلام الذي قاله في حق شيخنا، ويعتذر عنه، وساعتها سنفرح ببراءة ساحته وخلوّ ذمّته؛ لأننا لا نحب أن نطوي صدورنا على مَوْجِدَةٍ لأحد.

والحمد لله الذي لا موهبة إلّا منه، ولا بلوى إلّا بقضائه، ولا مَفْزَعٌ إلّا إليه، ولا يُسرٌ إلّا فيما يسره، ولا مصلحة إلّا فيما قدّره، له الحكم وإليه المصير، يحكم بين عباده وهو اللطيف الخبير.

وصلّى الله على سيّدنا محمّد رسولهِ المبعوث، إلى الوارث والموروث.



القرآن الكريم.. وتفسير العوام^(١)

مع هلال رمضان من كل عام تنبعث ذكرى أعظم حادثة في تاريخ البشر، وأكبر شأن من شؤون المسلمين، وهو القرآن الكريم الذي نزل به جبريل الأمين على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي أمر بأن يبلغه الناس ويتلوه عليهم، وأمرت الأمة الإسلامية أيضاً بتلاوته وتدبر آياته، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال عز من قائل: ﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠].

وقال رسول الله ﷺ: «يا أهل القرآن، لا توسدوا القرآن، واتلوه حتى تلاوته آناء الليل والنهار»، فضائل القرآن لأبي عبيد ٢٥٦/١، ومعنى «لا تَوْسَدُوا القرآن» أي داوموا قراءته، وحافظوا عليها، ولا تناموا الليل عن قراءته، فيكون القرآن متوسداً معكم، وهو من الوسادة. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ١٨٣/٥، وقال تقدّست أسماؤه: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرُوا أَلَّا يَكُنِ﴾ [ص: ٢٩].

وتدبر القرآن لا يكون إلا بمعرفة وجوه تفسيره، والكشف عن مراد الله وفق طاقة البشر. ومن هنا كان لعلم تفسير القرآن منزلة عالية، ثم كان للقائم عليه والمعني به مكانة سامية، روي أن علي بن أبي طالب ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم، فقال رجل: جعلت فداك، تصف جابراً بالعلم وأنت أنت؟ فقال: إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥].

(١) مجلة «الهلال»، يناير ١٩٩٩م.

وقال مجاهد: أحب الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل، وقال الحسن البصري: والله ما أنزل الله آية إلا أحب أن يعلم فيما أنزلت وما يعني بها، وقال عكرمة في قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٠٠]، يقول عكرمة: طلبت اسم هذا الرجل الذي خرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله، أربع عشرة سنة حتى وجدته. وقال ابن عبد البر: هو ضمرة بن حبيب. وقال إياس بن معاوية: مثل الذين يقرأون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلاً وليس عندهم مصباح، فنداخلتهم روعة ولا يدرون ما في الكتاب، ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما في الكتاب. وقال النبي ﷺ: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة». انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية ٢٦/١.

فقه التفسير:

وقد أوحى الله إلى نبيه المصطفى، القرآن ومعانيه، فكان عليه السلام يفهم القرآن جملة وتفصيلاً، ليبينه للناس، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَفْكُرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يفهمون القرآن كذلك، لأنه نزل بلغتهم، وما خفي عليهم منه كشفه لهم رسول الله ﷺ، وهم مع ذلك كانوا يتفاوتون في الفهم، وذلك رزق الله المقسّم على خلقه، قال ابن قتيبة: إن العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه، بل إن بعضها يفضل بعضاً، ولذلك فقد اشتهر بعض الصحابة بفقه التفسير، كان من أبرزهم عبد الله بن عباس؛ وذلك لأن رسول الله ﷺ دعا له فقال: «اللهم علّمه التأويل وفقهه في الدين»، والتأويل: هو التفسير، انظر معناه وتخريجه في: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٩٩.

وللتفسير أدوات وشروط، ينبغي على من يتصدى له جمعها والتزامها، يقول الزركشي: «التفسير علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو

والتصريف، وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ»، البرهان في علوم القرآن ١٣/١ .

وقد حذر رسول الله ﷺ من الجرأة على تفسير كلام الله بغير علم، فقال فيما رواه ابن عباس: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار» حسنه وصححه الترمذي. انظر: عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذي ٦٧/١١ (أبواب التفسير)، وكذلك أخرجه أحمد في مسنده ٤٩٦/٣ .

ولعل هذا التحذير من المنزل عليه ﷺ هو الذي خوَّف بعض كبار الصحابة من تفسير ما لم يعرفوه من كتاب ربهم عزَّ وجلَّ، فقد روي أن أبا بكر الصديق سئل عن تفسير الفاكهة والأب، في قوله تعالى: ﴿وَفَتَكِهَةٌ وَأَبَا﴾ [عبس: ٣١]، فقال: «أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم».

وكذلك روي عن عمر أنه قرأ هذه الآية على المنبر، ثم قال: «كل هذا عرفناه فما الأب؟ ثم رفع عصا كانت بيده، فقال: هذا لعمر الله هو التكلف، فما عليك ألا تدري ما الأب، اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه»، انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٣١٧/٦، وكان الأصمعي مع تبحره في اللغة وسعته في الرواية يحتمي بتفسير القرآن وإعراجه. وهذا التوقف والحذر من هذا النفر الكريم إنما كان فيما لم يعلموه، بدليل قول أبي بكر: «إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم»، وبدليل أنه قد تكلم في أحكام الشرع والدين بما علم.

قال نجم الدين الطوفي الحنبلي المتوفى ٧١٦هـ: «وأما الأصمعي رحمه الله فإن كان احتماؤه للكلام فيه بما لا يعلم فهو في غاية التوفيق والصواب؛ لأن كلامه إذن فيه يحرم، وإن كان مع العلم، فذلك إما جمود وجبن، وإما خروج إلى السلامة واكتفاء بمن تكلم فيه قبله وفي عصره من الأئمة الذين هم حجة عليه وله»، انظر: الإكسير في علم التفسير ص ١٠. وقول الطوفي: «وإما خروج إلى السلامة»، وهو ما نقوله الآن في أيامنا: «الهروب من تحمل المسؤولية»، فانظر إلى حلاوة كلامهم وركاكة كلامنا!

غاية دينية :

ومع ذلك التوقي والحذر، فقد رأى علماء السلف من التابعين ومن بعدهم، أنه من الواجب عليهم أن ينهضوا لتفسير كلام الله، بعد أن أخذوا له أخذه، وأعدوا له عدته، من تأمل الكتاب الكريم كله، ورد بعضه إلى بعض، ثم النظر فيما انتهى إليهم من أحاديث رسول الله ﷺ وسننه القولية والفعلية، وما هدي إليه كبار الصحابة من تفسير وتأويل.

وقد أعان هؤلاء السلف أيضاً ما قام به جامعو اللغة ورواة الشعر، مما وضع أمامهم زاداً وفيراً من الألفاظ والتراكيب والمعاني، فتمت لهم أدوات التفسير والتأويل والبيان.

وكان وراء هذا الذي قام به علماء السلف غاية دينية، هي حفظ ذلك الكتاب العزيز من أن تتناوله أيدي الجهلة وأصحاب الأهواء والملل والنحل، وبخاصة أن الأمة الإسلامية كانت قد انفتحت في ذلك الزمان على ثقافات ومعتقدات الأمم الأخرى، يؤنس بهذا ما ذكره العلامة الطوفي، في الموضع المذكور من كتابه، قال: «لعل علماء السلف رحمهم الله رأوا أن الكلام في القرآن متعين عليهم، وأنهم أولى به ممن أتى بعدهم، لقربهم من التنزيل ومعرفة التأويل، فيكون ورعهم وزُهدهم وخشيتهم هي الحاملة لهم على الكلام فيه، خشية أن يدرس من علم شريعة الله ودينه ما لا يمكن تداركه، ورأوا أن الخطأ عنهم في ذلك موضوع (أي مرفوع معفو عنه) كالأحكام الفرعية الاجتهادية، وذلك كما حكى عن موسى بن عقبة، لما رأى ما دخل على مغازي النبي ﷺ، من الزيادة والنقص، جمع ما صح عنده من المغازي ليحرسها بذلك من الكذب».

وهكذا اندفع علماء هذه الأمة يوماً بعد يوم في استشارة كنوز هذا الكتاب الحكيم، وكشفها والإبانة عنها، بل إن علوماً بأكملها قامت ابتداء لخدمة ذلك الكتاب العزيز، ثم صارت بعد ذلك علوماً مستقلة، لها مناهجها وأدواتها وغاياتها، مثل النحو وإعجاز القرآن الذي صار أساساً لعلوم البلاغة. ومن هنا أصبح علم التفسير جامعاً لعلوم العربية كلها، وقد سبق تعريف الزركشي لعلم التفسير، والعلوم

المطوية تحت جناحه، وقد جاءت كتب التفسير كلها بعد ذلك دائرة في فلك علوم العربية كلها، إلا ما قد يكون عند مصنفي التفسير من غلبة فن على فن، فالطبري يغلب عليه الاهتمام بالآثار وتفسير القرآن في ضوئها، والزمخشري يميل إلى البلاغة، والقرطبي يغلب عليه الاهتمام بالفقه والأحكام، والفخر الرازي يهتم بعلم الكلام وما إليه من العلوم العقلية، والواحدي يغلب عليه الغريب — أي علم الغريب في القرآن، من حيث اللغة — والثعلبي يحتفل بالقصص.

وبذلك لم يحظ كتاب سماوي بمثل ما حظي به هذا الذي أنزل على محمد ﷺ، من التأليف في لغته ونحوه وبلاغته وقراءاته وأشباهه ونظائره وناسخه ومنسوخه وفضائله، سيل متدافع من الكتب: طوالها وأواسطها ومختصراتها، بحيث أصبح من السهل اليسير على من يريد معرفة معنى لفظ من ألفاظ القرآن الكريم، أو معنى عام منه، أو حكم من أحكامه، أن يجد بغيته من أيسر سبيل، ولم يقصر علماؤنا رضوان الله عليهم في كشف المشكل وإيضاح المبهم. لكن قوماً ضعفت سلاقتهم العربية، أو قعدت بهم همهم فتكاسلوا عن البحث والتفتيش والمراجعة، فسروا بعضاً من القرآن العزيز بآرائهم، ومن عند أنفسهم، فضلوا وأضلوا، حين تابعهم الناس على هذه الوجوه من التفسير، وهذه آفة الآفات.

وهذا هو الذي أراده الجاحظ بقوله: «وإنما يؤتى الناس من ترك التثبت وقلة المحاسبة»، انظر: الأوائل للعسكري ١/ ٣٣٣، وهو أيضاً ما قاله الشيخ عبد القاهر: «وتلك جريرة ترك النظر وأخذ الشيء من غير معدنه»، دلائل الإعجاز ص ٣٦١.

ويلاحظ أن معظم وجوه الخطأ في تفسير القرآن الكريم تأتي من سرعة الاستشهاد بالآية القرآنية معزولة عن سياقها، منتزعة من أسباب نزولها، مع الغفلة عن وجه الإعراب فيها، إلى أشياء أخرى تظهر إن شاء الله من الأمثلة.

ومن العجب أن بعض هذه الوجوه الخاطئة من التفسير قديمة، وقد استمرت إلى يومنا هذا، وهو ما أسميته «تفسير العوام»، وأريد بالعوام هنا: غير أهل العلم، الذين يتحرون الصواب، ولا يقولون إلا بعد المراجعة والمفاتشة والتقصي.

تفسير العوام :

وقد بدا لي أن أجمع قدرأ يسيراً من هذه الأوجه الخاطئة أو الضعيفة، وأبين وجه الصواب فيها، أو ما هو الأرجح والأولى منها.

وأود أن أنبه إلى أنني عرضت عما جاء من ذلك في أخبار الحمقى والمغفلين، وما أثر عن الخطباء والوعاظ والقصاص، مما ذكره ابن الجوزي وغيره، ثم مما كان يحفل به الجاحظ، من ذكر غفلات المعلمين والقراء والمفسرين، فإن ذلك باب واسع، ولا تؤمن فيه بواعث الوضع أو التشنيع أو المفاكهة واستخراج الضحك.

وأود أيضاً أن أنبه إلى أن هذه النماذج من تفسير العوام، إنما هي من بابين: الباب الأول: ما وقع من بعض الأقدمين، واستمر فهمه والعمل به إلى يوم الناس هذا. والباب الثاني: ما رصدته أنا وتبعته من فهم بعض المعاصرين وتفسيراتهم، وسأرتب ذلك على الآيات بحسب ترتيب السور في المصحف الشريف.

وقبل ذلك أحب أن أشير إلى أن بعض خطباء الجمعة في زمننا، وكذلك بعض المتحدثين في إذاعة القرآن الكريم، يتساهلون كثيراً ويجترئون على تفسير كلام الله عز وجل، بما تمليه عليهم النظرة العجلى، وكثيراً ما ينساقون وراء خداع الألفاظ، وتوجيه المعاني وفق ما هو متعارف بين الناس الآن من الدلالات الخاطئة.

وأمثلة ذلك كثيرة أكتفي منها الآن بمثال واحد موثق باليوم والساعة: في صباح يوم السبت ٢٠ من نوفمبر ١٩٩٨ استمعت في إذاعة القرآن الكريم إلى أحد الدكاترة — وهو رجل فاضل أعرفه — يفسر قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْبَجْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]، قال الأستاذ الدكتور: «الزهق في الآية معناه الضجر والسأم والملل»، ثم رأى أن معنى الآية: أنهم إذا كثرت أموالهم وأولادهم انتهوا إلى حالة من الملل والسامة، وذكر أن ذلك يرجع إلى نظرية قال بها أحد الأساتذة الأمريكيين، وهي نظرية «الاستهلاك الكبير» التي تدفع الناس بعد الشبع والامتلاء (أو الامتلاك — الشك مني أنا ومن

سَمْعِي) إلى ملالة الحياة ومحاولة التخلص منها، وفسر بذلك ظاهرة الانتحار في المجتمع السويدي، وهو مجتمع سعيد جداً؛ لأنه ليست له مشاكل داخلية أو خارجية، ومع ذلك تكثر فيه ظاهرة الانتحار». انتهى كلام الأستاذ الدكتور!

فانظر كيف فسر «الزهُق»، تفسير العوام، ثم بنى عليه ذلك الكلام.

وليس «الزهُق» هو الملل، إنما هو البطلان والهلاك والاضمحلال، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ومعنى (تزهُق أنفسهم) في الآية الكريمة: أي تخرج، قال أبو عبيدة: «أي تخرج وتموت وتهلك» مجاز القرآن ١/ ٢٦٢. وقال القرطبي في تفسيره ٨/ ٦٤: ﴿وَتَزَهُقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]، نص في أن الله يريد أن يموتوا كافرين. سبق بذلك القضاء، وقال الطبري في تفسيره ١٤/ ٢٩٧: «وتخرج أنفسهم فيموتوا على كفرهم بالله وجحودهم نبوة نبي الله محمد ﷺ».

وواضح أن الدكتور الفاضل قد ظن أن الهمزة في قول العوام «الزها» — وأنا زهان — إنما هي القاف الفصيحة التي تأتي غالباً في لغة المصريين والشوام همزة، مثل: «ألت» مكان: «قلت»، و: «أريب» موضع: «قريب»، ويُسرف الشوام في ذلك فيقولون: «الموسيثا» بدل: «الموسيقى»، ولا يفعل عوام المصريين ذلك في مثل هذه الكلمة، لأنها من الكلمات الثقافية التي يحافظون على صواب نطقها.

وهنا فائدتان: الأولى أن المعجم العربي لم يذكر مادة (زها) أصلاً، في أي معنى، أما قولهم: «زُهاء مائة» بمعنى قدر مائة، فأنت تجدتها في المعاجم في مادة (زهي) لأنها من زهوت القوم: أي حزرتهم وقدرت عددهم. وهذه الهمزة التي في «زهاء» ليست أصلية، وإنما هي منقلبة عن واو، وأصلها: زهاو، ومثل ذلك: سماء ودعاء ورجاء، فأصلها كلها: سماو ودعاو ورجاو، لأن أفعالها: سموت ودعوت ورجوت. ويقول الصرفيون: تطرّفت الواو بعد ألف زائدة فقلبت همزة.

الفائدة الثانية: أن قلب القاف همزة عند عوام المصريين ليس وليد اليوم، وإنما هو قديم، وقد وجدت ذلك في ترجمة «جمال الدين يونس بن بدران بن فيروز الحجازي ثم المليجي المصري، المولود سنة (٥٥٠هـ) والمتوفى (٦٢٣هـ)،

فقد قال الحافظ الذهبي في ترجمته من سير أعلام النبلاء ٢٢/٢٥٧: «وكان شديد الأذمة (أي السمرة) يلغ بالقاف همزة»، فهل هذه الظاهرة خاصة بذلك الرجل، لقول الذهبي «يلغ»، أم أنها كانت معروفة عند المصريين؛ ويلاحظ أن الرجل من «مليح»، وهي من قرى المنوفية الآن.

وسمعت أستاذاً جامعياً آخر - في حديث إذاعي - يترضى على الصحابة فيقول: «وهم أهل التقوى وأهل المغفرة»، وهذا انتزاع خاطيء من القرآن الكريم، فإن عبارة «أهل التقوى وأهل المغفرة» إنما هي في حق المولى عز وجل، وذلك قوله تعالى من آخر سورة المدثر: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُوَى وَأَهْلُ الْغَفْرِ﴾، قال الزجاج: «أي هو أهل أن يتقى عقابه، وأهل أن يعمل بما يؤدي إلى مغفرته» معاني القرآن وإعرابه ٥/٢٥٠، وأخرج الترمذي من حديث أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ أنه قال في هذه الآية: «قال الله عز وجل: أنا أهل أن أتقى، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً فانا أهل أن أغفر له»، عارضة الأحوزي بشرح صحيح الترمذي ١٢/٢٢٩ (أبواب التفسير)، هكذا يكون الكلام، فاتقوا الله يا أساتذة في قرآنكم ودينكم!

وهذا أوان الشروع في المقصود، والله المستعان:

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمْ إِلَى الْهَلَكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، يستشهد الناس بهذه الآية الكريمة عندما يرون أحدهم يقدم على خطر، كأن يعترض سيارة مسرعة، أو يسير بجانب جدار يريد أن ينقض، أو يمر يده على نار مشتعلة، أو يصارع من هو أقوى منه، ونحو ذلك من ألوان المشتقات التي لا طاقة له بها، فيقولون له: حسبك ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمْ إِلَى الْهَلَكَةِ﴾، والاستشهاد بالآية لهذه الحالة إرث قديم، وقد تناقلته الألسنة حتى وصل إلينا، والصحيح أن الآية الكريمة نزلت في النفقة في سبيل الله والحض عليها، بتصوير الإمساك والبخل بأنهما هلاك يلقي فيهما الممسك والبخل نفسه، وصدر الآية وختامها يدلان على ذلك، قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمْ إِلَى الْهَلَكَةِ وَأَخْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ثمَّ إِنَّ سبب نزول الآية ينفي هذا التفسير الخاطيء، فقد روي عن أسلم أبي عمران، قال: «كنا بالقسطنطينية وعلى أهل مصر عقبة بن عامر الجهني، صاحب رسول الله ﷺ، وعلى أهل الشام فضالة بن عبيد صاحب رسول الله ﷺ، فخرج من المدينة صف عظيم من الروم، وصفنا لهم صفاً عظيماً من المسلمين، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم، ثم خرج إلينا مقبلاً، فصاح الناس فقالوا: سبحان الله! ألقى بيديه إلى التهلكة، فقام أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ، فقال: أيها الناس، إنكم تتأولون هذه الآية على غير التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، إنَّا لما أعزَّ الله تعالى دينه وكثر ناصريه، قلنا بعضنا لبعض سراً من رسول الله ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت، فلو أنا أقمنا فيها وأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله تعالى في كتابه يرد علينا ما هممنا به، فقال: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمْ إِلَى الْهَلَكَةِ﴾. انظر: أسباب النزول للواحدي ص ٥١، وسنن أبي داود ١٢/٣ (كتاب الجهاد)، والدر المنثور في التفسير بالمأثور ٢٠٧/١، هذا وقد ذكر الطبري آثاراً أخرى تدل على أن المراد من الآية ترك النفقة في سبيل الله. راجع تفسيره ٥٨٣/٣ - ٥٨٩.

يقول الله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، ويقول تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ويستشهد الناس بهاتين الآيتين فيمن ينقل كلاماً سيئاً من واحد إلى واحد، أو من طائفة إلى طائفة، ليقع فتنة أو وحشة بينهما، فهي النيمة، والفتنة في اللغة هي المحنة والاختبار والابتلاء. قال الشاعر:

وقد فتن الناس في دينهم وخلي ابن عفان شراً طويلاً

نعم، إن النيمة تفضي إلى الفتنة، ولكن ليست هي هي، فكأن العوام فسروا الفتنة في الآيتين بما تؤول إليه النيمة، لكن هذا ليس دقيقاً، كما أن سبب نزول الآيتين ينفي هذا الفهم والتأويل، وسياق الآية الأولى هكذا: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْسِدُوا إِكَّ اللَّهِ لَا يُحِبُّ الْمُعْسِدِينَ﴾ (١٩) وَأَقَاتِلُوهُمْ حَيْثُ ظَفَفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾، فالفتنة في الآية هي الشرك الذي أراده

الكفار من المؤمنين. قال الطبري: «فتأويل الكلام: وابتلاء المؤمن في دينه حتى يرجع عنه فيصير مشركاً بالله من بعد إسلامه، أشد عليه وأضر من أن يُقتل مقيماً على دينه، متمسكاً عليه، محققاً فيه»، تفسير الطبري ٥٦٥/٣.

وكذلك تفهم الآية الثانية: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾، في سياقها وسبب نزولها، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قد بعث عبد الله بن جحش وناساً معه من المسلمين إلى المشركين، فقتلوا عمرو بن الحضرمي، وذلك في أول يوم من رجب، فاستنكر المشركون ذلك، وقالوا: ألسنتم تزعمون أنكم تحرمون القتال في الشهر الحرام؟ فنزل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾، يقول: هذا كله أكبر عند الله من الذي استنكرتم، والفتنة التي أنتم مقيمون عليها، يعني الشرك أكبر من القتل، أي من قتل ابن الحضرمي، راجع أسباب النزول ص ٦١، وتفسير مجاهد ص ٢٣٢، وسيرة ابن هشام ٦٠٤/١.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ البقرة ٢٢٤، يستشهد كثير من الناس بهذه الآية على النهي عن الحلف، وليس الأمر على ذلك، ويظهر ذلك من تمام الآية، ومن معرفة سبب نزولها، وقول أهل التفسير فيها، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾، قيل إنها نزلت في أبي بكر الصديق إذ حلف ألا ينفق على مسطح بن أثاثة، حين خاض في حديث الإفك، ورمى عائشة الطاهرة بالباطل، وقيل: نزلت في عبد الله بن رواحة حين حلف ألا يكلم بشير بن النعمان - وكان زوجه على أخته - ولا يصلح بينهما.

وقد روي عن التابعي الجليل إبراهيم النخعي أن المعنى: «لا تحلف ألا تتقي الله، ولا تحلف ألا تبر ولا تعمل خيراً، ولا تحلف ألا تصل، ولا تحلف ألا تصلح بين الناس، ولا تحلف أن تقتل وتقطع»، وقال ابن قدامة في المغني ٤٤٠/١٣: «ومعناه لا تجعلوا أيمانكم بالله مانعة لكم من البر والتقوى والإصلاح بين الناس»، ولذلك قال ﷺ لعبد الرحمن بن سُمرة: «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً

منها فكفر عن يمينك وَأَتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ»، أخرجه البخاري في أوائل كتاب الإيمان والنذور ٨/١٥٩، وانظر: أسباب النزول ص ٧٢، وتفسير الطبري ٤/٤٢٢.

فالآية لا تنهى عن الحلف والإيمان، كيف والإيمان تُطْلَب، وتدور عليها وبها أحكام كثيرة في الشرع؟ ومع هذا البيان والتوضيح والتصحيح لموضع الاستشهاد من الآية الكريمة، ينبغي أن يكون معلوماً أن الإفراط في الحلف مكروه ومذموم، لأنه يؤدي إلى الكذب، وقد قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، إن المعنى: بترك الحلف، فإنكم إذا لم تحلفوا لم تتوجه عليكم هذه التكليفات. راجع تفسير القرطبي ٦/٢٨٥.

يقول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، يستشهد كثير من الناس بهذه الآية على أن التقوى طريق وسبب لتعليم الله وتوفيقه لعباده، ويسوون بينها وبين قوله تعالى: ﴿إِنْ تَنَقَّوْا لِلَّهِ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وهذا التفسير غير صحيح، وبدء ذي بدء، فإن آيتي الأنفال والطلاق مبيتان على أسلوب الشرط والجزاء، وليس كذلك آية البقرة، فانفتت التسوية، هذا أولاً.

وثانياً: فإن هذا الجزء المتلو من الآية إنما هو ختام لآية المداينة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ...﴾ الآية، وهي أطول آية في الكتاب العزيز، وقد اشتملت على أحكام في كتابة الدين والإشهاد عليه، والرهن، وقد ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾، أي: واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، ويعلمكم الله أحكامه المتضمنة لمصالحكم. وقال الطبري: «يعني بقوله جل ثناؤه (واتقوا الله): وخافوا الله أيها المتدينون في الكتاب والشهود، أن تضاروهم... ويعني بقوله: (ويعلمكم الله): ويبين لكم الواجب لكم وعليكم»، تفسير الطبري ٦/٩٣.

وهذا هو التوجيه الصحيح للآية الكريمة، لكن بعضاً من قدامى المفسرين وجَّهوا الآية على المعنى الذي يشيع عند العوام، ومن هؤلاء القدامى: ابن عطية في

المحرر الوجيز ٥٢٠/٢، والقرطبي ٤٠٦/٣، وابن كثير ٥٠٠/١، لكن المحققين على غير ذلك.

قال الزركشي في البرهان ١٤٣/٤: «وأما قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾، فظن بعض الناس أن التقوى سبب التعليم، والمحققون على منع ذلك، لأنه لم يربط الفعل الثاني بالأول ربط الجزاء بالشرط، فلم يقل: «وَاتَّقُوا اللَّهَ يُعَلِّمُكُمُ»، ولا قال: «فيعلمكم الله»، وإنما أتى بواو العطف، وليس فيه ما يقتضي أن الأول سبب للثاني، وإنما غايته الاقتران والتلازم، كما يقال: زرني وأزورك، وسلّم علينا ونسلّم عليك، ونحوه، مما يقتضي اقتران الفعلين والتعارض من الطرفين، كما لو قال عبد لسيدة: أعطني ولك عليّ ألف، أو قالت المرأة لزوجها: طلقني ولك ألف، فإن ذلك بمنزلة قولها: بألف أو عليّ ألف، وحينئذ فيكون متى علم الله العلم النافع اقترن به التقوى بحسب ذلك. ونظير الآية قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

وقال أبو حيان في البحر المحيط ٣٥٤/٢: «ويعلمكم الله: هذه جملة تذكر بنعم الله التي أشرفها التعليم للعلوم، وهي جملة مستأنفة لا موضع لها من الإعراب، وقيل: هي في موضع نصب على الحال من الفاعل في (واتقوا) تقديره: واتقوا الله مضموناً لكم التعليم والهداية... وهذا القول - أعني الحال - ضعيف جداً، لأن المضارع الواقع حالاً لا يدخل عليه واو الحال إلا فيما شذ من نحو: قمت وأصك عينه، ولا ينبغي أن يحمل القرآن على الشذوذ».

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران: ٧٣].

وهذه آية يضل في فهمها كثير من الناس، وبخاصة تلك الطائفة من المتعصبين الجهلة، يقولون: إن الله نهانا أن نسمع لمن ليس من ديننا، وألا نتبع إلا من هم على ديننا الإسلامي الحنيف، وسياق الآية وسبب نزولها ينفيان ذلك، فالآية السابقة تقول: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهِ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٧٢) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ، فالآية نزلت في اليهود، حيث

قال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان دون الاعتقاد، واكفروا به في آخر النهار، ثم قال بعضهم لبعض: ولا تصدقوا إلا من تبع دينكم، فكان يهودياً. فالآية تحكي عن مكر اليهود، ومحاولتهم تشكيك المؤمنين في دينهم، ورغبتهم في أن يرجعوه عن دينهم، ولا تخاطب الآية المؤمنين وتنهاهم عن متابعة غير المسلمين، وانظر: أسباب النزول ص ١٠٤، وتفسير الطبري ٥/٥١١.

في يوم الجمعة وفي أثناء الخطبة اندفع الخطيب يحث المصلين على اصطحاب أطفالهم لحضور الجمعة والجمعات، وأخذ يحشد الأدلة والشواهد، إلى أن انتهى إلى قوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، فكبا كبوة لا ينهض منها، وعثر عثرة يصعب عليه التخلص منها، وذلك أنه رد «الزينة» في هذه الآية إلى أختها في سورة الكهف ٤٦ ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وبأبعد ما بينهما! وقد غفل هذا الخطيب عن سبب نزول تلك الآية، وهو ما روي عن ابن عباس أنهم كانوا في الجاهلية يطوفون بالبيت عراة، الرجال بالنهار، والنساء بالليل، وكانت المرأة تقول وهي تطوف:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

فالزينة في سورة الأعراف: هي الثياب، وما وارى العورة، وكذلك تفسر «الزينة» في الآية التي تلي ذلك: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وانظر: أسباب النزول ص ٢٢٢، وتفسير الطبري ١٢/٣٨٩.

يقول تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

يخطيء بعض الناس في تفسير «قرآن الفجر» هنا بأنه القرآن الذي يتلى ساعة الفجر، ثم يخطيء بعض المذيعين حين يقدمون التلاوة في ذلك الوقت، فيقولون: قرآن الفجر يتلوه الشيخ فلان. والصحيح أن المراد بقرآن الفجر، هو صلاة الفجر، أي صلاة الصبح، وعبر عنها بالقرآن خاصة دون غيرها من الصلوات؛ لأن القرآن هو أعظمها. إذ قراءتها طويلة ومجهور بها. قال القرطبي: «وقد استقر عمل المدينة

— أي عمل أهل المدينة، وعملهم حجة — على استحباب إطالة القراءة في الصبح قدرًا لا يضر بمن خلفه»، تفسير القرطبي ٣٠٥/١٠، والدر المنثور ١٩٦/٤.

وبعد: فهذا قليل من كثير، مما يقع فيه الناس من أوهام وتخليط في تفسير كلام الله عزَّ وجلَّ، وقد أمسكت عن ذكر أشياء من هذه الباب لأنني رأيتها تحمل صوراً من الهزل والفكاهة، ونحن نُجل كتاب ربنا عزَّ وجلَّ أن تكون آياته البينات معرضاً للتفكه والمنادمة.

ولا يبقى إلا أن نتوجه إلى مشايخنا الخطباء والوعاظ، ثم إلى زملائنا الجامعيين الذين أخذوا ينازعون المشايخ سلطانهم في الوعظ والتذكير، بل والفتيا في دين الله، نتوجه إلى هؤلاء وهؤلاء أن يتقوا الله في كتابه العزيز، ولا يتجرءوا على القول فيه دون حجة أو دليل، وأن يراجعوا الكتب ويستفتوا المراجع، والله يعصمنا وإياهم من الزلل.



علي الجارم.. لغويًا نحويًا^(١)

الشعر باب العربية، والشعراء الكبار هم أقدر الناس على معرفة أسرار العربية، والوقوف على دقائقها، ثم الحرص عليها والذود عنها، وما كان ذلك إلا لأنهم قرأوا فأكثروا القراءة، وحفظوا فجوّدوا الحفظ، ولن تجد شاعراً كبيراً إلا ووراءه رصيد ضخّم من القراءة المحيطة الجامعة للغة في مجالاتها المختلفة، ويظهر هذا الرصيد فيما يسمّيه أهل زماننا «المعجم الشعري» للشاعر: حروفاً وأبنية وتراكيب ودلالة.

علي الجارم «رحمه الله» واحد من كبار الشعراء الحفظة العلماء الضابطين، وكانت هذه سمة الجيل كله، شعراء وناثرين، مع تفاوت يسير بينهم، برزق الله المقسم على خلقه. نعم كان هذا الجيل جيل الجد والتحصيل، جيل لم يرفع عينه عن القراءة، ولم يشغله عنها حديث وثرثرة عن التجربة والإبداع والخلق والمعاناة، فإن من الملاحظ الآن أن الأدباء والشعراء يتكلمون أكثر مما يقرأون، ويستمعون أكثر مما يتأملون، وقد قال ابن قيم الجوزية: «من لم تنفعه عينه لم تنفعه أذنه».

وأنت إذا نظرت إلى ما كان بيد ذلك الجيل من الكتاب المطبوع، وجدته شيئاً نزرأ قليلاً، ولكن هذا النزر القليل صنع رجالاً، وشاد ثقافة. واليوم كثرت المطبوعات، وقلّت القراءة.

وداعية أخرى إلى العجب: أن الكتاب المطبوع في ذلك الزمان لم يكن معتنى

(١) مجلة «الهلal»، مايو ١٩٩٩ م.

وهو آخر مقال كتبه الأستاذ الدكتور محمود الطناحي قبيل رحيله المفاجيء!

به، من حيث التحقيق والتوثيق وحسن الإخراج، فلم تكن مناهج تحقيق النصوص قد استقرت، ولم تكن وسائل الطباعة الحديثة قد عُرِفَتْ، ومع كل ذلك فقد أقام هذا الكتاب «المطبوع» المحدود، الساذج في إخراجِه، حضارة سامقة، أضاءت ديار العرب والإسلام كلها، وما أشبه أدباء ذلك الزمان إلا بتاجر صنع، بيده رأس مال محدود، ولكنه استطاع بلباقته وحسن تأتيه أن يحرك هذا المال المحدود، ويغدو به وروح، ليصنع منه ثروة ضخمة.

كان هذا هو طريق الجارم وأدباء زمانه، أخلصوا أيامهم للقراءة والتحصيل، ووعت ذاكرتهم هذه النعمات الجليلة التي حملها بديع الشعر وكريم النثر، في موروثنا الحافل. وحين تهيأت لهم أدوات القول والإبانة، خالط الطارف التليد، وذاب مال المورث الجامع في مال الوارث الرشيد، أو كما قال صديقنا عبد اللطيف عبد الحليم، عن شاعرنا الجارم: «ويطلّ على هذا المحفوظ المذخور من عل، فإذا بمحفوظه يتوارى ليرز كلامه هو».

وإذا كانت هذه الكلمة اليوم عن «علي الجارم» اللغوي النحوي؛ فإن ذلك يلتبس من جانبين: الجانب الأول: نشاطه التألّيفي والبحثي، من حيث هو معلم للغة العربية، ثم كبير مفتشي اللغة العربية بوزارة المعارف المصرية، ثم من حيث هو عضو مؤسس من أعضاء مجمع اللغة العربية.

والجانب الثاني: إبداعه الشعري، من حيث هو شاعر كبير، في شعراء عصره، وشعراء ذلك الزمان كانوا — كما قلت — من اللغة والنحو بمكان مكين.

وقبل الحديث عن هذين الجانبين، أود أن أشير إلى شيء من تلك المكانة اللغوية التي اقتعدها الجارم عند علماء عصره، فهذا الشيخ أحمد محمد شاكر القاضي الشرعي، وهو محدث العصر، وواحد من مدرسة الأفذاذ في تحقيق النصوص ونشرها يذكر أنه كان يلجأ إلى علي بك الجارم، ويعرض عليه عمله في تحقيق كتاب «الرسالة» للشافعي، وكان مما عرضه عليه كلمة «النذارة» وهي مضبوطة في المخطوطة بكسر النون، ولم يرد ذلك في المعاجم المتداولة، ولكن المخطوطة

بقلم الربيع بن سليمان تلميذ الشافعي، وعليها خطه عام ٢٦٥ هـ وهذا تاريخ مهم جداً في علم المخطوطات.

يقول الشيخ أحمد شاکر: «ومن أقوى الأدلة على عنايته بالصحة والضبط، أنه وضع كسرة تحت النون في كلمة «الندارة»، وهي كلمة نادرة لم أجدها في المعاجم إلا في القاموس، ونص على أنها عن الإمام الشافعي. وهي تؤيد ما ذهبتُ إليه من الثقة بالنسخة، وتدل على أن الربيع كان يتحرى نطق الشافعي ويكتب عنه عن بينة.

ومن الطرائف المناسبة هنا أنني عرضت هذه الكلمة على أستاذنا الكبير العلامة أمير الشعراء علي بك الجارم، فيما كنت أعرض عليه من عملي في الكتاب، فقال لي: «كانك بهذه الكلمة جئت بتوقيع الشافعي على النسخة». وقد صدق حفظه الله».

الجارم لغوياً ونحوياً:

ثم نعود إلى هذين الجانبين اللذين يُلتَمَسُ منهما عناية الجارم باللغة والنحو.

ففيما يتصل بالجانب الأول فقد كان لعلي الجارم أثر ظاهر في تأليف الكتاب المدرسي، الذي كان يقدم لطلبة المدارس في المرحلتين: الابتدائية والثانوية، ومن خلاله يتعلمون النحو والبلاغة والأدب. فكانت هذه الكتب التي اشترك في تأليفها مع نفر من كبار علماء عصره: المجمال في الأدب العربي، والمفصل في الأدب العربي، والبلاغة الواضحة، ثم ذلك الكتاب الجهير الصوت، الذائع الصيت «النحو الواضح»، ويقول النحوي الكبير الأستاذ إبراهيم مصطفى، في شأن سلسلة (النحو الواضح): «وهي كتب بارعة في الشرح والتوضيح، وفي تقريب النحو وتيسيره، وقد أراحت مئات من المعلمين، ويسرت على ألوف من المتعلمين، وأزاحت عن هذا العلم سحباً من النفور والكراهية كانت تحيط به وتصد المتعلمين، ثم شاعت في البلاد العربية، وصارت كالمناهج لتعليم النحو، وأحدث أسلوبها في الشرح والتأليف مدرسة، أخذ المعلمون يتبعونها ويؤلفون على مثالها، محاكين أو مقلدين.

والكتاب المدرسي في ذلك الزمان كان يقوم عليه كبار الأدباء والشعراء،

أمثال: حفني بك ناصف، والشيخ أحمد الإسكندري، والشيخ مصطفى طموم، وأحمد بك العوامري، فكان ذلك الكتاب مهياً جليلاً القدر، وكان يُنظر إليه بتوقير شديد، على غير ما نراه الآن من النظر إلى الكتاب المدرسي نظرة استخفاف وازدراء، بل إن هذا الوصف «كتاب مدرسي» قد صار مجلبة للتنقص وطريقاً إلى المعابة، وآية ذلك أنه لا يحسب في موازين الأستاذ الجامعي، فلا يؤخذ في ترقية، ولا يقدم إلى جائزة، ولا شك أن الذي كره إلى الناس ذلك «الكتاب المدرسي» أنه يتخذ الآن سبيلاً للتربح وجمع المال.

وفي طريق الكتاب المدرسي قام الجارم بعمل جليل آخر، هو تقديم عيون التراث إلى النشء الصغار من تلاميذ المدارس، ومن ذلك تلك الطبعة من «البخلاء» للجاحظ، التي أخرجها مشتركاً مع أحمد العوامري، ثم كتاب «الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية» لابن الطقطقي، مشتركاً مع الجغرافي الكبير محمد عوض إبراهيم، وكتاب «المكافأة وحسن العقبى» لأحمد بن يوسف الكاتب، مشتركاً مع أحمد أمين، وكتاب «تهذيب الأخلاق» لمسكويه، مشتركاً مع نفر من كبار الأساتذة. فانظر ماذا كان يقدم لطلبة المدارس في تلك الأيام؟

فهذا هو الشطر الأول من أثر علي الجارم، في التأليف اللغوي والنحوي، سقته على سبيل الوجازة والاختصار.

أما الشطر الثاني منه فمجلاه نشاطه في مجمع اللغة العربية ولجانه. وقد كان الجارم أحد الأعضاء المؤسسين للمجمع، واشترك في لجانه كلها، فرسّخ تقاليد مجمعية لا زالت باقية إلى الآن، وملأ اللجان باقتراحاته ومناقشاته، مما هو مذكور ومسطور في مجلة المجمع ومحاضره.

ومن بحوثه واقتراحاته:

الترادف — طرق تكميل المواد اللغوية — المصادر التي لا أفعال لها — وضع قواعد جديدة يستعان بها في اشتقاق الأفعال من الجامد — بحث في فعل بمعنى مفعول وبمعنى قابل للفعل — الجملة الفعلية أساس التعبير في اللغة العربية — الوضع

بطريق المجاز — مراتب وضع الألفاظ — مشروع تيسير الكتابة العربية — مصطلحات الشئون العامة .

ومن مجموع هذه البحوث والمقترحات أحب أن أقف عند أمرين اثنين، يظهر فيهما تضرع الجارم من اللغة، وصبره على تحصيلها، واحترامه لها :

الأمر الأول: ذلك البحث الذي وسمه (بالمصادر التي لا أفعال لها)، وقد أقام الجارم هذا البحث على ما ذكره ابن سيده في صفحة (٢٢٣) من الجزء الرابع عشر من المخصص (باب أسماء المصادر التي لا يشتق منها أفعال)، وقد انتهى ابن سيده إلى أن هناك أربعة وخمسين مصدراً لا أفعال لها .

يقول الجارم: «وقد تناولت هذا البحث بإفاضة واستيعاب وتنقيب في المعجمات، فظهر أن لجميعها أفعالاً، عدا سبعة منها». ثم أخذ رحمه الله في ذكر كلام — ابن سيده، ثم تعقبه بما في المعاجم: الصَّحاح، واللسان، والقاموس، والتاج، والمصباح المنير .

والأمر الثاني: ما ذكره عن «غريب اللغة»، قال: «وإذا كانت لدينا ذخيرة مغمورة في اللغة فلم لا نستعملها ونحييها، ونقلها من بداوتها إلى نور الحضارة؟ والاستعمال كفيل بصقلها واستساغتها» .

ويعود مرة أخرى إلى «غريب اللغة» فيقول، وهو يتحدث عن المعجم الكبير: «فإن هذا المعجم سيشتمل على كل شيء، من حيث الكلام الصحيح وقديمه، مشهوره وغريبه، ذائع ونادر» .

وقضية «غريب اللغة» من القضايا الشائكة العسرة في زماننا هذا، فكثير من الناس ينادون الآن بهجر الغريب من الكلام، واستعمال السهل القريب، وما أظنهم ينادون بذلك إلا لسبيين: السبب الأول: عدم معرفتهم بكثير من هذا الكلام الغريب، والإنسان يستوحش مما لا يعرفه وينكره، على ما قال ربنا عزَّ وجلَّ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ﴾ [يونس: ٣٩] .

والسبب الثاني: أنهم يخلطون بين «الغربة في اللغة»، والغربة في «البلاغة». فالغربة في البلاغة يراد بها: الكلام الحوشي المستكره، أصواتاً ودلالة، على ما هو مذكور في كتب البلاغيين.

أما غربة اللغة فهي شيء آخر. فالغريب من الكلام — كما ذكره أبو سليمان الخطابي (٣٨٨هـ): «وهو الغامض البعيد من الفهم، كالغريب من الناس إنما هو البعيد عن الوطن المنقطع عن الأهل... ثم إن الغريب من الكلام يقال به على وجهين: أحدهما أن يراد به بعيد المعنى غامضه، لا يتناوله الفهم إلا عن بعد ومعاناة فكر. والوجه الآخر أن يراد به كلام من بعدت به الدار، ونأى به المحل من شواذ قبائل العرب، فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربناها، وإنما هي كلام القوم وبيانهم، وعلى هذا ما جاء عن بعضهم، وقال له قائل: أسألك عن حرف من الغريب، فقال: هو كلام القوم، إنما الغريب أنت وأمثالك من الدخلاء فيه».

أقول: واللهم نعم: الغريب من كلام القوم، وعدم أنسنا به أو استعمالنا له، لا يخرجنا عن دائرة كلام العرب، وعلى أن الاستعمال ليس بدليل على الحسن، كما يقول ضياء الدين بن الأثير.

ومعلوم أن كلام العرب على وجهين: واضح وغريب، ذكر هذا ونبه عليه واضح أول معجم عربي: الخليل بن أحمد الفراهيدي، قال في مقدمة كتاب العين: «بدأنا في مؤلفنا هذا بالعين، وهو أقصى الحروف، ونضم إليه ما بعده حتى نستوعب كلام العرب: الواضح والغريب».

وهذا الغريب من كلام العرب قد يكون له ما يقابله من الواضح، فلك أن تعدل عن غريبه إلى واضح، مع فقر في معجمك اللغوي، أنت مسؤول عنه ومؤاخذ به، عند تفاضل أقدار الكاتبين. وقد لا يكون له ما يقابله من الواضح، فلا معدى لك عن معرفته واستعماله، والجهل به حيثئذ مزرٍ بصاحبه، ومضيق عليه سبل القول ومناوح الكلام، ولا يحس لذع هذا، ويستشعر المحنة فيه إلا الشعراء، من حيث هم

محتاجون دائماً إلى وفرة من الألفاظ وسعة في الكلام، لا يفتحهما لهم ذلك الكلام السهل القريب.

ودعوة الجارم إلى استحياء الغريب من اللغة إنما هي دعوة في حق موضعها؛ لأن هذا الغريب من صميم اللغة، والدعوة إلى هجره والتجافي عنه ليست من البر بهذه اللغة الشريفة، بل هي عدوان عليها، وتحيف لشطر كبير منها. وهذه الألفاظ التي ينكرها بعض أهل زماننا ويستبشعونها لست تجدّها في النصوص الأدبية فقط، من شعر ونثر، بل إنك واجدها في كتب الأنساب والتاريخ والبلدانيات (الجغرافيا) وكتب الفلك والطب والفلاحة والزراعة، وسائر ما كتب الأوائل من علومهم وفنونهم.

وقد نطق شعر الجارم بهذه الرغبة العارمة في استحياء تلك الألفاظ التي يتحاشاها الأدباء والشعراء في زماننا هذا؛ زهادة فيها أو جهلاً بها، أو استسهالاً للألفاظ القريبة السهلة المستهلكة، فيقول في واحدة من كريم شعره:

كم لفظة جهدت مما نكررها	حتى لقد لهثت من شدة التعب
ولفظة سجنت في جوف مظلمة	لم تنظر الشمس منها عين مرتقب
كأنما قد تولى القارطان بها	فلم يؤوبا إلى الدنيا ولم تؤب

ثم صدّق شعر الجارم مقترحه، فكثّر في شعره الغريب كثرة ظاهرة، وهذا مثل واحد من شعره، من قصيدته في مدح الشيخ الإمام محمد عبده:

المجد فوق متون الضمر القود	تطوي الفلا بين إيجاف وتوخيد
إذا رمت عرض صيهود مناسمها	رمت إليها الليالي كل مقصود
أو مزقت طيلسان الليل من خيب	كست خيال الأماني ثوب موجود
مولاي علمتني كيف الثبات إذا	لم يترك الرعب قلباً غير مزءود

على أن مما يجب التنبه له أن جميع شعراء النهضة الشعرية الحديثة، بدءاً من محمود سامي البارودي حتى شاعرنا علي الجارم كانوا عارفين بهذا الغريب من

الكلام، وكانوا لا يخلون شعرهم منه، بل إن أمير الشعراء المعاصرين وعلمهم الكبير أحمد شوقي كان مكثراً من استعمال ذلك اللون من اللغة، وله منه أعاجيب، منها قوله:

خلوا الأكاليل للتاريخ إن له يدأ تؤولفها درأ ومخشلبا.

فانظر إلى «المخشلب»، وهو خرز يشبه الدر من حجارة البحر، وليس بدر ويقال إنه لفظ نبطي، والعرب تقول «الخضض». فهذه الكلمة، هل يطيقها أحد من أهل زماننا؟

لقد استخرجها شوقي من محفوظه من شعر أبي الطيب المتنبي، وذلك قوله: بياض وجه يريك الشمس حالكة ودر لفظ يريك الدر مخشلبا

وقد ظهر لي من قراءة شعر الجارم أن كثيراً من هذا الغريب الذي فاض به شعره إنما واتاه من دربة طويلة مع النصوص الشعرية الماثورة، ولم يأت من قراءة كتب اللغة أو المعاجم فقط. وآية ذلك أن بعضاً من تراكيبه الشعرية إنما انتزعه مما استقر في محفوظه من شعر الأوائل:

فمن ذلك قوله من قصيدة في ذكرى المولد النبوي الشريف:

إذا صال لم يترك مصالاً لصائل وإن قال ألفت سمعها البلغاء

فالشطر الأول منتزع من قول معاوية بن أبي سفيان، يمدح عبد الله بن عباس رضي الله عنهم:

إذا قال لم يترك مقالاً لقائل مصيب ولم يثن اللسان على هجر

وقوله:

غضبان رد إلى اليافوخ عفرته ومن يصول ليثاً وهو غضبان
لقد حمينا أباة الضيم حوزتنا من أن تباح ودناهم كما دانوا

فهذا شعر ينظر إلى شعر الشاعر الجاهلي شهل بن شيبان، المعروف بالفند الزماني :

مشينا مشية الليث غدا والليث غضبان
ولم يبق سوى العدو ن دناهم كما دانوا
وقوله من قصيدته في سعد زغلول باشا :

إن أم المجد مقالات فكم سوفت بين جنين وجنين
منتزع من قول الشاعر :

بغات الطير أكثرها فراخاً وأم الصقر مقالات نزور
وقوله من قصيدته في محمد محمود باشا :

طارت شعاعاً وهولاً مثلما عصفت هوج الرياح برمل اليد في اليد
مأخوذ صدره من قول قطري بن الفجاءة، من شعراء الخوارج :

أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأبطال ويحك لن تراعي
وفي القصيدة نفسها يقول :

من كل أروع عنوان الجهاد به قلب ركين ورأي غير مخضود
وفي هذا البيت شميم من قول حسان بن ثابت، يرثي عثمان بن عفان، رضي الله عنهما :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً
وفي هذه القصيدة أيضاً :

ترنو إليه فتغضي من مهابته فالطرف ما بين موصول ومصدود
ويحمل بعض هذا التركيب أثر قراءة لشعر الفرزدق، وهو قوله يمدح علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، المعروف بزين العابدين :

يغضي حياءً ويغضي من مهابته فما يكلم إلا حين يتسم

ويقول الجارم في الأسرة العلوية :

شمس العداوة والحسام مجرد فإذا انطوى فملائك أطهار
وصدر البيت مسلوخ من قول الأخطل ، في بني أمية ، من قصيدته الباذخة في
عبد الملك بن مروان :

شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا
ويقول في مدح أحمد لطفي السيد باشا :

ففي سكتة المبهور أصدق مدحة وكل كلام بين حق وباطل
وفي ذلك المديح نوع شبه بقول عيسى بن أوس ، في الجنيد بن عبد الرحمن ،
أمير خراسان :

مدحتك بالحق الذي أنت أهله ومن مدح الأقوام حق وباطل
ومن مرثية الجارم في صديقه «أبو الفتح الفقي» يقول - وهي من قصائده
الجياد :

كل ابن أنشئ في الحياة إلى مدى والمرء في الدنيا إلى ميقاته
وهو ينظر إلى قول كعب بن زهير رضي الله عنه ، في «لاميته» الشريفة «بانت
سعاد فقلبي اليوم متبول» :

كل ابن أنشئ وإن طالت سلامته يوماً على آلة حذاء محمول
ويقول الجارم في مدحه للفاروق ملك مصر السابق ، ويهنته بعيد الفطر :
هنيئاً لك العيد الذي بك أشرقت منازل بهشراً وضاءت رحائبه
وصدر البيت من قول المتنبي يمدح سيف الدولة ، ويهنته بعيد الأضحى :

هنيئاً لك العيد الذي أنت عيد وعيد لمن سمى وضحى وعيدا
ومن شعره في قصيدة ضمنها بعض ذكرياته بعد عودته من أوروبا :
يلقى بها أينما ألقى عصاه بها أهلاً بأهل وأصهاراً بأصهار

ولا ريب أن الجارم قال هذا البيت وفي محفظة قول الأول :

لا يمنعك خفض العيش في دعة نزوع نفس إلى أهل وأوطان
تلقى بكل بلادٍ إن حللت بها أهلاً بأهلٍ وجيراناً بجيران

ومن قصيدة للجارم في ويلات الحرب العالمية الأولى ، يقول :

لج به الموت فأودى به وحز منه الليت والأخدعا

وآخر البيت من قول الشاعر الأموي الصمة بن عبد الله القشيري :

تلفتُ نحو الحي حتى وجدْتُني وجعت من الإصغاء ليتاً وأخدعا
ويقول في وصف جريدة لم يسمها :

وكنت صحيفة الأبرار حقاً تلقتك الكنانة باليمين
وقد نظر في ذلك إلى قول الشماخ ، في عرابة الأوسي :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين
ومن مرثيته لصديقه محمود فهمي النقراشي باشا ، يقول الجارم :

شيئان ما عيب البكاء عليهما فقد الشباب وفرقة الألاف
وهذا من قول الشاعر :

شيئان لو بكت الدماء عليهما عيناى حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما فقد الشباب وفرقة الأحباب

وهذه القصيدة التي رثى بها الجارم صديقه النقراشي ، هي من أعلى شعره فناً وإحكاماً ، ومن أغربه لغةً وبياناً ، وقد أقامها على البحر «الكامل» ، واختار لها الفاء المكسورة رويّاً ، وأولها :

ماء العيون على الشهيد ذراف لو أن فيضاً من معينك كافي

وأحسب أن الجارم حين جالت هذه القصيدة في نفسه : موضوعاً وبحراً ورويّاً ، إنما كان يستدعي من مذكورة أخرى باذخة لأبي العلاء المعري ، يرثي فيها

أبا أحمد الموسوي، الملقب بالطاهر، وهو والد الشريف الرضي، والشريف المرتضى، ومطلعها:

أودى فليت الحادثات كفاف مال المسيف وعنبر المستاف
و «المستاف» هي إحدى القوافي التي انتزعها الجارم من قصيدة أبي العلاء،
قال:

ذكرى كحالية الرياض شميمها راح النفوس وراحة المستاف
وليست «المستاف» وحدها هي التي انتزعها الجارم من قوافي أبي العلاء في
هذه القصيدة، فهناك أخريات، تراها في القصيدتين، وهي: الألف – عبد مناف –
دراف – الرجاف – الأصداف – الأطراف – الرعاف – ثقاف – الأسياف – قوادم
وخواف – الضافي – قواف – الأشراف – سلاف – المصطاف – الأعطاف –
المثناف .

ومع ذلك فتبقى في قصيدة الجارم قواف، هي من كيسه ومن حر ماله، ومن
أحلاها وأعذبها وأخفها دماً، مع عربية أصيلة، قوله:

إن الفتى ما فيه من أخلاقه فإذا ذهبين فكل شيء «ما في»
والحذف هنا بعد «ما في» جميل جداً.

وهكذا يكون الشاعر الكبير: تمتلئ نفسه بموروث الكلام: شعراً ونثراً،
ويجري هذا الموروث في دمه جريان الدم في العروق، وتخالط بشاشته قلبه وعقله،
ثم يفيض على لسانه: شريف المحتد موصول النسب، ولكنه يبدو هو في نفسه سامق
الهامة، عالي الطول، كذلك الطول المتوارث في بني عبد المطلب .

ومن وراء ذلك كله فللجارم في شعره استعمالات دالة على بصره باللغة
والتصريف، يقول في إحدى قصائده:

هبنني رجعت إلى الأوتار رنتها فهل لشرخ الصبا واللهو رجعان

والفعل «رجع» هنا استعماله الجارم متعدياً فنصب به «رنتها»، وكذلك استعماله متعدياً في قوله:

وقفت تجدد آثارها وتنشر للعرب أشعارها
وترجع بغداد بعد الفناء تحدث للناس أخبارها
وفي هذه القصيدة نفسها يقول:

ترد الشبيبة للصالحات وترجع للدين هتارها

وهذا الفعل الثلاثي «رجع» يستعمل لازماً ومتعدياً، فيقال: رجع الحق إلى صاحبه، ورجعت أنا الحق إلى صاحبه، وهذا هو الأفصح أن يستعمل «رجع» متعدياً، فيقال: رجعت الكتاب إلى صاحبه، ولا يقال: أرجعته، إلا في لغة لهذيل ضعيفة.

وعلى تلك اللغة الفصيحة جاء القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمَمِكَ كَيْ تَفَرَّغَ عَنْهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ [طه: ٨٩]، ثم جاء المصدر من الثلاثي أيضاً، فقال تعالى: ﴿لَا تَرْجِعْ إِلَى رَبِّهِمْ لِقَاءٍ﴾ [الطارق: ٨].

ومن ثقافة الجارم اللغوية أيضاً استعماله الفعل «أمل» مخفف اللام، فقال:

إذا أمل الفتى فالهزل جد وإن ينس الفتى فالجد هزل

وأكثر ما يستعمل الناس هذا الفعل مشدداً «أمل» إلى حد أن هذا الفعل المخفف — مع سلامته اللغوية ومجيء اسم الفاعل واسم المفعول منه مجيئاً صالحاً «أمل ومأمول» — قد خفي على بعض النحاة الأوائل، وهو أبو نزار الحسن بن صافي بن عبد الله البغدادي، المعروف بملك النحاة، المتوفى (٥٦٨هـ) فقد أثر عنه أنه قال: «وأمل، لم أسمع له فعلاً ماضياً»، وقد رد عليه ابن الشجري، وذكر له أن اللغويين حكوه وأجازوه، وذكر له شيئاً من شواهد، ومنها قول المتنبي:

حرموا الذي أملوا وأدرك منهم آماله من عاذ بالحرمان
ومن فقه الجارم باللغة أيضاً استعماله كلمة «سائر» بمعنى «باق»، يقول في
قصيدة في رثاء الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي:

تمرُّ به مرّاً فيسيبك بعضه وتقرؤه أخرى فيسيبك سائره
واستعمال «سائر» بمعنى «باق» هو الفصحح الأكثر، مأخوذ من السَّور، وهو ما
يبقى في الإناء، ويرى بعض اللغويين أنه هو الصواب، ولا صواب غيره، يقول مجد
الدين بن الأثير: «السائر: الباقي، والناس يستعملونه في معنى الجميع، وليس
بصحيح». ومثل ذلك قال ابن الجوزي والحري، لكن المرتضى الزبيدي حكى عن
بعض أئمة اللغة والتصريف أنه يجوز استعمال «سائر» بمعنى الجميع.

ويستشهد أصحاب الرأي الأول بشواهد كثيرة من النثر والشعر، ومن أحلى
شواهد قول عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط الأموي، ويعرف بأبي قطيفة:
لهم منتهى حبي وجل مودتي وصفو الهوى مني وللناس سائره
وهكذا تزلج الجارم من لغته وفقهها، وعرف لها حقها فيما كتب وفيما نظم،
فأحلت هذه المنزلة الرفيعة بين شعراء زمانه، واقتعدت له مكاناً عالياً في ركب الشعراء
العظام، على ما قال هو يصف شعره، في مقدمة الجزء الثاني من ديوانه.

«شعر نصر الفصحى فنصرته، وصان لها ديباجتها فصانته».

وكما صان الجارم العربية فصانته له شعره، فسيصونه الزمن أيضاً، فيبقى طرياً
غضاً على الألسنة، مصوناً في تلايف القلوب، على ما قال حسَّان بن ثابت رضي الله
عنه:

مصون الشعر تحفظه فيكفي وحشو الشعر يورثك المللا



تراثنا.. رحلة شاقة شيقة^(١)

ارتبطت ضخامة التراث الإسلامي العربي وعظمته بسمة تميّز بها الإسلام، وهي أنه احتوى كثيراً من الأمم ذات الحضارات، والتي بعد أن دخلت في دين الله أفواجاً ونسيث ما كان يعبد آباؤها من قبل هجرث لسانها القديم، واتّخذت اللسان العربي أداة فكر وبيان.

ولم يبقَ فرق بين هذه الأمم والأمة العربية إلا فرق اللون والدم، وهو فرق ساقطٌ مهدر في موازين الإسلام.

ثم إن الحضارة الإسلامية فوق أنها أبدعت وأنتجت في شتى ضروب العلم والمعرفة — كانت حلقة اتصال بين تراث اليونان وبين اللاتينية الحديثة، مما يشهد بفضل تراثنا وحضارتنا على النهضة الأوروبية الحديثة.

والمتابع لحركة الإبداع الإسلامية يجد أنها لم تخمد جذوتها، ولم تسكن حركتها بتغير الحكام أو تبدل الأيام أو تعاقب النواصب. ومن أول ما يشهد لذلك احتواء قرني الغزو الصليبي والتتري للعالم الإسلامي نخبةً عريضةً من كبار العلماء والمفكرين، مع أن الهجوم الكاسح كان كفيلاً بالقضاء على هذه الأمة لولا دفع الله وصيانتها لها بما أودعه في روح العقيدة الإسلامية من عوامل النماء والبقاء والازدهار.

كما أن غياب حاضرة من حواضر الإسلام عن الساحة الفكرية كان داعياً لقيام حاضرة أخرى تملأ الفراغ وتدعم المسيرة.

(١) مجلة البيان — لندن — يونيو — ١٩٩٩.

وأمر آخر أشد وضوحاً هو أن كثيراً من تراثنا قد بقي موفوراً يملأ الخزائن العامة والخاصة إلى عهد قريب، وأن ما ضاع منه بسبب غفلة الناس وتفريطهم أكثر مما ضاع بسبب عوادي الحروب والأيام، ولا زالت الأيام تظهرنا على مخطوطات نفيسة كنا نعوّدها من المفقودات، وكم في الزوايا خبايا!

ولكي يعلم القارئ قدر العطاء العلمي الذي خلفه لنا سلفنا - عليهم رحمة الله - فليراجع ما أُلّف من كتبٍ للفهرسة - كـ (الفهرست) لابن النديم، أو (كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون) لمصطفى عبد الله؛ وهو من أنفع وأجمع ما كُتب في موضوعه بالعربية، أو (خزائن الكتب العربية في الخافقين: للفيكونت فيليب دي طرازي؛ وقد أحصى في هذا الكتاب عدد المكتبات العربية في العالم فبلغت نحو ١٥٠٠ مكتبة يُقدر ما فيها من كتبٍ عربية بنحو ٢٦٢ مليون مجلد ما بين مخطوطٍ ومطبوع.

مراحل النشر:

لم يعدم المسلمون أسلوباً في حفظ تراثهم ونشره؛ فقبل أن تظهر الطباعة كان الأسلوب المعتمد في نشر كتب التراث هو النسخ، حتى راجت صناعة الوراقة والنساخت، وكان لها أماكنها في الأمصار التي يؤمها العلماء.

ومع أن الطباعة ظهرت في القرن الخامس عشر على يد جوتنبرج الألماني، وتبع ذلك انتشار المطابع في أوروبا ومنها مطابع عربية، إلا أن المشرق الإسلامي لم يعرف الطباعة إلا في وقتٍ متأخر عن ذلك؛ حيث بدأت في الآستانة في ١٥٥١م، ثم في لبنان عام ١٦١٠م، وانتقلت بعدها إلى عدة أقطار.

المرحلة الأولى لنشر التراث:

ومما ينبغي ذكره أن الطباعة صُبغت تنصيرية تبشيرية في تلك الفترة حتى أنشئت مطبعة بولاق التي عرفت (بالمطبعة الأميرية) في القاهرة بعد رحيل نابليون بفترة وذلك في عام ١٨١٩م أو ١٨٢١م، وطبع فيها مئات الكتب من مختلف الفنون من التفسير

والحديث والأصول واللغة والتاريخ والطب والأدب وغير ذلك من فنون التراث .

ويمكن لي أن أسجل ثلاث حقائق اتسم بها نتاج تلك الفترة من كتب التراث :

أولاً: أن النظرة للتراث كانت شمولية ترمي إلى إظهار كنوزه ونشر الأمهات والأصول في كل فن، ولم يكن الدافع مادياً؛ لذلك غلب على الطباعة طباعة الموسوعات .

ثانياً: أن حركة إحياء التراث تزامنت مع إنشاء دار العلوم التي رأسها الشيخ حسين المرصفي التي تمثل رد فعل قوي على الدعوة إلى العامية .

ثالثاً: دور الأزهر كان بارزاً وبُصِمَتْ كانت مميزة على نشاط المطبعة خلافاً للحال في لبنان الذي سيطر عليه القساوسة والرهبان .

وانتشرت الكتب التي كانت تُطبع على نفقة بعض محبي العلم، وكان على رأس من قام على تصحيح الكتب وإخراجها الشيخ نصر الهوريني، والشيخ محمد عبد الرحمن المشهور بقطّة العدوى .

وظلت مطبعة بولاق تعمل وحدها قرابة أربعين سنة، ثم ظهرت المطابع الأهلية التي كانت أولها المطبعة الأهلية القبطية (الوطن فيما بعد)، ثم تلتها مطبعة وادي النيل، ثم تتابعت المطابع وتكاثرت .

والذي يهمنا أن نقف أمام ثلاثة أمور جديرة بالتأمل في تقييم أعمال تلك المرحلة :

١ — حرص المطابع في كثير من منشوراتها على طبع كتاب أو أكثر بهامش الكتاب الأصلي أو بآخره لصلة ذلك بالكتاب، أو لمجرد نشر الكتب على أوسع نطاق. ومن الطريف أن نرى خمسة كتب مطبوعة في كتاب واحد، وفي صفحة واحدة اجتمعت خمستها في الصلب والهامش مفصولة بجداول .

إن ظاهرة طبع الكتب بهامش كتب أخرى هي ظاهرة فريدة دالة بوضوح على أن القوم كانوا في سباق لنشر العلم وإذاعته .

٢ — أن الذين تولوا طباعة الكتب وتصحيحها كانوا من طبقة المشايخ

الفضلاء، ومن هؤلاء: الشيخ نصر الهوريني، ومحمد قُطَّة العدوي، ومحمد الحسيني، وطه محمود، وغيرهم. وقد كان للكثير منهم تأليف فوق اشتغالهم بتصحيح الكتب؛ لكن يؤخذ عليهم أنهم لم يُعنوا بذكر الأصول المخطوطة التي اعتمدوها في إخراج الكتب.

٣ — أن القوم لم يُعنوا بالفهارس الفنية الكاشفة عن كنوز الكتاب المنشور، واكتفوا بذكر فهارس موضوعية موجزة.

ومع هذا كانت تلك المرحلة من أغنى وأخصب مراحل نشر التراث العربي وإذاعته، وهي بكل خيرها وعطائها قد أسلمت إلى ما تبعها من مراحل.

المرحلة الثانية: (مرحلة الناشرين النابهين):

وهم طبقة من عظماء الرجال، جاهدوا في سبيل نشر التراث جهاداً صادقاً ودؤباً، عَنَيْتُ: محمد أمين الخانجي، ومحب الدين الخطيب، ومحمد منير الدمشقي، وحسام الدين القدسي. ومن عجائب الاتفاق أن أربعتهم من أهل الشام، نزلوا مصر واتصلوا بعلمائها، وعملوا على طباعة الكتب ونشرها، وتأثروا بتلك الروح التي سرت في مطبعة بولاق من نشر الأصول والأمهات مع العناية بدقة التصحيح وأمانة الأداء، وإن كانت قد تخلصت من الشكل الطباعي القديم المتمثل في طبع الكتب بهامش الكتاب الأصلي.

وأهم ما يميز منشورات هذه الطبقة: الحرص على ذكر مخطوطات الكتاب ووصفها؛ إلا أنها لم تُعن بالفهارس الفنية لما تنشره، إلا ما نراه من بعض مطبوعات الخانجي ومحب الدين الخطيب.

وممن يتصل بهذه الطبقة شيخان فاضلان وعالمان جليلان؛ أما الأول: فهو الشيخ محمد حامد الفقي حامل لواء السلفية، ومؤسس جماعة أنصار السنة المحمدية بمصر، والذي أنشأ مطابع السنة المحمدية، ونشر فيها مؤلفاته وكثيراً من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وكتب الحنابلة وطبقات رجالها.

وأما الثاني: فهو الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، الذي يُعد صفحة حافلة من تاريخ نشر التراث العربي، قدّم وحده للمكتبة العربية ما لم تقدمه هيئة علمية مدعومة بالمال والرجال. وقد رُمي الرجل بأنه أعاد طبعات سابقة عليه مما أخرجته مطبعة بولاق ومطابع أوروبا، وأنه لم يعبأ بجمع مخطوطات الكتاب الذي ينشره، وأنه لم يضع الفهارس الفنية الجامعة لمسائل الكتاب المنشور.

لكن هذا لا ينقص من قدر الرجل وجهده الذي بذله في التصحيح وضبط النص ضبطاً صحيحاً، وإضاءته بالشروح اللغوية التي تنفي عنه الجهالة أو الغموض، مع العناية بعلامات الترقيم، وأوائل الفقرات، وعدم تداخل أجزاء الكلام. ويكفيه فضلاً أن كل من تعلم النحو في شرق الدنيا وغربها بعده مدين له بدين كبير لما بذله من جهد بالغ في إخراج كتب النحو في أسلوب يمتع الدارس ويصلح اللسان.

المرحلة الثالثة: (مرحلة دار الكتب المصرية):

والتي تحمل كل سمات المنهج العلمي الدقيق في إخراج النصوص، والتي تأثرت إلى حدٍّ ما بمنهج المستشرقين الذين شغلوا بترائنا والذين استقوا زبدة مناهجهم من أصل ترائنا.

وكان صاحب الفضل في هذا بعد الله سبحانه: أحمد زكي باشا، الذي قال عنه شكيب أرسلان: «كان يقظةً في إغفاءة الشرق، وهبةً في غفلة العالم الإسلامي، وحياةً في وسط ذلك المحيط الهامد».

وقد برز في هذه المرحلة مشيخة جليلة من العلماء الذين بذلوا جهداً واسعاً فيما أسند إليهم، ولم يحظوا بمعشار ما يحظى به أدعياء التحقيق في هذه الأيام، ومنهم: الشيخ أحمد الزين، والشيخ عبد الرحيم محمود، والشاعر أحمد نسيم، والأستاذ محمد عبد الجواد الأصمعي، والشيخ أحمد عبد العليم البردوني، والعالم الجزائري إبراهيم اطفيش. ومن الطريف أن الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر كان قد عمل مصححاً في هذه الدار في مقتبل حياته العلمية.

وقد مثلت هذه المرحلة مرحلة نضج وكمال من حيث استكمال الأسباب العلمية، واصطناع الوسائل الفنية المعينة على إخراج التراث إخراجاً دقيقاً يقوم على جمع نسخ الكتاب المخطوطة والمفاضلة بينها، ثم اتخاذ إحدى النسخ أمّاً أو أصلاً، وإثبات فروق النسخ الأخرى، وما يتبع ذلك من إضاءة النص ببعض التعليقات والشروح، وصنع الفهارس التحليلية الكاشفة لكنوز الكتاب، وما يسبق ذلك كله من التقديم للكتاب، وبيان مكانته في المكتبة العربية، وموضعه من كتب الفن الذي يعالجه تأثراً وتأثيراً، ثم الترجمة لمؤلفه.

المرحلة الرابعة : (مرحلة الأفذاذ من الرجال) :

وأهم رموزها الشيخ أحمد محمد شاكر، وأخوه «شيخ العربية» محمود محمد شاكر، والأستاذ عبد السلام محمد هارون، والأستاذ السيد أحمد صقر.

وقد كان ظهور «الرسالة» للإمام الشافعي بتحقيق الشيخ أحمد شاكر سنة ١٩٣٩م إيذاناً ببدء مرحلة جديدة من النشر العلمي للتراث المستكمل لكل أسباب التوثيق والتحقيق، وهي مرحلة جديدة فيما يظهر للناس في تلك الأيام، ولكنها موصولة الأسباب والنتائج بما سنّه الأوائل وأصلوه.

وقد نشر الشيخ - رحمه الله - الكتاب عن أصل بخط الربيع بن سليمان صاحب الشافعي، وقد جرى الشيخ في تحقيق «الرسالة» على أعدل المناهج وأقومها من حيث التنبيه الشديد لما بين النسخ من فروق، وإضافات النسخ فيما خفي ودق، وربط كلام الشافعي - رحمه الله - في هذا الكتاب بكتبه الأخرى، وتوثيق النقول، وتحريّر المسائل، والعناية الفائقة بالضبط، وصنع الفهارس الفنية التي شملت آيات القرآن الكريم، وأبواب الكتاب على ترتيبها، والأعلام، والأماكن، والأشياء من حيوان ونبات ومعدن ونحو ذلك، والمفردات المفسّرة في الكتاب، والفوائد اللغوية المستنبطة منه، ومواضيع الكتاب ومسائله في الأصول والحديث والفقه على حروف المعجم. ولكن أهم أنواع هذه الفهارس التي نشرها الشيخ الجليل فهرس الفوائد اللغوية لكون الشافعي حجة في اللغة.

وكل ما قيل عن الشيخ و «الرسالة» يقال عن أعلام هذه المرحلة: محمود محمد شاكر و «تفسير الطبري» و «طبقات فحول الشعراء» لابن سلام، وعبد السلام هارون وآثار الجاحظ، والسيد أحمد صقر وآثار ابن قتيبة. وغير ذلك من التحقيقات والمؤلفات انتصروا فيها للعربية وأعلوا رايها.

ومن يطالع — مثلاً — تعليقات الشيخ محمود شاكر على «طبقات ابن سلام» و «تفسير الطبري» يقف على أشياء معجبة في فهم اللغة والبصر بالشرعية ومعرفة بالتفسير وفقه الحديث وتاريخ الرجال، وكل ما شئت من علوم هذه الأمة وفنونها؛ وكأنه رجل قد نُشرت أمامه العربية كلها فانتقى منها ما طلب له.

هذا المنهج الذي سار عليه الأستاذ محمود شاكر — رحمه الله — في إخراج كتب التراث وتحقيقتها منهج عسير بعيد المنال، تصعب محاكاته؛ لأنه متصل بعقيدة صحيحة وقراءة محيطية وظهور يبين على التراث، ولكنه على كل حال قد وجّه إلى أعدل المناهج وأقومها في التحقيق والتصحيح.

واليوم تبذل عدد من المؤسسات العلمية المتخصصة جهداً مشكوراً في جمع التراث ونشره عبر وسائل التقنية الحديثة: (الحاسب الآلي) و (شبكات المعلومات). وهذا إن دلّ على شيء، فإنما يدل على بقية خير في هذه الأمة وعرفانٍ بجهد الأوائل.



بنت الشاطيء.. وتحقيق التراث^(١)

تحقيق النصوص علم له قوانينه وأعرافه ومدارسه، وقد برزت فيه أسماء لعلماء كبار، مستشرقين وعرب — ومن المعروف أن المستشرقين كانوا أسبق منا نحن العرب، في إذاعة تراثنا ونشره — فمن المستشرقين تبرز أسماء: ديرنبورج، ناشر «كتاب سيويه»، وهو فرنسي، ووليم رايت الإنجليزي، ناشر «الكامل» للمبرد، وتشارلس لايل الإنجليزي، ناشر «شرح المفضليات» للأنباري، وبيغان الإنجليزي، ناشر «نقائض جرير والفرزدق» ومن المستشرقين الإنجليزي أيضاً كرنكو، وهو أغزرهم إنتاجاً، وأبقاهم أثراً في نشر النصوص التراثية، ومن المستشرقين الإسبان: كوديرا وريبيرا، ناشر المكنبة الأندلسية، ومن المستشرقين الهولنديين: دوزي، وقد نشر نصوصاً أندلسية كثيرة، بجانب عمله العظيم: تكملة المعجمات العربية، ودي خويه، ناشر المكنبة الجغرافية.

ومن المستشرقين الألمان: فلوجل، ناشر «كشف الظنون» للحاج خليفة، ثم هو صاحب كتاب «نجوم الفرقان في أطراف القرآن»، وهو أصل المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم الذي صنفه محمد فؤاد عبد الباقي.

(١) مجلة «العربي»، العدد ٤٨٨، يوليو ١٩٩٩م. أراد أستاذنا الطناحي أن يكرم الدكتورة بنت الشاطيء في ذكرى رحيلها، فأبّت الأقدار إلّا أن تحمل إلينا نبأ رحيله هو أيضاً، فسبحان من له الدوام، لقد كان علماً فذاً من أعلام اللغة العربية، تخرّج في الأزهر؛ ثم في دار العلوم، ودرّس في العديد من الجامعات مثل جامعة أم القرى والجامعة الأمريكية، وأصبح عميداً لدار العلوم، وكان مدرسة قائمة بذاتها في علم تحقيق التراث، إذ أخرج تحقيقات ضخمة لعيون التراث العربي، إضافة إلى مؤلفاته وبحوثه المتعددة. فرحمه الله، وعوّض العربية عنه خيراً.

ومن أشهرهم وأعلامهم ذكراً: وستنفلد، ولا يدانيه أحد من المستشرقين في كثرة ما نشره من نصوص، وقد قضى عمره كله مكباً على العربية، في لغتها وأدبها وتاريخها وجغرافيتها، وقد ألّف وحقق في ذلك كله نحو مائتي كتاب بين صغير وكبير، ومن أبرز ما نشره: السيرة النبوية لابن هشام، والمعارف لابن قتيبة، ومعجم ما استعجم للبكري، ومعجم البلدان لياقوت. ومن مشاهير المستشرقين الألمان أيضاً: كارل بروكلمان، وهلموت ديتز.

ومن المستشرقين الروس: كراتشكوفسكي، ناشر «الأخبار الطوال» لأبي حنيفة الدينوري، ومن أنفس آثاره: تاريخ الأدب الجغرافي العربي.

ومن العلماء العرب برزت في هذا المجال أسماء كبيرة، منها في مصر: أحمد محمد شاكر، ومحمود محمد شاكر، وعبد السلام هارون، والسيد أحمد صقر، وفي سوريا: محمد كردعلي، وعز الدين التنوخي، وعزة حسن، وشكري فيصل، والعلامة أحمد راتب النفاخ — على قلة إنتاجه — ومن علماء العراق: محمد بهجة الأثري ومصطفى جواد، ومن علماء المملكة العربية السعودية: حمد الجاسر، ومن علماء المغرب: محمد بن أبي شنب في الجزائر، وفي تونس: حسن حسني عبد الوهاب، وفي المغرب الأقصى عبد الحي الكتاني ومحمد المنوني.

ويبرز من علماء الهند: العلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي، والسيد بدر الدين العلوي، والسيد محمد يوسف، وحبيب الرحمن الأعظمي، وعبد الصمد شرف الدين.

هل هو علم الرجال؟

فهذا العلم إذن هو علم الرجال، لا نكاد نرى للمرأة فيه كبير أثر، ولم تظهر أسماء النساء في هذا المجال إلا من خلال بعض الأطروحات الجامعية، وهو في ميدان تحقيق النصوص باب ضيق جداً، لأن الأصل في تلك الأطروحات الدراسة، ثم يأتي نشر النصوص ملحقاً بتلك الدراسة وديلاً لها.

ونقرأ من أسماء المحققات وناشرات النصوص عدداً محدوداً من الأسماء، ففي مصر: سيدة كاشف، التي شاركت في نشر كتاب «المغرب في حلي المغرب» قسم مصر، لابن سعيد، وفوقية حسين محمود، التي نشرت من آثار إمام الحرمين الجويني: «لمع الأدلة في قواعد أهل السنة والجماعة» و«الكافية في الجدل»، وهدي قراعة، التي نشرت: «ما ينصرف وما لا ينصرف» للزجاج، و«معاني القرآن» للأخفش.

وفي البلدان العربية أيضاً، برزت أسماء محققات نابهاً، ففي العراق: ابتسام مرهون الصفار، وفاطمة حمزة الراضي، وناجية عبد الله إبراهيم، وبهجة عبد الغفور الحديثي، وفي سوريا: أسماء الحمصي، ودريّة الخطيب، وناديا علي الدولة، وفي الكويت: سهام الفريح، وفاطمة الراجحي.

ويدور معظم نشاط هؤلاء النسوة في مجال الدراسات الجامعية، ولا أعرف من النساء من مدّت يداً في نشر التراث خارج هذه الدائرة إلا الأديبة اللبنانية وداد القاضي، التي زاحمت كبار المحققين الرجال، ولا عجب في ذلك، فقد تلقت أصول هذا الفن على يد شيخها إحسان عباس، وقد أعانتها في نشر موسوعات تراثية كبار، مثل: وفيات الأعيان، وفوات الوفيات، وذخيرة ابن بسام، ونفح الطيب، ومن أبرز تحقيقات وداد القاضي: «البصائر والذخائر» لأبي حيان (عشرة أجزاء)، وكان نشر هذا الكتاب عزمة من عزماتها، إذ كان أحمد أمين والسيد أحمد صقر قد نشرّا منه جزءاً واحداً عام ١٩٥٣م ثم توقفا عن نشره، ومن تحقيقاتها أيضاً: الأجوبة المسكّنة، لابن أبي عون، والإشارات الإلهية لأبي حيان، ورسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، كما شاركت في نشر كتاب «الوافي بالوفيات» للصفدي، بتحقيق الجزء السادس عشر.

ومن هؤلاء النسوة اللاتي عملن في تحقيق النصوص خارج دائرة الدراسة الجامعية: العراقية خديجة الحديثي، فقد نشرت «ديوان أبي حيان النحوي»، ثم شاركت في تحقيق «البرهان في وجوه البيان» لابن وهب، وهو ذلك الكتاب الذي

نشر قديماً خطأ باسم: نقد النثر لقدامة بن جعفر، و«التبيان في علم البيان» لابن الزملكاني، و«البخلاء» للخطيب البغدادي.

ثم السورية سكيئة الشهابي، التي حققت «تلخيص المتشابه في الرسم وحماية ما أشكل فيه عن بوادر التصحيف والوهم» للخطيب البغدادي، وكتاب «وجوه القرآن» لإسماعيل بن أحمد الضرير النيسابوري الحيري، و«المنتخب من كتاب أزواج النبي ﷺ» للزبير بن بكار، والجزء الخاص بتراجم النساء من «تاريخ دمشق» لابن عساكر.

وفي عالم الاستشراق برزت أيضاً أسماء نساء عملن في مجال تحقيق النصوص ونشرها، منهن الفرنسية جاكلين سوبليه، التي نشرت الجزء العاشر من «الوافي بالوفيات» للصفدي، و«تالي كتاب وفيات الأعيان» للصِّقَّاعِي، وهو في تراجم من توفي بمصر والشام من سنة ٦٦٠هـ إلى ٧٢٥هـ، والفرنسية جانين سورديل، التي نشرت «الإشارات إلى معرفة الزيارات» للهروي الرحالة، والإسبانية مانويلا ماريني، ونشرت «كنز الفوائد في تنويع الموائد» وهو في علم الطبخ، لمؤلف مجهول، والإيطالية ماريا نللينو، وقد نشرت ديوان النابغة الجعدي رضي الله عنه، وهي ابنة المستشرق الكبير نللينو، صاحب «تاريخ الفلك عند العرب»، وله دراسات في تاريخ اليمن والمعتزلة، وهو من المستشرقين الذين درّسوا في الجامعة المصرية، في أول نشأتها.

وكذلك الإيطالية كليليا سارنيللي، وقد نشرت جزءاً من «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» للإدريسي، والألمانية سوسنة ديفيلد - فلزر - وقد نشرت «طبقات المعتزلة» لأحمد بن يحيى بن المرتضى، والألمانية دورتيا كرافولسكي، وقد شاركت في نشر «مسالك الأبصار» و«الوافي بالوفيات» - الجزء السابع عشر، ثم تأتي من تايوان مستشرقة جادة، تسمى: هدى جنهويتشي، فتتشر ديوان عامر بن الطفيل، نشرة جيدة.

فهؤلاء أبرز النساء اللاتي عملن في ميدان تحقيق النصوص ونشرها، وتبقى

الملاحظة التي ذكرتها من قبل وهي أن معظم نشاط هؤلاء النسوة إنما كان في مجال الدراسات الجامعية، فلم نجد عند واحدة منهن أعمالاً خارجة عن هذه الدائرة، كذلك الأعمال التي نهض بها الرجال، إلا ما كان من أمر وداد وخديجة وسكينة.

وفي رأيي، أن ذلك الإحجام من النساء عن خوض هذه اللجج إنما يرجع إلى جهد المثونة وعناء المكابدة التي يلقاها من يتصدى لتحقيق النصوص ونشرها، لأن العمل في هذا المجال محوج إلى مراجعات كثيرة في بطون الكتب، ومفاتيح المصادر، ومعرفة التعامل معها واستنطاقها، ثم هو عمل يحتاج إلى صبر شديد وحسن أناة، ودربة على قراءة المخطوطات، وفك معمياتها، ثم ما يكون من التعليق على النص وإضاءته وربطه بالكتب التي تدور في فلكه، أو تكون منه بسبب، ثم صنع الفهارس الفنية الكاشفة لكنوز الكتاب، وكل ذلك مما لا يقوى عليه ولا يقوم به إلا أولو العزم من الرجال.

مرحلة النشر العلمي :

ثم نأتي إلى عالمة الأدبية الراحلة «عائشة عبد الرحمن» الملقبة «بنت الشاطيء»، ولها في تاريخ نشر النصوص مكان ومكانة، وقد دلفت إلى ذلك المجال التراثي من باب الدراسات الجامعية أيضاً، ولكنها دخلت ولم تبرح، فقد أقامت أطروحتها للدكتوراه، بعنوان «الغفران — دراسة نقدية، مع تحقيق رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري، و«الرسالة» هذه أشهر آثار أبي العلاء، وأخلدها على الأيام، وكان المشرف على هذه الأطروحة الدكتور طه حسين، وقد نوقشت في الخامس من أبريل عام ١٩٥٠م، بكلية الآداب — جامعة فؤاد الأول (القاهرة)، وأجيزت بتقدير «ممتاز»، ثم حصلت بهذا التحقيق على جائزة مجمع اللغة العربية في تحقيق النصوص.

وأحب أن أنبه هاهنا إلى أن بنت الشاطيء حين أقدمت على تحقيق هذا النص — وكان ذلك في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات — كان تحقيق النصوص قد استقر علماً له مناهج ومدارس، وكان المستشرقون قد مدوا فيه يداً مبسطة، وفي

البلدان العربية والإسلامية، كان نشر النصوص قد انتقل من مراحل الأولى — أعني مرحلة مطبعة بولاق ومطابع استانبول والشام، ثم المطابع الأهلية المصرية والناشرين المصريين والشوام الذين وفدوا إلى مصر، واتخذوها دار مقام، كالحلبي والخانجي ومحمد منير الدمشقي، وحسام الدين القدسي، والخشّاب، انتقلوا من هذه المرحلة إلى مرحلة النشر العلمي، من حيث التوثيق وجمع النسخ المخطوطة، ثم دراسة الكتاب المحقق وبيان مكانته في المكتبة العربية وفهرسته، وكانت ديار مصر في ذلك الوقت بالذات تؤسس هذا العلم وتقيمه على عمد ثابتة، وذلك فيما عُرف بمدرسة أحمد زكي باشا شيخ العروبة، ودار الكتب المصرية، ثم مرحلة الأفذاذ من الرجال (أحمد محمد شاكر، ومحمود محمد شاكر، وعبد السلام هارون، والسيد أحمد صقر)، وقد فصلت ذلك كله في كتابي: «مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي».

فكانت جراءة عالية، وهمة جسورة من بنت الشاطيء أن تبحث لها عن مكان بين هؤلاء الأفذاذ من الرجال في ذلك الزمان. وقد اقتحمت وما وهنت وما قصّرت، فقد أخذت للأمر أخذه، وأعدت له عدته، فجمعت أصحّ النسخ وأوثقها من «رسالة الغفران» المخطوطة، ثم عرضت للنشرات السابقة من الرسالة، وكشفت عن أوجه النقص فيها، ثم قدمت نصّاً محرراً مضبوطاً، مضاء ببعض التعليقات، وأزالت عنه عوادي الناس والأيام، ولئن كان بعض شيوخ التحقيق قد عرضوا لعملها فيما بعد بالنقد والتصحيح، فسيظل لهذا العمل مكانته في خدمة تراث أبي العلاء، ثم في تاريخ المكتبة العربية كلها.

وقبل أن أستطرد إلى ذكر باقي الأعمال التراثية لبنت الشاطيء، أحب أن أقف عند أمرين، لا بد من بيان القول فيما، لما نراه الآن من اضطراب وتخليط في أمر تحقيق النصوص:

الأمر الأول: أن بنت الشاطيء لم تقدم على تحقيق «رسالة الغفران» إلا بعد أن عاشت مع أبي العلاء، وخبرت حياته ونفسيته، وعرفت لغته ومدارج القول عنده، وقد أنبأنا هي أنها عرفت «رسالة الغفران» أيام الطلب حين قرأتها مع أستاذها طه

حسين بالجامعة، في طبعة «أمين هندية» وهي طبعة مؤوفة، غير محررة، ثم أخرجت لنا ثلاثة أعمال حول أبي العلاء: الحياة الإنسانية عند أبي العلاء — مع أبي العلاء في رحلة حياته — أبو العلاء المعري.

وهذا درس جيد لمن يروم تحقيق نص من نصوص التراث: أن يعيش مع مؤلفه، فيخبر حياته وأسلوبه، ويعرف مكانة كتابه في فنه، ثم صلته بكتب العربية الأخرى، وهكذا صنع الشيخ أحمد محمد شاكر حين أخرج «الرسالة» للشافعي، وشيخنا محمود محمد شاكر حين أخرج «طبقات فحول الشعراء» لابن سلام، وأستاذنا عبد السلام هارون يوم أن توفر على كتب الجاحظ، والسيد أحمد صقر، يوم أن أظهر كتب ابن قتيبة، والشيخ بهجة الأثري حين أخرج «خريدة القصر» وعبد العزيز الميمني الراجكوتي في تحقيق «سمط اللآلي»، وكذلك كان صنيع المستشرقين.

أما ما نراه اليوم من جرأة بعض خلق الله على نشر كتب التراث دون معرفة سابقة، أو دون إلف ومخالطة للمؤلف، فشيء ياباه العلم، ولا يقدم للتراث شيئاً ذا بال، وأستطيع أن أقول دون توقف أو تردد: إن كثيراً من هذا الذي يخرج الآن من تراثنا محققاً لا صلة له بالعلم، ولا بعلم تحقيق النصوص، سواء كان هذا الذي يحقق لدراسة جامعية للحصول على شهادة عليا، أو كان نشرًا علميًا يراد به العائد المادي ليس غير.

الأمر الثاني، وهو وثيق الصلة بالأمر الأول، أن بنت الشاطيء خاضت لجة هذا البحر، وهي مؤمنة بقضية كبرى، هي قضية ذلك التراث العربي، وواجبنا نحو إبرازه وكشفه وإضاءته، لتقوم عليه الدراسات الصحيحة، فلا دراسة صحيحة مع غياب النص الصحيح المحرر.

الإرث العظيم:

ويتصل بتلك القضية الإيمان بقيمة ذلك الإرث العظيم الذي انتهى إلينا، وما فتئت بنت الشاطيء تصرح بذلك فيما دقّ وجلّ من كتاباتها، وأعرف بعض من

يشتغلون بنشر النصوص لا يؤمنون بذلك التراث، بل يسخرون منه ويستعزّون به إذا خلوا إلى شياطينهم، ولكنها الضرورة الملجئة، وسبحان ربك رب العزة الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ولقد عادت بنت الشاطيء مرة أخرى إلى صاحبها أبي العلاء، فنشرت له أثراً غالباً من تراثه، وهو كتاب «الصاهل والشاحج»، ويتكلم فيه أبو العلاء، على لسان فرس وبغل، وقد نشرته عن نسختين أصليتين موثقتين، احتفظت بهما الخزانة الملكية بالرباط، وللمغاربة فضل عظيم في الحفاظ على مخطوطات نفيسة ذوات عدد، من تراثنا الموزّع في مكتبات العالم، وقد قدمت بنت الشاطيء لتحقيق هذا النص بدراسة ماتعة، شملت مدخلاً تاريخياً، وآخر موضوعياً، ثم قارنت بين كليلة ودمنة والصاهل والشاحج.

ومن القضايا التي شغلت بنت الشاطيء زمناً طويلاً، وما زالت تعتادها وتكرر القول فيها، وتستأنف حولها كلاماً لأدنى ملاسة: قضية توثيق المرويات النقلية التي وصلت إلينا في أول الأمر شفاهاً إلى عصر التدوين، وهذه المرويات قد تعرضت لهزات عنيفة، وبخاصة ما يتصل بقضية الشعر الجاهلي، والقول بانتحاله ووضعه بعد ظهور الإسلام، وهي القضية التي أزعجت الجلة من شيوخنا، وعلى رأسهم شيخنا محمود محمد شاكر، وقد رأى هؤلاء الشيوخ أن التسليم بالشك في الشعر الجاهلي يفضي — لا محالة — إلى الشك في مرويات أخرى جاءت مشافهة، كنصوص السنة النبوية والسيرة الشريفة النبوية، وكتب تاريخ الصحابة، وعلوم الإسلام كلها.

وقد وجدت بنت الشاطيء ضالتها ومفزعها عند علماء الحديث، فيما أصّلوه من قواعد منهج توثيق المرويات، وفحص الأسانيد، ونقد المصادر، فيما عُرف بعلم الجرح والتعديل، ثم وقفت عند كتاب واحد من كتب علوم الحديث، ورأت أنه جدير بالنظر والخدمة والتحقيق، ذلك هو «مقدمة ابن الصلاح» وهو تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن المتوفى سنة (٦٤٣هـ)، وقد رأت في هذا الكتاب مجلى ذلك العلم، فنهدت لنشره نشرة علمية، فجمعت منه أصولاً خطية موثقة جيدة، ثم صدرته

بمقدمة محكمة، أبانت فيها عن مناهج المحدثين، ثم نقدت النشرات السابقة للكتاب، وقد رأت من تمام الفائدة أن تلحق بالكتاب نصاً يتصل به، هو: «محاسن الاصطلاح وتضمنين كتاب ابن الصلاح» لسراج الدين عمر بن رسلان البلقيني المتوفى سنة (٨٠٥هـ)، ومن أعمال بنت الشاطيء التراثية أيضاً تحقيق الجزء الثالث من «المحكم في اللغة» لابن سيده.

فهذه نصوص أربعة من أصول علومنا، نهضت بها بنت الشاطيء، تحقيقاً وضبطاً، مع تأليفها لكتاب نافع، هو: «تراثنا بين ماض وحاضر»، ولولا اشتغالها بالتدريس والتأليف لكان لها في ميدان تحقيق النصوص أثر كبير.

ولا يبقى من حديث الدكتورة بنت الشاطيء إلا أمر شغلني زماناً، وما زلت في عجب منه إلى يوم الناس هذا: إن بنت الشاطيء لا تفتأ تذكر فضل شيخها وزوجها الأستاذ أمين الخولي، فهو الذي علمها كيف تقرأ، وهو الذي هداها إلى المنهج، إلى أشياء كثيرة تسميها كلما جاء ذكر الشيخ، لكنني أجد مباينة شديدة بين التلميذة وشيخها فيما يتصل بالبيان وطرائق القول — أو فن القول، كما كان الشيخ يقول — فأسلوب بنت الشاطيء أسلوب عذب ندي، يترقق فصاحة وصفاء وإشراقاً، وهو أسلوب ترى فيه أثر القرآن الذي تلقته صبية من فم أبيها الشيخ الصوفي، ثم هو من بعد ذلك أسلوب عال موصول النسب بأساليب أصحاب البيان، كالجاحظ وأبي حيان ومصطفى صادق الرافعي ومحمود محمد شاكر.

أما أسلوب الشيخ، فهو أسلوب حاد صارم، كأنما يستمد صرامته من صرامة المنهج الذي أخذ به نفسه، وهو ذلك المنهج الذي ما زال تلاميذه يحمدونه له، ويجهرون به ويردونه إليه، ولو شئت لقلت: ويبجحون به (أي يفتخرون)، وهؤلاء الكتّاب الذين يسرفون في قيود ما يسمونه المنهج وضوابطه، يصعب عليهم — عن عمد أو غير عمد — أن يرطبوا ألسنتهم، أو يزينوا أقلامهم بشيء من نداوة الكلام وسماحته ويسره، كأنهم يريدون أن يظلوا بمنجاة من الذاتية أو التأثرية (أو كلام الإنشا) فتأتي عباراتهم وفيها قدر غير يسير من الجفاف والعسر، لأنهم يفرقون في

العقلانية، وقد نجا من هذه المهواة كثير من الأدباء قديماً وحديثاً، منهم أديب العربية الكبير أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، فكتبه تعلم العقل — كما يقول أبو الحسن المسعودي — ثم هو أمير البيان العربي غير مُزاحم ولا مدفوع.

وقد اعترف تلاميذ الشيخ أمين الخولي بذلك، فيقول الدكتور حسين نصار:

«ووصلت الدقة بعبارة الخولي أنه كان يتعب قارئه أشد التعب، ليصل به إلى المفهوم الدقيق الذي يريده»، ويقول أيضاً: «وعلى الرغم من ذلك يجب الاعتراف بأن من لم يتصل به في أعماله ويتابع أفكاره، ويألف لغته، كان يجد مشقة في فهمه»، انظر كتاب الدكتور حسين نصار: أمين الخولي ص ٤٠ و ٩٢ — المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٦م، والله في خلقه شؤون.

رحم الله بنت الشاطيء رحمة واسعة سابعة، وجعل كل ما قدمته لتراثها ولدينها في موازينها يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً.



الرسائل الجامعية.. و .. ساعة ثم تنقضي^(١)

الدراسات العليا الجامعية هي أعلى درجات السُّلم التعليمي، وهي ذؤابته وسمامه، وهي غاية كل طالب علم ومنتهى أمله، ثم هي الصورة الصادقة للأمم وحظها من التقدم والرقي، ولجامعاتنا المصرية في ذلك قدمة وتاريخ وأثر (يسعدني كثيراً أن أرى في المؤتمر العام لمجمع اللغة العربية بالقاهرة الأستاذ الدكتور شوقي ضيف، وعن يمينه الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد، وعن يساره الأستاذ الدكتور شاعر الفحاح، وهما من تلاميذه، ومن أعلام الأمة العربية).

والذين شاهدوا مناقشة الرسائل الجامعية في الخمسينات والستينات ثم يشاهدونها الآن يرون فروقاً واضحة بين ما كان وما هو كائن، ولست من الذين يرون الماضي خيراً كله، وأن الحاضر شر كله، ففي الناس بقايا خير، كما يقول الحافظ الذهبي (سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٥٠) ولن تخلو الأرض من قائم لله بحجة، كما يقول العز بن عبد السلام (البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ٣٧٩)، ولكننا بإزاء مقارنة وموازنة ليست في صالح الحاضر.

ولست أريد من هذه الفروق، الفروق العلمية، فلذلك حديث آخر، وإنما أريد تلك الفروق التي تتصل بالهيئة التي تتم بها مناقشة الرسائل، ثم بأسلوب بعض الأساتذة المناقشين في استقبال ذلك الأمر الجلل، وطريقتهم في إدارة الحوار.

(١) مجلة «الهلل»، يونيه ١٩٩٩م.

هذا المقال كتبه الراحل د. محمود الطناحي قبيل وفاته، وكأنه يكتب وصيته الأخيرة.

وأول ما يلقاك أيها القارئ الكريم من ذلك في الماضي تلك الهبة الخاشعة التي تحف بأعضاء هيئة المناقشة حين يدخلون القاعة؛ لأنهم قضاة، ومجالس القضاء مصحوبة دائماً بمظاهر الجلال والوقار، ويظل أعضاء المناقشة مدة المناقشة كلها على هذا الحال من الجد والصرامة، أذكر يوماً حضرت فيه مناقشة، وكان رئيس الجلسة الأستاذ عباس حسن رحمه الله، وكان فيه بأو وصرامة، وحين استقر على المنصة هو وزميلاه نظر فوجد باقات من الورد أمامه وأمام الطالب، فاستدعى العامل، وقال له: ارفع هذا، هل نحن في فرح؟

ويسري هذا الجد إلى الحضور جميعهم، فلا كلمة ولا تعليق، ولا تسمع إلا همساً، وإذا بدا للطالب أن يتطرق ليخفف من حدة مناقشيه، أعيد بقسوة إلى حالة الوقار والجد، أذكر مرة للأستاذ عباس حسن أيضاً، أنه أورد على الطالب ملاحظة تتصل بالدقة في نقل الأرقام من المصادر، فقال للطالب: أنت ذكرت رقم الصفحة (٢٤٥) والصواب: (٢٥٤)، فقال الطالب: لا بأس يا أستاذنا، فقد حصل فيها قلب مكاني! فما كان من الأستاذ عباس حسن إلا أن نهره بقوة، وقال: عيب يا ولد (القلب المكاني في علم الصرف هو تقديم حرف على حرف، ومثاله في الفصحى: جذب وجذب، وجاه ووجه، وفي العامية: أراب وأنارب، ومرسح ومرسح، وزنجيل وجزنبيل).

ثم لم يكن يُسمح فيما مضى لأحد من الحضور أن يعلق على ما يدور من مناقشة، بل لم يكن الحديث يتجه إليهم أصلاً، وإنما الكلام بين المناقش والطالب ليس غير، ثم لم يكن يسمح للأطفال بحضور تلك المناقشات.

أما اليوم، فالأساتذة يدخلون في موكب بهيج من الضحك والانبساط والتطلق، ويسري هذا كسابقه إلى الحضور، فترى القاعة تموج بالانشراح والبهجة والتعليقات الحلوة، والأطفال يتقافزون ويمرحون في القاعة، وقد جيء بهم ليروا (بابا) في يوم عُرسه، والنساء يزغردن عند إعلان النتيجة، بل إنني سمعت إحداهن تنشد لقريبها الطالب:

يا شجره يا حلوه يا مفرّعه شرفت أعمامك الأربعة
هكذا والله .

ثم تجري المناقشة مصحوبة أيضاً بتلك الحال من البهجة والتطلق، والمزاح مع الطالب، ونعم نحن نتبسط مع أبنائنا في المرحلة الجامعية الأولى، بلون من المفاكهة، لندفع عنهم أسباب الملل، ثم لنغريهم باستقبال ما يرد عليهم من ألوان العلم، أما في هذا اليوم الكبير فلا، وإن جاء شيء من ذلك فيكون في أضيق الحدود .

وأسوأ ما يكون هو التوجه إلى الحضور بنوع من طلب الرضا والاستحسان، أو التماس التأييد والنصرة، وكل ذلك يجر إلى المشاركة في المناقشة، وهذا عيب قاذح فادح، فالكلام في هذه المواطن إنما يكون للجالسين على المنصة والطالب ليس غير .

أما ما يكون من تقارُض الثناء بين أعضاء المناقشة، فهو باب واسع جداً، وأظهر ما فيه قول المناقش الثاني: إن زميلي الجليل الذي سبقني قد كفاني مؤونة الكلام في كثير من القضايا، وهذا الكلام قد يكون صحيحاً، ولكن استفاضته وتفشييه وتتابع المناقشين عليه أذهب الثقة به .

فهذا ما كان من حديث المقارنة بين الهيئة التي كانت تتم عليها المناقشات في الماضي، والهيئة التي تتم عليها الآن .

حديث عجيب :

أما الحديث عن أسلوب بعض الأساتذة المناقشين في استقبال ذلك الأمر الجلل، وطريقتهم في إدارة الحوار، فهو حديث عجب، ولا سبيل إلى استقصائه وبلوغ الغاية منه، وأول ما تأتيك به المقارنة بين ما كان وما هو كائن في هذا الصدد: أن الأستاذ المناقش فيما مضى كان يدخل إلى المناقشة وهو محتشد، قد أخذ للأمر عُدَّتَه، وجمع له أدواته، وكانت مناقشته تطول جداً؛ لأنه أعطى الرسالة حظها من

النظر والتأمل، فقرأها كلها، أما اليوم فأنت تحس من أول لحظة بأن الأمر هين، بل هو بالغ السهولة.

وبدء ذي بدء فإنني أقول بحق وبصدق إن عند كثير من الأساتذة الجامعيين علماء، ولكنهم لا يخرجونه، ليس ضناً به ولا كزازة، ولكنهم لا يبذلون جهداً في قراءة الرسالة الجامعية، لأنهم يزنون الأمور بميزان العائد المادي، فماذا تعطيك الرسالة من المال؟ إن كتابة ثماني صفحات في مجلة كذا تعطيك ثمانمائة جنيه (٨٠٠) مع الشهرة والرين، ونعم إن الكتابة في هذه المجلة الغنية لا تتاح لكثير منهم، لكن هناك وجوهاً أخرى من الكسب تعطي أجزل مما تعطيه الرسالة الجامعية، ولذلك فإن بعضهم لا يقرأ الرسالة كلها، بل يكتفي منها بصفحات قليلة، يوزعها على امتداد الرسالة أثلاثاً أو أرباعاً، فلا يخرج علمه كله، فهو كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

وعدم قراءة الرسالة كاملة يفضي أحياناً إلى خلل شديد، أعلم يقيناً أن رسالة جامعية للدكتوراه نوقشت وأجيزت بمرتبة الشرف الأولى، وقد اكتشف الطالب بعد المناقشة أنه قد سقط منها في أثناء التجليد نحو مائتي ورقة، وكان موضوع الرسالة تحقيق نص من نصوص النحو، وفي الغالب لا يقرأ الأساتذة النصوص المحققة كلها، وهذا هو الذي حجب عنهم اكتشاف هذا السقط.

ومن أمارات الاستخفاف أن بعض الأساتذة يصرح في أول مناقشته بأنه اعتاد ألا يتجاوز ساعة واحدة، كأنه يريد أن يطمئن المشرف والمناقش الثاني والجمهور والطالب، ويظل الحضور ينظرون في ساعاتهم. وحين توشك الساعة أن تنقضي يرتفع صوت واحد من الحاضرين: الساعة خلصت يا دكتور، فيرد عليه الدكتور: لا يا خويا، فاضل دقيقتين، ساعتك غير مضبوطة، ويتضحك الجميع. ومن هنا فقد زالت أسباب الخوف والهيبة عن كثير من الطلبة، وأصبح بعضهم يُنشد بعضاً:

وما هي إلا ساعة ثم تنقضي ويذهب هذا كله ويزول

ولكن الفرق بين «ساعة» ذلك الدكتور و «ساعة» هذا الشاعر فرق كبير، فساعة الدكتور ساعة زمانية، ستون دقيقة ليس غير، أما ساعة الشاعر فيراد بها مطلق الوقت، الذي قد يتجاوز مدى الساعة الزمانية.

ومن أعجب ما رأيته من علامات الاستخفاف أن زميلاً كان يناقش بجواري فقال للطالب: والله يا بني أنت حظك حلو، أنا قرأت رسالتك في القطار! قطار يا دكتور؟ كيف يحدث هذا؟ ألا تحتاج إلى مرجع تعول عليه أو تصحح منه؟ ولهذا يدخل الطالب لجنة المناقشة محتشداً جامعاً، حتى إذا رأى ذلك كله سكن رُوعه، وهدأت نفسه، ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتْ الْإِٰنُ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

والسَّوَاءُ السَّوَاءَ، بعد ذلك هي هذه العامية القبيحة التي يستكثر منها بعض المناقشين، ويدير عليها حواراه كله، فتسمع مثلاً أمثال هذه العبارات: واخذ بالك من الحتة دي — خد بالك من الرأي دوّت — كده هوّت — إحنا بتتكلم عشان خاطر نعلمك يا بني — نبُص نلائي (أي ننظر نلاقي).

هذا شيء محزن حقاً، لا ينبغي السكوت عليه أو المصانعة فيه، ونحن نلم أحياناً بالعامية في أسلوب الربط، ولكنها العامية المقبولة، التي تأتي في حدود ضيقة، لكن الذي نسمعه الآن من بعض المناقشين يتعدى أسلوب الربط والحدود الضيقة، إنه يكاد يسري في أثناء المناقشة كلها، إنك لو أغمضت عينيك، وسمعت بعض المناقشين لظننت أنك في موقف أحمد حلمي أو القُللي، والمناي ينادي: واحد دكرنس، واحد المنصورة، وقد سرت هذه العدوى إلى شباب المعيدين، طلبت يوماً من أحدهم شيئاً، فقال: حاضر يا عسل! فقلت: ما هذا يا بني؟ لا ينبغي أن تستعمل مثل هذه الألفاظ، فقال: لقد سمعتها من فلان وفلان وفلان، وذكر أسماء كبيرة، فلما سمعت هذا قلت له: خلاص يا حلاوة — براءة — أنت كده في السليم، فنظر إلي نظرة انتصار، فهممت أن أقول له: «متبصليش بعين رديّة شوف إيه اللي عملته في شرح الألفيه» (بالمناسبة أنا مدرس نحو، أدرس لطلبتي شرح ابن عقيل

على ألفية ابن مالك، ولا أرضى به بديلاً)، وهكذا يتسلل إلينا البلاء، وتسري بننا العدوى، فلا نملك لها صرفاً ولا تحويلاً:

تشاءب عمرو إذ تشاءب خالد بعدوى فما أعدتني الثؤباء
ورحم الله شيخنا أبا العلاء، والبيت من قصيدة باذخة، اطلبها في اللزوميات،
واقراها وأقرئها تلاميذك.

ومع هذه العامة البغيضة التي ذكرتها، فإن بعضهم يتحرى الفصحى، ولكنه يُخلط تخليطاً شديداً في أبنية الأسماء والأفعال، ثم يلحن ولا يعطي الإعراب حقه.

وإذا كنا قد أخذنا على بعض المناقشين الليونة والاستخفاف، فإننا نأخذ على بعضهم أيضاً اصطناع الشدة والقسوة، واللجوء إلى الصياح والجلبة وقعقة السلاح، والنظر إلى الطالب على أنه ذبيحة يتناولها بالمدى والسكاكين، ومحاولة إحراجه وإلجائه إلى أضيق الطرق، ثم ما يكون من تضييع الوقت في أشياء هينة، كالحديث عن علامات الترقيم والأخطاء المطبعية، والفرق بين المصادر والمراجع، ثم التهويش بما لا دليل عليه، كأن يقول المناقش: لقد سكتُ عن أشياء مهمة لضيق الوقت! إن الأشياء المهمة يا زميلي العزيز لا ينبغي تجاهلها أو السكوت عليها، وإلا فلم كانت هذه المناقشات العلنية؟ ثم إن مثل هذا الكلام يوقع الطالب في حرج: لأنه يوحى للحاضرين أنه قد وقع في الخطأ إلى أذنيه، ثم هي إلصاق تهم لا يستطيع أن يدفعها عن نفسه.

وأمر آخر خطير جداً: إن المشرف قديماً كان يشترك مع زملائه في مناقشة الطالب، وتدور مناقشته حول مخالفة الطالب عن أمره فيما رسمه له من خطة الرسالة، أو بأنه حين قرأ الرسالة كاملة ظهرت له جهات من النقص يرى ضرورة تنبيه الطالب عليها، وأذكر أن الأستاذ عمر الدسوقي، وكان مشرفاً على أخي وعشيرتي عبد الفتاح الحلو، رحمهما الله جميعاً، أذكر أنه حمل عليه حملة شديدة في المناقشة، فاقت مناقشة الآخرين: الدكتور عبد الحكيم بلبع رحمه الله، والدكتور عبد القادر القط، أطال الله في عمره. أما الآن فالمشرف يتعصب جداً للطالب،

ويسوؤه أن يعرض له أحد بنقد أو ذم، وكأنه هو كاتب الرسالة، وهذا لا يصح، فالمشرف يجب عليه أن يخلي بين الطالب ومناقشيه إلا إذا اقتضى الأمر توضيح مبهم، أو رفع التباس، ويحسن أن يكون هذا بعد انتهاء المناقشة، حتى لا يسقط الثقة بالمناقشين.

ومن أسوأ ما تراه الآن من تعصب بعض المشرفين أنه إذا رأى حدة من بعض المناقشين اتجه إلى الطالب وغمز له بعينه، يعني «فوت»، وهذا شيء رديء جداً، يراه الحاضرون بوضوح، ويخرجون يتندرون به، فيقولون: «شفت لما الدكتور غمز له بعينه!» ها ها ها.

لا يجوز:

ومن هموم هذه المناقشات الجامعية أيضاً: أن بعض الرسائل تتناول شخصيات معاصرة تعيش بيننا الآن، وتدعى تلك الشخصية لحضور المناقشة، وفي رأيي أن ذلك لا يجوز لأنه ربما تعرض أحد المناقشين لنقد تلك الشخصية أو القسوة عليها، فيكون في ذلك حرج على الجميع، وأذكر أن صديقاً لنا أعد رسالة عن شيخنا محمود محمد شاكر — برّد الله مضجعه — وكان ذلك في حياته، ودعي شيخنا لحضور المناقشة، فأبى وقال: لا أحب أن أضع الأساتذة في حرج، أو أضيق عليهم سبل القول.

وما بقي من شجون هذه المناقشات الجامعية إلا أمران:

الأول: تقدير درجة الرسالة، وفي هذه المسألة مداخلات كثيرة، أعرف بعضها وأعرض عن بعض، فالذي أعرفه منها: أن بعض المناقشين — بدواعي إدخال السرور على المشرف والطالب والحضور — يوحى في أثناء المناقشة بما سيكون عليه التقدير، حتى إذا أعلن يكون قد فقد حرارة المفاجأة ونشوة الفوز، ومن ذلك أن درجة الامتياز ومرتبة الشرف الأولى قد كثرتا جداً، ولو أجريت إحصاء بين الامتياز وجيد جداً، لوجدت الدرجة الأخيرة ضئيلة بالنسبة إلى أختها.

ومن أعجب العجب أن المناقشة تكون حامية جداً، ويدخل المناقشان وجوهاً من النقص كثيرة على الرسالة، ثم تخلو اللجنة للمداولة، وتكون المفاجأة حصول الطالب على الامتياز أو مرتبة الشرف الأولى (ويا دار ما دخلك شر)، وأذكر أنني كنت أناقش طالباً في رسالة دكتوراه، ووجهت إليه أنا وزميلي مؤاخذات كثيرة، وحين خلونا إلى تقدير الدرجة أصرّ المشرف على مرتبة الشرف الأولى، وأصررت أنا وزميلي على التي هي دونها، فغضب المشرف غضباً شديداً، فقلت له: أيها الزميل العزيز، ألسنت ترى أننا وجهنا إلى الرسالة سهماً كثيرة؟ فقال: بلى، فقلت: وأنت تصر على أن تعطىها الدرجة العليا، قال: نعم، قلت: ما رأيك لو جاءتنا رسالة أخرى بهذا العنوان والموضوع وقد خلت من كثير من المؤاخذات التي أخذناها على رسالة تلميذك، ماذا كنا نعطيها من التقدير؟ فحار وأبلس، ثم قال: خلاص يا دكتور، اعمل معروف متحرجنيش مع الطالب!.

ومن الأمور المؤسفة أيضاً: أن الطالب حين يحصل على تقدير لا يعجبه يواسيه المشرف قائلاً: والله يا بني أنا كنت عاوز أعطيك التقدير الذي تحبه، ولكن الزملاء غلبوني على أمري، وهذا لا يصح لأن رأي اللجنة جماعي، والمجالس أمانات.

ومن قضايا تقدير الدرجة: التفرقة أحياناً بين المعيد الذي يعمل داخل الكلية، وبين الطالب الذي يتقدم من الخارج، فالأول يعامل برفق، ويدخل إلى حلبة المناقشة هادئاً مطمئناً لأنه يعرف ما سيؤول إليه أمره، والثاني هو ونصيبه، وما ذلك إلا لأن المعيد يُنظر إليه على أنه زميل المستقبل، وبعض الكبار يحبون أن يتخذوا يداً عند الصغار، والله في خلقه شؤون.

ونعم إن بعض الشرفاء لا يعرفون هذه التفرقة، ومن ذلك ما حدث أخيراً في كلية دار العلوم، حين أصر بعض الأساتذة على رفض رسالة دكتوراه قدمها مدرس مساعد بالكلية، لأنه قد ظهر أن الرسالة مسلوخة من كتب بعض الأساتذة، والغريب أن ذلك السارق قد وجد من يساعده ويتصر له من داخل الكلية، وبالله نستدفع البلايا!

وهذا السارق إنما جرّاه على السرقة وأغراه بها أنه وجد بعض الأساتذة الكبار

يسرقون ويدينهم القضاء، ثم لا تفعل الجامعة معهم شيئاً، فمن حق هذا الطالب السارق أن ينشد قول الشاعر:

سَرَقْتُ مَالَ أَبِي يَوْمًا فَأَدَّبَنِي وَجُلَّ مَالِ أَبِي يَاقَوْمَنَا سَرَقُ

والأمر الثاني: أن مقدم الرسالة يتلقى تصحيحات كثيرة وتعديلات كثيرة على رسالته، وبعد أن يحصل على الدرجة والتقدير، يخرج وكأن شيئاً لم يكن، وحين يطبع الرسالة ويخرجها إلى الناس لا يعتني كثيراً بالإصلاحات التي قدّمها له أساتذته، بل إن بعضهم يبلغ به اللؤم أنه حين يخرج الرسالة كتاباً مقروءاً يُسقط منها الشكر الذي قدمه للمشرف وللمناقشين، ومن العجب أن بعض الذين يفعلون هذا شباب طيبون، وأصحاب فضل وعلم، ولكنها العدوى التي تجتاح الناس كالوباء العام.

والرأي عندي أن الطالب لا يُجاز على رسالته الإجازة المشفوعة بالدرجة إلا بعد أن يقدم نسخة من رسالته محررة ومستفيدة من إصلاحات أساتذته، فإذا ما أخرجها للناس بأفاتها ويأسقاط أسماء مشرفه ومناقشيهِ سُحِبَت منه، وأعلنت فضيخته على الناس.

فيا زملاءنا الأعزاء: أعرف أن عندكم علماء كثيراً، ولكنني أدعوكم أن تخرجوه للناس ولا تَضُنُّوا به، واعلموا أن ما تؤجرون عليه من المجلات الغنية، وبرامج التلفزيون الخليجية إنما أخذتموه باسم الجامعة الضخم، وبالطيلسان الجامعي الفضفاض، فأنتم في الأصل معلمون، فأعطوا الجامعة حقها عليكم، وأخلوا وجوهكم لطلبكم، وأعطوهم حظهم من العناية والتوجيه، وخُذوهم بالجد، ثم أعيدوا للرسائل الجامعية بهاءها ووقارها وشرفها.

أقول قولِي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

* * *

المرفع هم
عفا الله عنه

مقالات قصيرة
بعنوان:
الكلمة الأخيرة

المرفع هم
عفا الله عنه

المؤتمرات العلمية.. والنغمة المكرورة^(١)

حضرت منذ أيام مؤتمراً علمياً لإحدى الكليات النظرية، تحت عنوان «التجديد في العلوم العربية والإسلامية»، وقد كثرت هذه المؤتمرات في السنوات الأخيرة كثرة ظاهرة، ولو أن إنساناً شغل نفسه بتتبع هذه المؤتمرات فتأمل الأوراق المقدمة لها، والتوصيات التي انتهت إليها، لوجد تشابهاً واضحاً في هذه وتلك، فالقضايا هي القضايا، والتوصيات هي التوصيات، وقد يجد اختلافاً في طريقة المعالجة وفي صورة التوصيات، ولكن الجوهر هو هو، على ما قال الشاعر:

عباراتنا شتى وحسُنْكَ واحدٌ وكلُّ إلى ذاك الجمال يشير
ولو أنَّ الأمور كانت تجري في هذه المؤتمرات على سنن من الاستقامة والإنصاف والعدل، لقلنا لا بأس ولا نكران، فالطارف يذكّر بالتليد، والمكرر أحلى — كما يقول أهل الحديث، ولكن المشاركين في هذه المؤتمرات يشرقون ويغربون، وتأتي كلمة التجديد بلمعانها وبريقها معينة لهم على ما هم بسبيله من التنقص والمعابة لعلومنا جميعها، ولتاريخنا كله، فلا مهابة لعلم، ولا حصانة لأحد، ألسنا تحت مظلة «البحث العلمي والموضوعية والتجرد»؟

وتسمع في هذه المؤتمرات أحكاماً ضخمة مكرورة، مثل: تفسير القرآن مليء بالإسرائيليات.

(تنبيه: نحن لم نُنْه عن الإسرائيليات جملة، وكيف وقد أخرج البخاري ومسلم

(١) مجلة «الهلال»، يونيو ١٩٩٥ م.

وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال: «وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»، أي بما لا تعلمون كذبه).

ومن هذه الأحكام أيضاً قولهم: الحديث مشحون بالوضع والضعف. والنحو تعقيد وتأويلات، والبلاغة تكلف وأصباغ، والعروض قيود ودوائر تدوير الرأس، والتاريخ أرستقراطي، كُتِبَ للخلفاء والملوك، والجغرافيا العربية بلهاء، وأدبنا العربي غارق في الذاتية ومجالس السمر، إلى آخر هذه القضايا المألوفة، وهي «شِئْنَةُ أَعْرِفُهَا مِنْ أَخْزَمَ» كما تقول العرب في أمثالها.

لكن الخطورة في هذا الكلام في تلك المؤتمرات يقال بمحضر من الطلبة. وهم على ما نعرف من قلة المحصول. وقد قام عندهم شيء من الشك في هذا الذي يسمعون لا يستطيعون له دفعا ولا رداً. لغرارتهم وجهلهم لها وللمكانة العالية لأساتذتهم عندهم. وبخاصة أن هذه القضايا تساق في ثياب مزركشة من مثل «الموضوعية والجدلية والإشكالية وحتمية التاريخ والمنظومة الحضارية»، وهي كلمات شديدة الأسر نافذة التأثير.

ويحدّثني كثير من الطلبة عما يجدونه من تناقض صريح بين ما يسمعون في هذه المؤتمرات، وما يلقي عليهم داخل المدرجات وكأنهم يقولون: «كيف تُبَغِّضُون إلينا طعاماً ثم تدعوننا إلى أكله».

فيا أساتذتنا الأكرمين، ويا زملاءنا الأعزاء: رفقاً بهؤلاء الصغار، حتى لا توقعوا الشك في قلوبهم، وتورثوهم الحيرة والبلبلّة، فتزلّ قدم بعد ثبوتها.



الجزار الثالث^(١)

من شعراء العصر المملوكي البارزين أبو الحسين الجزار المتوفى (٦٧٩هـ). كان جزاراً بفسطاط مصر، ورث الجزارة عن أبيه، واشتغل بها إلى أن عرف بالشعر، وتقدم به إلى السلاطين والملوك، فنال جوائزهم وعاش في رحابهم، وكان ظريفاً صاحب طرائف في شعره وفي سلوكه، يقول عنه ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب ٣٦٤/٥: «شاع شعره في البلاد وتناقلته الرواة».

وفي منتصف الخمسينات قدم الأستاذ الإذاعي طاهر أبو زيد في برنامجه الشهير «جرب حظك» جزاراً مثقفاً، يقرأ الأدب، ويسمع الموسيقى الكلاسيك، وكان اسمه على ما أذكر «عزت أبو نقاية»، فهذا هو الجزار المثقف الثاني.

أما الجزار المثقف الثالث فقد التقيت به في الشهر الماضي بمقهى من مقاهي حي «جليم» بالإسكندرية.

ففي ضحى يوم كنت أجلس بهذا المقهى إذ دخل رجل ربعة موفور الجسم، يلبس خواتم ذهبية ضخمة وتتدلى من رقبته سلسلة ذهبية تلمع من ثنايا قميص ملون، ثم جلس وطلب «شيشة» اعتنى بإعدادها عامل المقهى عناية ظاهرة تضاءلت بجانبها «شيشتي» المتواضعة، فقلت: آه، هذا معلم كبير، ولا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، لكن شدني إليه مجموعة من الكتب والمجلات، وضعها بجانبه، لمحت منها مجلة عالم الفكر ومجلة العربي ثم كتاب الدكتور نصر حامد أبو زيد، فاستأذنته في رؤية كتاب الدكتور نصر، فقال لي: ما لك ولهذا الكتاب؟ فأجبته بسؤال: وهل

(١) مجلة «الهلal»، أكتوبر ١٩٩٥م.

قرأته أنت؟ فقال: نعم، قلت: وما رأيك فيه؟ فأجاب بكلام عال جداً، أمسك عن ذكره هنا حتى لا أزيد النار اشتعالاً، ثم سألته: هل قرأت كتاب ابن بلدك الأستاذ «محمود رؤوف أبو سعدة» عن إعجاز العَلَم الأعجمي في القرآن، الذي نشرته دار الهلال؟ قال: نعم، ولكن لي عليه ملاحظات. وذكر منها أشياء جيدة، فأغراني ذلك كله بمد حبال المحاوره معه، حتى جاء ذكر «الجاحظ»، فقال: الجاحظ عظيم، لكنه غطى شهرته على أدباء كبار، قلت: مثل من؟ قال: أبو حيان التوحيدي، قلت: هل تقرأ لأبي فهر محمود محمد شاكر؟ قال: نعم، وأعظم أعماله «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»، أما «أباطيل وأسمار»، فهو جيد، لكن فيه تكرار كثير.

وامتد الكلام إلى أدباء الحداثة، فقال: إنهم لا ينتجون أدباً جيداً لأنهم لا يقرأون، قلت: لعل عذرهم ضيق الوقت وكثرة الصوارف، قال: لا، لو رأيتهم في قصور الثقافة، وهم ينفقون وقتاً طويلاً في الثرثرة وفيما لا طائل تحته، لأخذك العجب، ثم ناقشنا قضايا كثيرة كشفت عن اطلاعه الواسع. قلت: ما اسمك؟ قال: «صلاح المصري»، وأعمل بالجزارة التي ورثتها عن أبي. وقبل أن أودعه قال: على فكرة أنا خريج دار العلوم سنة ١٩٧٠، دفعة الدكتور الشاعر «عبد اللطيف عبد الحليم».

قلت: ومع هذا تبقى صورتك العظيمة عندي: أنك جزار مثقف، أما تخرجك في دار العلوم فلن يغني عنك شيئاً، لقد عرفت من أبناء دار العلوم المحقق والعالم والأديب والشاعر، لكنني عرفت منهم أيضاً من يكتب صورة «البقرة»، وصورة «آل عمران» بالصاد لا بالسين، فهذا كما قال ربنا عز وجل: ﴿يُسْقَى يَمَاءٌ وَجِلْدٌ وَنُقِضَلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ﴾ [الرعد: ٤].

وبعد: فهل بقي من الجزائريين المثقفين أحد؟ الله أعلم. ولعلنا نظفر بالمزيد منهم حتى يصبح لدينا «سلخانة» من المفكرين، و «مذبح» من النقاد.



العامية في مهرجان أمير البيان^(١)

كان عرساً ثقافياً رائعاً، ذلك الذي أقيم لأبي حيان التوحيدي، رغم أنني لم أدع للمشاركة فيه، مع أن أعدل ترجمة أنصفت أبا حيان جاءت في كتاب حققته ونشرته منذ ٢٥ عاماً، وأنا وأخي عبد الفتاح الحلو رحمه الله، وهو طبقات الشافعية للسبكي، «والشكوى لغير الله مذلة، وربنا مع المنكسرين جابر»، وقد نجح جابر عصفور نجاحاً ظاهراً في الإعداد لهذا المهرجان وخرج به في أبهى صورة.

وأبو حيان ثاني اثنين أضاءت بهما الكلمة العربية، فأنت مع الجاحظ ومعه تنعم بحلاوة البيان العربي ويغمرك بهأوه وسناه، الذي يحجبك عنه الآن دعاة الألسنية والموضوعية والتفكير العلمي، «ارجع من فضلك إلى ما كتبتة عن البيان والطريق المهجور – الهلال مارس، ابريل ١٩٩٥م».

ولم يُغَيَّر في وجه هذا المهرجان إلا تلك العامية البغيضة التي جرت على ألسنة كثير من المعقِّبين على الندوات، وبعضهم من أساتذة الجامعات، مثل قول أحدهم: «الرأي دَوْتُ» مكان: «الرأي هذا»، وقول بعضهم: «الأفكار العبيطة» موضع: «السادجة» والحرص على كسر النون في أوائل الأفعال المضارعة، مثل: نِفهم ونِقراً ونِحاول «ولا تقل إنها لهجة عربية قديمة. فالذي ينطقها هكذا لا يعرف ذلك، وإلحاق الشين في أواخر الأفعال، مثل: ما أظنش، وما افتكرش، عيب يا أساتذة فضحتونا أمام الأجانب».

(١) مجلة «الهلال»، نوفمبر ١٩٩٥م.

هذا أمر، وأمر آخر: أن بعض الذين ألقوا البحوث على المنصة تجاوزوا النحو كثيراً، وخلطوا في أبنية الأسماء والأفعال، ولم يتحرّوا المخارج الصحيحة للحروف، فخرج كلامهم معجوناً بعضه ببعض، ولو بُعث أبو حيان من مرقده لفزع فزعاً عظيماً، ولشكنا إلى أبي سعيد السيرافي النحوي، بل لكانت نقمته علينا أشد من نقمته على الوزيرين: ابن عباد وابن العميد.

ثم أقولها كلمة حق: لم أجد من التزم النظام النحوي، وتحرّى الصواب اللغوي في منطقته «أي نطقه» إلا جابر عصفور، فتحية له على رعايته لهذا المهرجان، ثم ألف تحية على احترامه للعربية، مع أنني أختلف معه كثيراً فيما يكتب.



ما المسؤول عنها بأعلم من السائل^(١)

ابنتي طالبة بقسم اللغة العربية بإحدى كليات الآداب، وأنا أعلم العربية في كلية مناظرة، فكان حقاً علي أن أكون في عون ابنتي فيما يشكل عليها مما تدرس من علوم العربية، ويشق على المدرس كثيراً أن يمارس عمله مع أبنائه، لكنني أغالب هذا الشعور استجابة لعاطفة الأبوة، لكنني أيضاً أقف عاجزاً أمام كثير مما تدرسه ابنتي، وبخاصة ما يتصل بعلوم النقد الأدبي والبلاغة والأدب المقارن وتحليل النصوص، فكثير مما يقدم من هذه العلوم للطلبة الآن كلام عجيب حقاً، وليس له من العربية إلا الحروف والأفعال والأسماء، مصبوبةً ذلك كله في نظام نحوي صحيح في جملته، لكنك إذا أردت أن تخرج منه بمعان أو دلالات ذات معنى أعجزك ذلك، فهو كلام «تعقل مفرداته ولا تفهم مركباته» كما وصف ابن دقيق العيد كلام ابن سبعين الصوفي، وأحياناً لا تعقل مفرداته، ولذلك يعجزني — على كثرة ما قرأت وحفظت — أن أجيب ابنتي على ما تسأل، وكثيراً ما أجيبها: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»، ثم أصلي على رسول الله ﷺ.

وقد لجأت إلى زملائي الذين يعرفون لغة القوم، من أصحاب الألسنية والبنوية والتفكيكية، ليدلونني على أمثل طريقة لتفهم ابنتي ذلك الكلام، فقالوا: لا سبيل أمامها إلا أن تحفظ ذلك الكلام بحروفه لتضعه كما هو في ورقة الإجابة.

وهذا رأي خطير جداً، لأن معناه أن يتحول الطالب إلى ببغاء يردد دون أن

(١) مجلة «الهمال»، أبريل ١٩٩٦ م.

يفهم، ومعناه أيضاً أن يفقد الطالب القدرة على أن يؤدي بالفاظ من عنده كلام أستاذه، وهو ما ترفضه نظريات التربية القديمة والحديثة.

وقد حاولت أنا فعلاً أن أجِد كلمات مرادفة لهذا الذي تقرأه ابنتي من كلام أساتذتها، فلم أرجع بشيء ذي بال، وكنت حريّاً أن أذكر شيئاً من هذا الذي تعانيه ابنتي وأعانيه معها، ولكنني لا أريد أن أحمل «الهلال» وزر هذا الكلام والرد عليه، لكنه في الجملة كلام يدور حول التناص والتماهي والتفكيك والتفجير اللغوي، والإشكالية - إشكالية أي شيء؛ مع تلك البدعة الغريبة: بدعة «الأسطورة والأساطير» في الأدب العربي، فكل معاني الشعر الجاهلي وصوره وأخيلته مردودة إلى الأسطورة ومحمولة عليها ومفسرة بها.

وإن تعجب فعجب أن بعض الذين يكتبون هذا الكلام الغامض المعنى هم ممن نشأوا بالأزهر وتخرجوا في دار العلوم، والأصل في من يتخرج في هذين المعهدين أن يكون عربي الوجه واليد واللسان، ولكن هكذا كان، وربك يفعل ما يشاء.



أبي يغزو.. وأمي تحدث^(١)

هذا مثل شائع من أمثال العرب، وأصله فيما ذكر ابن الأعرابي: أن رجلاً قدم من غزوة، فأتاه جيرانه يسألونه عن الخبر، فجعلت امرأته تقول: قتل من القوم كذا، وأسر كذا، وجرح كذا، والرجل صامت لا يتكلم، فقال ابنها متعجباً: «أبي يغزو وأمي تحدث»، هكذا رواه المفضل بن سلمة، والميداني، ورواه الزمخشري: «وأمي تعبر»، والتحبير: التزيين، ثم قال: يضرب لمن يفتخر ببلاء غيره.

وأنت ترى أيها القارئ الكريم، وأنا أرى معك تصديق هذا المثل كل يوم فيمن يتحدثون كثيراً على السنة غيرهم، ويحملونهم ما لم يحملوا، ويقولونهم ما لم يقولوا، وكثيراً ما يضيفون إلى ذلك كلاماً آخر عن أنفسهم هم: معتدلين أو مبالغين.

وقد ذكرت هذا حين قرأت عقب وفاة شيخ المجمعين الدكتور إبراهيم بيومي مذكور كلمة بالأهرام لأحد أساتذة الجامعة، نعى فيها الدكتور مذكوراً، ذاكراً بعض مآثره وآثاره ليخلص بسرعة إلى الحديث عن نفسه هو وتلاميذه هو، ثم رآها فرصة ليضع كتفه بجوار كتفه، وهامته إلى هامته، فيذكر خلافه معه في الرأي والقضايا الفلسفية الكبرى.

وذكرت هذا المثل أيضاً يوم حصل فارس الرواية العربية نجيب محفوظ، على جائزة نوبل العالمية، وانطلقت أقلام المنظرين والمتفلسفة، تحلل وتفسر، وتستنتق الأديب الكبير بما لم يقله؛ بل إن بعضهم ألْبسه «برنيطة» فردّ فنه الروائي إلى فلان

(١) مجلة «الهلal»، يونيو ١٩٩٦م.

الإنجليزي، أو فلان الفرنسي، والرجل ساكت لا ينطق، مجامل لا ينفي، وكأنه يقول في نفسه: «لا والله ليس الطريق هنالك!». على أن أديباً من هؤلاء الأدباء أعطى لنفسه خصوصية عجيبة بنجيب محفوظ، فهو لا يزال يشعرنا بأنه الأقرب والأحظى عند الأستاذ، وأنه مستودع سره، ومستراح ضميره، ويقول مرة: أبي نجيب، ومرة: عمي نجيب، ثم يتمادى فيرد أدبه إلى أدبه، ويقرن فنه بفنه، ويا بُغْد ما بينهما!

ويذكر تلاميذ الأستاذ العقاد وجلساؤه أن ذلك الكتاب الذي كتبه هذا الأديب الشهير والصحفي الكبير عن «صالون العقاد» فيه تزئيد غير قليل على العقاد، وأن قدراً كبيراً من المكتوب إنما هو عن الكاتب لا عن العقاد، هكذا قالوا والعهدة عليهم، فإني لم أجالس العقاد رحمه الله، وقد فاتني بذلك خير كثير.

على أن هذا كله يذكّرنا بمثل عربي آخر، هو قولهم: «سَيَرَيْنِ فِي خُرْزَةِ»، والسير معروف، وهو من الجلد يُصنع منه النعال، ويضرب هذا لمن يجمع حاجتين في حاجة واحدة، وما أصدق العرب في أمثالها وحكمها!



الندواتية^(١)

وأخيراً، وبعد صبر وترقب وطول انتظار من الله عليّ ودُعيت إلى ندوة من تلکم الندوات التي تتوالى في هذه الأيام كما تتوالى دفعات المطر، وقد كثرت هذه الندوات كثرة ظاهرة، فلا تُمسي بك ليلة بندوة حتى يأتيك صباح بأخرى.

وفي تلك الندوات تلتقي بثلاث فئات: رئيس الجلسة والمتحدث والمعقب، وترى بين الثلاثة ودّاً صافياً وأنساً عذباً. فهذا غني عن التعريف، وذاك ترك أعمالاً جليلة ليشارك في ندوتنا هذه، وثالث يتواضع ويقول: إنه لا يستحق كل ذلك الثناء (ويعلم الله أن بداخله كبيراً يكفي أمة).

ويمضي النقاش بين الثلاثة ملفّقاً في ثياب المصانعة والمس الرقيق، ثم يختم بهذه العبارة الحانية: إن هذه الملاحظات لا تغض من قيمة البحث الذي استمتعنا به اليوم، «ويعلم الله أنها تغض وستين تغض كمان»، وهكذا تسير الأمور، وإذا سمعت شغباً أو حدة أو ارتفاعاً في الأصوات، فلا تظن أن المسألة دخلت في باب الجد، وإنما هو من قبيل قول الأحوص في عاتكة:

إنني لأمنحك الصدود وإنني قسماً إليك مع الصدود لأمنيلُ
لأن «الندواتية» يحب بعضهم بعضاً، ويحرصون على استبقاء الود بينهم، ترقّباً للندوات القادمة، ولعلمهم مقدمون على خطوة كالتي خطاها كتاب بريد الأهرام، فنسمع عن تكوين «أصدقاء الندوات»، وقد أصبحت أسماء «الندواتية» مكرورة ومعروفة كأسماء كتاب بريد الأهرام تماماً.

(١) مجلة «الهلal»، أبريل ١٩٩٧م.

لكنني أشهد أن بعض هذه الندوات تعالج قضايا جادة، وتتناول شخصيات كبيرة، وأنها يُعدّ لها إعداداً جيداً، ولكن يُفسد ذلك كله المصانعة والاستخفاف، والمشاركة دون الاحتشاد وامتلاك الأدوات، «وانظر الكلمة الأخيرة في عدد سابق من الهلال لأستاذنا الدكتور الطاهر أحمد مكي».

ثم أشهد أيضاً أن من بين هؤلاء «الندواتية» أناساً أهل فضل وعلم، ولو أنفقوا هذا الوقت مع تلاميذهم في الجامعة، أو مع كتبهم وتصانيفهم لكان ذلك أنفع وأجدى على الفكر والأدب؛ لأن كثيراً مما يطرح في هذه الندوات ومثلها المؤتمرات العلمية كلام في كلام، وقديماً ما نبّه الناس إلى أن كثرة القول مفسدة للعمل، فقال القائل: «زيادة القول تحكي النقص في العمل»، وقال أبو العلاء في لزوميّاته: إذا كُثر الناس شاع الفسادُ كما فسد القول لما كُثر والله أعلم.



موائد الرحمن^(١)

بعد أيام يهّل هلال رمضان، وفي رحاب هذا الشهر الكريم يعيش الناس أياماً طيبة حافلة بالنور والضياء، وتنشط نفوس الصائمين بألوان كثيرة من الخير والبر، من أظهرها وأبرزها ما عرف في السنوات الأخيرة من موائد الإفطار التي نراها في المساجد، وفي بعض الميادين، يتحلق حولها الصائمون ينعمون بأطياب الطعام. وقد عرفت هذه الموائد باسم «موائد الرحمن»، وقد تأثرت هذه التسمية بما يطلقه إخواننا السعوديون على الحجيج بأنهم «ضيوف الرحمن».

وهذه الموائد تحقق للمصريين عاداتهم في استدعاء مظاهر البهجة، وارتفاع الأصوات الفرحة في أثناء رص الموائد ورش الماء أمامها، وتوزيع الأطباق «وعقبال العودة يا حاج» «ونزلت كم طبق بالصلاة على النبي؟» «وخللي بالك من الرجل البركة دا والنبي».

ولكن هل تحقق هذه الموائد الغاية التي يتغيّاها هؤلاء المحسنون من إقامتها؟ وهل يستفيد منها أهل الحاجة فقط؟ أم أنها يغشاها من يستحق ومن لا يستحق، وما نصيب النساء والأرامل منها؟ ثم ما نصيب هؤلاء الفقراء الذين يقعدهم الحياء واستبقاء الكرامة عن غشيان هذه الأماكن العارية — وقد ورد في كلام بعضهم: الأكل والنوم عورتان فاستروهما — وهؤلاء الفقراء هم الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيئَتِهِمْ لَا بِسَلَوَاتِهِمُ النَّاسُ الْحَافَا﴾ [البقرة: ٢٧٣]، ثم وصفهم بشار بقوله:

(١) مجلة «الهلال»، يناير ١٩٩٧م.

إن الكريم ليخفي عنك عسرتة حتى تراه غنيّاً وهو مجهود
ألا يمكن أن يكون هناك بديل عيني في صورة مبلغ من المال يذهب إلى هؤلاء
المحتاجين في بيوتهم؟ لقد حسم الخليفة الراشد عمر بن الخطاب هذه القضية حسماً
قاطعاً، فيما رواه الطبري في تاريخه ٢٤٥/٤ (حوادث سنة ٢٤) قال: «وكان عمر
يجعل لكل نفس منفوسة (أي مولودة) من أهل الفياء في رمضان درهماً في كل يوم،
وفرض لأزواج رسول الله ﷺ درهمين درهمين، فقليل له: لو صنعت لهم طعاماً
فجمعتهم عليه! فقال: أشبعوا الناس في بيوتهم».

ورحم الله عمر، فقد جعل الله الحق على لسانه وقلبه، كما أخبر الصادق
المصدوق، فيما رواه الترمذي عن ابن عمر. وأخرج البخاري أيضاً عن أبي هريرة أن
رسول الله ﷺ قال: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون، فإن يك في أمتي
أحد فإنه عمر».

والمحدث بتشديد الدال المفتوحة: هو المُلهم، كأنه حُدث بشيء فقال له.

وكل عام وأنتم بخير.



جلال معوض.. وزمن الورد^(١)

من كلام العرب الحكيم قولهم: «زمن الورد»، ويضرب به المثل في الحُسن والطيب، ذكر ذلك الثعالبي في كتابه ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ٦٤٤. وهو كتاب جيد يحوي معارف كثيرة وينبغي قراءته.

وقد ذكرنا بهذا الزمن الأستاذ جلال معوض رحمه الله في برنامج له ظريف قدمه خلال رمضان بإذاعة البرنامج العام اسمه «عصر من الغناء».

وقد أداره على أغاني أم كلثوم، وقد صار هذا التركيب «أغاني أم كلثوم» تركيباً خالداً على سمع الزمان، تسمعه فتشعر بالجلال والعزة والبهجة والبهاء تماماً كما تسمع «أغاني أبي الفرج الأصبهاني»، و «إلياذة هوميروس»، و «كتاب سيويه».

وإذا كان جلال معوض قد طوّف مع أم كلثوم في مراحلها كلها، فقد وقفت أنا طويلاً عند مرحلة «الخمسينات» لأنني أرى أنَّ صوت أم كلثوم في هذه المرحلة كان قد استحصّد واستوى على سوقه، بعد أن تخلص من «السُرْسعة» — وإن كانت محببة جداً — التي صاحبته في الثلاثينات والأربعينات. صوت أم كلثوم في الخمسينات صوت مثقف رشيد، استولى على أصول النغم وخبر درجات المقامات، وأحسن الدخول والخروج، كصوت الشيخ مصطفى إسماعيل في الخمسينات أيضاً.

وفي تلك المرحلة هجرت أم كلثوم الطقاطيق وأغاني الأفلام، واتجهت إلى المطولات أو (المعلقات) من شعر فصيح، أو عامية راقية. وكان من حسن حظ

(١) مجلة «الهلال»، أبريل ١٩٩٧م.

الملحن العظيم رياض السنباطي أن خلت له الساحة في هذه الخمسينات، فمحمد القصبجي وقف عند «رق الحبيب»، وقنع بأن يدندن خلف أم كلثوم على عوده، والشيخ زكريا أحمد اكتفى بأهل الهوى والأمل وأنا في انتظارك وهجر صوت أم كلثوم هجراً غير جميل في قطيعة استمرت من سنة ١٩٤٧ إلى ١٩٥٩ (راجع مقالة أستاذنا كمال النجمي في هلال فبراير) فخلا وجه أم كلثوم للسنباطي من أواخر الأربعينات إلى الخمسينات وما بعدها، فأبدع معها وبها، وكانت هذه الروائع: سلوا كؤوس الطلا، وسلوا قلبي، والنيل، ونهج البردة، وولد الهدى، وإلى عرفات الله، ورباعيات الخيام، وأغار من نسمة الجنوب، ومصر تتحدث عن نفسها، وقصة الأمس، وقصة حبي، وثورة الشك، وأراك عصي الدمع.

ثم هلت ليالي القمر، ويا اللي كان يشجيك أنيني، وغلبت أصاح في روحي، وجددت حبك ليه، وسهران لوحدي، ويا ظالمني، وشمس الأصيل، وعودت عيني، وهجرتك، وأروح لمين، والحب كده.

وفي هذه الأغنية الأخيرة ملامح كثيرة من روح زكريا أحمد وبخاصة مطلعها، والذي لا يعرف أنها من تلحين السنباطي يظنها للشيخ زكريا.

وقد كان جلال معوض موفقاً في اختيار هداة الليل موعداً لبرنامجهم الجميل هذا، فالليل أبعث للشجن وأدعى للذكريات والبكاء معها وعليها. ألم يقل مجنون بني عامر:

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا لي الليل هزنتي إليك المضاجع
أقضي نهاري بالحديث وبالمنى ويجمعني والهـم بالليل جامع

وأيضاً فإن جلال معوض قد أمتعنا بصوته الحلو الذي يجمع بين العذوبة والفحولة، وهذا شأن أبناء جيله: حسني الحديدي وصلاح زكي، ثم المفكر النابه أحمد فراج.

* * *

زاحِمٌ بِعَوْدٍ أَوْ فَدَعٍ^(١)

العود، بفتح العين وسكون الواو: الجمل المُسِنَّ. وهذا من أمثال العرب، ومعناه: لا تستعن إلا بأهل السن والتجربة، ويمكن أن يوجه هذا المثل أيضاً على معنى: لا تنافس ولا تغالب إلا بشيء ذي قدر ونفع.

وقد تذكّرت هذا المثل حين كنت بدولة الإمارات العربية المتحدة منذ شهور، أستاذاً زائراً بجامعة العين، وفي الفندق الذي كنت أنزل به أتيت لي فرصة طيبة لرؤية القنوات الفضائية العربية، فرأيت شيئاً معجباً حقاً، سواء في قنوات أبو ظبي ودبي والشارقة أو في سائر الفضائيات الأخرى. في هذه الفضائيات ترى ألواناً رفيعة من الدين والأدب والفن والسياسة والاجتماع والرياضة، إلى القضايا الساخنة والحوارات الجادة بين أطراف متباعدة فكراً ومكاناً، بحيث أصبح التلفزيون أداة تثقيف وإنارة، وفارقه مسحة الإملال التي يشكو منها الناس.

أرى هذا كله ثم أقارن بينه وبين ما تقدّمه قناتنا الفضائية المصرية، فلا أخرج من المقارنة إلا بما قاله حافظ إبراهيم:

وزعيمهم شاكي السلاح مدجج وزعيمنا في كفه منديل

إن برامج الفضائية المصرية فقيرة بجانب ما تقدمه أخواتها العربيات، ومعظم ما تقدمه قناتنا: أفلام ومسرحيات ومسلسلات، إلى جانب بعض البرامج الخفيفة، مثل: أغاني الأفلام، وأغاني وأماني، وسباق الأغنيات، ونجم على الهواء، بحيث

(١) مجلة «الهلal»، مارس ١٩٩٨م.

يخيل للناظر أن مصر قد فقدت علماءها ومفكرها وأدباءها، ولم يبق على ظهرها إلا أهل التمثيل والمغنى. على أن هذه البرامج الخفيفة قد ترضي بعض الأذواق، ولكنه رضا موقوت، على ما قال ابن الرومي:

وقد يفضلها قوم لعاجلها لكنه عاجل يمضي مع الريح
والعجيب أن كثيراً من برامج هذه الفضائيات العربية الجادة مسجلة في مصر، وتقوم على شخصيات مصرية، وهؤلاء المصريون الذين يتعاملون مع تلك القنوات يحبون بلدهم مصر، بل ويعشقونها، ويقولون: «يا حبيبتى يا مصر»، ولكنهم يتصرفون وفق القاعدة التي تقول: «الصلاة خلف عليٍّ أتمّ، لكن الطعام على مائدة معاوية أذسم».

فعلى قناتنا المصرية إذا أرادت أن تزاحم وتنافس: أن تجود وتحسن، وإلاّ انصرف الناس عنها، وغابت صورة مصر المحروسة.



الفهارس

- [١] فهرس الآيات القرآنية .
- [٢] فهرس الأحاديث النبوية .
- [٣] فهرس الأعلام .
- [٤] فهرس الكتب والدوريات .
- [٥] فهرس المراكز والمؤسسات الثقافية .
- [٦] فهرس الخزائن والمكتبات .
- [٧] فهرس دور الطباعة والنشر .
- [٨] فهرس الموضوعات .

المرفع هم
عفا الله عنه

[١] فهرس الآيات القرآنية

الآية	السورة/ رقم الآية	الصفحة
﴿مالك يوم الدين﴾	الفاتحة/ ٤	٥٨٨ ، ٥٠٤
﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا...﴾	البقرة/ ٢٣	٢٧٠
﴿وقد كان فريق منهم يسمعون...﴾	البقرة/ ٧٥	٤٠٢
﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه...﴾	البقرة/ ١٢٤	١٣٨
﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد...﴾	البقرة/ ١٢٧	٢٧٥
﴿إذ حضر يعقوب الموت﴾	البقرة/ ١٣٣	١٣٨
﴿صبغة الله﴾	البقرة/ ١٣٨	٥٨١
﴿ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾	البقرة/ ١٥١	٢٤٧
﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا...﴾	البقرة/ ١٥٦	٥٤٨
﴿ما أهل به لغير الله﴾	البقرة/ ١٧٣	٢٨٧
﴿فعدة من أيام آخر﴾	البقرة/ ١٨٤	٥٥٧
﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم...﴾	البقرة/ ١٩٠	٦٤٠
﴿واقتلوهم حيث ثقتموهم...﴾	البقرة/ ١٩١	٦٤٠
﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة...﴾	البقرة/ ١٩٥	٦٤٠ ، ٦٣٩
﴿فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾	البقرة/ ١٩٧	٥٠٥
﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه...﴾	البقرة/ ٢١٧	٦٤١ ، ٦٤٠
﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا...﴾	البقرة/ ٢٢٤	٦٤١

الآية	السورة/ رقم الآية	الصفحة
﴿واذكروا نعمة الله عليكم...﴾	البقرة/ ٢٣١	٥٥٢ ، ٢٤٧
﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً﴾	البقرة/ ٢٣٤	١٩٨ ، ١٩٦
﴿لا يبيع فيه ولا خلة﴾	البقرة/ ٢٥٤	٥٠٥
﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف...﴾	البقرة/ ٢٧٣	٧٠١
﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة﴾	البقرة/ ٢٨٠	٣٦٢
﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله...﴾	البقرة/ ٢٨١	٣٤٢
﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم...﴾	البقرة/ ٢٨٢	٦٤٢
﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾	البقرة/ ٢٨٢	٦٤٣ ، ٦٤٢
﴿قل اللّٰهُم مالك الملك﴾	آل عمران/ ٢٦	٥٨٨ ، ٥٠٤
﴿ومكروا ومكر الله﴾	آل عمران/ ٥٤	٢٨٦
﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا...﴾	آل عمران/ ٧٢	٦٤٣
﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾	آل عمران/ ٧٣	٦٤٣
﴿ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم﴾	آل عمران/ ١١٠	١٤٥
﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون﴾	آل عمران/ ١٢٩	٥١٠
﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾	آل عمران/ ١٤٠	١٣٨
﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾	آل عمران/ ١٥٩	٢٩١
﴿كل نفس ذائقة الموت﴾	آل عمران/ ١٨٥	١٩٤
﴿ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا﴾	النساء/ ٦	١٥٥
﴿وإن كان رجل يورث كلالة...﴾	النساء/ ١٢	٤٤٧
﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً...﴾	النساء/ ٢٠	٤١٥
﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه...﴾	النساء/ ٣١	٣٣٨
﴿الذين يبيعلون ويأمرون الناس بالبخل﴾	النساء/ ٣٧	٣٦٠
﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد...﴾	النساء/ ٤١	٣٣٧
﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم...﴾	النساء/ ٤٦	٤٠٢
﴿رأيت المنافقين يصدون...﴾	النساء/ ٦١	٣٦٢

الآية	السورة/ رقم الآية	الصفحة
﴿قل كل من عند الله﴾	النساء/ ٧٨	٢٨٧
﴿ما أصابك من حسنة فمن الله . . .﴾	النساء/ ٧٩	٢٨٧
﴿فصيام شهرين متتابعين﴾	النساء/ ٩٢	٥٥٧
﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا﴾	النساء/ ٩٤	٤٠٦
﴿وكلأ وعد الله الحسنى﴾	النساء/ ٩٥	٥٨٨
﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله﴾	النساء/ ١٠٠	٦٣٣
﴿وأنزل الله عليك الكتاب . . .﴾	النساء/ ١١٣	٢٤٧
﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا . . .﴾	النساء/ ١٢٩	١٥٦
﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾	النساء/ ١٥٥	٢٩١
﴿وما أهل لغير الله به﴾	المائدة/ ٣	٢٨٧
﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا . . .﴾	المائدة/ ٥٩	١٥٥
﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك . . .﴾	المائدة/ ٦٧	٦٣٢ ، ٥٨٤
﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا . . .﴾	المائدة/ ٦٩	١٤٥
﴿واحفظوا أيمانكم﴾	المائدة/ ٨٩	٦٤٢
﴿إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابكم . . .﴾	المائدة/ ١٠٦	٥٤٨
﴿فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم﴾	المائدة/ ١١٧	١٩٧
﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك . . .﴾	المائدة/ ١١٨	٣٤١
﴿وهم ينهون عنه ويشنون عنه﴾	الأنعام/ ٢٦	٣٥٩
﴿فمستقر ومستودع﴾	الأنعام/ ٩٨	٢٥٥
﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق . . .﴾	الأنعام/ ١٥١	٢٨٧
﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾	الأنعام/ ١٦٤	٢٨٧
﴿خذوا زيتكم عند كل مسجد﴾	الأعراف/ ٣١	٦٤٤
﴿قل من حرم زينة الحياة الدنيا﴾	الأعراف/ ٣٢	٦٤٤
﴿فلما ألقوا سحروا أعين الناس . . .﴾	الأعراف/ ١١٦	٥٧٠

الآية	السورة/ رقم الآية	الصفحة
﴿قال عذابي أصيب به من أشاء﴾	الأعراف/ ١٥٦	٥٨١
﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾	الأنفال/ ٢٩	٦٤٢
﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ...﴾	الأنفال/ ٥٨	٦١٢
﴿إن الله بريء من المشركين...﴾	التوبة/ ٣	٤٤٧
﴿إلا الذين عاهدتم...﴾	التوبة/ ٤	١٥٦
﴿قل إن كان آباؤكم...﴾	التوبة/ ٢٤	٤٥١
﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله...﴾	التوبة/ ٣٠	١٩٣
﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾	التوبة/ ٣٨	٢٨٢
﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى...﴾	التوبة/ ٤٠	٢٨٥
﴿فلا تعجبك أموالهم ولا...﴾	التوبة/ ٥٥	٦٣٨ ، ٦٣٧
﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا...﴾	التوبة/ ٧٤	١٥٥
﴿فإن رجعت الله إلى طائفة منهم﴾	التوبة/ ٨٣	٦٥٨
﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾	التوبة/ ١٢٨	٢٤٧
﴿واتل عليهم نبأ نوح...﴾	يونس/ ٧١	٢٧٥
﴿أم يقولون افتراه...﴾	هود/ ١٣	٢٧٠
﴿بسم الله مجرئها ومرساها﴾	هود/ ٤١	٥٨٩
﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان﴾	هود/ ٨٤	١٥٦
﴿وإنما توفوهم نصيبهم غير منقوص﴾	هود/ ١٠٩	١٥٦
﴿فاعبدوه وتوكل عليه﴾	هود/ ١٢٣	٦٤٣
﴿جعل السقاية في رحل أخيه﴾	يوسف/ ٧٠	٥٠٥
﴿رأينه أكبرنه﴾	يوسف/ ٣١	١٩٤
﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾	يوسف/ ١٠٣	١٥٦
﴿يسقى بماء واحد ونفضل بعضها...﴾	الرعد/ ٤	٦٩٢
﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس...﴾	الرعد/ ٦	٢٨٢
﴿جنات عدن يدخلونها ومن صلح...﴾	الرعد/ ٢٣	١٥٦

الآية	السورة/ رقم الآية	الصفحة
﴿أولم يروا أنا تأتي الأرض نقصها...﴾	الرعد/ ٤١	١٥٦
﴿رب إنهن أضللن﴾	إبراهيم/ ٣٦	٢٤١
﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر...﴾	إبراهيم/ ٣٩	٢٧٥
﴿إننا نحن نزلنا الذكر...﴾	الحجر/ ٩	٢٣٦
﴿قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون﴾	الحجر/ ٣٦	٥٦٤
﴿قال فإنك من المنظرين﴾	الحجر/ ٣٧	٥٦٤
﴿إلى يوم الوقت المعلوم﴾	الحجر/ ٣٨	٥٦٤
﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم...﴾	النحل/ ٢٤	٤٤٨
﴿ليحملوا أوزارهم كاملة...﴾	النحل/ ٢٥	٢٨٧
﴿الذين تتوفاهم الملائكة﴾	النحل/ ٢٨	١٩٧
﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم...﴾	النحل/ ٣٠	٤٤٨
﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس...﴾	النحل/ ٤٤	٦٣٣
﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾	النحل/ ٦٨	٢٨٢
﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق...﴾	الإسراء/ ٣١	٢٨٧
﴿ولا تقربوا الزنا﴾	الإسراء/ ٣٢	٢٨٨
﴿قل كونوا حجارة أو حديدا﴾	الإسراء/ ٥٠	١٥٥
﴿أو خلقاً مما يكبر في صدوركم﴾	الإسراء/ ٥١	١٥٥
﴿ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً﴾	الإسراء/ ٦٠	١٤٥
﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾	الإسراء/ ٦٣	٢٨٢
﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس...﴾	الإسراء/ ٧٨	٦٤٤
﴿إن الباطل كان زهوقاً﴾	الإسراء/ ٨١	٦٣٨
﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن...﴾	الإسراء/ ٨٨	٢٧٠
﴿كلما خبت زدهم سعيراً﴾	الإسراء/ ٩٧	٤٦٠
﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه...﴾	الإسراء/ ١٠٦	٥٨٤ ، ٣٤٠
﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾	الكهف/ ٤٦	٦٤٤

الآية	السورة/ رقم الآية	الصفحة
﴿واتل ما أوحى إليك...﴾	الكهف/ ٢٧	٦٣٢ ، ٥٨٤
﴿ذكر رحمت ربك عبده زكريا﴾	مريم/ ٢	٢٧٤
﴿فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها...﴾	طه/ ٤٠	٦٥٨
﴿إن هذان لساحران﴾	طه/ ٦٣	١٤٥
﴿أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا﴾	طه/ ٨٩	٦٥٨
﴿وساء لهم يوم القيامة حملاً﴾	طه/ ١٠١	٢٤٣
﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى...﴾	طه/ ١١٤	٥٤٨
﴿ويشفعون إلا لمن ارتضى﴾	الأنبياء/ ٢٨	٢٤١
﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد...﴾	الأنبياء/ ٣٤	٥٦٣
﴿ومنكم من يتوفى﴾	الحج/ ٥	١٩٧
﴿ومن يُهن الله فما له من مكرم﴾	الحج/ ١٨	٢٧٩
﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها﴾	الحج/ ٣٧	١٣٨
﴿ثم أرسلنا رسلنا تترأ﴾	المؤمنون/ ٤٤	٥٥٧ ، ٥٥٦
﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها...﴾	الفرقان/ ٥	٤٤٨
﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾	الشعراء/ ٨٤	٦١٨
﴿وتقلبك في الساجدين﴾	الشعراء/ ٢١٩	٢٥٦
﴿وجئتك من سبأ نبأ يقين﴾	النمل/ ٢٢	٣٥٩
﴿وأوتيت من كل شيء﴾	النمل/ ٢٣	١٩٧
﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه﴾	القصص/ ٧	٢٨٢
﴿فسقى لهما ثم تولى إلى الظل﴾	القصص/ ٢٤	٢٤٣
﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك...﴾	القصص/ ٨٥	٦٣٢
﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه...﴾	العنكبوت/ ١٤	٢٧٥
﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي...﴾	الأحزاب/ ٥٦	٤٥١
﴿فلما خر تبين الجن أن لو كانوا يعلمون...﴾	سبأ/ ١٤	٦٨١
﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾	فاطر/ ٢٨	٢٢٢ ، ٢٢١ ، ١٣٨

الآية	السورة/ رقم الآية	الصفحة
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ . . .﴾	فاطر/ ٢٩	٣٣٦
﴿لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ . . .﴾	فاطر/ ٣٠	٣٣٦
﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾	فاطر/ ٤٥	٢٥٤
﴿وَأَيَّةَ لَهْمٍ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾	يس/ ٤١	٢٥٥
﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾	الصافات/ ٧٧	٢٧٥
﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾	الصافات/ ١٠٢	٦٢
﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكَهْمَ لِيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ . . .﴾	الصافات/ ١٥١ ، ١٥٢	٢٤٤
﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾	ص/ ٣٢	١٤٥
﴿وَأَنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفِينَ الْآخِيَارِ﴾	ص/ ٤٧	٥١٠
﴿وَأَن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾	الزمر/ ٧	١٤٥
﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾	الزمر/ ٧١	١٩٣
﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾	الزمر/ ٧٣	١٩٣
﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ . . .﴾	غافر/ ١٨	٣٤٢
﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ . . .﴾	غافر/ ٢٠	٥٧٨
﴿ثُمَّ يَخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾	غافر/ ٦٧	٢٥٧
﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ . . .﴾	غافر/ ٨	١٥٦
﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . . .﴾	فصلت/ ٣٤	٥٧٢
﴿وَجَزَاءَ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾	الشورى/ ٤٠	٢٨٦
﴿وَلَمَنَ اتَّصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ . . .﴾	الشورى/ ٤١	٦٢٤
﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ . . .﴾	الجاثية/ ١٣	٥٨١
﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ . . .﴾	الجاثية/ ٢١	٣٤٢
﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسَحْنَاهُمُ . . .﴾	الأحقاف/ ١١	٤٤٣ ، ٣٦٠
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ . . .﴾	الحجرات/ ٦	٤٠٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٣
﴿وَمَا مَسْنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾	ق/ ٣٨	٢٨٣
﴿مَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا . . .﴾	الطور/ ٢٧	٣٤٢

الآية	السورة/ رقم الآية	الصفحة
﴿علمه شديد القوى * ذو مرة فاستوى﴾	النجم/ ٥، ٦	٢٧٥
﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾	القمر/ ١٦	٢٤٢
﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾	القمر/ ١٧	٢٣٦
﴿كذبت ثمود بالنذر﴾	القمر/ ٢٣	٢٤٢
﴿الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه		
البيان﴾	الرحمن/ ١ - ٤	٣٤٦
﴿كل من عليها فان﴾	الرحمن/ ٢٦	٢٥٤
﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم﴾	الواقعة/ ٨٣	٢٥٤
﴿ترجعونها إن كنتم صادقين﴾	الواقعة/ ٨٧	٦٥٨
﴿وكلاً وعد الله الحسنى﴾	الحديد/ ١٠	٥٨٨
﴿فقس قلوبهم﴾	الحديد/ ١٦	٢٤٣
﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾	الحديد/ ٢٤	٣٦٠
﴿فصيام شهرين متتابعين﴾	المجادلة/ ٤	٥٥٧
﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى...﴾	الحشر/ ١٤	٥٩٤
﴿فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن إلى		
الكفار﴾	الممتحنة/ ١٠	٦٥٨
﴿كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾	الصف/ ٣	١٥٥
﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه...﴾	الطلاق/ ٢، ٣	٦٤٢
﴿والملائكة بعد ذلك ظهير﴾	التحریم/ ٤	٢٥٧
﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾	القلم/ ٤	٢٤٧
﴿إنهم يرونه بعيداً * ونراه قريباً﴾	المعارج/ ٦، ٧	٤٦٠
﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر...﴾	نوح/ ٤	٥٤٩
﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾	المزمل/ ٤	٣٣٩
﴿فاقرءوا ما تيسر من القرآن﴾	المزمل/ ٢٠	٦٣٢
﴿ولا تمنن تستكثر﴾	المدثر/ ٦	١٤٥

الآية	السورة/ رقم الآية	الصفحة
﴿وما يذكرون إلا أن يشاء الله...﴾	المدثر/ ٥٦	٦٣٩
﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به...﴾	القيامة/ ١٦ - ١٩	٥٨٤
﴿كلا إذا بلغت التراقي﴾	القيامة/ ٢٦	٢٥٤
﴿فأنت له تصدى﴾	عبس/ ٦	٣٦٩
﴿إنه لقول رسول كريم﴾	التكوير/ ١٩	٢٧٥
﴿عند ذي العرش مكين﴾	التكوير/ ٢٠	٢٧٥
﴿ولقد رءاه بالأفق المبين﴾	التكوير/ ٢٣	٢٥٧
﴿إذا السماء انفطرت﴾	الانفطار/ ١	٢٤٢
﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا...﴾	البروج/ ٨	١٥٥
﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾	الطارق/ ٧	٢٥٥
﴿إنه على رجعه لقادر﴾	الطارق/ ٨	٦٥٨
﴿سنقرئك فلا تنسى﴾	الأعلى/ ٦	٥٨٤
﴿كلا إذا دكت الأرض دكا﴾	الفجر/ ٢١	٣٦٣
﴿وجاء ربك والملك...﴾	الفجر/ ٢٢	٣٦٣
﴿وقد خاب من دساها﴾	الشمس/ ١٠	٣٦٩
﴿فلهم أجر غير ممنون﴾	التين/ ٦	٢٤٣
﴿بأن ربك أوحى لها﴾	الزلزلة/ ٥	٢٨٢
﴿ملك الناس﴾	الناس/ ٢	٥٨٨ ، ٥٠٤



[٢] فهرس الأحاديث النبوية

الصفحة	طرف الحديث
	(أ) الأقوال :
٦٤١	«إذا حلفت على يمين...»
٥٨٧	«أرسله . اقرأ يا هشام...»
١٩٨	«أرشدوا أخاكم»
٦٢	«اعملوا ما شئتم...»
٣٤٣	«أفضل الصيام صيام داود...»
٥٩	«اقتدوا باللذين من بعدي»
٣٣٧	«اقرأ علي» لابن مسعود
٥٥٨	«اللَّهُم سلمهم وغنهم»
٦٣٣	«اللَّهُم علمه التأويل...» لابن عباس
١٣٩ ، ١٣٧	«ألا لا يمنعن رجلاً هيبة الناس...»
١٥٦	«ألا وإن في الجسد مضغة...»
٣٣٩	«ألم أخبر أنك تصوم الدهر...» لعبد الله بن عمرو
٢١٦	«أما بعد، ما بال رجال يشترطون...»
٢٩٣	«أمرت بقرية تأكل القرى...»
١٩٨	«أنا من قريش...»
٥٧	«أنقاها الدباغ» للفراء

٣٥٦	«إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً...»
٥٧	«أن السيّد يلاعن أمته»
٣٣٦	«إن لربكم في أيام دهركم نفحات...»
٥٨٨ ، ١٩٤	«إن هذا القرآن أنزل على سبعة...»
٣٤٠	«إنك لا تدري، لعلك يطول بك عمر»
٥٨٥	«إنما بعثتك لأبتليك...» قدسي
٥٨٧	«جرّدوا القرآن ولا تخلطوه بشيء...»
٦٣	«جعلت لي الأرض مسجداً...»
٥٥٧	«صلاة رجلين يوم أحدهما صاحبه أذكى...»
٣٤٣	«صم يوماً وأفطر يوماً...»
٢٩٣	«رأيت في المنام أني أهاجر من مكة...»
٣٤١ ، ٣٤٠	«فاقرأه في كل سبع...»
٣٣٩	«فصم صوم داوود...»
٦٣٩	«قال الله عز وجل: أنا أهل أن أتقى...»
٢٥٠	«قل، لا يفضض الله فاك...» للعباس
٥٨٨	«كذلك أنزلت...»
٤١٠	«كل أمتي معافاة إلا المجاهرين...»
٧٠٢	«لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدّثون...»
٣٤٣	«لكنني أقوم وأنام...»
٦٩٥	«ما المسؤول عنها بأعلم من السائل...»
٤٢٢	«من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر...»
٦٣٤	«من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار»
١٥٤	«نعم، إنه لا ينبغي لي أن أقول إلا حقاً»
٦٩٠	«وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»
٢٧٤	«ولا يشيع منه العلماء...»

٦٢٤	«لا تبرّدوا عن الظالم»
٦٢٤	«لا تسبّخي عنه بدعائك عليه»
٤١١	«لا تؤذوا عباد الله ولا . . .»
٦٢	«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن . . .»
٦٣٣	«لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة»
٦٣٢	«يا أهل القرآن، لا تؤسّدوا القرآن . . .»
١٥٤	«يا رسول الله، أكتب ما أسمع منك؟» عمرو بن العاص
٢٥٠	«يا رسول الله إني أريد أن أمتدحك» العباس
٤١١	«يا معشر من آمن بلسانه ولم . . .»

(ب) الأفعال والأوامر والنواهي :

٣٤٣	«أمر عليه السلام بقسط من الليل»
٥٥٨	«أنشأ رسول الله ﷺ غزواً ثالثاً . . .»
٣٤١	«أن رسول الله ﷺ قام ليلة . . .» أبو ذر
٢١٦	«صلى رسول الله ﷺ قاعداً . . .»
٢٤٧	«كان خلقه القرآن»
٥٨٥	«كان الرجل إذا هاجر دفعه . . .» عبادة بن الصامت
٦٤١	«كان رسول الله ﷺ قد بعث عبد الله بن جحش . . .»
٤٩٠	«كان عمله ديمة» عائشة
٣٤٢	«نهى رسول الله ﷺ أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث»
٦١ ، ٦٠	«نهى ﷺ عن قتل الهدهد . . .»
٣٤٣	«نهى عليه السلام عن صيام الدهر»



[٣] فهرس الأعلام

- آدم (عليه السلام): ٢٢٩، ٢٥٥، ٢٧٦، ٢٧٧
 آرثر جفري: ٥٨٣، ٥٠٤
 آزر: ٢٧٧
 آل أبي طالب: ٤٢٦
 آل عثمان: ٣٢٤
 الآلوسي: ٢٢٢
 أي تكين أرسلان: ٣٣٣
 الأب الكرمللي: ٣٦٧
 إبراهيم (عليه السلام): ٢٧٥ - ٢٧٧، ٥٥٢، ٦١٨
 إبراهيم الإبياري: ٢٣٣، ٥١٦، ٥٩٦، ٥٩٧
 إبراهيم الأخضر: ١٨٨
 إبراهيم الإسرائيلي: ١٠٣
 إبراهيم اطفيش: ١٧٢، ٦٦٤
 إبراهيم أنيس: ٣٥٧، ٥٩٨
 إبراهيم باشا آغا: ١٩٠
 إبراهيم بدران: ٢٤٥
 إبراهيم الحجبي: ٥٩، ٦٠
 إبراهيم الحربي: ٦٠، ٦١
 إبراهيم حمروش: ٢٨٨
 إبراهيم سالم: ٢٤٥
 إبراهيم السامرائي: ٥٣٤، ٥٥٥
 إبراهيم بن سعد العوفي: ٤٢٢
 إبراهيم شيوخ: ٣٩٦، ٥٣٤
 إبراهيم الصائغ: ٢٥١
 إبراهيم الصابي: ٥٠٩
 إبراهيم علي شحاتة: ٢٣٦، ٢٤٠
 إبراهيم القران: ١٩١
 إبراهيم الفزاري: ١٠٨
 إبراهيم المازني: ٢٦٠، ٥٢٩
 إبراهيم مذكور: ٦٩٧
 إبراهيم مصطفى: ٦٤٨
 إبراهيم المعلم: ٦٢٢
 إبراهيم بن مهدي: ٦١٨
 إبراهيم النخعي: ١٩٣، ٤٢٧، ٦٤١
 إبراهيم بن هرمة: ٩٢، ٤٥٦
 إبراهيم اليازجي: ١٩٩، ٢٠١، ٦٢٧
 أبي بن كعب: ٣٤١

إحسان أوغلي: ٣٣٥، ٣٣٤
 إحسان عباس: ١٧٧، ٤١٩، ٤٣٩
 ٤٥٧، ٥٣٤، ٦١٧، ٦٦٩
 إحسان عبد القدوس: ٤١٠، ٥٧١
 إحسان النص: ٥٣٤
 أحمد آتش: ٣٢٦
 أحمد أحمد البدوي: ٣١٧، ٣١٨
 أحمد أحمد الحسيني: ٤٦٨
 أحمد الإسكندراني: ١٨٩، ٣٠٨، ٦٤٩
 أحمد أمين: ١١٩، ١٣١، ٣٥٥، ٣٥٧
 ٣٦٧، ٦٠٨، ٦٢٢، ٦٢٣، ٦٤٩
 ٦٦٩
 أحمد أمين الشنقيطي: ٧٨
 أحمد الباقوري: ٥٣٥
 أحمد بن أبي بكر الزهري: ١٠٩
 أحمد بهاء الدين: ٥٧١
 أحمد تيمور: ٧٢، ١٠١، ٣٧٨، ٣٩٤
 ٤٠٩
 أحمد الثالث (السلطان): ٣٢٤، ٣٢٩
 أحمد الحلواني: ٥١١
 أحمد بن حنبل: ٥٠، ٥٧، ٦٥، ٦٧
 ٢٩٩، ٣٠٥، ٣٠٦، ٤١١، ٥٢٤
 ٥٥٨، ٥٦٩، ٦٠٣، ٦١٢، ٦٣٠
 ٦٣٤
 أحمد بن أبي الحواري: ٣٣٧
 أحمد أبي الخضر منسي: ١٩٩
 أحمد بن خضرويه: ٤٢٠

أحمد الدري التهامي: ٢٣٨
 أحمد درويش: ٤٦٤، ٤٦٥
 أحمد راتب النفاخ: ١٠، ٥٣٤، ٦٦٨
 أحمد رامي: ٣٥٤، ٥٩٦
 أحمد زكي باشا: ١٢٧، ١٢٨، (١٧١) —
 (١٧٢)، ٣٩٤، ٤٧٩، ٦٦٤، ٦٧٢
 أحمد زكي العدوي: ١٧٢
 أحمد زكي اليماني: ٢٤، ٧٢، ٣٢١
 ٤٦٧، ٤٧٠
 أحمد الزين: ١١٩، ١٧٢، ٦٦٤
 أحمد سليمان السعدني: ١٩٠
 أحمد بن الشمس الشنقيطي: ٦٦
 أحمد شوقي: ١٧، ١٨٢، ٢٦٦، ٢٨٨
 ٣٩٩، ٤٠٣، ٥٥٣ — ٥٥٥، ٥٦١
 ٥٦٢، ٦٥٣، ٦٥٤
 أحمد بن صالح المصري: ٤٩
 أحمد صقر: ١٢٨، ٦٧٣
 أحمد عارف الخطاط: ٣٣٣
 أحمد بن عبد الله (المستظهر بالله): ٣٠٦
 أحمد عبد الستار الجواري: ٥٩٦
 أحمد عبد العزيز الزيات: ٢٣٦، ٢٤٠
 أحمد عبد العليم البردوني: ٦٦٤
 أحمد بن عبد القادر: ١٠٧
 أحمد عبد المعطي حجازي: ١٣، ٢٠٦ —
 ٢١٤، ٢٢٠، ٢٢٤، ٤٣٧
 ٤٣٨، ٤٤٦، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥٤
 ٤٥٦، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٤، ٤٦٦

- أحمد عبيد: ٣٩٥، ٤٧٢، ٥٩٦
أحمد العلاونة: ٥٩١، ٥٩٢
أحمد علم الدين الجندي: ٢٤٥
أحمد عمار (الطبيب): ٣٥١
أحمد بن عمر الخفاف: ٦٢
أحمد بن عمر ابن السرح: ٦٠
أحمد بن عمرو البزار: ٢٥١
أحمد العوامري بك: ١٤٦، ٦٤٩
أحمد فارس الشدياق: ١٥٩، ٣٦٦، ٣٦٧
أحمد فراج: ٢٨٠، ٥٧٣، ٥٧٩، ٧٠٤
أحمد كامل الخطاط: ٣٣١
أحمد أبو كف: ٥٦٩
أحمد كمال أبو المجد: ٥٧١
أحمد لطفي باشا: ٦٥٥
أحمد المانع: ٥٣٤
أحمد ماهر: ٢٤٤
أحمد المجاطي: ١١٤
أحمد بن محمد الخفاجي: ٥٤٦
أحمد محمد شاكر: ٢٤، ٢٧، (٦٥) —
(٦٩)، ٨٤، ١٢٨، ٣٠٤، ٣٣٠،
٤٠٢، ٤٧٩، ٥٨٠، ٦٠٣، ٦١١،
٦٤٧، ٦٤٨، ٦٦٥، ٦٦٦، ٦٦٨،
٦٧٢، ٦٧٣
أحمد المشاط: ٤٦٩
أحمد ندا: ٨٤
أحمد نسيم: ١٧٢، ٦٦٤
أحمد بن هبة الله: ٥٠٠، ٥٠١
أحمد بن يحيى ابن المرتضى: ٦٧٠
أحمد بن يوسف الكاتب: ٦٤٩
الأحف بن قيس: ٤٢١
الأحوزي: ٢٥٢
الأحوص: ٦٩٩
الأخطل: ٦٥٥
الأخفش: ٢١٣، ٢٦٥، ٤٥١، ٥٩٦،
٦٦٩
إدريس الخوري: ١١٤
الإدريسي: ٨٠، ٦٧٠
الأدفوي: ١٧٨
إدوارد فنديك: ٢٩٥
أرسطو: ١١١، ٣٢٩
أرسطوفانس: ٦٢٥
الأزرقى: ١٠٢
أزهر السمان: ٢٣١
الأزهري: ٥٣، ١٧٩، ١٨١، ٣٠١،
٣٧٠، ٣٧١، ٥٦٢
أسامة بن منقذ: ١٢٠، ١٢١، ٦٠٣
أسامة النقشبندي: ٣٩٦
إسحاق الموصلي: ٦١٨
أسعد أفندي: ٣٢٥
أسعد خليل داغر: ١٩٩
أسعد البساري الخطاط: ٣٣١
إسكندر آغا إيكاريوس: ٢٣٣
أسلم أبو عمران: ٦٤٠
إسماعيل (عليه السلام): ٢٧٥، ٥٥٢

- إسماعيل بن أحمد الضرير: ٦٧٠
إسماعيل الأكوخ اليميني: ٣٩٦، ٥٩٢
إسماعيل باشا البغدادي: ٢٩٥
إسماعيل الخطيب: ١١٤
إسماعيل بن خلف: ٩٤
إسماعيل صائب: ٣٢٥، ٣٢٩، ٥١٤
إسماعيل المنشد: ١٩١
الأسود: ٣٤١
الإشبيهي: ٣٠٠
أشجع الأسلمي: ٢٢٨
الأصمعي: ٦٨، ١٥٠، ١٦٩، ١٧٨،
١٩٨، ٢٠٥، ٢١٦، ٢٤٨، ٣٤٨،
٣٧٥، ٤٠٠، ٤٠٤، ٤٢٨، ٤٥٢،
٥٠٩، ٥١١، ٥٢٥، ٥٧٥
الأعمش: ١٩٧، ٢٢١، ٣٤١، ٤٠٤
أفضل الدين فيلج: ٣٣٣
الأفغاني: ٦٢٠
إقليدس: ١٠٢
إيليا أبي ماضي: ٢٢٠
إلياس فرحات: ٣٥٣
إلياس بن مضر: ٢٥٦
امرؤ القيس: ٢٦٦
الأمير الشهابي: ٣٦٧
الأمين ابن الرشيد: ٢٥٣
أمين باشا المعلوم: ٦٢٧
أمين الخولي: ٣٥٦، ٦١٨، ٦٧٥، ٦٧٦
أمين الريحاني: ٢٦٦
أمين مرسي قنديل: ١٧٤، ٦٠٩
أمين هندية: ٦٧٣
الأنباري: ٩٨، ٦٦٧
أنس بن أبي أنيس: ٥٦٥
أنس بن مالك: ٣٣٤، ٦٣٩
أنور (الأستاذ): ٦٢٨
أنور (الحلاق): ٥٣٥
أنور السادات: ٥٧٤، ٥٩٤
أهرن بن أعين: ٧٨
الأوزاعي: ٢٩٩
إياس بن معاوية: ٦٣٣
إيدين أوركون: ٣٣٣
أيوب بن المتوكل: ١٥٠
الباقلاني: ١٢٩، ٢٧٣، ٣٥٧
بايزيد (السلطان): ٣٢٤، ٣٢٩
البحثري: ٩٣، ١٦٤، ٣٨٠، ٤٥٤،
٤٥٥، ٥٩٦
بحر بن الأحنف بن قيس: ٤٢١
البخاري: ٦١، ٦٥، ١٤٨، ١٤٩،
١٦٣، ١٦٦، ٢٩٣، ٣٣٧، ٣٣٩،
٣٥٦، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٥، ٤٤٩،
٤٨٢، ٥٠١، ٥٠٦، ٥١٧، ٥٢٤،
٥٣٥، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٦٩، ٥٨٩،
٦٠٤، ٦٣٠، ٦٤٢، ٦٨٩، ٧٠٢
بختيشوع بن جبريل: ٣٤٧
بدر الديب: ٢٦٦
بدر الدين العلوي: ٦٦٨

بدر الدين الغزي : ٤٩٥

بدر نشأت : ٤٦٢ ، ٤٦٣

بدوي أحمد طبانة : ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٤٦٢

بدوي الجبل : ٦٠٠

البري : ٢٥٢

بشار بن برد : ٢٣٠ ، ٤٥٤

بشار عواد معروف : ١٦٨ ، ٥٣٤

بشر بن أبي خازم : ٣٣٠

بشر المريسي : ٢٢٩

بشير بن النعمان : ٦٤١

بعض العرويين : ١٠٧

البغدادي (عبد القادر) : ١٠٦ ، ١٤٣ ،

١٦٢ ، ٢١٩ ، ٣٠١ ، ٣٢٥ ، ٤١٤ ،

٤٢٧ ، ٤٦٨ ، ٥١٤ ، ٥٣٧

البقاعي : ١٦٠

البلاذري : ١٠٨

البلقيني : ٦٧٥

بندر عبد الحميد : ١١٥

بنو مروان : ٤٢٦

بهاء الدين السبكي : ١٦٠ ، ٢١١

بهاء الدين العاملي = العاملي

بهجة الأثري : ٦٧٣

بهجة عبد الغفور الحديثي : ٦٦٩

بوشتي حاضي : ١١٤

البوصيري : ٥٥٤

البويطي : ٥٦

بيرم التونسي : ٣٥٤

البيضاوي : ٥٤٦ ، ٥٦٩

بيغان الإنكليزي : ٦٦٧

البيهقي : ٥٣ ، ٢٩٩

اليومي : ٦٦

تاج الدين السبكي : ٢٥ ، (٤٧ - ٥٢) ،

٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ - ٦٣ ، ٩٨ ، ١٠٨ ،

١٢٠ ، ١٢١ ، ١٦٧ ، ٢٩٦ ، ٣٥٧ ،

٥٦٥ ، ٦٩٣

تارح : ٢٧٧

التبريزي : ٤٩ ، ٦٢٠

التبوكي : ٥٦

التجيسي : ٣٠٤

تحسين قورت : ٣٣٣

الترمذي : ٦٥ ، ٦٧ ، ١٥٠ ، ١٨٢ ، ٢٥٢ ،

٣١٥ ، ٦٠٣ ، ٦١٢ ، ٦٣٤ ، ٦٣٩

تشارلس لايل : ٦٦٧

تشومسكي : ٤٤٥

التفتازاني : ١٦٠ ، ٢١١

تقي الدين القاسي : ٢٥ ، ٧٩

تلميذ الجزولي : ٤٤٧

تميم بن أبي بن مقبل : ٣٣٠

تميم الداري : ٣٤١

تميم بن المعز لدين الله : ١٧٤

التنوكي : ٤٥٧

التهامي : ١٢٠

التهانوي : ٣٧٥

التوزي : ١١١

٦٩٣، ٦٩٢، ٦٧٦
 جاد الحق علي جاد الحق : ٥٩٦
 جاك رسلير : ٥٠٠
 جالينوس : ١٠٨
 جان جاك روسو : ٤١١، ٤٠٨
 الجبرتي : ٨٩
 جبريل (عليه السلام) : ٣٣٦، ٢٧٥
 ٥٩٥، ٥٨٤، ٥٠٤
 جبريل بن بختيشوع : ٥٢٥
 جديع بن سعد الأزدي : ٦٢٢
 جذيمة الأبرش : ٤٨٧
 جران العود : ١٧٤
 جرير : ١٠٣، ١٦٩، ٢١٥، ٥٧١،
 ٦٢٣، ٦٦٧
 الجزولي : ٤٤٧
 الجعدي : ٢١٦
 جعفر بن محمد الطيالسي : ٤٧٢
 جلال الدين الرومي : ٣٢٦
 الجلاوي : ١٠٥
 جمال الدين الإسني : ٤٣٩
 جمال الدين القاسمي : ٥٦٩
 جمال الدين القفطي : ٩٢، ٩٥، ٩٦،
 ١٧٤، ٢٩٥، ٤٥١
 جمال الدين يونس المليجي : ٦٣٨
 جمال عبد الناصر : ٥٧٤
 جمعة الياسين : ٥٣٤
 جميل صدقي الزهاوي : ٦٥٩

توفيق الحكيم : ٢٦٠، ٥٨٠
 توفيق دوس باشا : ٦٢٨
 توفيق عبد الفتاح : ٢٤٥
 التيجاني : ٣٦٠
 التيفاشي : ٤٥٧
 ثابت بن أبي ثابت : ٢٨، ١١٠
 ثابت بن قرة : ٣٢٨، ٥٢٥
 الثعالبي : ٦٣٦، ٧٠٣
 ثعلب : ٩١، ١٠٩، ١٧٩، ٢٠٩، ٢١٥،
 ٢١٦، ٢٨٥، ٣١١، ٣٤٩، ٣٧٥،
 ٣٧٦، ٤٣٨، ٤٤٢، ٤٥٢، ٤٥٤،
 ٥٧٦، ٥٧٥
 ثوبان (مولى رسول الله ﷺ) : ٤١١
 جابر بن عبد الله : ٦٣٢
 جابر عصفور : ٤٩٩، ٦٢٩، ٦٩٣
 الجاحظ : ١٠٥، ١٠٦، ١١٠، ١٢٥،
 ١٢٧، ١٢٩، ١٤٦، ١٥٨، ١٧٢،
 ١٨٢، ٢٠٣، ٢٢٨، ٢٣١، ٢٣٤،
 ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٧٢، ٢٧٣،
 ٣٠٤، ٣١٧، ٣٢٩، ٣٣١، ٣٤٧،
 ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٣، ٣٥٩، ٤٠٠،
 ٤١٤، ٤١٦، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢٧،
 ٤٢٨، ٤٤٠، ٤٥٤، ٤٥٧، ٤٧٤،
 ٤٨٢، ٤٨٩، ٤٩٤، ٥١٠، ٥١١،
 ٥١٢، ٥١٣، ٥٢٠، ٥٢٢ —
 (٥٣١)، ٥٣٣، ٥٧٥، ٦٢٠، ٦٣٦،
 ٦٣٧، ٦٤٩، ٦٦٦، ٦٧٣، ٦٧٥

حامد العويضي : ٣٣٥
 حبان بن العرة : ٢٩١
 حبيب الرحمن الأعظمي : ٦٦٨
 الحبيب اللمسي : ٥٩٧ ، ٥٣٤
 حجاج بن يوسف الثقفي : ٤٥١ ، ٤٥٠
 ٤٨٨ ، ٥٨٦ ، ٥٩٥
 حجاج (عن جريج) : ٥٥٨
 حجل بن نضلة : ٤٨٤
 الحجوي : ١٠٥
 حرب (الطائي) : ٤٢٣
 الحريري : ٩٦ ، ٩٧ ، ٥٤٦ ، ٥٥٦ ، ٦٥٩
 حسام الدين القدسي : ١٢٨ ، ٤٧٩
 ٥٥١ ، ٦٦٣ ، ٦٧٢
 حسان بن ثابت : ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣
 ٦٥٤ ، ٦٥٩
 حسان السعدي : ٤٨٨
 الحسن بن أحمد المقرئ : ١٢١
 الحسن البصري : ٢٢١ ، ٣٤٤ ، ٥٨٧
 ٦٣٣
 حسن البنا : ٦٢٦
 الحسن الثاني (ملك المغرب) : ١١٦
 حسن الجريسي : ٢٣٨
 حسن حبشي : ٣٥١
 حسن حسني عبد الوهاب : ٩٣ ، ٣٩٥ ، ٦٦٨
 حسن حسني القرين آبادي : ٣٣٣
 حسن حسين : ٧١
 حسن دوح : ٥٦٩

جميل بن عمر : ١٦٢
 جلال معوض : ٧٠٣ ، ٧٠٤
 جنكيز خان : ٢٩٦
 الجنيد بن عبد الرحمن : ٦٥٥
 الجواليقي ، أبو منصور : ٦٨ ، ١٧٤
 ٢٥٢ ، ٢٦٤ ، ٦٠٣
 جوتنبرج : ١٥٨ ، ٦٦١
 جوته : ٢٦٧
 جودي بن عثمان : ٩١
 جولدزهر : ٥٠٤ ، ٨٥٣
 الجوهري : ١٤٣ ، ١٤٩ ، ١٧٩ ، ١٨١
 ١٨٤ ، ٣٦٧ ، ٣٧٠ ، ٣٩١ ، ٤٢٤
 ٥٦٢ ، ٥٩٢
 الجويني (إمام الحرمين) : ٥٣ ، ٩٨
 ٣٥٧ ، ٦٦٩
 الحاج حسين : ٢٤٥
 حاجي خليفة : ٩٥ ، ٢٩٥ ، ٣٣٠ ، ٦٦١
 ٦٦٧
 الحارث بن حلزة : ٥٩٦
 الحارث بن وعله الذهلي : ٣٣٥ ، ٥٦٠
 حارثة بن بدر الغداني : ٤٢٦ ، ٤٢٧
 حافظ إبراهيم : ٧٠٥
 الحاكم بأمر الله الفاطمي : ٣٠٦
 الحاكم النيسابوري : ٤٩ ، ٧٩ ، ١٥٤
 ١٧٥ ، ٢٥١ ، ٣٠٠
 حامد الآمدي : ٣٣١
 حامد عمار : ٣٦١

حسين كامل : ٤٠٧
 حسين الميمني : ٤٤٩
 حسين نصار : ٣٦٧ ، ٤٥٥ ، ٦٧٦
 الحسيني : ٨٩
 حصن بن حذيفة : ٥٦٣
 الحصين بن الحر العنبري : ٦١٣
 حفص بن سليمان (أحد القراء) : ٢٤١ ،
 ٥٠٣ ، ٥٩٠ ، ٥٩١
 حفني بك ناصيف : ١٤٦ ، ١٨٩ ، ٣٠٨ ،
 ٦٤٩
 حقي (الخطاط) : ٣٣١
 حكيم بن محمد الذيموني : ٦٣
 حلمي موسى : ٣٦٩
 حماد الراوية : ٥٨٢
 حمد الله (ابن الشيخ) : ٣٣١
 حمد الجاسر : ١٣١ ، ٣٩٦ ، ٦٦٨
 حمد بن عبد الله الزائدي : ٥١٤
 حمد الكيسي : ٥٣٤
 حمد بن محمد الخطابي : ٢٧٣
 حمدون بن إسماعيل : ٩٥
 الحمزاوي : ٩٩ ، ١٠٥
 حمزة (أحد القراء) : ١٩٥ ، ٢١٦ ، ٢٤٣ ،
 ٤٠٥ ، ٥٥٦
 حمزة الأصفهاني : ٢٣١ ، ٤٠٠ ، ٤٨٨ ،
 ٤٨٩ ، ٥٠٣
 حمزة بن عبد المطلب : ٣٠٩

حسن الراهرمزي : ٥٠٩
 الحسن بن رجاء : ١٥
 حسن رضا (الخطاط) : ٣٣١
 حسن السندوبي : ٥١٠
 الحسن بن صافي البغدادي : ٦٥٨
 حسن الصيفي : ١٩٠
 حسن الطريق : ١١٤
 حسن عباس زكي : ١٢
 الحسن بن علي الرماني : ٢٧٣
 حسن كامل الصيرفي : ١٤ ، ٣٨٥ ، ٤٥٥ ،
 ٤٧٢ ، ٥٢٣ ، ٥٣٤ ، ٥٩٦
 حسن حلبسي (الخطاط) : ٣٣٣
 حسن محسن : ٥١٥
 حسن محمود الشافعي : ٣٧٥
 حسن الوراكلي : ١١٤
 حسني حجازي : ٢٤٠
 حسني الحديدي : ٧٠٤
 حسين أحمد أمين : ٦٠٨ - ٦٢٣ ، ٦٣٠
 حسين بن أحمد المرصفي : ٢٠٩ ، ٣٤٩ ،
 ٤٣١
 حسين أمين (الخطاط) : ٣٣٥
 حسين السيد : ٣٥٤
 حسين شفيق المصري : ٨١
 حسين صبري : ٥٣٤ ، ٦١٥
 الحسين بن علي (رضي الله عنه) : ٦٥ ،
 ١٩٠
 حسين علي محفوظ : ١٨٧

الخليل بن أحمد الفراهيدي : ١٣ ، ١٥٣ ،
١٥٨ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٠٣ ، ٢١٩ ،
٢٦٥ ، ٢٨٣ ، ٣٠٩ ، ٣٧٠ ، ٤٤٠ ،
٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٣ ، ٥٢٠ ، ٥٢٤ ،

٥٢٥

خليل صابات : ٥٤١
خليل عساكر : ١٣١ ، ١٣٢
خليل نامي : ٧٥
خليل هندائي : ٥٩٧
خميس الحوزي : ٣٠٠
الخوارزمي : ٣٧٤
خوفو : ٣٠٧

خير الدين الزركلي : ١٣١ ، ١٣٤ ، ٢٦٠ ،
٢٩٥ ، ٤١٩ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٤

الدارقطني : ٢٥١ ، ٣٠٠ ، ٥٩٣

الدامغاني : ٢٨٧

داود (عليه السلام) : ٣٣٩ ، ٣٤٣

داود بكتاش : ٣٣٣

الداوداري : ٣٠٧

الداودي : ٨٠

درويش الحريري : ١٩١

الدسوقي : ١٦٠ ، ٢١١

دعبل الخزاعي : ٤١٩ ، ٤٢٠

الدغولي : ٥٦

الدلجي : ٣٠٠

الدموجي : ٨٤

الديماطي : ٢٢١

حمزة بن فتح الله : ٢٠٩ ، ٣٤٩

حميد بن ثور : ١٧٤

حميد بن منهب : ٢٥٠

الحميدي : ١١٩

الحميري : ٢٩٨ ، ٣٠٢

حنا جميل حداد : ٥٠١

حنين بن إسحاق : ١٠٤ ، ١٠٨ ، ٥٢٥

خالد الأزهري : ١٤١

خالد بن زهير الهذلي : ٤٦١

خالد محمد خالد : ٥٩٧

خالد بن الوليد : ٥٥٩

الخشعمي : ٤٢٦

خريم بن أوس بن حارثة : ٢٥٠

الخريمي (الشاعر) : ٢٥٣

الخزاعي : ١٠٢

الخشاب : ٦٧٢

الخشني : ١٠٢

الخطابي : ٦٠ ، ٦١ ، ٦٧

الخطيب البغدادي : ٧٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ،

٢٥٢ ، ٣٠٢ ، ٣٩١ ، ٤١٦ ، ٤٢١ ،

٤٢٢ ، ٤٥٧ ، ٤٩٥ ، ٥٠٩ ، ٥٩٢ ،

٦٧٠

الخفاجي : ١٦٢

خلف بن أحمر : ٢٣١ ، ٢٤٣

خلوصي : ٣٣١

خليفة بن أبي المحاسن : ٣٨٢

خليل آغا : ٣٣٣

- دوزي الهولندي: ٤٩٨، ٦٦٧
دويد بن زيد: ٤٢٣، ٤٢٤
دي خويه: ٦٦٧
ديرنبورج: ٦٦٧
الذهبى: ٤٧، ٤٩، ٥٦، ٥٩، ٧٩، ٨٨، ١٠٨، ١٦٤، ١٦٧، ١٦٨، ٢٢٩، ٢٣٥، ٢٤٤، ٢٥١، ٢٩٦ — ٢٩٩، ٣٠٥، ٣٠٧، ٣٤٢، ٣٤٤، ٤٠٤، ٤١٢، ٤٢١ — ٤٢٣، ٤٦٠، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٤٨، ٥٥٩، ٥٦٦، ٥٦٨، ٥٧٥، ٥٧٦، ٦١٩، ٦٣٩، ٦٧٧
ذي الرمة: ٢١٥، ٢١٦، ٢٦٦، ٤٠٤، ٥٧٥
راشد الراجح: ١٤
راغب باشا: ٣٢٤
الربيع الجميزي: ٥٨
الربيع المرادي: ١٥، ٥٧، ٥٨، ٣١١، ٥٨٢، ٦٤٨، ٦٦٥
رجاء النقاش: ٦٢٨
الرحالي الفاروقي: ١١٣
رشاد عبد المطلب: (٨٣ — ٨٩)، ١٣١، ١٣٥
رشيد سليم الخوري: ٥٥٣
رشيد علي الكيلاني: ٦٠٢
رشيد كرامي: ٦٠٢
رشيد بن رميض العتزي: ٤٨٨
رضوان السيد: ٤٥٧
الرضي الأستراباذي: ١٥٩، ٥٥٦
رفاعة الطهطاوي: ٤٣١
رفعت فوزي: ٥٦٨
رمضان ششن: ٣٩٦
رمضان عبد التواب: ٩٧، ٥١٣
رؤية بن الحجاج: ٢١٥
رودلف جاير: ٥١٠
رودلف زلهاييم: ٩٧، ١٠٦
رويفع بن ثابت: ١٧٧، ٤٥٧
رياض دعبول: ٣٧٧
رياض زكي قاسم: ٣٦٧، ٣٧٢
رياض السبناطي: ٥٩٧، ٥٩٩، ٧٠٤
ريير الأسباني: ٦٦٧
الزير بن أحمد الزيري: ٦١
الزير بن بكار: ٤٨١، ٥١١، ٥٢٥، ٦١٧، ٦٢٠، ٦٧٠
الزير بن العوام: ٣١٦
الزجاج: ١٠٧، ٤٠٥، ٤٥١، ٤٥٤، ٦٣٩، ٦٦٩
الزجاجي، أبو القاسم: ١٠٣، ١٣٩، ٢٢٨، ٢٥١، ٤٣٩، ٤٥٢، ٥٠٩
زحر بن حصن: ٢٥٠
الزرقاني: ٥٨٥، ٥٨٧
الزركشي: ١٦٦، ٢٦٨، ٢٨٦، ٥٤٨، ٦٣٣، ٦٣٥، ٦٤٣
زرياب: ٥٤٥، ٥٤٧، ٥٨٩

- زفر بن الحارث : ٦١٩
 زكريا (عليه السلام) : ٢٧٤
 زكريا أحمد : ٧٠٤
 زكريا بن يحيى الكوفي : ٢٥٠ - ٢٥٢
 زكي العدوي : ٧١
 زكي مبارك : ٦٢٣
 زكي محمد شرف : ١٩٠
 زكي محمد مجاهد : ١٣ ، ٥٩٧
 زكي المهندس : ٥٩٨
 زكي نجيب محمود : ١٤١ - ١٤٦ ،
 ٦١٧ ، ٥٢٩
 زلهائم : ٢٩٥
 الزمخشري : ١٧٤ ، ١٨٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ،
 ٢٥٢ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٤١٥ ، ٤٣٧ ،
 ٤٤٨ ، ٥٦٩ ، ٥٨٢ ، ٦٣٦ ، ٦٩٧
 زهدي جار الله : ١٩٩
 الزهري : ٤٢٢
 زهير بن أبي سلمى : ١٧٤ ، ١٧٥ ،
 ٢١٥ ، ٣٧٦ ، ٤٩١
 زهير الشاويش : ٢٣٣
 زهير علي شاکر : ٦٢٨
 الزيادات : ٣٥١ ، ٣٥٤
 زيد بن ثابت : ٥٨٦
 الساسي : ٢٦٠
 ساعدة بن جؤبة الهذلي : ٣٢٨
 سامح كريم : ٤٠١ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩
 سامي (الخطاط) : ٣٣١
 سامي الدهان : ١٢٠ ، ٤٥٥
 سبط ابن التعاويذي : ١٠٣
 السجزي : ٥٦
 السجستاني : ٤٢٣
 سحيم الفقعي : ١٧٤ ، ٤٢٧
 السخاوي (شمس الدين) : ٨٦ ، ٢٩٧ ،
 ٤٢١ ، ٤٥٩ ، ٥٥٧
 السخاوي (علم الدين) : ٨٦ ، ٣٤١
 السرخسي : ٤٣٩
 السرقسطي : ٣٧٤
 سعد زغلول : ٦٥٤
 سعد بن أبي وقاص : ٦٢٢
 السعودي : ٢٣٧
 سعيد أعراب : ١١٣ ، ٥١٦
 سعيد بن جابر : ٣٤٢
 سفيان الثوري : ٤٢١
 سفيان بن عيينة : ٢٢٨ ، ٣٠٢ ، ٤١٦ ،
 ٤٢٣ ، ٤٢٧
 سفيح بن رباح : ١٠٣ ، ٣١٠
 السكاكي : ١٩٧
 السكندري : ٢٦٧
 سلامة بن جندل : ٣٣١
 سلامة الراضي : ٥٤٣
 سلامة موسى : ٦٢٠
 السلطان أبو العلا : ٥٤٣
 سلطان بن علي العويس : ٤٦٧
 سلم الخاسر : ٢٢٨
 سلمان الفارسي : ٦١٢

السلمي : ٣٣٧

سليم البشري : ٥٦١

سليم العثماني : ١٨٨ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٧

٣٢٧

سليمان بن إبراهيم : ١٣

سليمان الحلبي : ٥٤١

سليمان بن عبد الملك : ١٥ ، ٣٩٩

سليمان العسكري : ٥٣٩

سليمان القانوني : ٣٢٤ ، ٣٢٧

السمالوطي : ٨٤

السمح بن مالك الخولاني : ٤٩٨

السمعاني (أبو سعد) : ٧٩ ، ١٠٤ ، ١٢٠ ، ٤٢٣ ، ٣١٥ ، ٣٠٤ ، ٢٩٨ ، ١٢١

سمير غريب : ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦٢٦

السمين الحلبي : ٤٠٦ ، ٥٥٦ ، ٥٨٩

سويد بن جدعة : ٥٦٠

سويد بن كراع : ٢٦١

سيويه : ٩٥ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٠ ، ٢١٥

٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٣٦٣

٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٨ ، ٤٤٥

٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٤ ، ٤٥٩

٤٦٠ ، ٤٨٠ ، ٤٨٧ ، ٥٠١ ، ٥٠٦

٥٠٧ ، ٥١٧ ، ٥٢٤ ، ٥٥٦ ، ٦٠٤

٦١٨

سيد إبراهيم (الخطاط) : ٣٣٣ ، ٣٥١

٣٥٥

سيد أحمد صقر : ١٢ ، ١٤ ، ١٦ ، ٣٢٩

٤٧٢ ، ٤٧٩ ، ٥١٥ ، ٥٢٣ ، ٥٩٨

٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٢

سيد بدوي : ٦٢٨

سيد سابق : ١٤

سيد علي راتب : ١٧٣

سيد بن علي المرصفي : ١٢١ ، ٢١٠ ، ٣٤٩

سيد فرج : ٧٣

سيد قطب : ٦٢٦

سيد موسى : ١٩١

سيف الدولة الحمداني : ٤٥٥ ، ٦٥٥

سيف الدين الآمدي : ٣١٧ ، ٣٧٥

سيف بن عمر التميمي : ٢٨

السيوطي : ١٢ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٩٥ ، ١٦٢

١٦٦ ، ٢٢٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٦٨

٢٨٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣١٦ ، ٣٦٠

٤٢٦ ، ٥١٤ ، ٥٦٩ ، ٥٧٥ ، ٦٣٤

الشاطبي : ٩٥ ، ١٥٠ ، ١٦٥

الشافعي : ١٢ ، ١٥ ، ٢٧ ، ٥٠ ، ٥٣

٥٧ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٨ ، ٨٤ ، ١١٩

١٢٩ ، ١٦٧ ، ١٨٢ ، ١٩٠ ، ٢٠٢

٢١٠ ، ٢٢٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٥٩

٢٦٠ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٦ ، ٣١١

٣٦٨ ، ٤٦٨ ، ٤٨٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٤

٥٦٩ ، ٥٨٠ ، ٦٠٣ ، ٦٣٠ ، ٦٤٧

٦٤٨ ، ٦٦٥ ، ٦٧٣

شوقي ضيف: ٢٣٣، ٢٤٠، ٤٥٩،

٤٦٠، ٦٧٧

الشوكاني: ١٦٢، ٥٣٧

شيخ الأزهر: ٣٣٣

شيخ مراد أفندي: ٣٢٥

السيصري: ١٦٨

الصاحب بن عباد: ٣٠٦، ٥٠٠

صادق: ٤٤٤

الصاغانبي: ١٠٣، ١٠٤، ٣٧٢، ٤٢٤،

٥٦٢، ٥٩٤

صالح (عليه السلام): ١٤٣

صالح العثمان: ٥٣٤

الصالح الشامي: ٢٥٢، ٣٥٧

صبري السربوني: ٦٠١

صدر الدين البصري: ٥٥٩

صدر الدين القنوي: ٣٢٦

صديق القنوجي: ٣٧٥، ٤٦٨

الصقاعي: ٦٧٠

صلاح جاهين: ٢٦٦، ٥٧١

صلاح الدين السعدي: ١٩٩

صلاح الدين الصفدي: ٧٢، ١٠٨،

١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٥٠، ١٦٧،

١٧٢، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠١، ٣٠٥،

٣٦٧، ٤٠٠، ٤٦٠، ٤٨٩، ٦٠٠،

٦٦٩، ٦٧٠

صلاح الدين المنجد: ٨٦، ١٠٥، ١١٢،

١٣١، ١٣٤، ٣٩٥

شاكر العراقي: ٦٦

شاكر الفحام: ٥٣٤، ٦٧٧

شال كونس: ٧٢

الشاهد البوشيخي: ١١٤

شرف الدين الدمياطي: ٥٠١

الشريف الجرجاني: ٣٧٤

الشريف الرضي: ١٢٥، ١٧٠، ٣٥٩،

٤٥٤، ٦٣٠، ٦٣١، ٦٥٧

الشريف المرتضى: ٤٢٣، ٤٢٦، ٦٥٧

الشريف أبو يحيى: ٩٨

شعبان (السلطان): ١٩٠

شعبة (القارء): ٢٤٠

شعبة بن عياش: ٣٤٤

شعيب (عليه السلام): ١٤٣

شفيق جبري: ٥٢٩

شفيق ميري: ٦٢٧

شكري عياد: ٢٦٦، ٣٦٥

شكري فيصل: ٦٦٨، ٣٤٩

شكسبير: ١٤٣، ٢١٠، ٢٦٧

شكيب أرسلان: ٢٩٩، ٦٦٤

الشلوبين: ٤٤٧

الشمخ: ٦١٦، ٦٥٦

الشنفري: ٢١٦

شهاب الدين القسطلاني: ٢٣٧

الشهرستاني: ٥٠٠

شهل بن شيبان: ٦٥٤

شهيد باشا العثماني: ٣٢٤

صلاح الدين الهادي : ٥١٣

صلاح زكي : ٧٠٤

صلاح عبد الصبور : ٦٢٨

صلاح عيسى : ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١١ ،

٤٢٨ ، ٤١٨

صلاح منتصر : ٥٧٦

صلاح لبكي : ٢٢٠

صلاح المصري : ٦٩٢

الصمة القشيري : ٦٥٦

الصنهاجي = ابن آجروم

الصولي : ١٠٣

الصيمري : ٩٥

ضمرة بن حبيب : ٦٣٣

ضياء الدين الرئيس : ٦٢٣

طارق البشري : ٦٢١

طارق البوهي : ١٣٧

طارق بن زياد : ٣٢٣

طاش كبري زاده : ٢٩٥

طه أفندي أبو بكر : ١٢١

طه الحاجري : ٥٢٦ ، ٥٣٠

طه حسين : ٩٣ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ٢٠٦ ،

٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ،

٢٢٠ ، ٢٦٠ ، ٢٦٧ ، ٢٨٨ ، ٣٥٣ ،

٣٥٦ ، ٤٣٤ ، ٤٨٢ ، ٥١٧ ، ٥٥٥ ،

٥٩٣ ، ٦٠٤ ، ٦١٠ ، ٦١٦ ، ٦٢٠ ،

٦٢٦ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣

طه الفسني : ١٩٠ ، ١٩١

طه محمود : ٦٦٣

طاهر أحمد مكّي : (٤٩٣ - ٥١٦)

طاهر الجزائري : ٦٦

طاهر الزاوي : ١٢١

طاهر أبو زيد : ٦٩١

طاهر أبو فاشا : ٥٩٨ ، ٦٠١

الطبراني : ٥٥٨

الطبري : ٦٨ ، ١٠٩ ، ١٥٨ ، ١٦٧ ،

٢١٠ ، ٢٢٢ ، ٢٧٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ ،

٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٩ ، ٣٣٨ ، ٤٠٥ ،

٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٨١ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ،

٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٥١٧ ، ٥٥٨ ، ٥٨٨ ،

٦٠٦ ، ٦١٢ ، ٦١٧ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ،

٦٣٦ ، ٦٣٨ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ،

٦٤٤ ، ٦٦٦ ، ٧٠٢

طرفة بن العبد : ٦١٢

الطرمّاح : ٢١٦ ، ٣٣٠

طغرلبك : ١١٩

طفيل الغنوي : ٢١٦

طلائع بن يزيك : ١٩٠

طلعت حرب : ٣١٧

الطوفي : ٦٣٥

ظهور أحمد أظهر : ٥١٤

عادل غضبان : ٦٢٧

عاشر أفندي : ٣٢٥

عاطف أفندي : ٣٢٥

عاطف العراقي : ٢٠٨

- عاصم (القاريء): ١٩٥، ٢٤١، ٤٠٥،
٥٠٥، ٥٥٦، ٥٨٨، ٥٨٩
- عامر السيد عثمان: ١٩٢، ٢٣٥، ٢٣٧ —
٢٤٦، ٥٩٨
- عامر بن الطفيل: ٦٧٠
- عامر بن عبد قيس: ٣٤٢، ٥٨٦
- العامللي: ١٢٠، ١٢١، ٢٦٢، ٣٠٠،
٤٠٩
- عبادة بن سليمان: ٢٧٢
- عبادة بن الصامت: ٢٨٥
- العباس رضي الله عنه: ٢٥٠، ٢٥١،
٢٥٦، ٢٥٨، ٥٥٣
- عباس البليدي: ٥٤٥
- عباس الجراري: ١١٤
- عباس حسن: ٣١١، ٤٤٥، ٦٧٧
- عباس خضر: ٦٠٠
- عبدان بن أحمد: ٢٥١
- عبد خير: ٥٥٧
- عبد بن حميد الكشي: ١٠٤
- عبد بدوي: ٥٣٤
- عبد السروجي: ٥٤٥
- عبيد بن شريه: ٢٩٤، ٢٩٥، ٥٢٥
- عبد الله بن أحمد بن حنبل: ٥٩٣
- عبد الله بن إدريس السنوسي: ٦٦
- عبد الله باشا فكري: ١٤٦، ٢٦٧
- عبد الله الجبوري: ٥٣٤، ٥٩٦
- عبد الله بن جحش: ٦٤١
- عبد الله الجراري: ١١٣
- عبد الله بن جعفر: ٥٧٥
- عبد الله الحبشي: ٣٩٦
- عبد الله الحضرمي: ٢١٩، ٤٤٣
- عبد الله حمد المحارب: ٩
- عبد الله بن رواحة: ٢٤٩، ٢٥٠، ٦٤١
- عبد الله بن الزبيري: ٤٨٦، ٤٨٧
- عبد الله بن الزبير: ٤١٨، ٤٩٩
- عبد الله بن السائب: ٥٨٦
- عبد الله الطيب: ١٤٣، ٢١٠، ٢٥٣،
٥٣٤
- عبد الله بن عباس: ١٩٢، ٢٥٥، ٢٥٦،
٢٨٩، ٣٠١، ٣٤٠، ٥٧٥، ٦٣٣،
٦٣٤، ٦٤٤، ٦٥٣
- عبد الله بن عبد المحسن التركي: ٣٢٩
- عبد الله عسيان: ٥٣٤
- عبد الله بن عمر: ٣٤٤، ٧٠٢
- عبد الله بن عمرو: ١٥٤، ٣٣٨ — ٣٤٤
- عبد الله العيسى: ٥٣٤
- عبد الله كنون: ١١٢، ١١٣
- عبد الله بن المبارك: ٥٧٧
- عبد الله مبارك الصباح: ٤٦٧
- عبد الله بن محمد الباز الكتبي: ٤٦٩
- عبد الله بن مسعود: ٣١٥، ٣٣٧، ٣٣٩ —
٣٤٢، ٥٠٣
- عبد الله النجار: ٥٧٠
- عبد الله بن يوسف الجرجاني: ٥٣

عبد الله يوسف الغنيم : ٣٩٦ ، ٥٣٤

عبد الباسط عبد الصمد : ١٨٧ ، ٢٣٩ ، ٥٩٨ ، ٥٤٣

عبد الباقي الشوربجي : ٧٠

عبد الجبار (القاضي) : ٧٦ ، ٨٠ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣

عبد الجبار العلمي : ١١٥

عبد الحفيظ شلبي : ٥١٦

عبد الحكيم بليغ : ٦٨٢

عبد الحلیم حافظ : ٥٩٩

عبد الحلیم (السلطان) : ٣٢٦

عبد الحلیم كشك : ٥٧١

عبد الحلیم محمود : ٥٩٩

عبد الحلیم النجار : ١٣١ ، ١٣٢ ، ٥٨٣

عبد الحلیم نورية : ٥٤٥

عبد الحميد الصمداني : ٢١١

عبد الحميد العبادي : ١٤٦ ، ٦٠٩

عبد الحميد يونس : ١٩١ ، ٢٣٣

عبد الحي الكتاني : ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ٦٦٨ ، ٣٩٤

عبد الخالق ثروت : ١٧٣

عبد الرحمن بن أحمد : ٤٩

عبد الرحمن بدوي : ٥٣٤ ، ٦٠٠ ، ٦١٥

عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي : ١٣ ، ٤٧

عبد الرحمن (الداخل) : ٩١ ، ٩٢

عبد الرحمن الدوري : ١٩٠ ، ١٩١

عبد الرحمن السديس : ١٨٨

عبد الرحمن سراج : ٤٦٩

عبد الرحمن بن سليمان العثيمين : ١٥ ، ٣٩٦

عبد الرحمن بن سمرة : ٦٤١

عبد الرحمن الشاذلي : ٢٤٥

عبد الرحمن شاکر : ٥٥٥ ، ٥٦٥

عبد الرحمن الشرقاوي : ٥٩٥

عبد الرحمن الشيبني : ٤٦٩

عبد الرحمن صدقي : ٥٣٤ ، ٦٢٨

عبد الرحمن عبده : ١٩٠

عبد الرحمن فهمي : ٥٧٠

عبد الرحمن محمد : ٢٤٥

عبد الرحمن مهدي : ١٥٠

عبد الرحيم بن علي الإسائي : ١٥٢

عبد الرحيم محمود : ٧١ ، ٧٢ ، ١٧٢ ، ٦٦٤

عبد الرزاق الصنعاني : ٤١٥

عبد الستار الحلوجي : ٣٢١

عبد الستار فراج : ١١٠ ، ٥١١

عبد السلام بن سودة : ١١٣ ، ٣٩٦

عبد السلام مشيش : ٥٩٩

عبد السلام هارون : ١٠ ، ١١ ، ١٥ ، ٦٨

١٠٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٧١ ، ١٧٤

١٨٣ ، ١٨٦ ، ٢٠١ ، ٣٠٤ ، ٣٧٥

٣٧٨ ، ٤٥٢ ، ٤٧٩ ، ٤٨١ ، ٤٩٥

٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥٢٣ ، ٥٣٠ ، ٦٠٣

عبد الفتاح الحلو: ٩٨، ١٢١، ١٣١،

١٣٣، ١٣٥، ٦٨٢، ٦٩٣

عبد الفتاح الشعشاعي: ١٨٨، ١٩٠

عبد الفتاح شلبي: ٢٤٥، ٥٠٤، ٥٠٥،

٥٨٣، ٥٨٤، ٥٨٩

عبد الفتاح القاضي: ١٩٢، ٢٢١، ٢٣٦،

٥٠٤، ٥٩٨، ٥٩٩

عبد الفتاح المرصفي: ٥٩٨

عبد الفتاح مصطفى: ٣٥٤

عبد القادر القط: ٦٨٢

عبد القادر البغدادي: ٤٦٩

عبد القاهر الجرجاني: ١٠٣، ١٦٣،

١٦٤، ٢٧٣، ٣١٧، ٣٤٧، ٣٥٣،

٣٧٩، ٤٢٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٥،

٤٧٤، ٤٨١، ٤٨٢، ٥١٧، ٥٢٣،

٦٠٦، ٦١٧، ٦٣٦

عبد القدوس أبو صالح: ٢١٦، ٥٣٤

عبد الكريم برشيد: ١١٤

عبد الكريم السمعاني: ٣١٥، ٥٠٩

عبد الكريم الطبال: ١٠٦

عبد الكريم غلاب: ١١٤

عبد الكريم القيسي: ١٠٦

عبد اللطيف البغدادي: ٢٧٨

عبد اللطيف عبد الحليم: ٢٥٣، ٦٢٥، ٦٩٢

عبد المجيد الأقدمي: ٧١

عبد المجيد هاشم الحسني: ٦٧

عبد المحسن أبو النور: ٢٤٥

٦٠٦، ٦٦٥، ٦٦٦، ٦٦٨، ٦٧٢،

٦٧٣

عبد السلام هراس: ١١٤، ٥١٦، ٥٣٤

عبد السميع البيومي: ١٩٠

عبد الصبور شاهين: ٢٣٧، ٢٤٥، ٢٦٩

عبد الصمد شرف الدين: ٦٦٨

عبد الصمد بن علي العباسي: ٤٢٥

عبد العزيز آل سعود: ٦٠٤

عبد العزيز الأهواني: ٩٤، ١٣١، ١٣٢،

٢٩٩

عبد العزيز البابطين: ٤٦٧

عبد العزيز البسيوني: ١٨

عبد العزيز التويجري: ٣٧٩، ٣٨٦

عبد العزيز الرفاعي: ٣٣٣، ٣٣٤

عبد العزيز الشناوي: ٣٢٣

عبد العزيز بن عبد الله: ١١٣

عبد العزيز العناني: ٢٤٥

عبد العزيز فهمي: ٦٢٦

عبد العزيز المانع: ٥١٢

عبد العزيز الميمني: ٩٧، ٥١٣، ٥١٥،

٦٦٨، ٦٧٣

عبد العظيم أنيس: ٢٢٥، ٢٣٤

عبد العظيم الديب: ٢٢٨

عبد العظيم زاهر: ١٩٠، ١٩١

عبد العليم الطحاوي: ٥١١

عبد الغني عبد الخالق: ١٣

عبد الغني محمود: ٢١٢

- عبد المعين الملوحي : ٤١٤ ، ٥٠٨
عبد الملك الجمحي : ٥١١
عبد الملك بن مروان : ١٩٩ ، ٦٥٥
عبد المنعم تليمة : ٦٢٩
عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي : ٢٣٣
عبد الهادي التازي : ١١٤
عبد الواحد بن زياد : ٢٣١
عبد الواحد الميمني : ٤٦٩
عبد الواحد وافي : ٥٠٤
عبد الوهاب البياتي : ٦٢٨
عبد الوهاب التازي : ١١٤
عبد الوهاب بن عباس بن ناصح : ٩٢
عبد الوهاب بن منصور : ٣١٣
العجلوني أبو الفدا : ٤٧٧
عثمان أوزجاي : ٣٣١
عثمان أونال : ٣٣٣
عثمان (الحافظ) : ٣٣١
عثمان بن حسين الصيني : ١٥
عثمان بن سعيد الدامي : ٣٠٠ ، ٥٨٠
عثمان بن أبي شيبة : ٥٠٥ ، ٥٠٦
عثمان بن عفان : ٢٤١ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦
٦٥٤
عدنان الخطيب : ٣٦٦
عدي بن زيد العبادي : ٢٥٦
عرابة الأوسي : ٦٥٦
عروة بن أذينة : ٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٣٦٣
عروة بن الزبير : ٣١٦
عروة بن حزام : ٢١٦
عزت أبو نقاية : ٦٩١
عز الدين التنوخي : ٦٦٨
العز بن عبد السلام : ٥٤١ ، ٦٧٧
العزير بالله : ١٥٨
عزيز باشا أباطة : ٤٢٨
عساف ياجوري : ٥٩٤
عضد الدولة البويهبي : ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٤٥٥
عضد الدين الإيجي : ٤٣٥ ، ٤٨٠ ، ٦٠٤
٥١٧
الشيخ عزيمة : ٥٠٧
عطاء : ٥٥٨
عطاء بن الباذش : ١١٠ ، ٥١٢
عطية سلامة : ٢٣٧
العقاد : ١٣ ، ٢٢٤ ، ٢٦٠ ، ٣٥١ ، ٦١٤
٦٩٨ ، ٦٢٣
عقبة بن أبي سفيان : ٥٧٥
عقبة بن عامر الجهني : ٦٤٠
العكبري : ٥٥٦
عكرمة : ٢٨٩ ، ٣٠١ ، ٦٣٣
علال الفاسي : ٩٣
علقمة بن قيس : ٣٣٩ ، ٣٤١
علم الدين اللورقي : ٣٦٣
العلموي : ٤٩٥
علي أحمد باكثير : ٥٣٤
علي أدهم : ٥٣٤ ، ٦٢٨
علي أميري أفندي : ٣٢٥

- علي با جابر : ١٨٨
علي باشا مبارك : ١٧٠
علي بن بالي القسطنطيني : ١٩٨
علي بدوي : ٣٣٣
علي ابن البواب : ٣٢٩
علي الجارم : ١٤٦ ، (٦٤٦ - ٦٥٩)
علي الحذيفي : ١٨٨
علي بن حرب الطائي : ٤٢٣
علي حزين : ١٩٠
علي حسن عبد القادر : ٥٨٣
علي بن الحسن الهنائي : ٥٠٧
علي بن الحسين (زين العابدين) : ٦٥٤
علي بن حمزة البصري : ٤٨٨
علي خربوش : ١٣
علي الراعي : ١٩١
علي بن ربن : ٢٧٢
علي بن زريق : ١١٨ - ١٢١ ، ٣٢٠
علي سامي النشار : ٦٢١
علي شلش : ٦٢٠
علي بن أبي طالب : ٥٩ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ،
٢٩٥ ، ٤١٩ ، ٤٩١ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ،
٥٦٤ ، ٦١١ ، ٦٣٢
علي طوى : ٣٣٣
علي عبد الرحمن سبيع : ٢٣٨
علي بن عبد العزيز الجرجاني : ٣١٧ ،
٣٢٠ ، ٥٢٣
علي عبد العظيم : ٩٣
- علي بن عبد الكافي السبكي : ٤٧
علي بن عيسى الرمانى : ٥١١
علي الليثي : ٣٩٢
علي محمد البجاوي : ١٨٥ ، ٣٨٢
علي محمد شاکر : ٦٢٨
علي محمد الضباع : ٢٣٦ ، ٢٣٩
علي محمود : ٨٤ ، ١٩١
علي النجدي : ٥٩٩
عمار الطالبى : ٥١٣
العماني الراجز : ٢٢٨
عمر بن إبراهيم الخيامي : ٢٢٥
عمر أبو ريشة : ١٣٣
عمر بن أبي ربيعة : ٤٢٢
عمر بن الحسن الكلبي : ٢٨
عمر حسين خشاب : ٥٣٨
عمر بن الحسين الرازي : ٤٧ ، ٥٣
عمر بن الخطاب : ٥٩ ، ١٩٨ ، ٢٨٣ ،
٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٣٨ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ،
٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٩ ، ٤٢١ ، ٥١١ ،
٥٨٧ ، ٥٨٨
عمر الدسوقي : ١٥ ، ٦٨٢
عمر بن عبد العزيز : ٧٨ ، ١٩٨ ، ٢٢١ ،
٢٢٢ ، ٣٠٦ ، ٦٢٣
عمر بن علي المطوعي : ٥٤
عمر كحالة : ١١٩
عمر مكرم : ٦٢١
عمرو بن الحضرمي : ٦٤١

عمرو بن سواد المسرحي : ٥٩

عمرو بن العاص : ١٣٨ ، ٣٣٨ ، ٣٥٦ ، ٥١١

عمرو بن الوليد : ٦٥٩

عترة بن شداد : ٢٣٢ ، ٢٣٣

عياد بن عيد الثبتي : ١٥

عياض بن موسى اليحصبي : ٩٤ ، ٢٥٢ ، ٥٠٩

عوض (الدكتور) : ٢٤٥

عيسى (عليه السلام) : ٢٧٦

عيسى بن أوس : ٦٥٥

عيسى البابي الحلبي : ١٣٣ ، ٦٧٢

عيسى بن عمر : ٥٧٥

العيني : ١٦٧

الغازي بن قيس : ٩١

الغدة الأصبهاني : ١٠٧

غرسية بن غوث : ٥١٦

الغزالي : ٥٣ ، ٦٠١ ، ٦٠٣

فاتك بن عبد الله الرومي : ٣٠٦

الفارابي : ١٧٥ ، ٣٢٩ ، ٣٧٤

فاروق (الملك) : ٣٥٥ ، ٦٥٥

فازيليف : ٤٦٠

فتحى رضوان : ٣٥١ ، ٥٣٤ ، ٥٩٩ ، ٦١٥

الفخر الرازي : ٤٧ ، ٥٣ ، ٤٣١ ، ٦٣٦

فخري أبو السعود : ٥٩٨

الفرّاء : ١٢٢ ، ١٧٤ ، ١٩٨ ، ٢١٥

٤٥١ ، ٤٥٤ ، ٥١٣

فرج الله زكي الكردي : ٢١١

فردريك ديتريشي : ٣٨٨

الفرزدق : ٣١ ، ١٦٩ ، ٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٤٤٤ ، ٤٣٣ ، ٤١٦ ، ٤١٥ ، ٣١٠

٦٠٩ ، ٦٢٢ ، ٦٢٥ ، ٦٥٤ ، ٦٦٧

فرنسوا الأول : ٣٢٣

فرعون : ٥٧٠

فريد رفاعي : ٤١٩

فضالة بن عبيد : ٦٤٠

الفضل بن عياض : ٢٢٨

الفقيه التطواني : ٣٩٥ ، ٤٧٢

فلوجيل : ٦٦٧

فهد بن عبد العزيز : ٢٤١ ، ٢٤٦

فؤاد (الملك) : ٣٠٧ ، ٣٠٨

فؤاد حداد : ٢٦٦ ، ٤٦٣

فؤاد سزكين : ٢٩٥ ، ٣٩٢

فؤاد سيد عمارة : (٧٠ — ٨٢) ١٣١ ، ٣٩٥ ، ١٣٢

فؤاد صروف : ٦٢٧

فؤاد المهندس : ٥٩٨

الفيروزآبادي : ١٨١ ، ٢٠٥ ، ٢١٢

٣٤٠ ، ٣٦٧ ، ٣٧٧ ، ٥٨٢

فيصل (الملك) : ٤٦٧

فيض الله أفندي : ٣٢٥ ، ٥١٣

فيليب دي طرازي : ٦٦١

الفيومي : ٦٠ ، ١٠٤ ، ١٤٥ ، ١٨٣

٣٧٤ ، ٥٨٠

٥٨٩ ، ٥٥٦ ، ٤٥٤
 كعب بن زهير : ٢٧٣ ، ٢١٦ ، ١٧٤ ،
 ٦٥٥ ، ٥٠٧ ، ٤٨٦ ، ٤٨٤
 كعب بن مالك : ٢٥٠ ، ٢٤٩
 كعب (مولى الغداني) : ٤٢٦
 كلثوم بن عمرو العتابي : ٢٢٨
 كليب بن ربيعة : ٦١٢
 كليبر : ٥٤١
 كمال النجمي : ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ،
 ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٣٥ ، ٢٦٦ ،
 (٥٤٣ — ٥٤٩) ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٧٠٤
 كوبرلي باشا : ٣٢٤ ، ٣٢٩
 كوديرا : ٦٦٧
 لذريق : ٢٧٧
 لقيط بن يعمر : ٥٩٦
 لوط (عليه السلام) : ١٤٣
 لويس عوض : ٤٠٠ ، ٤٣٥ ، ٥١٧ ،
 ٦١٠ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٣ ، ٦٢٥ ،
 ٦٢٦ ، ٦٣٠
 الليث بن سعد : ٣١١
 الليث بن المظفر : ٤٥٣
 الليثي : ١٩٠
 ليون العاشر : ٣٢٣
 المأمون : ٢٥٣ ، ٣٤٧ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥
 المارداني : ١٩٠
 مارسدن جونز : ١٠٩
 المازري : ٩٨

قاسم بن أصبغ : ٩١ ، ٩٢ ، ١١٦
 قاسم السامرائي : ٣٩٦ ، ٥٤١
 القاسم بن سلام : ٢٧ ، ٩٧ ، ١٧٨
 قباث الليثي : ٥٥٧
 قتادة بن دعامة السدوسي : ٦١٩
 قدامة بن جعفر : ٦٧٠
 القرافي : ١٦٧
 القرشي : ٦١٨
 القرطبي : ٣٣٤ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٣٤ ،
 ٤٠٥ ، ٤١٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٨ ، ٦٤٣ ،
 ٦٤٤ ، ٦٤٥
 القزويني : ١٦٠ ، ٢١١ ، ٥٩٨
 القسطلاني : ١٦٦
 قطري بن الفجاءة : ٦٥٤
 القلقشندي : ١٧٣
 قنوي : ٣٣١
 قيصر : ٢٧٧
 كارل بروكلمان : ٩٦ ، ١١٩ ، ١٢٢ ،
 ١٣٢ ، ٢٩٥ ، ٣٢٩ ، ٣٩٤ ، ٦٦٨
 كارلوس الكبير : ٢٣٠
 الكاساني : ١٦٧
 كامل يوسف البهيمي : ١٩٠
 كراتشكوفسكي : ٣٢٣ ، ٦٦٨
 كرنكو : ٢٩٥ ، ٦٦٧
 كرومر : ٦٢١
 الكسائي : ٩١ ، ١٩٥ ، ١٩٨ ، ٢١٥ ،
 ٢١٦ ، ٢٢٨ ، ٤٠٥ ، ٤٣٩ ، ٤٥٢

١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ،
 ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ،
 ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢١٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ،
 ٢٤٧ — ٢٥٠ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٧٠ ،
 ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٨٥ ، ٢٩٣ ،
 ٢٩٤ — ٣٣٦ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٥٦ ،
 ٣٥٩ ، ٣٦٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤١٠ ،
 ٤١١ ، ٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ،
 ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٨٥ ، ٤٩٠ ، ٥٠٤ ،
 ٥٢٤ — ٥٥٢ ، ٥٥٤ ، ٥٥٧ — ٥٦٠ ،
 ٥٦٩ ، ٥٨٤ — ٥٩٠ ، ٦١٢ ، ٦٢٢ ،
 ٦٢٤ ، ٦٣٠ ، ٦٣٢ — ٦٤١ ، ٦٧٠ ،
 ٦٩٠ ، ٦٩٥ ، ٧٠٢

محمد بن أبان اللخمي : ١٠٩

محمد إبراهيم أبو سنة : ٤٦٥

محمد إبراهيم (الخطاط) : ٣٣٣ ، ٣٣٥

محمد إبراهيم الكتاني : ١٠٥ ، ١١٢ ،

١١٣ ، ٣٩٦

محمد إبراهيم المنذر : ٦٢

محمد أبو الإسعاد : ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥

محمد أبو دقة : ٦٥

محمد أبو زهرة : ٥٧١

محمد أبو الفضل إبراهيم : ٩١ ، ٩٢ ،

٩٥ ، ١٠٣ ، ١٢١ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ،

٥١٥ ، ٥٢٣

محمد أبو موسى : ١٦٧

محمد بن أحمد الخباز : ٥٧٢

مازن المبارك : ٦٠١

المازني : ٢٢٤

ماسرجويه : ٧٨

المالقي : ٢٠٤

مالك بن أنس : ٥١ ، ٩١ ، ٩٧ ، ٩٨ ،

٢٩٣ ، ٣١١ ، ٣٢٩ ، ٤٢٢ ، ٥٢٤ ،

٥٦٩ ، ٦٣٠

مالك بن دينار : ١٩٢

ماهر شفيق فريد : ٦٢٤ ، ٦٢٥

المبارك بن المبارك : ٥٠٠

المبرد : ٩١ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ،

٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٣٤٩ ، ٣٦٥ ، ٤١٤ ،

٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٢٨ ، ٤٣٨ ،

٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٩٤ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ،

٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥٢٣ ، ٥٢٨ ،

٥٥٦ ، ٦٦٧

المتوكل على الله العباسي : ٢٧٢ ، ٤١٩

مجاهد : ٣٤٠ ، ٦٣٣ ، ٦٤١

مجد الدين الروذراوري : ٢٨٩

مجددي وهبة : ٦٢٧ ، ٦٢٨

مجنون بني عامر : ٧٠٤

محب الدين الخطيب : ١٢٨ ، ٣٩٥ ،

٤٧٩ ، ٤٨١ ، ٥٢٠ ، ٥١٣ ، ٦٠٦ ،

٦٦٣

محب الدين ابن النجار : ٥٠٠

المحبّي : ١٦٢ ، ٣٢٤

محمد ﷺ : ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ،

- محمد بن أحمد الدالي : ٥١٥
محمد أحمد دهمان : ٥٩٢
محمد بن أحمد الشاشي : ٤٢٧
محمد بن أحمد العبادي : ١٣ ، ٥٣ — ٦٤
محمد أحمد المتولي : ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠
محمد بن إسحاق : ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ٥٢٥
محمد أسعد طلس : ٥٠٨
محمد إسماعيل : ١٩٠
محمد الأكوع اليمني : ٣٩٦
محمد إقبال : ٢٨٨
محمد أمين الخانجي : ١٢٨ ، ٣٩٥
٤٨١ ، ٥٥١ ، ٦٦٣ ، ٦٧٢
محمد بن الأمين الشنقيطي : ٦٦
محمد أوزجاي : ٣٣١
محمد با حنين : ١١٣
محمد بدران : ٢٢٧ ، ٦٠٩
محمد بن تاويت : ٨٦ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٠٥
١١٣ ، ١٣١ ، ٥١٦
محمد بن جعفر الخزاعي : ١١٠
محمد البقلاوي : ٥٩٧
محمد بهجة الأثري : ٦٧٣
محمد الجوادي : ٥٦٩
محمد حامد الفقي : ٦٨ ، ٦٦٣
محمد بن حبيب : ٤١٥ ، ٥٢٥
محمد بن أبي بكر الرازي : ٢٨٧
محمد بخيت المطيعي : ٨٤
محمد حامد فقي : ٦٧
محمد حجي : ٩٩
محمد حسن جبل : ٣٦٩ ، ٣٧٦
محمد بن الحسن الشيباني : ١٥ ، ٢٢٨ ،
٢٩٩ ، ٣١١ ، ٤٣٩
محمد حسن فقي : ٤٦٧
محمد حسن عيد : ٤٣٢
محمد حسني : ٣٣٣ ، ٣٣٥
محمد حسين هيكمل : ٥٧٧
محمد الحسيني : ٢١٢ ، ٦٦٣
محمد حماسة عبد اللطيف : ٤٤٠ ، ٤٤٥ ،
٤٤٧
محمد الخامس (الملك) : ٦٠١
محمد الخضر حسين : ١٧٢ ، ٦٦٤
محمد الخضري : ٣٠٤
محمد بن خير الإشبيلي : ٨٨ ، ٩٣ ، ٢٩٩
محمد داود : ١١٣
محمد دياب أفندي : ١٤٦
محمد الديباجي : ٥١٣
محمد رشاد عبد المطلب : ١٢ ، ١٤ ،
١٩١ ، ٣٩٥ ، ٤٧٢
محمد رشاد مهنا : ٥٣٥
محمد رشيد رضا : ٦٦ ، ٤٨٢
محمد رفعت فتح الله : ١٨٩ ، ١٩٠ ،
١٩٢ ، ١٩٣ ، ٥٤٦ ، ٦٠١
محمد رمزي : ٥٩٦
محمد زاهد الكوثري : ٦٧ ، ٨١ ، ٨٤ ،
٣٣٠

- محمد بن زكريا: ٩١
محمد الزهري الغمراوي: ٢١٢
محمد الساسي: ٥٥١، ٥١٥
محمد بن سعد: ٥٢٥
محمد بن سعد الرشيد: ١٢
محمد السرخيني: ١١٤
محمد سلامة: ١٩٢، ١٩٠
محمد سليم العوا: ٦٢١
محمد بن سليمان الهاشمي: ٤٥١
محمد بن سعود: ٣٩٢، ٣٨٧
محمد السعودي: ١٩٠
محمد سعيد مولوي: ٢٣٣
محمد بن شاکر الكتبي: ٨٨
محمد شاکر (والد محمود شاکر): ٦٥،
٦٠٣، ٦٦
محمد بن شريفة: ٩٤، ١١٤، ٣٩٦،
٥٣٤
محمد بن أبي شنب: ٦٦٨
محمد شوقي أمين: ٦٠١، ٦٠٠
محمد بن صادق التجيبي: ٣٠٤
محمد صادق عنبر: ٣٥١
محمد صالح أفندي: ١٤٦
محمد بن صباح: ٥٦
محمد الصباغ: ١١٤
محمد صبري: ٦٠٩
محمد صديق المنشاوي: ٢٣٩، ٢٤٢
محمد الصياد (الجغرافي): ٣٥١
محمد الصيفي: ١٩٠، ١٩٣
محمد الطنطاوي: ٢٨٨
محمد الطيب: ١٣
محمد العابد الفاسي: ١١١، ١١٢،
١١٣، ٣٩٦
محمد عارف باشا: ٤٦٨
محمد بن العباس القباج: ١١٣
محمد عبده (الشيخ): ٦٢٠، ٦٥٢
محمد عبده يماني (الوزير): ٥٧٣
محمد عبد الجواد الأصمعي: ٧١، ١٧٢،
٦٦٤
محمد عبد رب الرسول: ٧١، ١٧٢،
٢١٢
محمد عبد الرحمن: ١٢٨، ٢١٢
محمد عبد الخالق عزيمة: ١٢، ٥٠٦،
٥٠٧
محمد عبد العزيز الرفاعي: ٣٣٣، ٣٣٤
محمد عبد القادر: ٣٣٥
محمد عبد المطلب: ٤٤٢
محمد عبد الملك: ٩١
محمد عبد الهادي أبو ريدة: ٦٠١
محمد بن عبد الوهاب (الإمام): ٥٧٣،
٥٧٦
محمد عبد الوهاب (الفنان): ١٩١،
٣٥٦، ٥٤٦، ٥٤٧، ٥٩٩
محمد العقلة: ١٩٠
محمد عكاشة: ١٩٠

محمد بن مبارك بن محمد: ١٦٩
 محمد متولي الشعراوي: ١٤، ١٦،
 (٢٨٠ - ٢٩٢)، ٣٥٨، (٥٦٣ -
 ٥٩٢)
 محمد بن محمد الأزدي: ٥٤
 محمد محمود باشا: ٦٥٤
 محمد محمود التركي: ٣٩٤
 محمد بن محمود الشنقيطي: ٧٢
 محمد محمود الطناحي: ٩
 محمد محيي الدين عبد الحميد: ٩٣،
 ١١٩، ١٢٠
 محمد مرسي الخولي: ١٠٥، (١٣١ -
 ١٣٥)
 محمد بن مسلمة: ٣٣٦
 محمد مصطفى المراغي: ٦٦
 محمد مصطفى هدارة: ٦١٧
 محمد مكي نصر: ٢٣٦
 محمد بن منصور الكندري: ١١٩، ١٢٠
 محمد المنوني: ٩٥، ٩٩، ١١٢، ١١٣،
 ٣٩٦، ٦٦٨
 محمد بن منير الدمشقي: ١٢٨، ٤٧٩،
 ٥٥١، ٦٦٣، ٦٧٢
 محمد الموجي: ٦٠١
 محمد بن موسى بن حماد: ٢٥١
 محمد بن ميمون: ١١٤
 محمد الناصر قلاوون: ٣٠٧
 محمد بن نصر الله: ١٠٦

محمد علي باشا: ١٨٨، ٤٢٩، ٤٣٠،
 ٥٤٢
 محمد علي الحسيني: ١٨٨، ١٨٩، ٣٠٨
 محمد علي مكي: ٥٥٣
 محمد علي النجار: ١٣٢، ٢٠٠، ٢٨٨
 محمد عمارة: ٦٢١، ٦٢٢، ٦٢٩
 محمد عوض إبراهيم: ٦٤٩
 محمد عوض محمد: ٦٠٩
 محمد الغزالي: ١٤، ١٦، ٥٧١، ٥٩٥
 محمد غنيم: ٢٣٨
 محمد الفاتح (العثماني): ٣٢٢، ٣٢٣،
 ٣٢٤، ٣٢٩
 محمد الفاسي: ١١٣
 محمد فريد السديوني: ١٩٠
 محمد فؤاد جلال: ٥٣٥
 محمد فؤاد عبد الباقي: ٨٨، ١٧٤،
 ٤١١، ٦٦٧
 محمد الفيتوري: ٦٢٨
 محمد قاسم: ٢١٢، ٤٦٩
 محمد القصبجي: ٧٠٤
 محمد قطب: ١٤
 محمد قطة العدوي: ٤٧٨، ٥٤٢، ٦٦٢،
 ٦٦٣
 محمد قنديل: ١٩٠
 محمد كرد علي: ٦٦٨
 محمد المغربي: ٥١٥
 محمد المبارك: ٦٠١

محمد هلال الصابي: ٤١٥، ٤١٦

محمد هيثم الخياط: ٥٤١

محمد بن يسير: ١٥٠

محمد يوسف: ٦٦٨

محمد يوسف حسن: ٣٥١

محمد يوسف نجم: ٥٣٤

محمود (الإمام): ٧١

محمود أمين: ٦٠

محمود حسن إسماعيل: ٢٢٣، ٢٢٤

٢٣٩، ٢٦٦، ٥٣٤، ٦٠١، ٦٢٨

٦٢٩

محمود حسين منصور: ٢٤٢

محمود الخضير: ٧١

محمود خطاب السبكي: ٥٩٧

محمود خليل الحصري: ٢٣٩، ٢٤٢

٤٥٧، ٥٩٨

محمود الربيعي: ١٤٧، ١٤٩، ١٥١

محمود رضوان: ٣٣٣

محمود رؤوف أبو سعدة: ٢٧، ٢٧٣

٣٥٨، ٦٩٢

محمود سامي البارودي: ٣٤٩، ٤٣١، ٦٥٢

محمود السعدني: ١٨٩، ٥٤٤

محمود صبح: ١٩١

محمود عبد الحكم: ١٩٠

محمود علي البنا: ٢٣٩

محمود علي مكي: ١٠٤، ٢٤٩، ٢٥٠

٥٥٣

محمود فهمي النقراشي: ٦١١، ٦٥٦

محمود محمد شاكر: ٩، ١٠، ١١، ٢٦

٢٧، ٦٦، ٦٨، ١١٦، ١٢٨

١٤٨، ١٦٣، ١٦٤، ١٨٢، ١٨٦

٢٠١، ٢١٠، ٢١٩، ٢٦٠، ٢٦٧

٣٢٣، ٣٣٨، ٣٥٠، ٣٥٩، ٣٦٥

٣٧٥، ٤١٠، ٤١٧، ٤٣٤ — ٤٣٦

٤٧٢، (٤٧٨ — ٤٩٢)، (٥١٧ —

٥٢١)، ٥٢٣، ٥٢٩، (٥٣٢ —

٥٣٦)، ٥٤٩، ٥٦١، ٥٩٤، ٥٩٥

٥٩٧، (٦٠١ — ٦٣١)، ٦٦٥ —

٦٦٨، ٦٧٢ — ٦٧٥

محمود محمد الطناحي: (٧ — ٢٩)

٦٢١، ٦٤٦، ٦٦٧، ٦٧٧

المختار السوري: ١٠٥

مدين منصور: ١٩٠

المرادي: ١١١

المرتضى الزبيدي: ٢٥، ٧٩، ٢٦٥

٢٩٣، ٣٠١، ٣٦٨ — ٣٧٤، ٤١٠

٤١١، ٤٤٩، ٥٢٤، ٥٣٥، ٥٣٧

٥٦٩، ٦٣٠، ٦٥٩

مرجليث: ٤١٩، ٤٨٠

المرزباني: ٣٩١

مرزوق الغنيم: ٥٣٤

المرزوقي: ١٧٣، ٢٠٣، ٣٠٢، ٤٢٦

٥٢٣، ٦٢٠

المرقش الأصغر: ٢٠٤

- المرقشين : ٥٩٨
 مروان بن أبي حفصة : ٢٢٨
 مروان بن الحكم : ٧٨ ، ٢١٩ ، ٤٢٦
 المزني : ٥٦
 المزي : ٣٠٤
 المستضيء بالله : ٣٠٧ ، ٥٦٦
 مسطح بن أثانة : ٦٤١
 المسعودي : ٢٦٠ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٤٤٠ ،
 ٥٢٥ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨
 مسكويه : ٢٠٥ ، ٦٤٩
 مسلم بن الحجاج : ٦٥ ، ١٤٩ ، ٣٣٩ ،
 ٤٦٢ ، ٦٨٩
 مسلم بن الوليد : ٤٥٤
 مصطفى إسماعيل : (١٨٧ - ١٩٥) ،
 ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٣٥٦ ، ٥٤٣ -
 ٥٤٧ ، ٥٧٦ ، ٥٩٨ ، ٧٠٣
 مصطفى أفندي المكاوي : ٢١١ ، ٢١٢
 مصطفى جواد : ١٢٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١
 مصطفى حجازي : ١٢٠ ، ٥١١ ، ٥٦١
 مصطفى الزياخ : ١١٤
 مصطفى السقا : ٣٥٧ ، ٥١٦
 مصطفى صادق الرافعي : ٢٦٤ ، ٣٥٠ ،
 ٣٥٩ ، ٥٢٩ ، ٥٣٦ ، ٦٧٥
 مصطفى طموم : ١٤٦ ، ٦٤٩
 مصطفى عبد الواحد : ١٣٣
 مصطفى عزت : ٣٣١
 مصطفى عناني : ١٨٩ ، ٣٠٨
 مصطفى فاضل باشا : ١٠٨ ، ٥٤٦
 مصطفى لطفي المنفلوطي : ٣٥٠ ، ٣٥١ ،
 ٣٥٤
 مصطفى محمود : ١١٦
 مصطفى ناصف : ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٤ ، ٤٤٠
 مصطفى نبيل : ٦١٣
 مصعب بن عمير : ٥٨٤
 مطيع بن إلياس : ٥٣٢
 مظفر أوزاق : ٤٧٢
 معاذ بن جبل : ٥٨٥
 المعافى بن زكريا : ١٣٤ ، ١٦٨
 معاوية بن أبي سفيان : ٢٩٤ ، ٤١٥ ، ٤٨٤ ،
 ٥٥٩ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٦٥٣
 المعز لدين الله الفاطمي : ٥٧٤
 معمار سنان : ٣٢٧
 معمر بن راشد : ٣٢٩
 معمر بن المثنى : ١٧٨ ، ٢٣١ ، ٦٣٨
 المغيرة بن شهاب : ٥٨٦
 المفضل بن سلمة : ١٠٧ ، ٦٩٧
 المفضل الضبي : ٦٨ ، ١٩٦ ، ٢٢٨ ،
 ٥٠٨ ، ٥١٠
 مقاتل بن سليمان : ٢٨٧
 المقرئ : ١٥٨ ، ١٧٣ ، ٢٩٧ ، ٤١٧ ،
 ٤٨١ ، ٤٩٠
 المقرئ : ١٠٤ ، ٢١٠ ، ٢٩٦ ، ٤٣١ ،
 ٤٩٤ ، ٥٠١
 مكرم عبيد : ٣٥١

نافع (القارىء): ٩١، ١٩٥، ٢١٦،
 ٢٣٧، ٢٤٢، ٤٠٥، ٥٥٦، ٥٨٩
 نبطي: ٤١٥
 نجيب مري: ٦٢٧
 نجيب محفوظ: ٦٩٨
 نجيب محمد البهيتي: ٢١٠، ٦٠١
 نجيب هوايني: ٣٣٣
 نجم الدين الطوفي: ٦٣٤
 النحاس: ٤٥١
 نزار قباني: ٥٩٩
 النسائي: ٥٦٩
 نسيم مجلى: ٦٠٩، ٦١٠، ٦٢٦
 نصر الله مبشر الطرازي: ٣٢١
 نصر حامد أبو زيد: ٦٩١
 نصر العادلي: ١٨٩، ٣٠٨
 نصر الهوريني: ١٢٨، ٢١٢، ٤٨١،
 ٥٤٢، ٦٦٢، ٦٦٣
 النضر بن شميل: ١٣
 نصر بن عاصم الليثي: ٥٨٦
 النظام: ٢٧٢
 النعمان (القاضي): ٥١٦، ٦٦٩
 نفطويه: ٢١٥
 نللينو: ٦٧٠
 نموستا فيستام: ٥٠
 نوح (عليه السلام): ١٤٣، ٢٥٥، ٢٧٥
 نور الدين الهيثمي: ٢٥٢، ٥٥٨
 نوري القيسي: ٥٣٤

مكرم بن علي: ١٧٧، ١٧٨
 مكّي بن أبي طالب: ٩٤، ٤٠٦
 المنذري: ٣٠٤، ٥٥٨
 منصور بدّار: ١٩٠
 منصور الشامي الدمهوري: ١٩٠
 المنصور العباسي: ٤٢٥
 منصور النمري: ٢٢٨
 المهلهل بن ربيعة: ٦١٢
 المهلهل بن يموت: ٢٣١
 مهيار الديلمي: ١٧٤
 المؤيد: ١٩٠
 موسى بن عبد الملك الأصبهاني: ١٢١
 موسى بن عقبة: ٦٣٥
 الموصلي: ٥٤٥، ٦٠١
 ميغيل أسين بلاثيوس: ٤٩٤
 الميداني: ٤١٢، ٦٩٧
 ميخائيل نعيمة: ٢٢٠
 ميمون بن قيس الأعشى: ٢٠٦، ٢١٥،
 ٢٤٨، ٥١٠، ٦٢٢
 م. ي. قسطنطين اليهودي: ٥٩٥
 النابغة الجعدي: ٥٦٣، ٦٧٠
 النابغة الذبياني: ٢١٦
 نابغة بني شيبان: ١٧٤
 نابليون بونابرت: ٤٢٩، ٥٣٧، ٥٤٠،
 ٥٤١، ٦٦١
 ناصر الدين الأسد: ٢٨، ٢٩٥، ٥١١،
 ٥٣٤، ٦٧٧

- النووي: ١٦٧، ٣٤٠
 النويري: ١٧٣، ٣٣٤، ٤٦٠
 نيقولاوش: ١١١
 هارون الرشيد: ٢٢٥ - ٢٣١، ٤٢٢، ٤٥٢، ٥٢٤، ٥٢٥، ٦١٨
 هارون بن عبد الرزاق: ٦٠٣
 هاشم الطعان: ٥٣٤
 هاشم هبة: ١٩٠
 هذيل: ١٦٩
 هرقل: ٧٨، ٤١٧
 الهروي الرحالة: ٦٧٠
 هشام بن حكيم: ٥٨٧
 هشام بن عبد الملك: ٤٢٤
 هشام القوطي: ٢٧٢
 هشام (عن عروة): ٣١٦
 هلال بن علاء الرقي: ١٦٤
 هلموت ديتير: ٦٦٨
 همام قطب: ٢٣٨
 هود (عليه السلام): ١٤٣
 هولاكو: ٢٩٦
 هوميروس: ٧٠٣
 الهيثم بن عدي: ٤٢٧
 الوأواء الدمشقي: ١٢٠
 الواحدي: ١٠٦، ١٦٦، ٣٨٨، ٣٨٩
 ٦٤٤، ٦٤٠، ٦٣٦
 الواقدي: ١٠٩، ١٦١، ٥٢٥
 والد الجويني: ٥٣
 وحيد قدورة التونسي: ٥٤٢
 وديع الصافي: ٥٤٥
 وديع فلسطين: ٥٣٤، ٦٠٠، ٦٢٧
 ورش بن سعيد: ٢٤٢
 الوزير القفطي: ٤٢٠، ٥١٠
 الوزير المغربي: ٢٩٨
 وستنفلد: ١٠٧، ١٨٥، ١٨٦، ٦٦٨
 الوقشي: ١٠٠، ١١٠
 وكيع بن الجراح: ٣٤٤
 ول ديورانت: ٢٢٧ - ٢٢٩
 الوليد: ٥٩٦
 وليد عرفات: ٥٣٤
 ولي الدين أفندي: ٣٢٥، ٣٢٨
 وليم رايت: ٦٦٧
 وهب بن منبه: ٥٢٥
 وهبة (الحاج): ٦٢٣
 وهبي أفندي: ٣٢٥
 ياقوت الحموي: ٥٦، ٦٣، ٧٢، ٨٨
 ٩٢، ١٢١، ١٨١، ٢٩٨، ٣٠٢
 ٣٩١، ٤١٩، ٤٢٦، ٤٣٨، ٥٠٠
 ٥٢٥، ٦٢٠، ٦٦٨
 ياقوت المستعصي: ١٠٣، ٣٣١
 يحيى بن أكثم: ٤١٦
 يحيى حقي: ٤٨٣، ٥٣٤، ٦١٥، ٦٢٨
 ٦٢٩
 يحيى حمزة العلوي: ١٧٤، ٤٤٦
 يحيى بن خالد البرمكي: ١٥٨

يحيى خشاب: ٥٣٨

يحيى بن زياد الحارثي: ٥٣٢

يحيى بن سلام التميمي: ١١٠

يحيى بن علي العجلي: ٢٥٢

يحيى بن معين: ٣٠٠، ٥٠٦

يحيى القطان: ٢٣١

يحيى بن ماسويه: ١٧٥

يحيى اليزيدي: ٢٢١

يحيى بن يعمر: ٤٥٠، ٥٨٦

يزيد بن عمرو الغنوي: ٢٥٠

اليزيدي: ٧٨

الشكري: ٢٦

يعقوب (عليه السلام): ١٢٢، ٤٢٤

يعقوب بن إسحاق الحضرمي: ٢٣١

يعقوب بن السكيت: ٤٤٢، ٥٠٧

يعقوب صروف: ٦٢٧

يعقوب الغنيم: ٥٣٤

يوحنا البطريق: ٥٢٥

يوحنا بن موسويه: ٥٢٥

يوسف (عليه السلام): ١٩٤، ٢٤٥

يوسف أحمد: ٣٣٥

يوسف إدريس: ٥٧٢

يوسف بن أسباط: ٣٨١، ٤١٢، ٥٤٨

يوسف بن إسماعيل النبهاني: ٢٤٩ —

٢٥٢

يوسف إلياس سرقيس: ٢٩٥، ٤٣٠

يوسف خليف: ٢٣٣

يوسف بن سعد: ٢٤٨

يوسف (الشيخ التركي): ١٨٨

يوسف شوقي: ٥٣٤، ٦٢٨

يوسف العش: ٨٦، ١٣١

يوسف المنيلوي: ١٩٢

يونس بن بكير: ١٠٩

يونس بن حبيب: ٢٠٩، ٢١٥، ٢٩٨،

٢٩٩، ٣٤٧، ٥٠١، ٥٢٥

يوهان فك: ١٣٢

* * *

[ابن]

ابن أجروم: ٩٦

ابن أبان: ٦٠

ابن الأثير (ضياء الدين): ١٠٦، ٣١٧،

٣٥٣

ابن الأثير (عز الدين): ٥٣، ٥٦، ١٠٦،

٢١٠، ٢٥٢، ٢٩٦ — ٢٩٨، ٣٠٠،

٣٠٤، ٣٤٠، ٣٥١

ابن الأثير (مجد الدين): ١٣، ١٩، ٢٤،

٢٥، ٢٦، ٥٣، ٦٠، ٦١، ١٠٦،

١٠٩، ١٦٧، ١٧٩، ١٨١، ١٨٤،

٢٥٢، ٣٤٠، ٣٧٠، ٣٧١، ٤١٢،

٥٥٧، ٥٦٢، ٥٧٩، ٦١٢، ٦١٦،

٦٣٢، ٦٥٩

ابن إسحاق: ٥٥٩

٤٤٥ ، ٤٥١ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ،
٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٥٥٦ ، ٥٨٤

ابن الجوزي : ٢٦ ، ١٠٨ ، ١٣٥ ، ١٦١ ،
٢٢٢ ، ٢٥٢ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٩ ،
٣٠٧ ، ٣٤١ ، ٤٠٦ ، ٤٥٧ ، ٥٤٨ ،
٥٥٧ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٧١ ،
٥٩٣ ، ٦٣٧

ابن الحاجب : ١٥٩ ، ٤٧١ ، ٥٥٦ ،
ابن حجر العسقلاني : ٥١ ، ٥٣ ، ٧٢ ،
١٥٦ ، ١٩٤ ، ٢٦٨ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ،
٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٤٣١ ، ٤٥٩ ، ٤٦٨ ،
ابن أبي جديد : ٤١٩ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ،
ابن حزم : ٦٨ ، ١١٩ ، ٢٩٨ ، ٥٢٠ ،
٥٦٩

ابن خالويه : ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٧٥ ، ٣١٨ ،
ابن خلدون : ٤٩ ، ١١١ ، ١٥١ ، ١٥٢ ،
٢٠٤ ، ٢١٠ ، ٢٦١ ، ٣٤٩ ، ٣٥٨ ،
٤٤٢ ، ٤٥٩ ، ٥٢١ ،
ابن خلكان : ١١٩ ، ١٢١ ، ٢١٠ ، ٢٢٣ ،
٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٥ ، ٤١٩ ، ٤٢١ ،
٤٢٧ ، ٤٣١ ، ٥٢٨ ، ٦١٨

ابن أبي خيثمة : ١١٠ ،
ابن أبي داود : ٥٠٤ ، ٨٥٣ ،
ابن الداية الكاتب : ٤٨١ ، ٦١٧ ،
ابن دحية : ٢٢٩ ،
ابن درستويه : ١٠٧ ،
ابن دريد : ٩٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٥٨ ،

ابن الأعرابي : ٤١٥ ، ٤٨٨ ، ٥٠٨ ،
٥١٠ ، ٥١١ ، ٥٦١ ، ٦٩٧

ابن أبيك الداوداري : ٣٠٧ ،
ابن الباذش النحوي : ١١٠ ،
ابن بري المصري : ٢٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ،
٣٦٧ ، ٣٧٠ ، ٤٢٤ ، ٥١١ ، ٥٦٢ ،
ابن بسام : ٩٣ ، ٤٥٧ ، ٤٩٤ ، ٦٦٩

ابن يشكوال : ١٠٩ ،
ابن البواب البغدادي : ٣٣١ ،
ابن البيطار : ٤٥٧ ،
ابن التعاويذي : ١٠٣ ،
ابن تغري بردي : ١١٩ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ،
٢٩٧

ابن تيمية : ٤٨ ، ٢١٠ ، ٥٢٠ ،
ابن جبير : ٥٦٦ ،
ابن الجراح (الأديب) : ٥١٢ ،
ابن جريج : ٥٥٨ ،
ابن الجزري : ٦٣ ، ١٩٣ ، ٢٢٢ ، ٢٣٥ ،
٥٨٥ ، ٦٣٥

ابن جعدبة : ٤٠٠ ،
ابن جلعجل : ٧٧ ، ٧٨ ، ٥٢٥ ،
ابن جماعة : ٣١٦ ، ٤٩٥

ابن جني : ١٣٢ ، ١٣٩ ، ١٥٢ ، ١٧٤ ،
١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٥ ،
٢١٧ ، ٢٢١ ، ٢٣١ ، ٢٨٢ ، ٢٩٨ ،
٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٨ ، ٣٤٨ ،
٣٦٣ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ،

٤٤٢ ، ٣٧٥ ، ٣٧٤ ، ٢٣١ ، ٢٠٩
٤٥٤ ، ٤٥٢

ابن سلام : ٣٧٣ ، ٢٥٦ ، ٢٤٨ ، ١٢٩ ،
٤٢٣ ، ٤٣٥ ، ٤٥١ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ،
٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٩٤ ، ٥١٧ ، ٥٢٥ ،
٦٠٦ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦٦١

ابن سمرة الجعدي : ٧٨ ، ٣٢٩

ابن السمعاني : ٩٨

ابن سنان الخفاجي : ٣١٧

ابن السيد البطليوسي : ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠٩ ،
١١١ ، ٥١٤

ابن سيد الناس اليعمري : ٢٤٩ ، ٢٥٠ ،
٢٥٢ ، ٤٦٠

ابن سيده : ١١٠ ، ١٥٠ ، ١٧٣ ، ١٧٩ ،
١٨١ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣٧٠ ، ٣٧٤ ،
٥٣٩ ، ٥٦٢ ، ٦٥٠ ، ٦٧٥

ابن سيرين : ٥٨٧

ابن سينا : ٧٤ ، ١٥٩ ، ٣٨٣ ، ٤٧١

ابن شاعر الكتبي : ٨٨ ، ١٦٧ ، ٢٩٨

ابن الشجري : ١٩ ، ٢٦ ، ٢٠٨ ، ٢٥٢ ،
٤٦٠ ، ٥٠٩ ، ٦٥٨

ابن شداد : ٤٦١

ابن شقير : ٤٣٨

ابن الصائغ الكناني : ١٠٣

ابن صاعد : ٢٥٢

ابن الصلاح : ١٧٥ ، ٥٦٨ ، ٦٧٤

ابن طباطبا العلوي : ٣١٧

١٦٤ ، ١٦٩ ، ٢٩٨ ، ٣٧٢ ، ٣٧٦ ،
٥٠٧ ، ٥١١ ، ٥٧٥

ابن دقيق العيد : ٢٦٥ ، ٦٩٥

ابن الدهان : ١٠٣

ابن الراوندي : ٢٧٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤

ابن أبي الرجال : ١٠٢

ابن رجب الحنبلي : ١٨٢ ، ٣١٥

ابن رشد (الجد) : ١١١

ابن رشد (الحفيد) : ١١١ ، ١٦٧

ابن رشيق القيرواني : ٢٨٩ ، ٣٩١ ،
٣٩٢ ، ٤٦١ ، ٥٢٧

ابن الرقيق : ٤٦١

ابن الرومي : ١٧٥ ، ٣١٣ ، ٣٥٤ ، ٤٥٤ ،
٤٥٥ ، ٥٤٤ ، ٧٠٦

ابن زريق : ٣٢٠

ابن الزملكاني : ٦٧٠

ابن زمنين : ١١٠

ابن أبي زيد القيرواني : ١٠٩

ابن زيدون : ٩٣ ، ١١٦

ابن سبعين الصوفي : ٢٦٥ ، ٦٩٥

ابن السراج : ٢٧ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١٣٩ ،
١٥٢ ، ٣١٨ ، ٤٥١ ، ٤٥٤ ، ٥١٢

ابن سعد : ١٠٩ ، ١٧٨ ، ٣٠٠ ، ٥٥٨

ابن سعد الخير الأنصاري : ٥١٤

ابن سعيد : ٣٤٩

ابن سعيد الأندلسي : ٥١٦ ، ٦٦٩

ابن السكيت : ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١٧٩ ،

ابن الطفيل: ١١١

ابن الطقطقي: ٦٤٩

ابن عابدين: ١٦٧

ابن عامر: ١٩٥، ٢١٦، ٤٠٥، ٥٥٦، ٥٨٨

ابن عباد (الوزير): ٦٩٤

ابن عبد البر: ١٣٤، ١٨٥، ٢٥٢، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣١٦، ٤٠٩، ٤٢٨، ٤٨٤

٦٣٣

ابن عبد الحكم: ٢٩٩

ابن عبد ربه: ٨٨، ٢٦٠، ٤٢٧، ٤٩٤، ٦١٨، ٥٥٩

ابن عتاب: ٢٥٩

ابن عربي: ١٣٥، ٢١٠، ٢٥٢، ٢٦٨، ٣٨٢، ٤٣١، ٥٠٨، ٥١٣

ابن عساكر: ٥٣، ٧٩، ٢٩٩، ٣٠٢، ٣٠٤، ٤٥٧، ٥٦٠، ٦٧٠

ابن عصفور: ٢١٦، ٢١٧، ٥٩٦

ابن عطية: ٦٣٣، ٦٤٢

ابن عقيل: ١٤١، ٦٨١، ٦٨٢

ابن العماد الحنبلي: ٢٩٧، ٣٢٣، ٦٩١

ابن العميد: ١١٣، ٥٢٠، ٥٢٨، ٥٣٣، ٦٩٤

ابن أبي عون: ٦٦٩

ابن الغطريف العنبري: ٢٥٢

ابن فارس: ٢٠٤، ٢٠٨، ٢٨٢، ٣٠٦، ٤٩٠

ابن الفرج الجياني الأندلسي: ٦١٣

ابن الفرضي: ٩١

ابن فضل الله العمري: ١٧٤

ابن فهد المكي: ٧٩

ابن قادم: ٤٤٢

ابن قتيبة: ٦٨، ٩١، ٩٢، ٩٧، ١٠٠، ١١٦، ١٢٩، ١٧٤، ٢٠٨، ٢١٩

٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٦١، ٢٧٢، ٢٩٩، ٣١٧، ٣٢٩، ٣٤٤، ٣٤٨

٣٤٩، ٣٥٢، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٥٤، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٩٤، ٥٢٠، ٥٢٨

٥٩٠، ٦٠٦، ٦٣٣، ٦٦٦، ٦٦٨

ابن قدامة: ١٦٧، ٦٤١

ابن القطاع: ٣٧٤

ابن قلاؤس: ٥٦١

ابن القوطية: ٣٧٤

ابن قيم الجوزية: ٢٧، ٢٠٣، ٢٥٢، ٣٥٨، ٦٤٦، ٦٦٣

ابن كثير (إسماعيل): ٥١، ٥٣، ٦٧، ١٠٩، ١٦٧، ٢٢٢، ٢٥٢، ٢٩٦

٣٠٤، ٥٠٦، ٥٦٠، ٥٦٩، ٦٤٣

ابن كثير (عبد الله): ١٩٥، ٢٤٠، ٤٠٥، ٥٥٦، ٥٥٥

ابن الكلبي: ١٢٧، ١٧١، ٢٩٨، ٣٩٥

ابن كمال باشا: ١٩٨

ابن كيسان: ١٠٧

ابن ماجه: ٤١٥، ٥٦٩

ابن مأكولا (الأمير): ٢٩٨

ابن مالك الجياني: ٩٦

ابن مالك (النحوي): ٩٦، ١٤١، ١٥٣،

١٦٥، ١٦٦، ١٨٢

ابن المبارك: ١٠٩

ابن مبارك شاه المصري: ١٦٨

ابن مجاهد: ١٩٥، ١٩٦، ٢٤١، ٤٠٦،

٥٥٦

ابن محيصن: ٢٢١

ابن المعتز: ٢٣١، ٢٥٤، ٤٥٤

ابن معطي: ٢٢، ٢٥، ٩٦، ٣١٨

ابن المقفع: ١٠٤

ابن مقله: ٣٣١

ابن مكانس: ١٠٣

ابن أم مكتوم: ٥٨٥

ابن مكى: ٢٠٠، ٢٠١

ابن منذر: ٢٢٨

ابن منظور: ٧٩، ٨٠، ١٦٢، (١٧٧) —

(١٨٦)، ٢٣١، ٣٠٤، ٣٦٨ — ٣٧٤،

٤٣٨، ٤٥٦ — ٤٦١، ٥٣٧، ٥٣٩،

٥٦٢، ٥٦١

ابن ناصر الدين (الحافظ): ٢٩٨

ابن النجار: ٤٥٧، ٥٩١

ابن النحاس: ٦٢

ابن النديم: ٨٨، ٢٩٥، ٤٩٤، ٥٠١،

٦٦١

ابن النفيس: ٣٨٢، ٤٩٩

ابن نقطة البغدادي: ٢٩٨

ابن هانيء الأندلسي: ٥٧٤

ابن هداية الله: ٥٤

ابن هشام (عبد الملك): ٣٠٤، ٥٢٥،

٦٤١، ٦٦٨

ابن هشام اللخمي الإشبيلي: ١٩٧،

٢٠٠، ٢٠١

ابن هشام النحوي: ١٤٠، ١٤١، ٣٠١،

٣١٨، ٤٣٨، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٥٦ —

٤٦١

ابن الهمام: ١٦٧

ابن ولأد: ٣٢٩

ابن وهب: ١٤٦، ٦٦٩

ابن يعقوب المغربي: ١٦٠، ٢١١

* * *

[أبو]

أبو إبراهيم الفارابي: ٣٧٤

أبو أحمد العسكري: ٤٠، ٤٠٢، ٤٨٩

أبو أحمد الموسوي: ٦٥٧

أبو إسحاق الإسفراييني: ٥٤

أبو إسحاق الشيرازي: ٥٤، ٦١، ١٦٧

أبو إسحاق النيسابوري: ١٦٦

أبو الأسود الدؤلي: ٢٠٥، ٢٩٥، ٣٠١،

٤٥٠، ٥٨٦، ٦١٣

أبو أمامة الباهلي: ٥٥٨

أبو أيوب الأنصاري: ٦٤٠

أبو الحجاج يوسف (الأعلم الشتمري):

٢٣٣

أبو الحسن الأمدي: ١٦٧، ٥٢٣

أبو الحسن الأشعري: ٢٧٢

أبو الحسن الحوفي المصري: ١٦٦

أبو الحسن الرماني: ٣٤٦

أبو الحسن الشتريني: ٩٣

أبو الحسن العامري: ٢٧٨

أبو الحسن العبدى: ١٦٤

أبو الحسن المدائني: ٥٢٥

أبو الحسن المرزوقي: ٤٨٩، ٤٩٠

أبو الحسن المسعودي: ٦٧٦

أبو الحسين الجزار: ٦٩١

أبو الحسين الخياط: ٢٧٢

أبو حنيفة الدينوري: ٣٠٢، ٦٦٨

أبو حنيفة الصوفي: ٤٤٣، ٤٤٤

أبو حنيفة النعمان: ١٥، ٥٠، ٦٣، ٢٢١

— ٢٢٣، ٢٩٩، ٣٠٦، ٣١١

٤٣٩، ٥٢٤، ٥٦٩، ٦٣٠

أبو حيان التوحيدى: ٨٦، ١١٩، ١٢٠

٢٠٤، ٢٠٥، ٢٢٢، ٣٠٢، ٣٥٩

٤٤٠ — ٤٤٤، ٤٩٩، ٥٠٧ — ٥١٠

٥٢٠، ٥٢٩، ٥٣٣، ٦١٨، ٦٤٣

٦٦٩ — ٦٩٤

أبو حيان النحوي: ٨٢، ٨٦، ٨٨، ١٦٦

٢١٨، ٢٨٩، ٣٩٦، ٤٠٦، ٤٦٠

٦٦٩

أبو البركات الأنباري: ١٧٥

أبو برزة الأسلمي: ٤١١

أبو البقاء الكفوي: ١٥٩، ٣٧٤، ٤٨٥

٤٨٦

أبو بكر ابن الأنباري: ٢٠٩، ٢٥٢، ٤٥٢

أبو بكر (أخ عثمان بن أبي شيبة): ٥٠٥

أبو بكر الباقلاني: ٣٥٧، ٦٢٠

أبو بكر البطليوسي: ٥٣٣

أبو بكر الحازمي: ٢٩٨

أبو بكر بن حجة الحموي: ١٢٠، ١٢١

أبو بكر الرازي: ١٦٠

أبو بكر الزبيدي الأندلسي: ٩١، ٩٢

٩٣، ١٠٣، ١٨١، ٢٠٠، ٢٠١

أبو بكر الشتريني: ٤٣٨

أبو بكر الصديق: ١٩٨، ٥٨٥، ٦٣٤، ٦٤١

أبو بكر الصولي: ٢٣١

أبو بكر بن طاهر: ٣٣٩

أبو بكر عمرو بن حزم: ٣٩٩، ٤٠٠

أبو تمام: ١٥، ١٠٣، ١٦١، ٣٤٩

٣٥٩، ٤٢٦، ٤٥٤، ٤٨٩، ٦١٧

٦٢٣

أبو جعفر النحاس: ٢٠٩

أبو جمعة المراكشي: ١١٢

أبو حاتم الرازي: ٤٧

أبو حاتم السجستاني: ١٩٧، ٢١٥، ٣٢٩

أبو حامد المروزي: ٥٦

أبو الحجاج المزي: ٣٠٤، ٤٦٠

- أبو خالد: ٥٥٨
أبو خيرة الأعرابي: ١٧٨
أبو داود السجستاني: ٥٥، ١٥٤، ١٨٢،
٣٠٠، ٣١٥، ٦٤٠
أبو ذر الخشني: ٥٥٩
أبو ذر الغفاري: ٣٤١
أبو ذؤيب الهذلي: ٦٢٤
أبو رجاء العطاردي: ٣٤٠
أبو الرقعمق: ٢٨٦
أبو زريق: ٣٢٠
أبو زكريا الشبلي: ٣٨٢
أبو زكريا الفراء: ٤٣٩
أبو زياد الأعرابي: ٣٨٠
أبو زيد: ١٧٨، ٣٨٩
أبو زيد الأنصاري: ٢٣١، ٤٨٨، ٥٢٥
أبو سعد القادسي: ٤١٧
أبو سعيد السكري: ١٧٩، ٢٠٩، ٣٧٥،
٤٥٢، ٥٠٧، ٥١١
أبو سعيد السيرافي: ٢٨، ١٦٥، ٢٢٠،
٣٠١، ٣٠٢، ٤٤٠، ٤٤٢، ٤٥٢
٥٠٧، ٦٩٤
أبو سليمان الخطابي: ٥٠٢، ٦٥٠
أبو سهل القطان: ٢٩٣
أبو شامة المقدسي: ٣٣٩
أبو طالب: ٤٢٦
أبو طالب (عم النبي ﷺ): ٢٤٨، ٥٥٣
أبو طالب الميمني: ٤٦٩
أبو طاهر الزيادي: ٥٤
أبو طاهر السلفي: ٥٦١
أبو الطيب الصعلوكي: ٦٢٣
أبو الطيب الطبري: ٥٤، ٥٨
أبو الطيب المتنبسي: ٨٣، ١١٢، ٢١٥،
٢٥٤، ٢٦٨، ٢٦٩، ٣٨٧ — ٣٩٠،
٤٥٤ — ٤٥٦، ٥١٣، ٥٦٣، ٦١٦،
٦١٩، ٦٢٧، ٦٢٨، ٦٥٣، ٦٥٥،
٦٥٨
أبو عامر الفاسق: ٤١٧
أبو العباس الأحول: ٣٧٥، ٤٥٢
أبو العباس الشريشي: ٩٧
أبو العباس المهدي: ٩٤
أبو عبد الرحمن السلمي: ٢٦، ٣٠٠،
٤٢٠، ٥٨٦، ٥٩٣
أبو عبيد: ٦٣٢
أبو عبيد الآجري: ٣٠٠
أبو عبيد البكري: ٩٧، ١٠٠، ١٨١،
١٨٥، ١٨٦، ٢٩٨، ٣٠٢، ٤٨٦،
٦٦٨
أبو عبيد الهروي: ٢٥
أبو عبيدة: ١٩٨، ٤٥١، ٥٢٥، ٦٣٨
أبو العتاهية: ٦٠، ٢٢٨، ٣٤٩، ٤٥٤،
٦٠٩
أبو عثمان المازني: ٢٠١، ٢٠٣
أبو العلاء المعري: ١٠٢، ١٥٠، ١٧٤،
٢٢٣، ٢٥٢، ٣٠٦، ٣٥١، ٤٠٠

أبو العيناء: ٤١٩
 أبو العنين شعيش: ١٨٨، ١٩٠
 أبو الفتح البستي: ١٣٤، ١٣٥
 أبو الفتح الفقي: ٦٥٥
 أبو الفتح القواس: ٥٩٣
 أبو الفتوح رضوان: ٥٤١
 أبو الفداء الملك المؤيد: ٢٩٧
 أبو الفراس الحمداني: ٤٥٤، ٤٥٥
 أبو الفرج الأصبهاني: ٩٢، ١٦٢، ١٧٣،
 ٢١٠، ٢١٢، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٤
 ٣٣٤، ٣٣٧، ٤٠٠، ٤٢٠، ٤٢٤
 ٤٢٦، ٤٩٤، ٥١٥، ٥٤٥، ٥٨٤
 ٦٠٤، ٦١٨، ٧٠٣
 أبو الفضل ابن ناصر: ٢٧
 أبو القاسم الأمدي: ٢١٥
 أبو القاسم السهيلي: ٩٧
 أبو القاسم السيرافي: ٥٢٨، ٥٢٩
 أبو القاسم الطيب التميمي: ١٠٧
 أبو القاسم القشيري: ٥٣
 أبو مالك الأعرابي: ١٧٨
 أبو محمد الأنباري: ٢٠٩
 أبو محمد بن زريق الكاتب: ١٢١
 أبو محمد العسكري: ٢١٥
 أبو محمد اليزيدي: ٢٢٨
 أبو المعالي الكلابي: ٢٢٩
 أبو معاوية الضرير: ٢٢٩
 أبو منصور الثعالبي: ٩٣، ١٢٠، ١٢١،

٤٠١، ٤٣٥، ٥٠٠، ٥٠٩، ٥١٧
 ٥٥٩، ٥٩٦، ٦٠٩، ٦١٠، ٦٢٥
 ٦٣٠، ٦٥٦، ٦٧١ - ٦٧٦، ٦٨٢
 ٧٠٠
 أبو علي الجبائي: ٢٧٢
 أبو علي الفارسي: ١٠، ١١، ١٥، ١٦،
 ٢٦، ٢٨، ١٣٩، ١٥٢، ١٦٦
 ٢٠٣، ٢١٥، ٢١٩، ٢٢٣، ٣٠٦
 ٣١١، ٣١٨، ٣٦٠، ٣٧٥، ٤٠٦
 ٤٤١، ٤٥١، ٤٥٤
 أبو علي القالي: ٩٢، ٩٧، ٢٦١، ٣٣٤
 ٣٤٩، ٣٧٩، ٤٥٤، ٥٢٣، ٥٢٨
 ٥٧٥
 أبو العلياء (جد أسرة محمود شاكر): ٦٠٣
 أبو عمر البسطامي: ٥٤
 أبو عمر الجرمي: ٤٣٨، ٤٣٩
 أبو عمر الزاهد: ١٠٧، ٣١١، ٥٠٧
 أبو عمرو إسحاق: ٥٠٨
 أبو عمرو الداني: ٩٤، ٣٤١
 أبو عمرو الشيباني: ٧٢، ١٧٨، ٣٧٥
 ٤٥٣، ٥٠٧، ٥٢٥، ٥٩٦
 أبو عمر بن العلاء: ١١٩، ١٧٨، ١٩٥
 ٢٠٠، ٢١٥، ٣٠٩، ٤٠٤، ٤٠٥
 ٤٠٩، ٤٤٩، ٥٠٥، ٥٢٥، ٥٥٦
 ٥٨٩، ٦١٨
 أبو العميثل الأعرابي: ٣٢٨
 أبو العيال الهذلي: ٤٨٤

أسماخان: ٣٢٥
 أسمهان: ٥٤٣
 إيريبي (الملكة): ٢٢٩
 برتونيال: ٣٢٥
 جاكلين سوبليه: ٦٧٠
 جانين سورديل: ٦٧٠
 جلنوش: ٣٢٥
 جهان عرفة: ٥٩٧
 حواء (عليها السلام): ٢٥٥
 خديجة الحديثي: ٦٦٩، ٦٧١
 خندف = ليلي امرأة إلياس بن مضر
 خولة (أخت سيف الدولة): ٥٦٣، ٦١٦
 درية الخطيب: ٦٦٩
 دورثيا كرافولسكي: ٦٠٠
 رابعة العدوية: ٦٠٠
 رقية (رضي الله عنها): ٥٦٠
 زلفي محمود شاكر: ٦٠٧
 زينب بنت علي: ١٩٠
 سعاد محمد: ٥٤٣
 سعدى بنت كريز: ٥٦٠
 سكينه: ١٩٠، ٦٧٠، ٦٧١
 سميحة أيوب: ٢٤٥
 سهام الفريج: ٦٦٩
 سوزان مبارك: ٥٥٠
 سوسنة ديفيلد: ٦٧٠
 سيدة كاشف: ٦٦٩
 الشبيخة زعزوعة: ٥٤٦

٢٩٩، ٣٤٧، ٤٠٩، ٤٥٧، ٥٩٧
 أبو منصور العبادي: ٥٧٦، ٥٧٥
 أبو موسى الأشعري: ١٩٨، ٢٩٣، ٢٩٤، ٣٦٥، ٤١٤
 أبو نجم العجلي: ٤٢٤، ٤٢٥
 أبو نخيلة السعدي: ٣٧٩
 أبو نصر الباهلي: ١٧٨، ٢١٦، ٣٧٥، ٤٥٢
 أبو نعيم الأصبهاني: ٣٤١، ٤٢٧
 أبو نواس: ٩٢، ١٦٢، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣١، ٤١٦، ٤٥٤
 أبو هريرة: ٤١٠، ٥٥٧، ٧٠٢
 أبو هفان المهمزي: ٢٣١، ٥٢٣
 أبو هلال العسكري: ٢٧، ٢٠٤، ٢١٥، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٩٤، ٢٩٩، ٣١٧، ٤٠٢، ٤١٢، ٤٣٧، ٤٨١، ٥٢٣، ٥٢٧، ٥٥٧، ٦١٧، ٦٣٦
 أبو الوليد القشبي: ٥١٢، ٥١٤
 أبو يوسف القاضي: ١٥، ٢٢٨، ٢٩٩، ٣١١

* * *

أعلام النساء

ابتسام مرهون: ٦٦٩
 أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: ٣٤١
 أسماء الحمصي: ٥٠٨، ٦٦٩

صافيناز كاظم: ٦٠٩، ٦١٤

صالحه خاتون: ٣٢٥

صفية المهندس: ٥٩٨

طرخان: ٣٢٥

عائشة (رضي الله عنها): ٢٤٧، ٤٩٠،

٦٢٤، ٦٤١

عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء): ١٠٢،

(٦٦٧ - ٦٧٦)

عاتكة: ٦٩٩

عالية (الملكة الأردنية): ١٨٧

عزة حسن: ٣٣٠، ٦٦٨

فاطمة (رضي الله عنها): ٦٢٢

فاطمة حمزة: ٦٦٩

فاطمة الراجحي: ٦٦٩

فاطمة (النبوية): ١٩٠

فايدة كامل: ٢٤٣

فايزة أحمد: ٦٢١، ٥٤٣

فوقية حسين محمود: ٦٦٩

قتيلة بنت النضر بن الحارث: ٣٦٢

كليليا سارنيللي: ٦٧٠

ليلي (امراة إلياس بن مضر): ٢٥٦

ماريا نللينو: ٦٧٠

مانويلا ماريني: ٦٧٠

مريم (عليها السلام): ٣٣٢

مفيدة عبد الرحمن: ٥٤٥

ملكة بهوبال: ٤٦٨

ناجية عبد الله إبراهيم: ٣٠٧، ٦٦٩

نادية علي دولة: ٦٦٩

نبيهة عبود: ٢٩٥

نعمات أحمد فؤاد: ٥٤٤، ٣٠٧

نفيسة: ١٩٠

هدى جن هوي تشي: ٦٧٠

هدى قراعة: ٦٦٩

هند بنت أبي هالة: ٢٨٥

وحيد (المغنية): ٥٤٤

وداد القاضي: ٦٦٩، ٦٧١

* * *

[أم]

أم ابن الأعرابي (زوجة المفضل): ٥١٠

أم السلطان شعبان: ١٩٠

أم عباس: ٦٠٣

أم علي (امراة أحمد بن خضرويه): ٤٢٠

أم كلثوم: ١٩١، ٣٥٥، ٣٥٦، ٥٤٤ -

٥٤٧، ٥٧٦، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦٠١،

٦٢٨، ٧٠٣، ٧٠٤

* * *

[٤] فهرس الكتب والدوريات

(أ) فهرس الكتب:

الآجرومية، لابن آجروم: ٩٦، ١٤١،

١٤٤، ٣١٨، ٤٦٤

آثار الجبرتي، لرشاد عبد المطلب: ٨٩

آداب الشافعي ومناقبه، للرازي: ١٣

أباطيل وأسمار، لمحمود شاکر: ٤٠١،

٤٣٥، ٤٨٠، ٤٨٧، ٤٩١، ٥١٧،

٦٠٦، ٦٢٥، ٦٩٢

الإبانة عن معاني القراءات، لمكي: ٤٠٦

الإبانة في الوقف والابتداء، للخزاعي:

١١٠

أبجد العلوم، للقنوجي: ٣٧٥، ٤٦٨

أبكار الأفكار، للآمدي: ١٦٧

أبو العلاء المعري (دراسة)، لبنت

الشاطيء: ٦٧٣

أبيات الاستشهاد، لابن فارس: ٥١٢

إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم

الدين، للزبيدي: ٥٣٧

إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة

عشر، للدمياطي: ٢٢١

الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي:

١٦٦، ٢٨٦

الأجوبة المسكتة، لابن أبي عون:

٦٦٩

الأحكام الصغرى، لابن عربي: ٣٨٢

أحكام القرآن، لابن عربي: ٣٨٢

أحمد بابا التمبكتي، (المنظمة الإسلامية

للتربية - المغرب): ٣٨١

أخبار الأذكياء، لابن الجوزي: ١٣٥،

٢٩٩

أخبار البلدان، للقزويني: ٥٩٦

أخبار الحمقى، لابن الجوزي: ٢٩٩

الأخبار الطوال، للدينوري: ٦٦٨

أخبار الظراف، لابن الجوزي: ٢٩٩

أخبار العرب، لمعمر بن المثنى: ٢٣١

أخبار عقلاء المجانين، لابن الجوزي:

٢٩٩

اختصار علوم الحديث، لابن كثير: ٦٧

الاختيارين، للأخفش: ٥٩٦

الاستيعاب، لابن عبد البر: ١٣٤، ١٨٥،
٢٥٢، ٣٠٠، ٣٤٩، ٤٨٤

أسد الغابة، لعز الدين ابن الأثير: ٢٥٢،
٣٠٠

أسرار البلاغة، للجرجاني: ٢٧٣، ٤٣٥،
٤٤٢، ٤٨١، ٥١٧، ٦٠٦، ٦١٧،
٦٣٠، ٦٢٩

أسس النقد الأدبي...، لأحمد بدوي:
٣١٨، ٣١٧

الإسلام بين التنوير والتزوير، لمحمد
عمارة: ٦٢١

الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة،
للخطيب البغدادي: ٢٥٢

الإشارات الإلهية، لأبي حيان: ٦٦٩
الإشارات إلى معرفة الزيارات، للهرودي:
٦٧٠

الأشباه والنظائر في النحو، للسيوطي:
٣٦٣، ٣٦٠

الاشتقاق، لابن دريد: ١٠٧، ٢٩٨،
٥٠٧

اشتقاق أسماء الله الحسنى، للزجاجي:
٢٥١

الإشراف على مذاهب العلماء، لمحمد بن
إبراهيم: ٦٢

أشعار الهذليين: ٥١١
الإشفاق في أحكام الطلاق، للكوثري:
٦٧

أخطاؤنا في الصحف...، للزعللاوي:
١٩٩

الأخلاق، لأرسطو: ١١١
الأدباء في طفولتهم، لعباس خضر: ٦٠٠
أدب الإملاء، للسمعاني: ٣١٦، ٤٢٣،
٥٠٩

الأدب العربي، (وزارة التربية - مصر):
٢٣٢

أدب الفتوى، لابن الصلاح: ٥٦٨
أدب الكتائب = (أدب الكتاب)، لابن
قتيبة: ٩٧، ٢٥٢، ٢٦١، ٢٦٤،
٣٤٩، ٣٥٣، ٤٥٤، ٤٨١، ٥٢٠،
٦٠٦

أرجوزة في الطب، لابن سينا: ١١١
أرجوزة في النحو، للشكري: ٢٦
الأرض، للشرقاوي: ٥٩٥
أزهار الرياض في أخبار عياض: ٥١٦
الأزهرية، لخالد الأزهرى: ١٤١
الأزمنة والأمكنة، للمرزوقي: ٣٠٢،
٤٨٩

أساس البلاغة، للزمخشري: ١٧٤،
١٨٣، ٣٧٢، ٣٧٤

أسباب النزول، للواحدي: ٣٨٨، ٦٤٠،
٦٤٢، ٦٤٤

استثمار التراث، للطناحي: ٣٦١
الاستدراك على معاجم العربية، لمحمد
جبل: ٣٦٩، ٣٧٦

ابن الشجري وآراؤه النحوية، للطناحي:

٢٢

الإصابة، لابن حجر: ٣٠١، ٣٠٠

إصلاح المنطق، لابن السكيت: ١٠٢،

٣٧٤، ٤٥٤، ٥٠٧

الأصمعيات: ٦٨، ١٦٩، ٢٠١، ٢٠٩،

٢٦٢، ٣٧٦

الأصنام، لابن الكلبي: ١٢٧، ١٧١،

١٧٢، ٣٩٥

أصوات وألحان عربية، للنجمي: ٥٤٧

الأصول في النحو، لابن السراج: ٢٧،

١٣٩

الأصول في الهندسة، لإقليدس: ١٠٢

الأضداد، للتوزي: ١١١

إعارة الكتب عند الأقدمين، للسيوطي:

٧٨

إعارة الكتب عند الأقدمين، لليزيدي: ٧٨

الاعتصام، للشاطبي: ١٦٥

إعجاز القرآن، للباقلاني: ١٢٩، ٢٧٣،

٣٥٧، ٦٢٠

إعجاز القرآن، للخطابي: ٥٠٢

الإعراب، لابن هشام: ٤٥٨

إعراب ثلاثين سورة، لابن خالويه: ١٣٩،

١٧٥، ٣١٨

إعراب القراءات، لابن خالويه: ٤٠٦

إعراب القرآن، للزجاج: ١٠٧

إعراب القرآن، للنحاس: ٤٥١

الأعلام، للزركلي: ١٣٤، ٢٦٠، ٤١٩،

٥٩١، ٥٩٥

الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشر

هجرية، لزكي مجاهد: ٥٩٧

أعلام النصر المبين، في المفاضلة بين

أهلي صفين، لابن دحية الكلبي: ٢٨

الإعلان بالتوبيخ، للسخاوي: ٤٢١

أعمار الأعيان، لابن الجوزي: ٢٦

أعمال عبد العزيز الرفاعي في الخط:

٣٣٣، ٣٣٤

الأعمال المختارة، لميجيل أسين

بلاثيوس: ٤٩٤

الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني: ٧١،

٩٢، ١٦٢، ١٧٣، ٢١٠، ٢٦٠،

٣٠١، ٣٠٤، ٣٣٤، ٣٧٩، ٤٠٠،

٤٢٠، ٤٢٤، ٤٢٦، ٤٣١، ٤٣٥،

٤٥٧، ٤٩٤، ٥١١، ٥١٥، ٥١٧،

٥٢٠، ٥٤٥، ٦٠٤، ٦١٨، ٧٠٣

الأفعال، للسرقسطي: ٣٧٤

الأفعال، لابن القطاع: ٣٧٤

الأفعال، لابن القوطية: ٣٧٤

الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، لابن

السيد: ٩٧

اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، لفنديك:

٢٩٥

الإكسير في علم التفسير، للطوفي: ٦٣٤

الإكمال، لابن ماکولا: ٢٩٨

الإمتاع والمؤانسة، للتوحيدي: ١١٩،
٢١٨، ٣٠٢، ٤٤٠

الأمثال، لأبي عبيد القاسم بن سلام:
٩٧

الأمثال العامية، لأحمد تيمور: ٤٠٩
الأمثال العربية القديمة، لرودلف زلهام:
٢٩٥، ١٠٦، ٩٧

أمثال لقمان: ٥٤٠
ابن معطي وآراؤه النحوية، للطناحي: ٢٢
إملاء ما من به الرحمن...، لعامر
عثمان: ٢٤٠

أمين الخولي (دراسة)، لحسين نصار:
٦٧٦

إنباه الرواة، للقفطي: ٩٢، ٩٦، ١٧٤،
٢٩٥، ٤٢٠، ٥١٠، ٥٥١

الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء،
لابن عبد البر: ٢٩٩

الأنساب، للسمعاني: ٦٣، ٢٩٨، ٣٠٤
أنساب الأشراف، للبلاذري: ١٠٨

أنساب الخيل، لابن الكلبي: ١٢٧،
١٧١، ١٧٢، ٣٩٥

أنقذوا اللغة، لأحمد درويش: ٤٦٤
أنموذج جليل في بيان أسئلة وأجوبة من
غرائب آي التنزيل، لأبي بكر
الرازي: ٢٨٨

الأوائل، لأبي هلال العسكري: ٢٩٤،
٢٩٩، ٦٣٦

إلى عرفات، لأحمد شوقي: ٥٥٤
ألحان من السماء، لمحمود السعدني:
١٨٩، ٥٤٤

الألفاظ في اللغة، لابن السكيت: ١٠٩
ألف ليلة وليلة: ٢١٠، ٢٢٦، ٢٢٧، ٤٣١
الألفية، لابن مالك: ٩٦، ١٤١، ١٥٣،
١٦٥

الألفية، لابن معطي: ٩٦
الإلماع إلى معرفة أصول الرواية، لعياض:
٥٠٩

الإلياذة، لهوميروس: ٧٠٣
الأم، للشافعي: ١٢، ١٦٧، ٢١٠، ٤٦٨

الأمالي، لابن دريد: ١٠٦
الأمالي، للزجاجي: ٥٠٨

الأمالي، لابن الشجري: ٢٢، ٢٦،
٢٥٢، ٣٥٣، ٣٧٥، ٥٠٩

الأمالي، للشريف المرتضى: ٤٢٣، ٤٢٦
الأمالي، لأبي علي القالي: ٩٢، ٩٧،

٢٦١، ٣٤٩، ٣٧٩، ٤٥٤، ٥٢٣،
٥٢٨، ٥٧٥

الأمالي، للمرزوقي: ٤٨٩
الإمام الشافعي، (المنظمة الإسلامية

للتربية... - المغرب): ٣٨١
الإمام الطبري، (المنظمة الإسلامية

للتربية... - المغرب): ٣٨١
إمتاع الأسماع، للمقريزي: ١٧٣، ٤١٧،

٤٨١، ٤٩٠، ٦١٧

- أوائل المطبوعات العربية، لوحيد قدورة:
٥٤٢
- أوضح المسالك، لابن هشام: ١٤١،
٤٦٥، ٤٥٨
- الإيضاح العضدي، لأبي علي الفارسي:
٣١٨، ٣٠٦، ٢٨
- الإيضاح في علل النحو، للزجاجي: ١٣٩
- الإيضاح، للقزويني: ١٦٠، ٢١١
- إيضاح المكنون، لإسماعيل باشا: ٢٩٥
- الإيقاع والتراكيب...، للخليل بن أحمد:
٤٤٠
- الإيناس بعلم الأنساب، للوزير المغربي:
٢٩٨
- البارع في أحكام النحو، لابن أبي
الرجال: ١٠٢
- الباعث الحثيث إلى معرفة علم الحديث،
لابن كثير: ٦٨، ٤٠٢، ٥٠٥
- بانت سعاد، لكعب بن زهير: ٣٠١
- بث الشجن على عينية أبي الحسن، لظه
أبو بكر: ١٢١
- البحر المحيط، لأبي حيان النحوي:
٦٤٣، ٤٠٦
- البخلاء، للبغدادي: ٦٧٠
- البخلاء، للجاحظ: ١٤٦، ٢٦١، ٥٢٥،
٦٤٩، ٥٣١، ٥٢٦
- بدائع الصنائع، للكاساني: ١٦٧
- بدائع الفوائد، لابن الجوزي: ٢٠٣
- البدر السافر، للأدفي: ١٧٨
- بداية المجتهد، لابن رشد (الحفيد): ١٦٧
- البداية والنهاية، لابن الأثير: ٥٦١
- البرصان والعرجان، للجاحظ: ١٠٥،
٥٢٥، ١٣٥
- البرهان في أصول الفقه، للجويني: ٩٨
- البرهان في علوم القرآن، للحوفي: ١٦٦
- البرهان في علوم القرآن، للزركشي:
١٦٦، ٢٦٨، ٢٨٦، ٥٤٨، ٦٣٤،
٦٧٧، ٦٤٣
- البرهان في وجوه البيان، لابن وهب:
١٤٦، ٦٦٩، ٦٧٠
- البسيط في التفسير، للواحيدي: ١٦٦
- بصائر ذوي التمييز، للفيروزآبادي: ٣٤٠
- البصائر والذخائر، للتوحيدي: ٤٤٣،
٤٤٤، ٥٠٧، ٦٦٩
- بغية الآمل، للمبرد: ١٠٢
- بغية الوعاة، للسيوطي: ٩٥
- البلاغة الواضحة، لعلي الجارم: ٦٤٨
- بهجة المجالس، لابن عبد البر: ١٣٤،
٣٤٩، ٤٠٩، ٤٢٨
- بيان إعجاز القرآن، للخطابي: ٢٧٣
- بيان زغل العلم، للذهبي: ٢٤٤
- البيان العربي، لبديوي طبانة: ٣١٧، ٣١٨
- البيان في عدآي القرآن، لأبي عمر
الداني: ٣٤١
- البيان والتبيين، للجاحظ: ١١٠، ١٢٩،

تاريخ الخلفاء، للسيوطي: ٢٢٩، ٤٢٦
تاريخ دمشق، لابن عساكر: ٧٩، ٣٠٢
٣٠٤، ٤٥٧، ٦٧٠

تاريخ رواة الحديث، لابن أبي خيثمة:
١١٠

تاريخ الطبري: ١٥٨، ٢١٠، ٢٩٤
٢٩٦، ٢٩٧، ٣٠١، ٣٠٩، ٧٠٢

تاريخ الطباعة العربية، (مركز جمعة
الماجد): ٤٢٩

تاريخ علماء الأندلس، للخشني: ١٠٢
تاريخ علماء الأندلس، لابن الفرضي:
٩١، ٩٢

تاريخ الفلك عند العرب، لنليني: ٦٧٠
تاريخ الفنون الجميلة، لسمير غريب:
٦١٠

التاريخ الكبير، للبخاري: ٥٥٨

تاريخ ابن كثير: ٢٩٦

تاريخ مرو، للسمعاني: ٧٩

تاريخ مصر، لابن يونس: ٤٩

تاريخ مكة، للأزرقي: ١٠٢، ١٦٧

تاريخ نيسابور، لابن البيّغ: ٤٩، ٧٩

تالي كتاب وفيات الأعيان، للصقاعي:
٦٧٠

تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة: ٢٥٢
تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة: ٩٢
١٢٩، ٢٧٢، ٣٤٤، ٤٨٠، ٥٩٠

٣٣٣

٢٠١، ٢٥٩، ٢٦١، ٣٤٧، ٣٤٩

٣٧٦، ٤١٤، ٤٢٧، ٤٥٤، ٤٨٢

٤٩٤، ٥١٢، (٥٢٢ - ٥٣١)، ٥٧٥

البيان والتحصيل، لابن رشد (الجد):
١١١

بين النير والنور، للخريمي: ٢٥٣

تاج العروس، للزبيدي: ٢٥، ٧٩، ١٠٤
١٨١، ٢٦٦، ٣٠١، ٣٦٨ - ٣٧٣

٣٧٦ - ٣٧٨، ٥١٢، (٥٣٧ -
٥٣٩)، ٦٥٠

التاج في أخلاق الملوك، للجاحظ: ١٢٧
١٧٢، ٥٢٥

التاج المكلل، للقنوجي: ٤٦٨

تاريخ ابن الأثير: ٢١٠، ٢٩٦

تاريخ ابن خلدون = العبر وديوان المبتدأ
والخبر

تاريخ الأدب الجغرافي، لكراتشكوفسكي:
٣٢٣، ٦٦٨

تاريخ الأدب العربي، لبروكلمان: ١١٩
١٣٢، ٢٩٥، ٣٢٩، ٣٩٤

تاريخ الإسلام، للذهبي: ٧٩
١٦٨

تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي: ٧٩
٢٢٢، ٣٠٢، ٣٩١، ٤١٦، ٤٢١

٤٢٢، ٤٥٧، ٥٩١، ٥٩٢

تاريخ التراث العربي، لسزكين: ٢٩٥
٣٩٤

التبصرة، للصيمري: ٩٥ - ٩٦
تبصير المنتبه بتحرير المشتبه، لابن حجر
العسقلاني: ٢٩٨
التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي:
٣٤٠
التبيان في إعراب القرآن، للعكبري: ٥٥٦
التبيان في علم البيان، لابن الزمكاني: ١٧٠
تبيين كذب المفتري، لابن عساكر: ٢٩٩
تثقيف اللسان، لابن مكي الصقلي: ٢٠٠
تجربتي مع الإبداع، لأبي سنة: ٤٦٥
تحديد نهايات الأماكن، للبيريوني: ٣٢٩
التحفة السنية شرح الآجرومية: ١٤١،
٤٦٤
التحفة الوردية: ٣٠١
التحقيق في مسألة التعليق، للسبكي: ٤٨
تحقيقات وتنبهات في معجم لسان
العرب، لعبد السلام هارون: ١٨٣،
٣٧٨
تخريج الدلالات السمعية، للخزاعي:
١٠٢
تدريب الراوي، للسيوطي: ٥٦٩
التذكار في أفضل الأذكار، للقرطبي:
٣٤١
التذكرة، لأبي علي الفارسي: ١٣٩
تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٦٠، ٥٦٨
تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة:
٣١٦

تذكرة الكاتب، لأسعد داغر: ١٩٩
تذكرة النحاة، لأبي حيان الأندلسي: ٣٩٦
التذليل على التكميل، لأبي حيان
الأندلسي: ١٦٦
التراتب الإدارية، للكتاني: ١٠٢، ٣٩٤
تراثنا بين ماضٍ وحاضر، لبنت الشاطيء:
٦٧٥
ترتيب الأولويات، لمحمود الربيعي: ١٤٧
ترتيب المدارك، للقاضي عياض: ٩٤
الترقيم في اللغة العربية، لأحمد زكي
باشا: ١٧٢
التسهيل في النحو، لابن مالك: ١٦٥
تصحيح التصحيف، للصفدي: ٤٠٠،
٤٨٩
تصحيح اللسان، لأحمد تيمور: ٣٧٨
تصحيفات المحدثين، لأبي أحمد
العسكري: ٤٠٠
التصحيف والتحريف، للطناحي: ٢٦
التعازي والمراثي، للمبرد: ١٠٧، ٥١٣
التعريفات، للشريف الجرجاني: ٣٧٤
التعريف بآراء أبي العلاء، (دار الكتب
المصرية): ١٧٤
التعريف بالقاضي عياض، لمحمد بن
شريفة: ٩٤
تفسير البيضاوي: ٥٤٦
تفسير ابن الجوزي: ٢٢٢
تفسير الرازي: ٤٣١

- تفسير أبي زكريا التيمي: ١١٠
تفسير الشعراوي: ٢٨١
تفسير الطبري: ٦٨، ١٠٩، ٢٢٢، ٢٧٢، ٢٩١، ٣٠٤، ٣٣٨، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٣١، ٤٣٥، ٤٨١، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٨، ٤٨٩، ٥١٧، ٥٥٨، ٥٨٨، ٦٠٦، ٦١٧، ٦٢٧، ٦٣٨، ٦٤٠، ٦٤١، ٦٤٤، ٦٦٦
تفسير القرطبي: ٧١، ١٧٣، ٢٥٢، ٣٣٤، ٣٣٩، ٣٤٤، ٤١٥، ٦٣٨، ٦٤٣، ٦٤٥
تفسير ابن كثير: ٦٨، ٢٢٢، ٣٠٤، ٦٤٣
تفسير مجاهد: ٦٤١
تفصيل صنعة الكلام، للجاحظ: ٤٤٠
التقسيم والتبيين، لأبي زكريا الشبلي: ٣٨٢
تقويم اللسان، لابن الجوزي: ٥٥٧
تكملة الإكمال في الأنساب، لابن نقطة: ٢٩٨
تكملة المعجمات العربية، لدوزي: ٦٦٧
التكملة والذيل والصلة، للصاغاني: ٤٢٤، ٥٦٢، ٥٩٢
تلبس إبليس، لابن الجوزي: ٢٩٠
تلخيص المتشابه في الرسم، للخطيب: ٦٧٠
تلخيص المفتاح، للقزويني: ١٦٠، ٢١١
تلقيح فهوم أهل الأثر، لابن الجوزي: ١٦١، ٢٩٠
التمهيد لما في الموطأ من الأسانيد، لابن عبد البر: ٣٤٩
التنبيهات، لعلي بن حمزة: ٤٨٨، ٥١٣
تنبيه الألباب، للشتريني: ٤٣٨
التنبيه على حدوث التصحيف، لحمزة الأصفهاني: ٤٠٠، ٤٨٨، ٥٠٣، ٥٠٨
التنبيه على خطأ الغريين، لأبي الفضل بن ناصر: ٢٧
التنبيه على غلط الجاهل، لابن كمال باشا: ١٩٨
التنبيه والإشراف، للمسعودي: ٢٩٦، ٢٩٩
التنبيه والإيضاح، لابن بري: ١٧٩، ٣٦٧، ٣٧٠، ٤٢٤، ٥١١، ٥٦٢
تنقيح الأزهرية، لخالد الأزهرية: ١٤١، ٤٦٤
تنقيح التحرير: ٢٤٠
تنقيح فتح الكريم، لعامر عثمان: ٢٤٠
تهذيب الآثار، للطبري: ٤٣٥، ٤٨١، ٥١٧، ٦١٧
تهذيب الأخلاق، لمسكويه: ٦٤٩
تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٦٠، ٣٠١
تهذيب اللغة، للأزهري: ١٧٩، ١٨١، ١٨٦، ٣٧١، ٣٧٠، ٥٦٢
تهذيب الأغاني، لمحمد الخضري: ٣٠٤

تهذيب الأنساب = اللباب في تهذيب
الأنساب

تهذيب سيرة ابن هشام، لعبد السلام
هارون: ٣٠٤

تهذيب الحيوان، لعبد السلام هارون: ٣٠٤
تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للمزي:
٣٠٤

توضيح المشتبه، لابن ناصر الدين: ٢٩٨
التيجان في ملوك حمير، لوهب بن منبه:
٢٩٤

ثمار القلوب في المضاف والمنسوب،
للشعالبي: ١٢١، ٧٠٣

ثمرات الأوراق، لابن حجة: ١٢١
الجاحظ معلم العقل والأدب، لشفيق
جبري: ٥٢٩

الجاسوس على القاموس، للشدياق: ٣٦٧
جامع الأصول في أحاديث الرسول، لابن
الأثير: ٣٤٠

جامع البيان = تفسير الطبري
جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر:
٣١٦

الجامع الصحيح، للترمذي: ٦٧
الجامع الكبير، للسيوطي: ١٢
الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي
الجامع لأخلاق الراوي، للخطيب
البغدادى: ٥٠٩

جامع معمر بن راشد، في الحديث: ٣٠٩

الجليس والأنيس، للمعافى بن زكريا:
١٣٤، ١٦٧

جماع العلم، للشافعي: ٦٨
جمال القراء، للسخاوي: ٣٤١
جماليات الخط العربي، لحامد العويضي:
٣٣٥

الجمع بين رجال الصحيحين: ٦٠
الجمع بين شرحي المازري والأنباري
للبرهان، لرجل مغربي: ٩٨
الجمال في النحو، للزجاجي: ١٠٣، ١٣٩
الجمهرة، لابن دريد: ١٥٨، ٣٧٢،
٣٧٦، ٥٧٥

جمهرة الإسلام، للشيزري: ١٦٨
جمهرة أشعار العرب، للقرشي: ٦١٨
جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري:
٤١٢

جمهرة أنساب العرب، لابن حزم:
٢٩٨

جمهرة نسب قریش...، للزبير بن بكار:
٤٨١، ٦١٧، ٦١٨

جمهرة النسب، لابن الكلبي: ٢٩٨
جناية أحمد أمين على الأدب العربي،
لزكري مبارك: ٦٢٣

الجواهر وصفاتها، ليحيى بن ماسويه:
١٧٥

الجوهرة في نسب النبي ﷺ، للبري:
٢٥٢

حل متشابهات القرآن، للراغب
الأصفهاني: ٣٣٧

حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني:
٤٢٧، ٣٤١

حلية الفقهاء، لابن فارس: ٣٢٩
الحماسة، للبحري: ٥٩٦

الحماسة، لأبي تمام: ١٦١، ١٧٣،
٥٢٣، ٤٨٩، ٤٢٦، ٣٤٩

الحماسة، لصدر الدين البصري: ٢٥٢،
٥٥٩

حواشي ابن بري على الصحاح = التنبيه
والإيضاح

حول الغلط والفصح على السنة الكتاب،
لأحمد منسي: ١٩٩

الحياة الإنسانية عند أبي العلاء، لبنت
الشاطيء: ٦٧٣

الحيوان، للجاحظ: ١١٠، ١٢٩، ٢٠٣،
٢٢٨، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٦١، ٣٠٤

٤٢٧، ٤٢٨، ٤٥٧، ٤٨٢، ٤٩٤،
٥١٠، ٥١١، ٥٣٠

الخطريات، لابن جني: ٢٠٤، ٤٤٢

الخراج، لأبي يوسف: ٢٢٨
خريدة القصر: ٦٧٣

خزائن الكتب العربية، لفيليب دي طرازي:
٦٦١

خزانة الأدب، لعبد القادر البغدادي:
١٠٦، ١٤٣، ٢١٩، ٣٠١، ٣٢٥

الجيم، لأبي عمرو الشيباني: ٧٢،
٤٩٣، ٥٠٧، ٥٩٦

جموع التفسير والعرف اللغوي،
للطناحي: ٢٨

حاشية الدسوقي على شرح السعد
للتخليص: ١٦٠، ٢١١

حاشية عبد القادر البغدادي على شرح بانت
سعاد: ٣٠١، ٣٢٥

حاشية الصبان على شرح الأشموني
للألفية: ١٤١

حاشية ابن عابدين: ١٦٧
الحاوي في الطب، لأبي بكر الرازي:
١٦٠

الحجة في تثبيت النبوة، للجاحظ: ٢٧٢
الحجة، لأبي علي الفارسي: ١٣٩،
١٦٦، ٤٠٦، ٤٥١

حد الصواب وحد الخطأ، لأحمد
حجازي: ٢٢٠

حديث الأحرف السبعة، لمحمود شاكرو:
٣٥٠

حديث الأربعاء، لطف حسين: ٢٦٧
حرز الأماني، للشاطبي: ٩٥، ١٥٠،
١٨٨، ٢٣٨

حروف الممدود والمقصود، لابن
السكيت: ٥٠٧

الحضارة العربية، لجاك رسلير: ٥٠٠
حقائق التأويل، للشريف الرضي: ١٢٥

حجر: ٤٥٩، ٢٩٧، ٥١

الدروس النحوية، لمجموعة مؤلفين:
١٤٦

دستور ثابت بن قررة في آلات الساعات:
٣٢٨

دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني:
١٠٣، ١٦٣، ٢٧٣، ٣٤٧، ٣٥٣،
٣٧٩، ٤٢٠، ٤٣٥، ٤٤١، ٤٤٢،
٤٨١، ٤٨٢، ٥١٧، ٦٠٦، ٦١٧،
٦٣٦

دليل مؤرخ المغرب الأقصى، لابن سودة:
٣٩٦

الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى
عليها، لعبد العزيز الشناوي: ٣٢٣
الدين الخالص، للقنوجي: ٤٦٨
ديوان أحمد شوقي: ٥٥٤، ٥٥٥
ديوان الأدب، لأبي إبراهيم الفارابي:
٣٧٤

ديوان الأعشى: ٢١٥، ٥١٠

ديوان الأعشى والأعشين: ٥١٠

ديوان أغاني العاشق الأندلسي، لعبد
اللطيف: ٦٢٥

ديوان البحري: ٤٥٥

ديوان البستي: ١٣٤، ١٣٥

ديوان أبي تمام: ١٠٣

ديوان تميم بن المعز لدين الله: ١٧٤

٤١٤، ٤٢٧، ٤٦٨، ٥٣٧

الخصائص، لابن جني: ١٣٢، ١٣٩،
١٧٤، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٨٢، ٣٠٨

٣١٨، ٣٤٨، ٣٦٣، ٤٤١، ٤٥٦

الخصائص الكبرى، للسيوطي: ٢٥٢

الخط، لابن سراج: ١٠٧

خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر،
للمحبي: ٣٢٤

خلق الإنسان، لثابت بن أبي ثابت: ١١٠
دائرة المعارف الإسلامية التركية: ٢٤، ٦٥

الدامغ، لابن الراوندي: ٢٧٢
دراسات عربية وإسلامية، لفتحى رضوان:
٥٩٩

دراسات في الشعر العربي المعاصر: ١١٤
دراسة في مصادر الأدب، للطاهر أحمد
مكي: ٤٩٣ - ٥١٦

الدرّ الفاخر في سيرة الملك الناصر، لابن
أبيك: ٣٠٧

الدرّ الذي انسجم على لامية العجم،
للمرصفي: ١٢١

الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون،
للسمين الحلبي: ٤٠٦، ٥٥٦، ٥٨٩

الدرّ المنشور في التفسير بالمأثور،
للسيوطي: ٦٤٠، ٦٤٥، ٦٣٤

الدرّة (قراءات): ٢٣٨

درّة الغواص، للحريري: ٥٤٦، ٥٥٧

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن

ديوان كعب بن زهير: ١٧٤، ٢١٦،
٥٠٧، ٤٨٤

ديوان لقيط: ٥٩٦

ديوان المازني: ٢٢٤

ديوان المتنبي: ١١٢، ٣٨٨، ٣٨٩،
٦٢٨

ديوان محمود محمد شاعر: ٦١٦

ديوان المرقش: ٢٠٤

ديوان المرقشين: ٥٩٦

ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري:
٢٧، ٢٠٤، ٤٠٢

ديوان المعاني وشيء من الدراسة،
للطناحي: ٢٧

ديوان ابن مكناس: ١٠٣

ديوان من مقام المنسرح، لأبي همام عبد
اللطيف: ٢٥٣

ديوان مهيار الديلمي: ١٧٤

ديوان النابغة الذبياني: ٢١٦

ديوان نابغة بني شيبان: ١٧٤

ديوان الهذليين: ١٧٤، ٥١١

ديوان عبد اللطيف عبد الحليم: ٢٥٣

ديوان الوأواء الدمشقي: ١٢٠

ذاكرة العالم، (منظمة الأونسكو): ٤٧٦

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن
بسام: ٩٣، ٤٥٧، ٤٩٤، ٦٦٩

ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات، لأبي
عبد الرحمن السلمي: ٢٦، ٤٢٠

ديوان التهامي: ١٢٠

ديوان جرّان العود: ١٧٤

ديوان جرير: ١٠٣

ديوان الجعدي: ٢١٦، ٦٧٠

ديوان حارث بن حلزة: ٥٩٦

ديوان حجازي: ٢٠٩

ديوان حسان: ٣٥٣

ديوان حميد بن ثور: ١٧٤

ديوان أبي حيان النحوي: ٦٦٩

ديوان ذي الرمة: ٢١٥، ٢١٦

ديوان ابن الرومي: ١٧٥، ٥٤٤، ٤٥٥

ديوان زهير بن أبي سلمى: ١٧٤، ٢١٥،
٣٧٦

ديوان سبط ابن التعاويذي: ١٠٣

ديوان سحيم: ١٧٤

ديوان ابن سهل: ١٠٣

ديوان الطرمّاح: ٢١٦

ديوان طفيل الغنوي: ١٢٦

ديوان عامر بن الطفيل: ٦٧٠

ديوان عبد الكريم القيسي: ١٠٦

ديوان أبي العتاهية: ٣٤٩

ديوان عروة بن حزام: ٢١٦

ديوان العقاد: ٢٢٤

ديوان عمر بن أبي ربيعة: ٤٢٢

ديوان عنتر: ٢٣٢، ٢٣٣

ديوان أبي فراس: ٤٥٥

ديوان ابن قلاقس: ٥٦١

١٢٩ ، ٣١١ ، ٣٦٨ ، ٤٨٠ ، ٥٨٠ ،

٦٠٣ ، ٦٤٧ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٧٣

الرسالة الشافية، لعبد القاهر الجرجاني:

٢٧٣

رسالة الغفران، لأبي العلاء: ٤٠٠ ،

٦٢٥ ، ٦٧١ ، ٦٧٢

رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، لمحمود

شاكر: ٣٢٣ ، ٤٨٠ ، ٤٨٧ ، ٦٠٦ ،

٦٢٨ ، ٦٩٢

رسالة مدح الكتب، للجاحظ: ٣٢٩

الرسالة الهاشمية، للجاحظ: ٤٤٠

رسم المصحف العثماني، لعبد الفتاح

شلبى: ٥٠٤ ، ٥٨٣

رصف المباني، للمالقي: ٢٠٤

رغبة الآمل (شرح الكامل)، للمرصفي:

٣٤٩

روح المعاني، للآلوسي: ٢٢٢

الروض الأنف، للسهيلى: ٩٧

الروض المعطار في خبر الأقطار،

للحميري: ٢٩٨ ، ٣٠٢

ريحانة الألبا، للخفاجي: ٥٤٦

زاد المسير، لابن الجوزي: ٢٩٠ ، ٥٧٢

زاد المعاد، لابن قيم الجوزية: ٢٥٢

الزاهر، لابن الأنباري: ٢٥٢

الزاوية الدلائية ودورها، لمحمد حجي:

٩٩

الزهد والرقائق، لابن المبارك: ١٠٩

ذيل الأمالي والنوادر، لأبي علي القالي:

٣٣٤

ذيل الأعلام، لأحمد العلانة: ٥٩١ ،

٦٠٢

ذيل تاريخ بغداد، لابن النجار: ١٢١ ،

٤٥٧ ، ٥٩١

ذيل طبقات الحفاظ = فهرس الفهارس

والأثبتات

ذيل طبقات الحنابلة، لابن الجوزي: ٥٦٧

ذيل العقد الثمين، لابن فهد المكي: ٧٩

ذيول العبر: ٨٨

رابعة العدوية، لطاهر أبو فاشة: ٥٩٨

رافع الشقاق في مسألة الطلاق، للسبكي:

٤٨

رايات المبرزين، لابن سعد الأندلسي:

٥١٦

الرباعيات، لعمر الخيام: ٢٢٥

ربيع الأبرار: ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٩

رحلة ابن جبير: ٢٩٠ ، ٥٦٦

الرد على القاضي السمعاني للعبادي: ٥٤

الردة والفتوح، لسيف بن عمر التميمي:

٢٨

رسائل الجاحظ: ١٢٥ ، ٢٦١ ، ٥٢٥ ،

٥٣١

رسالة أبي داود لأهل مكة: ٣١٥

الرسالة، للزيات: ٣١٧

الرسالة، للشافعي: ٢٧ ، ٦٨ ، ٨٤ ،

زهرة الآداب، للحصري: ٤٥٧

زيادات الزيادات، لأبي عاصم العبادي:

٥٤

الزيادات، لأبي عاصم العبادي: ٥٤

ابن زيدون، (عصره وحياته وأدبه)، لعلي

عبد العظيم: ٩٣

السبعة (في القراءات)، لابن مجاهد:

٤٠٦، ٢٤٠

سبل الهدى والرشاد، للصالحى الشامي:

٣٥٧، ٢٥٢

سر صناعة الإعراب، لابن جني: ١٣٩،

٤٥٦

سرور النفس، للتيفاشي: ٤٥٧

سحر الغناء العربي، للنجمي: ٤٥٧

سفر السعادة، للسخاوي: ٥٥٧

السفينة، لابن مبارك شاه: ١٦٨

سقط الزند: ١٧٤، ٢٥٢، ٤٠٠، ٤٠١

سلسلة ذخائر العرب، دار المعارف بمصر:

١٣٣

السلوك، للمقرئزي: ٢٩٧

السماء والعالم (في اللغة)، للخمى: ١٠٩

سمط اللآلي، لعبد العزيز الميمني: ٩٧

سنن الترمذي: ٦٥، ٦٠٣، ٦٣٤، ٦٣٩

سنن أبي داود: ١٥٤، ٦٤٠

سنن ابن ماجه: ٤١٥

سؤالات الحافظ السلفي: ٣٠٠

سؤالات أبي عبد الرحمن السلمي: ٣٠٠

سؤالات أبي عبيد الآجري: ٣٠٠

سؤالات عثمان بن سعيد الدارمي:

٣٠٠

السياسة، للمرادي: ١١١

سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٦٤،

٢٢٩، ٢٥١، ٢٦٩، ٢٩٨، ٣٠٥،

٣٤٤، ٤١٢، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣،

٥٤٨، ٥٥٩، ٥٧٥، ٥٧٧، ٥٩٥،

٦١٩، ٦٣٩، ٦٧٧

السير في الأخبار، للفراري: ١٠٨

السير الكبير، للشيباني: ٤٣٩

سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي:

٢٩٩

سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن أبي

الحكم: ٢٩٩، ٣٠٦

السيرة النبوية، لابن إسحاق: ٩٧، ١٠٣،

١٠٩، ٥٥٩

السيرة النبوية، لابن هشام: ٣٠٤، ٦٤١،

٦٦٨

الشاطبية = حرز الأمانى

الشاعر، للمنفلوطي: ٣٥٠

الشافية (الكافية)، لابن الحاجب: ١٥٩،

٤٧١، ٥٥٦

شذرات الذهب، لابن العماد: ٦٠،

٢٩٧، ٣٢٩، ٦٩١

شذور الذهب، لابن هشام: ١٤٠، ١٤١،

٤٥٨، ٤٦٥

شرح الجمل في النحو، لابن الصائغ
الكناني: ١٠٣

شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي: ١٠٣،
١٧٣، ٢٠٤، ٣٤٩، ٤٢٦، ٤٨٩،

٥٢٣

شرح ديوان زهير، لثعلب: ٣٧٦

شرح ديوان أبي فراس، لابن خالويه:
٤٥٥

شرح ديوان كعب، للسكري: ٥٠٧

شرح ديوان عترة، لعبد الرؤوف شلبي:
٢٣٣

شرح ديوان عترة، لمحمد سعيد مولوي:
٢٣٣

شرح ديوان عترة، ليوسف بن سليمان
الشتمري: ٢٣٣

شرح ديوان المتنبي، لابن جني: ٣٨٩،
٤٥٥، ٣٩٠

شرح ديوان المتنبي، لأبي العلاء:
٣٠٦

شرح ديوان المتنبي، للواحيدي: ٣٨٨،
٣٨٩

شرح ديوان المتنبي، لليازجي: ٦٢٧

شرح السير الكبير للشيباني، لمحمود
شاكر: ٤٣٩

شرح شافية (كافية) ابن الحاجب،
للإستراباذي: ١٥٩، ٥٥٦

شرح الشواهد الكبرى، للعيني: ٤٦٩

شرح الأبيات المشككة الإعراب، للفارسي
= الشعر

شرح أبيات مغني اللبيب، لعبد القادر
البغدادى: ٣٠١

شرح أدب الكاتب، للجواليقي: ٢٥٢،
٤٦٤

شرح أرجوزة ابن سينا في الطب، لابن
رشد (الحفيد): ١١١

شرح أسرار البلاغة، لمحمود شاكر: ٤٣٥

شرح أشعار الهذليين: ٥١١

شرح الأصول الخمسة عند المعتزلة،
للقاضي عبد الجبار: ٧٦

شرح ألفية ابن مالك، للأشموني: ١٤١

شرح ألفية ابن مالك، للشاطبي: ١٦٥

شرح ألفية ابن مالك، لابن عقيل: ١٤١،
٤٦٥، ٦٨١، ٦٨٢

شرح ألفية ابن مالك، لابن هشام = أوضح
المسالك

شرح البرهان، للأنباري: ٩٨

شرح البرهان، للمازري: ٩٨

شرح تصريف المازني: ٢٠٣

شرح تلخيص المفتاح، للتفتازاني: ١٦٠،
٢١١

شرح دلائل الإعجاز، لمحمود شاكر:
٤٣٥

شرح دواوين الشعراء الستة الجاهليين:
١٠٣

شرح شواهد شرح التحفة الوردية، لعبد
القادر البغدادي: ٣٠١

شرح شواهد الإيضاح، لابن بري: ٢٨
شرح صحيح الترمذي = عارضة الأحوزي
شرح طبقات فحول الشعراء، لمحمود
شاكر: ٤٣٥

شرح علل الترمذي، لابن رجب: ١٨٢،
٣١٥

شرح غريب السيرة، للخشني: ٥٥٩
شرح فتح القدير، لابن الهمام: ١٦٧
شرح القصائد التسع، للأنباري: ٢٠٩
شرح القصائد التسع، للنحاس: ٢٠٩
شرح قصيدة بانث سعاد، لابن هشام:
٣٠١

شرح كافية ابن الحاجب = شرح شافية ابن
الحاجب

شرح الكامل، للبطليلوسي: ٥١٤
شرح الكامل، للوقشي = نكت الكامل
شرح كتاب أرسطو طاليس، للفارابي:
٣٢٩

شرح كتاب سيويه، للسيرافي: ١٦٥
شرح لامية الشنفرى، لثعلب: ٢١٦
شرح ما يقع فيه التصحيف، لأبي أحمد
العسكري: ٤٠٠، ٤٠٢، ٤٨٩
شرح ما يكتب بالياء من الأسماء، لابن
درستويه: ١٠٧

شرح مسائل حنين بن إسحاق: ١٠٤

شرح مقامات الحريري، للشريشي: ٩٧
شرح المفضليات، للأنباري: ٢٠٩،
٥٦٠، ٦٦٧

شرح منظومة السمنودي، لعامر عثمان:
٢٤٠

شرح نهج البلاغة، لابن أبي حديد:
٤١٩، ٥٥٧، ٥٥٨

شروح الأصمعي للشعر: ٤٥٢

شروح الأنباري للشعر: ٤٥٢

شروح تلخيص المفتاح: ١٦٠، ٢١١

شروح ثعلب للشعر: ٤٥٢

شروح سقط الزند، لأبي العلاء: ١٧٤،
٢٥٢

شروح السكري للشعر: ٤٥٢

شروح ابن السكيت للشعر: ٤٥٢

شروح أبي العباس الأحول للشعر: ٤٥٢

شروح أبي نصر الباهلي للشعر: ٤٥٢

شروط المؤرخ في كتابة التاريخ، لفؤاد
سيد: ٧٨

الشعر، لأبي علي الفارسي: ١٠، ١٦،
١٧، ٢٦، ١٣٩، ٣٧٥

الشعر، لمحمود شاكر: ٣٥٠

الشعر الجاهلي، لطه حسين: ٤١٠،
٤٣٤، ٥١٧

الشعر العربي الحديث وروح العصر:
١١٤

الشعر العربي المعاصر: ١١٥

الشعر والشعراء، لابن قتيبة: ٦٨

شعر بشر بن أبي خازم: ٣٣٠

شعر تميم بن أبي بن مقبل: ٣٣٠

شعر سلامة بن جندل: ٣٣١

شعر الطرماح بن حكيم: ٣٣٠

شعر الهذليين = ديوان الهذليين

الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي

عياض: ٩٤، ٢٥٢

شفاء السقام في زيارة خير الأنام، لابن

السبكي: ٤٨

شفاء الغليل فيما في كلام العرب من

الدخيل، للخفاجي: ٥٤٦

الشمائل، للترمذي: ٦٥

شن الغارة على من أنكر الزيارة، لابن

السبكي: ٤٨

الشوارد، لابن دريد: ١٦٩

شواهد شرح التحفة الوردية: ٣٠١

الشواهد الكبرى: ٤٦٩

شواهد النحو الشعرية، لحنا حداد: ٥٠١

الشوقيات: ١٧

الشيخ الشعراوي واللغة، للطناحي: ٥٦٥

الشيخ مصطفى إسماعيل، للنجمي:

١٨٧، ٥٤٧

الشيرازيات: ١٣٩

الصاهل والشاحج، لأبي العلاء المعري:

١٠٢، ٦٧٤

الصاحب في اللغة، لابن فارس: ٣٠٦

صبح الأعشى، للقلقشندي: ١٧٣

الصبح المنير في شعر أبي بصير = ديوان

الأعشى والأعشين

الصحاح، للجوهري: ١٤٣، ١٤٩،

١٧٩، ٣٦٧، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٤،

٣٩١، ٤٢٤، ٥٦٢، ٥٩٢، ٦٥٠

صحيح البخاري: ٢٢٩، ٢٣٧، ٣٣٧،

٣٣٩، ٣٥٦، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٥،

٤٤٩، ٤٦٢، ٤٨٢، ٥٠٦، ٥١٧،

٥٣٥، ٥٥٧، ٥٨٧، ٦٠٤، ٦٣٠،

٦٤٢

صحيح الترمذي: ٢٥٢، ٦٣٤

صحيح مسلم: ٦٥، ٣٠٤، ٣٣٩، ٤١٠،

٤١١، ٤٤٩، ٤٦٢، ٥٣٥، ٦٣٠،

٦٨٩

صدام الأصالة والمعاصرة، لنسيم مجلي:

٦٢٦

صفة الصفوة، لابن الجوزي: ٣٤١،

٤٥٧، ٥٤٨

الصلة في تاريخ علماء الأندلس، لابن

بشكوال: ١٠٩

الصناعتين، لأبي هلال العسكري:

١١٥، ٤٠٢، ٥٢٧

صناعة الشعر، للسيرافي: ٢٨

صوت الشاعر القديم، لأحمد حجازي:

٢٠٦، ٢١٤

ضحى الإسلام، لأحمد أمين: ٦٠٨

طبقات فقهاء اليمن، لابن سمره: ٧٨، ٣٢٩
طبقات القراء، لابن الجزري: ٦١، ٦٣
الطبقات الكبرى، لابن سعد: ٣٠٠، ٥٥٨
طبقات المعتزلة، لأحمد بن يحيى:
٦٧٠

طبقات المفسرين، للداودي: ٨٠
طبقات النحويين، لأبي بكر الزبيدي:
٩١، ٩٢، ٩٥، ١٠٣

الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، ليحيى
بن حمزة العلوي: ١٧٤، ٤٤٦
طوال الغرائب: ١٣، ١٤، ٢٦، ١٠٦
طية النشر، لابن الجزري: ١٨٨، ٢٣٨،
٢٤٠، ٤٠٦

عارضة الأحوزي بشرح صحيح الترمذي:
٢٥٢، ٦٣٤، ٦٣٩

العباب في اللغة، للصاغاني: ١٠٣، ١٠٤
عبث الوليد، للعمرى: ٥٩٦
العبرات، للمنفلوطي: ٣٥٠
العبر وديوان المبتدأ والخبر، لابن
خلدون: ٦٠، ٧٩، ١١١، ٢٢٩،
٢٩٧

العبر في خبر من عبر، للذهبي: ٥٦٦
عجالة المبتدي (في النسب)، لأبي بكر
الحازمي: ٢٩٨
العثمانية، للجاحظ: ٢٦١، ٥٢٥، ٥٣١
عربي بين ثقافتين، لزكي نجيب محمود:
١٤١

ضرورة الشعر، للسيرافي: ٥٠٧
الضفادع، لأرسطو فانيس: ٦٢٥
الضوء اللامع، للسخاوي: ٢٩٧، ٤٥٩
الطب النبوي، لابن قيم الجوزية: ٢٧
الطبقات، لعبد الله الجرجاني: ٥٤
الطبقات، لابن هداية الله: ٥٤
طبقات الأطباء، لابن جليل: ٧١، ٧٧،
٥٢٥

طبقات الحفاظ، للسيوطي: ١٠١
طبقات الحفاظ، لابن ناصر: ١٠١
طبقات الحنابلة، لابن رجب: ٥٦٧
طبقات الشافعية، للسبكي: ٢٥، ٤٨،
٥٤، ٥٥، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠،
٦١، ٦٣، ٩٨، ١٠٨، ١٢١،
١٦٧، ٢٩٢، ٣٥٧، ٥٦٥، ٦٩٣

طبقات الشعراء، لابن المعتز: ٢٣١
طبقات الصوفية، للسلمي: ٣٠٠، ٣٣٧
طبقات فحول الشعراء، لابن سلام:
١٢٩، ١٦٩، ٢٠١، ٢٤٨، ٣٧٥،
٤٢٣، ٤٣٥، ٤٥١، ٤٨٠ — ٤٨٧،
٤٩٠، ٤٩٤، ٤٩٩، ٥١٧، ٥٩٥،
٦٠٦، ٦١٧، ٦١٨، ٦٢٠، ٦٦٦،
٦٧٣

طبقات الفقهاء، للشيرازي: ٥٣، ٥٤،
٦١
طبقات الفقهاء الشافعية، للعبادي:
(٥٣ — ٦٤)

العربية، ليوهان فيك: ١٣٢

عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح،

لبهاء الدين السبكي: ١٦٠، ٢١١

العروض، لابن سراج: ١٠٧

عصفور من الشرق، لتوفيق الحكيم: ٢٦٠

العفو والاعتذار، لأبي الحسن العبدى:

١٦٤

العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين،

للفاسي: ٢٥، ٧٩

العقد الفريد، لابن عبد ربّه: ٨٨، ٢٦٠،

٤٢٧، ٤٩٤، ٥٥٩، ٦١٨

عقلاء المجانين، لابن الجوزي: ٢٩٩

علل الترمذي: ١٨٢، ٣١٥

علم معاني أسرار الحروف، لمحمود

شاكر: ٤٨٣

العَلَمُ الأعجمي في القرآن = من إعجاز

القرآن في أعجمي القرآن

عمدة التفسير، لمحمود شاكر: ٦٨، ٣٠٤

العمدة في محاسن الشعر، لابن رشيق:

٢٨٩، ٣٩٢، ٥٢٨

عناية القاضي وكفاية الراضي، للخفاجي:

٥٤٦

العواصم من القواصم، لابن عربي: ٥١٣

العين، للخليل بن أحمد: ١٥٨، ١٧٨،

٢٠٣، ٢٨٣، ٤٥٣، ٥٢٤، ٥٢٥،

٦٥١

العين، لليث بن المظفر: ٤٥٣

عيون الأخبار، لابن قتيبة: ١٧٤، ٣٤٨،

٤٢٧

عيون التواريخ، لابن شاكر الكتبي: ٨٨،

١٦٧

عينية ابن زريق: (١١٨ — ١٢٣)، ٣٢٠

غاية النهاية في اختصار طبقات القراء،

لابن الجزري: ٢٣٥

غرام الأدباء، لعباس خضر: ٦٠٠

غريب الحديث، لابن الجوزي: ١٠٨

غريب الحديث، للحربي: ٦١

غريب الحديث، للخطابي: ٦٠، ٦١،

٥٠٢

غريب الحديث، للقاسم بن سلام: ٢٧

غريب الحديث، لابن قتيبة: ١٠٠، ٢٥١

غريب القرآن، لابن قتيبة: ٣٢٩

الغريبين، لأبي عبيد الهروي: ٢٥، ٢٧

غضب مرتقب، لمجدي وهبة: ٦٢٨

الغفران (دراسة)، لعائشة عبد الرحمن:

٦٧١

الغناء العربي، للنجمي: ٥٤٧، ٥٩٩

الغيث المسجم، للصفدي: ٦٠٠

الفاقق في غريب الحديث، للزمخشري:

٢٥٢

الفاضل، للمبرد: ١٧٤، ٥١٥

فتح الباري شرح صحيح البخاري،

للعسقلاني: ١٩٤، ٢٣٧، ٤٣١،

٤٦٨

فضائل الشام، للسمعاني: ١٠٤
 فضائل القرآن، لأبي عبيد: ٦٣٢
 فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، للقاضي
 عبد الجبار: ٨٠، ٨١
 فضل العطاء، للعسكري: ٤٨١، ٦١٧
 الفضيلة، للمنفلوطي: ٣٥٠
 فقه اللغة، لعبد الواحد وافي: ٥٠٤
 الفلاكة والمفلوكون، للدلجي: ٣٠٠،
 ٤٧٢
 فن الأدب، لتوفيق الحكيم: ٥٧٩
 فن الخط، لمجموعة باحثين: ٣٣٤
 فهارس الأصول في النحو، للطناحي: ٢٧
 فهارس تهذيب اللغة، لعبد السلام
 هارون: ١٨٦
 فهارس غريب الحديث، للطناحي: ٢٧
 فهرس الأدب بدار الكتب المصرية: ١٢١
 فهرس الأشعار لـديوان المعاني،
 للطناحي: ٢٧
 فهرس خزانة جامع القرويين: ١١١، ١١٢
 فهرس العقد الفريد، لرشاد عبد المطلب:
 ٨٨
 فهرس الفهارس والأثبتات، لعبد الحي
 الكتاني: ١٠٠، ١٠١، ٣٩٤
 فهرس مخطوطات دار الكتب المصرية،
 لفؤاد سيد: ٧٤
 فهرس مخطوطات الطب الإسلامي،
 (مركز الأبحاث في تركيا): ٣٣٤

فتح القدير، للشوكاني: ٢٤٠، ٥٣٧
 الفتح القسي في الفتح المقدسي، للعماد
 الأصفهاني: ٤٧٢
 الفتح الوهبي، لابن جني = شرح ديوان
 المتنبي
 فتح الكريم في تحرير أوجه القرآن
 العظيم، لعامر عثمان: ٢٤٠
 الفتى مهران، لعبد الرحمن الشرقاوي:
 ٥٩٥
 الفتوحات المكية، لابن عربي: ٢١٠،
 ٤٣١
 فجر الإسلام، لأحمد أمين: ٦٠٨
 الفخري في الآداب السلطانية، لابن
 الطقطقي: ٦٤٩
 الفرق، لثابت بن أبي ثابت: ٢٨، ١١٠
 الفرق بين الحروف الخمسة، لابن السيد
 البطليوسي: ١١١
 الفروق، للقرافي: ١٦٧
 الفروق اللغوية، للعسكري: ٥٥٧
 فصل المقال في شرح كتاب الأمثال،
 للبكري: ٩٧
 الفصول الخمسون، لابن معطي: ٢٢،
 ٢٥، ١٩٩، ٣١٨
 الفصول والغايات، لأبي العلاء: ٥٥٩
 الفصيح، لثعلب: ٣٧٦
 فضائح الباطنية، لأبي حامد الغزالي:
 ٣٠٦

القراءات السبعة، لابن مجاهد: ٥٥٦
 القراءات الشاذة، لعبد الفتاح القاضي:
 ٥٩٩، ٢٢١
 القراءات في نظر المستشرقين، لعبد الفتاح
 القاضي: ٥٨٣، ٥٠٤
 القرط على كامل المبرد، لابن سعد
 الأنصاري: ٥١٤
 قرية ظالمة، لمحمد كامل حسين: ٣٥١
 قصائد هذيل: ١٦٩
 القصص والمذكرين، لابن الجوزي:
 ٥٦٧
 قصة الحضارة، لول ديورانت: ٢٢٧
 قصيدة ابن الزبعرى: ٤٨٦
 قصيدة بانث سعاد، لكعب بن زهير: ٣٠١
 القصيدة الهمزية، لأحمد شوقي: ٥٥٤
 قضايا الحداثة، لمحمد عبد المطلب:
 ٤٤٢
 قطر الندى، لابن هشام: ١٤١، ٣١٨،
 ٤٥٨
 القلم، لابن سراج: ١٠٧
 قل ولا تقل، لمصطفى جواد: ٢٠٠،
 ٢٠١
 القواطع على البرهان، للسمعاني: ٩٨
 قواعد التحديث، للقاسمي: ٥٦٩
 قواعد الشعر، لثعلب: ٢١٦
 القوافي، لأبي القاسم الطيب: ١٠٧
 القوس العذراء، لمحمود شاكراً: ٦٠٣

فهرس مخطوطات مكتبة كوبرلي، (مركز
 الأبحاث في تركيا): ٣٣٤
 فهرس مخطوطات مصطلح الحديث،
 لفؤاد سيد: ٧٤
 فهرس مؤلفات العرب في الطب
 والصيدلة، لرشاد عبد المطلب: ٨٩
 الفهرس العام لمعهد المخطوطات، لفؤاد
 سيد: ٧٤، ٧٥
 الفهرس الوصفى لبعض نوادر
 المخطوطات، للطناحي: ٢٨
 الفهرست، لابن خير الإشيلي: ٨٨،
 ٢٩٩، ٩٣
 الفهرست، لابن النديم: ٨٨، ٢٩٥،
 ٤٩٤، ٦٦١
 فوات الوفيات، لابن شاکر الکتبی: ٨٨،
 ٢٩٨، ٦٦٩
 في الأدب المقارن، لفخري أبو السعود:
 ٥٩٧
 قائمة لنواد المخطوطات العربية بفاس:
 ١٠٦
 قاموس البلاد المصرية، لأحمد رامي:
 ٥٩٦
 القاموس المحيط، للفيروزآبادي: ٥٦،
 ١٨١، ٢٠٥، ٢١٢، ٣٠١، ٣٦٧،
 ٣٧٧، ٥٨٠، ٥٨٢، ٦٤٨، ٦٥٠
 القانون في الطب، لابن سينا: ١٥٩،
 ٣٨٥، ٤٧١

٦٢٥، ٦١٧، ٦١٦

الكافي، للزبير بن أحمد: ٦١

الكافي في الكحل، لابن أبي المحاسن:
٣٨٢

الكافية لابن الحاجب = الشافية

الكافية في الجدل، للجويني: ٦٦٩

الكامل، لابن الأثير: ٥٣، ١٠٦، ٢٩٧

الكامل، للمبرد: ١٠٠، ١٠٢، ٢٦٠،

٢٦١، ٣٤٩، ٣٩٥، ٤١٤، ٤٢١،

٤٢٤، ٤٢٨، ٤٥٤، ٤٩٤، ٥٠٦،

٥١٤، ٥١٥، ٥٢٣، ٥٢٨، ٦٦٧

الكتاب (في الكتابة والخط والإملاء)،

لابن درستويه: ١٠٧

الكتاب، لسيويه: ٩٥، ١٣٦، ١٦٠،

١٦٥، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢١٠، ٢١٧،

٢٢٠، ٣٩١، ٤٣٥، ٤٣٨، ٤٤٥،

٤٥١، ٤٨٧، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥١٧،

٥٢٤، ٥٥٦، ٦٠٤، ٦١٨، ٦٦٧،

٧٠٣

الكتاب العربي المطبوع، لمحمد قطة

العدوي: ١٩، ٥٤٢

كتاب الهلال: ١٢، ٥١٥

كشاف اصطلاحات الفنون، للتهانوي:

٣٧٥

الكشاف، للزمخشري: ٢٢٢، ٤٤٨،

٥٨٢

كشف الظنون، لحاجي خليفة: ٥٣، ٨٨،

٩٥، ٩٧، ٢٩٥، ٣٣٠، ٣٣١، ٥٩٦،

٦٦٧، ٦٦١

الكشف عن وجوه القراءات السبع،
لمكي: ٤٠٦

الكشف والبيان في تفسير القرآن، لأبي
إسحاق الثعلبي: ١٦٦

الكشكول، للعاملبي: ١٢٠، ١٢١،

٢٦٢، ٣٠٠، ٤٠٩

كلمة الحق، لأحمد محمد شاكر: ٦٧

الكلديات، للكفوي: ١٥٩، ٣٧٤، ٤٨٥،

٤٨٦

كليلة ودمنة، لابن المقفع: ١٠٤، ٦٧٤

كنز الفوائد في تنويع الموائد، لمجهول:

٦٧٠

الكوكب الدري في تخريج الفروع،

للإسنوي: ٤٣٩

كيف يتلى القرآن، لعامر عثمان: ٢٤٠

اللآلي في شرح الأمالي، لأبي عبيد

البكري: ٩٧

اللآلي المصنوعة في الأحاديث

الموضوعة، للسيوطي: ٢٥٣

اللامع العزيزي، لأبي العلاء المعري =

شرح ديوان المتنبي

لامية الشنفرئ: ٢١٦

لباب الأدب، لابن منقذ: ٦٠٣

اللباب في تهذيب الأنساب، لابن الأثير:

٥٦، ٥٩، ٦٠، ٦٣، ٢٩٨، ٣٠٤

مباحث لغوية في العراق، لمصطفى
جواد: ٢٠٠

المبسوط، للسرخسي: ٤٣٩
المبهج في تفسير أسماء شعراء الحماسة،
لابن جني: ٢٩٨
المبين في شرح ألفاظ الحكماء، للآمدي:
٣٧٥

متن زاد المستقنع (في الفقه): ١٤٤
متن أبي شجاع (في الفقه): ١٤٤
متن العشماوية (في الفقه): ١٤٤
متن نور الإيضاح (في الفقه): ١٤٤
المتنبي (دراسة) لطله حسين: ١١، ٢٧،
٥١٧، ٤٣٤

المتنبي (دراسة) لمحمود شاكر: ١١،
٦٢٧، ٢٦٧، ٣٥٠، ٥١٧، ٦١٦، ٦٢٧
المثلث في اللغة، لابن السيد البطليوسي:
١١١

المثل السائر، لابن الأثير: ١٠٦، ٣٥٣.
المثنوي، لجلال الدين الرومي: ٣٢٦
المجازات النبوية، للشريف الرضي: ٣٥٩
مجاز القرآن، لأبي عبيدة: ٤٥١، ٦٣٨
المجالس، لثعلب: ٢٠٩، ٣٤٩، ٣٧٦،
٥٧٦، ٤٣٨
مجالس العلماء، للزجاجي: ٢٢٨،
٤٣٩، ٤٥١
مجد الدين ابن الأثير وجهوده، للطناحي:
٢٧، ٢٤

لب الباب في تحرير الأنساب،
للسيوطي: ٢٩٨

لبنان الشاعر، لصلاح لبكي: ٢٢٠
لحن العامة، لأبي بكر الزبيدي: ٢٠٠
اللزوميات، لأبي العلاء المعري: ٦٨٢،
٧٠٠

لسان العرب، لابن منظور: ٧٩، ١٦٢،
١٧٧ — ١٨٦، ٢٦٠، ٣٠٤، ٣٦٨،
٣٧٣، ٣٧٦، ٣٧٨، ٤٣١، ٤٦٠،
٥١١، ٥١٢، ٥٢٠، ٥٣٧، ٥٣٩،
٥٥٦، ٥٦١، ٥٦٢، ٦٠٤، ٦٥٠
لسان العرب (دراسة)، للطناحي: ٣٧١
لطائف الإشارات، للقسطلاني: ١٦٦،
٢٣٧، ٢٤٠

لطائف الظرفاء، للثعالبي: ٣٤٧، ٤٠٩
لطائف المعارف، للثعالبي: ٢٩٩، ٥٩٧
لغة الجرائد، لليازجي: ١٩٩، ٢٠١
لغويات، لمحمد علي النجار: ٢٠٠
لكي لا تحرثوا البحر، لخالد محمد خالد:
٥٩٧

اللمع، لابن جني: ١٣٩، ٣١٨، ٣١٩
لمح الأدلة، للجويني: ٦٦٩
لويس عوض ومعاركه، لنسيم مجلى:
٦١٠
المأثور عن أبي العمىل الأعرابي: ٣٢٨
ماجدولين، للمفلوطي: ٣٥٠
ما ينصرف وما لا ينصرف، للزجاج: ٦٦٩

المجمل، لابن فارس: ٤٩٠

المجمل في الأدب العربي، لعلي

الجارم: ٦٤٨

مجمع الأمثال، للميداني: ٤١٢

مجمع الزوائد، للهيتمي: ٢٥٢، ٣٣٦،

٥٥٨

مجموع أمهات المتون: ١٤٣

المجموع، للنووي: ١٦٧

مجموع في النحو: ١٠٧

مجموع في النحو واللغة: ١١١

مجموع فيه تأليف لتاج الدين السبكي:

١٠٨

المجموع المحيط بالتكليف، للقاضي عبد

الجبار: ٧٦

مجموعة شعرية: ٣٣٠

المجموعة النبهاية: ٢٤٩، ٢٥٢

مجموعة النظم والنثر، لعبد الله فكري:

١٤٦، ٢٦٧

محاسن الاصطلاح، للبلقيني: ٦٧٥

محاسن المساعي في مناقب الأوزاعي،

لمجهول: ٢٩٩

محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني:

٣٠٠، ٥٨٢

محاضرة الأبرار، لابن عربي: ١٣٥

المحبر، لابن رجب: ٢٩٩

محمد عبد الوهاب (دراسة)، للنجمي:

٥٤٦، ٥٤٧

المحتسب، لابن جني: ١٣٩، ١٩١،

٢٢١، ٤٥١، ٥٨٢

المحدث الفاضل، للرامهرمزي: ٥٠٩

المحرر الوجيز، لابن عطية: ٦٣٣، ٦٤٣،

المحكم في اللغة، لابن سيده: ١٥٠،

١٧٩، ٣٧٠، ٥٦٢، ٦٧٥

المحكم في نطق المصحف، لأبي عمرو

الداني: ٥٨٦

المحلّى، لابن حزم: ٦٨

محمود محمد شاعر، دراسة: ٦٨٣

محمود محمد الطناحي، لمحمد محمود

الطناحي: ٩

مختار الأغاني، لابن منظور: ١٦٢،

٢٣١، ٣٠٤، ٤٥٧، ٥٩٦

مختار الصحاح، لأبي بكر الرازي:

٢٨٨، ٣٧٣، ٣٧٤

المختارات، للبارودي: ٢٠٩، ٣٤٩

مختصر تفسير أبي زكريا التميمي، لابن

زمنين: ١١٠

مختصر تفسير الطبري لأبي يحيى

التجيبى: ٣٠٤

مختصر تفسير ابن كثير = عمدة التفاسير

مختصر تاريخ بغداد، لابن منظور: ٤٥٧

مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: ٨٠،

٣٠٤، ٤٥٧

مختصر الحيوان، لابن منظور: ٤٥٧

مختصر الذخيرة، لابن منظور: ٤٥٧

مداخل إعجاز القرآن، لمحمود شاکر:
٣٥٠

المدارس النحوية، لشوقي ضيف: ٤٥٩،
٤٦٠

مدح الكتب، للجاحظ: ٣٣١
مدخل إلى تاريخ نشر التراث، للطناحي:
١٢، ١٣، ١٤، ٢٦، ٩٨، ٦٧٢

المدخل إلى تقويم اللسان، لابن هشام
اللخمي: ٢٠٠

المدخل إلى علم الأخلاق، لنيقولاوش:
١١١

مدخل قاموس القرآن الكريم، لمجموعة
علماء: ٢٤

مدينة بلا قلب، للحجازي: ٢٠٩
مذاهب التفسير الإسلامي، لجولدزيهر:
٥٨٣، ٥٠٤

المذكر والمؤنث، للأنباري: ١٧٥
المذكر والمؤنث، للسجستاني: ٣٢٩
المذكر والمؤنث، للمبرد: ١٧٥، ٥١٣
المذكر والمؤنث، للمفضل بن
سلمة: ١٠٧

المذهب في ذكر شيوخ المذهب
الشافعي، لأبي حفص المطوعي:
٥٠٤

مرآة الجنان: ٦١
المرشد إلى فهم أشعار العرب، لعبد الله
الطيب: ٢١٠، ٢٥٣

مختصر ذيل تاريخ بغداد، لابن منظور:
٤٥٧

مختصر زهر الآداب، لابن منظور: ٤٥٧
مختصر الزهري في فقه المالكية: ١٠٩
مختصر سرور النفس، لابن منظور: ٤٥٧
مختصر شرح مسائل حنين بن إسحاق،
لمجهول: ١٠٤

مختصر صحيح مسلم، للمنزدي: ٣٠٤
مختصر صفة الصفوة، لابن منظور: ٤٥٧
مختصر العين، لأبي بكر الزبيدي: ٩٣
مختصر في فك دوائر العروض، ١٠٧
مختصر فيه مولد الشافعي وجماعة، لأبي
الطيب الطبري: ٥٤

مختصر مفردات ابن البيطار، لابن
منظور: ٤٥٧

مختصر يتيمة الدهر، لابن منظور: ٤٥٧
المختصر في أخبار البشر، لأبي الفداء:
٢٩٧

مختلف القبائل ومؤلفها، لابن حبيب:
٢٩٨

مثير الغرام الساكن: ٥٩٦
المخصص، لابن سيده: ١١٠، ١٥٠،
١٧٣، ٣٧٤، ٥٣٩، ٦٥٠

المخطوطات العربية في الأناضول،
لأحمد آتش: ٣٢٦

المخلاة، للعالملي: ٢٦٢، ٣٠٠
المدائح النبوية، لمحمود مكي: ٢٤٩

- المرشد الوجيز، لأبي شامة المقدسي:
٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤٢
- مروج الذهب، للمسعودي: ٢٦٠،
٢٩٦، ٢٩٩، ٤٤٠، ٥٢٧، ٥٢٨
- المزهر: للسيوطي: ٢٦٨، ٣٠١، ٣٣٦،
٥٧٥
- مسالك الأبصار، لابن فضل الله العمري:
١٧٤، ٦٧٠
- مستقبل الثقافة العربية، لحسن كامل
الصيرفي: ١٤
- المستحيل والقيمة، لبدر الديب: ٢٦٦
- المستدرك، للحاكم: ١٥٤، ٣٠٠
- مسند الإمام أحمد: ٦٧، ٤١١، ٥٥٨،
٦٠٣، ٦٣٤
- المستطرف من كل فن مستظرف،
للإبشي: ٣٠٠
- المشتبه في الأسماء والأنساب، للذهبي:
٥٦، ٥٩، ٢٩٨
- مشتبه النسبة، لعبد الغني الأزدي: ١١٠
- المشروع الروي، في تفسير ما استعمل
على حديث السيرة واحتوى، لأبي
القاسم السهيلي: ٩٧
- المصاحب، لابن أبي داود: ٥٠٤، ٥٨٣
- مصادر الشعر الجاهلي، لناصر الدين
الأسد: ٢٩٥، ٥١١
- المصباح المضيء في خلافة المستضيء:
٢٩٩، ٣٠٧
- المصباح المنير، للفيومي: ٦٠، ١٠٤،
١٤٥، ١٨٣، ٣٧٤، ٥٨٠، ٦٥٠
- المصنف، لعبد الرزاق: ٤١٥
- المصون، لأبي أحمد العسكري: ٢١٥
- المعارف، لابن قتيبة: ١٧٤، ٢٩٩، ٦٦٨
- معالم السنن، للخطابي: ٦٧
- معاني الشعر، لخلف الأحمر: ٢٣١
- معاني القرآن، للأخفش: ٤٥١، ٦٦٩
- معاني القرآن، للزجاج: ٤٠٥، ٤٥١،
٦٣٩
- معاني القرآن، للفراء: ١٢٢، ١٧٤، ٤٥١
- معجم الأدباء، لياقوت الحموي: ٧٢،
٨٨، ٩٢، ٣٩١، ٤١٩، ٤٣٨،
٤٣٩، ٥٠٠
- معجم أكسفورد: ٣٦٨
- معجم الألفاظ المفسرة في الأغاني،
لحسن محسن: ٥١٥
- معجم البلدان، لياقوت الحموي: ٥٦،
٦٣، ٨٨، ١٢١، ١٨١، ٢٩٨،
٣٠٢، ٤٢٦، ٦٦٨
- معجم الشعراء، للمرزباني: ٣٩١
- معجم لاروس: ٣٦٨
- معجم ما استعجم، للبكري: ١٨١،
١٨٥، ٢٩٨، ٣٠٢، ٤٨٦، ٦٦٨
- معجم المطبوعات العربية، لسركيس:
٢٩٥، ٤٣٠
- معجم المؤلفين، لعمر كحالة: ١١٩

مفاتيح العلوم، للخوارزمي: ٣٧٤
مفتاح السعادة، لطاش كبري زاده: ٨٨،
٢٩٥

مفتاح العلوم، للسكاكي: ١٩٧
مفردات ألفاظ القرآن الكريم،
للأصبهاني: ٢١٢

مفردات ابن البيطار: ٤٥٧
المفصل في الأدب العربي، لعلي الجارم
ومجموعة: ٦٤٨

المفضليات: ٦٨، ٢٠١، ١٦٩، ٢٠٩،
٢٦٢، ٣٧٦، ٥٦٠

مقاتل الطالبين، للأصبهاني: ٥١٥، ٦١٨
مقالات الإسلاميين، لأبي الحسن
الأشعري: ٢٧٢

مقالة في الأدوية المضمونة المجربة،
لجالينوس: ١٠٨

مقامات الحريري: ٩٦، ٩٧

المقاييس، للتوحيدي: ٥٠٩، ٥١٠
مقاييس اللغة، لابن فارس: ٢٠١، ٢٠٤،

٢٠٨، ٢٨٢، ٣٧٢، ٣٧٦، ٤٩٠

المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، لابن
حيان: ١٠٤

المقتضب، للمبرد: ٤٢١، ٥٠٦، ٥٥٦

مقدمة الإمام علي في النحو: ٢٩٥

المقدمة الجزرية في التجويد: ١٨٨

مقدمة ابن خلدون: ٢٠٤، ٢١٠، ٤٤٢،

٤٥٩، ٥٢٨

المعجم العربي، لحسين نصار: ٣٦٧
المعجم العربي، لرياض زكي قاسم:
٣٦٧، ٣٧٢، ٣٧٣

المعجم الكبير، للطبراني: ٥٥٨
المعجم الكبير، (مجمع اللغة العربية):
٥١٥، ٦٥٠

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، لفؤاد
عبد الباقي: ١٧٤، ٦٦٧
المعجم الوجيز، (مجمع اللغة العربية):
٣٧٣

المعجم الوسيط، (مجمع اللغة العربية):
٢٠٥، ٣٧٣

المعرب، للجواليقي: ٦٨، ١٧٤، ٦٠٣
معرفة علوم الحديث، للحاكم: ١٧٥

معرفة القراء الكبار، للذهبي: ٢٣٥، ٤٠٤

المعسول، لمختار السوسي: ١٠٥

المعلقات السبع: ٨٠، ٨١

معلقة زهير: ٤٩١

المعمرين، للسجستاني: ٤٢٣

معيد النعم ومبيد النقم، لابن السبكي: ٤٩

المغرب في حلى المغرب، لابن سعيد:

٣٤٩، ٦٦٩

مغني اللبيب، لابن هشام: ٢٠١، ٣٠١،

٤٤٧، ٤٥٨

المغني، لابن قدامة: ١٦٧، ٦٤١

المغني، لعبد الجبار: ٧٦، ١٦٤، ٤٨٢،

٤٨٣

مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث:
١٧٥، ٦٧٤

المقرب، لابن عصفور: ٥٩٦
المقصود والممدود، لابن ولاد: ١٠٧،
٣٢٩

المكاثرة عند المذاكرة، للطيالسي: ٤٧٢
المكافأة وحسن العقبي، لابن الداية:
٤٨١، ٦٤٩، ٦١٧

الملوك وأخبار الماضين، لعبيد بن شرية:
٢٩٤

ملحة الإعراب، للحيري: ٩٦
الملل والنحل، للشهرستاني: ٥٠٠
الملوكي في التصريف، لابن جني:
١٣٩، ٣١٩

المنازل والديار، لابن منقذ: ١٢٠
مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي:
٢٩٩، ٣٠٦، ٥٩٣

مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه،
للذهبي: ٢٩٩، ٣٠٦

مناقب الإمام الشافعي، لليهقي: ٢٦٠،
٢٩٩، ٣٠٦

منال الطالب في شرح طوال الغرائب،
لابن الأثير: ١٣، ١٩، ٢٦، ١٠٦،
٢٥٢

مناهل العرفان، للزرقاني: ٥٨٥
من اسمه عمرو من الشعراء، لابن جراح:
٥١٢

من إعجاز القرآن، لمحمود أبو سعدة:
٢٧، (٢٧٠ - ٢٧٩)، ٣٥٨، ٦٩٢

من الأنماط التحويلية في النحو العربي،
لمحمد حماسة: ٤٤٥

منح المدح، لليعمري: ٢٤٩، ٢٥٢
المنتخب من أدب العرب،
للسكندري: ١٤٦، ٢٦٧

المنتخب من غريب كلام العرب،
للهنائي: ٥٠٧

المنتخب من كتاب أزواج النبي ﷺ،
للزبير بن بكار: ٦٧٠

المنتخب من مسند عبد بن حميد،
لمجهول: ١٠٤

المنتظم، لابن الجوزي: ٢٩٠
متهى الطلب من أشعار العرب، لمحمد

ابن المبارك: ١٦٩
المثور، للمزني: ٥٦

المنصف، لابن جني: ١٣٩
منظومة في علم الطب، لابن طفيل: ١١١

المنقذ من الضلال، للغزالي: ٥٩٩
المنقوص والممدود، للفراء: ٥١٣

المنمق، لابن حبيب: ٢٩٩
منهاج السنة النبوية، لابن تيمية: ١٠٢، ٤٣١

المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ
الإسلامي، لعبد العظيم الديب: ٢٢٨

المنهل الصافي، لابن تغري بردي: ١٧٤
من هنا نبدأ، لخالد محمد خالد: ٥٩٧

مؤلفات ابن سينا وشروحها، لفؤاد سيد:

٧٤

ميزان الاعتدال، للذهبي: ١٠٨، ٥٠٦

النبات: ٣٠٢

نبذة في تاريخ الطب العربي، للطناحي:

٢٧

النجوم الزاهرة، لابن تغري بردي: ٧١،

١١٩، ١٧٣، ٢٩٧

نجوم الفرقان، لفلوجل: ٦٦٧

النحو، للعدة الأصبهاني: ١٠٧

النحو الشافي: ١٤١

النحو الصافي: ١٤١

النحو الكافي: ١٤١

النحو الواضح، لعلي الجارم،

ومجموعة: ٦٤٨

النحو الوافي، لعباس حسن: ١٤١، ٤٤٥

النحو والدلالة، لمحمد حماسة، ٤٤٠

نزهة المشتاق، للإدريسي: ٨٠، ٨١،

٦٧٠

نشأة الشعر العربي، لمارجليوث: ٤٨٠

النشر، لابن الجزري: ٢٢٢، ٤٠٦

نشوار المحاضرة، للتنوخي: ٤٥٧

نظام الطلاق في الإسلام، لأحمد شاعر:

٦٧

النظريات السياسية الإسلامية، لضياء

الدين الرئيس: ٦٢٣

نظم الدرر، للبقاعي: ١٦٠

منية النفس في أشعار عترة = ديوان عترة

المهذب، للشيرازي: ١٦٧

المهذب في الكحل، لابن النفيس: ٣٨٢

الموافقات، للشاطبي: ١٦٥

المواقف، لعضد الدين الإيجي: ٤٣٥،

٤٨٠، ٤٨٢، ٥١٧، ٦٠٤

الموالي، للجاحظ: ١١٠

مواهب الفتح شرح تلخيص المفتاح،

لابن يعقوب المغربي: ١٦٠، ٢١١

المواهب الفتحة، لحمزة فتح الله: ٣٤٩

الموجة الجديدة، للنجمي: ٥٤٧

الموجز في مراجع التراجم والبلدان،

للطناحي: ١٦، ٢٦، ٢٩٧، ٣٧٥،

٥٩٧

الموجز في النحو، لابن سراج: ١٠٧،

١٣٩، ٣١٨

الموسوعة الإسلامية التركية = دائرة

المعارف الإسلامية التركية

موسوعة صبح الأعشى، للقلقشندي: ١٧٣

موسوعة عصر التنوير، (دار الهلال):

٢٧، ٣٥٠

الموسيقى، للفارابي: ١٧٥

الموطأ، للإمام مالك: ٩١، ٢٩٣،

٣٢٩، ٤٢٢

الموقفي في النحو، لابن كيسان: ١٠٧

المؤتلف والمختلف، لابن سعيد

الأزدي: ١١٠

نظم القرآن، للجاحظ: ٢٧٣

نفع الطيب، للمقري: ١٠٤، ٢١٠،

٢٩٦، ٤٣١، ٤٩٤، ٥٠١، ٦٦٩

نفوذ السهم فيما وقع فيه الجوهري من

الوهم، للصفيدي: ٣٦٧

نقائض جرير والفرزدق: ١٦٩، ٦٦٧

نقد النثر = البرهان في وجوه البيان

نقض القرآن، للمعري: ٥٠٠، ٥٠٩

النكت في إعجاز القرآن، للرماني: ٢٧٣،

٣٤٦

نكت الكامل، لأبي الوليد القشبي: ٥١٤

نكت الهميان، للصفيدي: ٦١، ١٥٠، ١٧٢

نمط صعب ونمط مخيف، لمحمود

شاكراً: ٤٩٠

نهاية الأرب، للنويري: ٧١، ١٧٣،

٣٣٤، ٤٦٠

النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير:

١٩، ٢٥، ٥٣، ٦١، ١٠٦، ١٧٩،

٣٧٠، ٣٧١، ٤١٢، ٥٥٧، ٥٦٢،

٥٧٩، ٦٣٢

نهاية القول المفيد، لمحمد مكّي نصر:

٢٣٦

نهج البردة، لأحمد شوقي: ٥٥٤

نهج البردة، للبوصيري: ٥٥٤

نهج البلاغة: ٤١٩، ٥٥٧، ٥٥٨

النوادر، لأبي زيد الأنصاري: ٣٨٩،

٤٨٨

نوادير المخطوطات، لعبد السلام هارون:

٥١٢

النوادر والزيادات، لابن أبي زيد

القيرواني: ١٠٩

نيل الأوطار، للشوكاني: ٥٣٧

الهادي إلى مذهب العلماء، للعبادي:

٥٤، ٦٠

الهاشمية = تفضيل صنعة الكلام

هدي الساري، لابن حجر العسقلاني:

٣٠١

الهفوات النادرة، للصائبي: ٤١٥، ٤١٦

الهمزية، لشوقي: ٥٥٤

همسة حائرة، لعزير باشا أباطة: ٤٢٨

الوافي بالوفيات، للصفيدي: ١١٩،

١٢١، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠١، ٣٠٥،

٦٦٩، ٦٧٠

وجوه القرآن، لإسماعيل بن أحمد: ٦٧٠

الوساطة للجرجاني: ٥٣

الوحشيات، لأبي تمام: ٦١٧

الوسيط في الأمثال، للواحدى: ١٠٦

الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، لأحمد بن

أمين الشنقيطي: ٧٨

الوسيلة الأدبية، لحسين المرصفي: ٣٤٩

الوفا بأحوال المصطفى، لابن الجوزي:

٢٥٢

وفيات الأعيان، لابن خلكان: ٦١،

١١٩، ١٢١، ٢١٠، ٢٢٣، ٢٩٦،

مجلة الثقافة، مصر: ١٢، ٢٤، ٨٣،
٢٦٧، ١١٧، ٩٠
مجلة الجيل: ٦٠٨، ٦٢٣
مجلة الجيل الجديد: ٥٤٣
مجلة دعوة الحق، المغرب: ٢٤، ٩٠،
١٠٥
مجلة الرسالة: ٢٤، ٤٧، ٢٦٧، ٥٥٥،
٦١٠، ٦٠٠
مجلة الشعر: ٢٤
مجلة الضياء: ١٩٩
مجلة عالم الغد العراقية: ٢٠٠
مجلة عالم الفكر: ٦٩١
مجلة العربي: ٢٤، ٣٨٧، ٤٦٧، ٤٧٥،
٥٣٢، ٥٧٩، ٥٨٣، ٦٦٧، ٦٩١
مجلة فن تحقيق التراث: ١٢٤
مجلة كتاب الأمة: ٢٢٨
مجلة الكتاب العربي: ٢٤، ٤٧، ٥٣،
٣٨٥، ٦١٧
مجلة كلية اللغة بمكة المكرمة: ٢٤
مجلة الكواكب: ٥٤٨
مجلة المجلة: ٢٤، ٧٠
مجلة مجمع اللغة في الأردن: ٣٩٤
مجلة مجمع اللغة في بغداد: ٣٩٤
مجلة مجمع اللغة في دمشق: ٢٤، ٥٧،
٢٨، ٣٩٤
مجلة مجمع اللغة في القاهرة: ٢٤، ٢٨،
٣٩٤

٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠٥، ٤١٩، ٤٢١،
٤٢٧، ٤٣١، ٥٢٨، ٦١٨، ٦٦٩
يتيمة الدهر، للشعالبي: ٩٣، ١٢٠،
٤٥٧، ١٢١
(ب) فهرس الدوريات:
جريدة الأساس، مصر: ٦١١
جريدة الأهالي، مصر: ٦١٠، ٦٢٥
جريدة الأهرام، مصر: ١٠٢، ١٣٧،
١٤١، ١٤٧، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٤،
٢٢٠، ٢٢٣، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١،
٤٠٣، ٤٠٧، ٤٢٩، ٤٣٤، ٤٣٧،
٤٦٢، ٤٦٤، ٤٦٥، ٥٢٠، ٥٣٧،
٥٤٠، ٥٥٠، ٥٦٨ — ٥٧٠، ٥٧٦،
٦٢١، ٦٢٥، ٦٩٧، ٦٩٩
جريدة الجمهورية، مصر: ٣١٨، ٥٧٠
جريدة الثورة السورية: ١١٥
جريدة الدستور، مصر: ٦٠٩
جريدة العلم المغربية: ١١٥
جريدة المنار: ٦٦
جريدة الوطن: ٥١٧
صحيفة المدينة المنورة: ١٣١، ١٤٤
مجلة أخبار الأدب: ٢٦٥، ٢٨٤
مجلة الأزهر: ٢٠٠
مجلة إيزيس: ٤٩٤
مجلة البلاغ: ٢٦٧
مجلة البيان، لندن: ٦٦٠
مجلة تطوان: ٩٩

مجلة المختار: ٤٨٣

مجلة المصور: ٥٦٩، ٥٤٨، ٣٦٥ —
٥٧٣

مجلة معهد المخطوطات العربية: ٢٧،

٢٨، ٧٨، ٩٣، ٩٤، ١٠١، ١١٢،

١٣٥، ٣٢٦، ٣٩٣، ٣٩٦

مجلة المقتطف: ٢٦٧، ٤٨٣،

٦٢٧

مجلة المورد العراقية: ٣٩٤

مجلة الهدي النبوي: ٦٧

مجلة الهلال: ١٤، ١٧، ٢٤، ٢٨،

١٣٦، ١٤٧، ١٥٨، ١٧٠، ١٧٧،

١٨٧، ١٩٦، ٢٠٦، ٢١٤، ٢٢٥،

٢٣٥، ٢٤٧، ٢٥٩، ٢٦٦، ٢٦٧،

٢٧٠، ٢٨٠، ٢٩٣، ٣٠٣، ٣١٠،

٣٢١، ٣٣٦، ٣٣٥، ٣٤٦، ٣٥٠،

٣٥٢، ٣٥٥، ٣٦٥، ٣٧١، ٣٧٩،

٣٨٠، ٣٨١، ٣٩٩، ٤٠٨، ٤١٨،

٤٣٧، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٥٣، ٤٥٨،

٤٦٥، ٤٧٨، ٤٩٣، ٥٠٣، ٥٠٤،

٥١٢، ٥١٥، ٥٢٢، ٥٣٠، ٥٤٣،

٥٤٧، ٥٤٨، ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٦٣،

٥٦٥، ٥٦٦، ٥٨٠، ٥٩١، ٦٠٠،

٦٣٢، ٦٤٦، ٦٧٧، ٦٨٩، ٦٩١،

٦٩٣، ٦٩٥، ٦٩٧، ٦٩٩، ٧٠١،

٧٠٣، ٧٠٥

* * *

[٥] فهرس المراكز والمؤسسات الثقافية

- إدارات الجيش والمدارس الحكومية،
مصر: ٤٢٩، ٤٣٢
- الأزهر الشريف: ٢٢، ٨٣، ١٣٣
- الأمانة العامة لجامعة الدول العربية: ٣٢١
- الجامع الكبير، صنعاء: ٣٩١
- جامعة استنبول: ٣٢٧
- جامعة أكسفورد: ٤٩٩
- جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض:
٢٨، ٣٨٣، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٩٢
- جامعة أم القرى: ١٤، ١٩، ٢٣، ٢٦،
٢٩
- الجامعة الأمريكية، مصر: ٢٢، ٢٩
- جامعة حلوان: ٢٣، ٢٩
- جامعة الدول العربية: ٢٣، ٧٤، ٧٧،
٨٠، ٨٦، ١٠١، ١٣٢، ٢٠٠،
٣٢١، ٤٧٠، ٤٧٥
- جامعة العين، الإمارات: ٧٠٥
- جامعة القاهرة: ٢٢، ٢٣، ١٢٤
- جامعة القرويين، تونس: ١١٣
- جامعة الملك عبد العزيز = جامعة أم القرى
- جامعة الموصل، العراق: ٢٤، ٢٧
- جمعية المعارف، مصر: ٤٦٨، ٥٣٨
- دار العلوم، مصر: ٩، ٢٢، ٢٥، ٧١،
١٢٤، ٣١٧، ٦٩٢
- ديوان الجهادية: ٤٣٢
- ديوان الحربية السلطانية: ٤٣٢
- ديوان المدفعية: ٤٣٢
- رابطة العالم الإسلامي: ٥٧٣
- الزاوية الحمزاوية: ١٠٥، ١٠٤
- الزاوية العياشية: ١٠٥
- الزاوية الناصرية: ١٠٥
- صندوق إحياء التراث الإسلامي: ٥١٦
- قناة أبو ظبي: ٧٠٥
- قناة دبي: ٧٠٥
- قناة الشارقة: ٧٠٥
- كلية الآداب، أنقرة: ٣٢٩
- كلية الآداب، القاهرة: ٧٥
- كلية الدراسات الإسلامية، دبي: ٢٥
- كلية الدراسات العربية، القاهرة: ٢٣
- كلية الشريعة، بمكة: ١٩

- كلية غوردون، السودان: ٦٥
لجنة إحياء الآداب العربية: ١٧٢
لجنة التأليف والترجمة: ٨٨، ١٤٢،
١٥٩، ١٧٣، ٦٠٩
متحف الأوقاف، استنبول: ٣٢٩
المجلس الأعلى للثقافة: ٤٩٩، ٥١٦،
٦١٧، ٦٧٦
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية،
مصر: ٢٥، ٧٥، ٢٤٠
المجلس الثقافي البريطاني، مصر: ٨٨.
المجلس العلمي لإحياء التراث، المدينة
المنورة: ٣٨٣
المجلس الوطني للثقافة: ٣٨٣
مجمع اللغة العربية، الأردن: ٣٩٤
مجمع اللغة العربية، بغداد: ٣٩٤
مجمع اللغة العربية، دمشق: ٢٤، ٢٧،
٢٨، ٢١٦، ٣٠٠، ٣٩٤، ٥٠٨، ٥١٣
مجمع اللغة العربية، القاهرة: ١٤، ٢٣،
٢٤، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٢٠٥، ٣٧٣،
٣٩٤، ٥١١، ٥١٥، ٥٦١، ٦٢٧،
٦٤٩، ٦٧١، ٦٧٧
مدرسة بريتش الفرنسية، مصر: ٨٠
المدرسة الخديوية: ٦٠٤
مدرسة خليل آغا، مصر: ٣٣٣
المدرسة الطبية، بأبي زعبل: ٤٣٢
مدرسة الفنون والصنائع: ٤٣٢
مركز الأبحاث للتاريخ، تركيا: ٣٨١، ٣٣٤
- مركز البحث العلمي و... مكة: ٢٣،
٢٦، ٢٧، ٣٨٣
مركز تحقيق التراث، دار الكتب المصرية:
١٧٤، ١٧٥
مركز جمعة الماجد: ٢٤، ٣٨٣، ٤٢٩،
٤٦٧، ٤٧٠، ٥٤٢
مركز الدراسات والبحوث الإسلامية،
القاهرة: ١٢٤
مسجد السلطان، محمد الفاتح: ٣٣٢
مسجد السليمانية: ٣٢٧، ٣٣٢
المسجد الكبير ببورسة، تركيا: ٣٣٢
مسجد يوسف الصديق، بمصر الجديدة: ٢٤٥
معهد الإسكندرية: ٦٥
المعهد الجامعي الشرقي، نابلي: ٧٦
معهد الدراسات العربية بالجامعة
الأمريكية، القاهرة: ٢٢، ٢٩
معهد الدراسات العربية، جامعة الدول
العربية: ٢٠٠
معهد الشرقيات، استنبول: ٤٧٢
المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة:
٧٥، ٧٨
معهد القاهرة الديني: ٢٢
معهد المخطوطات العربية: ٩، ١٢، ٢٠،
٢٢، ٢٣، ٢٧ - ٢٩، ٧٤، ٧٥
٧٧، ٧٨، ٨٠، ٨٦، ٨٧، ٩٣
٩٤، ١٠١، ١١٢، ١٣١ - ١٣٥
١٦٥، ١٦٦، ٢٣٧، ٣٢١، ٣٢٦

نظارة المعارف العمومية : ١٤٦

وزارة الإرشاد، الكويت : ٨٩ ، ٥٣٨

وزارة الأعلام، الكويت : ٢٥ ، ١٥٥ ،

٣٧٨ ، ٣٨٣ ، ٥١٥

وزارة الأوقاف، الأردن : ٢٤

وزارة الأوقاف، الرباط : ٩٤

وزارة الأوقاف، الكويت : ٣٨٣

وزارة التربية، القاهرة : ٢٣٢ ، ٤٠١

وزارة الثقافة، دمشق : ٤١٤

وزارة الثقافة، القاهرة : ٧٤ ، ٧٥

وزارة المعارف : ١٤٦

وزارة المعارف العثمانية : ٣٢٦ ، ٣٢٨

٣٨٤ ، ٣٩٠ ، ٣٩٣ — ٣٩٥ ، ٤٧٠ ،

٤٧٥ ، ٥١٢

المنظمة الإسلامية للتربية و... ،

المغرب : ٣٧٩ — ٣٨١ ، ٣٨٦

منظمة الأونسكو : ٤٧٦

المنظمة العربية للتربية و... ، جامعة

الدول العربية : ٢٣ ، ٢٩ ، ١٠١ ، ٣٢١ ،

٣٨٠ ، ٣٨٤ ، ٣٩٠ ، ٤٧٠ ، ٥١٢

منظمة المؤتمر الإسلامي : ٣٨١

مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن :

٢٤ ، ٣٢١ ، ٤١٧ ، ٤٧٠ ، ٦٠٣

مؤسسة الكويت للتقدم العلمي : ٢٤ ، ٣٨٣

* * *

[٦] فهرس الخزائن والمكتبات

مكتبات بلغاريا: ٣٢١	خزانة الزاوية الحمزاوية: ١٠٥
مكتبات البوسنة: ٣٢١	خزانة الزاوية العياشية: ١٠٥
مكتبات تركيا: ٩، ٨٧، ١٣٣، ٣٢١، ٣٩٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٩٠، ٣٩١	خزانة الزاوية الناصرية: ١٠٥
مكتبات جمهوريات آسيا الوسطى: ٣٢١	الخزانة العامة، الرباط: ٩٦، ١٠١، ١٠٥، ١١٠، ١١٢، ٣٨٤، ٣٩٤
مكتبات زغرب: ٣٢١	٥١٤، ٣٩٦
مكتبات السعودية: ٩، ١٣٣، ٣٩١	خزانة العزيز بالله: ١٥٨
٣٩٥	خزانة الفاطميين: ١٥٨
مكتبات الشام: ١٣٣	خزانة القرويين، فاس: ٩١، ٩٦، ١٠٤
مكتبات طاجكستان: ٣٢١	١٠٦، ١٠٨ - ١١٣، ٣٩٦، ٥١٢
مكتبات قازقستان: ٣٢١	الخزانة الملكية، الرباط: ١٠١، ١٠٢
مكتبات القاهرة: ١٣٣	١٠٤، ١٠٥، ١١٢، ٦٧٤
مكتبات القدس: ١٣٣، ٣٩٥	خزانة يحيى البرمكي: ١٥٨
مكتبات المغرب: ٩، ٨٧، ١٣٣، ٣٩٠	مكتبات ألبانيا: ٣٢١
٣٩٥، ٣٩١	مكتبات ألمانية: ٣٢١
مكتبات الهند: ٨٧، ١٣٣، ١٦٠، ٣٩٥	مكتبات أذربيجان: ٣٢١
مكتبات والدلة باشا: ٣٢٥	مكتبات إسبانية: ٣٩٠
مكتبات اليمن: ٩، ١٣٣، ٣٩٠، ٣٩١	مكتبات أمريكا: ١٣٣
مكتبة أحمد الثالث، استنبول: ٣٢٤	مكتبات أوروبا: ١٣٣، ٣٢٢، ٣٢٣
٣٢٩	مكتبات أوزبكستان: ٣٢١

مكتبة أدرة: ٣٢٦
 المكتبة الأزهرية: ١٣٣، ١٥٩، ٢٣٨
 مكتبة أسعد أفندي، استنبول: ٣٢٥
 مكتبة الأسكوريال، إسبانيا: ١٠٧
 مكتبة إسكي شهر، استنبول: ٣٢٦
 مكتبة أسماخان، استنبول: ٣٢٥
 مكتبة إسماعيل صائب، أنقرة: ٥١٤، ٣٢٥
 مكتبة أماسية، استنبول: ٣٢٦
 مكتبة الإمبروزيانا، ميلانو: ٩٦، ٣٩١
 المكتبة الأهلية، باريس: ٩٦
 مكتبة بايزيد، استنبول: ٣٢٤، ٣٢٩
 مكتبة برتونيال، استنبول: ٣٢٥
 مكتبة بغداد كشك، استنبول: ٣٢٧
 مكتبة البلدية، استنبول: ٣٢٧
 مكتبة البلدية، الإسكندرية: ١٣٣
 مكتبة بورسة، استنبول: ٣٢٦، ٣٢٧
 المكتبة التيمورية: ١٠١، ١١٠، ٢٣٣
 مكتبة الجامع الكبير، صنعاء: ٣٩١
 مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض: ٢٨
 مكتبة جامعة استنبول: ٣٢٧
 مكتبة الجلاوي: ١٠٥
 مكتبة جلنوش: ٣٢٥
 مكتبة جوروم، الأناضول: ٣٣٠
 مكتبة الحجاوي: ١٠٥
 مكتبة دمياط: ١٣٣
 مكتبة ديرسانت كاترين، سيناء: ٧٥
 مكتبة راغب باشا عثمان: ٣٢٤
 مكتبة السلطان محمد الفاتح: ٣٢٤، ٣٢٩
 مكتبة سليم آغا، أسكودار: ٣٢٧
 المكتبة السليمانية: ٣٢٤، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣١
 المكتبة السليمية الوطنية: ٣٢٤
 مكتبة سمسون: ٣٢٦
 مكتبة سوهاج: ١٣٣
 مكتبة شهيد باشا عثمان: ٣٢٤
 مكتبة شيخ مراد أفندي: ٣٢٥
 مكتبة صالحة خاتون: ٣٢٥
 مكتبة طاجكستان: ٣٢١
 مكتبة طرخان: ٣٢٥
 مكتبة طنطا: ١٣٣
 مكتبة طويقوسراي = مكتبة بورسة
 مكتبة عاشر أفندي: ٣٢٥
 مكتبة عاطف أفندي: ٣٢٥
 مكتبة العرب، القاهرة: ٤٧٥، ٤٧٦
 مكتبة علي أميري أفندي: ٣٢٥
 المكتبة العامة، تطوان: ١٠١، ١١٢
 المكتبة العامة، فاس: ١٠١
 المكتبة العامة، مراكش: ١٠١
 المكتبة العامة، مكناس: ١٠١
 مكتبة فيض الله أفندي، استنبول: ٥١٣، ٣٢٥
 مكتبة قازقستان: ٣٢١

٧٩٦

المكتبة المحمودية، المدينة المنورة: ١١٠

مكتبة مراد ملا، استنبول: ٣٢٦، ٣٢٥

المكتبة المولوية، السيوفية: ٣٣٤

مكتبة النجف الأشرف: ٥١٥

مكتبة نور عثمانية: ٣٢٧

مكتبة ولي الدين أفندي: ٣٢٨، ٣٢٥

مكتبة وهبي أفندي: ٣٢٥

مكتبة قونية: ٣٢٩، ٣٢٦

مكتبة قيسارية: ٣٢٦

المكتبة الكتانية: ١٠٥، ٣٩٤

مكتبة كلية الآداب، أنقرة: ٣٢٩

مكتبة كوبريلي باشا، استنبول: ٣٢٤،

٣٢٩

مكتبة كوناهايه: ٣٢٦



[٧] فهرس دور الطباعة والنشر

- دائرة المعارف العثمانية، بحيدرآباد
الدكن، الهند: ١٦٠، ١٧٥
- دار الاعتصام، مصر: ١٣٥
- دار التراث، بيروت: ٦٨
- الدار الشامية، بيروت: ٢١٣
- دار الشروق: ٦١٠، ٦٢١، ٦٢٢
- دار صادر، بيروت: ١٨٣، ١٨٤
- دار العلم للملايين، بيروت: ٣٧٦
- دار الغرب الإسلامي، بيروت: ٢٨، ٥٩٧
- دار القلم، دمشق: ٢١٣
- دار الكتب المصرية: ٢٣، ٢٨، ٢٩، ٧٠،
٧١، ٧٣ - ٧٥، ٧٧، ٨٠، ٨٢،
١٠١، ١٠٤، ١٠٨، ١١٠، ١٢٨،
١٣٣، ١٥٩، (١٧٠ - ١٧٦)، ٢٣٧،
٢٣٨، ٢٦٢، ٣٠١، ٣٣٤، ٣٣٥،
٣٥٠، ٣٧٦، ٣٨٤، ٣٩٤، ٣٩٥،
٤٠٠، ٤٢٦، ٤٧٢، ٤٧٥، ٤٨١،
٥٠٠، ٥٠٧، ٥١٣، ٥١٥، ٥٨٠،
٥٩٦، ٦١٧، ٦٦٤، ٦٧٦
- الدار المصرية للتأليف والترجمة، والنشر:
٣٨٥
- دار المعارف، مصر: ١٠٩، ١٣٣،
١٣٤، ١٧٣، ١٨٣، ١٨٤، ٢٤١،
٢٩٤، ٤٩٤، ٤٦٨، ٥١٣، ٥٥١،
٦٢٧
- دار المنارة، جدة: ٥٩١
- دار هجر، القاهرة: ٢٥
- دار الهلال، مصر: ٢٤، ٢٧، ٢٨،
٣٥٠، ٥٤٨
- الشركة الخيرية لنشر الكتب العلمية
والإسلامية: ٢١١
- شركة الطبع السورية: ٤٦٨
- الشركة المصرية العالمية للنشر،
لونجمان: ٢٤٩
- مطابع الآستانة: ١٥٩، ٤٧١، ٦٦١
- مطابع إدارات الجيش والمدارس
الحكومية، مصر: ٤٢٩، ٤٣٢
- مطابع استنبول: ١٦٠، ٢١٢
- مطابع ألمانيا: ٨٥، ١٥٩
- المطابع الأهلية: ١٢٧، ١٥٩، ١٧٢،
٤٢٩، ٤٣٢، ٤٧٢، ٦٦٢
- مطابع أوروبا: ١٥٨، ١٥٩

مطبعة الجوائب، استنبول: ١٥٩، ٣٦٧
 مطبعة جوتنجن، ألمانيا: ٨٥، ١٥٩
 مطبعة الجمالية، مصر: ١٥٩، ١٧٢،
 ٤٣٢، ٣٧٨
 مطبعة جمعية المعارف، استنبول: ١٥٩
 مطبعة حسام الدين: ٦٧٢
 مطبعة حلب: ٥٤١
 مطبعة حيدرآباد الدكن: ١٦٠، ١٧٥،
 ٢٩٤
 مطبعة الخانجي: ٢٦، ٢٧، ٦٧٢
 مطبعة الخشاب: ٨٤، ٦٧٢
 المطبعة الخيرية: ١٥٩، ٥٣٨
 مطبعة درب الجماميز (بورسعيد): ٤٣٢،
 ٥٥٠
 مطبعة درب سعادة، مصر: ٤٣٣
 مطبعة دلهي: ١٦١
 مطبعة ديوان الجهادية: ٤٣٢
 مطبعة ديوان الحربية: ٤٣٢
 مطبعة ديوان المدفعية: ٤٣٢
 مطبعة الرحمانية، مصر: ١٥٩، ٥٠٤
 مطبعة روما: ١٥٩، ٤٧١، ٥٤١
 مطبعة السعادة: ١٥٩
 المطبعة السلفية، مصر: ١٩٤
 مطبعة السنة المحمدية، القاهرة: ٢٥،
 ٦٦٣
 مطبعة شارع حسن الأكبر، مصر: ٤٣٢
 مطبعة شارع الحسين، مصر: ٤٣٣

مطابع إيطاليا: ١٥٨
 مطابع باب الخلق، مصر: ٢٣٢، ٥٥٠،
 ٥٥٢
 مطابع باريس: ١٥٩
 مطابع الشام: ١٦١
 مطابع العراق: ١٦١
 مطابع لبنان: ٦٦١
 مطابع لندن: ١٥٩
 مطابع مصر: ١٦٠، ٢١٢
 مطابع الهند: ١٦٠
 مطبعة آل مدتشي: ٥٤١
 مطبعة الأزبكية: ٤٣٢، ٥٥٠
 مطبعة الأزهر: ٤٣٣، ٥٥٠
 المطبعة الأميرية = مطبعة بولاق
 المطبعة الأهلية مصر: ٢١٠، ١٨٨،
 ٤٧٩، ٥٤٠
 المطبعة الأهلية القبطية: ٦٦٢
 مطبعة باب الشعرية: ٤٣٢
 مطبعة برلين: ١٥٩، ٣٨٨
 مطبعة بطرسبورج: ١٥٩
 مطبعة بولاق، مصر: ١٢٧، ١٥٩،
 ١٧٢، ١٧٣، ١٨٣، ١٨٨، ٢١٠،
 ٢١١، ٣٠٨، ٣٧٨، ٤٢٩، ٤٣٣،
 ٤٦٩، ٤٧١، ٤٧٣، ٤٨١، ٥٣٩،
 ٥٤٠، ٥٤٢، ٥٥٠، ٦٦١ — ٦٦٤،
 ٦٧٢
 المطبعة التجارية: ١٥٩، ٢٣٣

مطبعة ليزج : ١٥٩
 مطبعة ليدن : ١٠٧ ، ١٥٩
 مطبعة المدرسة الطبية ، بأبي زعبل : ٤٣٢
 مطبعة مدرسة الفنون والصنائع ، مصر :
 ٤٣٢
 مطبعة المدني ، مصر : ٢٦ ، ٥١٢
 مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية : ٧٨
 المطبعة الملكية ، مصر : ٢٣٩
 المطبعة المملوكية : ٧٠
 مطبعة المنار : ١٥٩
 مطبعة المنيرية : ١٥٩
 مطبعة المهندسخانة الخديوية ، مصر :
 ٤٣٢
 مطبعة الموسوعات ، مصر : ٤٧٢
 المطبعة الميمية : ١٥٩
 المكتب الإسلامي : ٢٣٣
 المكتبة التجارية = المطبعة التجارية
 المكتبة الحجازية بالإسكندرية : ١٣
 مكتبة خانجي = مطبعة خانجي
 المكتبة الزكية : ١٧١ ، ٣٧١ ، ٣٩٥
 مكتبة المثنى ، بغداد : ٧٨
 مؤسسة الأهرام ، مصر : ١٣٥
 مؤسسة الرسالة ، بيروت : ٢١٢ ، ٣٧٧ ،
 ٥١٥
 الهيئة المصرية العامة للكتاب : ١٣٤

مطبعة شارع الخرنفش ، مصر : ٤٣٣
 مطبعة شارع الدراسة ، مصر : ٤٣٣
 مطبعة شارع عبد العزيز ، مصر : ٤٣٣
 مطبعة شارع محمد علي ، مصر : ٤٣٢
 مطبعة شارع الموسكي ، مصر : ٤٣٣
 مطبعة الشرفية ، مصر : ١٥٩
 مطبعة الشعب ، مصر : ٤٧٢
 مطبعة الشمري : ٢٣٩
 مطبعة صبيح : ١٥٩
 مطبعة الصناديق : ٢٤٥
 مطبعة طهران : ٥١٥
 مطبعة الظاهر : ٥٥٠
 مطبعة عابدين ، مصر : ٤٣٣ ، ٥٥٠
 المطبعة العامرة ، استنبول : ١٥٩
 المطبعة العثمانية : ١٥٩
 المطبعة العربية ، لاهور : ٥١٤
 مطبعة عيسى البابي الحلبي : ٢٥ ، ٢٧ ،
 ٨٤ ، ١٣٣ ، ٢٣٩ ، ٣٨٢ ، ٥١٥ ،
 ٦٧٢ ، ٥٥١
 مطبعة فانو ، إيطاليا : ٤٧١
 مطبعة الفجالة ، مصر : ٤٣٢ ، ٥٥٠
 مطبعة فينا : ١٥٩ ، ٥١٠
 مطبعة الكاستليه : ١٥٩
 مطبعة كردستان العلمية : ١٥٩
 مطبعة كلكتا : ١٦١
 مطبعة لجنة التأليف والترجمة : ٢٢٧

* * *

المشاع

عفا الله عنه

[٨] فهرس الموضوعات

الصفحة

الموضوع

فهرس المجلد الأول

- * مقدمة ٥
- * الطناحي ورحلته مع التراث العربي، (بقلم د. عبد الله محارب) ٩
- فضل الرواد ١٠
- خدمة التراث ١٢
- وفائه وتواضعه ١٣
- علمه وفضله ١٥
- زينة المجالس ١٧
- * من ذكريات الدكتور الطناحي في مكة ١٩
- * السيرة الذاتية للأستاذ الدكتور محمود الطناحي ٢٢
- الولادة والنشأة وطلب العلم ٢٢
- النشاط العلمي ٢٣
- الإنتاج العلمي ٢٥
- الأعمال الوظيفية ٢٩
- * نماذج من رسائل العلماء إليه، ومن خطه رحمه الله ٣١

المقالات

- * ابن السبكي، علم وإصلاح ٤٧
- * طبقات الفقهاء الشافعية، (تأليف أبو عاصم محمد العبّادي) ٥٣
- * أحمد محمد شاكر ٦٥

٦٥	— ولادته ونشأته وعلمه
٦٧	— أعماله العلمية
٧٠	* فؤاد سيّد . . العالم الذي فقدناه
٧٥	— رحلاته العلمية
٧٦	— آثاره العلمية
٨٣	* رشاد عبد المطلب . . . والديار التي خلت
٨٨	— إنتاجه العلمي
٩٠	* التراث العربي في المغرب . . . وقضية التواصل بين المشرق والمغرب
١٠١	— المكتبات العامة والخاصة في المغرب
١١٨	* عينية ابن زريق
١٢٤	* التحقيق
١٢٧	— المراحل التي مر بها التحقيق في العالم العربي
١٣١	* محمد مرسي الخولي . . . والبنيان الذي تهدم
	* صبيحة من أجل اللغة العربية . . .
١٣٦	هل يتحول التراث العربي إلى ألغاز وطلاسم؟!
١٣٧	— عود على بدء
١٤٠	— جيل المتون
١٤٣	— الضوابط الراسخة
١٤٧	* الحفظ وأثره في ضبط قوانين العربية
١٤٩	— تراثنا قائم على الرواية
١٥١	— حفظ كلام العرب
١٥٢	— هل الحفظ مطلوب؟
١٥٥	— أمثلة من القرآن حول أهمية الضبط
١٥٨	* حلقات مفقودة في تراثنا المطبوع
١٥٩	— أشهر المطابع
١٦٠	— خمسة كتب في كتاب واحد

١٦١	— الوفاء لثرائنا
١٦٣	— أهمية المكتبة العربية
١٦٦	— حلقات مفقودة
١٦٧	— مخطوطات تاريخية كثيرة
١٦٨	— أشهر مخطوطة شعرية
١٧٠	* دار الكتب . . . ونشر التراث في مصر
١٧١	— المكتبة الزكية
١٧٣	— عناية بالتراث
١٧٧	* لسان العرب (لابن منظور)
١٧٨	— التصنيف والتدوين
١٨٠	— غير ابن منظور على العربية
١٨١	— الأدب سبيل المعرفة
١٨٣	— طبقات اللسان
١٨٤	— عمل غير صالح
١٨٧	* الشيخ مصطفى إسماعيل وقراء مصر
١٨٩	— نعمة من الله
١٩٠	— أولى خطوات الشيخ مصطفى
١٩٢	— حسد الحاسدين
١٩٣	— تسجيلات نادرة
١٩٣	— من خصائص صوت الشيخ مصطفى إسماعيل
١٩٦	* التصحيح اللغوي . . . وضرورة التحري
١٩٨	— قضية لغوية
٢٠١	— لغة الجرائد
٢٠٢	— نماذج
٢٠٦	* الكتب الصفراء . . والحضارة العربية
٢١٤	* النحو . . والشعراء

٢١٥	— في قلب الحركة الشعرية
٢١٦	— تقعيد القواعد
٢١٧	— علم التوجيه النحوي ودوره
٢١٨	— الضيق بالنحو
٢٢٠	— الضرورة الشعرية لا تبرر الخروج عن السنن العربية
٢٢١	— القراءات الشاذة
٢٢٣	— رجاء صادق
٢٢٥	* العامة .. وقراءة التراث
٢٢٧	— هارون الرشيد وصور شائئة
٢٣٠	— أبو نواس .. صفحة مضيئة
٢٣٥	* إقراء القرآن بمصر (وترجمة للشيخ عامر عثمان)
٢٣٧	— الشيخ عامر عثمان
٢٣٨	— حلقة للإقراء بالأزهر
٢٤٠	— مؤلفات الشيخ عامر
٢٤٤	— نور القرآن
٢٤٥	— تلاميذ الشيخ في كل مكان
٢٤٧	* قصيدة نادرة في المديح النبوي
٢٥٠	— قصيدة العباس بن عبد المطلب
٢٥٣	— بحر القصيدة
٢٥٤	— شرح القصيدة وتحليلها
٢٥٩	* مع بداية العام الدراسي الجديد .. من يقرأ هذه الكتب
٢٦١	— الجاحظ والعربية
٢٦٣	— رموز التنوير
٢٦٥	— كلام ليس من كلامنا
٢٧٠	* من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن
٢٧٣	— هذا الكتاب

* الشيخ الشعراوي... واللغة	٢٨٠
— العناية باللغة	٢٨١
— الشيخ وعلوم القرآن	٢٨٦
— الشيخ وإنشاد الشعر	٢٨٨
* الهجرة وكتابة التاريخ الإسلامي [١]	٢٩٣
— كتب التاريخ نصف الكتب العربية	٢٩٥
— مناهج كتب التراجم	٢٩٦
— كتاب واحد	٣٠٠
* الهجرة وكتابة التاريخ الإسلامي [٢]	٣٠٣
— الهجوم على التاريخ والمؤرخين	٣٠٥
* الجامعة المصرية إلى أين؟ الكتاب الجامعي والطريق الصحيح	٣١٠
— الرأي الجامعي	٣١٢
— الحاجة الملحة للمعلم	٣١٥
* تركيا... والمخطوطات العربية	٣٢١
— نشاط علمي وثقافي	٣٢٤
— حفظ العلم	٣٢٥
— لفظ الجلالة	٣٣٢
* في كم يُتلى القرآن؟	٣٣٦
* البيان... والطريق المهجور [١]	٣٤٦
— البارودي... والمرصفي	٣٤٩
— حسن البيان	٣٥٢
* البيان والطريق المهجور [٢]	٣٥٥
— حسن البيان	٣٥٩
— بين الدعابة والسخرية	٣٦٠
* المعاجم اللغوية... والهجوم الذي لا ينتهي	٣٦٥
— نقد المعاجم العربية	٣٦٧

٣٦٩	— أغزر المعاجم اللغوية
٣٧٢	— نحن والفهارس
٢٧٩	* الكتاب .. والتواصل العلمي
٣٨١	— التعريف بالتراث الإسلامي
٣٨٤	— أهمية إيداع المطبوعات
٣٨٧	* المتنبي .. وعلم المخطوطات
٣٨٨	— مخطوطة نفيسة
٣٩٠	— حاجتنا إلى المخطوطات
٣٩٢	— ماذا عن علم المخطوطات
٣٩٣	— مسار التأليف العربي
٣٩٥	— علماء المخطوطات

* * *

فهرس المجلد الثاني

٣٩٩	* هذه النقطة .. وقضية التصحيف والتحريف
٤٠٣	— التصحيف .. تغيير التنقيط
٤٠٨	* السيرة الذاتية .. والصدق مع النفس [١]
٤٠٩	— مثل قديم
٤١٣	— الجزئي دون الكلي
٤١٦	— صحة العقل
٤١٨	* السيرة الذاتية .. والصدق مع النفس [٢]
٤٢٠	— الصراحة الكاشفة
٤٢٩	* من حصاد الندوات : أولية الطباعة العربية في مصر
٤٣٠	— مطبعة بولاق
٤٣٢	— مطابع إدارات الجيش ، المطابع الأهلية
٤٣٤	* محمود محمد شاكر .. والتكريم المستحق

- * النحو العربي . . . والحمى المستباح [١] ٤٣٧
- كتاب سيبويه والقياس ٤٣٨
- مقتضى المعنى وحق الإعراب ٤٤١
- وجهان للفعل الواحد ٤٤٢
- اللغة ليست هي النحو ٤٤٦
- الفرق بين الرفع والنصب ٤٤٧
- ضعف الحجة ٤٤٩
- مظاهر الاهتمام بالنحو ٤٥٢
- * النحو العربي . . . والحمى المستباح [٢] ٤٥٣
- الاستشهاد بالشعر ٤٥٥
- كلام فظيع جدًا ٤٥٦
- اختلاف الألسنة ٤٥٨
- تعمق مذهب النحاة ٤٥٩
- هجوم وازدراء ٤٦١
- * هل أدلكم على تجارة؟ ٤٦٧
- نهر العطاء، تفاصيل المشروع ٤٧٠
- غياب الكتاب العربي، مكتبة العرب ٤٧٤
- * محمود محمد شاكر . . . ومنهجه في تحقيق التراث ٤٧٨
- أعلام في ميدان التحقيق ٤٧٩
- أصل في علم البلاغة ٤٨٢
- الشيخ واللغة ٤٨٣
- تصحيح الكلام ٤٨٦
- تصحيح رواية الشعر ٤٨٨
- * دراسة في مصادر الأدب (للدكتور الطاهر أحمد مكي) [١] ٤٩٣
- الحضارة العربية ٤٩٨
- مواضع للنقد ٥٠١

* دراسة في مصادر الأدب (للدكتور الطاهر أحمد مكي) [٢]	٥٠٣
— السند المتصل	٥٠٤
— مناقشات مهمة	٥٠٨
* الشيخ محمود شاكر.. وتاريخ ضخمة	٥١٧
* الشيخ محمود شاكر.. والديار التي خلت	٥٢٠
* أجمل كتاب في حياتي: «البيان والتبيين» للجاحظ	٥٢٢
— أسس حضارة فتيّة	٥٢٣
— التصاق الفن بالنفس	٥٢٦
— ترك الأستاذ على جهله	٥٢٧
— كتاب شامل للحضارة العربية	٥٣٠
* أي شلال هادر توقّف (عن محمود شاكر)	٥٣٢
* تاج العروس.. والزمن البعيد	٥٣٧
* مطبعة للمنشورات.. وليست للثقافة	٥٤٠
* كمال النجمي.. والثغور التي تتساقط	٥٤٣
* الناشرون الأوائل.. وسماحة مصر	٥٥٠
* الآي تترى	٥٥٢
* الشيخ الشعراوي.. والموازن الصحيحة	٥٦٣
— من أي بئر يستقي	٥٦٤
— فهم النص واستيعابه	٥٦٨
— مبالغات	٥٦٩
— لم يعاد يوسف إدريس	٥٧٢
— موقف غريب	٥٧٧
* الشيخ الشعراوي.. والفتنة بما يقوله الكبار	٥٧٩
— أنوار اليقين	٥٨١
— صنعة أم صبغة	٥٨٢
— حفظ القرآن	٥٨٤

٥٩٠	— قراءات ربانية
٥٩١	* ذيل الأعلام .. ومغالبة الهوى (لأحمد العلاونة)
٥٩٢	— مآخذ على الزركلي
٥٩٤	— إنكار حرب رمضان وشماته لا تليق
٥٩٥	— سقطات
٥٩٦	— ملاحظات تفصيلية
٦٠٣	* محمود محمد شاكر .. ركن باذخ
٦٠٨	* محمود محمد شاكر .. والسَّهام الطائشة
٦٣٢	* القرآن الكريم .. وتفسير العوام
٦٣٣	— فقه التفسير
٦٣٥	— غاية دينية
٦٣٧	— تفسير العوام
٦٤٦	* علي الجارم .. لغويًا ونحويًا
٦٤٨	— الجارم لغويًا ونحويًا
٦٦٠	* تراثنا .. رحلة شاقة شيقية
٦٦١	— مراحل النشر
٦٦١	— مرحلة مطبعة بولاق
٦٦٣	— مرحلة الناشرين النابهين
٦٦٤	— مرحلة دار الكتب المصرية
٦٦٥	— مرحلة الأفذاذ من الرجال
٦٦٧	* بنت الشاطيء .. وتحقيق التراث
٦٦٨	— هل هو علم الرجال
٦٧١	— مرحلة النشر العلمي
٦٧٣	— الإرث العظيم
٦٧٧	* الرسائل الجامعية .. وساعة ثم تنقضي
٦٧٩	— حديث عجيب

— لا يجوز	٦٨٣
* مقالات قصيرة بعنوان: الكلمة الأخيرة	٦٧٧
— المؤتمرات العلمية .. والنغمة المكرورة	٦٨٩
— الجزار الثالث	٦٩١
— العامية في مهرجان أمير البيان	٦٩٣
— ما المسؤول عنها بأعلم من السائل	٦٩٥
— أبي يغزو .. وأمي تحدث	٦٩٧
— الندواتية	٦٩٩
— موائد الرحمن	٧٠١
— جلال معوض .. وزمن الورد	٧٠٣
— زاحم يعود أو فدع	٧٠٥
* الفهارس العامة:	٧٠٧
— فهرس الآيات القرآنية	٧٠٩
— فهرس الأحاديث النبوية	٧١٨
— فهرس الأعلام	٧٢١
— فهرس الكتب والدوريات	٧٦٠
— فهرس المراكز والمؤسسات الثقافية	٧٩٢
— فهرس الخزائن والمكتبات	٧٩٥
— فهرس دور الطباعة والنشر	٨٩٨
— فهرس الموضوعات	٨٠١

* * *